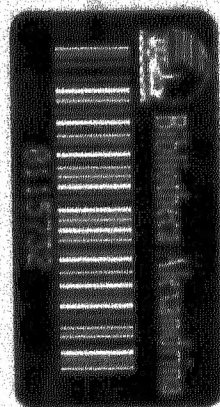


المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف
الدكتور جواد علي

الجزء الأول



انفصیل
نے
تاریخ العرب قبل الاسلام

المفصل
في
تاريخ العرب قبل الإسلام

تأليف
الدكتور هبّارة علي

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الجزء الأول

○ الطبعة الثانية ○

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وهو في الواقع كتاب جديد ، يختلف عن كتابي السابق الذي ظهرت منه ثمانية أجزاء . يختلف عنه في إنشائه ، وفي تبويبه وترتيبه ، وفي كثير من مادته أيضاً ، فقد ضمته مادة جديدة ، خلا منها الكتاب السابق ، تهيأت لي من قراءاتي لكتابات جاهلية عُثر عليها بعد نشر ما نشرت منه ، ومن صور كتابات أو ترجاها أو نصوصها لم تكن قد نشرت من قبل ، ومن مراجعاتي لموارد نادرة لم يسبق للحظ أن سعد بالظفر بها أو الوقوف عليها ، ومن كتب ظهرت حديثاً بعد نشر هذه الأجزاء ، فرأيت لإضافتها كلها الى معارفي السابقة التي جسدتها في ذلك الكتاب .

وقد رأى أستاذي العالم الفاضل السيد محمد بهجت الأثري تسميته : « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » ، لما فيه من تفصيل لم يرد في الكتاب السابق ، فوجدت في اقتراحه رأياً صائباً ينطبق كل الانطباق على ما جاء فيه ، فسميته بما سماه به ، مقدماً إليه شكري الجزيل على هذا التوجيه الجميل .

وكتابي هذان ، هما عمل فرد عليه جمع المادة بنفسه ، والسهر في تحريرها وتحريرها ، وعليه الإنفاق من ماله الخاص على شراء موارد غير متيسرة في بلاده ، أو ليس في استطاعته مراجعتها بسبب القيود المفروضة على إعارة الكتب ، أو لاعتبارات أخرى ، ثم عليه البحث عن ناشر يوافق على نشر الكتاب ، ثم عليه تصحيح المسودات بنفسه بعد نجاحه في الحصول على ناشر ، الى غير ذلك من أمور تسلبه راحته وتستبد به وتضنيه . ولولا الولع الذي يتحكم في المؤلفين في هذه البلاد ، لما أقدم انسان على تأليف كتاب .

وإن عملاً يتم بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة ، لا يمكن أن يرضي المؤلف أو يسعده ، لأنه عمل يعتقد أنه مهما انفق فيه من جهد و طاقة واجتهاد ، فلن يكون على الشكل الذي يتوخاه أو يريده ، والصورة التي رسمها في فكره وتصورها له . ولولا طمع المؤلف في كرم القراء بتبرعهم في تقويم عوجه وإصلاح أغلاطه وإرشاده الى خير السبل المؤدية الى التقويم والإصلاح ، ولولا اعتقاده أن في التردد أو الاحجام سلبية لا تنفع ، بل إن فيها ضرراً ، وان كتاباً يؤلف وينشر على ما يجمع من عيوب ونقائص خير من لا شيء ، أقول: لولا هذه الاعتبارات لما "تجرات" ، فأخرجت كتاباً وعددتني مؤلفاً من المؤلفين .

وأنا إذ أقول هذا القول وأثبتته ، لا أريد أن أكون مرائياً لا بساً ثوب التواضع لأنظاها به على شاكلة كثير من المرائين . وإنما أقول ذلك حقاً وصدقاً ، فأنا رجل أعتقد أن الانسان مهما حاول أن يتعلم ، فانه يبقى الى خاتمة حياته جاهلاً ، كل ما يصل اليه من العلم هو نقطة من بحر لا ساحل له . ثم اني ما زلت أشعر أنني طالب علم ، كلما ظننت أنني انتهيت من موضوع ، وفرحت بانتهائي منه ، أدرك بعد قليل أن هناك علماً كثيراً فأنني ، وموارد جمة لم أتمكن من الظفر بها ، فأتذكر الحكمة القديمة « العجلة من الشيطان » .

وقد رأيت في هذا الكتاب شأني في الكتاب السابق، ألا انصّب نفسي حاكماً تكون وظيفته اصدار أحكام قاطعة ، وابداء آراء في حوادث تاريخية مضى زمن طويل عليها ، بل أكتفي بوصف الحادث وتحليله كما يبدو لي . وقد لا تعجب طريقي هذه كثيراً من القراء ، وعذري أنني لا أكتب لإرضاء الناس ، ولا أدون لشراء العواطف ، وإنما أكتب ما أعتقد وأراه بحسب علمي وتحقيقي ، والرأي عندي أن التاريخ تحليل ووصف لما وقع ويقع ، وعلى المؤرخ أن يجهد نفسه كل الإجهاد للإحاطة به ، بالتفتيش عن كل ما ورد عنه ، ومناقشة ذلك مناقشة تمحيص ونقد عميقين ، ثم تدوين ما يتوصل اليه بجده واجتهاده تدويناً صادقاً على نحو ما ظهر له وما شعر به، متجنباً إبداء الأحكام والآراء الشخصية القاطعة على قدر الاستطاعة .

لقد قلت في مقدمة الجزء الأول من كتابي السابق : « والكتاب بحث ، أردت جهد طاقتي أن يكون تفصيلياً ، وقد يعاب عليّ ذلك ، وعذري في هذا

التفصيل أنني أريد تمهيد الجادة لمن يأتي بعدي فيرغب في التأليف في هذا الموضوع ، وأنني أكتب للمتبعين والمتخصصين ، ومن حق هؤلاء المطالبة بالزيد . وقد فعلت في هذا الكتاب ما فعلته في الأجزاء الثمانية من الكتاب السابق من تفصي كل ما يرد عن موضوع من الموضوعات في الكتابات وفي الموارد الأخرى ، وتسجيله وتدوينه ، ليقدم للقارئ أشمل بحث وأجمع مادة في موضوع يطلبه ، لأن غايتي من هذا الكتاب أن يكون « موسوعة » في الجاهلية والجاهليين ، لا أدع شيئاً عنها أو عنهم إلا ذكرته في محله ، ليكون تحت متناول يد القارئ . فكتابي هذا وذاك هما للمتخصصين وللباحثين الذين يطعمون في الوقوف على حياة الجاهلية بصورة تفصيلية ، ولم يكتبها للذين يريدون الإمام بأشياء مجملة عن تلك الحياة .

والكتاب لذلك سيخرج في أجزاء ، لا أستطيع تحديد عددها الآن ، ولكني أقول بكل تأكيد أنها ستزيد على العشرة ، وأنها ستتناول كل نواحي الحياة عند الجاهليين : من سياسية ، واجتماعية ، ودينية ، وعلمية ، وأدبية ، وفنية ، وتشريعية .

لقد أشار عليّ بعض الأصدقاء أن أدخل في العرب كل الساميين ، وأن أتحدث عنهم في كتابي هذا كما أتحدث عن العرب ، لأن وطن الساميين الأول هو جزيرة العرب ، ومنه هاجروا الى الأماكن المعروفة التي استقروا فيها ، فهم في ذلك مثل القبائل العربية التي تركت بلاد العرب ، واستقرت في العراق وفي بادية الشام وبلاد الشام ، لا يختلفون عنهم في شيء . ثم قالوا : فإذا كنت قد تحدثت عن تلك القبائل المهاجرة على أنها قبائل عربية ، فلم تسكت عن أولئك الساميين ، ولم تجعلهم من العرب ؟

وجوابي أن القبائل العربية المهاجرة هي قبائل معروفة الأصل وقد نصت الكتابات والموارد الأخرى على عروبتهما ، ونسبت نفسها الى جزيرة العرب ، ولهجاتها لهجات عربية ، لا ريب في ذلك ولا نزاع ، وثقافتها عربية . أما الشعوب السامية ، فليس بين العلماء كما سئري ، اتفاق على وطنها الأول ، وليس بينها شعب واحد نسب نفسه الى العرب ، وليس في الموارد التاريخية الواصلة إلينا مورد واحد يشير الى أنها عربية ، ولهجاتها وان اشتركت كلها في أمور ،

فإنها تختلف أيضاً في أمور كثيرة ، هي أكثر من مواطن الاشتراك والالتقاء .
ففرق " كبير اذن بين هذه الشعوب وبين القبائل العربية من حيث العروبة . ثم ان
العروبة في نظري ليس بها حاجة الى ضم هذه الشعوب اليها ، لاثبات أنها ذات
أصل تؤول اليه ، فقد أعطى الله تلك الشعوب تأريخاً ثم محاه عنهم ، وأعطى
العرب تأريخاً أينع في القديم واستمر حتى اليوم ، ثم إن لهم من الحضارة الاسلامية
ما يغنيهم عن التفتيش عن مجد غيرهم وعن تركاتهم ، لإضافتها اليهم . فليس
في العرب مركب نقص حتى نضيف اليهم من لم يثبت أنهم منهم ، لمجرد أنهم
كانوا أصحاب حضارة وثقافة ، وأن جماعة من العلماء ترى أنهم كانوا من جزيرة
العرب . والرأي عندي أن العرب لو نبشوا تربة اليمن وبقية التراب لما احتاجوا
الى دعوة من يدعو الى هذا الترقيع . فأنا من أجل هذا لا أستطيع ان أضم أحداً
من هؤلاء الى الأسرة العربية بالمعنى الاصطلاحي المعروف المفهوم ، من لفظة العرب
عندنا ، إلا اذا توافرت الأدلة ، وثبت بالنص أنهم من العرب حقاً ، وأنهم
كانوا في جزيرة العرب حقاً .

نعم ، لقد قلت إن مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح يمكن اطلاقه
على تلك الشعوب ، وإن الزمان قد حان لاستبدال مصطلح «عربي» و «عربية»
بـ « سامي » و « سامية » ، وقلت أشياء أخرى شرحتها في الجزء الثاني من
الكتاب السابق في تعليل ترجيح هذه التسمية^١ . ولكنني لم أقصد ولن أقصد أن
تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية
وحدة ثقافية ، اصطلاح عليها اصطلاحاً ، والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط
دموية وتاريخية ، وبين المفهومين فرق كبير .

إن مما يثير الأسف والله في النفوس ان نرى الغربيين يعنون بتاريخ الجاهلية
ويجدون في البحث عنه والكشف عن مخلفاته وتركاته في باطن الأرض ، ونشره
بلغاتهم ، ولا نرى حكوماتنا العربية ولا سبياً حكومات جزيرة العرب ، إلا منصرفه
عنه ، لا تعنى بالآثار العناية اللازمة لها ، ولا تسأل الخبراء رسمياً وباسمها البحث
عن العاديات والتنقيب في الخرائب الجاهلية لاستخراج ما فيها من كنوز ، وجمعها
في دار للمحافظة عليها ولاطلاع الناس عليها . وقد يكون عذر هذه الحكومات

أن الناس هناك ينظرون الى التماثيل نظرهم الى الأصنام والأوثان ، والى استخراج الآثار والتنقيب عن العاديات نظرهم الى بعث الوثنية واحياء معالم الشرك ، وهي من أجل هذا تخشى الرأي العام ، ولاني على كل حال أرجو أن تزول هذه الأحوال في المستقبل القريب ، وأن يدرك عرب الجزيرة أهمية الآثار في الكشف عن تاريخ هذه الأمة العربية القديم .

كذلك أرجو أن تتبہ حكومات جزيرة العرب لأهمية موضوع التخصص بتاريخ العرب القديم ، وأن تكلف شبانها دراسة علم الآثار ودراسة لهجات العرب قبل الإسلام والأقلام العربية الجاهلية ، ليقوموا هم أنفسهم بالبحث والتنقيب في مواطن العاديات المنبثة في مواطن كثيرة من الجزيرة .

ورجاء آخر آتمنى على جامعة الدول العربية والدول العربية أن يحققوه ، وهو ارسال بعثات من المتخصصين بالآثار وباللهجات والأقلام العربية القديمة الى مواطن الآثار في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية والمواضع الأخرى من جزيرة العرب للتنقيب عن الآثار ، والكشف عن تاريخ الجزيرة المظمور تحت الأتربة والرمال ، ونشره نشرأ علمياً ، بدلاً من أن يكون اعتمادنا في ذلك على الغربيين . أفلا يكون من العار علينا أن نكون عالة عليهم في كل أمر ، حتى في الكشف عن تاريخنا القديم !

وأضيف الى هذا الرجاء رجاء آخر هو أن تقوم أيضاً بتدوين معجم في اللهجات العربية الجاهلية ، تستخرجه من الكتابات التي عُثر عليها، وبتأليف كتب في نحوها وصرفها ، وترجمة الكتب الأمهات التي وضعها المؤلفون الأجانب في تاريخ الجاهلية ، ترجمة دقيقة تنأى عن المسخ الذي وقع في ترجمة بعض تلك المؤلفات فأشاع الغلط ونشر التخريف .

لقد راجعت بعض المستشرقين الباحثين في تاريخ العرب القديم ، وسألت بعض من ساح في جزيرة العرب في هذه الأيام ، وبعض الشركات العاملة فيها ، في آخر ما توصلوا اليه من بحوث ، وعثروا عليه من عاديات ، فوجدت منهم كل معونة ، وأرسلوا وما برحوا يرسلون أجوبتهم إليّ بكل ترحاب ولطف ، وكتبت الى بعض حكومات جزيرة العرب والى بعض المسؤولين من أصحاب المكاثة فيها والنفوذ مراراً ، أسأله وأسأله عن العاديات وعن الآثار التي عُثر عليها

حديثاً في بلادهم ، فلم أسمع من الاثنين جواباً ، ولاني اذ أكتب هذه الملاحظة المرأة المؤسفة ، إنما أرمي بها إلى التنبيه ولفت أنظار أولي الأمر أصحاب الحكم والسلطان . فمن واجب المسؤول اجابة السائل ، ولا سيما أن القضية قضية تخص البلاد المذكورة بالذات والعرب عموماً ، وقبيح أن ينبري الغريب ، فيساعد طالب بحث عن تأريخ أمته واخوته ، ويستنكف المسؤولون من أبناء هذه الأمة عن تنفيذ طلب لا يكلفهم شيئاً ، وهو خطير يتعلق بتأريخ هذه الأمة قبل الإسلام واذاعته أولاً ، وهو واجب من واجباتهم التي نصبوا من أجلها ثانياً .

لقد تمكن الباحثون في التأريخ الجاهلي ، من سباح وعلماء ، من الارتقاء بتأريخ الجاهلية بمئات من السنين قبل الميلاد ، وذلك على وجه صحيح لا مجال للشك فيه ، مع أن بحوثهم هذه لم تنزل سوى أمتار في باطن الآثار وفي أماكن محدودة معينة . وسوف يرتفع مدى هذا التأريخ الى مئات أخرى ، وربما يتجاوز الألفي سنة أو أكثر قبل الميلاد اذا أتيحت الفرص للعلماء في الحفر في مواضع الآثار حضراً علمياً بالمعنى الحديث المفهوم من (الحفر) . وأنا لا أستبعد بلوغ هذا التأريخ الجاهلي في يوم من الأيام التأريخ الذي وصل اليه العلماء في مصر وفي العراق ، أو في أماكن أخرى عرفت بقدّم تأريخها ، بل لا أستبعد أيضاً أن يتقدم هذا التأريخ تأريخ بعض الأماكن المذكورة .

وبعد هذا ، لا بد لي هنا من الاعتراف بفضل رجل ، له على هذا الكتاب وعلى الكتاب الأول يد ومئة ، وله كذلك على مؤلفها فضل سابق ، يسبق زمن تأليف كتابيه بأمد طويل ، هو فضل الارشاد والتوجيه والتعليم . وأريد به الاستاذ العلامة الفاضل السيد محمد بهجت الاثري ، العضو العامل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضو المجلس الأعلى الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . فقد كان لي ولأمثالي من الدارسين والباحثين ولا يزال مرشداً وموجهاً ومشوقاً لدراسة التراث العربي والتراث الإسلامي والتأليف في ذلك ، مذ كنت تلميذه في الإعدادية المركزية ببغداد ألتقى عنه في جملة من كانوا يتلقون عنه الأدب العربي ، فكان يشوقنا بأسلوبه الجذاب ، وبتأثيره القوي المعروف ، الى التوسع في دراسة الأدب العربي وتأريخ الأمة العربية ، وهو ما برح يحثني على الاسراع في اتمام هذا الكتاب واخراجه للناس ، قارئاً مسوداته ، ومبدياً آراءه وارشاداته وملاحظاته القيمة ، التي أفادني ، والحق

أقول ، كثيراً . وهما فضلان لن ينساهما تلميذ يقدر الفضل لأستاذ كريم يفني نفسه في تربية الأجيال ونشر الأدب والعلم .

وبعد ، فهذا الكتاب هو جمعي وترتيبي ، فأنا المسؤول عنه وحدي ، وليس لأحد محاسبة غيري عليه ، اجتهدت ألا أضمنه إلا الحق والصواب من العلم على قدر طاقتي واجتهادي ، فإن أكن قد وفقت فسيما قصدت إليه وأردته ، فذلك حسبي وكفى ، لا أريد عليه حمداً ولا شكراً ، لأنني قمت بواجب ، وعملت عن شوق ورغبة وولع قديم بهذا الموضوع يرجع الى أيام دراسي الأولى ، فليس لي فضل ولا منة ، وإن كان فيه حسناً فهو للعلماء الذين اعتمدت عليهم وأخذت منهم ، وليس لي فيه غير الجمع والتأليف . وإن أخفقت فيه فذلك مبلغ علمي واجتهادي ، أدبته بعد تعب ، لا أملك أكبر منه ، وبغيتي حسن التوجيه والإرشاد وتقويم الأود ، وتصحيح الأغلاط ، فالنقد العلمي الحق لإنشاء وبناء ، والمدح والإطراء في نظري ابعاد لطالبي العلم من أمثالي عن العمل والتقدم ، وسبب يؤدي الى الخيلاء والضلال ، وفوق كل ذي علم عليم .

جواد علي

الفضل الأول

تحديد لفظة العرب

نطلق لفظة « العرب » اليوم على سكان بلاد واسعة ، يكتبون ويؤلفون وينشرون ويخاطبون بالإذاعة و « التلفزيون » بلغة واحدة ، نقول لها لغة العرب أو لغة الضاد أو لغة القرآن الكريم . وإن تكلموا وتسامهوا وتعاملوا فيما بينهم وفي حياتهم اليومية أدوا ذلك بلهجات محلية متباينة ، ذلك لأن تلك اللهجات إذا أرجعت رجعت الى أصل واحد هو اللسان العربي المذكور ، وإلى ألسنة قبائل عربية قديمة ، وإلى ألفاظ أعجمية دخلت تلك اللهجات بعوامل عديدة لا يدخل البحث في بيان أسبابها في نطاق هذا البحث .

ونحن إذ نطلق لفظة (عرب) و (العرب) على سكان البلاد العربية ، فإنما نطلقها إطلاقاً عاماً على البدو وعلى الحضر ، لا نفرق بين طائفة من الطائفتين ، ولا بين بلد وبلد . نطلقها بمعنى جنسية وقومية وعلم على رس له خصائص وسمات وعلامات وتفكير يربط الحاضرين بالماضين كما يربط الماضي بالحاضر .

واللفظة بهذا المعنى وبهذا الشكل ، مصطلح يرجع الى ما قبل الإسلام، ولكنه لا يرتقي تاريخياً الى ما قبل الميلاد ، بل لا يرتقي عن الإسلام الى عهد جد بعيد . فأنت إذا رجعت الى القرآن الكريم ، وإلى حديث رسول الله ، وجدت للفظه مدلولاً يختلف عن مدلولها في النصوص الجاهلية التي عُثر عليها حتى الآن، أو في التوراة والإنجيل والتلمود وبقية كتب اليهود والنصارى وما بقي من مؤلفات

يونانية ولا تينية تعود الى ما قبل الإسلام . فهي في هذه أعراب أهل وبر ، أي طائفة خاصة من العرب . أما في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي ، وفي الشعر المعاصر للرسول ، فإنها علّمت على الطائفتين واسم للسان الذي نزل به القرآن الكريم ، لسان أهل الحضرة ولسان أهل الوبر على حد سواء . « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر* . لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين* » ، « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا : لولا فصلت آياته أعجمي وعربي . قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد* » .

وإذا ما سألتني عن معنى لفظة (عرب) عند علماء العربية ، فإني أقول لك : إن لعلماء العربية آراء في المعنى ، تجدها مسطورة في كتب اللغة وفي المعجمات . ولكنها كلها من نوع البحوث المألوفة المبنية على أقوال وآراء لا تعتمد على نصوص جاهلية ولا على دراسات عميقة مقارنة ، وُضعت على الخدس والتخمين ، وبعد حيرة شديدة في إيجاد تعليل مقبول فقالوا ما قالوه مما هو مذكور في الموارد اللغوية المعروفة ، وفي طليعتها المعجمات وكتب الأدب . وكل آرائهم في تفسير اللفظة وفي محاولة إيجاد أصلها ومعانيها ، هو إسلامي ، دون في الإسلام .

وترى علماء العربية حيارى في تعيين أول من نطق بالعربية ، فبينما يذهبون الى أن (يعرب) كان أول من أعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي ، ثم يقولون : ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي ، تراهم يجعلون العربية لسان أهل الجنة ولسان آدم ، أي أنهم يرجعون عهده الى مبدأ الخليقة ، وقد كانت الخليقة قبل خلقت (يعرب) بالطبع بزمان طويل . ثم تراهم يقولون : أول من تكلم بالعربية ونسب لسان أبيه اسماعيل . ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي لإلهاماً . وكان أول من فتن لسانه بالعربية المبينة ، وهو ابن أربع عشرة سنة^٣ . واسماعيل هو جد العرب المستعربة على حد قولهم .

والقائلون إن (يعرب) هو أول من أعرب في لسانه ، وانه أول من نطق

-
- ١ سورة النحل . رقم ١٦ الآية ١٠٣ .
 - ٢ سورة فصلت . رقم ٤١ الآية ٤٤ .
 - ٣ تاج العروس (٢ / ٣٥٢) ، « طبعة الكويت » « عرب » ، اللسان (٢ / ٧٥) الزهر (١ / ٣٠) فما بعدها ، ابن خلدون (٢ / ٨٦) .

بالعربية ، وان العربية إنما سميت به ، فأخذت من اسمه ، إنما هم القحطانيون .
 وهم يأتون بمختلف الروايات والأقوال لإثبات أن القحطانيين هم أصل العرب ،
 وأن لسانهم هو لسان العرب الأول ، ومنهم تعلم العدنانيون العربية ، ويأتون
 بشاهد من شعر (حسان بن ثابت) على إثبات ذلك ، يقولون : إنه قاله ،
 وإن قوله هذا هو برهان على أن منشأ اللغة العربية هو من اليمن . يقولون أنه
 قال :

تعلمت من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
 وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام ، وكنتم كاليهاثم في القفر

ولم يكن يخطر ببال هؤلاء أن سكان اليمن قبل الإسلام كانوا ينطقون بلهجات
 تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، وأن من سيأتي بعدهم سيكتشف سر «المستند» ،
 ويتمكن بذلك من قراءة نصوصه والتعرف على لغته ، وأن عريته هي عربية
 تختلف عن هذه العربية التي ندون بها ، حتى ذهب الأمر بعلماء العربية في
 الاسلام بالطبع الى اخراج الحميرية واللهجات العربية الجنوبية الأخرى من العربية ،
 وقصر العربية على العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وعلى ما تفرع منها من
 لهجات كما سأحدث عن ذلك فيما بعد . وهو رأي يمثل رأي العدنانيين خصوم
 القحطانيين .

والقائلون إن يعرب هو جدّ العربية وموجدّها ، عاجزون عن التوفيق بين
 رأيهم هذا ورأيهم في أن العربية قديمة قدم العالم ، وأنها لغة آدم في الجنة ، ثم
 هم عاجزون أيضاً عن بيان كيف كان لسان أجداد (يعرب) ، وكيف اهتدى
 (يعرب) الى استنباطه لهذه اللغة العربية ، وكيف تمكن من إيجاد وحده لها
 من غير مؤازر ولا معين ؟ الى غير ذلك من أسئلة لم يكن يفطن لها أهل الأخبار
 في ذلك الزمن . وللأخباريين بعد كلام في هذا الموضوع طويل ، الأشهر منه
 القولان المذكوران ، ووفق البعض بينها بأن قالوا : إن (يعرب) أول من نطق

١ كتاب الاكليل ، (١١٦/١) تحقيق (محمد بن علي الاكوع الحوالي) ، القاهرة
 سنة ١٩٦٣ (مطبعة السنة المحمدية) ، المكتبة اليمنية (٢) ، الاصمعي .

بمنطق العربية ، واسماعيل هو أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي أنزل عليها القرآن^١ .

أما المستشرقون وعلماء التوراة المحدثون ، فقد تتبعوا تأريخ الكلمة ، وتبعوا معناها في اللغات السامية ، وبحثوا عنها في الكتابات الجاهلية وفي كتابات الآشوريين والبابليين واليونان والرومان والعبرانيين وغيرهم ، فوجدوا أن أقدم نص وردت فيه لفظة (عرب) هو نص آشوري من أيام الملك (شلمنصر الثالث) (الثاني؟) ملك آشور^٢ . وقد تبين لهم أن لفظة (عرب) لم تكن تعني عند الآشوريين ما تعنيه عندنا من معنى ، بل كانوا يقصدون بها بدواة وإمارة « مشيخة » كانت تحكم في البادية المتاخمة للحدود الآشورية ، كان حكمها يتوسع ويتقلص في البادية تبعاً للظروف السياسية ولقوة شخصية الأمير ، وكان يحكمها أمير يلقب نفسه بـ « ملك » يقال له (جنديو) أي (جندب) وكانت صلاته سيئة بالآشوريين . ولما كانت الكتابة الآشورية لا تحرك المقاطع ، صعب على العلماء ضبط الكلمة ، فاختلّفوا في كيفية النطق بها ، فقررت : (Aribi) و (Arubu) و (Aribu) و (Arub) و (Arabi) و (Urbi) و (Arbi) الى غير ذلك من قراءات^٣ . والظاهر أن صيغة (Urbi) كانت من الصيغ القليلة الاستعمال ، ويغلب على الظن أنها استعملت في زمن متأخر ، وأنها كانت بمعنى (أعراب) على نحو ما يقصد من كلمي (عربي) و (أعربي) في لهجة أهل العراق لهذا العهد . وهي تقابل كلمة (عرب) التي هي من الكلمات المتأخرة كذلك على رأي بعض المستشرقين . وعلى كل حال فإن الآشوريين كانوا يقصدون بكلمة (عربي) على اختلاف أشكالها بدواة ومشيخة كانت تحكم في أيامهم البادية تمييزاً لها عن قبائل أخرى كانت مستقرة في تخوم البادية^٤ .

١ تاج العروس (٢ / ٣٥٢) ، « طبعة الكويت » .

٢ Margollouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to the rise of Islam, P. 3, The Jewish Encyclopedia, New York, 1902, P. 41, Reallexikon der Assyriologie, erster Band, Zweite Lieferung, S., 125, James A. Montgomery, Arabia and the Bible, PP. 27.

٣ Erich Ebling und Bruno Meissner, Reallexikon der Assyriologie, Erster Band, Berlin and Leipzig 1922, P. 125.

٤ Ency, Bibli. Vol., I, P. 273, El. Schrader Kellinschriften und Geschichtsforschung, PP. 100, Fr. Delitzech, wo lag das Paradise?, P. 295, 304, F. Caussin de Perceval, Histoire des Arabes I, P., 4ff.

ENCYCLOPEDIA BIBLICA, by cheyne, vol., I, p. 273.

ووردت في الكتابات البابلية جملة « ماتواريبي » (Matu A-Ra-bi) ،
 (Matu Arabaai) ومعنى (ماتو) (متو) أرض ، فيكون المعنى (أرض
 عربي) ، أي (أرض العرب) ، أو (بلاد العرب) ، أو (العربية) ،
 أو (بلاد الأعراب) بتعبير أصدق وأصح . اذ قصد بها البادية ، وكانت
 تحفل بالأعراب^١ . وجاءت في كتابة (بهستون) (بيستون)^٢ (Behistun)
 لدارا الكبير (داريوس)^٣ لفظة (ارباية) (عرباية) (Arabaya)^٤ وذلك
 في النص الفارسي المكتوب باللغة (الأخمينية) ، ولفظة (Arpayah) (M Ar Payah)
 في النص المكتوب بلهجة أهل السوس (Susian) (Susiana) وهي اللهجة

W. Muss Arnolt, assyrisch — english — Deutsches handwort-erbuch, Berlin, ١
 1903, s., 616, Winckler, A.O.F., Band, 2, S., 465, Margollouth, The relations
 between Arabs and israelites prior to the rise of islam, London, 1924, p., 3.

٢ (بهستون) و (بيستون) . « بهستون (بالفتح ثم الكسر) : قرية بين
 همدان و حلوان ، اسمها ساسياتان ، بينها وبين همدان أربع مراحل ،
 وبينها وبين قرميسين ثمانية فراسخ . وجبل بهستون ، عال مرتفع ممتنع ،
 لا يرتقى الى ذروته ، وطريق الحاج تحته سواء ، ووجهه من أعلاه الى أسفل
 أملس كأنه منحوت ، ومقدار قامات كثيرة من الأرض قد نحت وجهه وملس .
 فزم بعض الناس أن الأكاسرة أراد أن يتخذ حول هذا الجبل موضع سوق
 ليدل به على عزته وسلطانه . وعلى ظهر الجبل يقرب الطريق مكان يشبه الفار
 وفيه عين ماء جارية ، وهناك صورة دابة كأحسن ما يكون من الصور ، زعموا
 انها صورة دابة كسرى المسماة شبيذ ، وعليها كسرى ، وقد ذكرته مبسوطة
 في باب الشين » ، البلدان (٣١٥ / ٢) ، (طبعة وستفلد) (٧٦٩ / ١)
 (شبيداز : بكسر أوله وسكون ثانيه ثم دال مهملة وآخره زاي .
 ويقال : شبيذ بالياء المثناة من تحت منزل بين حلوان وقرميسين في
 لحف جبل بيستون ، سمى باسم فرس كان لكسرى ، وقد وصف ياقوت
 الحموي الموضع ، وذكر آراء الناس فيه والقصص التي كانت تروى عن
 الصور ، البلدان (٢٢٨ / ٥) .

٣ يعرف في الكتب العربية بـ (دارا) ، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء
 ص (٢٠) ، مروج الذهب (١٩٦ / ١ ، ٢٤٥) ، (دارا الكبير)
 (دارا الأكبر) تاريخ الطبري (٦٨٧ / ١ ، ٧٠٦ ، ٧١٩) طبعة أوروبا .

٤ The Sculptures and inscription of Darius the great on the Rock of Behistun in
 persia, London, 1907, p., XVIII, 161 Ency. Bibl., 273, Hastings, Dictionary of
 the Bible, p., 46 Hastings : وسيكون رمزه :

العلامية لغة عيلام^١ .

ومراد البابليين أو الآشوريين أو الفرس من (العربية) أو (بلاد العرب) ،
البادية التي في غرب نهر الفرات الممتدة الى تخوم بلاد الشام .

وقد ذكرت (العربية) بعد آشور وبابل وقبل مصر في نص (دارا) المذكور^٢ ،
فحمل ذلك بعض العلماء على ادخال طور سيناء في جملة هذه الأرضين^٣ . وقد
عاشت قبائل عربية عديدة في منطقة سيناء قبل الميلاد .

وهذا المعنى أي معنى البداوة والأعرابية والجفاف والقفر ، وردت اللفظة
في العبرانية وفي لغات سامية أخرى . ويدل ذلك على أن لفظة (عرب) في تلك
اللغات المتقاربة هو البداوة وحياة البادية ، أي بمعنى (أعراب) . وإذا راجعنا
المواضع التي وردت فيها كلمة (عربي) و (عرب) في التوراة ، نجد أنها بهذا
المعنى تماماً . ففي كل المواضع التي وردت فيها في سفر (أشعياء) (Isaiah)
مثلاً نرى أنها استعملت بمعنى بداوة وأعرابية ، كالذي جاء فيه : (ولا يخيم
هناك أعرابي^٤) و (وحي من جهة بلاد العرب ، في الوعر في بلاد العرب تبين
يا قوافل الددانين^٥) . فقصده بلفظة (عرب) في هذه الآية الأخيرة البادية
موطن العزلة والوحشة والخطر ، ولم يقصد بها قومية وعلمية لمجلس معين بالمعنى
المعروف المفهوم .

ولم يقصد بجملة (بلاد العرب) في الآية المذكورة والتي هي ترجمة (مسّا

١ (السوس بضم اوله وسكون ثانيه وسين مهملة اخرى . بلفظ السوس الذي
يقع في الصوف : بلدة بخوزستان ، فيها قبر دانيال عليه السلام . قال حمزة :
السوس تعريب الشوش بنقط الشين ، ومعناه الحسن والنزه والطيب ...
قال ابن المقفع : اول سور وضع في الارض بعد الطوفان سور السوس وتستتر
ولا يدرى من بنى السوس وتستتر والابلة . وقال ابن الكلبي : السوس بن سام
بن نوح) ، البلدان (٥ / ١٧١ وما بعدها)

٢ Sculp. P., 4, 95, 161.

٣ Ency., Bibl., P., 273, Hastings, P. 46.' Encyclopaedia Biblica, by Cheyne, I,
PP., 287, J. Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P., 131, J. Hastings, A
Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents, p., 84.

٤ الاصحاح الثالث عشر ، آية ٢٠ (ولا يضرب أعرابي فيها خباء) ، الترجمة
الكاثوليكية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٦٠

٥ الاصحاح الحادي والعشرين ، الآية ١٣ ،
J. Simons, The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament,
Leiden, 1959, P., 4.

هـ - عراب (Massa ha-Arab) ، المعنى المفهوم من (بلاد العرب) في الزمن الحاضر أو في صدر الإسلام ، وإنما المراد بها البادية ، التي بين بلاد الشام والعراق وهي موطن الأعراب^١ .

وبهذا المعنى أيضاً وردت في (أرميا) ، ففي الآية (وكل ملوك العرب) الواردة في الاصحاح الخامس والعشرين^٢ ، تعني لفظة « العرب » « الأعرابي » ، أي « عرب البادية » . والمراد من « وكل ملوك العرب » و « كل رؤساء العرب » و « مشايخهم » ، رؤساء قبائل ومشايخ ، لا ملوك مدن وحكومات . وأما الآية : « في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية »^٣ ، فإنها واضحة ، وهي من الآيات الواردة في (أرميا) . والمراد بها أعرابي من البادية ، لا حضري من أهل الحاضرة . فالمفهوم اذن من لفظة (عرب) في اصحاحات (أرميا) إنما هو البداوة والبادية والأعرابية ليس غير .

ومما يؤيد هذا الرأي ورود (ها عرابية ha 'Arabah) في العبرانية ، ويزاد بها ما يقال له : (وادي العربة) ، أي الوادي الممتد من البحر الميت أو من بحر الجليل الى خليج العقبة^٤ . وتعني لفظة (عرابية) في العبرانية الجفاف وحافة الصحراء وأرض محروقة ، أي معاني ذات صلة بالبداوة والبادية . وقد أقامت في هذا الوادي قبائل بدوية شملت لفظة (عرب) . وفي تقارب لفظة (عرب) و (عرابية) ، وتقارب معناهما ، دلالة على الأصل المشترك للفظتين . وبعد وادي (العربة) وكذلك (طورسيناء) في بلاد العرب . وقصد بـ (العريية) برية سورية في (رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية)^٥ .

١ قاموس الكتاب المقدس (٢ / ٨٨ فما بعدها) ،
A Religios Encyclopaedia or Dictionary of Biblical, Historical Doctorinal, and
Practical Theology, by, Philip Schaff, 1894, Vol., I, P., 122.

٢ الآية ٢٤ ، ٩٨ ، I, P., The Bible Dictionary,

٣ الاصحاح الثالث ، الآية الثانية .

٤ Ency. Bibl., I, P., 271.

٥ « مكتوب انه كان لابراهيم ابنان : احدهما من الامة ، والآخر من الحرة . غير أن الذي من الامة ولد بقوة الجسد ، أما الذي من الحرة فبقوة الموعد . وذلك انما هو رمز ، لان هاتين هما الوصيتان احدهما من طورسيناء تلد للعبودية ، فهي هاجر ، فان سيناء هو جبل في ديار العرب ، ويناسب اورشليم الحالية ، لان هذه حاصلة في العبودية مع بنيتها) ، رسالة القديس بولس الى أهل غلاطية (، الرسالة الرابعة ، ٢٢ فما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٢ / ٨٩) .

وقد عرف علماء العربية هذه الصلة بين كلمة (عرب) و (عرابة) أو (عربة) ، فقالوا : (لأنهم سمّوا عرباً باسم بلدهم العربات . وقال إسحاق بن الفرج : عربية باحة العرب ، وباحة دار أبي الفصاحة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام) ^١ . وقالوا : (وأقامت قريش بعربة فتنحت بها ، وانتشر سائر العرب في جزيرتها ، فنسبوا كلهم الى عربية ، لأن أباهم إسماعيل ، صلى الله عليه وسلم ، نشأ وربى أولاده فيها فكثروا . فلما لم تحتلهم البلاد، انتشروا ، وأقامت قريش بها ^٢ . وقد ذهب بعضهم الى أن عربية من تهامة ^٣ ، وهذا لا ينفي على كل حال وجود الصلة بين الكلمتين .

ورواية هؤلاء العلماء ، مأخوذة من التوراة ، أخذوها من أهل الكتاب ، ولا سيما من اليهود، وذلك باتصال المسلمين بهم ، واستفسارهم منهم عن أمور عديدة وردت في التوراة ، ولا سيما في الآحور السقي وردت مجملآ في القرآن الكريم والأمور التي تخص تأريخ العرب وصلاتهم بأهل الكتاب .

ويرى بعض علماء التوراة أن كلمة (عرب) إما شاعت وانتشرت عند العبرانيين بعد ضعف (الاشماعيليين) (الاسماعيليين) وتدهورهم وتغلب الأعراب عليهم حتى صارت اللفظة مرادفة عندهم لكلمة (اشماعيليين) . ثم تغلبت عليهم ، فصارت تشملهم ، مع أن (الاشماعيليين) كانوا أعراباً كذلك ، أي قبائل بدوية تنقل من مكان الى مكان ، طلباً للمرعى وللباء . وكانت تسكن أيضاً في المناطق التي سكنها الأعراب ، أي أهل البادية. ويرى أولئك العلماء ان كلمة (عرب) لفظة متأخرة ، اقتبسها العبرانيون من الآشوريين والبابليين ، بدليل ورودها في النصوص الآشورية والبابلية ، وهي نصوص يعود عهدها الى ما قبل التوراة . ولشيوخها بعد لفظة (اشماعيليين) ، ولآدائها المعنى ذاته المراد من اللفظة ، ربط بينها وبين لفظة (اشماعيليين) ، وصارت نسباً ، فصير جد هؤلاء العرب (اشماعيل) ، وعدوا من أبناء إسماعيل ^٤ .

-
- ١ اللسان (٢ / ٧٢) ، القاموس المحيط (١ / ١٠٢) .
 - ٢ اللسان (٢ / ٧٢) ، تاج العروس (٣ / ٣٤٤) ، « طبعة الكويت » .
 - ٣ اللسان (٢ / ٧٦) ، تاج العروس (٣ / ٣٤٤) ، « الكويت » .
 - ٤ راجع الالفاظ : (عرب) و (يشماعيل) في معجمات التوراة .

هذا ما يخص التوراة ، أما (التلمود) ، فقد قصدت بلفظة (عرب) و (عريم) ('Arbim) (عربيم) ('Arbi'im) الأعراب كذلك ، أي المعنى نفسه الذي ورد في الأسفار القديمة ، وجعلت لفظة (عربي) مرادفة لكلمة (اسماعيلي) في بعض المواضع^١ .

وقبل أن أنتقل من البحث في مدلول لفظة (عرب) عند العبرانيين الى البحث في مدلولها عند اليونان ، أود أن أشير الى أن العبرانيين كانوا اذا تحدثوا عن أهل المدر ، أي الحضرة ذكروهم بأسمائهم . وفي سلاسل النسب الواردة في التوراة ، أمثلة كثيرة لهذا النوع ، سوف أتحدث عنها .

وأول من ذكر العرب من اليونان هو (أسكيلوس ، أسخيلوس) « أشيلس » « أخيلوس » (Aeschylus) ، (٥٢٥ - ٤٥٦ قبل الميلاد) من أهل الأخبار منهم ، ذكرهم في كلامه على جيش (أخشويرش) (Xerxes) ، وقال : انه كان في جيشه ضابط عربي من الرؤساء مشهور^٢ . ثم تلاه (هيرودوتس) شيخ المؤرخين (نحو ٤٨٤ - ٤٢٥ قبل الميلاد) ، فتحدث في مواضع من تأريخه عن العرب حديثاً يظهر منه انه كان على شيء من العلم بهم . وقد أطلق لفظة (Arabae) على بلاد العرب ، البادية وجزيرة العرب والأرضين الواقعة الى الشرق من نهر النيل^٣ . فأدخل (طورسيناء) وما بعدها الى ضفاف النيل في بلاد العرب .

فلفظة (العربية) (Arabae) عند اليونان والرومان ، هي في معنى (بلاد العرب) . وقد شملت جزيرة العرب وبادية الشام . وسكانها هم عرب على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، على سبيل التغليب ، لاعتقادهم ان البداوة كانت هي الغالبة على هذه الأرضين ، فأطلقوها من ثم على الأرضين المذكورة .

وتدل المعلومات الواردة في كتب اليونان واللاتين المؤلفة بعد (هيرودوتس) على تحسن وتقديم في معارفهم عن بلاد العرب ، وعلى أن حدودها قد توسعت في مداركهم فشملت البادية وجزيرة العرب وطور سيناء في أغلب الأحيان ، فصارت لفظة (Arabae) عندهم علماً على الأرضين المأهولة بالعرب والتي تغلب عليها

١ موعيد قطان ٢٤

٢ Ency. Bibl., I, P., 273.

٣ Ency. Bibl., I, P., 271.

الطبيعة الصحراوية ، وصارت كلمة (عربي) عندهم علماً للشخص المقيم في تلك الأرضين ، من بدو ومن حضر ، إلا أن فكرتهم عن حضر بلاد العرب لم تكن ترتفع عن فكرتهم عن البدوي ، بمعنى أنهم كانوا يتصورون أن العرب هم أعراب .

ووردت في جغرافية (سترابون) كلمة (أرمبي) (Erembi) ، ومعناها اللغوي الدخول في الأرض أو السكنى في حفر الأرض وكهوفها ، وقد أشار الى غموض هذه الكلمة وما يقصد بها ، أيقصد بها أهل (طرغلوديته) (Trogloodytea) أي (سكان الكهوف) أم العرب ؟ ولكنه ذكر أن هناك من كان يريد بها العرب ، وإنها كانت تعني هذا المعنى عند بعضهم في الأيام المتقدمة ، ومن الجائز أن تكون تحريفاً لكلمة (Arabi) فأصبحت بهذا الشكل^١. أما الإرميون ، فلم يختلفوا عن الآشوريين والبابليين في مفهوم (بلاد العرب) ، أي ما يسمى بـ (بادية الشام) وبادية السبابة . وهي البادية الواسعة الممتدة من نهر الفرات الى تخوم الشام . وقد أطلقوا على القسم الشرقي من هذه البادية ، وهو القسم الخاضع لنفوذ الفرس ، اسم (بيت عربية) (Beth 'Arb'aya) و (باعربية) (Ba 'Arabaya) ، ومعناها (أرض العرب) . وقد استعملت هذه التسمية في المؤلفات اليونانية المتأخرة^٢ . وفي هذا الاستعمال أيضاً معنى الأعرابية والسكنى في البادية .

ووردت لفظة «عرب» في عدد من كتابات «الحضر» . ووردت مثلاً في النص الذي رسم به «٧٩» حيث جاء في السطرين التاسع والعاشر «وبجندا دعر» ، أي «وبجنود العرب» . وفي السطر الرابع عشر : «وبحطر وعرب» ، أي «وبالحضر وبالعرب»^٣ . ووردت في النص : «١٩٣» : «ملكادي عرب» ، أي «ملك العرب» وفي النص «١٩٤» وفي نصوص أخرى^٤ . وقد وردت اللفظة في كل هذه النصوص بمعنى «أعراب» ، ولم ترد علماً على قوم وجنس ، أي بالمعنى المفهوم من اللفظة في الوقت الحاضر^٥ .

١ Strabo, Vol., 3, P., 215.

٢ Ency. Bibl., Vol., I, P., 273, Hastings, P., 46, Schrader, Kellinschr. und Gesch. S., 100, Delitzsch, Wo lag das Paradies? S., 295.

وسيكون رمزه Delitmych

٣ مجلة سومر ، السنة ١٩٦١ ، ٢٤٣. ff. Die Araber, IV, S., 243.

٤ سومر ، ١٩٦١ ، ٢٦١. Die Araber, IV, S., 261.

٥ Die Araber, IV, S., 269.

هذا ، وليست لدينا كتابات جاهلية من النوع السذي يقول له المستشرقون (كتابات عربية شمالية) ، فيها اسم (العرب) ، غير نص واحد، هو النص الذي يعود الى (امرئ القيس بن عمرو) . وقد ورد فيه : « مر القيس بر عمرو ، ملك العرب كله ، ذو اسراتج وملك الأسدين ونزروا وملوكهم وهرب ملحقجو ... »^١ . ولورد لفظة (العرب) في هذا النص الذي يعود عهده الى سنة (٣٢٨م) شأن كبير « غير اننا لا نستطيع ان نقول : ان لفظة (العرب) هنا ، يراد بها العرب بدواً وحضراً ، أي يراد بها العلم على قومية ، بل يظهر من النص بوضوح وجلاء انه قصد (الأعراب) ، أي القبائل التي كانت تقطن البادية في تلك الأيام .

أما النصوص العربية الجنوبية ، فقد وردت فيها لفظة (اعراب) بمعنى (أعراب) ، ولم يقصد بها قومية ، أي علم لهذا الجنس المعروف،الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو ومن حضر ، فورد : (واعرب ملك حضرموت) ، أي (وأعراب ملك حضرموت)^٢ ، وورد : (واعرب ملك سبا) ، أي (وأعراب ملك سبا)^٣ . وكالذي ورد في نص (أبرهة) ، نائب ملك الحبشة على اليمن^٤ . ففي كل هذه المواضع ومواضع أخرى ، وردت بمعنى أعراب^٥ . أما أهل المدن والمتحضرين ، فكانوا يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم، وكانت مستقرة في الغالب . ولهذا قيل (سبا) و (همدان) و (حِمْيَر) و قبائل أخرى ، بمعنى انها قبائل مستقرة متحضرة ، تمتاز عن القبائل المتنقلة المسماة (اعراب) في النصوص العربية الجنوبية ، مما يدل على أن لفظة (عرب) و (العرب) لم

١ Ephemeris, 2-34, Nabla, P., 4, Plate, 2, Dussaud, in rev. Archeologique, II, (1902), 409, ff., Arabes en Syrie avant L'Islam, P., 34, Montgomery, Arabia and the Bible, P., 28.

وسيكون رمزه Montgomery

٢ لما كان المسند لا يعرف الحركات ، صعب علينا قراءة الكلمات قراءة صحيحة فتجوز قراءة كلمة « اعراب » مثلاً : (اعراب) وتجوز قراءتها (أعراب) .

٣ نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ، بقلم الدكتور خليل يحيى نامي (ص ٩٢) ، النقش ٧١ سطر ٢ ، وسأشير اليه ب : نشر ، (ص ٩٣) نص رقم ٧٢ ، و ٧٣ .

٤ Glaser, Zwei inschriften über den Dammbruch von Marib, S., 33, Ency, Bibl., I, P., 275, Cls, 541 Glasser, 618.

٥ Albert Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis Baltimore, 1962, P., 445

تكن تؤدي معنى الجنس والقومية وذلك في الكتابات العربية الجنوبية المدونة والواصلة إلينا إلى قبيل الإسلام بقليل (٤٤٩ م) (٥٤٢ م)^١ . والرأي عندي أن العرب الجنوبيين لم يفهموا هذا المعنى من اللفظة إلا بعد دخولهم في الإسلام ، ووقوفهم على القرآن الكريم ، وتكلمهم باللغة التي نزل بها ، وذلك بفضل الإسلام بالطبع . وقد وردت لفظة (عرب) في النصوص علماً لأشخاص^٢ .

وقد عرف البدو ، أي سكان البادية ، بالأعراب في عربية القرآن الكريم . وقد ذكروا في مواضع من كتاب الله ، وقد نعتوا فيه بنعت سيئة^٣ ، تدل على أثر خلق البادية فيهم . وقد ذكر بعض العلماء أن الأعراب بادية العرب ، وأنهم سكان البادية^٤ .

والنص الوحيد الوحيد الذي وردت فيه لفظة (العرب) علماً على العرب جميعاً من حضر وأعراب ، ونعت فيه لسانهم باللسان العربي ، هو القرآن الكريم . وقد ذهب (د . هـ . مار) إلى أن القرآن الكريم هو الذي خصص الكلمة وجعلها علماً لقومية تشمل كل العرب . وهو يشك في صحة ورود كلمة (عرب) علماً لقومية في الشعر الجاهلي ، كالذي ورد في شعر لامرئ القيس ، وفي الأخبار المدونة في كتب الأدب على ألسنة بعض الجاهليين^٥ . ورأي (مار) هذا ، رأي ضعيف لا يستند إلى دليل ، إذ كيف تعقل مخاطبة القرآن قوماً بهذا المعنى لو لم يكن لهم علم سابق به ؟ وفي الآيات دلالة واضحة على أن القوم كان لهم إدراك لهذا المعنى قبل الإسلام ، وأنهم كانوا ينعتون لسانهم باللسان العربي ، وأنهم كانوا يقولون للألسنة الأخرى ألسنة أعجمية : (أعجمي وعربي ؟ قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء)^٦ . وكذلك أنزلناه حكماً

١ Margoliouth, The Relations, P., 2, Glaser, 554, 2, MVAG., VI, 7, CIH. 79. 9. CIH, 343, 397, 7. CIH, IV, Pars Hirmyaritica, Nos, 79, 343, 397 Montgomery. P. 27.

٢ نشر (ص ٨٩) نص ٦٩ ،

Ansaldo, Cesare il Yemen, Nella Storia e nella Legenda., Roma, 1933, Nr., 17, 69, Ryckmans, in Le Muséon, Vol., I, Part., 3, (1937), Nr. 180.

٣ التوبة ، الآية ٩٧ ، ١٠١ ، الفتح ، الآية ١١ ، الحجرات ، الآية ١٤ .

٤ بلوغ الأرب (١٣ / ١) ، تاج العروس (٣٣٣ / ٣) فما بعدها .

٥ D.H. Muller, in Neue Freie Presse, (1894), 20th April, Ency. Bibl., I, P., 274.

(قرى عربيات) ، الأغاني (١٩ / ٩) ، (١٤٩ / ١٠) .

٦ سورة فصلت رقم ٤١ ، الآية ٤٤ .

عربياً^١ . (وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا)^٢ . (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين)^٣ . ففي هذه الآيات وآيات أخرى غيرها دلالة على أن الجاهليين كانوا يطلقون على لسانهم لساناً عربياً ، وفي ذلك دليل على وجود الحس بالقومية قبيل الإسلام^٤ .

ونحن لا نزال نميز الأعراب عن الحضر ، ونعتدهم طبقة خاصة تختلف عن الحضر ، فنطلق عليهم لفظة : (عرب) في معنى بدو وأعراب ، أي بالمعنى الأصلي القديم ، ونرى ان عشيرة (الرولة) وعشائر أخرى تقسم سكان الجزيرة الى قسمين : حضر و (عرب) . وتقصد بالعرب أصحاب الخيام أي المتنقلين . وتقسم العرب ، أي البدو الى (عرب القبيلة) ، و (عرب الديرة) ، وهم العرب المقيمون على حافات البوادي والأرياف ، أي في معنى (عرب الضاحية) و (عرب الضواحي) في اصطلاح القدماء .

ثم تقسم الحضر وتسميهم أيضاً بـ (أهل الطين) الى (قارين) ، والواحد (قروني) ، وهم المستقرون الذين لهم أماكن ثابتة يتزلونها أبداً ، والى (راعية) والمفرد راع ، وهم أصحاب أغنام وشبه حضر ، ويقال لهم (شواية) و (شيان) و (شاوية) و (رحم الديرة) بحسب لغات القبائل^٥ .

وأشبه مصطلح من المصطلحات القديمة بمصطلح (شواية) و (شاوية) ، هو (الأرحاء) ، وهي القبائل التي لا تتجمع ولا تترح مكانها ، إلا ان يتجمع بعضها في البرحاء وعام الجذب^٦ .

وخلاصة ما تقدم ان لفظه (ع ر ب) ، (عرب) ، هي بمعنى التبدلي والأعرابية في كل اللغات السامية ، ولم تكن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم

-
- ١ سورة الرعد رقم ١٣ ، الآية ٣٧
 - ٢ سورة الاحقاف ، رقم ٤٦ الآية ١٢
 - ٣ النحل ، السورة رقم ١٦ ، الآية ١٠٣
 - ٤ سورة يوسف الآية ٢ ، سورة طه الآية ١١٣ ، سورة الزمر ، الآية ٢٨ ، سورة الشورى ، الآية ٧ ، سورة الزخرف ، الآية ٣ .
 - ٥ B.R. 527 (Restricted), Geographical Handbook Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June 1946, Naval Intelligence Division, PP., 398. « شاوية » .
 - ٦ العقد الفريد (٣ / ٣٣٥) .

النصوص التاريخية التي وصلت إلينا ، وهي النصوص الآشورية . وقد عنت بها البدو عامة ، مهما كان سيدهم أو رئيسهم . وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم . ولما توسعت مدارك الأعاجم وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب ، توسعوا في استعمال اللفظة ، حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل بادية وان حياتهم حياة أعراب . ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم ، فصارت علمية عند أولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها ، وأطلق لذلك كلمة اللاتين واليونان على بلاد العرب لفظاً (Arabae) (Arabia) أي (العربية) بمعنى بلاد العرب .

لقد أوقفنا هذا الاستعمال في جهل بأحوال كثير من الشعوب والقبائل ، ذكرت بأسمائها دون أن يشار إلى جنسها . فحرنا في أمرها ، ولم نتمكن من ادخالها في جملة العرب ، لأن الموارد التي نملكها اليوم لم تنص على أصلها . فلم تكن من عاداتها ، ولم يكن في مصطلح ذلك اليوم كما قلت اطلاق لفظه (عرب) إلا على الأعراب عامة ، وذلك عند جهل اسم القبيلة ، وكانت تلك القبيلة بادية غير مستقرة ، وقد رأينا ان العرب أنفسهم لم يكونوا يسمون أنفسهم قبل الميلاد ، إلا بأسمائهم ، ولولا وجودهم في جزيرة العرب ولولا عثورنا على كتابات أو موارد أشارت إليهم ، لكان حالهم حال من ذكرنا ، أي لما تمكنتا من ادخالهم في العرب . ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً تجاه القبائل المذكورة ، وليس لنا إلا الانتظار ، فلعل الزمن يبعث نصاً يكشف عن حقيقة بعض تلك القبائل .

هذا ويلاحظ أن عدداً من القبائل العربية الضاربة في الشمال والسكنة في العراق وفي بلاد الشام ، تأثرت بلغة بني إرم ، فكتبت بها ، كما فعل غيرهم من الناس الساكنين في هذه الأرضين ، مع أنهم لم يكونوا من بني إرم . ولهذا حسبوا على بني إرم ، مع أن أصلهم من جنس آخر . وفي ضمن هؤلاء قبائل عربية عديدة ، ضاع أصلها ، لأنها تفتقت بثقافة بني إرم ، فظن لذلك أنها منهم .

الآن وقد انتهيت من تحديد معنى (عرب) وتطورها إلى قبيل الإسلام ، أرى لزماً عليّ أن أتحدث عن ألفاظ أخرى استعملت بمعنى (عرب) في عهد من العهود ، وعند بعض الشعوب . فقد استعمل اليونان كلمة (Saraceni)

و (Saracenes) ، واستعملها اللاتين على هذه الصورة (Saracenus) ، وذلك في معنى (العرب)^١ وأطلقوها على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشام^٢ وفي طور سيناء^٣ ، وفي الصحراء المتصلة بأدوم^٤ . وقد توسع مدلولها بعد الميلاد ، ولا سيما في القرن الرابع والخامس والسادس ، فأطلقت على العرب عامة ، حتى أن كتبة الكنيسة ومؤرخي هذا العصر قلما استعملوا كلمة (عرب) في كتبهم ، مستعاضين عنها بكلمة (Saraceni)^٥ . وأقدم من ذكرها هو (ديوسقوريدس (Dioscurides of Anazarbos) الذي عاش في القرن الأول للميلاد^٦ . وشاع استعمالها في القرون الوسطى حيث أطلقها النصارى على جميع العرب ، وأحياناً على جميع المسلمين^٧ . ونجد الناس يستعملونها في الانكليزية في موضع (عرب) ومسلمين حتى اليوم .

وقد أطلق بعض المؤرخين من أمثال (يوسبيوس) ، (أوسبيوس) (Eusebius) و (هيرونيوموس) (Hieronymus) هذه اللفظة على (الاشماعيليين) الذين كانوا يعيشون في البراري في (قادش) في بيرة (فاران) ، أو مدين حيث جبل (حوريب)^٨ . وقد عرفت أيضاً بـ (الهاجريين) (Hagerene) ثم دعت بـ (Saracenes)^٩ .

ولم يتحدث أحد من الكتبة اليونان والرومان والسريان عن أصل لفظة (Saraceni) (Sarakenoi) . ولم يلتفت العلماء الى البحث في أصل التسمية إلا بعد النهضة العلمية الأخيرة ، ولذلك اختلف آراؤهم في التعليل ، فزعم بعضهم انه مركب من (سارة) زوج ابراهيم ، ولفظ آخر ربما هو (قين) ،

١ Forster, Vol., 2, P., 9, Webster's New International Dictionary of English Language, Vol., 2, P., 2216, Ency. Brita., Vol., 19, P. 987

٢ Ency. Brita., Vol., 19, P., 987

٣ Forster, Band, 2, S., 9, Ptolemy, 5, 16, Ency. of Islam, Vol., 4, P. 155.

٤ Forster, Vol., P. 20. f.

٥ Ency. of Islam, Vol., 4, P., 156.

وسيكون الرمز : Ency

٦ Ency., Vol., 4, P., 155, Bretzl, Botanische Forschungen des Alex Alexanderzuges, S., 232.

٧ Ency. Vol., 4 P., 155.

٨ قاموس الكتاب المقدس (١ / ٣٩٥) .

٩ Ency., Vol., 4, P., 156, Eusebius, (ed. Schoene), II, 13, Chron. Pasch., 94, 18.

فيكون المعنى (عبيد سارة)^١ . وقال آخرون : انه مشتق من (سرق) ،
 فيكون المواد من كلمة (Saraceni) (سراكين) (السراقين) أو (السارقين)
 اشارة الى غزوهم وكثرة سطوهم^٢ . أو من (Saraka) بمعنى (Sherka) أي
 (شرق)^٣ ، ويراد بذلك الأرض التي تقع الى شرق النبط . وقال (ونكلر)
 انه من لفظة (شرقو) ، وتعني (سكان الصحراء) أو (أولاد الصحراء) .
 استنتج رأيه هذا من ورود اللفظة في نص من ايام (سرجون)^٤ . ويرى آخرون
 انه تصحيف (شرقيين) ، أو (شارق)^٥ على نحو ما يفهم من كلمة (قدموني)
 (Qadmoni) في التوراة ، بمعنى شرقي ، أو أبناء الشرق (Bene Kedem)
 (Bene Qedhem)^٦ . وكانت تطلق خاصة على القبائل التي رجع النسابون
 العبرانيون نسبها الى (قطورة)^٧ .

وقد مال الى هذا الرأي الأخير أكثر من بحث في هذه التسمية من المستشرقين ،
 فعندهم ان (سرسين) أو (سركين) أو (Sarakenoi) من (شرق) ،
 وان (Bene Kedem) و (Qadmoni) العبرانيّتين هما ترجمتان للفظـة
 (Saraceni)^٨ . ولهذا يرجحون هذا الرأي ويأخذون به .

١ الهلال السنة السادسة ، الجزء (١٥ دسمبر) ١٨٩٧ ، ص ٢٩٦ ، المشرق :
 السنة السابعة ، الجزء ٧ ، ص ٣٤٠ ، حيث رأى (الاب أنستاس ماري
 الكرملّي) ان Sarrasins من (سرحة) ، وهو مخالف باليمن .
 وعلى هذا فهم (السرحيون) . (وسمعتهم يقولون : سراكنو ، سراكنو ،
 ومعناه المسلمون) ، رحلة ابن بطوطة (٢ / ٤٤١) (طبعة اوردية) ، تحفة
 النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار : تهذيب رحلة ابن بطوطة ، بقلم
 أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك ، (بولاق ١٩٣٤) ، (١ /
 ٢٨٨) ، (قل لهذا السركنو يعني المسلم) (ص ٢٩٣) ، (وكانت الروم
 تسمى العرب سارقيوس ، يعني ذوي سارة ، بسبب هاجر أم اسماعيل) ،
 ابن الاثير : الكامل (١ / ١١٧) .

٢ الهلال : السنة ٦ (ج ٨) (١٨٩٧) ص ٢٩٦ .
 ٣ Musil, Arabia Deserta, P., 311, Stephen of Byzantium, Ethnica, P., 556, (Meineke),
 ٤ Ency., Vol., 4, P., 156, Winckler, Altorient. Forschungen, II, Ser., I, 77f.
 ٥ الهلال : الجزء المذكور ، ص ٢٩٦ ، مجلة لغة العرب ، الجزء ٤ السنة ٧
 (١٩٢٩) ص ٢٩٣ ، Ency., Vol., 4, P., 156
 ٦ التكوين : الاصحاح الخامس عشر ، الاية ١٩ .
 ٧ قاموس الكتاب المقدس (٢ / ٢٠٦) ، Hastings, P., 512,
 ٨ التكوين ٢٥ ، الاية ١ - ٦ ، Hastings, P., 512,
 ٩ Musil, Deserta, P., 494.

والقاتلون ان (سارقين) من أصل لفظتين (سارة) ، زوج ابراهيم ، ومن (قين) بمعنى (عبد) وان المعنى هو (عبيد سارة) ، متأثرون برواية التوراة عن سارة وبالشروح الواردة عنها^١ . وليست لأصحاب هذا الرأي أية أدلة أخرى غير هذا التشابه اللفظي الذي نلاحظه بين (سرمين) وبين (سارقين) ، وهو من قبيل المصادفة والتلاعب بالألفاظ ولا شك ، وغير هذه القصة الواردة في التوراة : قصة (سارة) التي لا علاقة لها بالسرمين .

هذا وما زال أهل العراق يطلقون لفظة (شروك) و (شروكية) على جماعة من العرب هم من سكان (لواء العمارة) والأهوار في الغالب ، وينظرون اليهم نظرة خاصة ، ولا شك عندي ان لهذه التسمية علاقة بتلك التسمية القديمة . ويستعمل أهل العراق في الوقت الحاضر لفظة أخرى ، هي (الشرجية) ، أي (الشرقية) ، ويقصدون بها جهة المشرق . وتقابل لفظة (بني قديم) في العبرانية ، وهي من بقايا المصطلحات العراقية القديمة التي تعبر عن مصطلح (شركوني) و (بني قديم) .

هذا وقد عرف العرب ان الروم يسمونهم (ساراقينوس) ، فقد ذكر (المسعودي) ان الروم الى هذا الوقت (أي الى وقته) تسمي العرب (ساراقينوس). وذكر خبراً طريفاً عن ملك الروم (نقفور) المعاصر لـ (هارون الرشيد) . فقد زعم انه (أنكر على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس . تفسر ذلك عبيد ساره ، طعناً منهم على هاجر وابنها اسماعيل ، وانها كانت أمة لسارة ، وقال : تسميتهم عبيد سارة ، كذب^٢ .

وقد كانت منازل (القدمونين) ، (هقدميني) ، (هاقدموني) (Kadmonites) ، في المناطق الشرقية لفلسطين ، أي في بادية الشام . ولما كان (قيدما) (Kedemeh) هو أحد أبناء اسماعيل في اصطلاح (التوراة) ، فيكون أبناء (قيدما) من العرب الاسماعيليين^٣ . وقد ذكر في موضع من التوراة انهم كانوا يقطنون المناطق الشرقية لفلسطين قرب (البحر الميت) المعروف في

١ لغة العرب ج ٤ ، من السنة ٧ ، ص ٢٩٤ .

٢ التنبيه (ص ١٤٣) (طبعة عبد الله اسماعيل الصاوي) .

٣ Hastings, P., 512, Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P., 633.

العبرانية بـ (هائم هقدموني) ، أي (البحر القدموني) (البحر الشرقي)^١ .
وقد كان (القدمونيون) ، أي (بنو قديم) أعراباً يقطنون في بادية الشام .
وأشباه أعراب ، أي رعاة وأشباه حضريين ، واللفظة لا تعني قبيلة واحدة معينة ،
أي علمية ، ولا تعني قبائل معينة ، وإنما هي لفظة عامة أطلقت على الساكنين
في الأماكن الشرقية بالنسبة إلى العبرانيين^٢ .

ونجد في الكتب اليونانية لفظة لها علاقة بطائفة من العرب ، هي (Skenitae)
(Scenitae) ، وقد أطلقت خاصة على أعراب بادية الشام . وقصد بها الأعراب
سكان الخيام ، أي (أهل الوبر) في اصطلاح العرب . وقد ذهب بعض العلماء
إلى أنها من (الخيمة) التي هي منزل الأعرابي ، لأن الخيمة هي (Skene)
(Skynai) في اليونانية . فالعنى إذن (سكان الخيام)^٣ .

وقد ذكر (سترابون) أن الـ (Scenitae) كانوا نازلين على حدود
(سورية) الشرقية ، كما ذكر أن منهم من كان يتزل شمال (العربية السعيدة)
وهم سكان خيام^٤ . وقد فرق (سترابون) بينهم وبين البدو تفرقاً ظاهراً ،
وميزهم عن غيرهم من الأعراب بسكنائهم في الخيام . وقال عنهم في موضع
آخر : أنهم يمثلون بصورة عامة (بدو) العراق^٥ . وأنهم يعتنون بتربية الإبل .
وقد ذكرهم أيضاً في أثناء كلامه على ساحل (Maranitae) فقال : أنه مأهول
بالفلاحين وبالك (Scenitae) وأراد بهم الأعراب الذين لا يسكنون إلا الخيام
ويعيشون على تربية الإبل ، وقد ذكر أنهم كانوا قبائل ومشيعات^٦ .

وقد ذكرهم (بلينيوس) كذلك ، فدعاهم بـ (Scenitae)^٧ . وقد
كانوا يقيمون في البادية . وقد حاربهم (سبتيموس سيفروس) ، وسأحدث

-
- | | | |
|---|--|--|
| ١ | حزقيال ، الإصحاح ٤٤ ، الآية ١٨ | Hastings, A Dictionary, I, P., 8311, |
| ٢ | | J. Simons, The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament, P., 13. |
| ٣ | | Webster's New International Dictionary of the English Language, Vol, 2, P. 2233, |
| | | Strabo, XVI, 2 : 2, Vol., I, P., 63, 196, 441, Vol., 2, P. 219. 252. Vol. 3. P. 160. |
| | | 166, 185, 190, 204, (Hamilton). |
| ٤ | | Strabo, Vol., I, P., 196, 441. |
| ٥ | | Musil, Palmyrena, p., 209, Strabo, Vol., 3, P., 166, 190, 204. |
| ٦ | راجع المواضع المشار إليها من جغرافية (سترابون) ، | |
| | | Dio., P., 254, A Cyclopaedia of Biblical Literature, by, John Kitto, I, P., 184. |
| ٧ | | Pliny, 6, 143, Der Araber, 1, 178. |

عن ذلك فيما بعد ، كما أشار غيره اليهم . والظاهر ان لفظة (Nomas) (Nomadas) التي تعني (البدو) لا تؤدي معنى (Scenitae) أي سكان الخيام . اذ فرق الكتبة اليونان في مؤلفاتهم بين اللفظتين . وأغلب ظني ان المراد بسكان الخيام الأعراب المستقرون بعض الاستقرار ، أي الذين عاشوا في مضارب عيشة شبه مستقرة ، لهم خيامهم وإبلهم وحيواناتهم على مقربة من الريف والحضارة . أما الـ (نومادس) (Nomades) (Nomadas) فقد كانوا قبائل رحلا يعيشون في البوادي لا يستقرون في مكان واحد ، متى وجدوا فرصة اغتناموها فأغاروا على من يجدونهم أمامهم ، للعيش على ما يقع في أيديهم . ولذلك كانت ظروف ضعف الحكومات أو انشغالها بالحروب من أحسن الفرص المناسبة لهم . ومن هنا فرق الكتبة اليونان وغيرهم بين الجماعتين^١ .

إننا لا نستطيع أن نحدد الزمان الذي ظهر فيه مصطلح (سكينيتيه) بين اليونان واللاتين . وقد يكون ترجمة للفظه أخذوها من الفرس أو الآشوريين أو غيرهم من الشعوب . ومصطلح (أهل الوبر) ، هو مصطلح يقابل جملة (سكان الخيام) في نظري . أما مصطلح (أهل بادية) أو (أعراب بادية) أو (سكان البوادي) ، فإنه تعبير يقابل (Nomadas) عند اليونان .

وعرف العرب عند الفرس وعند بني إرم بتسمية أخرى ، هي : (Tayayo) و (Taiy) . أما علماء عهد التلمود من العبرانيين ، فأطلقوا عليهم لفظة (طي ي ع ا) (طيعا) و (طيايا) (طياية)^٢ وأصل الكلمتين واحد على ما يظهر ، أخذ من لفظة (طيء) اسم القبيلة العربية الشهيرة على رأي أكثر العلماء^٣ . وكانت تنزل في البادية في الأرضين المتاخمة لحدود امبراطورية الفرس ، وكانت من أقوى القبائل العربية في تلك الأيام ، ولهذا صار اسمها مرادفاً للفظه (العرب) (عرب) . وقد ذكر (برديسان) اسم (Tayaye) (Tayoye) مع (Sarakoye)^٤ .

Der Araber, I, S., 178.

The Uni. Jew. Ency., Vol., 2, P., 43, Margollouth, P., 57, Ency, Vol. 4. p. 598.

Ency., Vol., 4, P., 598,

Ency., Vol., 4, P., 598, Cureton, Spicil. Syr., P., 16, Noldeke, in ZDMG. IXLX.

713, Margollouth, The Relations, P., 57, Kraus, in ZDMG, IXX, 321, foll.

وقد شاعت هذه التسمية قرب الميلاد ، وانتشرت في القرون الأولى للميلاد ،
كما يتبين ذلك من الموارد السريانية والموارد اليهودية ^١ .

واستعملت النصوص (الفهلوية) (Pahlawi) لفظة (تاجك)
(Tadjik) (Tachik) (Tashik) في مقابل (عرب) ، كما استعملت
الفارسية لفظة (تازي) بهذا المعنى أيضاً . واستعمل الأرمن كلمة (تيجك)
(Tachik) في معنى عرب ومسلمين ، واستعمل الصينيون لفظة (تشي)
(Tashi) لهذه التسمية . وقد عرف سكان آسية الوسطى الذين دخلوا في الإسلام
بهذه التسمية ، كما أطلق الأتراك على الإيرانيين لفظة (تيجك) ، من تلك
التسمية ، حتى صارت لفظة (تيجك) تعني (الإيراني) في اللغة التركية ^٢ .

ويرى بعض العلماء ان (تاجك) و (تيجك) و (تازك) ، هي من الأصل
المتقدم . من أصل لفظة (طيء) ^٣ . ولكلمة (تازي) في الفارسية معنى
(صحراوي) ، من (تاز) (Taz) ، بمعنى الأرض المقفرة الحالية ، ولذلك
نسب بعض الباحثين كلمة (تازي) الى هذا المعنى ، فقالوا انها أطلقت على
العرب لما اشتهر عنهم أنهم صحراويون ^٤ .

وقد زعم (حمزة الأصفهاني) ان الفرس أطلقوا على العرب لفظة (تاجيان) ،
نسبة الى (تاج بن فروان بن سيامك بن مثنى بن كيومرث) ، وهو جد
العرب ^٥ .

وبعض هذه التسميات المذكورة ، لا يزال حياً مستعملاً ، ولكنه لم يبلغ
مبلغ لفظة (عرب) و (العرب) في الشهرة والانتشار . فقد صارت لفظة
(عرب) ، علماً على قومية وجنس معلوم ، له موطن معلوم ، وله لسان

١ O'Leary, Arabia, P., 18, J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, S., 233. f.

٢ Ency., Vol., 4, P., 598.

٣ Ency., Vol., 4, P., 598.

٤ الرسالة : الجزء ٦٥٤ ، السنة ١٩٤٦ ، تعليق بقلم (ح . م . ع) من النجف
على كلمة « تاجك » ، وكنت قد كتبت فيها في مجلة الرسالة المصرية قبل هذا
الجزء .

• حمزة (٢٤) .

خاص به يميزه عن سائر الألسنة، من بعد الميلاد حتى اليوم . وقد وسع الاسلام رقعة بلاد العرب ، كما وسع مجال اللغة العربية ، حتى صارت بفضل لغة عالمية خالدة ذات رسالة كبيرة ، غمرت بفضل الاسلام بعض اللغات مثل الفارسية والتركية والأردية ولغات اخرى، فزودتها بمادة غزيرة من الألفاظ ، دخلت فيها حتى صارت جزءاً من تلك اللغات ، يظن الجاهل انها منها لاستعماله لها ، ولكنها في الواقع من أصل عربي .

وربّ سائل يقول: لقد كان للعرب قبل الإسلام لغات ، مثل المعينية والسبئية والحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية وأمثالها ، اختلفت عن عربية القرآن الكريم اختلافاً كبيراً ، حتى إن أحدنا إذا قرأ نصاً مدوناً بلغة من تلك اللغات عجز عن فهمه ، وظن إذا لم يكن له علم بلغات العرب الجاهليين أنه لغة من لغات البرابرة أو الأعاجم ، فماذا سيكون موقفنا من أصحاب هذه اللغات ، وهل نعدّهم عرباً ؟

والجواب أن هؤلاء ، وإن اختلفت لغتهم عن لغتنا وباينت ألسنتهم ألسنتنا ، فإنهم عرب لحمًا ودمًا، ولدوا ونشأوا في بلاد العرب ، لم يردوا اليها من الخارج ، ولم يكونوا طارئین عليها من أمة غريبة . فهم إذن عرب مثل غيرهم ، وكل لغات العرب هي لغات عربية ، وإن اختلفت وتباينت ، وما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم إلا لغة واحدة من تلك اللغات ، ميزت من غيرها ، واكتسبت شرف التقدم والتصدر بفضل الإسلام ، وبفضل نزول الكتاب بها ، فصارت (اللغة العربية الفصحى) ولغة العرب أجمعين .

وحكمنا هذا ينطبق على النبط أيضاً وعلى من كان على شاكلتهم ، وإن عدهم علماء النسب والتاريخ واللغة والأخبار من غير العرب ، وأبعدوهم عن العرب والعربية، فقد كان أولئك وهؤلاء عرباً أيضاً ، مثل عرب اليمن المذكورين ومثل ثمود والصفويين واللحيانيين ، لهم لهجاتهم الخاصة ، وإن تأثروا بالإرامية وكتبوا بها ، فقد تكلم اليهود بالإرامية ونسي كثير منهم العبرانية ، ولكن نسيان أولئك اليهود العبرانية ، لم يخرجهم مع ذلك عن العبرانيين .

وسترد في بحثنا عن تاريخ الجاهلية أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة لا عهد للإسلاميين بها ، ولا علم لهم عنها ، ذكروا في التوراة وفي كتب اليهود الأخرى

وفي الموارد اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية . وإذا جاز لأحد الشك في أصل بعض القبائل المذكورة في كتب اليهود أو في مؤلفات الكتبة (الكلاسيكيين) على اعتبار أنها أخطأت في ادخلها في جماعة العرب ، فإن هذا الجواز يسقط حتماً بالنسبة الى القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية ، وبالنسبة الى القبائل التي دونت تلك الكتابات . فهي كتابات عربية ، وإن اختلفت عن عربيتنا وبابت لغتها لغتنا ، لأنها لهجة قوم عاشوا في بلاد العرب ونبتوا فيها ، وقد كان لسانهم هذا اللسان العربي المكتوب .

فسيئنا في هذا الكتاب إذن ، هو البحث في كل العرب : العرب الذين تعارف العلماء الإسلاميون على اعتبارهم عرباً ، فنحوهم شهادة العروبة ، بحسب طريقتهم في تقسيمهم الى طبقات ، وفي وضعهم في أشجار نسب ومخططات ؛ والعرب المجهولين الذين لم يمنحوا هذه الشهادة بل حرموا منها ، ونص على إخراجهم من العرب كالنبت على ما ذكرت ، والعرب المجهولين كل الجاهل الذين لم يكن للمسلمين علم ما بهم ، ولم يكن لهم علم حتى بأسمائهم . سنتحدث عن هؤلاء جميعاً ، على اعتبار أنهم عرب ، جهلهم العرب ، لأنهم بادوا قبل الإسلام ، أو لأنهم عاشوا في بقاع معزولة نائية ، فلم يصل خبرهم الى الإسلاميين ، فلما شرع المسلمون في التدوين ، لم يعرفوا عنهم شيئاً ، فأهملوا ، ونسوا مع كثير غيرهم من المنسيين .

سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا^١ . ولكن علماء العربية لم يتوصلوا من عروبة حمير ، ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان آخر مخالف للساننا ، بل عدّوهم من صميم العرب ومن لبسها ، ونحن هنا لا نستطيع أن ننكر على الأقوام العربية المنسية عروبتها ، لمجرد اختلاف لسانها عن لساننا ، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغة لا نفهمها . فلغتها هي لغة عربية ، ما في ذلك شك ولا شبهة ، وإن اختلفت عن لسان يعرب أو أي جد آخر يزعم أهل الأخبار أنه كان أول من أعرب في لسانه ، فتكلم بهذه العربية التي أخذت تسميتها من

١ الجمحي : طبقات الشعراء (ص ٤ وما بعدها) .

ذلك الإعراب .

وبعد أن عرفنا معنى لفظة العرب والألفاظ المرادقة لها ، أقول إن بلاد العرب أو (العربية) ، هي البوادي والقلوات التي أطلق الآشوريون ومن جاء بعدهم على أهلها لفظة (الأعراب) ، وعلى باديتهم (Arabeae) و (Arabae) وما شاكل ذلك . وهي جزيرة العرب وامتدادها الذي يكون بادية الشام حتى نهايتها عند اقتراب الفرات من أرض بلاد الشام ، فالفرات هو حدها الشرقي . أما حدها الغربي ، فأرض الحضر في بلاد الشام . وتدخل في العربية بادية فلسطين و (طور سيناء) الى شواطئ النيل . وقد أطلق بعض الكتاب اليونان على الأرضين الواقعة شرق الـ (Araxe) ، أي الخابور اسم (Arabia)^١ كما أدخل (هيرودوتس) أرض طور سيناء الى شواطئ نهر النيل في (العربية) (Arabia) أي بلاد العرب^٢ .

أما الآن ، وقد عرفنا لفظة عرب ، وكيف تحددت ، وتطورت ، أرى لزماً علينا الدخول في صلب موضوعنا وهو تاريخ العرب ، مبتدئين بمقدمة عن الجاهلية وعن الموارد التي استقينها منها أخبارها ، ثم بمقدمات عن جزيرة العرب وعن طبيعتها وعن الساميين وعقليتهم وعن العقيلة العربية، تليها بحوث في أنساب العرب ، ثم ندخل بعد ذلك في التاريخ السياسي للعرب ، ثم بقية أقسام تاريخ العرب من حضارة ومدنية ودينية واجتماعية ولغوية .

ولما كان الاسلام أعظم حادث نجم على الإطلاق في تاريخ العرب، أخرجهم من بلادهم الى بلاد أخرى واسعة فسيحة ، وميزهم أمة تؤثر تأثيراً خطيراً في حياة الناس .. صار ظهوره نهاية لدور ومبدأً لتاريخ دور ، ونهاية إمام عرفت بـ (الجاهلية) وبداية عهد عرف بـ (الاسلام) ما زال قائماً مستمراً ، وسيستمر الى ما شاء الله ، به أرخ تاريخ العرب ، فما وقع قبل الاسلام، عرف بتاريخ العرب قبل الاسلام ، وما وقع بعده قيل له : تاريخ العرب بعد الاسلام .

وسيكون بحثنا هنا ، أعني في هذه الأجزاء المتتالية في القسم الأول من

Xenophon, An., I, 5, I, Der Araber, In der Alten Welt, I, S., 165.

١

Herodot, 2, 15, Der Araber, I, S., 166.

٢

تاريخ العرب ، وهو قسم تاريخ العرب قبل الاسلام ، أما القسم الثاني ، وهو تاريخ العرب في الاسلام ، فستأتي أجزاؤه بالتالي أيضاً بعد الانتهاء من هذا القسم .

وبعد هذه المقدمة ، فلنطور صفحات هذا الفصل ، ولننتقل الى فصل جديد، هو الفصل الثاني من هذه الفصول ، فصل : الجاهلية ومصادر التاريخ الجاهلي .

الفصل الثاني

الجاهلية ومصادر التاريخ الجاهلي

اعتاد الناس أن يسموا تاريخ العرب قبل الاسلام (التاريخ الجاهلي) ، أو (تاريخ الجاهلية) ، وان يذهبوا الى ان العرب كانت تغلب عليهم البداوة ، وانهم كانوا قد تخلفوا عن حولهم في الحضارة ، فعاش أكثرهم عيشة قبائل رحل ، في جهل وغفلة ، لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي ، ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم ، أميون ، عبدة أصنام ، ليس لهم تاريخ حافل ، لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الاسلام عندهم بـ (الجاهلية) .

و (الجاهلية) اصطلاح مستحدث ، ظهر بظهور الاسلام ، وقد أطلق على حال قبل الاسلام تمييزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة ، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من اطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة ، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها وتمكن منها ، وذلك لتمييزها وتفريقها عن العهود التي قد تسميها أيضاً بتسميات جديدة^١ . وفي التسميات التي تطلق على العهود السابقة ، ما يدل ضمناً على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان .

وقد سبق للنصارى ان أطلقوا على العصور التي سبقت المسيح والنصرانية

١ (وفي كتاب ليس لابن خالويه ان لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمان الذي كان قبل البعثة) ، المزمهر (١٧٦) ، بلوغ الأرب (١ / ١٥) .

(الجاهلية) ، أي (ايام الجاهلية) ، أو (زمان الجاهلية) ، استهجاناً لأمر تلك الأيام ، وازدراءً بجهل أصحابها لحالة الوثنية التي كانوا عليها ، ولجهالة الناس اذ ذاك وارتكابهم الخطايا التي أبعدهم ، في نظر النصرانية ، عن العلم ، وعن ملكوت الله . (وقد أغضى الله عن أزمنة هذا الجهل فيبشر الآن جميع الناس في كل مكان الى ان يتوبوا)^١ .

وقد وردت لفظة (الجاهلية) ، في القرآن الكريم، وردت في السور المدنية^٢ ، دون السور المكية ، فدل ذلك على أن ظهورها كان بعد هجرة الرسول الى المدينة ، وان اطلاقها بهذا المعنى كان بعد الهجرة ، وان المسلمين استعملوها منذ هذا العهد فما بعده .

وقد فهم جمهور من الناس أن الجاهلية من الجهل الذي هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم، ومن الجهل بالقراءة والكتابة ، ولهذا ترجمت اللفظة في الانكليزية بـ (The Time of Ignorance) ، وفي الألمانية بـ (Zeit der Unwissenheit)^٣ وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبيرائع الدين واتباع الوثنية والتعبد لغير الله ، وذهب آخرون الى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتعجب وغير ذلك من الخلال التي كانت من أبرز صفات الجاهليين^٤ .

ويرى المستشرق (كولدتزهير) (Goldziher) أن المقصود الأول من الكلمة

١ اعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ٣٠
٢ آل عمران ، الآية ١٥٤ ، المائدة ، الآية ٥٠ ، الاحزاب ، الآية ٢٣ ، الفتح ، الآية ٢٦ .

٣ Ency., Vol., I, P., 999, Zwemer, Arabia the Cradle of Islam, P., 158.

٤ لسان العرب (١٣ / ١٣٧) ، اساس البلاغة (١ / ١٤٥) ، صحاح الجوهري ، (٢ / ١٦٩) ، القاموس المحيط (٣ / ٢٥٣) (الطبعة الرابعة) ، ذيل اقرب الموادب (ص ١٤٧) ، شرح المعلقات السبع للزوزني (١٧٦) ، شرح ديوان عنترة بن شداد ، (ص ١٢٦) ، الاغانى (٢١ / ٢٠٧) ، بلوغ الأرب (١ / ١٦) ، فجر الاسلام (١ / ٨٧) .

لامية العرب ، للشنفرى ، « ولا يزدهى الا جهال حلمي » ، ٥٣ فجر الاسلام ص ٨٦ ، (الطبعة الثالثة) ، الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٣ ، (وهذا يؤيد قول المستشرق كولدتزهير الذي اثبت ان الجهل ضد العلم ، لا ضد العلم) .

Ency., Vol., P., 999, Muh. Stu., I.S., 219. ff., Nicholson, A Literary, 1941 P. 30.

(السفه) الذي هو ضد الحلم ، والأنفة والخفة والغضب وما إلى ذلك من معان ، وهي أمور كانت جد واضحة في حياة الجاهليين ، ويقابلها الاسلام ، الذي هو مصطلح مستحدث أيضاً ظهر بظهور الاسلام ، وعمادة الخضوع لله والانقياد له^١ ونبد التفاخر بالأحساب والأنساب والكبر وما إلى ذلك من صفات نهى عنها القرآن الكريم والحديث .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في مواضع منه^٢، منها آية سورة الفرقان : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً)^٣ ، وآية سورة البقرة : (قالوا أنخذلنا هزواً ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)^٤ ، وآية سورة الأعراف : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)^٥ ، وآية هود : (اني أعظك أن تكون من الجاهلين)^٦ . وفي كل هذه المواضع ما ينم على أخلاق الجاهلية . وقد ورد في الحديث : (اذا كان أحدكم صائماً ، فلا يرفث ولا يجهل)^٧ ، وورد أيضاً : (لإنك امرؤ فيك جاهلية)^٨ وبهذا المعنى تقريباً وردت الكلمة في قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا^٩

أي : لا يسفه أحد علينا ، فنسفه عليهم فوق سفههم ، أي نجازيهم جزاء يربسي عليه .

- ١ فجر الاسلام (ص ٨٧) ،
Ency., Vol., I, P., 999, Muh. Stud., Bd., I, S. 244 f.
- ٢ راجع فهارس القرآن الكريم
- ٣ سورة الفرقان ، آية ٦٣ ، تفسير الطبري (١٩ / ٢١) (انهم يمشون عليها بالحلم ، لا يجهلون على من جهل عليهم) ، بلوغ الارب (١ / ١٦) .
- ٤ سورة البقرة ، آية ٦٧ .
- ٥ سورة الاعراف ٧ آية ١٩٨ ، تفسير الطبري (١٠٤ / ٩) ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ، هامش تفسير الطبري (٩ / ١٠٥) .
- ٦ سورة هود ١١ آية ٤٦ .
- ٧ بلوغ الارب (١ / ١٦) .
- ٨ ذيل اقرب الموارد (٣ / ١١٥) ، فجر الاسلام (١ / ٨٧) ، بلوغ الارب (١ / ١٦) فما بعدها .
- ٩ بلوغ الارب (١ / ١٦) ، محيط المحيط ص ٣٠٩ ، أساس البلاغة (١ / ١٤٥) ، فجر الاسلام (١ / ٨٧) ، شرح المعلقات السبع للزوزني ١٥١ .

واستعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كثير^١ .
وجاء في سورة المائدة : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً
لقوم يوقنون)^٢ أي أحكام الملة الجاهلية وما كانوا عليه من الضلال والجور في
الأحكام والتفريق بين الناس في المنزلة والمعاملة^٣ .

وأطلقوا على (الجاهلية الجاهلاء) ، والجاهلاء صفة للأولى يراد بها التوكيد،
وتعني (الجاهلية القديمة)^٤ . وكانوا اذا عابوا شيئاً واستبشعوه ، قالوا : (كان
ذلك في الجاهلية الجاهلاء)^٥ . و (الجاهلية الجاهلاء) هي الوثنية التي حاربها
الاسلام . وقد أنب القرآن المشركين على حيلتهم الوثنية ، فقال : « اذ جعل الذين
كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية »^٦ .

والرأي عندي ان الجاهلية من السفه والحقق والأنفة والخفة والغضب وعدم
الانقياد لحكم وشريعة وارادة إلهية وما الى ذلك من حالات انتقصها الاسلام .
فهي في معنى (اذهب يا جاهل) نقولها في العراق لمن يتسفه ويتحرق وينطق
بكلام لا يليق صدره من رجل ، فلا يبالي أدباً ولا يراعي عرفاً ، و (رجل
جاهل) نطلقه على من لا يهتم بمجتمع ودين ، ولا يتورع من النطق بأفحش
الكلام . ولا يشترط بالطبع أن يكون ذلك الرجل جاهلاً أمياً ، أي ليس له
علم ، وليس بقارئ كاتب .

وقد اختلف المفسرون في المراد من الجاهلية الأولى في قوله تعالى : (وقرن
في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)^٧ ، فقيل : (الجاهلية الأولى التي

-
- ١ بلوغ الارب (١ / ١٦) .
 - ٢ سورة المائدة ٥ آية ٥ . تفسير الخازن (١ / ٥١٦) ، مدارك التنزيل وحقائق
التأويل للنسفي ، حاشية على الخازن (١ / ٥١٦) .
 - ٣ محيط المحيط (٣٠٩) ، تفسير الخازن (١ / ٥١٦) .
 - ٤ محيط المحيط ٣٠٩ ، أساس البلاغة (١ / ١٤٥) ، صحاح الجوهري
(٢ / ١٦٩) ، اقرب الموارد ص (١٤٧) (وقالوا الجاهلية الجاهلاء فبالغوا) ،
لسان العرب (١٣ / ١٣٧) شمس العلوم ، (ج ١ ي ٢ ، ص ٣٦٨)
اقرب الموارد ١٤٧ .
 - ٥ سورة الفتح ٤٨ آية ٢٦ . عن الجاهلية والجهل وما ورد بهذا المعنى في القرآن
الكريم ، راجع تفصيل آيات القرآن الحكيم ، تأليف جون لا بوم ، نقله الى
العربية محمد فؤاد عبد الباقي ص ٦٢١ .
 - ٧ سورة الاحزاب رقم ٣٣ ، آية ٣٣

ولد فيها ابراهيم ، والجاهلية الأخرى التي ولد فيها محمد ^١ . وقبل (الجاهلية الأولى بين عيسى ومحمد) ^٢ ، وقد أدى اختلافهم في مفهوم هذه الآية الى تصور وجود جاهليتين جاهلية قديمة ، وجاهلية أخرى هي التي كانت عند ولادة الرسول ^٣ .

واختلف العلماء في تحديد مبدأ الجاهلية ، أو العصر الجاهلي ، فذهب بعضهم الى أن الجاهلية كانت فيما بين نوح وإدريس ^٤ . وذهب آخرون الى أنها كانت بين آدم ونوح ، أو أنها بين موسى وعيسى ، أو الفترة التي كانت ما بين عيسى ومحمد ^٥ . وأما منتهاها ، فظهور الرسول ونزول الوحي عند الأكثرين ، أو فتح مكة عند جماعة ^٦ . وذهب ابن خالويه الى أن هذه اللفظة اطلقت في الإسلام على الزمن الذي كان قبل البعثة ^٧ .

والذي يفهم خاصة من كتب الحديث أن أصحاب الرسول كانوا يعنون بـ (الجاهلية) الزمان الذي عاشوا فيه قبل الإسلام ، وقبل نزول الوحي ، فكانوا يسألون الرسول عن أحكامها ، وعن موقفهم منها بعد اسلامهم ، وعن العهود التي قطعوها على أنفسهم في ذلك العهد ، وقد أقر الرسول بعضها ، ونهى عن بعض آخر ^٨ ، وذلك يدل على أن هذا المعنى كان قد تخصص منذ ذلك الحين ،

- ١ طبقات ابن سعد (١٤٣/٨ ، ١٤٥) .
- ٢ بلوغ الأرب (١٧/١) ، مفتاح كنوز السنة (تأليف فنسنتك) ص ١٠٩ .
- ٣ وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى ، وقد اوقع لفظ الجاهلية على تلك المدة التي قبل الاسلام كما لا يخفى (بلوغ الأرب (١٨/١) .
- ٤ تأريخ الطبري (٨٣/١) ، الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٢ .
- ٥ بلوغ الأرب (١٦/١) فما بعدها) ، (والفترة ما بين كل نبين . وفي الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة ، وفي الحديث فترة ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام) ، لسان العرب (١٣٧/١٣) .
- ٦ بلوغ الأرب (١٦/١) فما بعدها) .
- ٧ بلوغ الأرب (١٥/١) ، المزهر ١٧٦ وفي (كتاب ليس) لابن خالويه : أن لفظ الجاهلية اسم حدث في الاسلام للزمن الذي كان قبل البعثة) .
- ٨ صحيح مسلم (٧٩/١) ، صحيح البخاري ك ٢٤ ب ٢٤ ، ك ٣٤ ب ١٠٠ ، ك ٤٩ ب ١٢ ، ك ٧٨ ب ١٦ ، ك ٨٨ ب ١ ، ك ٣٣ ب ٥ ، ك ١٥ ، ك ٦٤ ب ٥٤ ، قال صلى الله عليه وسلم : اربع في امتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالاحساب ، والظن في الانساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة) ، بلوغ الأرب (١٧/١) ، مسند احمد بن حنبل (٢/١١ ، ١٠٣ ، ١٨٧) ، (٣/٤٢٥) ، مفتاح كنوز السنة ص ١٠٨ .

وأصبح للفظـة (الجاهلية) مدلول خاص في عهد الرسول . وأطلق بعض العلماء على الذين عاشوا بين الميلاد ورسالة الرسول (أهل الفترة) وهم في نظرهم جماعة من أهل التوحيد ممن يقر بالبعث ، ذكروا منهم : (حنظلة ابن صفوان) نبي (أصحاب الرّس) وأصحاب الأخدود ، وخالد بن سنان العنسي ، و (وثاب السني) وأسعد أبا كرب الحميري ، وقس بن ساعدة الإيادي وأمّية بن أبي الصلت ، وورقة بن نوفل ، وعداس مولى عتبة بن أبي ربيعة ، وأبا قيس صرية بن أبي أنس من الأنصار ، وأبا عامر الأوسي ، وعبدالله بن جحش وآخرين^١ . فهم اذن طبقة خاصة من الجاهليين ، ميزوا عن غيرهم بهذه السمة ، لأنهم لم يكونوا على ملة أهل الجاهلية من عبادة الأصنام والأوثان .

فلفظة (الجاهلية) اذن نعت اسلامي ، من نوع النعوت التي تطلق في اليهود السابقة على حركة ما أو انقلاب . أطلقه المسلمون على ذلك العهد ، كما نطلق اليوم نعوتاً وأسماء على اليهود الماضية التي يثور الناس عليها ، من مثل مصطلح (العهد المباد) الذي أطلق في العراق على العهد الملكي منذ ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، ومثل المصطلحات الأخرى الشائعة في الأقطار العربية الأخرى ، والتي اطلقت على اليهود السابقة للثورات والانتقالات .

موارد التاريخ الجاهلي :

تاريخ الجاهلية هو أضعف قسم كتبه المؤرخون العرب في تاريخ العرب ، يعوزه التحقيق والتدقيق والغزلة . وأكثر ما ذكروه على انه تاريخ هذه الحقبة ، هو أساطير ، وقصص شعبي ، وأخبار أخذت عن أهل الكتاب ولا سيما اليهود ، وأشياء وضعها الوضاعون في الاسلام ، لما رآب اقتضتها العواطف والمؤثرات الخاصة .

وقد تداول العلماء وغير أصحاب العلم هذه الأخبار على انها تاريخ الجاهلية حتى القرن التاسع عشر . فلما انتهت الى المستشرقين ، شكّوا في أكثرها ، فتناولوها بالنقد . استناداً الى طرق البحث الحديثة التي دخلت على العلوم النظرية، وتفتحت بذلك آفاق واسعة في عالم التاريخ الجاهلي لم تكن معروفة، ووضعوا الأسس للجادات التي ستوصل عشاق التاريخ الى البحث في تاريخ جزيرة العرب .

١ مروج الذهب (١ / ٣٨ فما بعدها) .

وكان أهم عمل رائع قام به المستشرقون هو البحث عن الكتابات العربية التي دوتها العرب قبل الاسلام ، وتعليم الناس قراءتها بعد أن جهلوا مدة تنيف على ألف عام . وقد فتحت هذه النصوص باب تاريخ الجاهلية ، ومن هذا الباب يجب أن نصل الى التاريخ الجاهلي الصحيح .

لقد كلف البحث عن هذه الكتابات العلماء والسياح ، ثمناً غالياً كلفهم حياتهم في بعض الأحيان ، ولم يكن من السهل تجول هؤلاء الأوروبيين بأرياء مختلفة في أماكن تغلب عليها الطبيعة الصحراوية للحصول على معلومات عن الخرائب والعاديات والحصول على ما يمكن الحصول عليه من نقوش وكتابات .

والتاريخ الجاهلي مع ذلك في أول مرحلة من مراحل وفي الدرجات الأولى من سلم طويل متعب . ولا يُتَظَرُّ التقدم أكثر من ذلك، إلا إذا سهّل للعلماء التجوال في بلاد العرب ، لدراستها من جميع الوجوه ، وللبحث عن العاديات ، ويسرت لهم سبل البحث ، ووضعت أمامهم كل المساعدات الممكنة التي تأخذ بأيديهم الى الكشف عن مواطن ذلك التاريخ والبحث عن مدافن كنوز الآثار تحت الأتربة واستخراجها وحل رموزها، لجعلها تنطق بأحوالها في تلك الأيام . وتلك مسؤولية لن تُفهم إلا إذا فهم العرب وعلى رأسهم الحاكمون منهم أن من واجبهم المحافظة على تاريخ العرب القديم بصيانة مواطن الآثار ومنع الاعتداء عليها ، بانزال أشد العقوبات فيمن يحطم تمثالاً ، لاعتقاده بأنه صنم ، أو يهدم أثراً للاستفادة من حجره ، أو ما شابه ذلك من هدم وتخريب .

لم يطمئن المستشرقون الى هذا المروي في الكتب العربية عن التاريخ الجاهلي ولم يكتفوا به ، بل رجعوا الى مصادر وموارد ساعدتهم في تدوين هذا الذي نعرفه عن تاريخ الجاهلية ، وهو شيء قليل في الواقع ، ولكنه مع ذلك خير من هذا القديم المتعارف وأقرب منه الى التأريخ ، وقد تجمعت مادته من هذه الموارد :

(١) النقوش والكتابات .

(٢) التوراة والتلمود والكتب العبرانية الأخرى .

(٣) الكتب اليونانية واللاتينية والسريانية ونحوها .

(٤) المصادر العربية الاسلامية .

١ - النقوش والكتابات :

تعد النقوش والكتابات في طليعة المصادر التي تكون التاريخ الجاهلي ، وهي وثائق ذات شأن ، لأنها الشاهد الناطق الحي الوحيد الباقي من تلك الأيام ، وأريد أن أقسمها الى قسمين : نقوش وكتابات غير عربية تطرقت الى ذكر العرب كبعض النصوص الآشورية أو البابلية ، ونصوص وكتابات عربية كتبت بلهجات مختلفة ، منها ما عثر عليه في العربية الجنوبية ، ويدخل ضمنها تلك التي وجدت في مصر أو في بعض جزر اليونان أو في الحبشة ، وهي من كتابات المعينيين والسبئيين ، ومنها ما عثر عليه في مواضع أخرى من جزيرة العرب ، مثل أعالي الحجاز وبلاد الشام والعربية السعودية والكويت ومواقع أخرى ، وكل ما عثر أو سيعثر عليه من نصوص في جزيرة العرب مدوناً بلهجة من اللهجات التي تعارف علماء العرب أو المستشرقون على اعتدادها من لغات العرب .

وأغلب الكتابات الجاهلية التي عثر عليها هي ويا للأسف في امور شخصية ، ولذلك انحصرت فوائدها في نواح معينة ، في مثل الدراسات اللغوية ، وأقلها النصوص التي تتعرض لحالة العرب السياسية ، أو الأحوال الاجتماعية أو العلمية أو الدينية أو النواحي الثقافية والحضارية الأخرى ، ولهذا بقيت معارفنا في هذه النواحي ضحلة غير عميقة . وكل أملنا هو في المستقبل ، فلهذا سيكون سخياً كريماً ، فيمدنا بفيض من مدونات لها صلة وعلاقة بهذه الأبواب ، وينقلنا بذلك من هذا الجهل الفاضح الذي نحن فيه ، بتاريخ العرب قبل الاسلام .

بل حتى النصوص العربية الجنوبية التي عثر عليها حتى الآن ، هي في امور شخصية في الغالب ، من مثل انشاء بيت ، او بناء معبد ، او بناء سور ، او شفاء من مرض ، ولكنها أفادتنا ، مع ذلك ، فائدة كبيرة في تدوين تاريخ العرب الجنوبيين ، فقد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، ولولاها لما عرفنا عنهم شيئاً . ونظراً الى ما نجده في بعض النصوص من اشارات الى حروب^١ ، ومن صلات بين ملوك الدول العربية الجنوبية ، ونظراً الى كون بعض الكتابات أوامر ملكية وقوانين في تنظيم الضرائب وتعيين حقوق الغرباء وفي امور عامة أخرى لها

علاقة بصلة الحكومات بشعوبها ، ونظراً الى ما عرفناه من ميل الى الحضارة والاستقرار والعمل والبناء ، وفي حكوماتهم من تنظيم وتنسيق في الأعمال ، فاننا نأمل الحصول في المستقبل على وثائق، تعطينا مادة مهمة جديدة عن تاريخ العرب



كتابة عثر عليها في ظفار بعمان ، ويعود عهدا الى القرن الثاني بعد الميلاد
من كتاب Qataban and Sheba (ص ٢٠٤) .

الجنوبيين وعن صلاتهم ببقية العرب او بالعالم الخارجي ، لأن جماعة تهتم هذا الاهتمام بالأمور المذكورة ، لا يمكن ان تكون في غفلة عن اهمية تدوين التاريخ. وتختلف الكتابات العربية الجنوبية طولاً وقصراً تبعاً للمناسبات وطبيعة الموضوع،

وتتشابه في المضمون وفي انشائها في الغالب ، لأنها كتبت في أغراض شخصية متماثلة . ومن النصوص الطويلة المهمة ، نص رقه العلاء برقم : (C.I.H. 1450) وقد كتب لمناسبة الحرب التي نشبت بين قبائل حاشد وقبائل حمير في مدينة (ناعط)^١ ، ونص رقة (C.I.H. 4334) ، وقد أمر بتدوينه الملك (شعر أوتر بن علهان نهفان) (شعر أوتر بن علهان نهفن) ، (٨٠ - ٥٠ ق.م)^٢ ، ونص (أبرهة) نائب ملك الحبشة على اليمن (عزلي) ، وهو يحوي كتابة مهمة تتألف من (١٣٦) سطراً ، يرتقي تاريخها الى سنة ٦٥٨ الحميرية أو ٥٤٣ م وقد كتب بحميرية رديئة ركيكة ، ونص يرتقي تاريخه الى سنة ٥٥٤ م .

أما الكتابات المكتوبة باللهجات التي يطلق عليها المستشرقون اللهجات العربية الشمالية ، فقليلة . ويراد بهذه اللهجات القريبة من عربية القرآن الكريم . وأما الكتابات التي وجد أنها مكتوبة بالثمودية أو اللحيانية أو الصفوية ، فلها عديدة ، وهي قصيرة ، وفي أمور شخصية ، وقد أفادتنا في استخراج أسماء بعض الأصنام وبعض المواضع وفي الحصول على أسماء بعض القبائل وأمثال ذلك .

تاريخ الكتابات :

والكتابات المؤرخة قليلة . هذا أمر يؤسف عليه ، اذ يكون المؤرخ في حيرة من أمره في ضبط الزمن الذي دون فيه النص ، ولم تتمكن حتى الآن من الوقوف على تقويم ثابت كان يستعمله العرب قبل الإسلام ، مدة طويلة في جزيرة العرب . والذي تبين لنا حتى الآن هو أنهم استعملوا جملة طرق في تأريخهم للحوادث ، وثبتت زمانها ، فأرخوا بحكم الملوك ، فكانوا يشيرون الى الحادث بأنه حدث في أيام الملك فلان ، أو في السنة كذا في حكم الملك فلان . وأرخوا كذلك بأيام الرؤساء وسادات القبائل وأرباب الأمر وهي طريقة عرفت عند المعينين والسبئيين والقتبانين وعند غيرهم في مختلف أنحاء جزيرة العرب .

١ Margollouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930, P., 29

وسارمز اليه بـ Lectures P., 30

٢ « شعراوتي » ، (شاعر أوتر) (شاعر أوتار) . وقد ورد الاسم في كتاب (الاكليل) مكتوباً كتابة صحيحة (شعرم أوتر) في طبعة نبيه فارس ، واخطأ فيه أنستاس الكرمللي فكتبه (شعوان أوتر) ، كما ورد في إحدى المخطوطات التي اعتمد عليها ، طبعة الكرمللي ٢٤ .

والكتابات المؤرخة بهذه الطريقة ، وان كانت أحسن حالاً من الكتابات المهمة التي لم يؤرخها أصحابها بتاريخ ، الا اننا قلما نستفيد منها فائدة تذكر ، اذ كيف يستطيع مؤرخ أن يعرف زمانها بالضبط ، وهو لا يعرف شيئاً عن حياة الملك الذي أرخت به الكتابة او حكمه ، أو زمانه ، او زمان الرجال الذين أرخ بهم ؟ لقد فات أصحاب هذه الكتابات أن شهرة الانسان لا تدوم ، وأن الملك فلاناً ، أو رب الأسرة فلاناً ، أو الزعيم فلاناً ربما لا يعرف بعد أجيال ، وقد يصبح نسباً منسياً ، لذلك لا يجدي التأريخ به شيئاً ، وذاكرة الانسان لا تعي إلا الحوادث الجسام . لهذا السبب لم نستفد من كثير من هذه الكتابات المؤرخة على وفق هذه الطريقة ، وأملنا الوحيد هو أن يأتي يوم قد نستفيد فيه منها في تدوين التاريخ .

وترد التواريخ في الكتابات العربية الجنوبية ، ولا سيما الكتابات القتبانية ، على هذه الصورة : (ورخس ذو سحر خرف)^١ ، او (ورخس ذو تمنع خرف)^٢ ، أي : (وأرخ في شهر سحر من سنة) و (أرخ في شهر تمنع من سنة) . ويلاحظ ان (ورخ) و (تورينخ) ، مثل (أرخ) و (تاريخاً) ، هما قريبتان من استعمال تميم ، اذ هي تقول : (ورخت الكتاب تورينخاً) أي : (أرخت الكتاب تاريخاً)^٣ . وأما حرف (السين) اللاحق بكلمة (ورخ) ، فانه أداة التنكير . وبلي التاريخ اسم الشهر ، مثل شهر (ذو تمنع) و (ذو سحر) وغير ذلك . وقد تجمعت لدينا أسماء عدد من الشهور في اللهجات العربية الجنوبية المختلفة تحتاج الى دراسة لمعرفة ترتيبها بالنسبة الى الموسم والسنة . ثم تلي الشهور في العادة كلمة (خرف) أي (خريف) ، وهي في العربية الجنوبية ، السنة أو العام او الحول . وعندئذ يذكر اسم الملك او الرجل الذي أرخ به ، فيقال : (خرف شهر بكل) أي سنة (شهر يكل) ، وهو ملك من ملوك قتبان . وهكذا بالنسبة الى الملوك او غيرهم .

نرى من ذلك ان التاريخ بأعوام الرجال كان يتضمن شهوراً . غير اننا لا

N. Rhodokanakis, Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, Bd., I, S., 123.

وسارمز اليه بـ : KTB

Glaser 1395 — 1604, Se 84. Glaser 1412 — 1612, SE81, KTB, BD., 130.

بلوغ الارب (٢١٤ / ٣)

نستطيع أن نجزم بأن هذه الشهور كانت ثابتة لا تتغير بتغير الرجال ، أو أنها كانت تتبدل بتبدل الرجال . والرأي الغالب هو أنها وضعت في وضع يلائم المواسم وأوقات الزراعة . ويظهر أنهم كانوا يستعملون أحياناً مع هذا التقويم تقويمان آخر هو التقويم الحكومي ، وكان يستند الى السنين المالية ، أي سني جمع الضرائب . وتختلف أسماء شهور هذا التقويم عن أسماء شهور التقاويم التي تؤرخ بالرجال^١.

ويظهر أن العرب الجنوبيين كانوا يستعملون التقويم الشمسي في الزراعة ، كما كانوا يستعملون التقويم القمري والتقويم النجمي أي التقويم الذي يقوم على رصد النجوم^٢.

وقد اتخذ الحميريون منذ سنة (١١٥ ق. م) تقويمان ثابتاً يؤرخون به ، وهي السنة التي قامت فيها الدولة الحميرية — على رأي بعض العلماء — فأخذ الحميريون يؤرخون بهذا الحادث ، واعتدوه مبدأً لتقويمهم . وقد درسه المستشرقون ، فوجدوه يقابل السنة المذكورة قبل الميلاد. والكتابات المؤرخة بموجب هذه الطريقة ، لها فائدة كبيرة جداً في تثبيت التاريخ .

وقد ذهب بعض الباحثين حديثاً الى أن مبدأ تأريخ حمير يقابل السنة (١٠٩ ق. م) اي بعد ست سنوات تقريباً من التقدير المذكور ، وهو التقدير المتعارف عليه . والفرق بين التقديرين غير كبير^٣.

ومن النصوص المؤرخة ، نص تأريخه سنة ٣٨٥ من سني التقويم الحميري . وإذا ذهبنا لمذهب الغالبية التي تجعل بداية هذا التقويم سنة (١١٥ ق. م) ، عرفنا أن تاريخ هذا النص هو سنة ٢٧ م تقريباً ، وصاحبه هو الملك (يسر يهنم)

١ KTB., I, S., 81. f.

٢ N. Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsudarabischen, 2 BD., BD., 2, S., 145.

وسأرمز اليه بـ : LEXI

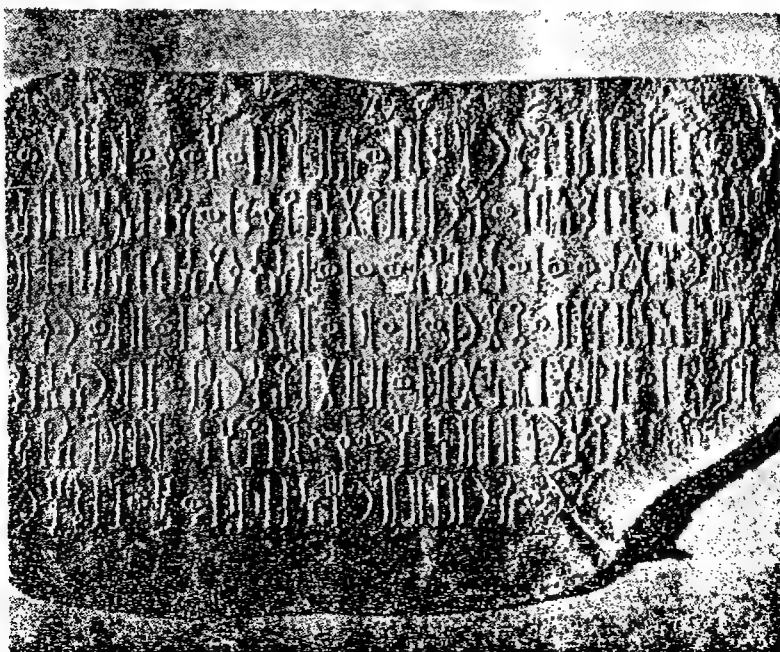
Sab, Denkm., 21, Glaser, Zwei Inschriften, 47, note 7, ZDMG., 46, Glaser Die Sternkunde der Südarabischen Qabylon, in SBWA, Winckler, AOF., 2, 35. ff.

٣ الوقوف على مبدأ التقويم الحميري ، راجع :

Glaser, Skizze, I, S., 3. ff., F. Hommel, Geschichte Südarabiens, 1, 1937, S. 96.

Ryckmans, Chronologie Sabéenne, C. Rend. Ac. Inscr. et Belles. Lettres, 1943, P., 236 — 246, Le Muséon, 1964, 3 — 4, P., 407 — 427, 429. f.

«ياسر ينعم» (ياسر ينعم) ملك سبأ وذو ريدان وابنه (شمر يهرعش) ^١ .
وللملك (ياسر ينعم) نص آخر يعود تاريخه الى سنة ٣٧٤ من سني التقويم



كتابة قتبانية عثر عليها في تخنق وهي لرجل اسمه ثويب
من كتاب Qataban صفحة (١٠٢)

الحميري ، أي الى سنة (٢٩٥ م) ^٢ . (ولشمر يهرعش) ^٣ كتابة أمر بتدوينها
سنة ٢٩٦ للتقويم الحميري ، اي سنة ٢٨١ م ^٤ . وقد ورد

١ نص رقم
C.I.H. 46, Hartmann, Arabische Frage, S., 174,
Rhodokanakis, WZKM, XXXVII, S., 148, J.H. Mordtmann und EUGen
Mittwoch, Sabäische Inschriften, Hamburg, 1931, S., I. ff.

- وسأرمز اليه بـ : Sab. Inschr.
- ٢ يعرف في الكتب العربية بـ (ياسر انعم) (ياسر انعم الحميري) ، (ياسر ناشر
النعم) (مالك ناشر النعم) ، الاكليل (٨ / ٢٠٧ فما بعدها) (طبعة
نيه) ، التيجان . ١٧ فما بعدها ، ١١٩ فما بعدها ، الطبري (١ / ٦٨٣ فما
بعدها) ، (١ / ٥٦٦) (طبعة دار المعارف) (تحقيق محمد ابي الفضل
ابراهيم) .
- ٣ ويعرف بـ (شمر يهرعش) في الموارد العربية ، الاكليل ٨ (٢٠٨) ، التيجان
(ص ٢٢٢ فما بعدها) ، الاكليل (١٠ / ١٩ ، ٣٣) .
- ٤ MMI50 — C.I.H. 448.

اسمه في نصوص أخرى ، وقد لقّب نفسه بلقب (ملك سبأ وذو ريدان) ، ولقّب نفسه في مكان آخر بلقب (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت) ، مما يدل على أنه كان قد وسّع ملكه ، وأخضع الأرضين المذكورة لحكمه^١ ، وهي نصوص متأخرة بالنسبة الى النصوص الأخرى .

ولما أراد الملك (شرحبيل يعفر بن أبي كرب أسعد) (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في الجبال والسواحل) بناء السد^٢ ، أمر بنقش تاريخ البناء على جداره . وقد عثر عليه ، واذا به يقول : إن العمل كان في سنة ٥٦٤ - ٥٦٥ الحميرية ، وهذا يوافق عامي ٤٤٩ - ٤٥٠ من الأعوام الميلادية^٣ . وبعد ثماني سنوات من هذا التاريخ ، أي في عام ٤٥٧ - ٤٥٨ من التأريخ الميلادي (٥٧٢ - ٥٧٣ حميري) ، وضع عبد كلال نصاً تاريخياً يذكر فيه اسم (الرحمن) ، ولهذين النصين أهمية عظيمة جداً من الناحية الدينية . يذكر النص الأول (إله السماوات والأرضين) ، ويذكر الثاني (الرحمن) . وتظهر من هذه الإشارة فكرة التوحيد على لسان ملوك اليمن وزعمائها^٤ .

وقد عثر على نصين آخرين ورد فيهما اسم الملك « شرحبيل يعفر » و « شرحبيل يكيف » . تأريخ أحدهما عام ٥٨٢ الحميري (٤٦٧ م) ، وتأريخ النص الثاني هو سنة ٥٨٥ الحميرية ، الموافقة لسنة ٤٧٠ م^٥ .

ومن النصوص الآثارية المهمة ، نص حصن غراب . وهذا النص أمر بكتابته (السميع أشوى) (السميع أشوع) وأولاده ، تخليداً لذكرى انتصار الأحباش على اليمانيين في عام ٥٢٥ م (سنة ٦٤٠ الحميرية)^٦ . ويليه النص الذي أمر أبرهة حاكم اليمن في عهد الأحباش بوضعه على جدران سد مأرب لما قام بترميم السد^٧ واصلاحه في عام ٦٥٧ الحميري ، الموافق لعام ٥٤٢ م^٨ .

وأخر ما نجده من نصوص مؤرخة ، نص وضع في عام ٦٦٩ لتقويم حمير (يوافق عام ٥٥٤ م)^٩ . ولم يعثر المتقبون بعد هذا النص على نص آخر يحمل

C.I.H. 628, C.I.H. 353, 407, 430, 431, 438

Sab. Inschr., S., 2, CIH 540.

BOASOR, 83 (1941), PP., 22, Sab. Inschr., S., 2.

CIH 537, 644, Sab. Inschr., S., 2.

Sab. Inschr., S., 2.

Sab. Inschr., S., 2, CIH 541, Margoliouth, P., 32.

Sab. Inschr., S., 2, CIH 325.

١ راجع النصوص :

١

٢

٣

٤

٥

٦

٧

تأريخاً . نعم ، عثروا على نصوص كثيرة تشابه في مضمونها وعباراتها وألفاظها النصوص التي أقيمت في الفترة بين ٤٣٩ م وسنة ٥٥٤ م ، وهذا يبعث على احتمال كون هذه النصوص مكررة ، وأنها من هذا العهد الذي بحثنا عنه آنفاً^١ . هذا ، وإن مما يلاحظ على الكتابات العربية الجنوبية أن التي ترجع منها إلى العهود القديمة من تأريخ جنوب بلاد العرب ، قليلة . وكذلك الكتابات التي ترجع إلى العصور الحميرية المتأخرة، أي القرية المتصلة بالإسلام . ولذلك أصبحت أكثر الكتابات التي عثر عليها حتى الآن من العهود الوسطى المحصورة بين أقدم عهد من عهود تأريخ اليمن وبين أقرب عهود أيمن إلى تأريخ الإسلام. وأكثرها خلو من التأريخ غير عدد منها يرد فيه أسماء ملوك وملكات أرخت بأيامهم . لكننا لا نستطيع تعيين تأريخ مضبوط لزمانهم ، لعدم وجود سلسلة لمن حكم أرض اليمن ، ولعدم وجود جداول بمدد حكمهم، ولفقدان الإشارة إلى من كان يعاصرهم من الملوك والأجانب .

وقد كان ما قدمناه يتعلق بالكتابات العربية الجنوبية المؤرخة . أما الكتابات العربية الشمالية المؤرخة ، فهي معدودة ، وهي لا تعطينا لهذا السبب فكرة علمية عن تأريخ الكتابات في الأقسام الشمالية والوسطى من بلاد العرب . وقد أرخ شاهد قبر (امرئ القيس) في يوم ٧ بكسلول من سنة ٢٢٣ (٣٢٨ م) . وهذه السنة هي من سني تقويم بصرى Bostra ، وكان أهل الشام وحوران وما يليها ، يؤرخون بهذا التقويم في ذلك العهد ، ويبدأ بدخول بصرى في حوزة الروم سنة ١٠٥ م^٢ .

وعثر على كتابة في خرائب (زيد) بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب ، كتبت بثلاث لغات : اليونانية والسريانية والعربية ، يرجع تأريخها إلى سنة (٨٢٣ للتقويم السلوقي) ، الموافقة لسنة ٥١٢ م . والمهم عندنا ، هو النص العربي ، ولا سيما قلمه العربي . أما من حيث مادته اللغوية ، فإن أكثر ما ورد فيه أسماء الرجال الذين سعوا في بناء الكنيسة التي وضعت فيها الكتابة^٣ .

١ Sab. Inschr., S., 2, CIH 541, CIH 45, KTB, S., 140.

٢ العرب قبل الاسلام ٢٠٣ ، مجلة سومر ، الجزء الاول ، كانون الثاني ، ١٩٤٧ ، المجلد الثالث ، ص ١٣١ .

٣ Dussaud, Les Arabes en Syrie, PP., 34, Nabia, P., 4.
Grund., I, S., 156, Edward Sachau, Eine Dreisprachige Inschrift aus Zebed, Monatsbericht der Preussische Akademi der Wissenschaften, Berlin, 10 Febr., 1881, S., 169 — 190, zur Trilinguis Zebedaea, in ZDMG., 36 (1882) S., 345 — 352.

وأرخت كتابة (حرّان) اليونانية بسنة أربع مئة وثلاث وستين من الأندقراطية الأولى ، وهي تقابل سنة ٥٦٨ م ، والأندقراطية ، هي دائرة ثمانني سنين عند الرومانيين ، وكانت تستعمل في تصحيح تقويم السنة^١ . أما النص العربي ، فقد أرخ (بسنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم) (عام)^٢ . ورأى الاستاذ (ليثمن) أن عبارة (بعد مفسد خيبر بعم) ، تشير إلى غزوة قام بها أحد أمراء غسان لخيبر^٣ . وفي استعمال هذه الجملة التي لم ترد في النص اليوناني ، دلالة على أن العرب الشماليين كانوا يستعملون التواريخ المحلية ، كما كانوا يؤرخون بالحوادث الشهيرة التي تقع بينهم .

أما الكتابات الصفوية والشمودية واللحيانية ، فإن من بينها كتابات مؤرخة ، إلا أن تواريخها لم يقدنا شيئاً أيضاً . فقد أرخت على هذا الشكل : (يوم نزل هذا المكان) أو (سنة جاء الروم) . ومثل هذه الحوادث مبهمه ، لا يمكن أن يستفاد منها في ضبط حادث ما .

هذا وقد أشار (المسعودي) إلى طرق للجاهليين في تواريخ الحوادث ، تتفق مع ما عثر عليه في الكتابات الجاهلية المؤرخة ، فقال : (وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فأما حمير وكهلان ابنا سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بأرض اليمن ، فلنهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة وغيرهم)^٤ ، ثم ذكر أنهم أرخوا أيضاً بما كان يقع لديهم من أحداث جسيمة في نظرهم ، مثل (نار صوان) ، وهي نار كانت تظهر ببعض الحرار من أقاصي بلاد اليمن ، ومثل الحروب التي وقعت بين القبائل والأيام الشهيرة . وقد أورد جريدة بتواريخ القبائل الى ظهور الإسلام^٥ . وذكر (الطبري) أن العرب لم يكونوا يؤرخون بشيء من قبل ذلك ، غير أن قريشاً كانوا - فيما ذكر - يؤرخون قبل الإسلام بعام الفيل ، وكان سائر العرب يؤرخون بأيسامهم المذكورة ، كتأريخهم بيوم جيلة وبالكلاب الأول والكلاب الثاني^٦ .

١ ولغنستون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٩٢ ، وسارمز اليه ب : السامية .

٢ السامية ١٩٢ ، سومر ، العدد المذكور ص ١٣٢ .

٣ Rivista degli Studi Orientali, 1911, P., 195,

السامية ١٩٢ .

٤ التنبيه والإشراف (ص ١٧٢) (القاهرة ١٩٣٨) (دار الصاوي)

٥ التنبيه والإشراف (ص ١٧٢ وما بعدها)

٦ الطبري (١ / ١٩٣) (طبعة دار المعارف) .

وقد ذكر المسعودي أن قدوم أصحاب الفيل مكة ، كان يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمئة واثنين وثمانين سنة للاسكندر ، وست عشرة سنة ومئتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة العدد^١ (حجة الغدر)^٢ ، ولسنة أربعين من ملك كسرى أنوشروان^٣ . ولم يشر المسعودي الى العرب الذين أرّخوا بالتقويم المذكور ، غير أننا نستطيع أن نقول إن (المسعودي) قصد بهم أهل مكة ، لأن حملة (أبرهة) كانت قد وجهت الى مدينتهم ، وأن الحملة المذكورة كانت حادثاً تاريخياً بالنسبة اليهم ، ولذلك أرّخوا بوقت وقوعها . ويرى كثير من المستشرقين والمشتغلين بالتقاويم وبتحويل السنين وبتثبيتها ، وفقاً لها ، أن عام الفيل يصادف سنة (٥٧٠) أو (٥٧١) للميلاد ، وبذلك يمكن اتخاذ هذا العام مبدءاً نؤرخ به على وجه التقريب الحوادث التي وقعت في مكة أو في بقية الحجاز والتي أرّخت بالعالم المذكور .

٢ - التوراة والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية :

وقد جاء ذكر العرب في مواضع من أسفار التوراة تشرح علاقات العبرانيين بالعرب . والتوراة مجموعة أسفار ، كتبها جماعة من الأنبياء في أوقات مختلفة ، كتبوا أكثرها في فلسطين . وأما ما تبقى منها ، مثل حزقيال والمزامير ، فقد كتب في وادي الفرات أيام السبي ، وأقدم أسفار التوراة هو سفر (عاموس) (Amos) ، ويظن أنه كتب حوالي سنة ٧٥٠ ق. م^٤ .

- ١ (حجة العدد) مروج الذهب (١ / ٢٨٢) ، (حجة العدد) ، مروج (٢ / ١٧٠) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (سنة ثمان مئة واثنين وثلاثين سنة للاسكندر ، مروج (٨ / ٢) (تحقيق محمد محي الدين) (حجة الغدر) ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣١ وما بعدها)
- ٢ مروج (٢ / ١٧٠) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (سنة أربع وأربعين من ملك أنوشروان بن قباد) ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣١) .
- ٣ أحد الانبياء ، وكان راعياً في (تقوع) (تقوعة) مدينة صغيرة جنوبي يهوذا على بعد نحو « ١٢ » ميلاً من جنوب القدس . عاش في أيام عزيا ملك يهوذا وبربعام ملك اسرائيل نحو سنة ٨٠٠ ق. م . وسفر عاموس هو الثلاثون من أسفار التوراة ، قاموس الكتاب المقدس (ترجمة الدكتور جورج بوست) ٥٩ / ٢

Hastings, Dictionary of the Bible, p., 27,

وسارمز اليه بـ Hastings

Encyclopaedia of the Bible, P., 147,

Ency. Bibli. وسارمز اليه بـ

وأما آخر ما كتب منها ، فهو سفر (دانيال) (Daniel) والإصحاحان الرابع والخامس من سفر (المزامير) . وقد كتبت هذه في القرن الثاني قبل المسيح .

فما ذكر في التوراة عن العرب يرجع تاريخه اذن الى ما بين سنة ٧٥٠ والقرن الثاني قبل المسيح .

وقد وردت في التلمود (Talmud) اشارات الى العرب كذلك . وهناك نوعان من التلمود الفلسطيني أو التلمود الأورشليمي (Yeruschalmi) كما يسميه العبرانيون اختصاراً ، والتلمود البابلي نسبة الى (بابل) بالعراق ، ويعرف عندهم باسم (بابلي) اختصاراً .

أما التلمود الفلسطيني ، فقد وضع ، كما يفهم من اسمه ، في فلسطين . وقد تعاونت على تحبيره المدارس اليهودية (Academies) في الكنائس (الكنيس) . وقد كانت هذه مراكز الحركة العلمية عند اليهود في فلسطين ، وأعظمها هو مركز (طبرية) (Tiberias) ، وفي هذا المحل وضع الحبر (رابي يوحنا) (Rabbi Jochanan) التلمود الأورشليمي في أقدم صورة من صورته في أواسط القرن الثالث الميلادي وتلاه بعد ذلك الأحبار الذين جاؤوا بعد (يوحنا) ، وهم الذين وضعوا شروحاً وتفسيرات عدة تكون منها هذا التلمود الذي اتخذ هيأته النهائية في القرن الرابع الميلادي .

وأما التلمود البابلي ، فقد بدأ بكتابته - على ما يظهر - الحبر (آشي) (Rabbi Ashi) المتوفي عام ٤٣٠ م ، وأكماله الأحبار من بعده ، واشتغلوا به

١ (التلمود) (تعليم) Learning راجع عن التلمود المصادر الآتية :
Hastings, P., 890, Ency. Britani., Vol., 21, P. 769, J.Z.

Lauterbach, Mishna and W. Bacher, Talmud, In Jew. Ency., Funk, Entstehung des Talmud, Leipzig, 1910, Rodkinson, History of the Talmud, New York, 1903, Strack, Einleitung in den Talmud, 1908.

ويتألف التلمود من (المشنة) Mishnah ، وهو الموضوع ومن (جمارة) (Gemara) ، وهو التفسير . فالمشنة (التكرار) عبارة عن مجموع تقاليد أعطيت لموسى حين كان على الجبل ثم تداولها هارون واليعازر ويشوع ، وسلموها للأنبياء ثم انتقلت عن الأنبياء الى أعضاء المجمع العظيم وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح حينما جمعها الحاخام (يهوذا) وكتبها ، ومن ثم صار يعد جامعاً للمشنة . و (الجمارة) (الكمارة) (التعليم) ، وهو مجموع المناظرات والتعليم والتفسير التي جرت في المدارس العالية بعد انتهاء المشنة .
قاموس الكتاب المقدس (١ / ٢٩٠) ، Pirke Aboth, 1, 1.

حتى اكتسب صيغته النهائية في أوائل القرن السادس للميلاد^١ . ولكل تلمود من التلمودين طابع خاص به ، هو طابع البلد الذي وضع فيه ، ولذلك يغلب على التلمود الفلسطيني طابع التمسك بالرواية والحديث . وأما التلمود البابلي ، فيظهر عليه الطابع العراقي الحر وفيه عمق في التفكير ، وتوسع في الأحكام والمحاكمات ، وغنى في المادة . وهذه الصفات غير موجودة في التلمود الفلسطيني^٢ .

وبهذا يكمل التلمود أحكام التوراة ، وتفيدنا إشاراته من هذه الناحية في تدوين تاريخ العرب . أما الفترة بين الزمن الذي انتهى فيه من كتابة التوراة والزمن الذي بدأ فيه بكتابة التلمود ، فيمكن أن يستعان في تدوين تاريخها بعض الاستعانة بالأخبار التي ذكرها بعض الكتاب ، ومنهم المؤرخ اليهودي (يوسف فلافيوس) (جوسفوس فلافيوس) (Josephus Flavius) الذي عاش بين سنة ٣٧ و ١٠٠ للمسيح تقريباً . وله كتاب باللغة اليونانية في تاريخ عادات اليهود (Joudaike Archaioloigia) ، تنتهي حوادثه بسنة ٦٦ للميلاد ، وكتاب آخر في تاريخ حروب اليهود (Peri tou Joudiakou Polemou)^٣ من استيلاء (انطيوخس ايفانوس) (Antiochus Epiphanos) على القدس سنة ١٧٠ قبل الميلاد الى الاستيلاء عليها مرة ثانية في عهد (طيطس) (Titus) سنة ٧٠ بعد الميلاد ، وكان شاهد عيان لهذه الحادثة . وقد نال تقدير (فسبازيان) (Vespasian) و (طيطس) وأنعم عليه بالتمتع بحقوق المواطن الروماني^٤ .

وفي كتبه معلومات ثمينة عن العرب ، وأخبار مفصلة عن العرب الأنباط ، لا نجدها في كتاب ما آخر قديم . وكان الأنباط في أيامه يقطنون في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات ، فتتأخم بلاد الشام ، ثم تنزل حتى تتصل بالبحر الأحمر . وقد عاصرهم هذا المؤرخ ، غير أنه لم يهتم بهم إلا من ناحية علاقة الأنباط بالعبرانيين ، ولم تكن بلاد العرب عنده الا مملكة الأنباط^٥ .

Hastings, P., 891.

١

Hastings, P., 891.

٢

Peri tou Joudaikou Polemou, De Bello Judiaco.

٣

Harvey, The Oxford Companion to Classical Literature, P., 228, Simon Dubnow, Weltgeschichte des Jüdischen Volkes, BD., 2, s., 88. ff., BD. 3, s., 105, Ency. Brita., Vol., 13, P., 153.

٤

Josephus, Antiquities, BK., XIV, Ch., 14, I, The Jewish War, BK., I, ch. 1. 3.

٥

Ch. 4, 2.

Hastings, P., 68.

٦

هذا وان للشروح والتفسير المدونة على التوراة والتلمود قديماً وحديثاً، وكذلك للمصطلحات العبرانية القديمة على اختلاف أصنافها أهمية كبيرة في تفهم تاريخ الجاهلية ، وفي شرح المصطلحات الغامضة التي ترد في النصوص العربية التي تعود الى ما قبل الإسلام ، لأنها نفسها وبترسيماتها ترد عند العبرانيين في المعاني التي وضعها الجاهليون لها . وقد استفدت كثيراً من الكتب المؤلفة عن التوراة مثل المعجمات في تفهم أحوال الجاهلية ، وفي زيادة معارفي بها ، ولهذا أرى أن من اللازم لمن يريد درس أحوال الجاهلية ، التوغل في دراسة تلك الموارد وجميع أحوال العبرانيين قبل الإسلام .

٣ - الكتب الكلاسيكية :

وأقصد بالكتب (الكلاسيكية) الكتب اليونانية واللاتينية المؤلفة قبل الإسلام. ولهذه الكتب - على ما فيها من خطأ - أهمية كبيرة ، لأنها وردت فيها أخبار تاريخية وجغرافية كبيرة الخطورة ، ووردت فيها أسماء قبائل عربية كثيرة لولاها لم نعرف عنها شيئاً . وقد استقى مؤلفوها وأصحابها معارفهم من الرجال الذين اشتركوا في الحملات التي أرسلها اليونان أو الرومان الى بلاد العرب ، ومن السياح الذين اختلطوا بقبائل بلاد العرب أو أقاموا مدة بين ظهرائهم ، ولا سيما في بلاد الأنباط ، ومن التجار وأصحاب السفن الذين كانوا يتوغلون في البحار وفي بلاد العرب للمتاجرة . وتعد الاسكندرية من أهم المراكز التي كانت تعنى عناية خاصة بجمع الأخبار عن بلاد العرب وعادات سكانها وما ينتج فيها لتقدمها الى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط . وقد استقى كثير من الكتاب (الكلاسيكيين) معارفهم عن بلاد العرب من هذه المصادر التجارية العالمية .

وتتحدث الكتب الكلاسيكية جازمة عن وجود علاقات قديمة كانت بين سواحل بلاد العرب وبلاد اليونان والرومان ، وتتجاوز بعض هذه الكتب هذه الحدود فتتحدث عن نظرية قديمة كانت شائعة بين اليونان ، وهي وجود أصل دموي مشترك بين بعض القبائل العربية واليونان . وتفصح هذه النظرية ، على ما يبدو منها من سداجة ، عن العلاقات العريقة في القِدَم التي كانت تربط سكان

البحر المتوسط الشماليين بسكان الجزيرة الغربية^١ .

ومن أقدم من ذكر العرب من اليونانيين (أخيلس) (Aescylus) (٥٢٥ - ٤٥٦ ق. م) ، و (هيرودتس) (٤٨٠ - ٤٢٥ ق. م) وقد زار مصر ، وتبع شؤون الشرق وأخباره بالمشاهدة والسماع ، ودون ما سمعه ، ووصف ما شاهده في كتاب تاريخي . وهو أول أوروبي ألف كتاباً بأسلوب منمق مبوب في التاريخ ووصل مؤلفه إلينا ، وقد لقبه (شيشرون) (Cicero) الشهير بلقب (أبي التاريخ) .

تناول « هيرودتس » تاريخ الصراع بين اليونان والفرس ، وإن شئت فسمه (النزاع الأوروبي الآسيوي) ، فآلف عن تاريخه . والظاهر أنه لم يتمكن من إتمامه ، ففيه فصول وضعت بعد وفاته . وهو أول كاتب يوناني اتخذ من الماضي موضوعاً للحاضر ومادة للمناقشة ، بعد أن كان البحث في أخبار الأيام السالفة مقصوراً على ذكر الأساطير والقصص الشعبية والدينية . وهو مع حرصه على النقد والمحاكمة ، لم يتمكن أن يكون بنجوة من الأفكار الساذجة التي كانت تغلب على ذلك العالم الابتدائي في ذلك العهد^٢ ، فحشر في كتابه قصصاً ساذجاً وحكايات لا يصدقها العقل ، متأثراً بعقلية زمانه في التصديق بأمثال هذه الأمور . ومنهم (ثيوفراستوس) (Theophrastus) ، (حوالي ٣٧١ - ٢٨٧ ق. م) ، مؤلف كتاب (Historia Plantarum) وكتاب (De Causis Plantarum) . وفي خلال حديثه عن النبات تطرق إلى ذكر البقاع العربية التي كانت تنمو بها مختلف الأشجار ، ولا سيما المناطق الجنوبية التي كانت تصدر التمر واللبن والبخور والأفاوية^٣ . و (ايراثو ستينس) (Eratosthenes) (٢٧٦ - ١٩٤ ق. م) . وقد استفاد الكتابيون الذين جاؤوا من بعده من كتاباته ، ونجد في مواضع مختلفة من جغرافية (سترابون أقوالاً معزوة إليه) .

١ Agatharchides, De Rubro Mari, Opud Geograph, Vet Script minton, I, P., 59, ed., Oxon, 1698, Ch. Forster, The Historical Geography of Arabia, in two Vol, Vol, I, PP., XXXVI,

وسأرمز إليه بـ : Forster :

Pliny, Nat. History, Vol., VI, P., 32, Vol., 2, PP., 718. ed. Paris, 1828. 8 Vol.

٢ اعتمدت على ترجمة George Rawlinson الانكليزية ،

The History of Herodotus, Translated by George Rawlinson, in 2 Vol., London, 1920

Theopheophrastus, Historia Plantarum, Ed., Hort, 1916.

H. Berger, Die Geogr. Fragmente des Eratosthenes, 1880.

ونضيف إلى من تقدموا (ديودورس الصقلي) (Diodorus Siculus) (٤٠ ق.م).
وقد ألف باللغة اليونانية تاريخاً عاماً سماه (المكتبة التاريخية) (Bibliotheca Historike) ، تناول تاريخ العالم من عصر الأساطير حتى فتح (يوليوس قيصر)
لأفليم (الغال) . وهو في أربعين جزءاً ، لم يبق منها سوى خمسة عشر جزءاً ،
تبحث في الحقبة المهمة التي تبتدىء بسنة ٤٨٠ ق. م. وتنتهي بسنة ٣٢٣ ق. م.^١
ويعزز هذا المؤرخ النقد ، لأنه جمع في كتابه كل ما وجده في الكتب
القديمة من أخبار ولم يمحصها ، وقد امتلأ كتابه بالأساطير ، والعالم مع ذلك
مدین له الى حد كبير بمعرفة أخبار الماضين ، ولا سيما الأساطير الدينية القديمة.

ومن المؤلفين الكلاسيكيين ، (سترابون) (سترابو) (Strabo) (Strabo)
(٦٤ ق. م - ١٩ م) وهو رحالة كتب كتاباً مهماً باللغة اليونانية في سبعة
عشر جزءاً سماه (جغرافيا) (Geographica)^٢ . وقد وصف فيه الأحوال
الجغرافية الطبيعية لمقاطعات الإمبراطورية الرومانية الرئيسية ، وتاريخها ، وحالات
سكانها ، وغريب عاداتهم وعقائدهم . وللكتاب شأن كبير ، اذ اشتمل على
كثير من الأخبار التي لا تيسر في كتاب آخر . وقد اعتمد فيه على ما ذكره
الكتاب السابقون .

وقد أفرد (سترابون) في جغرافيته فصلاً خاصاً من الكتاب السادس عشر
ببلاد العرب ، ذكر فيه مدائن العرب وقبائلهم في عهده ، ووصف أحوالهم
التجارية والاجتماعية والاقتصادية ، وحلة (أوليوس غالوس) (أوليوس كالوس)
(Aelius Gallus) المعروفة لفتح بلاد العرب وما كان من اخفاقه . ولأخبار
هذه الحملة التي دوتها (سترابون) في جغرافيته ، أهمية خاصة ، اذ جاءت
بمعلومات عن نواحي من تاريخ العرب نجعلها ، وقد شارك هو نفسه في الحملة ،
وقد كان صديقاً لقائدها ، فوصفه وصف شاهد عيان^٣ . وقد استهل وصف

١ Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, Vol., 1-3,
Edited by Friedrich Vogel, Vol., 4 and 5, Edited by C.T. Fischer, in Bibliotheca
Scriptorum Graeco rum et Romanum Teubneriana, Leipzig, 1888-1906.

٢ وقيل (٦٦ ق. م - ٢٤ م) ، اعتمدت على ترجمة : Hamilton
The Geography of Strabo, Translated by Hamilton, London, 1912, in 3 Vols.,
Strabo, Geographia, Edited by August Meineke, in 3 Vols. Leipzig, 1907-1913,

٣ Strabo, BK., 16, Cha., I, ed. Hamilton, Vol., 3, PP., 170, 209.

الحملة بهذه العبارة : (لقد علمتنا الحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب بقيادة أوليوس غالوس في أيامنا هذه أشياء كثيرة عن تلك البلاد)^١ .

ومن تحدث عن العرب (بلينيوس) (بليني الأقدم) (Pliny the Elder) (Galus Plinius Secundus) المتوفى سنة ٧٩ م ، ومن كتبه المهمة كتابه (التاريخ الطبيعي) (Naturalis Historia) في سبعة وثلاثين جزءاً ، وقد نقل في كتابه عن تقدمه ، ولا سيما معلوماته عن بلاد العرب والشرق وجمع ما أمكنه جمعه ، غير أنه أتى في أماكن متعددة من كتابه بأخبار لم يرد لها ذكر من كتب المؤرخين الآخرين^٢ .

وهناك مؤلف يوناني مجهول، وضع كتاباً، سماه (الطواف حول بحر الأريتريا) (Periplus Maris Erythraei) (The Periplus of the Erythraean Sea)^٣ أتمه في نهاية القرن الأول للمسيح في رأي بعض العلماء ، أو بعد ذلك في حوالي النصف الأول من القرن الثالث للميلاد في رأي بعض آخر^٤ ، وقد وصف فيه تطوافه في البحر الأحمر وسواحل البلاد العربية الجنوبية . والظاهر أنه كان عالماً بأحوال الهند وشواطئ أفريقيا الشرقية ، ولعله كان تاجراً من التجار الذين كانوا يطوفون في هذه الأنحاء للتجارة ، ولم يعتن إلا بأحوال السواحل . أما الأقسام الداخلية من جزيرة العرب ، فيظهر أنه لم يكن ملماً بها إلماماً كافياً . وقد ذهب (البرايت) إلى أن الكتاب المذكور قد أُلّف في حوالي السنة (٨٠) بعد الميلاد^٥ . وذهب آخرون إلى أن مؤلفه قد أُلّفه في حوالي السنة (٢٢٥) أو (٢١٠) بعد الميلاد^٦ .

Strabo, Vol., 3, PP., 209, O'Leary, Arabia, P., 75 Strabo, BK. 16 Ch. 4. 22. ١

Pliny, Naturalis Historia, edited by, C. Mayerhoff, ٢

Teubner Series, 1882-1909, 2nd Edition, 6 Vols., Leipzig, 1892-1909, D. Detlefsen Die Geographischen Bucher (II.242 VI Schluss), Der Naturalis Historia des G. Plinius mit Vollständigen Kritischen Apparat., Edited by W. Sieglin, Vol., 9, Berlin, 1904.

The Periplus of the Erythraean Sea, Translated by W. H. Schof, New York, 1912. ٣

Franz Altheim und Ruth Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964, ٤ Bd., I, 108.

BASOR., Num. 176, 1964, P., 51. ٥

J. Pirenne, La Date du Periple de la Mer Erythree, Journal Asiatique, 1961, ٦ PP., 441., F. Altheim, Geschichte der Hunnen, V. Berlin, 1962, PP., II, Le Museon, 1964, 3-4, P., 478.

وهناك طائفة من الكتاب الذين تركوا لنا آثاراً وردت فيها اشارات الى العرب والبلاد العربية ، مثل (أبولودورس) (Apollodorus) (المتوفى سنة ١٤٠ بعد المسيح) . و (بطليموس) (Claudius Ptolemaes) الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني للمسيح . وهو صاحب مؤلفات في الرياضيات منها (كتاب المجسطي) المعروف في اللغة العربية . وله كتاب مهم في الجغرافية سميّه (Geographike Hyphegesis) ، ويعرف باسم (جغرافية بطليموس)^١ . ولهذا الكتاب شهرة واسعة ، وقد درّس في أكثر مدارس العالم الى ما بعد انتهاء القرون الوسطى . جمع فيه بطليموس ما عرفه العلماء اليونان وما سمعه هو بنفسه وما شاهده هو بعينه ، وقسم الأقاليم بحسب درجات الطول والعرض . وقد تكلم في كتابه على مدن البلاد العربية وقبائلها وأحوالها ، وزين الكتاب بالخرائط التي تصور وجهة نظر العلم الى العالم في ذلك العهد^٢ .

ويرى بعض الباحثين أن ما ذكره (بطليموس) عن حضرموت يشير الى أن المنبع الذي أخذ منه كان يعلم شيئاً عنها ، وانه كان قد أقام مدة في (شبوة) العاصمة . ويرون أن ذلك المنبع قد يكون تاجراً رومياً ، أو أحد المبعوثين الرومان في تلك المدينة ، لأن وصف (بطليموس) للأودية والأماكن الحضرمية يشير إلى وجود معرفة بالأماكن عند صاحبه . أما ما ذكره (بطليموس) عن أرض (سبأ) والسبئيين ، فانه لا يدل على حد قول المذكورين ، على علم بالأماكن ، وإجادة لأسمائها ، وأن الذي أخذ منه (بطليموس) لم يكن قد شاهدها^٣ .

ومن الذين أوردوا شيئاً عن أحوال بلاد العرب (أريان) (Arrian) (Flavius Arrianus) (٩٥ - ١٧٥ م) ، وقد ألف كتاباً عديدة . منها

١ Geographia, Edited by C.F. Nobbe, 3 Vols, Leipzig, 1843-1845, Vol., I, Part, I, Carolus Mullerus, Paris, 1884, Vol., I, P., 2, by C. Th. Fisher, Paris, 1901.

٢ قال المسعودي : وقد ذكر بطليموس في الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الارض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والانهار والعيون ، ووصف المدن المسكونة والمواضع العامرة ، واعددها اربعة آلاف وخمسة مئة وثلاثين مدينة في عصره وسمّاها مدينة مدينة في اقليم اقليم (.....) ، مروج الذهب (٧٣ / ١) .

Le Muséon, 1964, 3-4, P., 466.

كتابته (Anabasis of Alexander the Great) في خمسة عشر قسماً ، وصف في سبعة منها حملات الإسكندر الكبير ، وفي الثمانية الأخرى وصف الهند وأحوال الهنود ورحلة القائد (Nearchus) (نيرخس) (أميرال الإسكندر في الخليج العربي ^١ . ومنهم (هيروديان) (Herodianus) (١٦٥ - ٢٥٠ م . ب) ، وهو مؤرخ سرياني ألف في اليونانية كتاباً في تاريخ قياصرة الروم من وفاة القيصر (ماركوس أوريليوس) إلى سنة ٢٣٨ م ^٢ .

الموارد النصرانية :

وللمواد النصرانية أهمية كبيرة في تدوين تاريخ انتشار النصرانية في بلاد العرب وتأريخ القبائل العربية ، وعلاقات العرب باليونان والفرس ، وقد كُتِبَ أغلبها باليونانية والسريانية . ولها في نظري قيمة تاريخية مهمة لأنها عند عرضها للحوادث تربطها بتاريخ ثابت معين ، مثل المجامع الكنيسية ، أو تواريخ القديسين ، والحروب وأوقاتها في الغالب مضبوطة مثبتة .

ومن أشهر هذه الموارد مؤلفات المؤرخ الشهير (أويسيوس) المعروف بـ (أويسيوس القيصري) (Eusebius of Caesarea) (٢٦٣ - ٣٤٠ م) (٢٦٥ - ٣٤٠ م) وبـ (أبي التاريخ الكنائسي) (Father of Ecclesiastical History) . وبـ (هيرودتس النصراني) ^٣ . وكان على اتصال بكبار رجال الحكومة وبروساء الكنيسة ، فاستطاع بذلك أن يقف على كثير من أسرار الدولة وأن يراجع المخطوطات والوثائق الثمينة التي كانت تحويها خزائن الحكومة وخزائن كتب الرؤساء والأغنياء .

وكان قد ألف كتاباً في التاريخ باللغة اليونانية ، عرف بـ (The Chronicon) ، حوى بالاضافة الى التاريخ العام تقاويم وجداول بالحوادث التي حدثت في أيامه .

Anabasis, Edited by, A.G. Ross, Leipzig, 1907, C. Muller, Paris, 1846, Historia Indica, Edited by Carl Muller, in his Geographi Graeci Minoris, Vol., I, Paris, 1861, PP., 306-309.

Herodianus, Ab Excessu divi marci libri Octo, Edited by L. Mendelssohn, Leipzig, 1883.

William Smith, A Dictionary of the Bible, Vol., 3, P., 107.

وقد أفاد هذا الكتاب فائدة كبيرة في معرفة تاريخ اليونان والرومان حتى سنة ٣٢٥م ، ولم يبق من أصله غير قطع صغيرة . غير أن له ترجمة باللاتينية عملها (جبروم) (Jerome) ، وأخرى باللغة الأرمنية ، وقد سدت (جوزيف سكالكر) (Joseph Scaliger) النقص الذي طرأ على النسخة الأصلية ، باستفادته من هاتين الترجمتين^١ .

ولهذا الأسقف كتب مهمة أخرى ، في مقدمتها كتاب (التاريخ الكنائسي) (Ecclesiastical History) ، وهو في عشرة كتب ، يبدأ بأيام المسيح ، وينتهي بوفاة الإمبراطور (Licinius) سنة ٣٢٤م . وقد استقى كتابه هذا من مصادر قديمة ، وأورد فيه أموراً انفرد بها^٢ . ومن مؤلفاته : كتاب (شهداء فلسطين) (The Martyrs of Palastine) تحدث فيه عن تعذيبهم واستشهادهم في أيام (Diocletian) و (Maximin) (٣٠٣ - ٣١٠ م) ، وكتاب (سيرة قسطنطين) (The Life of Constantine) ، وكتاب في فلسفة اليونان ودبانته^٣ .

ومن مؤرخي الكنيسة : (Athanasius) [(حوالي ٢٩٦ - ٣٧١ م)] و (Gelasius) (حوالي ٣٢٠ - ٣٩٤ م) أسقف قيصرية ، وله تنمة لتاريخ (Eusebius) . و (روفينوس تيرانيوس) (Rufinus Tyranius) المتوفى سنة ٤١٠م ، وصاحب كتاب (Historiae Ecclesiasticae) . وقد ضمته أقساماً من تاريخ (أويسيوس) و (ابرينوس) (Irenaeus) (٤٤٤م) ، وكان أسقفاً على (صور) (Tyre) ، وقد كتب مؤلفاً عن مجمع (أفسوس) للنظر في النزاع مع النساطرة ، وكان يميل إليهم . والمؤرخ (سقراط) (Socrates) ، وهو من الفقهاء في الكنيسة ، وقد اعتمد في تواريخه على من كتب قبله من المؤرخين ، وقد وردت في ثناياها أخبار عن بلاد

١ Eusebius, *Chronicorum*, Edited by Alfred Schoene, in 2 Vols., Berlin, 1866-1875, Onomastikon der Biblischen Ortsnamen, by Erich Klostermann, Vol., II, Part, I, Eusebius, Vol., 3, Part, I, Leipzig, 1904.

٢ تاريخ الكنيسة ، تأليف يوسابيوس القيصري ، ترجمة القس مرقس داود ، الناشر ، دار الكرناك ، القاهرة . ١٩٦٠ .

٣ Smith, A dictionary, Vol., 3, P., 40, 107.

العرب^١ . والمؤرخ (سوزومينوس) (Sozomenus) (٤٠٠ - ٤٤٣) وله كتاب في التاريخ الكنائسي^٢ ، و (ثيودوريت) (Theodoret) المتوفى حوالى سنة ٤٥٧ للميلاد . و (زوسيموس) (Zosimus) ، وهو مؤرخ يوناني ألف في تاريخ الامبراطورية الرومانية - اليونانية ، فأشار الى العرب وعلاقاتهم بها^٣ . و (شمعون الأرشامسي) (Simeon of Beit Arsham) ، وهو صاحب (رسائل الشهداء الحميريين)^٤ التي تبحث في تعذيب ذي نواس للنصارى في نجران ، وقد جمع أخبارهم (على ما يدعيه) من بلاط ملك الحيرة أيام أوفده اليه امبراطور الروم في مهمة رسمية . و (بروكوبيوس) (Procopius) من رجال القرن السادس للميلاد ، وكان أمين سر القائد (بليزارىوس) (Belisarius) أعظم قواد (يوسطنيانوس)^٥ ، وقد رافقه عدة سنين في بلاد فارس وشمال أفريقية وجزيرة صقلية . ومن مؤلفاته مؤلف في تأريخ زمانه ، لا سيما حروب (يوسطنيانوس) ، وكتاب (De Bello Persico) وقد وردت فيه أخبار ذات بال بالنسبة لبلاد العرب^٦ .

ومن هؤلاء (زكريا) (Zacharias) ، المتوفى حوالى سنة ٥٦٨ م^٧ . و (يوحنا)

١ Smith, A Dictionary, Vol., 3, P., 107. ff., Socrates, Ecclesiastical History, Oxon., 1844
٢ Sozomenos, Ecclesiasticae Histria, in, J.P., Migne Patrologiae, 67, 1859, Smith, A Dictionary, P., 107. ff.

٣ Zosimus, Historia Nova, Edited by L. Mendelssohn, Leipzig, 1887.

٤ Simeon of Bejt Arsham, (524), Letter on the Himiarite Martyrs, by Ign. Guidi, entitled, La Lettera di Semeone Vescova di Beth Arsham (524), Spora i Lincei atti, Anno, CCLXXVIII, Storiche e Filologiche, Vol., 7, Rome, 1881, PP., 471-515.

٥ (يوسطنيانوس) حمزة الاصفهاني في كتابه تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، (طبع مطبعة كاوياني ببرلين) ، ص ٧٧ ، (يوسطانيوس) ، مروج الذهب (٢٧٧ / ١) ، (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) .

٦ J. Haury, Procopius De Bello Persico, in Bibliotheca Scriptorum Graecarum et Romanorum, Leipzig, 1905.

٧ Zacharias, Historia Miscellanea, Edited by J.P.N. Land, Entitled Zacharia Episcopi mitylenes Alforumuae Scripta Historica Graece Plerumque deperdita, Constituting J.P.N. Land, Anecdota Syriaca, Vol., 3, Leiden, 1870. Zachariah of Mitylene, The Syriac Chronicle, Translated by Hamilton and Brooks, London, 1893.

وربما توفي ما بين ٥٣٦ - ٥٥٣ للميلاد .

ملالا (John Malalas) المتوفى سنة ٥٧٨ م^١. و (مينندر) (Menandar) Protector المتوفى حوالي سنة ٥٨٢ م^٢. و (يوحنا الأفسى) (John of Ephesus) وقد ولد في حوالي سنة ٥٠٥ م ، وتوفى سنة ٥٨٥ م تقريباً ، وله مؤلفات عديدة منها كتابه : (التاريخ الكنائسي) (Ecclesiastica Historia) ، وهو في ثلاثة أقسام يبدأ بأيام (يوليوس قيصر) وينتهي بسنة ٥٨٥ م^٤. وكتاب (تاريخ القديسين الشرقيين) ، وقد فرغ من تأليفه سنة ٥٦٩ م^٣. ومن هؤلاء (اسطيغان البيزنطي) (Stephanus Byzantinus) المتوفى سنة ٦٠٠ م^٥. و (ابواكريوس) (Evagrius) المعروف بـ (Scholasticus) أي (المدرسي) المتوفى سنة ٦٠٠ م^٦. وهو صاحب كتاب (التاريخ الكنائسي) (Historiae Ecclesiasticae) في ستة أقسام . يبدأ بذكر (المجمع الأفسوسي) المنعقد عام ٤٣١ م وينتهي بسنة ٥٩٣ م^٧. وهو من الكتب المهمة ، لأن مؤلفه لم يكتب عن هوى ، شأن أكثر مؤرخي الكنيسة . وقد استعان بالنصوص الأصلية وبالكتب المؤلفة سابقاً^٨.

ومن هؤلاء أيضاً (ثيوفليكت) (Theophylactus Simocatta) المتوفى سنة ٦٤٠ م^٩ و (ثيوفانس) (Theophanes the Confessor) المتوفى سنة ٨١٨ م^{١٠}. و (ايليا النصيبى) (Elijah (Elis) of Nisibis)^{١١} ، (وميخائيل السوري)^{١٢}.

- ١ John Malalas, Chronographia, in J.P. Migne Patrologiae cursus Completus, Series Graeca, Vol., 97, Paris, 1865, Cols., 65-716, Also, Dindorf, Bonn 1831.
- ٢ Menander Protector, (582), De Legationibus, in J.P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Graeca, Vol., 113, Paris, 1864, Cols 791-928.
- ٣ John of Ephesus, Ecclesiastical History, Part, 3, Edited by William Cureton, Oxford, 1853.
- ٤ Land, Anecdota Syriaca, 3 Vols., Leiden, 1862-1870, 1-288.
- ٥ Ethnica, by August Meineke, Ethnicorum Quae Supersunt, Vol. 1, Berlin, 1879.
- ٦ Evagrius Scholasticus, Historia Ecclesiasticae, Libri sex, in J.P. Migne, Patrologiae Graeca, Vol., 86, Part, 2, Paris, 1865, Cols, 2405-2906, Bury, Byzant. Texts, London, 1898.
- ٧ Historiae, Edited by, C. De Boor, Leipzig, 1887.
- ٨ Theophanes the Confessor, Chronographia, in J. P. Migne, Patrologiae Cursus Completus, Series Graeca, Vol., 108, Paris, 1863, Cols, 1-1010, Also Edited by C. De Boor, Leipzig, 1887.
- ٩ Elijah of Nisibis, Opus Chronologicum, Edited and Translated by, F.W. Brooks, (Part) and J.P. Chabot, (Part 2), in Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Ser., 3, Vol., 7 and 8, Paris, 1909-1911.
- ١٠ Michael the Syrian, Chronicle, by J.B. Chabot, Chronique de Michel le Syrien, Patriarche Jacobite D'Antioche (1166-1199), 4 Vols, Paris, 1899-1906.

وفي قائمة المخطوطات السريانية في المتحف البريطاني أسماء مخطوطات تاريخية ودينية أخرى ذات فائدة كبيرة في هذا الباب^١. وفي مجموعة الكتابات اليونانية واللاتينية^٢ وفي المجموعات التي تبحث في أعمال القديسين وفي انتشار النصرانية ، اشارات مهمة الى بلاد العرب . وهناك كتاب نشره المستشرق (كارل مولر Carl Muller) المؤلف مجهول اسمه (Glaucus) يبحث في (آثار بلاد العرب)^٣.

وهناك طائفة من المؤرخين النصارى من روم وسريان عاشوا في أيام الدولة الأموية والدولة العباسية ، ألفوا في التاريخ العام وفي تواريخ النصرانية الى أيامهم ، فتحديثوا لذلك عن العرب في الجاهلية وفي الإسلام . ومؤلفات هؤلاء مفيدة من ناحية ورود معارف فيها لا ترد في المؤلفات الإسلامية عن الجاهلية والإسلام ، تفيد في سدّ الثغر في التاريخ الجاهلي وفي الوقوف على النصرانية بين العرب وعلى صلات الروم والفرس بالعرب .

وأكثر الموارد المذكورة هي ، ويا للأسف ، مخطوطة ، ليس من المتيسر الاستفادة منها ، أو مطبوعة ولكنها نادرة ، لأنها طبعت منذ عشرات من السنين ، فصارت نسخها محدودة معدودة لا توجد الا في عدد قليل من المكتبات . ثم أنها في اليونانية أو اللاتينية أو السريانية ، أي في لغاتها الأصلية ، ولهذا صعب على من لا يتقن هذه اللغات الاستفادة منها ، ولهذا الأمور ولأمثالها ، لم يستفد منها الراغبون في البحث في التاريخ الجاهلي حتى المستشرقون منهم استفادة واسعة ، فحرمنا الوقوف على أمور كثيرة من أخبار الجاهلية كان في الامكان الوقوف عليها لو تيسرت لنا هذه الكنوز .

الموارد العربية الإسلامية :

وأعني بها الموارد التي دونت في الإسلام وقد جمعت مادتها عن الجاهلية من

١ Wright, W., Catalogue of the Syriac Manuscripts in the British Museum, in 3 Vols, London, 1870-1872.

٢ Corpus Inscriptionum Latinarum, Consilio et Auctoritate Academiae Litterarum Regiae Porussicae, Berlin, 1862, (15 Vols).

٣ Glaucus, Archaeologia Arabica, by, Carl Muller, in Fragmenta Historicorum Graecorum, Vol., 4, Paris, 1851, P., 409.

الأفواه ، خلا ما يتعلق منها بأخبار صلات الفرس بالعرب وبأخبار آل نصر
وآل غسان وبأخبار اليمن المتأخرة، فقد أخذت من موارد مرتبة يظهر أنها كانت
مكتوبة كما سأحدث عن ذلك .

والموارد المذكورة كثيرة ، منها مصنفات في التاريخ ، ومنها مصنفات في
الأدب بنوعيه : من نثر ونظم ، ومنها كتب في البلدان والرحلات والجغرافيا
وفي موضوعات أخرى عديدة، هي وإن كانت في أمور لا تعد من صميم التاريخ،
إلا أنها مورد من الموارد التي يجب الاستعانة بها في تدوين تاريخ الجاهلية، لأنها
تتضمن مادة غزيرة تتعلق بتاريخ الجاهلية القريبة من الإسلام والمتصلة به ، لا نجد
لها ذكراً في كتب التاريخ ، فلا بد لمؤرخ الجاهلية من الأخذ منها لاتمام
التاريخ .

الحق ، اننا إذا أردنا البحث عن مورد يصور لنا أحوال الحياة الجاهلية ،
ويتحدث لنا عن تفكير أهل الحجاز عند ظهور الإسلام، فلا بد لنا من الرجوع
الى القرآن الكريم ولا بد من تقديمه على سائر المراجع الإسلامية ، وهو فوقها
بالطبع . ولا أريد أن أدخله فيها، لأنه كتاب مقدس ، لم ينزل كتاباً في التاريخ
أو اللغة أو ما شاكل ذلك ، ولكنه نزل كتاباً عربياً ، لغته هي اللغة العربية
التي كان يتكلم بها أهل الحجاز، وقد خاطب قوماً نتحدث عنهم في هذا الكتاب،
فوصف حالتهم ، وتفكيرهم وعقائدهم ، ونصحهم وذكرهم بالأثم والشعوب
العربية الخالية^١ ، وطلب منهم ترك ما هم عليه ، وتطرق الى ذكر تجارتهم ،
وسياساتهم وغير ذلك . وقد مثلهم أناس كانت لهم صلات بالعالم الخارجي ،
واطلاع على أحوال من كان حولهم . وفيه تفنيد لكثير من الآراء المغلوطة التي
نجدها في المصادر العربية الإسلامية . فهو مرآة صافية للعصر الجاهلي، وهو كتاب
صدق لا سبيل الى الشك في صحته نصه .

وفي القرآن الكريم ذكر لبعض أصنام أهل الحجاز، وذكر لجلدهم مع الرسول

١ سورة هود سورة ١١ اية ٩٥ ، سورة الحج ، سورة ٢٢ اية ٤٢ ، سورة
الشعراء ، سورة ٢٦ اية ١٤١ ، سورة الحاقة ، سورة ٦٩ اية ٤ ، سورة ق ،
سورة ٥٠ اية ١٤ ، سورة الدخان ، سورة ٤٤ اية ٣٧ ، سورة الفيل ، سورة
١٠٥ ، اية ١ ، سورة البروج ، سورة ٨٥ اية ٤ .

في الإسلام وفي الحياة وفي المثل الجاهلية. وفيه تعرض لنواح من الحياة الاقتصادية والسياسية عندهم ، وذكر تجارتهم مع العالم الخارجي ، ووقوفهم على تيارات السياسة العالمية ، وانقسام الدول الى معسكرين ، وفيه أمور أخرى تخص الجاهلية وردت فيه على قدر ما كان لها من علاقة بمعارضة قريش للقرآن والإسلام . وفي كل ما ورد فيه دليل على أن صورة الإخباريين التي رسموها للجاهلية ، لم تكن صورة صحيحة متقنة ، وأن ما زعموه من عزلة جزيرة العرب ، وجهل العرب وهمجيتهم في الجاهلية الجهلاء ، كان زعماً لا يؤيده القرآن الكريم الذي خالف كثيراً مما ذهبوا اليه .

والتفسير ، مصدر آخر من المصادر المساعدة لمعرفة تأريخ العرب قبل الإسلام. وفي كتب التفسير ثروة تاريخية قيمة تفيد المؤرخ في تدوين هذا التأريخ ، تشرح ما جاء مقتضياً في كتاب الله ، وتبسط ما كان عالقاً بأذهان الناس عن الأيام التي سبقت الإسلام ، وتحكي ما سمعوه وما وعوه عن القبائل العربية البائدة التي ورد لها ذكر مقتضب في السور، وما ورد عندهم من أحكام وآراء ومعتقدات .

ولكن كتب التفاسير - ويا للأسف - غير مفهومة ولا مطبوعة طبعاً حديثاً، وهي في أجزاء ضخمة عديدة في الغالب ، ولهذا صعب على الباحثين الرجوع اليها لاستخراج ما يحتاج اليه من مادة عن التأريخ الجاهلي ، حتى ان المستشرقين المعروفين بصبرهم ومجملتهم وبعدم مبالاتهم بالتعب ، لم يأخذوا من معينها إلا قليلاً، مع أن فيها مادة غنية عن نواح كثيرة من أمور الجاهلية المتصلة بالإسلام . وكتب الحديث وشروحها ، هي أيضاً مورد غني من الموارد التي لا بد منها لتدوين أخبار الجاهلية المتصلة بالإسلام ، اذ نجد فيها أموراً تتحدث عن نواح عديدة من أحوال الجاهلية لا نجدها في مورد آخر . فلا مندوحة من الرجوع اليها والأخذ منها في تدوين تأريخ الجاهلية . ولكن أكثر من بحث في التأريخ الجاهلي لم يغرف من هذا المنهل الغزير ، بسبب عدم انتباههم لأهميته في تدوين تأريخ عرب الحجاز عند ظهور الإسلام ، فعلىنا نحن اليوم واجب الأخذ منه ، لنزيد علمنا بتاريخ هذه الجاهلية المتصلة بالإسلام .

والشعر الجاهلي ، مورد آخر من الموارد التي تساعدنا في الوقوف على تأريخ الجاهلية والاطلاع على أحوالها ، وقديماً قيل فيه إنه (ديوان العرب) . « عن عكرمة . قال : ما سمعت ابن عباس يفسر آية من كتاب الله ، عز وجل ،

إلا نزع فيها بيتاً من الشعر ، وكان يقول : إذا أعيانكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ، وبه حُفظت الأنساب ، وعرفت الآثار ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وحديث صحابته والتابعين ،^١ .
 « وعن ابن سيرين . قال : قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه »^٢ . وقال الجمحي فيه ، أي في الشعر الجاهلي : (وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون »^٣ .)

وقد جُمع الشعر الجاهلي في الإسلام ، جمعه رواة حاذقون ، تخصصوا برواية شعر العرب . قال (محمد بن سلام الجمحي) : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، حماد الراوية ، وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار »^٤ . واشتهر بجمعه أيضاً (أبو عمرو بن العلاء) المتوفى سنة (١٥٤) للهجرة^٥ ، وخلف بن حيّان أبو محرز الأحمر^٦ ، وأبو عبيدة ، والأصمعي ، والمفضل بن محمد الضبي الكوفي^٧ صاحب المفضليات ، وهي ثمان وعشرون قصيدة ، قد تزيد وقد تنقص وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية^٨ .

-
- ١ الزهر (٢/٤٧٠) ، (وأخرج أبو بكر الانباري في (كتاب الوقف) من طريق عكرمة عن ابن عباس ، قال : إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب) ، الزهر (٢/٣٠٢) ، التبريزي ، شرح الحماسة (١/٣) .
 - ٢ الجمحي : طبقات الشعراء (ص ١٠) (طبعة لندن) .
 - ٣ طبقات الشعراء (ص ١٠) .
 - ٤ طبقات الشعراء (ص ١٤) ، توفي حماد سنة ١٥٦ للهجرة ، الفهرست (ص ١٤٠) .
 - ٥ البيان والتبيين (١/٣٢١) ، الزهر (٢/٣٠٤) ، الفهرست (ص ٤٨) .
 - ٦ (وكان من امرس الناس لبيت شعر ، وكان شاعرا يعمل الشعر على لسان العرب وينحله أياهم ... وله من الكتب : كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر) ، الفهرست (ص ٨٠)
 - ٧ طبقات الشعراء (ص ٩) ، الفهرست (ص ١٠٨) .
 - ٨ الفهرست (ص ١٠٨) .

وأبو عمرو اسحاق بن مرار الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ للهجرة^١، قيل : إنه جمع أشعار العرب ، فكانت نيفاً وثمانين قبيلة^٢. وأبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي، المتوفى سنة ٢٣١ للهجرة^٣ ، وأبو محمد جناد بن واصل الكوفي^٤ ، وخلاّد بن يزيد الباهلي^٥ ، وغيرهم ممن تفرغوا له ، وصرفوا جلّ وقتهم في جمعه وحفظه وروايته .

(قال ابن عوف عن ابن سيرين . قال : عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلو بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثّر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثلوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموث والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم أكثره^٦ . وورد عن (أبي عمرو بن العلاء) انه قال : (ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير)^٧ . ولا جدال بين العلماء حتى اليوم في موضوع ذهاب أكثر الشعر الجاهلي ، وفي أن الباقي الذي وصل الينا مدوناً في الكتب ، هو قليل من كثير . وقد عللوا سبب اندثار أكثره وذهابه بسبب عدم تدوين الجاهليين له ، واكتفائهم بروايته حفظاً، فضاء بتقادم الزمان ، وبموت الرواة ، وبانطاس أثره من الذاكرة ، وبانشغال الناس بأمور أخرى عن روايته ، ولا سيما رواية القديم منه الذي لم يعد يؤثر في العواطف تأثير الجديد منه الذي قيل قبيل الإسلام .

نعم جاء في الأخبار أنه (قد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار

-
- ١ (واخذ عند دواوين اشعار القبائل كلها) ، (قيل مات في اليوم الذي مات فيه ابو العتاهية وابراهيم الموصلي سنة ثلاث عشرة ومائتين) ، الفهرست (ص ١٠٧ وما بعدها)
 - ٢ الفهرست (ص ١٠٧) .
 - ٣ الفهرست (ص ١٠٨ وما بعدها) .
 - ٤ (كان من اعلم الناس بأشعار العرب وايامها) الفهرست (ص ١٤١) .
 - ٥ الفهرست (ص ١٦٢) .
 - ٦ طبقات الشعراء (ص ١٠) .
 - ٧ المصدر نفسه .

الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان أو ما صار منه ^١ . وورد عن «حماد الراوية» أنه ذكر أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، وهي الكراريس ، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض . فلما كان المختار بن أبي عبيد ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفروه ، فأخرج تلك الأشعار ^٢ .

ووردت عنه أيضاً حكاية أهل مكة للمعلقات على الكعبة ^٣ . ووردت أخبار أخرى تدل على وجود تدوين للشعر عند الجاهليين . الا اننا لا نجد حماداً ولا غير حماد ينص على أنه نقل ما دونه من تلك الموارد المدونة أو من غيرها مما وجدته مدوناً . وهذا ما حدا بالعلماء قديماً وحديثاً إلى البحث في هذا الموضوع : موضوع الشعر الجاهلي من ناحية وجود تدوين له ، أو عدم وجود تدوين له . وأثر ذلك على درجة ذلك الشعر من حيث الصحة والأصالة والصفاء والنقاء .

وفي الشعر الجاهلي الواصل إلينا ، شعر صحيح وشعر موضوع منحول حمل على الشعراء . وقد شخص أهل الفراسة بالشعر الصحيح منه ونصوا على أكثر الفاسد منه . ولم يقل أحد منهم أن الشعر الجاهلي موضوع كله ، فاسد لا أصل له . فدعوى مثل هذه ، هي دعوى كبيرة لا يمكن ان يقولها أحد . إنما اختلفوا في درجة نسبة الصحيح إلى الفاسد ، أو نسبة الفاسد إلى الصحيح .

« وكان ممن هجّن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء ، محمد بن اسحاق مولى آل مخزّمة بن المطلب بن عبد مناف . وكان من علماء الناس بالسيرة فنقل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ، ويقول لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله ،

-
- ١ طبقات الشعراء (ص ١٠) ، المزهري (٤٧٤/٢) .
 - ٢ تاج العروس (٧٠/٢) ، لسان العرب (١٤٢/٣) الخصائص لابن جني (٣٩٢/١ وما بعدها) .
 - ٣ المزهري (٤٨٠/٢) ، ياقوت ، ارشاد الاديب (١٤٠/٤) .
 - ٤ طه حسين ، في الشعر الجاهلي ، ١٩٢٦ ، ثم في الادب الجاهلي ، مصطفى صادق الرافعي : تاريخ ادب العرب ، وتحت راية القرآن ، محمد الخضري : محاضرات في بيان الاخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، محمد احمد الغمراوي : النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي ، محمد فريد وجدي : نقد كتاب الشعر الجاهلي ، محمد لطفي جمعة : الشهاب الراصد .

ولم يكن ذلك له عذراً ، فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وشمود أفلا يرجع الى نفسه : فيقول من حمل هذا الشعر ، ومن آداه منسداً ألوف من السنين ، والله يقول : (وأنه أهلك عاداً الأولى وشمود فما أبقي) . وقال في عاد : (فهل ترى لهم من باقية) . وقال : (وعاداً وشمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله)^١ .

وآتهم (حماد الرواية) بالكذب وبوضع الشعر على السنة الشعراء ، فقليل فيه : (وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار)^٢ . وقال (أبو جعفر النحاس) المتوفى سنة ٣٢٨ للهجرة في أمر (المعلقة) : (إن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة)^٣ ، وآتهم غيره ممن ذكرت من جهابذة حفظة الشعر الجاهلي بالوضع كذلك . وقد نصوا في كثير من الأحيان على ما وضعوه ، وحملوه على الجاهليين . وذكروا أسباب ذلك بتفصيل^٤ ، كالذي فعله مصطفى صادق الرافعي في (تأريخ آداب العرب)^٥ .

وبعد هذه الكلمة القصيرة في الشعر الجاهلي — الذي سأحدث عنه بإطناب في الجزء الخاص باللغة — أقول : إن اليه يعود فضل بقاء كثير من الأخبار المتعلقة بالجاهلية ، فلولاها لم نعرف من أمرها شيئاً . ولست مبالغاً اذا قلت ان كثيراً من الأخبار قد ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسباتها ، وان أخباراً خلقت خلقاً ، لأن واضح الشعر أو راويه اضطر الى ذكر المناسبة التي قيل فيها ، فعمد الى الخلق والوضع . وهو من ثم صار سبباً في تخليد الأخبار ، لسهولة حفظه ، ولاضطرار راويه الى قص المناسبة التي قيل فيها .

وما قلته في أهمية الشعر الجاهلي بالقياس الى عمل مؤرخ الجاهلية ، ينطبق

-
- ١ طبقات الشعراء (ص ٤) .
 - ٢ طبقات الشعراء (ص ١٤) .
 - ٣ الزهر (٢ / ٤٨٠) .
 - ٤ طبقات الشعراء (ص ٦١، ٦٠، ١٥ وما بعدها ، ومواضع عديدة أخرى)
 - ٥ راجع الصفحات ٢٧٧ فما بعدها .
 - ٦ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (تاريخ) (ص ٤٨٤) ، الترجمة العربية ،

أيضاً على أهمية شعر الشعراء المخضرمين بالقياس الى عمل هذا المؤرخ ، فقد أسهم أكثر الشعراء المخضرمين في أحداث وقعت في الجاهلية ، وكان منهم من جالس (آل نصر) و (آل غسان) ، وبقية سادات العرب ، فورد في شعرهم أخبارهم وأحوالهم وطباعهم وغير ذلك . كما نجد في شعرهم مادة عن الحياة العقلية والمادية في أيامهم . ثم ان حياتهم اتصلت بالإسلام ، فلم يكن شعرهم وما قالوه ورووه بعيداً عهد عن أهل الأخبار ورواة الشعر ، وهو من ثم أقرب الى المنطق والواقع من شعر الجاهليين لبعدهم عن الرواة بعض البعد .

ولم ينج هذا الشعر أيضاً من الوضع ، فحمل على بعض الشعراء مثل (حسان ابن ثابت) بعض الشعر لأغراض ، منها العصبية القبلية ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد . وفي الجملة إن المؤرخ الحاذق الناقد لن تفوته هذه الملاحظة حين رجوعه الى هذا الشعر والى ما ورد على ألسنة الشراح .

وتعرضت كتب السير والمغازي لأخبار الجاهلية بقدر ما كان للجاهلية من صلة بتاريخ الرسول ، كما تعرضت لها كتب الأدب وكتب الأنساب والمثالب والبيوتات ومجامع الأمثال والكتب التي ألقت في أخبار المعمرين ، وفي الأيام ، وفي البلدان ، وفي المعجمات والجغرافية والسياحات وغير ذلك ، فورد في ثناياها أخبار قيمة عن هذه الجاهلية المتصلة بالإسلام . وهي موارد عظيمة الأهمية لمؤرخ هذه الحقبة ، كثيرة العدد ، هيأها عدد كبير من العلماء ، لا يمكن استقصاؤهم في هذه المقدمة ، ولا التحدث عن مؤلفاتهم ، وهو حديث يحتاج الى فصول . على أننا يجب أن نأخذ بعض هذه الموارد المذكورة بحذر جد شديد ، ولا سيما كتب (الأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب) ، فإن مجال الوضع والصنعة بها واسع كبير ، لما للعواطف القبلية فيها من يد ودخل ، وللحزبية والأغراض فيها من تأثير . وطالما نسمع أن فلاناً وضع كتاباً في مثالب القبيلة الفلانية أو في مدحها ترضية لرجال تلك القبيلة ، أو لحصوله على مال منها . ومن هنا وجب الاحتراس كل الاحتراس من هذه الموارد ، ووجوب نقد كل رواية فيها قبل الاعتماد عليها والأخذ بها كمورد صحيح دقيق .

وفي كتب الأدب ثروة تاريخية قيمة ، ماثورة في صفحاتها ، لا نجد لها مثيلاً ولا مكاناً في كثير من الأحيان في كتب أهل التاريخ عن التاريخ الجاهلي ، حتى اني لأستطيع أن أقول إن ما أورده رجال الأدب عنه هو أضعاف أضعاف ما

رواه المؤرخون عن ذلك التأريخ ، وأن ما جاءت به كتب الأدب عن ملوك الحيرة وعن الغساسنة وعن ملوك كندة وعن أخبار القبائل العربية ، هو أكثر بكثير مما جاءت به كتب التأريخ ، بل هو أحسن منها عرضاً وصفاءً ، وأكثر منها دقة . ويدل عرضه بأسلوبه الأدبي المعروف على أنه مستمد من موارد عربية خالصة ، وقد أخذ من أفواه شهود عيان ، شهدوا ما تحدثوا عنه . وقد أفادنا كثيراً في تدوين تأريخ الجاهلية الملاصقة للإسلام ، ولشأنه هذا أود أن ألفت أنظار من يريد تدوين تأريخ هذه الحقبة إليه ، وأن يرعاه بالرعاية والعناية وبالنقد ، وسيحصل عندئذ على رأي لا يستطيع العثور عليه في كتب أهل التاريخ .

وقد صارت كتب المؤرخين المسلمين لذلك ضعيفة جداً في باب تأريخ العرب قبل الإسلام ، ومادتها عن الجاهلية هزيلة جداً قليلة بالقياس إلى ما نجده في كتب التفسير والحديث والفقه والأدب وشروح دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين والموارد الأخرى . والغريب أن تلك الكتب اكتفت في الغالب بإيراد جريدة لأسماء ملوك الحيرة أو الغساسنة أو كندة أو حمير ، مع ذكر بعض ما وقع لهم في بعض الأحيان ، على حين نجد كتب الأدب تتبسط في الحديث عنهم ، وتحدث عن حوادث وأمور لا نجد لها ذكراً في كتب المؤرخين ، بل نجد فيها أسماء ملوك لم نعرفها كتب التاريخ ، مما صيرها في نظري أكثر فائدة وأعظم نفعاً لتأريخ الجاهلية من كتب المؤرخين .

المؤرخون المسلمون :

لا نتمكن من الاطمئنان الى هذه الأخبار والروايات المدونة في الموارد الإسلامية عن الجاهلية، الا اذا وقفنا بها الى حدود القرن السادس للميلاد أو القرن الخامس على أكثر تقدير . أما ما روي على أنه فوق ذلك، فإننا لا نتمكن من الاطمئنان اليه ، لأنه لم يرد به سند مدون ، ولم يؤخذ من نص مكتوب ، وانما أخذ من أفواه الرجال ، ولا يؤتمن على مثل هذا النوع من الرواية ، لأننا حتى اذا سلمنا ان رواة تلك الأخبار كانوا مترهين عن الميول والعواطف ، وانهم كانوا صدوقين في كل ما رويوا ، وكانوا أصحاب ملكة حسنة ذات قدرة في النقد وفي

التمييز بين الصحيح والفساد، فإننا لا نتمكن من أن نسلم أن في استطاعة الذاكرة أن تحافظ على صفاء الرواية وان تروي القصة وما فيها من كلام وحديث بالنص والحرف حقبة طويلة. لذا وجب علينا الحذر في الاعتماد على هذه الموارد وتمحيص هذا المدون الوارد ، وان تكاثر واشتهر وتواتر، فقد كان من عادة رواة الأخبار رواية الخبر الواحد دون الإشارة الى منبعه ، ويُتداول في الكتب ، فيظهر وكأنه من النوع المتواتر في حين انه من الأخبار الآحاد في الأصل .

ولا أدري كيف يمكن الاطمئنان الى نص قصة طويلة فيها كلام وحوار أو قصيدة طويلة زعم ان التبع فلاناً نظمها ، في حين أننا نعلم أن الذاكرة لا يمكن أن تحفظ نصاً بالحرف الواحد إذا لم يكن مدوناً مكتوباً ، ولهذا جوز أهل الحديث رواية حديث الرسول بالمعنى ، إذا تعدت روايته بالنص . ولا أعتقد ان عناية العرب المسلمين بحديث رسول الله كانت أقل من عنايتهم برواية ما جرى مثلاً بين النعمان بن المنذر وبين كسرى من كلام ، أو من رواية ذلك الكلام المنق والحديث الطويل العذب ، الذي جرى بين وفد النعمان الذي اختاره من خيرة ألسنة القبائل المعروفة بالكلام ، وبين كسرى المذكور^١ .

ومن هذا القبيل نصوص المفاخرات والمنافرات ، فإن مجال لعب العاطفة فيها واسع رحيب . وكذلك كل الأخبار والروايات التابعة عن الخصومات والمنافسات بين القبائل أو الأشخاص ، فإن الوضع والافتعال فيها شائع كثير ، ولا مجال للكلام عليه في هذا الموضع ، لأنه يخرجنا من حدود التأريخ الجاهلي ، الى موضوع آخر ، هو نقد الروايات والأخبار والرواة ، وهو خارج عن هذا الموضوع .

لقد تحدث أهل الأخبار عن عاد وثمود وطسّم وجديس وجبرهم وغيرهم من الأمم البائدة ، وتكلموا على المياني (العادية) وعن جن سليمان وأسلحة سليمان ، ورووا شعراً ونثراً نسبوه الى الأمم المذكورة والى التبابعة ، بل نسبوا شعراً الى آدم ، زعموا أنه قاله حين حزن على ولده وأسف على فقده ، ونسبوا شعراً الى (ابليس) ، قالوا إنه نظم في الردّ على شعر (آدم) المذكور ، وأنه أسمع

١ راجع النصوص في بلوغ الارب (١/١٤٧) فما بعدها .

(آدم) بصوته دون أن يراه^١ . ورووا أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل :
ولكن هل يمكن الاطمئنان إلى قصص كهذا يرجع أهل الأخبار زمانه إلى
مئات من السنين قبل الإسلام ، وإلى أكثر من ذلك ، ونحن نعلم ، بتجاربتنا
معهم ، أن ذاكرتهم اختلفت في أمور وقعت قبيل الإسلام ، واضطربت في
تذكر حوادث حدثت في السنين الأولى من الإسلام . كيف يمكننا الاطمئنان إلى
ما ذكروه عن التبابعة وعن أناس زعموا أنهم عاشوا دهرًا طويلًا قبل الإسلام ،
ونحن نعلم من كتابات المسند ومن المؤلفات اليونانية والسريانية ، أنهم لم يكونوا
على ما ذكروه عنهم ، وأنهم عاشوا في أيام لم تبعد بعدًا كبيرًا عن الإسلام ،
وأنهم كانوا يكتبون بالمسند ويلسان يختلف عن هذا اللسان الذي نزل به القرآن .
ثم خذ ما ذكروه عن حملة (أبرهة) على مكة وعن أبرهة نفسه ، وعن (أبي
رغال) ، وعن حادث نجران وذي نواس ، وعن خراب سد مأرب ، وعن
أمثال ذلك من حوادث وأشخاص سيرد الكلام عليها في أجزاء هذا الكتاب ،
نجد أن ما ذكروه عنها وعنهم يتحدر بجلاء وبكل وضوح عن جهل بالواقع
وعن عدم فهم لما وقع ، وعن عدم ادراك للزمان والمكان ، وعن عدم معرفة
بالأشخاص . فرفعوا تواريخ بعض تلك الحوادث إلى مئات من السنين ، وخططوا
في بعض منها ، وفي كل ذلك دلالة على أن ما حفظته الذاكرة ، لم يكن نقيًا
خالصًا من الشوائب ، وأن الذاكرة لا يمكن أن تحافظ على ما تحفظه أمدًا طويلًا
وأن آفات النسيان وتلاعب الزمان بالحفظ لا بد أن يغير من طبائع المحفوظ .

والاخباريون إذ رووا ذلك ودوتوه ، لم يكونوا أول من وضع وصنع وافعل
وجاء بالقصص والأساطير على أنها باب من أبواب التاريخ ، فقد فعل فعلهم
اليونان والرومان والعبرانيون وسائر الشعوب الأخرى ، يوم أرادوا تدوين تواريخ
العصور التي سبقت عندهم عصور الكتابة والتدوين ، إذ لم يجدوا أمامهم غير
هذا النوع من الروايات الشفوية البدائية التي عبثت بصفاتها الزمان كلما طال أجلها
إلى زمن التدوين ، فدوتوه ورووه ، إلى أن وصل إلينا على النحو المكتوب .

وللسبب المذكور نرى في الأخبار الواردة عن ملوك الحيرة ، أو عن صلات
الفرس بالعرب أخباراً قريبة إلى منطق التاريخ وإلى الواقع يمكن أن نأخذ بها وأن

١ مروج الذهب (٢٦/١ وما بعدها) ، (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد)

نستعين بها في تدوين تاريخ الحيرة وتاريخ الساسانيين مع العرب . ويعود سبب ذلك الى رجوع الرواة الى موارد مدونة ، أو الى شهود عيان أدركوا أنفسهم الحوادث ، وكلها من الحوادث القريبة من الإسلام والتي وقع بعضها في أيام الرسول . أما حوادث آل نصر ، أو أخبار الفرس مع العرب البعيدة ، فلا نجد فيها هذا الصفاء والنقاء ، بل نجد فيها قرة وغبرة ، لنقلها بالسماع والمشافهة وتقادم العهد على السماع . وهكذا صار تاريخ الحيرة المروي في التواريخ غيوماً تتخللها فجوات متبعثرة تنبعث منها أشعة الشمس .

نعم جاء أن أهل الحيرة كانوا يُعنون بتدوين أخبارهم وأنساب ملوكهم وأعمار من ملك منهم ، وكانوا يضعون ذلك في بيع الحيرة^١ . وورد أن النعمان ملك الحيرة أمر ففسخت له أشعار العرب في الطنوج ، وهي الكراريس ، فكُتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض . فلما كان المختار بن أبي عبيدة ، قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفزه فأخرج تلك الأشعار^٢ . وذكر ابن سلام الجُمُحِيّ أنه (كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان ، أو ما صار منه)^٣ .

ولكنني على الرغم من ورود هذه الأخبار لا أستطيع أن أقف منها الآن موقفاً إيجابياً، إذ لم أسمع أن أحداً من رواة الشعر ذكر أنه رجع الى تلك الطنوج والدواوين فأخذ منها ، أو أن بني مروان عرضوها على أحد . ولو كانت تلك الدواوين موجودة ، لم يسكت عنها رواة الشعر الجاهلي وطلابه الذين كانوا يبحثون عنه في كل مكان . ثم إن الأخباريين يذكرون أن (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ، كان يرسل الى (حمّاد) رسلاً ليأتوا اليه بما يريد الوقوف عليه من الشعر الجاهلي ، وأنه (جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها الوليد بن يزيد بن عبد الملك وردّ الديوان الى حمّاد وجناد)^٤ ، وأنه أحضره الى الشام ، واستنشدته أشعار (بكسي) وأشعاراً أخرى ، ولو كان لدى (بني

-
- ١ الطبري (٣٧/٢) .
 - ٢ تاج العروس (٧٠/٢) ، لسان العرب (١٤٢/٣) ، ابن جني ، الخصائص (٣٩٢/١) وما بعدها .
 - ٣ طبقات فحول الشعراء (ص ١٠) ، المزهر (٤٧٤/٢) .
 - ٤ الفهرست (ص ١٤٠) .
 - ٥ الاغانى (٩٤/٦) .

مروان) ديوان (النعمان بن المنذر) الذي جمع فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، لما احتاج (الوليد) الى أن يسأل حماداً وجناداً ليرسلا اليه ديوان العرب ، وهو ديوان لا ندرى اليوم من أمره شيئاً ، ولم يذكر (ابن النديم) صاحب الخبر ، ما علاقة الرجلين المذكورين بذلك الديوان . هل كانا اشتراكاً معاً في جمعه ، أو أن كل واحد منها قد جمع بنفسه الأشعار في ديوان ، فأرسل الوليد اليهما يطلب منها ما جمعه ، ليجمعه مع ما عنده في ديوان .

ثم لأننا لم نسمع أحداً يقول: (كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ابن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم ، لآل كسرى ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها)^١ ، غير الراوية (هشام بن محمد الكلبي) . فلم وقف (ابن الكلبي) وحده على تلك الكنوز ، ولم يلجأ غيره الى بيع الحيرة ، ليأخذ منها أخبار نصر ؟ ألم يعلم بوجودها أحد غيره ؟ ثم لم اختلفت روايات (ابن الكلبي) وتناقضت في أمور من تاريخ الحيرة ، ما كان من الواجب وقوع اختلاف فيها ، ولم لجأ أيضاً الى رواية القصص والأساطير عن منشأ (الحيرة) ، وعن (عمرو بن عدي) ، وعن جذيمة ، وعن (قصر الحورث) وعن غير ذلك ، ليقصها على أنها تاريخ آل نصر^٢ . أبعد هذا دليلاً على أخذه من موارد قديمة مكتوبة مدونة ؟ نعم ، من الجائز أن يكون قد أخذ من صحف كانت قد دوت أسماء آل نصر المتأخرين ، وبعض الأخبار المتعلقة بهم ، أما أنه أخذ أخبارهم كاملة مدونة من كتاب أو من كتب تاريخ بالمعنى المفهوم من الكتاب ، فذلك ما أشك فيه ، لأن الذي ينقل أخباره من كتاب في التاريخ لا يروي تاريخ تلك الأسرة وتاريخ عربها على الشكل الذي رواه.

قال (الطبري) : (وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعملهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة ، متعلماً ، مثبتاً عندهم في كنائسهم وأسفارهم)^٣ ، وتدل هذه الملاحظة التي تؤيد رواية (ابن الكلبي) المتقدمة - ولعل (الطبري) أخذها من رواية لابن

١ الطبري (١/٦٢٨) (طبعة دار المعارف بمصر) .

٢ الطبري (١/٦٠٩ وما بعدها) (طبعة دار المعارف بمصر) .

٣ الطبري (١/٦٢٨) (طبعة دار المعارف بمصر) .

الكلاسي ، دون أن يشير إليه ، — على وجود أسفار في تواريخ أهل الحيرة ، إلا أنني أعود فأقول إن أكثر المروي عنهم ، لا يدل على أنه منقول من موارد مدونة ، لما فيه من اضطراب وتناقض ، ولغلبة طابع الروايات الشفوية عليه . والأخبار الوحيدة التي يمكن أن تكون منقولة من موارد مدونة ، هي الأخبار المتأخرة التي تعود إلى أواخر أيام الحيرة ، الأيام المقاربة للإسلام إلى زمن فتح المسلمين لها . ثم إن لقربها من زمن التدوين علاقة بوضوح هذه الأخبار المتأخرة وبدرجة صفائها .

ولا تعني هذه الملاحظات أننا ننكر وجود مدونات عند أهل الحيرة في التاريخ أو في الشعر أو في أي موضوع آخر ، ولا اعتقد أن في استطاعة أحد نكران وجود التأليف عندهم . فقد ورد في التواريخ الكنائسية أسماء رجال من أهل الحيرة ساهموا في المجالس الكنائسية التي انعقدت للنظر في أمور الكنيسة ومشكلاتها ، ومنهم من برز وألف في موضوعات دينية وتاريخية ، كما ورد في أخبار أهل الأخبار أن أهل الحيرة كانوا يتداولون قصص رستم واسفنديار وملوك فارس ، وأن (النصر بن الحارث) الذي كان يعارض الرسول ، تعلم منهم ، وكان يحدث أهل مكة بأخبارهم معارضاً رسول الله ، ويقول : أينما أحسن حديثاً ؟ أنا أم محمد ؟

ولا بد أن يكون معين القصص الذي تعلمه (النصر بن الحارث) هو في هذا المعين المدون في كتب الفرس . وقد كانت للفرس كتب في سير ملوكهم وآدابهم ترجم بعضها في الإسلام ، مثل كتاب (سير العجم)^٢ ، أو (كتاب خدای نامه)^٣ ، أو كتاب (سير الملوك) أو (سير ملوك العجم) ، ترجمة (عبدالله بن المقفع) و (كتاب التاج)^٤ للمترجم نفسه ، وكتب أخرى لم ترجم

- ١ سيرة ابن هشام (٣٨١/١) (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) .
- ٢ ابن قتيبة : عيون الأخبار (١١٧/١) .
- ٣ الفهرست (ص ١٧٢) ، (خدای نامه) ، وهو الكتاب الذي لما نقل من الفارسية إلى العربية سمي كتاب تاريخ ملوك الفرس ، حمزة (ص ١٥) ، (وهو في حكاية جمل ما في خدای نامه لم يحكها ابن المقفع ولا ابن الجهم ، فجئت بها في آخر هذا الكتاب . . .) ، (كتاب خدينامه في السير) ، حمزة (ص ٤٣) .
- ٤ عيون الأخبار (١١٧/١) .
- ٥ عيون الأخبار (٥/١) ، (كتاب التاج في سيرة انوشروان) ، الفهرست (ص ١٧٢)

كانت شائعة عند الفرس معروفة ، يحافظون عليها ويتداولونها ، منها استمد المؤرخون العرب الإسلاميون أخبار الفرس ومن حكم منهم من ملوك^١ :

ولقد قال (كولد تزهير) و (بروكلمن) بوجود أثر فارسي في ظهور علم التاريخ عند المسلمين^٢ . أما أثر الموارد الفارسية في مادة الفصول المدونة عن الفرس وعن ملوك الحيرة ، فواضح ظاهر ، ولا يمكن لأحد الشك فيه ، وأما أثرها فيما عدا ذلك ، ولا سيما في كيفية عرض التاريخ وفي أسلوب تدوينه وتبويبه ، فدعوى أراها غير صحيحة ، لأن طريقة الابتداء بالزمان ثم ابتداء الخلق وعدد أيام الخلق وخلق آدم ثم التحدث عن الأنبياء بحسب تسلسل رسالاتهم ، وهي الطريقة التي سار عليها من دون في التاريخ العام من المسلمين مثلاً ، كما فعل (الطبري) في تأريخه ، طريقة لا يمكن أن تكون فارسية ، لأن الفرس مجوس ، والمجوس لا يعتقدون بهؤلاء الرسل والأنبياء . والصحيح ، أنها طريقة المؤرخين الذين جاؤوا بعد الميلاد ، فهم الذين روجوا الأسلوب المذكور في تدوين التاريخ . ويمكن ادراك ذلك من المقابلة بين الأسلوبين : الأسلوب الإسلامي في تدوين التاريخ وفي كيفية تبويبه وتصنيفه وأسلوب الكتب التاريخية المدونة في اليونانية وفي السريانية الى زمن تدوين التاريخ عند المسلمين .

والرأي عندي أن علمنا بأسلوب التاريخ عند الفرس : كيفية عرضه وطرقه وتبويبه علم نزر ، لأن ما وصل إلينا من كتبهم معدود محدود ، وما ورد فيه سير ملوكهم وأيامهم وما نجده مترجماً ومنشوراً في المؤلفات العربية ، هو من نوع القصص الذي يغلب عليه الطابع الأدبي ، فيه أدب السلوك ومواعظ الحكم وأقوال في الحكمة ، وحتى القسم المتصل منه بالتاريخ قد وضع بأسلوب عاطفي أدبي . ومن هنا ابتعد عن أسلوب المؤرخين اليونان واللاتين ، وعن أسلوب المؤرخين الذين ظهوروا بعد الميلاد . وقد يكون لاختلاف الدوق دخل في اختلاف الأسلوبين . ومهما يكن من أمر فأنا لا أريد أن أكون متسرعاً عجولاً في اصدار حكم على فن التاريخ عند الفرس ، فأبغض الأشياء إليّ التسرع في اصدار الأحكام

١ السعودي : مروج (١٤٦/١) ، (وقد ذكر ابو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، عن عمر كسرى في كتاب له في اخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف ...) ، المروج (١٩٩/١) ، التنبيه والاشراف (ص ٩٢) .
٢ الموسوعة الاسلامية ، مادة : تاريخ .

في التاريخ ، ومن الحكمة وجوب التريث والانتظار ، فلعل الأيام تنحفنا بتواريخ فارسية ، تربنا أن للفرس رأياً أصيلاً في التاريخ ، وأن لهم طريقة المؤرخين في تدوين تاريخ العالم وتاريخ بلادهم وفي تدوين سير الملوك والأشخاص ، وأنهم كانوا قد عينوا مراسلين يلزمون جيوشهم لتدوين أخبار الحروب ، كما فعل الروم ، ولكن بعقلية مستقلة لم تتأثر بطريقة اليونان واللاتين .

ويكاد يكون أكثر ما دون عن (الغساسنة) في المؤلفات العربية الإسلامية مأخوذاً من الروايات الواردة عن ملوك الحيرة وعرب الحيرة ، أنداد الغساسنة ، ولذلك لم تكن في جانبهم ، وتكاد تلك الأخبار ترجع في الغالب إلى شخص واحد ، تخصص بأخبار الحيرة وملوك الفرس ، هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وهو الذي روى هذه الأخبار اعتماداً على بحوثه الخاصة ، وعلى البحوث والدراسات التي قام بها والده من قبله . ويجب أن نجعل لهذه الملاحظات الاعتبار الأول في تدوين تاريخ الغساسنة . وقد وردت أخبارهم في الطبري مع أخبار ملوك الحيرة والفرس لهذا السبب . وأما في سائر الأصول التاريخية الأخرى ، فهي مقتضبة ، وقد اكتفى بعض المؤرخين بإيراد جريدة بأسماء الملوك ، وهو عمل ينبعث بقلة بضاعة القوم في تاريخ عرب الشام . وعلى كل حال ، فأننا نجد في كتب الأدب وفي دواوين الشعر عوناً لنا في تدوين ، تاريخ غسان ، قد يسد بعض الفراغ في تاريخ هذه الإمارة ، وإن كان ذلك كله لا يكفي ، بل لابد من الاستعانة بأصول أعجمية من يونانية وسريانية ، ففيها مواد عن نواح مجهولة من هذا التاريخ ، كما أنها تصحح شيئاً مما ورد في الموارد العربية من أغلاط^١ .

ولقد تأثرت روايات (ابن الكلبي) بطابع التعصب لأهل الحيرة على الغساسنة ، لاعتماده على روايات أهل الحيرة وعلى أهل الكوفة في سرد تاريخ الغساسنة ، وقد كان ملوك الحيرة أنداداً للملوك الغساسنة ، ولهذا تتعارض رواياتهم وروايات من استقى من هذا المورد مع روايات علماء اللغة والأدب والشعر التي وردت استطراداً عن أهل الحيرة أو الغساسنة ، وذلك في أثناء شرحهم لفظة أو بيت شعر أو قصيدة أو ديواناً أو حياة شاعر كانت له علاقة بالحيرة أو بالغساسنة ، أو عن

١ امراء غسان لنولدكه ، ترجمة الدكتور قسطنطين زريق والدكتور بندلي جوزي ، (بيروت سنة ١٩٣٣) (ص ١ - ٢) .

قصة من القصص، وما شاكل ذلك . ومرجع أولئك الروايات العربية الخالصة، وقد استمدت من رجال كانوا شاهدي عيان، أو رَووا ما سمعوه من أفواه الناس، ويمكن ادراك اتجاهها وميولها بوضوح ، ولهذا نجب الموازنة بين الروايتين .

أما روايات أهل (يثرب) أي (المدينة) ، فهي في مصلحة الغساسنة في الأكثر ، وقد كانوا على اتصال دائم بهم، ولهم تجارات معهم ، وكان شعراؤهم يفتخرون بانتسابهم هم وآل غسان إلى أصل واحد ودوحة واحدة هي الأزد . ولهذا يستحسن التفكير في هذا الأمر بالنسبة إلى روايات أهل المدينة ، ولا سيما أخبار حسان بن ثابت الأنصاري عن آل غسان .

ومما يؤسف عليه أن المؤرخين المسلمين لم يغرفوا من المناهل اليونانية واللاتينية والسريانية لتدوين أخبارهم عن تأريخ العرب قبل الإسلام ، لا قبل الميلاد ولا بعده ، مع أنها أضيف وأدق من الأصول الفارسية ، ومن الروايات التي تعتمد على المشافهة بالطبع. وقد كان من عادة اليونان إلحاق عدد من المخبرين والمسجلين الرسميين بالحملات لتسجيل أخبارها ، كما حوت الموارد السريانية بصورة خاصة والموارد اليونانية المؤلفة بعد الميلاد أموراً كثيرة فيما يخص انتشار النصرانية بين العرب ، وفيما يخص المعاجم الكنائسية التي حضرها أساقفة من العرب ، وكذلك الآراء والمذاهب النصرانية التي ظهرت بين نصارى العرب .

نعم لقد وقف المؤرخون على تواريف عامة وخاصة مدونة بالرومية والسريانية كانت عند جماعة من المشتغلين بالتأريخ من أهل الكتاب . وقد فسروها ، أو فسروا بعضها لهم ، ولا سيما ما يتعلق منها بموضوعات لها صلة بالقرآن الكريم، مثل كيفية الخلق والزمان والمكان وقصص الرسل والأنبياء والملوك ، نجد طابعها ومادتها وأسلوبها في هذا المدون عن قبل الإسلام ، والذي صار مقدمة لتاريخ الإسلام ، درج المشتغلون في التأريخ العام على وضعها قبل تاريخ الرسالة . وقد استفاد من بعضها بعض المؤرخين ، مثل المسعودي^١ وحمزة الأصفهاني وآخرين ،

مروج الذهب (١/١٨٧/٢٠٣) ، التنبيه (ص ١٣٢) ، وهذه التواريخ أخذتها عن رجل رومي ، وقال وكيع : نقلت هذه التواريخ من كتاب ملك من ملوك الروم ، تولى نقله إلى العربية بعض التراجم^٢ ، حمزة : كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (ص ٤٨ ، ٥٢) .

في تدوين تاريخ ملوك الروم ، وقد صارت طريقتهم كما قلت سابقاً أنموذجاً للمؤرخين ساروا عليه في عرض التاريخ وفي تدوينه ، غير أن هذا النقل لم يكن وياً للأسف قد تجاوز هذا الحد ، فكان ضيق المجال محدود المساحة ، وقد كان من الواجب عليهم الاستعانة بتلك الموارد في علاقات العرب بالروم وفي موضوع النصرانية في بلاد العرب على الأقل، وهي موارد فيها مادة مفيدة في هذا الباب .

وأود أن أشير الى الخدمة التي أداها علماء الأخبار برجوعهم الى الشيب والى حفظة أخبار القبائل من مختلف القبائل لجمع أخبار القبائل وأيامها وحوادثها قبل الإسلام . وقد وضعت في ذلك جملة مؤلفات ضاع أكثرها وياً للأسف ، ولم يبق منها الا الاسم، ولكننا نجد مع ذلك مادة غنية واسعة منها في كتب الأدب، أستطيع أن أقول أنها أوسع وأنفع بكثير من هذه المواد المدونة المجموعة في كتب التاريخ . وهذا شيء غريب ، اذ المأمول أن تكون كتب التاريخ أوسع مادة منها في هذا الباب ، وأن تأخذ لب ما ورد فيها مما يخص التاريخ لتضيفه الى ما تجتمع عندها من مادة . والظاهر ان المؤرخين ، ولا سيما المتزمين منهم المتقيدين بالتاريخ على أنه حوادث - مضبوطة مقرونة بوقت وبمكان وبعيدة عن أسلوب الأيام والقصص ، رأوا أن ذلك المروي عن أخبار القبائل والأنساب وحوادث الشعراء هو ذو طابع أدبي أو طابع خاص لا علاقة له بالحكومات والملوك ، فلم يأخذوا به ، وتركوه ، لأنه خارج حدود موضوع التاريخ كما فهموه . وهو فهم خاطيء لمفهوم التاريخ ولمفهوم الموارد التي يجب أن يستعان بها لتدوينه . فأضاعوا بذلك مادة غزيرة لم يدركوا أهميتها وفائدتها اذ ذاك . وإهمالهم لتلك الموارد هو من جملة مواطن الضعف التي نجدها عند أولئك المؤرخين . أما نحن، فقد وجدنا فيه ثروة تزيد كثيراً على الثروة الواردة في مؤلفات المؤرخين . وإهمال المؤرخين لتلك الموارد هو من أسباب الضعف التي نجدها في فهمهم للمنابع التي يجب أن يستعان بها في تدوين التاريخ .

واذا كان القدامى قد أخطأوا في فهم معنى التاريخ ، ووقعوا من ثم في خطأ بالنسبة الى الموارد التي يجب أن يرجع اليها في تدوين تاريخ الجاهلية ، فعلينا يقع في الزمن الحاضر وعلى القادمين من بعدنا بصورة خاصة واجب مراجعة الموارد الأخرى من كتب في التفسير وفي الحديث وفي الفقه وفي الأدب وغير ذلك، لاستخراج ما فيها من مادة عن الجاهلية ، لأنها كما قلت أغزر مادة وأقرب الى

المنطق في بعض الأحيان في فهم الحوادث من كتب المؤرخين .

والغريب أن المستشرقين الذين عُرِفوا بمجدهم وبحرصهم على الإحاطة بكل ما يرد عن حادث ، أهملوا مع ذلك شأن الموارد المذكورة ، ولم يأخذوا منها الا في القليل . ولو راجعوها ، لكان ما جاؤوا به عن الجاهلية أضعاف أضعاف ما جاؤوا به وكتبوه ، ولكانت بحوثهم أدق وأعمق مما هي عليه الآن .

وفي طبيعة من اشتغل برواية أخبار ما قبل الإسلام : عبيد بن شرية، ووهب ابن منبه ، ومحمد بن السائب الكلبي ، وابنه أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وآخرون . وبعض هؤلاء مثل عبيد بن شرية وكعب الأحمير ووهب ابن منبه ، قصاص أساطير ، ورواة خرافات ، وسمر مستمد من أساطير يهود ، وأولئك وأمثالهم هم منبع الإسرائيليات في الإسلام .

فأما عبيد بن شرية ، فقد كان من أهل صنعاء (في رواية) أو من سكان الرقة (في رواية أخرى)^١ . وكان معروفاً عند الناس بالقصص والأخبار ، فطلبه معاوية ، فصار يحدثه بأخبار الماضين^٢ . ومن الكتب المنسوبة اليه : كتاب الأمثال^٣ ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين ، وقد طبع في ذيل (كتاب التيجان في ملوك حمير) المطبوع بحيدرآباد دكن بالهند بعنوان (أخبار عبيد بن شرية الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها)^٤ وقد وضع الكتاب على الطريقة

١ الفهرست (ص ١٣٨) ، السجستاني : كتاب المعمرين (ص ٤٠) ، ياقوت : ارشاد (١٠/٥) و

Brockelmann, Bd., I, S., 64, Suppl., Bd., I, S., 100

Von Kremer Sudarabische Sage, 16-32, Muh. Stud., Bd., I, S., 183.

٢ (فأمر به معاوية ، فأنزله في قريه ، وأخدمه ، وأمر من يجري وظيفته ، ووسع عليه ، والطفه فإذا كان في وقت السمر فهو سميّره في خاصته من أهل بيته . وكان يقص عليه ليله ، ويذهب عنه همومه ، وأنساه كل سمر كان قبله ، ولم يخطر على قلبه شيء قط الا وجد عنده شيئاً وفرحاً ومرحاً ، فإذا كان يحدثه وقائع العرب وأشعارها وأخبارها أمر أهل ديوانه ان يوقعوه ويدونوه فسي الكتب .) ، أخبار عبيد بن شرية الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (ص ٣١٢ فما بعدها) .

٣ (كتاب الامثال نحو خمسين ورقة رايته) ، الفهرست (١٣٨) ، ارشاد (١٩٠/١٢) .

٤ طبع سنة ١٣٤٧ هـ ، ويرى المستشرق (كرنكو) ، ان الجامع له ابن هشام ، راجع ملحوظة ١ ص ٣١٢ .

التي تروى بها الأسفار وأيام العرب ، وفيه أشعار كثيرة وضعت على لسان عاد وثمود ولقمان وطسّم وجدّيس والتبابعة^١ ، وفيه قصص اسرائيلي وشعبي يمثل في جملته السداجة وضعف ملكة النقد ، وبساطة القص والقصة ، وميلغ علم الناس في ذلك الوقت بأخبار الأوائل^٢ .

وقد حصل (كتاب الملوك وأخبار الماضين) على شهرة بعيدة ، وطلب في كل مكان ، وكثرت نسخه ، ومع هذه الكثرة اختلفت نسخه ، حتى صعب العثور على نسختين متشابهتين منه^٣ . وقد نقل الحمداني (المتوفى سنة ٣٣٤ للهجرة) بعض الأخبار المنسوبة الى عبيد^٤ . ولما نقله ، أهمية كبيرة في تثبيت مؤلفات عبيد ، اذ يمكن مقابله بما نشر ، ومطابقته بما طبع ، فيمكن عندئذ معرفة ما اذا كان هناك اتفاق أو اختلاف . ويمكن عندئذ تعيين هوية المطبوع .

والطابع الظاهر على أخبار عبيد ، هو طابع السمر والقصص والأساطير المتأثرة بالاسرائيليات . وأما الشعر الكثير الذي روي على أنه من نظم التبابعة وغيرهم ، وفيه قصائد طويلة ، فلا ندرى أمن نظمهم أم من نظم أشخاص آخرين قالوها على لسان من زعموا أنهم نظموها ، أو أنها اضيفت فيما بعد الى الكتاب ونسبت روايتها الى عبيد ؟ وعلى كل فإنها تستحق توجيه عناية الباحثين الى البحث عن زمن ظهورها وأثرها في عقلية أهل ذلك الزمن .

وأما (وهب بن منبه) ، فقد كان من أهل (ذمار) ، وكان قاصاً أخبارياً ، من الأبناء ، ويقال انه كان من أصل يهودي ، واليه ترجع أكثر الاسرائيليات المنتشرة في المؤلفات العربية . وقد زعم أنه كان ينقل من التوراة ومن كتب بني اسرائيل ، وانه كان يقول : (قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتاباً) ، وانه كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، وبحسن قراءة الكتابات القديمة الصعبة التي لا يقدر أحد على قراءتها^٥ . قال المسعودي : (ووجد في

١ Muh. Stud., Bd., 2, S., 204.

٢ دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية (ص ٤٨٣) .

٣ مروج الذهب (١٥٣/٢) (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد)

Muh. Stud., Bd., I, S., 182. f., Brockelmann, Bd., I, S., 64. Wustenfeld Geschichte. S., 5, Lidsbarski, De Prophetis qu. d. Legendis Arabicis, Leipzig, 1893, 1-2.

٤ الاكليل (طبعة الكرمل) ، (١٨٤٧/٨) ، ١١٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ومواضع اخرى) .

٥ ارشاد الارب (٢٣٢/٧)

حائط المسجد^١ لوح من حجارة ، فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدرُوا على قراءته ، فوجّه به الى وهب بن منبه ، فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داوود ، عليهما السلام ، فقرأه ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك ، لزهدت فيما بقي من طول أملك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك ، وإنما تلقي قدمك ندمك اذا زلّت بك قدمك ، وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب ، وودعك القريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت الى أهلك عائد ، ولا في عملك زائد ، فاغنم الحياة قبل الموت ، والقوة قبل الفتور ، وقبل أن يؤخذ منك بالكلظم ، ويحال بينك وبين العمل . وكتب في زمن سليمان بن داوود^٢ .

وفي كتاب (التيجان في ملوك حير) رواية ابن هشام نماذج لقراءته ، وهي على هذا النسق الذي يدل على سخريته بعقول سامعيه ان كان ما نسب اليه حقاً ، وأنه قرأه عليهم صدقاً ، ومن يدري ؟ فلعله كان لا يعرف حروف اليونانية ، ولا يميز بينها وبين الأبجديات الأخرى . ثم هل يعجز أهل دمشق عن قراءة نص يوناني أو سرياني أو عبراني وقد كان فيها في أيام وهب بن منبه علماء فطاحل حلقة بهذه اللغات هم نفر من أهل الكتاب ؟

والذي يهمننا من أمر (وهب بن منبه) أخباره عن الجاهلية . ولوهب أخبار عن اليمن والأقوام العربية البائدة ، ونجد روايته عن نصارى نجران وتعذيب (ذي نواس) لإياهيم ، وقصة الراهب (فيميون) مطابقة للروايات النصرانية ولما جاء في كتاب (شمعون الأورشامي) عن هذا الحادث^٣ . والظاهر أنه كان قد أخذها من المؤلفات النصرانية أو من أشخاص كانوا قد سمعوا بما ورد عن حادث (نجران) من أخبار . وقد ذكر أن وهباً كان يستعين بالكتب ، وأن أخاه (همام بن منبه بن كامل بن شيخ الياني) أبا عقبة الصنعاني الأبنائي ، كان يشتري الكتب لأخيه^٤ . ولعله استقى أخباره عن بعض الأمور المتعلقة

١ يعني مسجد دمشق ، وذلك في أيام الخليفة الوليد .
٢ مروج الذهب (١٥١/٢) وما بعدها . (طبعة عبد الرحمن محمد) .
٣ راجع الطبري (١٠٣/٢) ، أيضاً ما كتبه فيه في الجزء الأول من مجلة المجمع العلمي العراقي في (موارد تاريخ الطبري) سنة ١٩٥٠ م .
٤ تهذيب التهذيب (٦٧/١١) ، ابن سعد (٣٩٥/٥) .

بالنصرانية مثل مولد وحياة المسيح من تلك الموارد ، أو من اتصاله بالنصارى^١. أما ما ذكره عن التبابعة والعرب البائدة ، فإنه قصص . وأما علمه بأخبار العرب الآخرين ، فيكاد يكون صفراً ، فلا نجد في رواياته شيئاً يعد تأريخاً لعرب الحيرة أو الغساسنة أو عرب نجد . فهو في هذا الباب مثل (عبيد بن شربة) من طبقة القصاص . لم يصل الى مستوى أهل الأخبار ، ولعله وجد نفسه ضعيفاً في التأريخ وفي أخبار العرب ، فالإلى شيء آخر لا يدانيه فيه أحد ، وهو مرغوب فيه مطلوب ، وهو القصص الإسرائيلي ، وما يتعلق بأقوام ماضين ، ذكروا في القرآن الكريم ، وكانت بالمسلمين الأولين حاجة إلى من يتحدث لهم عن ذلك القصص وأولئك الأقوام .

ومن الكتب المنسوبة الى وهب (كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم)^٢ ، وقد تناول أخبار التبابعة . والظاهر أن (كتاب التيجان في ملوك حمير) الذي طبع في الهند^٣ ، رواية ابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أبوب الحميري (المتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ) قد استند اليه ، بعد أن أضاف اليه أخباراً أخذها من مؤلفات محمد بن السائب الكلبي^٤ وأبي مخنف لوط بن يحيى^٥ وزيد بن عبد الله بن الطفيل العامري أبي محمد الكوفي المعروف بالبكائي رواية ابن اسحاق^٦. وهو خليط من الإسرائيليات والقصص

- ١ تفسير الطبري (١٤٧/٣ ، ١٧٧) ، (مولد المسيح وحياته) ، (٤٣/١٦) (الحمل) ، المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن تأليف (كولدتهير) ، ترجمة علي حسن عبد القادر ، ص ٨٨ ، تاريخ الطبري (١٠٢/١) ، تفسير الطبري (٤٣/١٦) ، مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٠/١) ، (٤٣/١٦) ، Ency., Vol., 4, P., 1084
- ٢ ارشاد (٢٣٢/٧) ، (كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وغير ذلك) ، وعثر على مجموعة من أوراق مخطوطة في خزانة كتب (هايدلبرك) بالمانية ، رأى (بيكر) أنها جزء من كتاب في المغازي ، ينسب الى وهب بن منبه ، C.H. Becker, Papyri Schott-Reinhardt, I., 8, Fuck, Muhammad ibn Ishaq, S., 4, Ency., Vol. 4, P., 1084. f.
- ٣ في حيدرآباد دكن سنة ١٣٤٧ هـ ، وبديله (كتاب اخبار عبيد بن شربة الجهمي في اخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) ، وقد مر ذلك .
- ٤ التيجان ص ١٣٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ومواضع أخرى .
- ٥ التيجان ص ١٢٥ ، ١٨٠ ومواضع أخرى .
- ٦ التيجان ص ٧٥ ، ٧٦ ، ومواضع أخرى . راجع عن البكائي : لسان الميزان (٨٣٦/٦) ، سيرة ابن هشام (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ، (١٦/١) ، وكتاب الكنى والالقب (٨٢/٢) ، لعباس بن محمد رضا القمي ، طبع مطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٥٨ هـ .

اليمني ومن مواد أخرى قد تكون من وضعه ، أو من صنعة آخرين ، صنعوها قبله ، فأخذها من ألسنة الناس ، مثل تلك القصائد والأشعار الكثيرة المنسوبة الى التبابعة وغيرهم . وقد أورد في الكتاب أسماء أخذت من التوراة ذكرها بنصها كما تلفظ بالعبرانية ، مما يبعث على الظن أنها أخذت من مورد يهودي^١ . وأما سائر الأخبار الواردة في الكتاب ، فالغالب عليها السداجة ، اذ لا نجد فيها عمقاً ولا مادة تاريخية غزيرة كالمادة التي نجدها في مؤلفات ابن الكلبي ، وفي مؤلفات الهمداني الذي عاش بعده .

وأودّ أن ألفت أنظار العلماء الى أهمية روايات (وهب بن منبه) وأخباره بالنسبة الى من يريد الوقوف على الدراسات التوراتية والتلمودية في ذلك العهد ، ففيها فقرات كثيرة زعم (وهب) أو آخرون قالوا ذلك على لسانه ، أنها قراءات أي ترجحات أخذت من التوراة ومن كتب الله الأخرى . واذا ثبت بعد مقابلتها بنصوص التوراة والتلمود والمشنا وغيرها من كتب اليهود ، أنها من تلك الكتب حقاً ، وإنها ترجحات صحيحة ، فنكون قد حصلنا بذلك على نماذج قديمة لمواضع من تلك الكتب قد تفيد في ارشادنا الى ترجحات أقدم منها ، كما تعيننا في الوقوف على النواحي الثقافية للعرب في ذلك العهد .

ولأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦هـ ، فضل كبير على دراسات تأريخ العرب قبل الإسلام ، فأغلب معارفنا عن هذا العهد تعود اليه^٢ . وقد سلك مسلكاً جعله في طليعة الباحثين في الدراسات الآثارية

١ راجع ما كتبه (كرنكو) عن الكتابين : كتاب التيجان وكتاب اخبار عبيد، في مجلة: (The Islamic Culture) المجلد الثاني بعنوان : (The Two Oldest Books on Arabic Folklore) ، دائرة المعارف الاسلامية

٢ الترجمة العربية ص ٤٨٤ مادة : (تأريخ) .
والده ابو النصر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار والأنساب ، الفهرست ١٣٩ ، الأغاني (١٦/٩) ، (٤٨/١١) (١٦١/١٨) ، ابن سعد : الطبقات (٢٥٠/٦) ، ابن خلكان : وفيات (١٣٤/٣) وما بعدها ، ارشاد (٢٥٠/٧) ، تذكرة الحفاظ (٣١٣/١) ، تأريخ بغداد (٤٥/١٤) وما بعدها ، انباري : نزهة الالباء في طبقات الأدباء (١١٦) ، تهذيب التهذيب (١٧٨/٩) ، كتاب الأصنام ، تحقيق أحمد زكي باشا ، Ency., vol., 2, P., 689, Muh. Stud., I, S., 186, Noldeke Gesch. der Araber und Perser, S., XXVII, ZDMG., XLIII, Brockelmann, Bd., I, S., 211.

عند المسلمين ، برجوعه الى الأصول ، واعتماده على المراجع التاريخية ، متبعاً سبيلاً تختلف عن سبيل أهل اللغة في البحث ، وهو - بطريقته هذه - قريب من طريقة المؤرخين في تدوين التاريخ^١ .

ولكنه لم يخل مع ذلك من مواطن الضعف التي تكون عادة في الأخباريين ، مثل سرعة التصديق ، ورواية الخبر على علته دون نقد أو تمحيص . وقد اتهم بالوضع والكذب^٢ . ولذلك تجنب جماعة من العلماء الرواية عنه ، وقالوا عن بعض أسانيده أنها سلسلة الكذب^٣ . وذهب (بروكلمن) الى أن ما اتهم عليه ابن الكلبي لم يكن كله صحيحاً ، وأن البحوث العلمية التي قام بها المستشرقون دلتهم على أن الحق كان في جانبه في كثير من المواضع التي اتهم عليها^٤ .

وأنا لا أريد أن أبرئه من الوضع أو من تهمة أخذه كل ما يقال له ، ولا سيما إذا كان القائل من أهل الكتاب ، دون مناقشة ولا ابداء رأي . ففي المنسوب اليه شيء كثير من الإسرائيليات والقصص المسوخ الذي يدل على جهل قائله أو استخفافه بعقل السامع وعلمه ، مثل اختراع سلاسل من النسب زعم أنها واردة في التوراة ، أو عند أهل النسب ، مع أن الوضع فيها بيّن واضح ، وهي غير واردة في التوراة ولا في التلمود . ولعلّ حرصه على الظهور بمظهر العالم المحيط بكل شيء من أخبار الماضين ، هو الذي حمله على الوضع ، وقد وضع غيره من أقرائه شعراً ونثراً ، وصنع قصصاً ، ليتفوق بذلك على أقرانه وخصومه ، وليظهر بمظهر العالم الذي لا يفوته شيء من العلم .

Brockelmann, Bd., I, S., 138.

١ لسان الميزان (١٩٦/٦ فما بعدها) ، تذكرة الحفاظ (٣١٣/١) ، الأغاني (١٩/٦) ، وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن الكلبي ، والتوليد فيه بين ، وشعره شعر ركيك غث لا يشبه اشعار القوم ، وإنما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روي) ، الأغاني (١٦١/١٨) .

٢ مثل سنده عن أبي صالح عن ابن عباس ، ووجد من دافع عنه ، ارشاد (١٥٨/٢) .

Brockelmann, I, S., 139, Noldeke, Übers. d. Tabari, XXVII, Ency., 2, P., 689.

٤

وقد عالج بعض الباحثين زعم « ابن الكلبي » أنه كان يستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ومبالغ أعمار من عمل منهم ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، فرأى أن كتابات أهل الحيرة كانت بالكتابة النبطية وبالأرقام النبطية ، كما أثبت ذلك نص « النارة » أيضاً ، وأن « ابن الكلبي » لم يكن يحسن قراءة النبطية ولم يفهمها ، وعندما حاول قراءتها لم يتمكن من ذلك فوقع في أوهام ، وجاء بأمثلة على ذلك تتعلق بما ذكره « ابن الكلبي » من مدد حكم أولئك الملوك ، فوجد أنه لم يميز مثلاً بين الرقم « ٢٠ » والرقم « ١٠٠ » وذلك لتشابه شكل الرقم الأول مع شكل الرقم الثاني في النبطية ، فقرأ العشرين مئة ، فزاد سني حكم الملوك . ومن هنا أخطأ في ضبط مدد حكم ملوك الحيرة ، ولا سيما بالنسبة للقدامي منهم ، لأن الكتابات النبطية المتقدمة لم تكن مثل الكتابات النبطية المتأخرة في قربها من الأبجدية العربية القديمة^١ .

هذا ولم يُبحث موضوع أخذ « ابن الكلبي » من بيع الحيرة حتى الآن بحثاً علمياً مركزاً . وهو موضوع أرى أنه جدير بالدراسة والعناية . وحرى بأن يقارن ما ذكره « ابن الكلبي » بما جاء في الموارد النصرانية عن « آل نصر » ، لئلا نرى مقدار الصحة من الخطأ في فهم « ابن الكلبي » لتلك الموارد التي ذكر أنه قرأها وأنه استعان بها في جمع تاريخ عرب العراق قبل الإسلام .

ولم يبق من القائمة الطويلة التي ضمنها (ابن النديم) مؤلفات ابن الكلبي غير قليل^٢ . وهي في المآثر والبيوتات والمنافرات والمؤودات وأخبار الأوائل ، وفيها قارب الإسلام من أمر الجاهلية ، وفي أخبار الشعر وأيام العرب ، والأخبار والأسماء والأنساب^٣ .

وهناك بعض الشبه بين بحوث أبي عبيدة (المتوفى سنة عشر

١ Die Araber, IV, S., 3. f.

٢ الفهرست ١٤٠ ، ارشاد (٢٥١/٧) ،

Brockelmann, I, S., 138, Suppl., I, S., 211. f.

٣ الفهرست ١٤٠ ، وفيات الأعيان (٢٥٨/٢) ، (قال ياقوت في معجم البلدان ٢ : ١٥٨ : لله دره ما تنازع العلماء في شيء من أمور العرب ، ألا وكان قوله اقوى حجة ، وهو مع ذلك مظلوم وبالقوارض مكلوم) ، تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان (٣١/٣) ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

ومائتين^١ الذي كان له علم بالجاهلية، ومصنفات وبحوث في القبائل والأنساب^٢، وبين ابن الكلبي في اتجاهه ومناحيه. ولكنه دونه في أخباره عن الجاهلية، ومؤلفاته في أمور الجاهلية لا تعد شيئاً بالنسبة إلى ما ينسب إلى ابن الكلبي من مؤلفات، كما أن أخباره وروايته عنها قليلة بالنسبة إلى أخبار ابن الكلبي وروايته.

وهناك عدد آخر من العلماء، كالأصمعي، و (الشرقي بن القطامي)^٣، وسائر من اشتغل بالأنساب واللغة والأدب، كان لهم فضل كبير في جمع أخبار الجاهلية المتصلة بالإسلام، وقد تولدت من شروحيهم وأمالهم وكتبهم ثروة تاريخية قيمة لم ترد في كتب التاريخ. ولكن عرض أسمائهم هنا وذكر بحوثهم ومؤلفاتهم يضطرنا إلى كتابة فصول طويلة عن جهودهم وأنسابهم وعن ضعف رواياتهم أو قوتها، وذلك نخرجنا عن حدود كتابنا، ولهذا اكتفي هنا بما كتبت وذكرت، على أن أعرض لآراء الباقيين في المواضيع التي ترد فيها، فأشير إلى صاحبها وإلى روايته عن الحادث. ولكن لا بد لي من التحدث عن عالين من علماء اليمن، ألفا في تاريخ اليمن القديم، وجاءا بمعلومات ساعدتنا كثيراً في توسيع معارفنا بالأماكن الأثرية هناك، إذ أشارا إلى أسماء أبنية ومواقع، وشخصات أمكنة، ووصفا عادات رأياها، فأفادنا بذلك فائدة كبيرة.

أما أحدهما، فهو الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف المتوفى سنة ٤٣٣هـ. أو بعد ذلك كما ذهب إلى ذلك الحوالي^٤. وأما

١ (وقيل إحدى عشرة، وقال أبو سعيد: سنة ثمان، وقيل سنة تسع.) ،
(أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي)، (وقيل: كان شعوبيا يطعن في الأنساب)
الفهرست (ص ٧٩)، أرشاد (١٦٥/٧).

٢ Ency., Vol., I, S., 195, Flügel,
Die Grammatischen Schulen, S., 68, Brockelmann, I, S., 103.

٣ وقد اتهم بالوضع والتلفيق، الفهرست (ص ١٣٢).
راجع عن الهمداني: تاريخ أديب اللغة العربية (٢٠٤/٢)، ابن القفطي: تاريخ
الحكماء (أخبار الحكماء)، (طبعة Lippert)، ١١٣، أرشاد (٩/٣)،
السيوطي: بغية الوعاة (٢١٧)، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق: الجزء
الأول من المجلد الخامس والعشرين سنة ١٩٥٠ ص ٦٢، مقالة للسيد حمد
الجاسر بعنوان: (الجزء العاشر من الأكليل).

Brockelmann, I, S., 229, Suppl., I, S., 409, Ency., 2
P., 246, Muller, Sudarab. Stud., 170.

٤ واشتهر بـ (ابن الحائك) وبـ (ابن أبي المدينة)، الأكليل (٢٩٧/٨)، طبعة
الكرملي.
محمد بن علي الأكوغ الحوالي، محقق الجزء الأول من كتاب الأكليل للهمداني
الأكليل (٦٠/١).

الآخر ، فهو (نشوان بن سعيد الحميري) ، المتوفى سنة ٥٧٣ هـ .

لقد بذل الهمداني مجهوداً يقدر في تأليف كتبه وفي اختيار موضوعاته، وسلك في بحوثه سبيلاً حسناً بذهابه بنفسه الى الأماكن الأثرية و بوصفه لها في كتبه ، فأعطانا بذلك صوراً لكثير من العاديات التي ذهب أثرها واختفى رسمها ، بل طمست حتى أسماء بعضها . وبمحاولته قراءة المسند وترجمته الى عربيتنا، للوقوف على معناها ومضمونها ، يكون قد استحق التقدير والثناء ، لأن عمله هذا يدل على ادراكه لأهمية الكتابات في استنباط التواريخ . على أننا يجب أن نذكر أيضاً أن الهمداني لم يكن أول من عمد الى هذه الطريقة ، طريقة قراءة الكتابات لاستنباط التواريخ منها ، فقد سبقه غيره في هذه القراءات ، وكانوا مثله يبغون الوقوف على ما جاء فيها ، ومعرفة تواريخها . وقد أشار (الهمداني) نفسه اليهم وذكرهم بأسمائهم ، مثل (أحمد بن الأغر الشهابي من كندة) و (محمد ابن أحمد الأوساني) و (مسلمة بن يوسف بن مسلمة الحيواني) وغيرهم^١ . فهم مثله يستحقون الثناء والتقدير أيضاً ، وهم بطريقتهم هذه في جمع مادة التاريخ يكونون على شاكلة الآثاريين المحدثين في ادراك أهمية دراسات الآثار والكتابات بالنسبة الى اكتشاف تواريخ العاديات ، وهم بطريقتهم هذه يكونون قد فاقوا غيرهم من المؤرخين العرب في الأمكنة الأخرى بهذه الطريقة ، فقلما نجد مؤرخين في الأماكن الأخرى لجأوا الى دراسة الآثار ودراسة الكتابات ووصف الأمكنة الأثرية لاستنباط التواريخ منها كما يفعل الآثاريون في الزمن الحاضر .

وقد أفنى الهمداني بصورة خاصة على أستاذ له أخذ منه ، فوسمه بأنه (شيخ حمير ، وناسبها ، وعلامتها ، وحامل سفرها ، ووارث ما ادخرته ملوك حمير خزائنها من مكنون علمها ، وقارئ مساندها ، والمحيط بلغاتها)^٢ وسمّاه (أبا نصر محمد بن عبدالله اليهري) . وقال انه كان مرجعه فيما كان يشكل عليه من أخبار أهل اليمن ، والمنبع الذي غرف منه علمه بأحوال الماضين ، الى أن قال : (وكان بحاجة ، قد لقي رجلاً وقرأ زير حمير القديمة ومساندها الدهرية ، فربما نقل الاسم على لفظ القدمان من حمير ، وكانت أسماء فيها ثقل، فخففها العرب ،

١ الاكليل (١٥/١٠ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١١١) .

٢ الاكليل (١/٩) .

وأبدلت فيها الحروف الدلالية ، وسمع بها الناس مخففة مبدلة . فإذا سمعوا منها الاسم الموفر ، خال الجاهل انه غير ذلك الاسم ، وهو هو . فما أخذته عنه ، ما أثبتته هنا في كتابي هذا من أنساب بني الهميسع بن حمير وعدة الأذواء وبعض ما يتبع ذلك من أمثال حمير وحكمها ، إلا ما أخذته عن رجال حمير وكهلان من سجل خولان القديم بصعدة ، ومن علماء صنعاء وصعدة ونجران والجوف وخبوان وما أخبرني به الآباء والأسلاف ^١ .

ولملاحظة (الهمداني) على الأسماء البانية القديمة ، وثقلها على ألسنة الناس في أيامه وقبل أيامه ، شأن كبير ، إذ ترى أن لسان أهل اليمن كان قد تغير وتبدل ، وأن ذلك التغير قد تناول حتى الأسماء ، فصارت الأسماء القديمة ثقيلة على أسماعهم ، غليظة الوقع عليهم ، فحذفوها أو بدلوها ، والواقع أننا نشعر من المساند المتأخرة التي وصلت إلينا وقد دونت في عهود لا تبعد كثيراً عن الإسلام ، ومن الموارد الإسلامية أن الأسماء البانية المدونة في كتابات المسند التي يرجع عهدها إلى ما قبل الميلاد ، هي أسماء أخذت تقل في كتابات المسند المدونة بعد الميلاد إلى قبيل الإسلام ، وأن أسماء أخرى جديدة أخف على السمع حلت محل الأسماء المركبة القديمة . وفي هذا التطور ، دلالة على حدوث تغير في عقلية أهل اليمن بعد الميلاد ، وعلى حصول تقارب بين لغتهم ولغة أهل الحجاز وبقية العرب الذين يسميهم المستشرقون (العرب الشماليين) .

وقد حملني قول الهمداني إنه أخذ أخبار رجال حمير وكهلان من (سجل خولان القديم بصعدة) ^٢ ، على مراجعة متن الجزء الأول من الاكلیل للوقوف على الأماكن التي اعتمد فيها على هذا السجل ، لأتمكن بها من تكوين رأي عنه ، ومن الحصول على فكرة عما جاء فيه . وقد وجدته يقول في موضع منه : (وقرأت في السجل الأول : أولد قحطان بن هود أربعة وعشرين رجلاً ، وهم : يعرب ، والشلف الكبرى ، ويشجب ، وأزال وهو الذي بنى صنعاء ، ويكلي الكبرى ، بكسر الياء ، وخولان : خولان رداع التي في القفاعة ، والحرث وغوثا ، والمرتاد ، وجُرهما ، وجديسا ، والمتمنع ، والملمس ، والمتغشم ، وعبادا ، وذا هوزن ، ويمنا ، وبه سميت اليمن ، والقطامي ،

١ الاكلیل (١ / ١٣) فما بعدها .

٢ المصدر نفسه

ونباتة ، وحضرموت ، فدخلت فيها حضرموت الصغرى ، وسماكاً ، وظالملاً ،
ونخياراً ، والمشتقراً) . ووجدته يقول في موضع آخر: (وأصحاب السجل يقولون
مثل قول بعض الناس فيما بين عدنان واسماعيل)^٢ ، ووجدته يقول : (وفي
سجل خولان وحير بصعدة : أولد مهرة الأمري ، والدين ، ونادغم، ويبدع...)^٣
ويقول في (باب نسب خولان بن عمرو) ، (فهذه الآن بطونها على ما روى
رجال خولان وحير بصعدة . وقد سكنت بها عشرين سنة ، فأطلت على أخبار
خولان وأنسابها ، ورجالها كما أطلت على بطن راحتي ، وقرأت بها سجل محمد
ابن أبيان الخنفرى المتوارث من الجاهلية ، فن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب ،
ومنها ما دخل في كتاب الأيام)^٤ . وقال في موضع : (وقال بعض وضعة
السجل ونساب الميسع)^٥ . ويتبين من هذه الملاحظات أن السجل المشار اليه هو
مجموعة أجزاء ، وضعها جملة أشخاص ، كل جزء سجل قائم بذاته في الأنساب ،
وهو متفاوت الأزمنة ، ويشمل القبائل والناس . وقد جمعت جمعاً ، على طريقة
رواة النسب في رواية الأنساب . ولا استبعد أن يكون السجل قد وضع في صدر
الإسلام ، حينما شرع في أيام (عمر) بتسجيل للنسب في ديوان . فدونت عندئذ
أنساب القبائل ، ورجع في ذلك إلى ما كان متعارفاً عليه من النسب في الجاهلية
الملاصقة للإسلام وفي صدر الإسلام ، ثم أكمل على مرور الأيام . ولذلك
تعددت الأيدي في كتابته ، وصار على شكل فصول في أنساب القبائل ، كل
سجل في نسب قبيلة وما يتفرع منها . والطابع البارز عليه هو الطابع اليانعي المحلي
المتأثر بالروايات التوراتية عن (اليقطينيين) ، الذين صيروا قحطانيين بتأثير روايات
أهل اليمن من أهل الكتاب وعلى رأسهم كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وربما
من أناس آخرين سبقوهم ، ومن الروايات اليمنية المحلية التي تعارف عليها أهل
اليمن في أنساب قبائلهم آنئذ . ولهذا نجد الطابع اليانعي المحلي بارزاً في مؤلفات
أهل اليمن التي نقل منها الهمداني وأمثاله ، ولا نجد على هذا النحو في مؤلفات

١ الاكلیل (١٣١/١) وما بعدها

٢ الاكلیل (١٣٦/١) .

٣ الاكلیل (١٩٣/١) .

٤ الاكلیل (١٩٩/١) .

٥ الاكلیل (٣٥٥/١) ، « قال أهل السجل » ، الاكلیل (١٦٤/٢) .

النسابين الشماليين الذين ينسبون أنفسهم الى اليمن مثل (ابن الكلبي) وأضرابه ، لأنهم كانوا بعيدين عن اليمن ، فعلمهم بالروايات اليمنية ، ولا سيما روايات أهل حير وصعدة وخولان وصنعاء وغيرهم من النسابين المحليين ، لذلك ، قليل . وقد أورد الهمداني في الجزء الثاني من كتابه « الإكليل » جملة تدل على أن « السجل القديم » الذي يشير إليه في كتابه ، كان سجل نسب عريف « ابن أبان » ، اذ يقول : « قال الهمداني : قال علماء الصعديين وأصحاب السجل القديم : سجل ابن أبان »^١ . ولعل « ابن أبان » كان قد وضعه وجمعه في أبواب ، ثم جاء جمع من النسابين فأضافوا عليه فصولاً جديدة في الأنساب ، وعرف الكتاب كله وبجميع فصوله بـ « السجل » . وقد كان أصحاب السجل من أهل صعدة ، لما ذكره الهمداني من قوله : « عن الصعديين من أصحاب السجل »^٢ .

وكان « الهمداني » ، قد نص في الجزء الأول من « الإكليل » على أن ذلك السجل ، هو سجل « محمد بن أبان الخنفرى » ، وذلك في أثناء حديثه على بطون « صعدة » ، اذ قال : « فهذه الآن بطونها على ما روى رجال خولان وحير بصعدة . وقد سكنت بها عشرين سنة ، فأطلت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها ، كما أطلت على بطن راحتي ، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفرى المتوارث من الجاهلية ، فن أخبارهم ما دخل في هذا الكتاب ، ومنها ما دخل في كتاب الأيام »^٣ . ويفهم من هذا النص ، أن السجل المذكور هو سجل « محمد بن أبان » وكان يحفظه ، وقد ورثه من الجاهلية .

ويظهر من اشارات « الهمداني » إليه ، انه قصد بهذا السجل « السجل القديم » ، وأما السجلات الأخرى ، فقد كانت من وضع علماء آخرين من علماء النسب كانوا بمدينة صعدة ، وقد جمعوا أنساب خولان وحير وقبائل أخرى ، وأضافوها على شكل مشجرات نسب الى ذلك الديوان ، فصار مجموعة سجلات . ولهذا كان ينبئ « الهمداني » الى الموارد التي كان يستقي منها من غير ذلك السجل ، كالذي ذكره من « أنساب بني الهميسع بن حير » ، اذ قال : « الا

١ الاكليل (١٤/٢) .

٢ الاكليل (١٦/٢) .

٣ الاكليل (١٩٩/١) ، « وفي سجل خولان وحير بصعدة » (١٩٣/١) .

ما أخذته عن رجال حير وكهلان من سجل خولان القديم بصعدة وعن علماء صنعاء وصعدة ونجران والجوف وحيوان وما أخبرني به الآباء والأسلاف^١ .

وأما ما يذكره « الهمداني » من أن أصل السجل القديم وأساسه جاهلي ، فأمر لا أريد أن أبت فيه الآن . لا أريد أن أنفيه ، ولا أريد أن أثبته أيضاً . بل أقف منه موقف المحايد الخدر ، لأنني لا أجد في المنقول منه في كتاب « الاكلیل » ما يشير الى جاهلية وأصل جاهلي ، فالمشجرات المذكورة هي من هذا النوع المؤلف الذي نراه في كتب الأنساب المؤلفة في الإسلام ، وبعضه متأثر بروايات التوراة ، ولهذا فأنا لا أستطيع أن أرجعه الى ما قبل الإسلام ، ولا أستطيع أن أتجر فيه وفي أصله ما دمت لا أملك « السجل » نفسه ، لا القديم منه ولا الجديد ، أو نصوصاً طويلة أخذت منه ، حتى يسهل عليّ الحكم من قراءتي لما ورد ومن دراسته على أصل ذلك الكتاب وصحة نسبته الى الجاهلية .

وأما « الخنصري » ، صاحب السجل ، فهو : « محمد بن أبان بن ميمون ابن حريز الخنصري »^٢ . ولد في ولاية معاوية بن أبي سفيان في سنة خمسين ، وتوفي في سنة خمس وتسعين ومائة ، ودفن في رأس « حدة صعدة »^٣ . هذا ما رواه « الهمداني » عنه . وذكر « الهمداني » انه عاش « ١٢٥ » سنة ، ولو أخذنا بهذا الرقم الذي ذكره « الهمداني » ، فيجب أن تكون سنة وفاته « ١٧٥ » ، لا « ١٩٥ » للهجرة . ولذلك ، فيجب أن يكون في تأريخ المولد أو الوفاة وربما في مدة عمر « الخنصري » خطأ . واني أشك في طول ما ذكره عن عمره .

وكان لغير أهل صعدة كتب في الأنساب أيضاً ، دونوا فيها أنسابهم ، كما كان هنالك نسابون حفظوا أنساب قبائلهم أشار « الهمداني » اليهم في مواضع من كتابه^٤ . وهم من غير أصحاب السجل . وكان بعض منهم قد قابل بين ما دونه عن القبائل وبين ما دون في السجل عنها ، كما كان أهل السجل يعرضون

١ الاكلیل (١٣/١) فما بعدها .
٢ اكلیل (١٩٩/١ ، ٢٢٧) ، الاكلیل (١١٨/٢) .
٣ الاكلیل (١١٩/٢) .
٤ الاكلیل (١٠٢/٢ ، ١٩٤) ، « قال الهمداني : فخيرني محمد بن احمد القهبي السمسار وكان خبيراً بالخطيين » ، الاكلیل (٦٥/٢) .

ما دونوه عن القبائل على نسائهم ليسان رأيهم فيها . قال الهمداني « بطون الصدف ، عن الصعديين من أصحاب السجل ، مقروء على بعض نسبة الصدف »^١ .

ونجد في الجزء الثامن من الإكليل مواضع ذكر فيها الهمداني (أبا نصر) أيضاً . وقد راجعتها وراجعت الأماكن التي أشير فيها إليه في الجزء الأول ، فتبين لي أن علم (أبي نصر) بتاريخ اليمن القديم هو على هذا الوجه : احاطة بأنساب القبائل اليمنية على النحو الذي كان شائعاً ومتعارفاً في أيامه ومسجلاً في سجلات الأنساب في تلك الأيام ، ورواية للأساطير التي راجت عن التبابعة ، وأخذ من موارد توراتية ظهرت في اليمن من وجود اليهود فيها قبل الإسلام .

أما علمه بالمسند ومدى وقوفه عليها ، فأنا أعتقد أن علمه بها لا يختلف عن علم غيره من أهل اليمن : وقوف على الحروف ، وتمكن من قراءة الكلمات ، واحاطة عامة بالمسند . أما فهم النصوص واستنباط معانيها بوجه صحيح دقيق ، فأرى أنه لم يكن ذا قدرة في ذلك ، وهو عندي في هذا الباب مثل غيره من قراء الخط الحميري . ودليلي على ذلك أن القراءات المنسوبة إليهم هي قراءات لا يمكن أن تكون قراءات لنصوص جاهلية ، وإن تضمنت بعض أسماء بمانية قديمة ، لسبب بسيط ، هو أن أساليبها ومعانيها ونسقها لا تتفق أبداً مع الأساليب والمعاني المألوفة في الكتابات الجاهلية ، فقراءات أبي نصر وأمثاله قراءات بعيدة جداً عن النصوص المعهودة ، هي قراءات إسلامية فيها زهد وتصوف وتوحيد وحض على الابتعاد عن الدنيا . أما نصوص المسند التي عثر عليها حتى الآن ، فلأنها نصوص وثنية لا تعرف هذه المعاني ، وأسلوبها في الكتابة لا يتفق مع ذلك الأسلوب . وهي في أمور أخرى شخصية أو حكومية لا صلة لها بمثل هذه الآراء والمعتقدات .

وقد أورد (الهمداني) نصاً قال إنه قراءة من قراءة (أبي نصر) فيه نسب (عابر) ، هذا نصه : (قال أبو نصر : الناس يغلطون في عابر ، وهو هود بن أعين بن حلجم بن بضم بن عوض بن شداد بن عاد بن عوض بن إرم بن عوض بن عابر بن شالخ . وذكر أنه وجد هذا النسب في بعض مساند

١ الإكليل (١٦/٢) .

حمير في صفاح الحجارة)^١. وقارئ هذا النص الذي هو مزيج من رواية توراتية ومن إضافة غريبة ، يخرج من قراءته ، برأي واحد هو أن (أبا نصر) ، كان لا يتوقف عن نسبة أمور من عنده إلى المساند ، فيحملها ما لا يعقل أن تحمله أبداً . فلو كان النص حميرياً صحيحاً مأخوذاً من التوراة ، لكان النسب على نحو ما ورد في التوراة ، ولو كان صاحبه وثنياً لا يدين بدين سماوي ، فإنه لا يعقل أن يخلط فيه هذا الخلط .

ولكنني لا أريد هنا أن أكتفي بتقديم التقدير الى الهمداني والى الباقيين من علماء اليمن الذين سبقوه أو جاؤوا من بعده والثناء على طريقتهم المذكورة ، بل لا بد لي من التحدث عن درجة علم هؤلاء العلماء بالمسند ، وبقراءة الكتابات وبعلمهم بمعانيها، أي علمهم بقواعد وأصول اللهجات التي كتبت بها مثل اللهجة المعينية أو السبئية أو القتبانية أو الحضرمية وغيرها من بقية اللهجات ، وذلك ليكون كلامنا كلاماً علمياً صادراً عن درس ونقد وفهم بعلم أولئك العلماء بتاريخ اليمن القديم .

ولن يكون مثل هذا الحكم ممكناً الا بالرجوع الى مؤلفات (الهمداني) وغيره من علماء اليمن لدراستها دراسة نقد عميقة . ومقابلة ما ورد فيها من قراءات للنصوص مع قراءات العلماء المحدثين المتخصصين بالعربيات الجنوبية لتلك النصوص ان كانت أصولها أو صورها موجودة محفوظة ، وعندئذ يمكن الحكم حكماً علمياً سليماً على مقدار علم أولئك العلماء بلغات اليمن القديمة وبتأريخها المندرس . ولكننا ويا للأسف لا نملك كل أجزاء كتاب (الإكليل) ولا كل مؤلفات الهمداني أو غيره من علماء اليمن ، فالجزء التاسع من الإكليل مثلاً وهو جزء خصص بأمثال حمير وبحكمها باللسان الحميري وبحروف المسند^٢، هو جزء ما زال مختفياً ، فلم نر وجهه ، وهو كما يظهر من وصف محتوياته مهم بالنسبة إلينا ، وقد يكون دليلاً ومرشداً لنا في اصدار حكم على علم الهمداني بلغة حمير . ولكن ماذا نصنع

١ الإكليل (٩٣/١) .

٢ للوقوف على الأجزاء الأخرى من كتاب (الإكليل) تراجع مقدمة (نبيه فارس) Brockelmann, Vol., I, S., 229, Ency., Vol., 2, P., 246.

قال الهمداني : أكثر ما وجد في المساند القبورية بكلام الحميرية ، وأنا لما جعلنا الجزء السابع ؟ مقصوراً على الكلام بالحميرية (الإكليل (١٤٣/٨) (طبعة الكرملية) وقد أخطأ الكرملية في كلمة (السابع) ، والواجب ان يكون الرقم : (التاسع)

ونفعل ، وقد حررنا رؤية هذا الجزء ، وليس في مقدورنا نشره وبعثه ، فهل نسكت ونجلس انتظاراً للمستقبل ، عسى أن يُبعث الى عالم الوجود ؟

هذا ، وقد طبع الجزء الثامن من الإكليل وكذلك الجزء العاشر منه ، فاستفاد منها المولعون بتاريخ اليمن القديم وبتأريخ بقية أجزاء العربية الجنوبية ، وطبع الجزء الأول من هذا الكتاب حديثاً برواية (محمد بن نشوان بن سعيد الحميري) ، وقد ذكر أنه اختصر شيئاً في مواضع الاختلاف وفي النسب مما ليس له شأن في نظره دون أن يؤثر على الكتاب^١ .

وطبع الجزء الثاني من الإكليل أيضاً ، أخرجه ناشر الجزء الأول : « محمد ابن علي الأكوع الحوالي » من عهد غير بعيد^٢ ، وليس لنا الآن إلا أن نرجو نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب ، ليكون في وسعنا الحكم على ما جاء فيه من أخبار عن أهل اليمن الجاهليين .

إن أقصى ما نستطيع في الزمن الحاضر فعله وعمله لتكوين رأي تقريبي تخميني من علم الهمداني وعلم بقية علماء اليمن بلهجات أهل اليمن القديمة وبتأريخهم القديم ، هو أن نرجع الى المتيسر المطبوع من مؤلفاتهم ، لدراسته دراسة نقد علمية عميقة ، لاستخراج هذا الرأي منها . وهو وإن كان أقل من الضائع بكثير ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، والموجود خير من المعلوم ، وفي استطاعته تقديم هذا الرأي التخميني التقريبي . فلنبحث إذن في هذا المطبوع لنرى ما جاء فيه .

أما بخصوص الخط المسند ، فقد ذكر (الهمداني) أن جماعة من العلماء في أيامه كانت تقرأ المسند ، غير أن أولئك العلماء كانوا يختلفون فيما بينهم في القراءة ، وكان سبب ذلك — على رأيه — اختلاف صور الحروف ، (لأنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويكون للذي يقرأ لا يعرف إلا صورة واحدة)^٣ . وقد عرف (الهمداني) أن كتاب المسند كانوا يفصلون بين كل كلمة وكلمة في السطر بخط قائم ، وذكر أنهم كانوا يقرأون كل سطر بخط . غير أنه لم يذكر عدد الحروف . وصرح أنهم « كانوا يطرحون الألف إذا كانت بوسط

١ طبع في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٦٣ ، ونشر برقم ٢ من المكتبة اليمنية (ص ٥)

٢ القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، سنة ١٩٦٦ م .

٣ الإكليل (١٢٢/٨) .

الحرف ، مثل ألف همدان وألف رثام ، فيكتبون رثم وهمدن ، ويشتون ضمة آخر الحرف وواو عليهم^١ . وهي ملاحظات تدل على احاطة عامة بالمسند، سوى ما ذكره من أنه ربما كان للحرف أربع صور وخمس ، ويظهر أنه وغيره قد توصلوا إلى هذا الرأي من اختلاف أيدي الكتاب في رسم الحروف ونقورها على الحجر ، كالذي يحدث عندنا من تباين الخطوط باختلاف خطوط كتبه ، فأدى تباين الخط هذا إلى اختلافهم في القراءة ، وإلى ذهابهم إلى هذا الرأي ، أو أنهم اختلفوا فيها من جراء تشابه بعض الحروف مثل حرف الهاء والحاء ، فإن هذين الحرفين متشابهان في الشكل ، فكلاهما على هيئة كأس يرتكز على رجل ، والفرق بينهما ، هو في وجود خط عمودي في وسط الكأس هو امتداد لرجل الكأس ، وذلك في حرف (الحاء) ، أما الهاء ، فلا يوجد فيه هذا الخط الذي يقسم باطن الكأس إلى نصفين . ويشبه حرف (الحاء) حرف (الهاء) في رسم رأس الكأس ، ولكنه يختلف عنه في القاعدة ، إذ ترتكز هذا الرأس على قاعدة ليست خطأ مستقيماً ، بل على قاعدة تشبه كرسي الجلوس ذي الظهر . ومثل التشابه بين حرفي الصاد والسين ، فكلاهما على هيئة كأس وضعت وضعا مقلوباً ، بحيث صارت القاعدة التي ترتكز الكأس عليها إلى أعلى . أما الرأس ، وهو باطن الكأس ، فقد وضع في اتجاه الأرض . ولكن قاعدة (الصاد) هي على هيئة رقم خمسة في عربيتنا ، أي على هيئة دائرة أو كرة بينما قاعدة حرف السين هي خط مستقيم ، أما باطن كأس حرف (الصاد) ، ففيه خط يقسمه إلى قسمين وذلك في الغالب ، وقد يهمل هذا الخط المقسم ، أما حرف السين ، فلا يوجد فيه هذا الخط^٢ .

وجاء (شوان بن سعيد الحميري) بملاحظات عن (المسند) هي الملاحظات

- ١ الاكلیل (١٢٢/٨) ، (طبعة نبية) ، (١٤١/٨) ، - طبعة الكرملی - ، له ملاحظات أخرى في كيفية الكتابة بـ المسند ، ذكرها في الجزء العاشر ص ١٦ ، ١٧ ، (والمسند : خط حمير ، مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه أيام مسكهم فيما بينهم ، قال ابو حاتم : هو في ايديهم الى اليوم باليمن) ، لسان العرب (٢٠٦/٤) ، الفهرست ص ٨ ، الجزء الاول من مجلة المجمع العلمي العراقي في (جمهرة النسب) ، ص ٣٤٥ ، سنة ١٩٥٠ .
- ٢ للوقوف على اشكال حروف المسند ، يستحسن مراجعة جدول الحروف الموضوع في هذا الجزء .

التي أوردتها (الهمداني) عنه ، فقال : المسند : خط حمير ، وهو موجود كثيراً في الحجارة والقصور ، وهذه صورته على حروف المعجم ... وله صور كثيرة ، إلا أن هذه الصورة أصحها . واعلم أنهم يفصلون بين كل كلمتين بصفر ، لئلا يخلط الكلام . وصورة الصفر عندهم كصورة الألف في العربي^١ . وما قلته عن تعدد صور الحرف قبل قليل ، ينطبق على ملاحظة (نشوان) أيضاً . ويظهر أن قوماً من أهل اليمن بقوا أمدأ في الإسلام وهم يتوارثون هذا الخط ويكتبون به . فقد جاء في بعض الموارد : (والمسند خط حمير ، مخالف لخطنا هذا ، كانوا يكتبونه أيام ملكهم فيما بينهم . قال أبو حاتم : هو في أيديهم إلى اليوم باليمن)^٢ ، إلا أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الخط العربي الشمالي الذي دون به القرآن الكريم ، فغلب على أمره ، وتضاءل عدد الكتاب به حتى صار صفراً .

ومما يؤسف عليه كثيراً أننا لا نملك النسخ الأصلية التي كتبها أولئك العلماء بخط أيديهم، حتى نرى رسمهم لحروف المسند . فإن الصور المرسومة في المخطوطات الموجودة وفي النسخ المطبوعة ، ليست من خط المؤلفين ، بل من خط النساخ، فلا أستبعد وقوع المسخ في صور حروف المسند في أثناء النقل ، ولا سيما إذا تعددت أيدي النساخ بنسخ أحدهم عن ناسخ آخر . وهكذا . فليس للنساخ علم بالمسند ، ولذا لا أستبعد وقوعهم في الخطأ . ومن هنا فإن من غير الممكن إصدار رأي في مقدار اتقان الهمداني وبقية العلماء لرسم حروف الخط المسند .

وقد أشار (الدكتور كرنكو) الى هذه الحقيقة، إذ ذكر أن صور الحروف الحميرية في (الإكليل) تختلف باختلاف النسخ اختلافاً كبيراً ، فقد صور كل ناسخ تلك الحروف على رغبته وعلى قدرته على محاكاة النقوش، ومن هنا تباينت وتعددت ، فأضاعت علينا الصور الأصلية التي رسمها الهمداني لتلك الحروف^٣ . أما رأينا في علم علماء اليمن بفهم المسند ، فيمكن تكوينه بدراسة النصوص الواردة في مؤلفاتهم وبدراسة معرباتها ومقابلتها بالنصوص الأصلية المنقورة على الحجارة ان كانت تلك النصوص الأصلية لا تزال موجودة باقية ، أو بمراجعة

١ منتخبات (ص ٥٢) .

٢ لسان العرب (٢٠٦/٤) .

٣ الاكليل (٣٢٨/٨) (طبعة الكرمل) .

النصوص المدونة ومقابلتها بمعرباتها لثرى درجة قرب التعريب أو بعده من الأصل. وعندئذ نستطيع ابداء حكم على مقدار فهم القوم لكتابات المسند . أما في حالة اكتفاء المؤلف بإيراد التعريب فقط أي معنى النص لا متنه ، فليس أمامنا من سبيل غير وجوب مراجعة المعربات ودراستها من جميع الوجوه ، لثرى مقدار انطباق أساليبها على الأساليب المألوفة في كتابات المسند ، وعندئذ نتمكن من تكوين رأي في هذا الذي ورد في المؤلفات على أنه ترجحات ، ونتمكن بذلك من الحكم بمقدار قرب تلك الترجحات والقراءات من المسند أو بعدها منه .

وخلاصة ما توصلت إليه من دراساتي الاجالية للأجزاء المطبوعة من مؤلفات (الهمداني) أن الهمداني ، وإن كان يحسن قراءة حروف المسند ، ويعرف القواعد المتعلقة بالخط الحميري ، إلا أنه لم يكن ملماً بأسنة المسند . ولم يتمكن من ترجمة النصوص التي نقلها ترجمة صحيحة ، ولم يعرف على ما يتبين منها كذلك ما كان قد ورد فيها وما قصد منها ، فجعل (تالِباً) ، وهو اسم إله من آلهة اليمن المشهورة ، ومعبود قبيلة (همدان) الرئيس ، اسم رجل من رجال الأسرة المالكة لهمدان . وجعل (رياما) ، وهو اسم مكان من الأمكنة المشهورة، وكان به معبد معروف للإله (تالب) ، ابناً من أبناء (نهقان) ، ومن أبناء (تالب) . ولم يبخل الهمداني عليه ، فوهب له أمماً قال لها : (ترعة بنت بازل بن شرحبيل بن سار بن أبي شرح يحضب بن الصوار)^١ .

وأورد (الهمداني) نصاً ذكر أن (أحمد بن أبي الأغر الشهابي) ، وحده بـ (ناعط) ، فقرأه ، فإذا هو : (علهان ونهقان ابنا بتع بن همدان ، لهم الملك قديماً كان)^٢ . وقد عدّ (علهان نهقان) رجلين هما (علهان) و(نهقان)، مع أن (علهان نهقان) ، هو رجل واحد ، وهو ملك من ملوك سبأ وسيأتي ذكره . وقد كان والده (يريم أيمن بن أوصلت رفشان) من قبيلة (همدان) . وكلمة (نهقان) لقب له . أما اسمه فهو (علهان) . وكان له شقيق اسمه (برج يهركب) ، كما ورد ذلك في كتابة عثر عليها في (ريام)^٣ ، فلم يكن

١ الاكليل (١٧/١٠ ، ١٨)

٢ الاكليل (١٦/١٠)

٣ المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية ، تأليف (اغناطيوس غويدي) من نشرات الجامعة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٣٠ ، ص ٢١ ، راجع النص الموسوم بـ :

والده اذن رجلاً اسمه (بتع بن همدان) كما جاء في القراءة .
 وأما (بتع) ، فقبيلة من قبائل همدان ، وأما جملة : « لهم الملك قديماً
 كان » ، فهي لا ريب من قول الشهابي ، وليست بعبارة حميرية . وليس التعبير
 - وان فرضنا أنها ترجمة للأصل - من التعابير المستعملة في الحميرية ، التي
 ترد في الكتابات . ولما كنا لا نعرف المتن الأصلي للنص ، يصعب علينا الحكم
 عليه أكان قريباً من هذا المعنى أو كان شيئاً آخر ، عرف منه الشهابي بضع
 كلمات ثم فسره بهذا التفسير .

ويظهر على كل حال أن قراء المسند (وقد قلت إنهم كانوا يحسنون في أيام
 الهمداني قراءة حروف المسند) لم يكونوا على اطلاع بقواعد الحميرية ، ولا
 باللسان الحميري ، أو الألسنة العربية الجنوبية الأخرى . نخذ مثلاً على ذلك :
 (بن) وهي حرف جر عند العرب الجنوبيين ، وتعني (من) و (عن) بلغتنا
 قد أوقعتهم هذه الكلمة في مشكلات خطيرة . فقد تصور القوم عند قراءتهم لها ،
 أنها تعني أبداً (ابناً) على نحو ما يفهم من هذه الكلمة في لغتنا . وفسروها
 بهذا التفسير . ففسروا (بن بتع) أو (بن همدان) وما شابه ذلك (ابن بتع)
 أو (ابن همدان) ، والمقصود من الجملتين هو (من بتع) و (من همدان) ،
 وبذلك تغير المعنى تماماً ، ومن هنا وقع القوم - على ما اعتقد - في أغلاط
 حين حسبوا أسماء القبائل وأسماء الأماكن الواردة قبل (بن) وبعده ، أسماء
 أشخاص وأعيان ، وأدخلوها في مشجرات الأنساب . فاقصر علمهم على الأبجدية
 وجهلهم باللغة ، أوقعهم في مشكلات كثيرة ، وسبب ظهور هذا الخلط^١ .

وجاء الهمداني بنصوص آخر ذكر أنها كانت مكتوبة بالحميرية ، مثل النص
 الذي زعم أن مسلمة بن يوسف بن مسلمة الحيواني قرأه على حجر في مسجد
 خيوان ، وهذا نصه : (شرح ما ، وأخوه ما ، وبنوه ما ، يقول شهران
 بنو هجر ، هم معنة بدار القلعة)^٢ . وأمثال ذلك من النصوص . ولا اعتقد
 أنك ستقول : إن هذا نص حميري ، ولا يسع أمراً له إلما بالحميرية أن يوافق
 على وجود مثل هذه العائلة عاتلة ما ، أو يسلم بأن هذه قراءة صحيحة لنص

١ Ditlef Nielsen, Der Sabaische Gott Ilmukah, Leipzig, 1910, 2.

٢ الاكليل (١٩/١٠) .

حميري . بل لا بد من وجود أخطاء في القراءة وفي التفسير . ولا أريد أن أتجاوز على رجل مشى الى ربه ، فلعله كان يحسن قراءة بعض الحروف والكلمات ، ويتصور أنه أحسن قراءة النص كله وفهمه ، فجاء بهذه العبارة . وعلى كل ، إن كل الذي جاء في النصوص التي وقفت عليها في كتب الهمداني لا يمكن أن يعطي غير هذا الانطباع ، ولعلنا سنغير رأينا في المستقبل اذا تهيأت لنا نصوص من شأنها أن تغيره .

ويأتي (الهمداني) أحياناً بأبيات شعر زاعماً انها من المسند . ففي أثناء كلامه مثلاً على قصر (شحرار) قال : « وفي بعض مساند هذا البنيان بحرف المسند :

شحرار قصر العلا المنيف أسسه تبع ينوف
يسكنه القبل ذي معاهر تخر قدّامه الأنوف^١

أما نحن ، فلم نعر حتى اليوم على أية كتابة بالمسند ، ورد فيها شعر ، لا بيت واحد ولا أكثر من بيت . وأما متن اليتين المذكورين ، فليس حميرياً ولا سبئياً ولا معينياً وليس هو بأية لهجة يمانية أخرى قديمة ، وإنما هو بعريتنا هذه ، أي بالعربية التي نزل بها القرآن الكريم ، نظمه من نظمه من المحدثين بهذه اللغة البعيدة عن لغات أهل اليمن .

أما الباب الذي عقده في الجزء الثامن بعنوان : (باب القبوريات) ، فقد استمد مادته من روايات وأخبار (هشام بن محمد بن السائب الكلبي)^٢ ، و (ابن لهيعة)^٣ و (موهبة بن الدعام) من همدان^٤ و (أبي نصر)^٥ و (وهب بن منبه)^٦ و (كعب الأحبار) و (عبدالله بن سلام)^٧ . وقد

-
- ١ الاكليل (٦٦/٨) (طبعة الكرملية) .
 - ٢ الاكليل (١٤٤/٨ ، ١٤٧ ، ١٥٤ فما بعدها ، ١٧٧ ، ١٩٦ ومواضع أخرى) (طبعة الكرملية) .
 - ٣ الاكليل (١٤٥/٨ ، ١٩٥) .
 - ٤ الاكليل (١٤٦/٨) .
 - ٥ الاكليل (١٧٣/٨) .
 - ٦ الاكليل (١٨٠/٨) (وقد ذكر القصة كاملة وهب بن منبه في تيجان الملوك) ، الاكليل (١٨٦/٨) .
 - ٧ الاكليل (٣٠٩/٨) (طبعة الكرملية) .

أورد فيه نصوصاً زعم أنها ترجيات لنصوص المسند ، عثر عليها في القبور عند الأجداث . وأورد بعضها شعراً ، زعم أنه مما وجد في تلك القبور ، كالذي ذكره عند حديثه عن قبر (مرشد بن شدّاد)^١ ، وعن قبرين جاهليين عثر عليهما بـ (الجند) وقد نص على أن الشعر المذكور كان مكتوباً بالمسند وقد دونه^٢ . وهو وكل الأشعار الأخرى ومنها المراثي منظوم بعربية القرآن . وأما النثر ، فإنه بهذه العربية أيضاً ، وهو في الزهد والموعظة والندم والحث على ترك الدنيا ، فكأن أصحاب القبور ، من الوعاظ المتصوفين الزهاد ، ماتوا ليعظوا الأحياء من خلال القبور ، ولم يكونوا من الجاهليين من عبدة الأصنام والأوثان .

وهو قسم بارد سخيف ، يدل على ضعف أحلام رواه ، وعلى ضعف ملكة النقد عند (الهمداني) وعلى نزوله الى مستوى القصص والسمّار والأخباريين الذين يروون الأخبار ويشبّثونها وإن كانت مخالفة للعقل . إذ أنه لا يختلف عنهم هنا بأي شيء كان .

وجعل رأيي في (الهمداني) أنه قد أفادنا ولا شك بوصفه للعاديات التي رآها بنصه على ذكر أسمائها ، وأفادنا أيضاً في إirاده ألفاظاً يمانية كانت مستعملة في أيامه استعمال الجاهليين لها : وقد وردت في نصوص المسند ، فترجمها علماء العربيات الجنوبية ترجمة غير صحيحة ، فمن الممكن تصحيحها الآن على ضوء استعمالها في مؤلفات الهمداني وفي مؤلفات غيره من علماء اليمن . أما من حيث علمه بتاريخ اليمن القديم ، فإنه وإن عرف بعض الأسماء إلا أنه خلط فيها في الغالب ، فجعل اسم الرجل الواحد اسمين ، وصير الأماكن آباءً وأجداداً ، وجعل أسماء القبائل أسماء رجال ، ثم هو لا يختلف عن غيره في جهله بتاريخ اليمن القديم ، فلأ الفراغ بإيراده الأساطير والخرافات والمبالغات . وأما علمه بالمسند فقد ذكرت أنه ربما قرأ الكلمات ، ولكنه لم يكن يفقه المعاني ، ولم يكن ملماً بقواعد اللهجات اليمنية القديمة ، وقد حاولت العثور على ترجمة واحدة تشير الى أنها ترجمة صحيحة لنص من نصوص المسند ، فلم أتمكن من ذلك وبالأسف .

١ الاكليل (١٧٥/٨) (طبعة الكرمل) .

٢ الاكليل (١٧٨/٨) .

وعلم (الهمداني) بجغرافية اليمن والعربية الجنوبية ، يفوق كثيراً علمه بتاريخ هذه الأرضين القديم ، فقد خبر أكثرها بنفسه وسافر فيها ، فاكسب علمه بالتجربة . أما علمه بجغرافية الأقسام الشمالية من جزيرة العرب ، فإنه دون هذا العلم^١ .

وأفادت (القصيدة الحميرية) ، لصاحبها (نشوان بن سعيد الحميري) فائدة لا بأس بها في تدوين تاريخ اليمن^٢ . ولهذا المؤلف معجم سمّاه (شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم)^٣، ضمنه ألفاظاً خاصة بعرب الجنوب^٤ . وينطبق ما قلته في الهمداني على نشوان أيضاً . فاذا قرأت كتبه ، تشعر أنه لم يكن يفهم النصوص الحميرية ولا غيرها ، وإن كان يحسن قراءة المسند . وما ذكره في كتابه (شمس العلوم) - وإن دلّ على حرص على جمع المعلومات ، وعلى تتبع يحمده عليه للبحث عن تاريخ اليمن ولغاتها القديمة - يدلّ على أنه لم يكن يفهم نصوص المسند ، وليس له علم بتاريخها وبتواريخ أصحابها ، وأنه لا يمتاز بشيء عن الهمداني أو مائثر علماء اليمن الذين كانوا يدعون العلم بأخبار الماضين ، وأكثر الذي ذكره في كتابه على أنه من اللهجات الحميرية والعربية الجنوبية هو من مفردات معجمات اللغة ، ومن لهجات العربية الفصحى خلا ذلك الذي كان يستعمله أهل اليمن ، وهو قليل إذا قيس إلى سواه ، وقد فسر معانيه على نحو ما كان يقصده الناس في أيامه . ومع هذا ، فهذا النوع من الكلمات هو الذي نطمح فيه ، لأنه من بقايا اللهجات البائدة ، ويقيدنا فائدة عظيمة في فهم معاني النصوص وفي قراءتها وشرحها وتفسيرها ، ولعله لم يكثر منها ، لأنها كانت من كلام العوام فأشفق على نفسه من البحث في لغة العوام .

١ Moritz, S., 20.

٢ تجد ترجمته في : ارشاد الاريب (٢٠٦/٧) ، بغية الوعاة (ص ٤٣٠) ،
W. F. Prideaux, The Lay of the Himyarites, Sehore, 1879,
Von Kremer, Die Himjarische Qaside, Leipzig, 1865.
Brockelmann, I, S., 301, Suppl., I, 527, f., R. Basset,
La Qasidah Himyarite De N.B.S., Alger, 1914.

٣ الاكليل (٨/٨) وقيل : (شمس العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم) نشر
منتخبات منه عظيم الدين احمد في سلسلة تذكّار (كب) لندن ، ١٩١٦ ،
(منتخبات في اخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم) ،
وسأشير اليه ب : منتخبات .

٤ راجع مئة مادة هجر منتخبات ص ١٠٨ .

ولم يزد (نشوان) في شروحه لأسماء الأعيان والأجذام والقبائل والعوائل والأمكنة على ما أورده الهمداني أو سائر علماء التاريخ وأهل الأنساب ، فعدّ أسماء القبائل مثل همدان ، أسماء أشخاص لهم أنساب وأولاد وأقرباء ، وأخطأ في الأغلاط نفسها التي وقع فيها الهمداني ، فذكر جملاً مسجوعة على أنها من وصايا الثبابعة ، وعبارات متكلفة على أنها قراءات لنصوص حميرية مكتوبة بالمسند^١ .

ومحمد بن نشوان بن سعيد الحميري نفسه هو من اعتمد على علم الهمداني ، كما نص على ذلك في فاتحة الجزء الأول من الإكليل . فهذا الجزء الذي طبع حديثاً هو برواية محمد بن نشوان ، رواه لمن سأله أن يوضح شيئاً من أنساب حمير وأخبارها وما حفظ من سيرها وآثارها ، فما كان منه إلا أن أخذ الإكليل فكتب له ، لم يغير فيه سوى ما قاله : (غير اني اختصرت شيئاً ذكره في النسب ، ليس هو من جملته بمحتسب . بل هو مما ذكره من الاختلاف في التاريخ ونحوه ، من غير أن أنسب الكدر الى صفوه)^٢ . وفي مقدمته لهذا الجزء ثناء عاطف على الهمداني ، وتقدير كبير لعلمه في أخبار اليمن .

هذا هو كل ما أريد أن أقوله هنا عن مصادر التاريخ الجاهلي ، وهو قليل من كثير ، ولكن التوسع في هذا الموضوع يخرجنا حتماً عن حدود بحثنا المرسوم ، ويخرجنا الى التحدث في شيء آخر لا علاقة له بالجاهلية ، وانما يعود الى البحث في التاريخ ، وفي نقده ودروبه عند المؤرخين . على أنني أراني قد توسعت مع ذلك في هذا الباب ، وذلك للحاجة التي رأيتها في ضرورة توضيح بعض الأمور الخاصة بتلك الموارد .

١ منتخبات ص ٧٥٦٠ ومواضع أخرى .

٢ الإكليل (٥/١) .

الفصل الثالث

اهمال التاريخ الجاهلي واعادة تدوينه

من الأمور التي تثير الأسف ، تهاون المؤرخين في تدوين التاريخ الجاهلي ، ولا سيما القسم القديم منه ، الذي يبعد عن الإسلام قرناً فأكثر ، فإن هذا القسم منه ضعيف هزيل ، لا يصح أن نسميه تاريخاً ، بعيد في طبعه وفي مادته عن طبع التواريخ ومادتها .

لقد وفق المؤرخون العرب في كتابة تاريخ الإسلام توفيقاً كبيراً ، من حيث العناية بجمع الروايات والأخبار واستقصائها ، وفي رغبتهم في التمهيص . أما التاريخ الجاهلي ، فلم يظهروا مقدرة في تدوينه ، بل قصروا فيه تقصيراً ظاهراً . فاقصر علمهم فيه على الأمور القريبة من الإسلام ، على أنهم حتى في هذه الحقبة لم يجيدوا فيها إجابة كافية ، ولم يظهروا فيها براعة ومهارة ، ولم يتركوا كل الأبواب أو الموضوعات التي تخص الجاهلية . فتركوا لنا فجوات وثغراً لم نتمكن من سدها وردمها حتى الآن ، ولا سيما في تاريخ جزيرة العرب ، حيث نجد فراغاً واسعاً ، وهو أمر يدعو الى التساؤل عن الأسباب التي دعت الى حدوثه : هل كان الإسلام قد تعمّد طمس أخبار الجاهلية ؟ أو أن العرب عند ظهور الإسلام لم تكن لديهم كتب مدونة في تاريخهم ولا علم بأحوال أسلافهم ، وكانت الأسباب قد تقطعت بينهم وبين من تقدمهم ، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن ماضيهم غير هذا الذي وعوه فتحدثوا به الى الإسلاميين ، فوجد سبيله الى الكتب ؟ أو أن العرب لم يكونوا يميلون الى تدوين تواريخهم ، فلم يكونوا مثل

الروم أو الفرس يجمعون أخبارهم وأخبار من تقدم منهم وسلف ، فلما كان الإسلام ، وجاء زمن التدوين ، لم يجد أهل الأخبار أمامهم شيئاً غير هذا الذي روه وذكروه ، وكان من بقايا ما ترسب في ذاكرة المعمرين من أخبار .

لقد عزا بعض الباحثين هذا التقصير الى الإسلام ، فزعم ان رغبة الإسلام كانت قد اتجهت الى استئصال كل ما يمت الى أيام الوثنية في الجزيرة العربية بصلة ، مستدلاً بحديث : (الإسلام يهدم ما قبله)^١ ، فدعا ذلك الى تثبيط همم العلماء عن متابعة الدراسات المتصلة بالجاهلية ، والى نحو آثار كل شيء يتفرع عن النظام القديم ، لم يميزوا بين ما يتعلق منه بالوثنية والأنصاب والأصنام، وبين ما يتعلق بالحالة العامة كالثقافة والأدب والتأريخ . فعلوا ذلك كما فعل النصارى في أوروبا في أوائل القرن السادس للميلاد ، فكان من نتائجه ذهاب أخبار الجاهلية ، ونسيانها ، وابتداء التأريخ لدى المسلمين بعام الفيل^٢ . ولهذا (كان المؤرخون أو الأخباريون ، الذين يترتب عليهم تدوين أخبار الماضي وحفظ مفاخره ، من الذين ينظر اليهم شزراً في المجتمع الإسلامي ، وخاصة في العهد الإسلامي الأول . أما مؤرخو العرب العظام ، فلم ينبغي الا بعد تلك الفترة ، وحتى هؤلاء فإنهم صرفوا عنايتهم الى التأريخ الإسلامي ، ولم يدققوا فيما يخص الجاهلية . وبالإضافة الى ما سبق ، أصبح لكلمة مؤرخ (اخباري) معنى سيء بل أصبحت صفة تفيد نوعاً من الازدراء . وقد ألصقت هذه الصفة بابن الكلبي ، كما ألصقت بكل عالم تجرأ على البحث في تأريخ العرب قبل عام الفيل . لكن لم يهاجم أحد من المؤرخين بعنف كما هوجم ابن الكلبي . والراجح أن السبب في ذلك هو انصرافه لدراسة الأشياء التي قرر الإسلام طمسها ، أعني بذلك البيانات والطقوس الوثنية في بلاد العرب)^٣ .

- ١ مجلة الأبحاث (ص ١٨٩) ، السنة الـ ٣ ، الجزء الـ ٢ ، حزيران ١٩٥٠ ، الأكليل : مقدمة نبيه امين فارس ص (ب) ، دراسات عن المؤرخين العرب ، تعريب الدكتور حسين نصار ، تأليف (مارغليوث) (ص ٥٣ وما بعدها) .
- ٢ مقدمة نبيه امين فارس للجزء الثامن من الأكليل (ص ب) ، قال : (وقد يكون للحديث المنسوب الى النبي اثر في ذلك . فقد جاء في الحديث ان (الإسلام يهدم ما قبله) ، ولا بد ان عنى النبي في قوله هذا الديانات الوثنية الشائعة في الجزيرة قبل ظهوره من عبادة الأصنام والأنصاب وغيرها . اما اتباعه ، فدفعتهم غيرتهم على تثبيط دعائم الدين الخفيف الى عدم التمييز بين الفث والسمين ، فكادوا يقضون على جميع معالم الثقافة والادب ... الخ) .
- ٣ الأبحاث ، الجزء المذكور (ص ١٨٩) .

ثم سبب آخر ، هو أن الإسلام ثورة على مجتمع قائم ثابت ، وعلى مثل تمسك بها أهل الجاهلية ، وعلى قوم كانوا قد تسلطوا وتحكموا ونجبروا بحكم العرف والعادات ، وككل ثورة تقع وكما يقع حتى الآن ، وسم الإسلام الجاهلية ، بكل منقصة ومثلية ، وحاول طمس كل أثر لها وكل ما كان فيها ، حتى ظهرت تلك الأيام على الصورة التي انتهت اليها عن «الجاهلية» وكأن الناس فيها جهلة لم يكن عندهم شيء من علم في هذه الحياة يومئذ ، وكأن عهدهم في هذا العالم لم يبدأ إلا ببدء الإسلام .

وجاءوا بدليل آخر في اثبات أن الإسلام كان له دخل في طمس معالم تأريخ الجاهلية ، إذ ذكروا أن الخليفة (عمر) سأل بعض الناس (أن يرووا بعض التجارب الجاهلية ، أو ينشدوا بعض الأشعار الجاهلية ، فكان جوابهم : لقد جب الله ذلك بالإسلام ، فلم الرجوع)^١ . فوجدوا في امتناعهم عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبار الجاهلية ، دلالة على كره الإسلام لرواية تأريخ الجاهلية وانتهاء ذلك الى طمس معالم ذلك التأريخ .

أما حديث (الإسلام يهدم ما قبله) ، فهو حديث لا علاقة له البتة بتأريخ الجاهلية ولا بهدم الجاهلية ، وقد استل من حديث طويل ورد في صحيح مسلم في (باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج) ، وبعد (باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية) ، وقد ورد جواباً عن أسئلة الصحابة عن أعمال منافية للإسلام ارتكبوها في الجاهلية ، هل يغفرها الله لهم ، أو تكتب عليهم سيئات يحاسبون عليها ؟ فقالوا : (يا رسول الله ، انؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟)^٢ . وقد ورد في صحيح مسلم بعد هذا الباب باب آخر بهذا المعنى ، هو (باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده) .

ولإعطاء رأي صحيح عن هذا الحديث ، أنقل الى القارئ نصه كما جاء في صحيح مسلم قال : (حدثني يزيد بن أبي حبيب ، عن ابن شماس المهرري ، قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو في سياقة الموت ييكي طويلاً ، وحول

١ دراسات عن المؤرخين العرب (ص ٥٣) . وقد اقتطعت نص هذا الدليل من الترجمة العربية لكتاب المستشرق (مرغليوث) ، المسمى : دراسات عن المؤرخين العرب ، لعدم وجود النص الانكليزي لدي ، فانا اروييه على مسؤولية المعرب وان كنت ارى ان في الترجمة وهما .

٢ صحيح مسلم (٧٧/١) .

وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بشرك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟ قال : فأقبل بوجهه ، فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني قد كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مني ، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أثبت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أبسط يمينك فلأبائعك ، فبسط يمينه . قال : فقبضت يدي ، قال مالك يا عمرو ؟ قلت أردت أن اشترط . قال : تشترط بماذا ؟ قلت : أن يغفر لي . قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا أجلّ في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه لإجلاله . ولو مت على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء ما أدري من حالي فيها ، فإذا أنا مت ، فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني ، فشنوا عليّ التراب شنأ ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وانظر ماذا أراجع به رسل ربي^١ .

وبعد ، فآية علاقة إذن بين هذا الحديث وبين الحث على تهديم الجاهلية وإهمال التأريخ الجاهلي يا ترى ؟

وأما اتخاذهم نهى بعض الصحابة عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبار الأيام دليلاً على كره الإسلام لإحياء ذكرى الجاهلية، ومحاولة طمس معالمها وتأريخها ، وحكمهم من ثم عليه بمساهمة في طمس تأريخ الجاهلية واطفائه له ، فإنه دليل بارد ليس في محله ، فإن الذين نهوا عن رواية الشعر الجاهلي أو رواية الأيام ، أو امتنعوا هم أنفسهم عن روايتها ، لم ينهوا ولم يمتنعوا عن روايتها مطلقاً ، أي عن رواية جميع أنواع الشعر الجاهلي أو أخبار كل الأيام التي وقعت في الجاهلية ، بل نهوا أو امتنعوا عن رواية بعض أبواب الشعر ، وبعض أخبار تلك الأيام ، لما كان يحدثه هذا النوع من الشعر أو يوقعه هذا الباب من رواية

١ صحيح مسلم (١/٧٨) .

الأخبار من شرّ في النفوس ومن فتن قد تجدد تلك العصبيات الخبيثة التي حاربها الإسلام ، لتمزيقها الشمل ، وتفريقها الصفوف . « ومن ثم نهى الفاروق ، رضي الله عنه ، الناس بدياً أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحبي بالميت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام . ومروّ عمر بحسان يوماً ، وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، فأخذ بأذنه ، وقال : أرغاء كرغاء البعير ؟ فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ، فوالله لتعلم أنني كنت أنشد في هذا المسجد من خير منك ، فقال عمر : صدقت ، وانطلق »^١ . ولم يأخذ عمر على حسان رواية ذلك الشعر في مسجد رسول الله إلا لأنه كان من ذلك الشعر المثير للنفوس المهيج للعواطف ، وانشاده في نظره يعيد الناس إلى ما كانوا عليه من قتال قبل الإسلام . فلمصلحة العامة نهى بعض الصحابة عنه . ومع ذلك ، تساهل عمر مع حسان ، وتركه ينشد شعره ، بعد أن حاجّه حسان بما رأيت .

وهناك رواية أخرى تشرح لنا الأسباب التي حملت عمر على النهي عن رواية بعض الشعر الجاهلي ، وهي أنه (قدم المدينة ، في خلافة الفاروق ، عبد الله بن الزبيرى وضرار بن الخطاب — وكانا شاعري قريش في الشرك — فترلا على أبي أحمد بن جحش ، وقالوا له : نحب أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتيك فتشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا ، فأرسل إليه ، فجاءه . فقال له : يا أبا الوليد : هذان أخواك ابن الزبيرى وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعها ما قالوا لك وقلت لها . فقال ابن الزبيرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ، إن شعرك كان يحتمل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : أفتبدآن ، أم أبداً ؟ قالوا : نبدأ نحن ، قال : ابتدئا . فأنشده حتى فار فصار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمر ، فقص عليه قصتها وقصته . فقال له عمر : لن يذهب عنك بشيء إن شاء الله ، وأرسل من يردّهما ، وقال له عمر : لو لم تدركما إلا بمكة ، فأرددهما عليّ ... فلما كان بالروحاء ، قال ضرار لصاحبه :

١ شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، لعبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة ١٩٢٩ (ص ٠ س ٠ م) .

يا ابن الزبيرى ، أنا أعرف عمر وذبة عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأني به قد جاء وشكا اليه ما فعلنا ، فأرسل في آثارنا ، وقال لرسوله : إن لم تلحقها إلا بمكة ، فارددهما عليّ ... فأربح بنا ترك العناء ، وأقم بنا مكاننا ، فإن كان الذي ظننت فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعد منها ، وإن أخطأ ظنّي ، فذلك الذي نحب . فقال ابن الزبيرى : نعم ما رأيت . فأقاما بالروحاء ، فما كان إلا كمر الطائر حتى وافاهما رسول عمر ، فردّهما اليه . فدعا لهما بحسان وعمر في جماعة من أصحاب رسول الله . فقال لحسان : أنشدكما مما قلت لهما فأنشدكما ، حتى فرغ مما قال لهما ، فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشدك في الحنّاء ، وأنشدتها في المسأ ... وقال لهما عمر : إن شئتما فأقيا ، وإن شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : اني كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما اذ أبوا ، فاكتبوه ، واحتفظوا به . قال الراوي : فدوتوا ذلك عندهم . قال : ولقد أدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها اذا خافت بلاءه .. ١ .

بل كان الرسول كما رأينا في خبر (حسان) ، وكما ذكر في أخبار أخرى يجلس وأصحابه يتناشدون الأشعار ، ويتذاكرون أشياء من أمور الجاهلية ، وهو يسمع ويساهم معهم في الحديث ، وينشدهم شيئاً مما حفظه ٢ . ولم يته عن رواية شعر ما إلا ما كان فيه فحش ، أو إساءة أو إثارة فتنه ، أما ما شابه ذلك ، لما كان يحدثه ذلك الشعر من أثر سيء في النفوس . لقد تمثل بشعر « أمية بن أبي الصلت » مع أنه كان من خصومه اللد ، وسمع الناس ينشدون شعره ، ولم يكره منه إلا ما كان منه في تحريض قريش بعد وقعة (بدر) على المسلمين ورثائه من قتل منهم ٣ .

وقد كان (أبو بكر) ، وهو الخليفة الأول ، من حفظة الشعر الجاهلي ،

-
- ١ شرح ديوان حسان (ص . س . م)
 - ٢ ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ص ٩٥ وما بعدها) ، الاغانى (٧/٣ ، ١١٧) ، (١٢٩/٤) ، (٢٤٣/٨) الامالى (٢٤١/١) ، المرزبانى (٢٠٣) ، الفائق للزمخشري (٥٢/٣) ، ابن سعد ، (٣٧٦/٥) .
 - ٣ الاغانى (١٢٢/٤) وما بعدها ، الفائق (١/٦٦٤) .

الراوين له ، المتشبهين به^١ . وكان (عمر) من العالمين بذلك الشعر الحافظين له البصيرين به^٢ . وكذلك كان شأن كثير من الصحابة . لم يذكر أحد أنهم تخرجوا من روايته وانشاده ، وأنهم تهبوا منه ، إلا ما ذكرته من إحجامهم عن رواية بعض منه ، وهو قليل جداً ، لأسباب ذكرتها ، وقد روه مع ذلك ودونوه .

لقد حرم الإسلام أشياء من الجاهلية ، وأقر أشياء أخرى نص عليها في الكتاب والسنة^٣ ، ولم يرد أنه حرم أقلام الجاهلية أو الشعر الجاهلي أو النثر الجاهلي أو أي أدب أو علم جاهلي ، ولم يصل إلى علمنا أنه أمر بهدم المباني الجاهلية وطمس معالمها ، حتى محججات الأصنام بقيت على حالها ، خلا الأصنام والأوثان وما يتعلق بها من أمور مما كان من صميم الوثنية أو كانت له علاقة بإعادتها إلى الذهن مثل التصوير . ولم نسمع أنه أمر بإتلاف كتابات الجاهلية ، أو أنه نهى عن قراءتها والاستفادة منها ، أو أنه منع استعمال اللهجات الأخرى ، التي كان يستعملها الجاهليون ، أو أن علماء الإسلام منعوا رواية أخبار الجاهلية ، بل الذي نسمعه ونراه أن « ابن عباس » كان يستشهد بالشعر الجاهلي في تفسير القرآن ، وبقية الصحابة يروونه ويحفظونه ، وأن خلفاء بني أمية كانوا يدفعون الهدايا والجوائز لمن يروي لهم الشعر الجاهلي ، ونرى أنهم كانوا يقضون ليالهم برواية أخبار الجاهلية وحالتهم فيها ، وما وقع لهم في تلك الأيام من فادروطريف ، وقد سجل ما بقي منه في الذهن في كتب الأخبار والأدب ، يوم شرع الناس في التدوين .

وأما أنهم كانوا ينظرون الى (الأخباري) نظرة سيئة ، فيها شيء من ازدراء وعدم التقدير ، فما كان ذلك لروايته أخبار الجاهلية واشتغاله بجمع تاريخها والتحدث عنها ، وما كانوا يريدون بلفظة (أخباري) راوي أخبار الجاهلية وحدها في أي يوم من أيام التاريخ الاسلامي ، وإنما كان ذلك لإغراب الاخباريين في رواية الأخبار ومبالغتهم فيها مبالغة تجافي العقل ، وسردهم الإسرائيلية والنصرانيات والشعبيات وغير ذلك من القصص المدونة في الكتب ، وكذب بعضهم كذباً يخالف

١ ابن سعد (٥٧/٦) ، أبو بكر الصولي ، ادب الكتاب (ص ١٩٠)
٢ الاغانى (١٩٩/٨) ، خزانة الادب : للبغدادي (٢٩٢/٢) ، العقد الفريد (٩٣/٦)
وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٩/١) وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٩٣/١)
٣ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (٣٩٣/١) .

أبسط قواعد المنطق، وما رُمي (ابن الكلبي) بالكذب أو نظر اليه نظرة ازدراء لكونه من رواة أخبار الجاهلية بل وثق في هذه الناحية وأخذ عنه دون ردّ أو اعتراض ، كما يتبين ذلك من اعتماد العلماء عليه في هذا الباب وأشارهم اليه ، وإنما ضعف في أمور أخرى هي أمور إسلامية لا علاقة لها بالجاهلية ولا صلة لها بها البتة ، مدوّنة في كتب التفسير والحديث .

ولو كان الإسلام قد حث على طمس أخبار الجاهلية أو اطفاء ذكر الأصنام والأوثان ، لما كان في وسع (ابن الكلبي) ولا غيره التحدث عنها والإشارة إليها ، ولما أخذ العلماء عنه ورووا كتبه وتوارثوا كتاب (الأصنام) ، بل القرآن نفسه حجة في ردّ هذا الزعم ، ففيه ذكر لرؤوس أصنام العرب ، وفيه مفصل حياة أهل الجاهلية ومثلهم وما كانوا يقومون به ، ولو شراً وباطلاً ، وروت كتب التفسير وكتب الحديث والسير والأخبار أوصاف بعض أصنام العرب وهيئاتها وشكل محجّاتها وأوقات الحج ، كما ذكرت ما أقر الإسلام من أمور كانت قائمة في الجاهلية وما حرم منها ، ولو كان الإسلام قد تعمد طمس الجاهلية والقضاء على معالمها ، لتخرج القرآن وتخرج المسلمون من الإشارة إليها ومن إحياء أسمائها وبعثها في ذاكرة الناشئين في الإسلام .

وقد تحدث (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) ، في المقالة الثالثة التي خصصها (في أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، عن (ابن الكلبي) وعن أبيه ، كما تحدث عن غيره من مشاهير العلماء من أمثال (عوانة ابن الحكم) و (ابن اسحق) صاحب السيرة ، و (أبي مخنف) و (الواقدي) و (الهيثم بن عدي) و (أبي البخري) و (المدائني) و (محمد بن حبيب) وغيرهم ممن ألف في أمور وقعت قبل الإسلام في أمور وأحداث إسلامية مخضّة ، وقد ضعف بعضهم ، مع أنهم لم يؤلفوا في أمور تخص الجاهلية ولا في أحداث وقعت قبل عام الفيل أو قبل الإسلام . وأطلقت عليهم لفظة (أخباري) أو (وكان أخبارياً) ، مع أنهم لم يكتبوا إلا في أخبار قريبة من الإسلام أو في أحداث إسلامية بحثة ، فلفظة (أخباري) إذن لم تكن قد علّمت بالشخص الذي تخصص برواية أخبار الجاهلية الواقعة قبل عام الفيل فقط ، بل قصد بها هؤلاء وكل من اشتغل برواية الأخبار مهما كانت صفتها وعادتها وطبيعتها، روى تاريخ ما قبل الفيل أو ما بعد الفيل الى الإسلام ، أو أخبار الإسلام .

والأخباري في عرف ذلك اليوم وقبل أن يتشر التأليف وتتصنف المعارف ، هو من يروي الأخبار ، تمييزاً له عن الآخرين الذين اشتغلوا بالنسب ، فعرف أحدهم بـ (النسابة) ، وقيل عن أحدهم (أحد النسابين) أو (وكان نسباً)^١ ، أو بالتفسير أو برواية الشعر وما شاكل ذلك من معارف . فهو مؤرخ ذلك الزمن اذن ، ولهذا نرى لفظة (أخبار) بمعنى تأريخ ، ورد في « الفهرست » في أثناء الحديث عن عبيد بن شربة الجرهمي ومعاوية : فسأله (أي معاوية عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم)^٢ ، وورد عن (ابن دأب) وكان (عالماً بأخبار العرب وأشعارها)^٣ وذكر عن (عوانة بن الحكم) انه كان (راوية للأخبار عالماً بالشعر والنسب)^٤ . وورد عن (أبي اليقظان النسابة) أنه كان (عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب)^٥ . وورد مثل ذلك عن أشخاص آخرين هم في أوائل من اشتغل بالتأريخ عند المسلمين ، يخرجنا ذكرهم هنا عن حدود هذا الموضوع^٦ .

ويظهر من دراسة (الفهرست) لابن النديم والمؤلفات الأخرى ان العرب في صدر الإسلام لم يكونوا يطلقون لفظة (المؤرخ) على من يشتغل بالتأريخ، ذلك لأن التأريخ نفسه في ذلك العهد لم يكن قد تطور وبلغ الشكل الذي بلغه في أواخر أيام الأمويين وفي الدولة العباسية. بل كانوا يطلقون على المؤرخ (الأخباري) كما ذكرت ، لاشتغاله بالأخبار كائنة ما كانت أخبار ما قبل الإسلام أو أخبار الإسلام ، وكانوا يطلقون على الموضوع نفسه (الأخبار) . ولهذا نرى ان أكثرية المشتغلين بها ، أطلقوا على كتبهم : (الأخبار المتقدمة) و (أخبار الماضين) و (أخبار النبي) و (أخبار العرب) و (كتاب السير في الأخبار والأحداث) وأمثال ذلك، ولم يقولوا : (تأريخ المتقدمة) أو (تأريخ الماضين) أو (تأريخ العرب) أو (تأريخ الرسول) ، ويستعملون لفظة (سيرة) و(السير) في سير الأشخاص ، ولا سياً (سيرة الرسول) . وأما لفظة (تأريخ) ، فقد

١ الفهرست (ص ١٢٨) .

٢ الفهرست (ص ١٣٨) .

٣ الفهرست (ص ١٣٩) .

٤ الفهرست (ص ١٤٠) .

٥ الفهرست (ص ١٤٤) .

٦ يراجع الباب المسمى (المقالة الثالثة) : في اخبار الاخباريين والنسابين واصحاب الاحداث ... من كتاب الفهرست ، لابن النديم (ص ١٣٧) .

استعملت في عنوانه بعض الكتب المؤلفة في التاريخ ، فقد كان لـ (عوانة بن الحكم) المتوفى سنة (١٤٧ هـ) كتاب اسمه (كتاب التاريخ) كما كان له كتاب اسمه (كتاب سيرة معاوية وبني أمية)^١ . وكان للهيثم بن عدي المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) كتاب يدعى (كتاب تاريخ العجم وبني أمية) و (كتاب تاريخ الأشراف) ، و (كتاب التاريخ على السنين)^٢ ، وكانت للمدائني المتوفى سنة (٢٢٥ هـ) للهجرة كتاب عنوانه : (تاريخ أعمار الخلفاء) وآخر اسمه (كتاب تاريخ الخلفاء) وثالث اسمه (أخبار الخلفاء الكبير)^٣ ، لا أستبعد أن يكون هو هذا الكتاب .

الا أن هذا الاطلاق لم يكن واسعاً كثير الاستعمال ، وفي استطاعتنا ذكر هذه الكتب وعدّها ، وما دامت الحال على هذا المنوال ، فليس من المعقول اطلاق لفظة (مؤرخ) و (المؤرخ) و (تاريخ) بصورة واسعة في هذا العهد، وفي جملة العهد الذي عاش فيه (ابن الكلبي) ، ما دام العرف فيه اطلاق لفظة (أخبار) بمعنى (تاريخ) ، وانما طغت لفظة (تاريخ) و (مؤرخ) في الأيام التي تلت هذا العهد ، ولا سيما أواخر القرن الثالث للهجرة فما بعده .

هذا من حيث استعمال لفظة (أخباري) . وأما من حيث اهمال التاريخ الجاهلي وصلة الإسلام به ، فقد ذكرت أنه لا علاقة للحديث المذكور بهدم الجاهلية أو باهمال تاريخها، وإنما الإهمال هو اهمال قديم ، يعود الى زمان طويل قبل الإسلام، فعادة قلع المباني القديمة لاستخدام أنقاضها في مباني جديدة ، والاعتداء على الأطلال والآثار والقبور بحثاً عن الذهب والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة الأخرى، هي عادة قديمة جداً، ربما رافقت الإنسان منذ يوم وجوده . وهي عادة لا تزال معروفة في كثير من بلدان الشرق الأوسط حتى اليوم ، بالرغم من وجود قوانين تحرم هذا الاعتداء وتمنع هذا التطاول . وقد كان من نتائجها تلف كثير من الآثار، وذهاب معالمها ، فصارت نسباً منسياً . فتكبدت الآثار الجاهلية من أهل الجاهلية ، أي في الأيام السابقة للإسلام مثل ما تكبدته وتكبدته الآثار الجاهلية والإسلامية معاً في أيام الإسلاميين حتى اليوم^٤ .

١ الفهرست (ص ١٤٠) .

٢ الفهرست (ص ١٥١ وما بعدها) .

٣ الفهرست (ص ١٥٥) .

٤ راجع عن فتح القبور الجاهلية للحصول على ما فيها من كنوز ، الاكليل (١٤٣/٨) فما بعدها .

وأما موضوع إهمال الآثار وعدم توجيه عناية الحكومات نحوها ، لرعايتها وللمحافظة عليها من التعرض للسقوط والتلف والأضرار ونحو ذلك ، فإنه موضوع لم يدرك الناس أهميته إلاّ أخيراً ، ولم تشعر الحكومات بأنه واجب مهم من واجباتها إلاّ حديثاً ، ولذلك لا نستطيع أن نوجه اللوم الى القدامى لاهمالهم الآثار ولعدم اعتنائهم بالمحافظة عليها .

وكان من آثار هذا الجهل بأهمية الآثار أن أزيلت معالم أبنية وقصور، وحطمت تماثيل وكتابات، لغرض استعمالها في البناء ، وقد كان على مقربة من (سدوس)، أبنية قديمة يظن أنها من آثار حمير وأبنية التبابعة، وأن من جملتها شاخص كالمنارة، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها ، فهدهما أهل سدوس ، لاختلاف بعض السياح من الافرنج اليها ملاحظة التداخل معهم^١. ومثل ذلك حدث في اليمن وفي مواضع أخرى من أمكنة الآثار .

وقد هدمت قرى ومدن في الجاهلية وفي الإسلام من أجل استعمال أنقاضها في بناء أبنية جديدة . ذكر (الهمداني) حصن (ذي مرمر) ، وهو من المواضع الجاهلية المهمة ، وكذلك (شبام سخيم) (يسخم) ، وبقي معروفين زمناً طويلاً بعده، ثم جاء أحد الأتراك واسمه (حسن باشا) فهدم حصن (ذي مرمر) لينشئ في أسفله مدينة جديدة ، أخذ معظم مواد بنائها من (شبام سخيم)^٢ . وذكر ان حكومة اليمن قامت بعد سنة (١٩٤٥ م) ببناء ثكنة لجنودها في المنطقة الشرقية من اليمن في (مأرب) على نمط الثكنة التي بناها الأتراك في صنعاء ، فهدموا أبنية جاهلية كانت لا تزال ظاهرة قائمة ، واستعملوا الحجارة الضخمة التي كانت مترامية على سطح الأرض ، وأزالوا بعض الجدر والأسوار وحيطان البيوت عند بناء تلك الثكنة ، فطمسوا بذلك بعض معالم تأريخ اليمن القديم^٣ ، وأسأؤوا بجهلهم هذا الى قيم الآثار اساءة لا تقدر في نظر عشاق التأريخ والباحثين في تأريخ العرب قبل الإسلام .

ويضاف الى ما تقدم عامل آخر ، هدم الآثار وقضى عليها بالجملة ،

١ الالوسي ، تاريخ نجد ، تحقيق الاستاذ محمد بهجت الأثرى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ (ص ٢٨) .

٢ Beltrage, S., 18.

٣ Beltrage, S., 28.

وأعني به الحروب . وسوف نرى حروباً متوالية اكتسحت جميع مناطق العربية الجنوبية ، وأتت على مدنها ، اذ استعمل القادة سياسة حرق المدن والمواقع والمزارع ، وقتل السكان بالجملة فأدى ذلك الى اندثار الآثار وتشتيد الناس وهرجهم الى البوادي وتحول الأراضين الخصبية الى أراضين جرد ، حتى ضاعت بذلك معالم الحضارة القديمة ، فخسرنا من جراء ذلك علماً كثيراً ، وأسفاه . وهناك تقصير آخر لا يمكن أن ينسب الى الإسلاميين ، بل يجب عزوه الى الجاهليين فالظاهر من رجوع الصحابة الى ذاكرتهم والى ذاكرة الشيبة الذين أدركوا الجاهلية في تذكّر أيامها وما كانوا عليه قبل الإسلام ، ومن جلب (معاوية بن أبي سفيان) المولع بسماع الأخبار له (عبيد بن شربة) ليقص عليه « الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبليد الألسنة ، وأمر افتراق الناس في البلاد »^١ ، ومن رجوع أهل الأخبار الى الأعراب لأخذ أخبار قبائلهم وأيامهم وأنسابهم وشعرهم وغير ذلك ، أن غالبية أهل الجاهلية لم تكن لهم كتب مدونة في تاريخهم ، ولم تكن عندهم عادة تدوين الحوادث وتسجيل ما يقع لهم في كتب وسجلات ، بل كانوا يتذكرون أيامهم وأحداثهم وما يقع لهم ، ويحفظون المهم من أمورهم مثل الشعر حفظاً . ولما كانت الذاكرة محدودة الطاقة ، لا تستطيع أن تحمل كل ما تحمل ، ضاع الكثير من الأخبار ، بتباعد الزمن ، وبوفاة شهود الحوادث ، ولم يبق بتوالي الأيام غير القليل منها . ومن هنا كان تعليل علماء العربية ضياع أكثر الشعر الجاهلي ، فقالوا : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولطت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثلوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم كثير)^٢ . وإذا كان هذا ما وقع للشعر مع مكانته عندهم وسهولة بقائه في الذاكرة بالقياس الى النثر ، وتعصب القبائل لشعر شعرائها ، فهل في استطاعتنا استثناء الأخبار ، من هذا الذي يحدث للشعر ؟

١ الفهرست (ص ١٣٨) .

٢ المزهر (٤٧٤/٢) .

بل ما لنا وللجاهلية ، ولتراجع تأريخ الاسلام نفسه ، خذ تأريخ آباء الرسول وطفولة الرسول الى يوم مبعثه ، بل حتى بعد مبعثه ، ثم خذ سير الصحابة وما وقع في صدر الإسلام من أحداث ، ترى أن ما ورد من سيرة آباء الرسول وسيرة الرسول الى الهجرة ، مقتضباً بعض الاقتضاب ، وأن ما ذكر هو من الأمور التي تحفظها الذاكرة عادة ، وما فيها عدا ذلك مما وقع للرسول ، فغير موجود ، وترى اقتضاباً بخلاف في سيرة الصحابة ، واضطراباً في تواريخ الحوادث ، واختلافاً بين الصحابة في ذلك . أما سبب ذلك فهو عدم تعود الناس اذ ذاك تسجيل أخبار الحوادث وما يقع لهم ، وعدم وجود مسجلين مع السرايا والغزوات والفتوح يكون واجبهم تسجيل أخبارها وتدوين وقائعها ، حتى ما سجل من أمر ديوان الجند والأنساب وأمثال ذلك ، لم يكن في نسخ عديدة ، فضاع أكثره ، ولم يصل الى الأخباريين لذلك يوم شرعوا في التدوين . وإذا كان هذا حال أخبار الاسلام ، وهي أمور على جانب خطير من الأهمية بالقياس الى المسلمين ، فهل يعقل بقاء أخبار الجاهلية كاملة الى زمن شروع الناس في التدوين في الإسلام ، وقد ضاعت قبل الإسلام بزمان ؟

لقد قلت فيما سلف إن الهمداني وغيره ممن عنوا بأخبار اليمن ، لم يعرفوا من تأريخ اليمن القديم إلا القليل ، ولم يعرفوا من أخبار دول اليمن القديمة شيئاً ، ولم يحفظوا من أسماء ملوكها إلا بعض الأسماء ، وقد حرف حتى هذا البعض ، أما معارفهم من معبودات أهل اليمن القديمة ، فصفر ، فلسنا نجد في كتبهم إشارة ما الى عبادة (عشر) ولا الى عبادة (أنبي) و (ذات صنم) و (نكرح) و (سين) و (حوكم) و (حكم) و (هوبس) ولا الى بقية المعبودات . نعم ، أشار (الهمداني) الى اسم إله من آلهة (همدان) هو (تالب) ، وكانت محبته في (ريم) (ريام) ، يقصدها الناس في ذلك الزمن للزيارة والتبرك ، ولكنه لم يعرف أنه كان إلهاً ، بل ظن أنه ملك من ملوك همدان ، فدعاه باسم (تالب) ، وزعم أنه ابن (شهران)^١ . وجعل (المقه) ، وهو إله سبأ العظيم ، المقدم عندهم على جميع الأصنام ، اسم بناء من أبنية جن سليمان . وقد بُني على ما

١ الاكليل (١٧/١٠) .

زعمه يأمر سليمان^١ . وتحدث عن « رثام » فقال : « أما رثام ، فإنه بيت كان متنسك ، تنسك عنده ويحج إليه . وهو في رأس جبل أقوى من بلد همدان » ، ونسبه الى (رثام بن نهان بن تبع بن زيد بن عمرو بن همدان)^٢ . وقد ذكره (ابن اسحاق) و (ابن الكلبي) و (السهيلي) و (ياقوت الحموي) وغيرهم أيضاً^٣ وفي كل الذي ذكروه دلالة على أن ما روه لم يكن عن مصدر مدون ، وإنما هو روي عن أفواه الرجال . وأن تلك الأفواه قد نسيت كثيراً من الأصل ، فحاولت سدّ الثغر بالقصص المذكور .

بل نأخذ ما ذكره رجال هم أقدم من (ابن الكلبي) ومن (الهمداني) في الزمان ، وألصق منهما عهداً بالجاهلية مثل (ابن عباس) و (عبيد بن شريّة) وغيرهما ، ثرّ أن ما ذكره عنها لا يدل على أنها أخذت أخبارهما من مورد مكتوب ومن كتب كانت موجودة ، ولا أعتقد أن (معاوية بن أبي سفيان) ، وهو نفسه ، من أدرك الجاهلية ، كانت به حاجة الى (عبيد) وأمثال (عبيد) من قوّل الأساطير ، وإلى الاستماع إلى أخبارهم ، لو كان عنده شيء مدون عن أمر الجاهلية ، ثم إنه لو كانت عند (ابن عباس) و (عبيد) وطلاب الشعر الجاهلي والأخبار مدونات ، لما لجأوا الى الذاكرة والى الرواة والأعراب يلتمسون منهم الأخبار والأشعار وأمور القبائل !

إنّ جهل أهل الأخبار بأصنام أهل اليمن القديمة التي ترد أسماؤها في كتابات المسند ، وذكرهم أسماء أصنام جديدة زعموا أنها كانت معبودة عند أهل اليمن لم يرد لها ذكر في كتابات المسند ، أشار (ابن الكلبي) وغيره إلى بعضها ، وأشاراتهم الى دخول اليهودية والنصرانية الى اليمن ، والى تهود (تبع) وهو في (يثرب) في طريقه الى اليمن ، وأخذ خبرين من أخبار يهود معه ، وأمره بتهديم معبد (رثام) ، بناء على إشارة الخبرين ، ثم ظهور جمل وألفاظ في كتابات المسند تدل على التوحيد وعلى وقوع تغير وتطور في ديانات أهل اليمن ، مثل عبادة (الرحمن) وعبادة (ذو سموي) ، أي (ذو السماء) أو (صاحب

Detlef Nielsen, Der Sab. Gott Himukrah, S., 2, D.H. Mueller, Burgen und Schloesser, Bd., 2 S., 972.

٢ الاكليل (٦٦/٨) ، (٨٢/٨) ، (طبعة الكرمل) .
٣ الاصنام (١٢) ، الاكليل (٨٢/٨) فما بعدها (طبعة الكرمل) .
٤ الاصنام (١٢) فما بعدها ، البلدان (٣٤٥/٤) .

السماء^١ : إن كل هذه الأمور وأمثالها ، هي دلائل على حدوث تغير وتطور في عقليات أهل اليمن ، أثرت في معتقداتهم فجعلتهم ينسبون آلهتهم القديمة ، بل يتنكرون لها ، ويتعدون بذلك عن ثقافتهم الوثنية القديمة ، ومثل هذا التطور والتغير لا بد أن يؤدي طبعاً الى نسيان الماضي والى الالتفات عنه بالتطور الجديد . وقد وقع هذا قبل الإسلام بزمان .

كان لدخول اليهودية والنصرانية في اليمن وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، دخل من غير شك في إعراض القوم عن ديانتهم الوثنية وعن ثقافتهم وآدابهم . أما اليهود فقد سعوا بعد دخولهم في اليمن لتهويد ملوك اليمن وأقبالها ونشر اليهودية فيها للهيمنة على هذه الأرضين ، وأخذوا ينشرون قواعد دينهم وأمور شريعتهم بينهم ، ويذيعون قصص التوراة ، وأعاجيب سليمان وحنان سليمان ، وتمكنوا من اقناع بعض حكام اليمن بالتهود ، على نحو ما سنراه فيما بعد .

ووجدت النصرانية سبيلها الى اليمن كذلك من البحر والبر ، وسعت كاليهودية لتثبيت أقدامها هناك وفي سائر أنحاء جزيرة العرب ، ووجدت من سمع دعوتها هنا وهناك ، فتنتصرت قبائل ، وشايعتها بعض المقاطعات والمدن ، وتعرضت الوثنية للنقد من رجال الديانتين ، واقتبس من دخل في اليهودية الثقافة اليهودية ، ومن دخل في النصرانية الثقافة النصرانية ، وأعرض عن ثقافته القديمة ، وفي جملتها الخط المسند ، خط الوثنية والوثنيين ، وصار عدد قرائه يتضاءل بمرور الأيام . ومن يدري ؟ فلعل رجال الدين الجدد ، صاروا يعلمون الناس الكتابة بقلمهم الذي كانوا يكتبون به ، وهو قلم أسهل في الكتابة من المسند ، وخاصة على الورق والجلود والقراطيس . وقد يكون هذا سبباً من جملة أسباب تضائل عدد الكتابات المدونة في المسند ، في حقبة سأتحدث عنها فيما بعد .

وآية ذلك عثور المنقبين والسياح في مواضع من نجد وفي العروض ، وهي مواضع بعيدة عن اليمن ، على كتابات سبئية يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد وتأريخ بعضها الى ما بعده^٢ ، ثم اختفاء آثار كتابات المسند من هذه

١ راجع النصوص :

"Zur Geschichte des Judentums im Jemen", in Alt-Orientalische Forschungen, I, 336.

"A Monotheistic Himjarite Inscription", by F.V. Winnet, Glasser 399, Winckler, Asmare, I, Ryk 203, Le Muséon, LII, P., 51ff. BOASOR 83 (1941), P., 22, CIH537, 538, 539, 543, 645, Res 4109, Bose 13, RES 4069, Stambul, 7608 Res 3904

The Qariya Ruin Field, Geographical Journal, June, 1949.

Sanger, The Arabian Peninsula, P., 139, Philby, Two notes from Central Arabia,

٢

المواضع في العهود المتأخرة من الجاهلية القريبة من الإسلام ، مما يبعث على الظن أن أهل الجزيرة كانوا قد استبدلوا بذلك القلم قبيل الإسلام قلماً جديداً مشتقاً من الأقلام الإرمية الشمالية ، وذلك بانتشاره بينهم على أيدي المبشرين وبالاتجار مع عرب العراق ، ولا سيما سكان الحيرة والأنبار ، وهو القلم الذي كان يكتب به أهل مكة وأهل يثرب عند ظهور الإسلام . وبذلك شارك هذا القلم الجديد في موت القلم المسند واختفائه من هذه المواضع ، وبموته انقطعت صلات القوم بالثقافة العربية الجنوبية ، ثقافة القلم المسند .

ولا أستبعد أن يكون من بين رجال الدين من الديانتين أناس كانوا على قدر العلم والفهم بأمور التوراة والإنجيل وبالقصص الإسرائيلية والنصراني وعلى شيء من الامام بالتأريخ . فقد كان من بينهم أناس هم من أصل رومي أو سرياني أو عبراني ، فليس من المستبعد أن يكون لهم حظ من العلم بالأمور المذكورة أخذوه من كتبهم المكتوبة بلغاتهم ومن دراساتهم لأمور الدين . ومثل هؤلاء لا بد أن يستشهدوا في مواضعهم في (مدرائهم) أو (كنائسهم) في الأماكن التي نزلوا بها من جزيرة العرب ، بشيء من قصص التوراة والكتب اليهودية والأنجيل . ودليل ذلك أن معظم القصص الواردة عن الرسل والأنبياء وعن انتشار اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب ، مصدره أناس من أهل الكتاب ، هم من أهل يثرب ، أي من يهود المدينة ، ومن أهل اليمن ، وهو قصص على دلالة على جهل فاضح بأمور اليهودية أو النصرانية ، يدل عموماً على أنه أخذ من أصل يرجع الى أهل الكتاب ، وقد غُطّي بقصص وأساطير ساذجة . وهو على بساطته وسذاجته يصلح إن صحت نسبته الى من نسب اليهم ، أن يكون موضوعاً لدراسة مهمة ، هي دراسة مقدار علم يهود جزيرة العرب ونصاراها في الجاهلية بأمور دينهم ومقدار جهلهم بأحكام اليهودية أو النصرانية في تلك الأرضين .

ونحن لا نجد في بقية جزيرة العرب تدويناً للتأريخ ، لعدم وجود حكومات منظمة كبيرة فيها ، ولسيادة النظام القبلي في أكثر أنحائها ، وإنما نجد فيها رواة يروون أخبار قبيلتهم وأمورها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى ، وحوادثها وأيامها ، ورواة تخصصوا برواية الأنساب ، لما للنسب من أهمية في المجتمع القبلي ، ونجد جماعات تحفظ الشعر وما شاكل ذلك من أمور تخص القبيلة والنظام القبلي ، وكل ذلك رواية ، أي مشافهة ، لا كتابة . ومثل هذا النوع من التأريخ الشفوي

معرض كما قلت سابقاً لآفات عديدة ، أهمها تحكم العواطف القبلية على الرواة وتعرض الخبر للنسيان كلما تقدم العهد به في الذاكرة ، وكلما ابتعد به الزمن ، اذ تقل حماسة الناس له ، ويضعف تأثيره في العواطف ، وتفتقر عندئذ همم الرواة عن حفظه وبذلك يتعرض للموت والاندثار ، ومن هنا اندثرت وضاعت أخبار الجاهلية البعيدة عن الإسلام . أما الجاهلية القريبة من الإسلام ، فقد بقي منها ما يشبه ذكريات الطفولة ، خلا الأمور التي عاصرت ظهوره ، فقد أدركها الصحابة ، فكان في إمكانهم تذكرها وروايتها ، وانتقلت منهم الى من جاء بعدهم حتى وصلت الى المدونين .

ما ذكرته هو أهم أسباب إهمال التأريخ الجاهلي ، فجاء ذلك التأريخ لذلك ناقصاً فجاً على نحو ما نقرأه في المؤلفات العربية القديمة . أما تدوينه مجدداً ، وإعادة كتابته وتنظيمه وتنسيقه وسد الفجوات الواسعة فيه ، فقد تم على هذا النحو :

تدوين التأريخ الجاهلي :

للمستشرقين مجهود يقدر في تدوين التأريخ الجاهلي وفي كتابته بأسلوب حديث ، يعتمد على المقابلات والمطابقات ونقد الروايات والاستفادة من الموارد العربية والأعجمية . وقد أفادوا مما جاء عن العرب في التوراة وفي التلمود وفي الكتب اليهودية ، كما أفادوا مما جاء عن جزيرة العرب وسكانها في الكتابات الآشورية والبابلية ومن الموارد (الكلاسيكية) والمؤلفات النصرانية سريانية ويونانية ولاتينية ، فأضافوا كل ما تمكنوا الحصول عليه في هذا الباب الى ما ورد في الموارد الإسلامية عن الجاهليين ، فصحّحوا وقوّموا ، وسدّوا بهذه المواد بعض الثلم في التأريخ الجاهلي .

وعملهم في بعث الكتابات الجاهلية ونشرها ، مشكور مقدر ، فقد أعادوا الى الخط الذي كتبت به الحياة ، وجعلوه مقروءاً معروفاً ، وترجموا كثيراً من هذه النصوص الى لغاتهم ، وهي وثائق من الدرجة الأولى ، وعملوا على نشر النصوص بالمسند وبالحروف اللاتينية أو العبرانية أو العربية في بعض الأحيان ، وعلى استخلاص ما جاء فيها من أمور متنوعة عن التأريخ العربي قبل الإسلام .

وقد أمكننا بفضل هذا المجهود المضني الحصول على أخبار دول وأقوام عربية لم يرد لها ذكر في الموارد الإسلامية، لأن أخبار تلك الدول وأولئك الأقوام كانت قد انقطعت وطمست قبل الإسلام ، فلم تبلغ أهل الأخبار .

وقد ساعدتهم في شرح الكتابات الجاهلية وتفسيرها علمهم بلغات عديدة ، مثل اللغة العبرانية والسريانية والبابلية ، فإن في هذه اللغات ألفاظاً ترد في تلك الكتابات بحكم تقاربها واشتراكها في هذه الثقافة المتقاربة التي نسميها (الرابطة السامية) ، كما أن فيها أفكاراً وآراء ترد عند المتكلمين بهذه اللغات ، ولهذا صار في الامكان فهم ما ورد في الكتابات الجاهلية بالاستعانة بتلك الأفكار والآراء .

وقد كان للسياح الذين جابوا مواضع متعددة من جزيرة العرب ، ولا سيما المنطقة الغربية والجنوبية منها ، فضل كبير في بعث الحياة في الكتابات الجاهلية . فقد أخذ أولئك السياح بعض كتابات ، كما أخذوا صور بعض آخر ، وبفضل تعاونهم مع العلماء البحريين باللغات الشرقية أمكن حل رموزها وبعث الحياة فيها بعد موت طويل .

وقد كانت أسفار أولئك السياح مغامرات ومجازفات، إذ تعرضت حياة أكثرهم للخطر ، بسبب عدم استقرار الأمن اذ ذاك ، وبسبب سوء الأوضاع الصحية ، ولعدم وجود أماكن مريحة ، تناسب حياتهم التي تعودوها ، إلا أنهم لم يبالوا ذلك ولم يحفلوا به ، وتحايلا بمختلف الحيل للتغلب على تلك الصعوبات ولكسب ودّ رؤساء القبائل والحكام لتسهيل مهمتهم . وقد قضى نفر منهم نحبهم في أسفاره هذه . وقد كانت أكثر أسفار هؤلاء الرواد أسفاراً فردية قام بها أفراد من العلماء ومن الضباط والمغامرين . والأسفار الفردية، مهما كانت ، لا تأتي بالنتائج التي تنجم عن دراسات البعثات المتخصصة بمختلف الشؤون ، لذلك نتطلع الى اليوم الذي تتمكن فيه البعثات العلمية الكبيرة من اختراق آفاق بلاد العرب، وتقديم نتائج بحوثها الى العلماء لتدوين تأريخ مرتب لجزيرة العرب قبل الإسلام ، ولا سيما الى البعثات العلمية العصرية التي تتألف من متخصصين من الناطقين بلغة هذه البلاد ، لأن هؤلاء أقدر من غيرهم على فهم اللهجات القديمة ومحتوياتها وروح ذلك التأريخ .

ونستطيع أن نعدّ السائح الدانماركي (كارستن نيبور) Carsten Niebuhr الذي

قام في سنة ١٧٦١ للميلاد برحلة الى جزيرة العرب ، أول رائد من رواد الغرب
ظهر في القرون الحديثة ، وصف بلاد العرب ، ولفت أنظار العلماء الى المسند
والرقم العربية^١ . وقد أثارت رحلته هذه همم العلماء والسياح ، فرحل من بعده
عدد منهم لا يتسع المقام لذكرهم جميعاً رحلات إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب
عادت على التأريخ العربي بفوائد جزيلة .

فزار الدكتور (سيتزن) Dr. Seetzen جنوبي بلاد العرب ، وتمكن من
نقش صور نصوص عربية جنوبية أرسلها الى أوروبا عام ١٨١٠ م وهذه النصوص
على قصرها وغلظها ، أفادت في تدوين تأريخ العرب قبل الإسلام افادة غير
مباشرة ، لأنها لفتت أنظار المستشرقين اليها والى دراسة التأريخ العربي القديم ،
حتى آل الأمر الى حل رموز تلك الكتابة ومعرفة حروفها^٢ .

وتمكن الرحالة السويسري (ليدويك بركهارد) Johann Ludwig Burckhard
من القيام برحلة الى الحجاز ، فتزياً بزي مسلم اسمه (ابراهيم بن عبدالله) يريد
الحج وزيارة مسجد الرسول وقبره . وقد صحب الحجاج في حجهم ، ووصف
موسم الحج وصفاً دقيقاً ، وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية . وقد زار آثار
الأنباط وعاصمتهم (البتراء)^٣ .

Carsten Niebur, Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Laendern, ١
Kopenhagen, 1772-1837, in 2 Bande.

وهناك طبعة فرنسية وترجمة انكليزية ،

Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenhagen, 1773, Voyage en Arabie,
Amsterdam, 1774-80, R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell University
Press, 1954, P., 241.

Pfannmueller, S., 85, Seetzen, Travels in Yemen, 1810, Hommel, Explorations in ٢
Arabia, in Hilprecht, Explorations in Bible Land, P., 702, Seetzen, Fundgruben
des Orients, Vienna, 1811,

نشر مذكرات (Seetzen) التي أرسلها الى أوروبا المستشرقون (Fleischer)
و (Kruse) و (Heinrich Mueller) في أربع مجلدات :

Reisen durch Syrien, Palaestina, Phoenizien, die Transjordan-Länder, Arabia
Petraea und Unter-Aegypten.

Johann Ludwig Burckhardt, Travels in Arabia, London, 1829, Deutsch, Weimar, ٣
1830, Burckhardt, Travels in Syria and Holy Land, London, 1822, Notes on the
Bedouins and Wahabys, 2Vols., London, 1830, in German, Weimar, 1831, S. M.
Zwemer, Arabia the Cradle of Islam, London, Explorations, P., 703.

وتتمكن ضابط انكليزي يدعى James R. Wellsted من زيارة الأنحاء الجنوبية من جزيرة العرب ، ومن الظفر بصور نصوص عربية قديمة قصيرة، ومن استنساخ كتابة حصن (غراب) التي يرجع تأريخها الى سنة (٦٤٠) من تأريخ أهل اليمن ، وتوافق سنة ٥٢٥ للميلاد . وبفضل هذا الضابط عرف المستشرقون هذا النص^١ .

وأضاف الرحالة (هوتن) T.G. Hutton عدداً آخر من الكتابات الجاهلية سنة ١٨٣٥ الى ما كان قد عرف سابقاً . وجاء (كروتندن) Cruthenden سنة ١٨٣٨ م بنقوش أخرى جديدة . وكذلك (الدكتور مكل) Dr. Mackell الذي عاد بخمسة نصوص سبئية ، فتوسعت بذلك دوائر البحث قليلاً ، وتمكن العلماء بفضل هذه النقوش من حل رموز المسند^٢ .

وقد قام الصيدلي الفرنسي (توماس يوسف أرنو) (Thomas Joseph Arnaud) برحلة الى اليمن ، كانت موفقة جداً ، اذ تمكن بفضل علمه بالعقابر ، من اكتساب صداقة المشايخ والزعماء . وهذه الصداقة استطاع أن يتجول في بعض أنحاء اليمن ومدنها ، ولم يكن ذلك أمراً ميسوراً للغرباء ، فزار الجوف ووقف على خرائب (مأرب) ، ومكث في مدينة (صنعاء) أمداً ، وزار (صرواح) المدينة الأثرية القديمة ، واستنسخ ستة وخمسين نصاً كتابياً قديماً^٣ .

وكتب التوفيق لسائح أوروبي آخر ، هو الضابط الانكليزي (Coghlan) ، فحصل في سنة ١٨٦٠ م على عشرين لوحاً برنزياً سليماً عثر عليها في أنقاض مدينة (عمران)^٤ . وقد أرشدت هذه الألواح المعدنية المستشرقين الى ناحية مهمة

١ Otto Weber, Arabien vor dem Islam, S., 10, Wellsted, Travels in Arabia, London, 1838, in 2 Vols., Narrative of a Journey to the Ruins of Nakeb el Hajar, in Journal Royal Geogr. Soc., VII, 20, in German, Halle, 1842, by Rodiger, Saenger, The Arabian Peninsula, p., 221, 241.

٢ Cruttenden C. J. Journy. of an Excursion to San'a the Capital of Yemen, Bombay, 1838, Journal of the Royal Geographical Society of London, Vol., III, 276-289, and in the Proceedings of the Bombay Geographical Society, 1838, PP., 39-55.

٣ Otto Weber, S., 10, Pfannmüller, S., 85, Hommel, Explorations, P., 704 Arnaud Relation d'un Voyage a Mareb, in Journal Asiatique, 1845, 211, 309, 1874, 3.

٤ (عمران) ، الاكليل (١٣/٨) ، ١٠٦ ، ١١٠ .

من نواحي الفن العربي القديم^١ .

وتوصل العلماء ، بعد جهود ، الى حل رموز هذه الكتابة العربية ، فعرفوا منها - وكان أغلبها قصيراً - انها تبحث في موضوعات متشابهة ، وانها مؤلفة من حروف أطلقوا عليها اسم (الكتابة الحميرية) أو (الحروف الحميرية) . وكان الرأي السائد بادىء بدء انها كذلك ، حتى تبين لهم ان هذه النصوص والنصوص التي جيء بها أخيراً لم تكن جميعها نصوصاً حميرية ، بل كان بعضها من النصوص الميعينية ، وبعضها كتابات سبئية ترجع الى عهد دولة سبأ ، وبعضها بلهجات أخرى ، تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف . وهذه الكتابة ، هي الكتابة المسماة بـ (خط المسند) وبـ (القلم المسند) وبـ (المسند) في الموارد العربية .

عالج بعض العلماء ، ممن أولعوا بدراسة النقوش ، تلك النصوص ، وأعملوا رأيهم فيها حتى تمكن بعضهم من التوصل الى حل رموز بعضها ، مثل العالم (ولیم كسنیوس) (Wilhelm Gisenius) والعالم (رودكر) (E. Rodiger) والعالم (هاينرش ايوالد) (Heinrich Ewald) والعالم (فريسnel) (F. Fresnel) الذي نشر النصوص التي جاء بها ، وعددها ستة وخمسون نصاً بحروف عربية وحميرية ، في الجريدة الآسيوية (Journal Asiatique) سنة ١٨٤٥ م ، إلا أن نشره لم يكن متقناً اتقاناً تاماً . وجاء القسيس (أرنست أوسيندر) (Ernest Osiander) فآتم ما كان قد بدىء به^٢ . ولم يتمكن العلماء الذين عالجوا مشكلة الكتابة العربية الجنوبية من معرفة الحروف كلها ، ولذلك لم يستطيعوا قراءة أكثر النصوص التي جيء بها الى أوروبا وفهم معناها ، كما ان النصوص المقروءة لم تكن مضبوطة ضبطاً تاماً ، فاستطاع هذا العالم بمجوده العظيمة قراءة كل النصوص التي جاء بها السياح والعلماء ، وتعيين أشكال الحروف ، ووضع أسس متينة لدراسة عرفت بعد ذلك باسم (الدراسة العربية الجنوبية) وقد استعان العلماء على فهم هذه الكتابات بالدراسات اللغوية السامية مثل العبرانية ، وباللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وباللهجات الألمانية ، وبالمعلومات الجغرافية المدونة في الكتب

١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

٢ Pfannmueller, S., 85, Fulgence Fresnel, in Journal Asiatique, 111, Series, V, 521, 1838, Lettres Sur Hist. des Arabes Avant l'Islamisme, 1853, Fresnel, Recherches sur les Inscriptions Hlmariques de San'a, Kha'riba Marib in, Journal Asiatique, IV, Serie, Tom, 6, P., 169-1845.

العربية ، وبأسماء الملوك والأشخاص الذين وردت أسمائهم في المؤلفات العربية^١ . وترسم المستشرق (ليفي) (M. A. Levy) أثر (أوسيندر) ، وتتبع أسلوبه في البحث، وحاول استخراج مادة تاريخية من هذه النصوص التي ترجمت وعرفت. وقد تمكن من نشر ما تركه (أسيندر) من نصوص عاجلته المنية قبل أن يوفق لاختراجها الى الناس ، فتمكن (ليفي) من تنسيقها وتهذيبها ، وطبعها وعرضها على العلماء^٢ .

وفاق (يوسف هاليفي) (Joseph Halévy) ، وهو يهودي فرنسي ، كل من تقدمه بكثرة ما جاء به الى أوروبا من نقوش ، وبسعة علمه في تاريخ اليمن ، وبدراسة الكتابات العربية الجنوبية . دخل هذا الفرنسي اليمن في هيئة يهودي متسول من أهل القدس ، ليتجنب بذلك ما يتعرض له الغرباء وأهل البلاد المسلمون على السواء من أخطار رجال القبائل وقطاع الطرق الذين لا يمتسون أهل الذمة بسوء .

وقد استطاع ، بهذه الطريقة ، التطواف في أرجاء اليمن ، حتى بلغ أعاليها مثل (نجران) ، وأعالي الجوف وهي المنطقة التي كان فيها (المعينيون) . ووصل في تطوافه الى حدود (مأرب) عاصمة سبأ والى (صرواح) ، وهو بهذا أول أوروبي زار (نجران)^٣ . ولما عاد الى أوروبا ، أحضر معه (٦٨٦) نقشاً جمعها من مواضع مختلفة من اليمن .

وفي سنة ١٨٧٢ - ١٨٧٤ م نشر هذا العالم في الجريدة الآسيوية (Journal Asiatique) ما كتبه في وصف رحلته الى بلاد اليمن ، وقد ضمن كتاباته وصفاً للأماكن التي حل بها والطرق التي اجتازها ، وترجمة لـ (٦٨٦) نصاً ، وهي النصوص التي كان قد جاء بها أو استنسخها من أصولها ، ونشر بحثاً علمياً وانتقاداً قيماً للأبحاث اللغوية والتراجم والنصوص التي سبق أن نشرها العلماء من قبله^٤ .

١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

٢ Pfannmueller, S., 85.

٣ Halévy, in, Bulletin de la Société de Géographie, 1873, et 1877, Rapport sur une Mission Archéologique dans le Yemen, in Journal Asiatique, Series O, Vol., XIX, Joseph Halévy, in Journal Asiatique, 1874, Pfannmueller, S., 86, Explorations, P., 709.

٤ Pfannmueller, S., 85.

وكان ممن ذهب الى اليمن شاب نمساوي اسمه (سيكفريد لانكر) (Siegfried Langer) ، وقد استطاع تصوير بعض النقوش واستساخ قسم من الكتابات في عام ١٨٨٢ م . غير أن القدر عاجله اذ قتل هناك ، ففقد البحث في تاريخ اليمن بوفاته عضواً نشيطاً . غير أن نمساوياً آخر عوّض عن خسارة ذلك الشاب ، وهو العالم (ادورد كلاسر) (Eduard Glaser) . وقد قام بأربع رحلات الى اليمن ، ورجع بعدد كبير من النصوص والنقوش وبمادة غزيرة من المعلومات^١ .

بدأ الرحلة الأولى (في اكتوبر من سنة ١٨٨٢ م) ، وختمها في شهر آذار (مارس) من سنة ١٨٨٤ م ، وكانت الحالة السياسية في ذلك الزمن مضطربة ، والأوضاع غير مساعدة ، والفوضى عامة في بلاد اليمن ، ولم يكن للحكومة على القبائل من سلطان . ومع ذلك تمكن من الحصول على (٢٥٠) نقشاً رجع بها الى أوروبا . أما الرحلة الثانية ، فكانت في نيسان سنة ١٨٨٥ م ودامت حتى فبراير سنة ١٨٨٦ ، وقد زار في أثنائها المناطق الجنوبية الشرقية والمنطقة الجنوبية الممتدة من جنوب (صنعاء) حتى مدينة (عدن) . وقد تمكن من جمع معلومات مهمة عن طبغرافية البلاد وأماكنها الأثرية ، وعاد بنصوص معينة مهمة دخلت في ممتلكات المتحف البريطاني^٢ .

وقام بالرحلة الثالثة في سنة ١٨٨٧ م ، ومكث في اليمن الى سنة ١٨٨٨ م ، وكانت رحلته هذه موفقة جداً ، اذ حصل على آثار ونقوش كتابية كانت على جانب عظيم من الأهمية ، منها أربعمئة نص أخذها من مدينة (مأرب) عاصمة (سبأ) ، ومن هذه النصوص نصان عن تصدع سدّ مأرب يرجع عهدهما الى زمن قريب من ميلاد الرسول ، ونصوص أخرى من مدينة (صرواح) يرجع عهدهما الى العصر السبئي ، وهي ذات أهمية كبيرة في تدوين تاريخ بلاد العرب الجنوبية^٣ .

وكانت رحلته الرابعة ، وهي الأخيرة ، في سنة ١٨٩٢ م ، وكانت موفقة

O'leary, P., 221, Explorations, P., 722, Pfannmueller, P., 83, Weber S. 11 ١

Weber, S., 11. ٢

Explorations, P., 721, Mittheilungen der Vorder-Asiatischen Gesellschaft, Berlin, ٣
Beilage der Allgemeinen Zeitung, 1888, Nos, 293, f., Eduard Glaser, Reise nach Ma'rib.

جداً كذلك . اتبع فيها أسلوباً جديداً في الحصول على صور النصوص ، اذ استعان بالأعراب الذين فرقهم في مختلف الجهات التي لم يسبقه أحد من الأوروبيين الى زيارتها، بعد أن علمهم مختلف الطرق في الحصول على تلك النصوص بطريق الورق الذي يتأثر بالضوء وبطريقة القوالب الجبسية وبطرق أخرى . وقد تمكن بهذا الأسلوب الجديد من الظفر بصور مضبوطة بعض الضبط للكتابات القديمة التي لم يكن بوسعها الذهاب الى أماكنها واستنساخها بنفسه، وبها أيضاً تمكن من تصحيح أغلاط الصور التي أخذها (هاليفي) عن النقوش الأصلية ، ومن الحصول على زهاء مئة نص قتباني أخذها من منطقة خرائب (مأرب) . وفي متحف (فينا) قسم من الأحجار المكتوبة التي كان هذا العالم قد جلبها معه في المرة الأخيرة إلى أوروبا^١ .

وقد زار المستشرق (جورج أغسطس والين George Augustus Wallin) سنة ١٨٤٥ م نجداً ودون رحلته إليها^٢ . وزار الحجاز المستشرق الهولندي الشهير (سنوك هرغونيه Snouk Hurgtionje) ، فكتب في أحوال مكة ووصف الحياة في الحجاز وموسم الحج . وكان قد ذهب إليه سنة ١٨٨٥ - ١٨٨٦ م وهو من العلماء المدققين^٣ .

وقد زار الحجاز (السير ريشارد برتن Sir Richard Burton) متنبكراً بزي مسلم سمى نفسه (عبدالله) زار الحرمين وكتب وصف رحلته هذه^٤ .

وتوغلت (حنة بلنت Anne Blunt) سنة ١٨٧٩ م في شمال بلاد العرب حتى بلغت أرض نجد ، وكانت مولعة بدراسة أحوال الحيول العربية^٥ . واخترق الرحالة الانكليزي (تشارلس دوتي Charlis M. Doughty) الصحاري العربية وشمال بلاد العرب ، ووضع كتاباً مهماً وصف فيه أسفاره في بلاد العرب

١ Weber, S., 12, Pfannmueller, S., 86.

٢ Ency. Brita., Vol., 2, P., 171, Explorations, P., 705.,

٣ Ency. Brita., Vol., 2, P., 170, Mekka, den Haag, 1888, Explorations, P. 720.

٤ Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medina and Meccah, London, 1857, in two Vols.

٥ Lady Anne Blunt, A Pilgrimage to Najd, 2 Vols, London, 1883, The Bedouins of the Euphrates, London, 1879.

الصحراوية^١ . وقد اهتم خاصة بدراسة النواحي (الجيولوجية) والجغرافية للبلاد العربية ، ودون ملاحظاته عن الظواهر الجوية وتغيرات الجو ولم يغفل عن دراسة طبائع البدو وحياتهم الاجتماعية وطرق تفكيرهم وعقائدهم . وقد طبع كتابه ، في سنة ١٨٨٨ ، وترجم الى بعض اللغات الأوروبية لأهميته^٢ .

ويعد هذا الرحالة من المتعصبين على الإسلام ، وقد يكون لهذا التعصب سبب ، فقد لاقى من الأعراب وأهل المدن شيئاً كثيراً أثر في نفسه ، فصار يتعامل على المسلمين ويقسو في حكمه على الرسول، إلا أنه لم يتمكن مع ذلك من الغض من قيمة المبادئ الأخلاقية التي يتحلى بها . وما لاحظته على البدو ، عدم اهتمامهم بعبادتهم كالصلوات الخمس والصوم ، كما لاحظ من جهة أخرى ان الخوف من وجود إله يكاد يكون أعمق أثراً في نفوس هؤلاء من الحضر . ولاحظ أيضاً أن جذور الوثنية القديمة لا تزال راسخة حتى الآن في نفوس الأعراب وأكثر سكان القرى والمدن ، وقد أظهر هذا الرحالة ميلاً عظيماً لدراسة حياة البدو وطرق معيشتهم ، وهو يتشوق الى الصحراء ويحن إليها حين البدو ، ويتجلى ذلك العطف في رحلته التي تعد من روائع الأدب الانكليزي^٣ .

ورحل (ثيودور بنت) (Theodore Bent) وزوجته الى البحرين وجنوب الجزيرة العربية فزارا الأماكن الأثرية ، وتحدثا عن بعض الخرائب الجاهلية والكتابات . وكانت زيارتهما للبحرين سنة ١٨٨٩ م . أما زيارتهما لمسقط وعمان وحضرموت ، فكانت في هذه السنة ثم في سنين بعدها^٤ .

وتزيا الرحالة الألماني (هاينرش فون مالتزن) (Heinrich von Maltzen) بزي حاج مغربي، وكان قد زار المغرب وتعلم لهجة سكانه ، وذهب إلى الحجاز وتظاهر هناك بأنه منهم ، وبعد عودته من الحج وضع رحلته^٥ .

١ Travels in Arabia Deserta, Cambridge, 1888, in 2 Vols.

٢ Charils M. Doughty, Die Offenbarung Arabiens, Paul List Verlag, Leipzig, 1937.

٣ Passage from Arabia Deserta, Selected by, Edward Garnett, London, 1949, Pfannmueller, S., 54.

٤ Th. Bent and Mrs Bent, Southern Arabia Sudan and Socotra, London, 1900.

٥ von Maltzen, Meine Wallfahrt nach Mekka, Leipzig, 1865, Bd., 1, 2," bearbeitet

von F. Gansberg, Braunschweig, 1919, Reise in Arabien, Braunschweig, 1873, Bd., 1, 2, Arabica, Parts 4 und 5, Leiden, 1896-1898.

ومن الجوّابين العلماء (يوليوس أويتنك Julius Euting) ، وقد اهتم خاصة بدراسة أحوال البدو ، وكتب في الوهابيين والحركة الوهابية^١ .

ومنهم الرحالة الجيوكوسلوفاكّي الأصل (ألويس موسل) (Alois Musil) ، زار (العربية الحجرية) وكتب عدة كتب في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الأوسط وتدمر ونجد ، ووضع في نهاية كل كتاب من كتبه فصلاً علمية قيّمة فيها تحقيق تأريخي جليل^٢ . وثمة جوابون آخرون لا بد من ذكرهم مثل (جوسن) (Antonine Jaussen)^٣ و (برونوف) (R. E. Brünnow)^٤ و (شارلس هوبر) (Charles Huber)^٥ و (وبرترام توماس) الشاب الانكليزي المستشرق الذي استطاع في شباط سنة ١٩٢٩ م أن يخترق لأول مرة (الربع الخالي) فكشف بذلك بقعة من أكبر البقاع المجهولة في بلاد العرب^٦ . ويضارعه في مخاطراته هذه (فليبي) الذي أسلم فأطلق على نفسه (الحاج عبدالله فليبي) . وقد ألّف هذا الانكليزي المستعرب عدة كتب بالانكليزية وصف فيها أسفاره في بلاد العرب ، وقد تهيأ له من الفرص ما لم ينتهياً لأوروبي آخر ، اذ كان من الملازمين للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود والمقربين اليه . وقد مكث الرحالة الألماني (راتجن) (C. Rathjens) بضع سنين في اليمن وكتب عنها ، وجلب معه عدة كتابات يمانية قديمة الى ألمانيا وضعت في (متحف الشعوب) في مدينة (هامبرغ)^٧ .

Julius Euting, Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien, Leiden, 1896-1914, Bd., I. ١

The Northern Hegas, New York, 1926, Arabia Deserta, New York, 1927, ٢
Palmyrena, New York, 1928, Northern Negd, New York, 1928, The Middle
Euphrates, New York, 1927, In the Arabian Desert, New York, 1930.

Antonine Jausen, Countems des Arabes au Pays de Moab, Paris, 1908, Pfannmueller, ٣
S., 29, Hitti, P. 7.

R.E. Bruennow und A.V. D omaszewski, Die Provincia Arabla, Strassburg,
1904-1909, 3 Baende.

Charles Huber, Voyage dans l'Arable Centrale, Paris, 1885, Journal d'un Voyage ٤
en Arable, (1883-1884, Paris, 1891.

Arabia Felix, Across The Empty Quarter of Arabia, New York, 1932. ٥

The Empty Quarter, 1988, The Background of Islam, 1947, ٦
وكتب كتباً أخرى

C. Rathjens und H. von Wissmann, Suedarabien-Reise, 3 Bd., Hamburg, 1934, ٧
Rathjens und von Wissmann, "Sanaa, Eine Stuedarabische Stadtlandschaft" in,
Zeltschrift der Gesellsch. f. Erdk. zu Berlin, Nos., 9-10, S., 329. ff.

وقامت بعثة أمريكية عرفت بـ (المؤسسة الأمريكية لدراسة الانسان)
(The American Foundation for the Study of Man) برئاسة (وندل فيليبس)
(Wendell Phillips) ، وضمت بعض العلماء الواقفين على تأريخ اليمن القديم مثل
(البرايت) (Dr. W. F. Albright) أستاذ الآثار في جامعة (جون هوبكنس)
بالولايات المتحدة ، وآخرين في مختلف الموضوعات وذلك ما بين سنتي ١٩٥٠ -
١٩٥٢ م بأعمال الحفر في منطقة (عدن) واليمن . وبالرغم من النهاية المحزنة
التي انتهت أعمال البعثة إليها ، فقد تمكنت من الحصول على نتائج حسنة جديدة
لم تكن معروفة عن تأريخ مملكة قتيبان وسبأ ، وعادت ببعض الآثار^١ .

وكانت في جملة ما درسته هذه البعثة نظم الري في مملكة (قتيبان) . ودراسة
موضع (هجر بن حميد) ، حيث عثرت على فخار ومواد أخرى يعود عهدها ،
كما يرى خبراء البعثة الى ألفي سنة . ودراسة أخرى لمدينة (تمنه) عاصمة (قتيبان)
ولعبدها الشهير ولبقايا مقبرتها ، وعثرت على كتابات جديدة ، وقدّرت سقوط
تلك العاصمة وخرابها بسنة (٢٥) قبل الميلاد^٢ .

وقامت هذه البعثة في سنة (١٩٥٢) و (١٩٥٣) للميلاد بأعمال الحفر في (ظفار)
بعمان . ثم عادت فنقبت في هذه المنطقة في ابتداء سنة (١٩٦٠) م ، حيث كشفت
عن بعض الخفایا من تأريخ هذه المنطقة التابعة لسلطنة عمان^٣ .

وقامت في سنة (١٩٦٢) م بعثة أمريكية من المستشرقين الأميركيين ، لا علاقة
لها بالبعثة المتقدمة بزيارة مواضع من المملكة العربية السعودية ، فزارت (سكاكة)
(سككه) والجوف وتيماء ومدائن صالح والعلا وتبوك ، وظفرت بسنماذج من
فخار قديم ، ونقلت صوراً لكتابات ثمودية ونبطية ، أهمها الكتابات التي وجدتها
في قمة (جبل غنيم) الذي يقع على مسافة ثمانية أميال من جنوب (تيماء) .

١ وقد ترجم كتاب (وندل فيليبس) ونشر بعنوان : (كنوز مدينة بلقيس) ترجمة
(عمر الديراوي) سنة ١٩٦١ ، وفي الكتاب ، ويا للأسف أغلاط كثيرة في تدوين
الإعلام ، زيد بن علي عنان : تأريخ اليمن القديم (وقد أولاني ثقته - حفظه
الله - حين أرسلني مشرفاً على أعمال الحفر بمارب الذي قامت به البعثة
الأميركية المشؤومة برئاسة وندل فيليبس ، ذلك اللص النصاب
الذي جنى على دعائم محرم بلقيس الخ) ، المقدمة ،

Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241.

Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241. f. ٢

BASOR., Num. 159, (1960), PP., 14. ٣

وهي ، كما تقول البعثة ، من أقدم الكتابات التي عثر عليها حتى الآن في العربية الشمالية . وكان (فلبلي) قد استنسخها بيده ، وتبين بعد مقارنة ما استنسخه فلبلي بالصور (الفوتوغرافية) التي أخذتها البعثة أن في نقل (فلبلي) أوهاماً عديدة . وفي جملة ما عثرت عليه البعثة صور نحتت على أحجار تمثل آلهة عربية قديمة^١ .

وهناك طائفة أخرى من المستشرقين خدمت التأريخ العربي قبل الإسلام بخدمة جليلة مهمة ، هي طائفة أساتذة الجامعات وأصحاب التتبع والبحوث ، استفادت من بحوث السياح ومن الموارد المذكورة التي تحدثت عنها عن مصادر التأريخ الجاهلي ، ثم غربلتها ونقذتها وألفت منها مادة جديدة لتأريخ الجاهلية . ومن هؤلاء المستشرق : (بركر) (Berger) مؤلف كتاب (جزيرة العرب قبل محمد في الآثار) (L'Arabie Avant Mahomet d'après les Inscriptions), Paris 1885 ، والمستشرق (كوسان دي برسفال) العلامة الفرنسي صاحب كتاب (تأريخ العرب قبل الإسلام) (Essai sur l'Histoire des Arabes Avant l'Islamisme)^٢ وهو من الكتب المفيدة . وقد جاء صاحبه بنتائج مهمة وبآراء صائبة في بعض الموضوعات ، غير أن الكتاب أصبح قديماً ، وفيه نواقص كثيرة ، وهو لا يتفق اليوم مع أساليب البحث الحديثة . وقد اعتمد مؤلفه على المصادر العربية ولا سيما كتاب (الأغاني) وعلى مصادر أخرى كانت معروفة في ذلك الوقت ، غير أنه لم يتمكن من الوصول الى مصادر كثيرة أخرى مهمة ، لأنها لم تكن في متناول يده في ذلك العهد .

وللمستشرق الإيطالي (كيتاني) (L. Caetani) بحث جيد في تأريخ العرب قبل الإسلام ، جعله مقدمة لتأريخ الإسلام^٣ . وهو على جهده في محاولة التعمق في فهم تأريخ الجاهلية والإسلام ، لا يخلو من هفوات ومن تغلب العاطفة عليه ، ولا سيما في القسم الخاص بتأريخ الإسلام .

ومن كتب في حياة العرب قبل الإسلام المستشرق (أوليري) (Delacy O'Leary) ،

١ BASOR., Num 168, 1962, P., 9.

٢ Paris, 1847-1848, Reprinted, 1902, in 3 Vols.

٣ Annali Dell'Islam, by Leone Caetani, Principe di Teano, Vol., I, Milano, 1905, Studi di Storia Orientale, Milano, 1911.

صاحب كتاب (البلاد العربية قبل محمد)^١ . وقد تحدث فيه عن صلات العرب بالمصريين فالآشوريين الى زمن ظهور الإسلام ، وهو لا يخلو أيضاً من هفوات . وقد صار قديماً . والمستشرق (تشارلس فورستر) (Charles Forster) ، وله كتاب مفيد (وان أصبح قديماً جداً) في تأريخ بلاد العرب القديمة وجغرافيتها ويستند في أكثر أبحاثه كأغلب معاصريه الى نظريات التوراة^٢ .

وقد كتب المستشرق الألماني (أوتو ويدر) (Otto Weber) رسالة صغيرة في حالة العرب قبل الإسلام^٣ .

وقد كتب المستشرقون الذين عنوا بالسيرة النبوية والتأريخ الإسلامي عامة فصولاً تمهيدية في حالة العرب قبل الإسلام ، تعرضوا فيها لمختلف النواحي التاريخية ، وهي مفيدة للاطلاع على أحوال الجاهلية .

وهناك من كتب في موضوع خاص من التأريخ الجاهلي كالمستشرق (رينه دوسو) ، فقد وضع كتاباً في (العرب في الشام قبل الإسلام)^٤ . والمستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) ، وله كتاب في (تأريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين)^٥ ، وكتاب آخر في (أمراء غسان)^٦ .

وللمستشرق (روتشتاين) (Rothstein) كتاب (تأريخ أسرة اللخمين في الحيرة)^٧ ، وهو من الكتب المهمة التي جمعت شيئاً كثيراً من أخبار هذه الأسرة . وقد استعان مؤلفه بالمصادر العربية والسريانية واليونانية ، ولا يخلو على كل حال من الضعف في بعض مواضعه .

ويضاف الى كل ذلك ما كتبه بعض المستشرقين في الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، وأهمها كتاب (بركن) (Bergmann) في أديان العرب في الجاهلية^٨ ، والفصل الذي كتبه المستشرق (أرنست أسيندر) (Ernst Osiander)

١ O'Leary, Arabia, before Muhammed, London, 1927.

٢ Charles Forster, The Historical Geography of Arabia, London, MDCCCXLIV, 2 Vols.

٣ Arabien vor dem Islam, 1904.

٤ Les Arabes avant l'Islam en Syrie.

٥ Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden, 1879.

٦ Die Ghassanidischen Fuersten aus dem Hause Gafna's, Berlin, 1887.

٧ Die Dynastie der Lachmiden in al-Hira, Berlin, 1899.

٨ De Religione Arabum anteislamica.

في ديانة العرب قبل الإسلام ، في مجلة الجمعية الآسيوية الألمانية^١ . وقد بحث هذا المستشرق في ديانة العرب قبل الإسلام بحثاً عميقاً ، وهو أول مستشرق درس هذا الموضوع بعد « بوكوك » (Pococke) الذي كان أقدم من درس الوثنية عند العرب دراسة تفصيلية مستقلة في كتابه المطبوع سنة ١٦٤٩ للميلاد^٢ . وقد تطرق (أسيندر) لعبادة النجوم عند العرب وعبادة الأصنام والأماكن المقدسة في جنوبي بلاد العرب وعبادة الأصنام في الحجاز ونجد ، وتوصل إلى أن العرب عبدوا النجوم في بادئ الأمر ، ثم تطورت الفكرة الدينية عندهم ، وبالرغم من ذلك ظلت عقدة عبادة النجوم راسخة في أدمغتهم .

وجاء المستشرق (لودولف كرييل) (Ludolf Krehl) ، فأحيا هذه الدراسة مرة ثانية بكتابه « بحث عن ديانة العرب قبل الإسلام »^٣ ، وطرق موضوعات لم يتمكن من سبقه من البحث فيها . وقد ذهب إلى أن العرب القدماء كانوا من الموحدن في الأصل . غير أنهم تركوا التوحيد بعدئذ ، وعبدوا إلى عبادة النجوم والأصنام فالأحجار والأشجار ، وبذلك انحطت الحالة الدينية عندهم ، وفي القرن السادس تأثروا بالديانة اليهودية والنصرانية في الأماكن التي حدث فيها اتصال بهاتين الديانتين .

وأهم ما ألفت في الوثنية عند العرب قبل الإسلام ، كتاب المستشرق الألماني (ولوزن) الذي سماه : (بقايا الوثنية العربية)^٤ . وقد بحث في نواح مختلفة من نواحي الحياة الدينية عند عرب الجاهلية وفي الأصنام ، فجمع ما لم يتمكن من جمعه في هذا الباب أحد من المستشرقين قبله ، واتبع أسلوب المقابلة والنقد في البحث .

هذا ولا بد من الإشارة إلى مجهود عدد من العلماء تخصصوا بالعربيات وعالجوا نواحي عديدة من دراسات الجاهلية ، ومنهم (فرتز هومل) (Fritz Hommel) صاحب المؤلفات والبحوث الكثيرة ، والدراسات القيّمة في تاريخ اليمن والعرب

١ Studien ber die vorislamische Religion der Araber, in: Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft, 7, 1853.

٢ Specimen Historiae Arabum, Oxford, 1649.

٣ Ueber die Religion der vorislamischen Araber, Leipzig, 1863.

٤ Reste arabischen Heidentums, Berlin, 1887., 2 Ausgabe 1929.

الجنوبيين ، وفي ترجمة الكتابات المعينية والسبئية والحضر موتية والقبتانية والحميرية ، وفي الدراسات اللغوية . وهو في مقدمة من وضع أسس الدراسات العربية الجنوبية ومهد الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين . و (رودوكناكس) (Nikolaus Rhodokanakis)^١ ، وهو صاحب جملة مؤلفات في شرح وحل النصوص العربية الجنوبية ، و (دتلف نيلسن) (Detlef Nielsen) الدانماركي من الباحثين في الكتابات العربية الجنوبية وفي الحضارة العربية ، والتأريخ العربي قبل الإسلام^٢ .

كذلك نخصص (موردتمن) (J. H. Mordtmann) و (داؤو هاندش ميلر) (D.H. Mueller) ، و (ميتوخ) (Eugen Mittwoch) ، و (فون فزمن) (von Wissmann) ، و (بيستن) (C.F.L. Beeston) ، و (كونتي روسيني) (C. Conti Rossini) ، و (فنت) (F.V. Winnett) ، و (ركمنس) (C. Ryckmanns) ، و (كروهمن) (A. Grohmann) ، و (ملاكر) (K. Mlaker) ، و (أغناطيوس كويلدي) و (هربرت كريمه) (Herbert Grimme) ، و (أنوليتمن) و (البرايت) ، وغيرهم قسطاً من بحوثهم في العرييات الجنوبية ، فساعدوا بذلك على تقديم مادة غنية للمؤرخين والباحثين ، وعلى تحسين معارفنا في اللهجات العربية الجنوبية وقواعدها وفي تأريخ الجاهلية^٣ .

هذا ، ولا بد لي أيضاً من الإشارة الى جهود مستشرقين محدثين قصروا عملهم على البحوث العربية الجنوبية ، وصرفوا وقتهم في دراستها ، وألفوا وكتبوا فيها ، ونشروا بحوثهم في المجلات ، ونشروا نشرأ جديداً نصوصاً سبق أن نشرت ، وبعثوا الحياة في نصوص لم تكن معروفة فعرفت . ومن هؤلاء : (فون وزمن) (H. von Wissmann) . و (ريكمنس) (J. Ryckmans) ، وهو صاحب

Nikolaus Rhodokanakis: Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, 2 Hefte, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsuedarabischen, Der Grundsatz der Offentlichkeit in den Sudarabischen, Urkunden, 1914.

Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, Bd., 1, Hamburg, 1927. ٢

٣ للاطلاع على المؤلفات التي تعرضت لاسفار السياح في جزيرة العرب ، يستحسن الرجوع الى الكتب التي الفت في هذا الموضوع باللغات الأوروبية ، ومنها : Hilprecht: Explorations in Bible Land during the 19th Century, Edinburgh, 1903, Ency. Brita., Vol., 2, P., 169, ff.

بحوث وتحقيقات في نشر الكتابات والتعليق عليها وعلى أيام الملوك . و (البرايت) (W. F. Albright) العالم الآثاري الأمريكي الذي ذكرته قبل قليل . و (الأب جامة) (A. Jamme) الذي رافق البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان ، والخير بقراءة النصوص وتعيين زمان كتابتها ، وناشر جملة كتابات عثرت عليها البعثة المذكورة . و (مارية هوفنر) (M. Hofner) و (بيرين) (J. Pirenne) و (بيسن) (A.F.L. Beeston) وغيرهم ، ممن جاؤوا ببحوث قيمة جديدة وما زالوا يبحثون في التأريخ الجاهلي^١ .

هذا ، وسوف يكون لدراسة علماء الآثار والآثار التي عثر وسيعثر عليها من ناحية علم الآثار ، وكذلك تطور الخطوط ومقارنة الكتابات بعضها ببعض لمعرفة زمانها وتحليل الآثار ودراساتها بالمختبرات وبطرق (الفحص الكاربوني) وبما شاكل ذلك من طرق تعد اليوم حديثة ، شأن كبير في الكشف عن التأريخ الجاهلي ، وتقريبه من الواقع ، وتضييق شقوق الخلاف التي نراها بين العلماء في عمر الدول وفي حكم الملوك وأمثال ذلك من أمور هي اليوم في موضع اهتمام الباحثين في تأريخ الجاهلية .

هذا وأودّ أن أشير هنا الى أمر يتعلق بالكتابات الجاهلية ، هو أن غالبية من عاجلها وترجمها اعتمد في الغالب على العبرانية وعلى السريانية في الترجمة ، ولهذا لم يوفقوا في ترجمتهم توفيقاً كبيراً ، وأعتقد أن دراسة اللهجات العربية لقبائل اليمن وبقية العربية الجنوبية وجمع معاني مفرداتها ، تفيد كثيراً في تفسير كتابات المسند وشرحها مثلاً ، لأن كثيراً من هذه المفردات ما زال مستعملاً استعمال القدماء له . ولكن مثل هذه الدراسات لم تتم بشكل علمي منظم منسق حتى الآن وبالأأسف . ورجائي أن يأتي يوم يقوم فيه المتخصصون من العرب بدراسة تلك اللهجات وتثبيتها بصورة علمية ووضع معجمات بألفاظها ، فإن في هذا العمل خدمة كبيرة للتراث العربي القديم .

وقد قام المستشرقون بنصيبهم في كتابة تأريخ الجاهلية ، فهم يستحقون على عملهم هذا كل شكر وثناء ، مهما وقع في دراساتهم من قوة وضعف ، وغرض ونية ، فهم قد قاموا بعمل ، وقد أفادونا في عملهم هذا ولو بعض الفائدة ،

E. Wright, The Bible and the Ancient Near East, Essays in Honor of William Foxwell Albright, New York, 1965, PP., 301.

فعلينا ألا ننكر فضل الناس ، وإذا كان هناك شيء من خطأ أو نية سيئة ، فعلينا بقع واجب تصحيحه وبيان مواطن سوء النية ، فهم غرباء ، ونحن حملة هذا التأريخ وأصحابه . وعلينا وحدنا يقع واجب تدوينه وانتزاعه من باطن الأرض ، والبحث في كل زاوية ومكان لايجاد مورد جديد نضيفه الى الموارد الموجودة . وعلى الحكومات العربية واجب إتمام العمل ، وتيسير الوسائل التي توصل الباحثين الى الأماكن التي يقصدها العلماء وحمايتهم ورعايتهم ، وواجب اعداد طائفة من المنقبين العرب للقيام بهذه المهمة والإنفاق عليهم بسخاء ، وإنشاء متاحف تحفظ فيها العاديات ، ومنع الناس من التجاوز والتطاول على الأماكن الأثرية ، ومن أحق بالمحافظة على تراث البلاد من أبنائها ؟.

الفصل الرابع

جزيرة العرب

ليس بين أشباه الجزر شبه جزيرة تنيف على شبه جزيرة العرب في المساحة، فهي أكبر شبه جزيرة في العالم . ويطلق العلماء العرب عليها تجاوزاً اسم (جزيرة العرب)^١ . تحيط بها المياه من أطرافها الثلاثة ، ومع ذلك لم يستطع الجو البحري أن يخفف من حدة الحرارة فيها ، ويتغلب على جفافها ، والأبخرة المتصاعدة من البحر لا تتمكن أن تصل إلى أواسط بلاد العرب ، لإنزال رحمتها عليها . فإنّ الرياح السهائم ، وهي ذات الحرّ الشديد النافذ في المسام ، تتلقى الرطوبة التي تنبعث من البحار بوجه كالح عبوس ، ومقاومة تسلبها قوتها ، وتنتزع الرطوبة منها ، وتمنعها في الغالب من الوصول إلى أواسط الجزيرة .

يُسمّى جزيرة العرب من الشرق الخليج العربي المعروف عند اليونان باسم (الخليج الفارسي) (Sinus Persicus) ، وما زال يعرف بهذه التسمية المأخوذة عن اليونانية في المؤلفات المعاصرة . أما قدماء أهل العراق ، فقد عرف عندهم بـ (البحر الجنوبي) و (البحر الأسفل) و (البحر التحتاني) (Lower Sea)^٢ ، وبـ (البحر الذي تشرق منه الشمس) و (بحر الشروق) (Sea of the Rising Sun)

١ الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٤٧ ، وسيكون رمزه : صفة ، الالوسي : بلوغ الارب (١٨٤/١ وما بعدها) ، معجم البلدان (١٠٠/٣) وسيكون رمزه بـ (البلدان) ، L.D. Stamp, Asia, an Economic and Regional Geography, P., 133.

Ancient Iraq, by Georges Roux, London, 1964, P., 29. ٢

وب (البحر المر) و (البحر المالح) و (نار مرتو) (Nar Marrtu) في الآشورية^١.
ويجدها من الجنوب المحيط الهندي ، وقد أطلق بعض الكتبة اليونان واللاتين
على القسم المتصل منه بسواحل جزيرة العرب الجنوبية والملاصق لسواحل إفريقية
الشرقية المقابلة لهذه السواحل اسم (البحر الأريتري) (Mare Erythraeum) ؛
أما (بطلميوس) فقد أطلق على الماء المحصور بين عُمان وحضرموت اسم
(خليج سخاليته) (Sinus Sachalites) ، وأطلق على القسم الغربي الباقي
اسم (بحر ربرم) (Mare Rubrum)^٢ (Rubri Maris) ، أي البحر الأحمر .
وقد قصد الاغريق واللاتين بـ (Mare Rubrum) في الغالب البحر الأحمر الحالي
والبحر العربي والخليج العربي ، بل حتى المحيط الهندي، فهم يتوسعون في هذا
الاطلاق كثيراً^٣ .

أما حدّها الغربي ، فهو البحر الأحمر كما يسمى في الخارطات الحديثة
المعروف باسم (الخليج العربي) (Sinus Arabicus) في الخارطات اليونانية
واللاتينية ، وبـ (بحر القلزم) في الكتب العربية^٤ . أما العبرانيون، فقد أطلقوا
عليه (هـ - يَم) (هائم) (اليم) ، ومعناه اللغوي : (البحر) من (يَم)
(يام) بمعنى (بحر) و (ها) أداة التعريف التي هي في مقام (ال) في
العبرانية، وذلك بصورة عامة ، و (يام سوف) (Yam Suph) بصورة خاصة ،
وبـ (سوف) و (سوقة) أحياناً^٥ . وقد فسّر (البيضاوي) لفظة (اليم) ،
الواردة في القرآن الكريم بهذا البحر ، أي البحر الأحمر^٦ . وقد أريد
بـ (Mare Erythraeum) وبـ (Mare Rubrum) البحر الأحمر أيضاً^٧ .

وشكل البحر الأحمر ، شكل يلفت النظر ، يظهر وكأنه خسط منظم ممتد من
الشمال نحو الجنوب على هيئة ثعبان منتصب ذي قرنين . أما باقي جسمه ، فإنه

١ Ancient Iraq, P., 247.

٢ راجع الخارطات اليونانية واللاتينية الموضوعة في هذا الباب .

٣ Quintus Curtius, I, P., 75.

٤ راجع الخارطات اليونانية واللاتينية ، بلوغ العرب (١٨٤/١) فما بعدها .

٥ (سوف) في اللغة العبرانية ، بمعنى اعشاب ضارة ، حشائش ودغل .

٦ Smith, A Dictionary of the Bible Comprising its Antiquities, Biogrophy, Geography, and Natural History, Vol., 1, 1009, Hastings, P., 833, 967.

٧ تفسير البيضاوي (١٣٢/٧ ، ٣٤١) .

Smith, Vol., 1, P., 1009.

البحر العربي . أما هذا الثعبان ، فقد كان أرضاً في الأصل ، خسفت على هذه الصورة في الزمن الثالث من الأزمنة الجيولوجية^١ ، فابتعدت بذلك بلاد العرب عن إفريقيا ، الا من ناحية الشمال ، حتى لا تكون هناك قطعة تامة ، وارتفعت بذلك السواحل الغربية ، نتيجة انخساف الأرض ، فسالت الى الأرض المنخفضة مياه البحر العربي ، ولو تم الخسف ، وامتد الى (طور سيناء) فشطرها ، لما كانت هناك حاجة الى قيام الانسان فيما بعد باتمام العمل الذي لم تكمله الطبيعة ، وهو اتصال البحر الأحمر الى البحر الأبيض بقناة السويس .

وهناك من يرى أن البحر الأحمر كان بحيرة في الأصل ، وكانت إفريقيا والعربية الجنوبية قطعة واحدة عند جنوب هذه البحيرة ، أي عند ما يسمى بـ (مضيق باب المندب) في الزمن الحاضر ، ولكن خسفاً وقع ، أدى إلى انفصال إفريقيا عن العربية الجنوبية الغربية ، فاتصل المحيط الهندي بالبحيرة ، وتكون البحر الأحمر . وقد كان الناس قبل وقوع هذا الانفصال يتنقلون براً وكان إفريقيا وجزيرة العرب قطعة أرض واحدة ، ومن هنا كانت الهجرات . أما خليج العقبة ، فقد عرف بـ (خليج أيلة) وبـ (خليج الأيلانيين) ، (Sinus Aelanites) (Sinus Aelaniticus) في الكتب الكلاسيكية ، نسبة الى مدينة (أيلة) المسماة (ايلات) (Elath) و (ايلوت) (Eloth) عند العبرانيين . وهي مدينة مهمة من مدن (أدوم) (الأدوميين)^٢ . وأما خليج السويس (فقد عرف بـ (Sinus Heroopolites) (Sinus Heroopoliticus) عند اليونان واللاتين^٣ .

ويحصن مناطق واسعة من ساحل جزيرة العرب على البحر الأحمر صخور مرجانية تفتك بالسفن التي تتجاسر فتقترب منها ، نبتت في تلك المواضع لتحمي الساحل من وصول الأجانب اليه . ولكنها أضرت سكانه من ناحية أخرى ، اذ جعلت الملاحة صعبة في هذه الأماكن ، فقللت بذلك الاستفادة من الانجار بالبحر ، وقللت أيضاً من عدد الموانئ الصالحة لرسو السفن على هذا الساحل . وهناك جزر متفرقة تقابل الساحل ، أكثرها مهجور ، وبعضها قليل السكان ، ومعظمهم خليط

١ بروكلمن : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس وميسر البعلبكي (طبعة دار العلم للملايين) ، الجزء الاول (ص ١٠) .

٢ Hastings, P., 211, Smith, Vol., 1, 1009.

٣ Smith, Vol., 1, P., 1009

من دم إفريقي أسود ومن عرب ، عاشوا في الجاهلية وفي الإسلام على التعرض للسفن بالغزو وعلى الصيد .

ويرى بعض الباحثين أن البحر الأحمر لم يكن وحده نتيجة خسف أصاب بلاد العرب ، ففصلها عن إفريقية إلا من جهة (طور سيناء) ، بل ان سواحل بلاد العرب الأخرى ، أي السواحل الجنوبية والسواحل الشرقية ، تعرضت هي أيضاً لهزات عديدة، فخسفت في مواضع عديدة مثل (عدن)، حيث تكون خليج عدن ، ومثل الخليج العربي ، وكانت هذه الهزات والتصدعات استجابة لتصدع واهتزازات حدثت في الشمال على مقربة من حدود بلاد الشام ، فامتدت الى وادي الأردن والبحر الميت فوادي عربية الى خليج العقبة . وهكذا تعرضت جزيرة العرب في عصور سحيقة في القدم قبل الميلاد لهزات وتحركات أرضية ، حتى جعلتها على الشكل الذي نراه عليه الآن^١ .

وحدتها الشمالي خط وهمي يمتد في اصطلاح العلماء العرب من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي ، فيكون النفوذ الشمالي من الحدود التي تفصل الهلال الخصيب عن جزيرة العرب . أما من الناحية « الجيولوجية » ، فإن باطن الهلال وحدة لا استطاع فصلها عن تربة الجزيرة ، وجزء لا يختلف من حيث طبيعته الصحراوية وخواصه عن سائر أنحاء بلاد العرب . وأما من الناحية التاريخية ، فإن هذا الخط الوهمي المتصور ، هو وهم وخطأ ، فقد سكن العرب في شمال هذا الخط قبل الميلاد بمئات السنين . سكنوا في العراق من ضفة نهر الفرات الغربية ، وامتدوا في البادية حتى بلغوا أطراف الشام . وسكنوا في فلسطين وطور سيناء ، حتى بلغوا ضفاف النيل الشرقية . وهي أرضون أدخلها الكتبة القدامى من يونان ولاتين وعبرانيين وسريان في جملة مساكن العرب ودعوها بـ (العربية) وبـ (بلاد العرب) ، لأن أغلب سكانها كانوا من العرب^٢ ، حتى ذهب بعض علماء (التوراة) ، الى أن (بلاد العرب) في التوراة، هي مواطن (الإسماعيليين Ishmaelite) و (القطوريين Keturaean) ، أي البوادي التي نزلت بها القبائل المنتسبة الى (اسماعيل) و (قطورة) . وهي

١ B.R. 527 (Restricted), Geographical Handbook, Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June 1946, Naval Intelligence Division, PP., 11

٢ O'Leary, Arabia before Muhammad, P., 5.

قبائل بدوية ، كانت على اتصال بالعبرانيين . وهي بوادٍ تقع شمال جزيرة العرب وفي الأقسام الشمالية منها^١ .

أما (أربي) ، أي (العربية) في النصوص الآشورية ، و (ماتو أربي) (Matu A-ra-bi) ، أي (أرض العرب) و (بلاد العرب) في النصوص البابلية ، و (اربايا) (Arabaya) (Arpayu) في النصوص الفارسية ، و (بيت عربية) (Beth 'Arabaya) في الإرمية ، فإنها كلها تعني البادية الواسعة التي تفصل العراق عن بلاد الشام . أما حدودها الجنوبية ، فلم تحددها النصوص المذكورة^٢ . ولكننا نستطيع أن نقول ان امتدادها كان يتوقف على مبلغ علم تلك الشعوب بالعرب ، وعلى المدى الذي وصل اليه تعاملهم في بلاد العرب .

فبلاد العرب أو (أرض العرب) (مت أربي) (Mat Arabi) (Mat Aribi) ، هي بادية الشام أيضاً ، وهي كل الأرضين التي تحدها جبال (الأمانوس) (Amanus) في الشمال ، أي الأرضين التي تقع في جنوبها وكل شبه جزيرة سيناء عند (بلينيوس) (Plinius)^٣ . فهن اذن أوسع جداً مما تصوره علماء الجغرافيا المسلمون لجزيرة العرب .

وإذا نظرنا نظرة عامة الى خارطة جزيرة العرب ، نرى أنها أرضون مرتفعة في الغرب ، تسيطر على السواحل الضيقة ، وتكون سلاسل من المرتفعات متصلاً بعضها ببعض ، تمتد من بلاد الشام الى اليمن ، ويقال لهذه المرتفعات جبال (السراة)^٤ . وهي توازي ساحل البحر الأحمر ، وتقرّب منه في مواضع عديدة . ويبلغ متوسط ارتفاعها زهاء خمسة آلاف قدم . أما أقصى ارتفاع لها ، فيبلغ زهاء ١٢,٣٢٦ قدماً ، وهو في اليمن^٥ .

وأما الأرضون المحصورة بين هذه السلسلة وساحل البحر ، فإنها ضيقة ، تسيطر عليها هذه المرتفعات ، وتنحدر اليها انحداراً شديداً قصيراً . وسواحلها

١ Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol., 1, P., 585.

٢ Encyclopaedia Biblica, Vol., I, Col., 273.

٣ Pliny, Nat. Hist., VI, 142. f., A. Grohmann, Arabien, S., 3.

٤ السراة : أعلى كل شيء ، وهناك مواضع عديدة يقال لها سراة مضافة الى القبائل ، تاج العروس (١٧٤/١٠) ، البلدان (٥٩/٥) .

٥ C. Rathjens und H. von Wissman: Suedarabische Reise, Hamburg, 1934, Bd., 111, S., 2, Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.

المهيمنة على البحر ، صخرية في أغلب الأحيان ، يصعب رسو السفن فيها^١ .
وطالما تحطمت عليها السفن المنكوبة ، فتكون طعاماً للبحر ، وللأعراب الساكنين
على السواحل ، فيكون من ينجو بنفسه من أصحاب تلك السفن وما يتبقى من
حطامها ملكاً لأولئك الساكنين بحسب عرف أهل ذلك الزمان وعاداتهم .

أما الانحدار الى البحر العربي والخليج العربي ، فانه يكون تدريجياً وطويلاً
ولذلك تكون الأقسام الغربية من جزيرة العرب أعلى من الأقسام الشرقية. وتتألف
الأرضون الوسطى من هضبة تدعى (نجداً) ، يبلغ متوسط ارتفاعها زهاء ٢٥٠٠
قدم . وتمتد في الأقسام الجنوبية من الجزيرة سلاسل من الجبال، يتفاوت ارتفاعها،
تسيطر على المنخفضات الساحلية ، وعلى ما يليها من أرضين من جهة البر^٢ ،
وتتصل هذه بسلسلة جبال اليمن ، وتكثر فيها الأودية التي تفصل بين السلاسل،
وتأخذ مختلف الاتجاهات من الشمال الشرقي أو من الشمال الغربي الى سواحل
البحر ، حيث تمثل اتجاهات المياه والسيول^٣ . ويكون أعلى ارتفاع لسلسلة الجبال
الجنوبية في أقصى الجنوب الشرقي من الجزيرة ، أي في عمان ، حيث يبلغ ارتفاع
الجبل الأخضر زهاء عشرة آلاف قدم^٣ .

وتتكون أغلب الأرضين في جزيرة العرب من بواد وسهول ، تغلبت عليها
الطبيعة الصحراوية ، لكن قسماً كبيراً منها يمكن اصلاحه إذا ما تعهدته يد
الانسان ، واستخدمت في اصلاحه الوسائل العلمية الحديثة . وأما الأرضون الصالحة
للزراعة ، فإنها تزرع فعلاً لوجود المياه فيها . أما الأرضون التي تعدّ اليوم
من المجموعة الصحراوية ، فهي :

١ - الحِرار ، أو الأرضون البركانية : وقد تكونت بفعل البراكين، ويشاهد
منها نوعان: نوع يتألف من فجوات البراكين نفسها، ونوع تكون من حممها (اللابة)
Lava التي كانت تقذفها ، فتسيل الى الأطراف ثم تبرد وتفتت بفعل التقلبات
الجوية ، فتكون ركاماً من الحجارة البركانية يغطي الأرض بطبقات ، قد تكون
سميكة ، وقد تكون رقيقة ، تتبعثر فيظهر من خلال فجواتها وجه الأرض
الأصلية .

١ Hitti, P., 14.

٢ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.

٣ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169, Hitti, P., 14.

وفي مثل هذه الأرضين يصعب السير ، لانتشار الحجارة ذات الرؤوس الحادة فيها ، وتقل الاستفادة منها ، فتتحول شيئاً فشيئاً الى مناطق صحراوية ، والساثر اليوم في منطقة (اللجاة) في جنوب شرقي دمشق ، يلاحظ الطريق الذي سلكته الحمم المقلوفة^١.

وقد وصف العلماء العرب الحِرار ، فقالوا^٢ : الحَرَّةُ أرض ذات حجارة مسود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، ويكون ما تحتها أرضاً غليظة ، من قاع ليس بأسود ، وإنما سوّدها كثرة حجارتها ، وتدانيها . وتكون الحرة مستديرة ، فإذا فيها شيء مستطيل ليس بواسع ، فذلك الكراع ، واللابّة واللوبة ما اشدت سواده وغلظ وانقاد على وجه الأرض^٣. فيظهر من هذا ان (الحرار) هي أفواه البراكين ، ولذلك تكون مستديرة . وأما اللابّة أو اللوبة ، فإنها المناطق التي غطتها حمم البراكين ، وسالت فوقها ، ثم جفت . وأما الكراع ، فإنها أعناق الحرار^٤.

Moritz, Arabien, Studien zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes, Hannover, 1923, S., 12.

وسيكون رمزه : Moritz

(اللجاة اسم للحرة السوداء التي بأرض صلخد من نواحي الشام ، فيها قرى ومزارع وعمارة واسعة) ، البلدان (٣٢٣/٧) .

٢ البلدان (٢٥٦/٣) ، تاج العروس (١٣٥/٣) ، ويقال للحرة المنعزلة في الرمال (بسقة) ، الطبري (٢٢١/٣) ، وللنهر الذي يسيل من الحرار (شرج) و (شراج) ، وأحياناً (سواقي) ، البلاذري : الفتوح (١٢) ، المراسد (١٧٥/٢) ، المفضليات (ص ٢٤٥ ، ٤١٥) .

٣ لسان العرب (٢٤٢/٢) ، (لوآبة) (لابة ولوبة) ، المفضليات (ص ٢٤٥ ، ٤١٥) ، البلدان (٣٥٧/٣) ، ويقال (حرة سوداء) ، الطبري (٩٥٩/٢) (طبعة أوربية) ، وجاء ايضاً (حرة رجلاء) ، صفة ص ٢٠٥ ، وقد علل الهمداني ذلك بقوله (سميت الحرة الرجلاء لأنها ترجل سالكها ، ولا يقدر فيها على الركوب) ، صفة ص ٢٠٥ ، راجع كذلك معلقة الحارث ، بيت ٢٨ ، وجاء (حرة سوداء) ، Moritz, S., 11 وجاء كذلك (حامية) ، والظاهر انها من الفاظ العوام .

وقد كتب العلماء في (الحرار) ، كتباً ، مثل (كتاب الحرة) المنسوب الى ابي عبد الله محمد الفلابي ، (الفهرست ص ١٠٨) ، و (كتاب الحرات) لابي عبيدة (الفهرست ص ٥٩) ، (طبعة أوربية) (٨٠) طبعة المطبعة الرحمانية ، لسان العرب (٢٤٢/٢) ، وورد ايضاً (لابة سوداء) ، (لوآبة) و (لوبة) ، ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ، ٢٥) ،

Moritz, S., 12, Anm. 1, Loth, in ZDMG., 22, 385-382.

٤ لسان العرب (٢٤٢/٢) ، (١٨٢/١٠) ، القاموس (٧٨/٣) .

وتكثر الحرار في الأقسام الغربية من جزيرة العرب، وتمتد حتى تتصل بالحرار التي في بلاد الشام ، في منطقة حوران ، ولا سيما في الصفاة^١ ، وتوجد في المناطق الوسطى ، وفي المناطق الشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق ، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية ، حيث تلاحظ الحجارة البركانية على مقربة من باب المندب وعند عدن^٢ . وقد ذكر علماء العرب أسماء عدد منها^٣ ، كما أضاف إليها السياح أسماء عدد آخر عثروا عليها في مناطق نائية^٤ .

وقد وردت في الشعر الجاهلي اشارات إليها . وكانت إحدى الحرار ، وهي (حرة النار) في عهد الخليفة عمر لا تزال ثائرة تخرج النار منها^٥ . وقد ذكر أن سحب الدخان كانت تخرج في عهد الخليفة عثمان من بعض الجبال القريبة من المدينة^٦ . وهذا يدل على أن فعل البراكين في جزيرة العرب ، لم يكن قد انقطع انقطاعاً تاماً ، وأن باطن الأرض ، كان ما زال قلقاً ، لم يهدأ .

وكان آخر حدث بركاني في الحجاز في سنة ٦٥٤ للهجرة (١٢٥٦ م) ، إذ ثارت إحدى الحرار في شرقي المدينة ، واستمر هيجانها بضعة أسابيع ، وقد وصل ماسال من حممها الى مسافة بضعة كيلومترات فقط من المدينة التي كان نجاتها من الأعاجيب^٧ . وكان أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الميلاديين عهد زلازل وثوران براكين في مناطق آسية الغربية^٨ . ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي ، لم يبق أثر لفعل البراكين في مختلف أنحاء بلاد العرب^٩ .

وقد تركت الأصوات المزعجة ، و (الصيحات) المرعبة ، والنيان التي كانت ترى من مسافات بعيدة ، وسحب الدخان التي كانت ترتفع من أجواف

١ Moritz, S., 12, Chr. Philips Grant, The Syrian Desert, London, 1937, P., 122, Allos Musil, In the Arabian Desert, New York, 1930, PP., 3, 21.

٢ Ency. Brit., Vol., 2, P., 174.

٣ البلدان (٢٥٩/٢) (مطبعة السعادة ١٩٠٦) ، (حرة أشجع) الاصابة (٦٧/١) .

٤ Doughty, Arabia Deserta, 2, 618. f.

٥ البلدان (٢٦١/٣) ، Moritz, S., 13

٦ الطبرى (٢٩٨/١) (الطبعة الاوربية) ،

٧ Moritz, S., 13.

٨ Moritz, S., 14.

٩ Moritz, S., 19.

الأرض ، و (البريق) الذي كان يظهر من الحرار ، مثل حرّة (القوس) التي قيل انها كانت ترى كأنها حريق مشعل^١ ، و (حرة لبن) التي كان يخرج منها ما يشبه البرق ، ويسمع منها أصوات كأنها صياح^٢ ، هذه كلها تركت صوراً مرعبة في نفوس الجاهليين ، تتجلى في القصص المروية عنها ، وفي عقائدهم بتلك النيران .

ولعل قوة نيران (حرة ضرّوان) وشدة قذفها للحمم وارتفاع لهبها ، هي التي دفعت أهل اليمن الى التعبد لها والتحاكم اليها ، فقد كانوا يذهبون اليها ليتحاكموا عندها فيما يحدث عندهم من خلاف ، والرأي عندهم ان النار تخرج فتأكل الظالم وتنصف المظلوم . وقد كانت حرة نشطة عاشت أمداً طويلاً كما يظهر من وصف (الهمداني) وغيرها لها ، وصلت حممها الى مسافات بعيدة عن الحرة^٣ .

وقد تسببت أكثر هذه الحرار في هلاك كثير ممن كان يسكن في جوارها وفي هجرة الناس من الأرضين التي ظهرت بها ، فتحوّلت الى مناطق خاوية خالية . وقد وجد السياح أرضين شاسعة واسعة أصيبت بالحرار ، وتأثرت بفعل (اللابة) التي سالت عليها . وللناس الحق كل الحق في ارجاع أسباب هلاك أصحابها الى العذاب الذي نزل بهم بانفجار الأرض وبخروج النيران منها تلتهم الساكنين عندها . وقد جهلوا ان هذه النيران المتقدمة الصاعدة والروائح الكريهة المنبعثة عنها ، هي من فعل العوامل الأرضية الداخلية التي تعمل سرّاً في بطن الأرض . وكثرة الحرار في جزيرة العرب ، وانتشارها في مواضع متعددة منها ، دليل على أن باطنها كان قد تعرض لامتحانات عسيرة قاسية ، ولتقلبات كثيرة ولضغط شديد في المناطق الشمالية والغربية والجنوبية ، وقد ظهر أثر ذلك الضغط في وجهها فبان اليوم وكأنه حب الجُدريّ ، يتحدث عن ذلك المرض القديم .

١ قال عريرة النميري :

بحرة القوس وجنبي محفل بين ذراه كالحرّيق المشعل

البلدان (٢٥٩/٣) .

٢ (لبن) ، بضم اللام وتسكين الباء الموحدة ، قال الشاعر :

بحرة لبن يبرق جانبها ركود ما تهد من الصياح

البلدان (٢٦٠/٣) .

٣ الأكليل (٣٣/١) .

وقد اشتهرت بعض مناطق الحارار بالخصب والماء وبكثرة المياه فيها ، ولا سيما حارار الحجاز التي استغلت استغلالاً جيداً ، ومنها (خيبر) ، التي ميزت على سائر القرى ، فقبل عنها لأنها (خير قرى عربية)^١ ، غير أن ظهور العيون فيها بكثرة ، جعلها موطناً من مواطن الحمى ، اشتهر أمرها في الحجاز حتى قيل : (حمى خيبر)^٢ . واستفاد الجاهليون من الحارار باستخراج الأحجار منها ، كأحجار الرحي والمعادن ، فكانت موطناً من مواطن التعدين القديمة فيها^٣ .

ويدرس علماء طبقات الأرض بعناية بالغة توزيع الحارار في جزيرة العرب ، وتقصي أنواع الحجارة التي يكثر وجودها مثل الحجارة الكلسية والگرانيتية والرملية وتوزعها ، والينابيع الحارة في الأحساء ، لما في هذه الدراسات من أهمية بالنسبة الى اكتشاف الموارد الطبيعية ، والثروات الكامنة في الأرض .

ويظن أن فعل البراكين كان له أثر خطير في العصور الب « ايوسينية » (Eocene) ، اذ ثارت براكين عديدة في جزيرة العرب وفي الحبشة وفي السواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب . وقد أثرت هذه البراكين بالطبع في شكل الأرضين التي ثارت فيها وفي شكل الأرضين القريبة منها ، وقد ظهرت براكين فعالة نشيطة في العصور (البليوسينية) (Pliocene) أيضاً ، أثرت كذلك في شكل سطح الأرض ، بأن أحدثت فيها تضاريس ، لا تزال آثارها تشاهد حتى الآن^٥ .

وفي جزيرة العرب عيون وينابيع ، تخرج منها مياه حارة . ففي عسير وفي الحجاز وفي اليمن وفي حضرموت وعمان والأحساء والمخوف وفي مواضع أخرى

١ (خير قرى عربية خيبر) ، ابن سعد ، الطبقات (٥٠/١) (قسم ٢)

Zwemer, Arabia, P., 23, Moritz, S., 12.

٢ كان به - اذ جنته - خيبرة - يمود عليه وردها وملالها

قلت لحمى خيبر : استعلمي هالك عيالي فاجهدي وجدي
وباكري بصالب وورد اعانك الله على ذا الجند
البلدان (٤٩٧/٣) ، الحماسة (طبعة فرايتاك) (ص ٦٤) ، صفة ١١٨ ، نقائض
جرير ٦٢٠ .

٣ مثل حرة سليم ، وحرة الرفاع على ساحل البحر الاحمر شمالي غربي ينبع ،
البلدان (٢٥٨/٣) ، (٥٢٦/٨) ، تاج العروس (٦٣٥/٣)

Ency. Brit., Vol., 2, P., 174.

Naval, PP., 19.

غيرها ، مواضع تخرج منها مياه حارة كبريتية في الأكثر ، يستشفى ب مياهها الناس بالاستحمام . وانتشارها على هذه الصورة وبهذه الكثرة يلفت النظر ، وهي من آثار التقلبات الجوفية التي حدثت في جزيرة العرب منذ القدم^١ .

٢ - الدهناء :

وهي مساحات من الأرضين تعلوها رمال حمر في الغالب ، تمتد من النفود في الشمال الى حضرموت ومهرة في الجنوب ، واليمن في الغرب ، وعمان في الشرق^٢ . وفيها سلاسل من التلال الرملية ذات ارتفاعات مختلفة ، تنتقل في الغالب مع الرياح ، وتغطي مساحات واسعة من الأرض^٣ . ويمكن العثور على المياه في قيعانها اذا حفرت فيها الآبار^٤ .

وقد أشير الى الدهناء في بيت شعر للأعشى هذا نصه :

يمرون بالدهناء خفافاً عيابهم ويرجعن من دارين يُبحر الحقائب*

وقد تصل الأمطار الموسمية الى بعض أجزاء (الدهناء) فتنبت فيها الأعشاب ، ولكن عمرها فيها قصير اذ سرعان ما تجف وتموت . وقد هجر الناس السكنى في أكثر أقسام الدهناء ، لجفاف أكثر أقسام هذه المنطقة الصحراوية الواسعة ، وخلوها من الماء والمراعي ، ولكثرة هبوب العواصف الرملية فيها ، ولشدة حرارتها التي يصعب احتمالها في أثناء النهار ، وأقاموا في الأمكنة المرتفعة منها ، التي تتوافر فيها المياه ، وتتساقط عليها الأمطار ، فتنبت الأعشاب ، وينتجعها الأعراب . أما الأقسام الجنوبية من الدهناء فيسميها الجغرافيون المحدثون

١ Naval, P., 21.

٢ (الدهناء) بفتح اوله وسكون ثانيه ونون والفاء تمد وتقصّر ، البلدان (١١٥/٤ وما بعدها) .

٣ Ency., Vol., 1, P., 893, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173 Hitti P. 15.

٤ Handbook of Arabia, vol., 1, P., 11

٥ الالوسي ، تاريخ نجد ، تحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثري ، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧ (ص ٣٠) .

(الربع الخالي) (The Empty Quarter) ^١ ، لخلوها من الناس ، وكانت تعرف به (مفازة صيهده) ^٢ .

وقد تمكن السائح الانكليزي (برترام توماس Bertram Thomas) من اجتيازها في (٥٨) يوماً ، وهو عمل مجهد شاق ، فكان أول أوروبي جرّؤ على اجتياز هذه الأرض ^٣ .

ويطلق على القسم الغربي من الدهناء اسم (الأحقاف) وهو منطقة واسعة من الرمال بها كثبان اقترن اسمها باسم (عاد) . (واذكر أخا عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف) ^٤ .

وكشف (برترام توماس) في الربع الخالي بحيرة من المياه الملحة ، وبقايا حيوانات مبعثرة ، وتبين لدى العلماء أن هذه البحيرة كانت من متفرعات الخليج العربي ، وأن من المحتمل أن هذه الأرضين التي تكثر فيها رواسب قيعان البحر ، قد كانت في عهدها من المناطق البحرية التي تغمرها مياه المحيط ، كما عثر فيه على آثار جاهلية لم يعرف من أمرها شيء حتى الآن ، يظهر أنها لأقوام كانت تستوطن هذه المناطق أيام كانت ذات مياه صالحة للإنبات والخصب . وما زالت حتى اليوم تعد أرضاً مجهولة ، وإن تحسنت معارفنا عنها كثيراً ، بفضل بعض موظفي شركات البترول والباحثين عن المعادن في مختلف أنحاء الجزيرة . وستأتي الاكتشافات الجديدة لما بمعارف قيمة عن تاريخ العرب قبل الإسلام من غير شك . وتكون (وبار) قسماً من الدهناء ، وكانت من الأرضين المشهورة بالخصب والنماء ، وهي اليوم من المناطق الصحراوية ، وبها آثار القرى القديمة التي كانت كثيرة قبل الإسلام . والظاهر أنها كانت مواطن الرباريين ، وهم الذين دعاهم

١ Terra Incognita, Hitti, P., 15, Ency., Vol., 1, P., 895, Philby, The Empty Quarter, London, 1933, Bertram Thomas, Arabia Felix, P., XXIII, 180, Philby, In the Geographical Journal, "The Empty Quarter", 81, (1933), 1-26.

٢ صفة ٢١٤ ، البلدان (١٩/٥) ، Ency., Vol., 1, P., 370, Moritz, S., 15.

٣ Ency., Vol., 1, P., 183, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 11 Bertram Thomas Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia, London, 1932, The Geographical Journal, Across the Empty Quarter, III, (1948), 1-21, Also "A Further Journey Across the Empty Quarter", CXIII, (1949), 12-45.

٤ سورة الاحقاف ، السورة ٤٦ آية ٢١ .

٥ Arabia Felix, PP., 180, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173.

(بطليموس) (Jobaritai) الذين سأتحدث عنهم^١ . وفي الجهة الشمالية الشرقية من وبار ، رمال (يبرين) ، وكانت من المناطق المأهولة كذلك ، ثم دخلها الحراب^٢ .

٣ - النفود :

أما النفود ، وهو اسم لم يكن يعرفه العرب^٣ ، فهي صحراء واسعة ذات رمال بيض أو حر تلدوها الرياح فتكون كثباناً مرتفعة، وسلاسل رملية متموجة، تبتدىء من واحة (تياء) ، وتمتد الى مسافة ٤٥٠ كيلومتراً تقريباً نحو الشرق ، ويبلغ امتدادها من الجوف الى جبل شمر زهاء ٢٥٠ كيلومتراً تقريباً. وقد عرفت أيضاً بـ (الدهناء) و بـ (رملة عالج) ، ثم تغلب عليها اسم (النفود) وصارت تعرف به^٤ .

وتعد النفود من الأماكن المائلة أو المنحدرة ، ويظهر من القياسات (وان كانت قليلة جداً) ، ان المنطقة الشرقية من النفود أوطأ من مستوى المنطقة الغربية عند خط طول (٢٧) درجة و (٣٠) دقيقة ، بما يزيد على ١٥٠ متراً، أي ان هذه البادية مرتفعة في الغرب ، آخذة في الانخفاض والميل في الشرق^٥ .

وقد نتج عن هذا الميل والانحدار المتوالي ان الرمال التي كانت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية تحملها ، تراكت في المنخفض ، فأصبحت الحدود الغربية والشرقية لهذه المنطقة مرتفعة بالنسبة اليها ، بحيث صار (الحجاد) يشرف عليها اشرافاً تاماً^٦ .

ويغطي وجه (النفود) ، كثبان من الرمال متموجة يبلغ ارتفاع بعضها

-
- ١ البلدان (٣٩٢/٨) ،
Philby, The Empty Quarter, PP., 157, Ency., Vol., 1, P., 370 Vol. 4, P. 1073.
 - ٢ البلدان (٩٩/٦) ، صفة (ص ٨٤، ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٥) .
Ency., Vol., 1, P., 370.
 - ٣ فجر الاسلام (١/١) .
 - ٤ (رمل عالج) باللام المكسورة والجيم ، (رملة عالج) ، البلدان (٩٦/٦) ،
Moritz, S., 15, Handbook of Arabia, Vol., P., 11.
 - ٥ Ency. Brit., Vol., 2, P., 173, Moritz, S., 15, Musil, in the Arabian Desert PP. 124.
 - ٦ Moritz, S., 15.

زهاء (١٥٠) متراً ، ولذلك لا يعد سطح بادية النفود سطحاً مستوياً منبسطاً . وتأخذ هذه المرتفعات مختلف الأشكال ، فتكون في أغلب الأحيان على شكل نعل الفرس ، ويكون اتجاهها من الغرب نحو الشرق، وتكون أبعادها وأعماقها مختلفة ، وتسمى (القعور) . وقد تركت أثراً عميقاً في تخيلة المسافرين ورجال القوافل^١ . وبعد الأشتية الممطرة تتحول هذه المنطقة الرملية الموحشة الى جنة حقيقية فتظهر الرمال وكأنها قد فرشت ببسط خضر ، يزينا الزهر والشقائق ويختلف الأعشاب الصحراوية ، ويتجمعها الأعراب للرعي . وقد تنمو فيها النباتات المرتفعة ذات السيقان القوية كبعض أنواع (الغصّي) ، فتكون أدغالاً يحتطب منها البدو ، وقد يحرقونها لاستخراج الفحم منها^٢ . وهذه الأعشاب والنباتات ، لا تظهر إلا في المنطقة ذات الرمال الحمر (نفود سمرا) . أما النفود البيضاء المؤلفة من رمال نشأت من تفتت أحجار (الكوارتز) فلها في أكثر الأماكن غير منبئة^٣ .

ولكن هذه الجنة الأرضية جنة قصيرة العمر ، لا يدوم عمرها إلا أسابيع قليلة ، ثم يحل بها الجفاف ، وتهب السائم ، فتتضي على كل ما نبت في هذه البادية، فتبدو كالحلة عابسة مزعجة متفردة، وكأن انساناً كنس وجهها كنساً أزال عنه كل أثر لذلك الجمال . وتهب في شهر نيسان رياح حارة من الشرق والجنوب ، ورياح في شهور الصيف ، تحرق البادية حرقاً ، حتى تغدو وكأنها جحيم^٤ . وفي العربية ألفاظ عديدة لها صلة بالبادي ، كثرت وتعددت لاتصال حياة العرب بها ، منها ما لها علاقة بشكل البادية وظاهر وجهها ، ومنها ما لها علاقة بطبيعتها وبنوعيتها ، الى غير ذلك من مصطلحات ، نشأ بعضها من تعدد لهجات العرب ولغاتها ، اذ تسمى قبيلة البادية باسم ربما لا تعرفه قبيلة أخرى ، وهكذا تنوعت التسميات .

مصدر الصحارى :

واذا سألتني عن مصدر هذه الصحارى المزعجة التي وسمت جزيرة العرب بسمة

- | | |
|--|---|
| Etting, in "Zeitschr. der Ges. fue Erdkunde zu Berlin" No. 5, 'Tagebuch, 1, 144. | ١ |
| Moritz, S., 16. | ٢ |
| Moritz, S., 16. f., A. Blunt, Pilgrimage to Nejd, 2, 55. | ٣ |
| Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 12, Moritz, S., 17. | ٤ |

خاصة ، وصيرت معظم أهلها بدواً بالرغم منهم ، فأقول لك : إن الرأي المنتشر أن هذه الصحارى تكونت من تفتت الأحجار الرملية بتأثير الرياح والجفاف فيها^١ . ويؤيد وجود مثل هذه الأحجار في الشمال الغربي من بلاد العرب هذا الرأي كثيراً ، ويظهر أنه رأي علمي ينطبق على بعض الصحارى انطباقاً كبيراً ، غير أنه لا يحل مشكلة مصدر الرمل الأحمر المتكون من أحجار غير رملية الذي يغطي مساحات واسعة من صحراء النفود ، بينما الرمل الناشئ من الأحجار الرملية لا يغطي إلا مساحات ضيقة بالنسبة إلى المناطق الأخرى . وهذا يدل دلالة صريحة على أن رمال (النفود) لم تتكون من تفتت الأحجار الرملية حسب ، بل من عوامل أخرى كالتقلبات الجوية وتأثيرها في قشرة الأرض^٢ .

يكون ظاهر التربة الأجرد معرضاً لحرارة الشمس والتغيرات الجوية مباشرة ، إذ لا أشجار تحميها ، ولا أعشاب تحافظ على تماسك ذراته وحفظها من تلك التغيرات . فإذا انقطعت الأمطار ، جفت التربة ، فتفتت تدريجياً ، وتستطيع الرياح أن تعثب فيها بكل سهولة ، وتتمكن الرياح التي سرعتها ١٨ كيلومتراً في الساعة من إثارة الطبقات الرملية الخفيفة والأنربة الباقية المبعثرة على سطح الأرض .

وإذا هبت الرياح بسرعة ٣٣ كيلومتراً في الساعة ، امتلأ الجو بالغبار . فإذا ازدادت السرعة ، استحالت إلى عواصف ، تؤثر تأثيراً كبيراً في سطح الأرض فتحمل ما عليه من أنربة ، وتعرض الطبقات السفلى التي كانت تحت هذه الأنربة لفعل الجو المباشر ، ليحدث لها ما حدث في الطبقة التي كانت فوقها ، وهكذا تتحول هذه المناطق إلى صحارى ، وتتكون الرمال حينئذ من التربة المتفتتة لا من تهشم الأحجار الرملية أو الكلسية وحدها^٣ .

وتهب مثل هذه الرياح في الشمال الغربي من جزيرة العرب من نهاية شهر (آذار) مارس حتى نهاية شهر (أيار) مايس ، وتهب في أغلب الأحيان هبوباً فجائياً ، وتستمر يومين أو ثلاثة أيام ، وتنتهي في بعض الأحيان برعد

١ Moritz, S., 17.

٢ المصدر نفسه .

٣ Moritz, S., 17, Arabia Deserta, Vol., 2, P., 656.

ويرق . وعند حدوث هذه الزواجع يغير الأفق ويكشف وجه السماء ، ثم تهب بعد لحظات عواصف شديدة وأعاصير ، تضفي على الجو لوناً قاتمًا، وأحياناً مائلاً الى الصفرة أو الحمرة بحسب لون الرمال التي تحملها الرياح ، وتختفي الشمس ، وتؤثر هذه (العجاجة) في النبات والأشجار تأثيراً كبيراً . وإذا استمرت مدة طويلة ، سببت تلف قسم كبير من المزروعات في الأماكن المزروعة^١ .

وقد أشار الكتاب اليونان والرومان الى البادية، كما عرفها العبرانيون . ولكلمة (حويلة Havilah) ، ومن معانيها الأرض الرملية^٢ ، أي تخم بني اسماعيل - وأولادهم وهم البدو - ولهذا المدلول علاقة كبيرة بمعنى صحراء^٣ . وقد ذهب بعض علماء التوراة الى انها تعني النفود^٤ .

وتفصل العراق عن بلاد الشام بادية واسعة ، تعرف بـ (بادية الشام) أو (البادية) ، أو (خساف) ، ويقال للقسم الجنوبي منها - وهو القسم الذي بين الكوفة والسماوة من جهة ، وبينها وبين الشام من جهة أخرى - (بادية السماوة)^٥ ، ويسميتها العامة (الحجاد) أو (حماد)^٦ .

الدارات :

وفي بلاد العرب (الدارات) ، والدارة : كل جوبة بين جبال في حزن كان ذلك أو سهل أو رمل مستدير ، في وسطه فجوة ، وهي الدورة ، ونجم الدارة على دارات^٧ . فهي أرض سهلة لينة بيض في أكثر الأحيان ، وتنبث فيها

-
- ١ Moritz, S., 17.
 - ٢ Moritz S., 17, Diodorus, 2, 54, Strabo, XVI, 3.
 - ٣ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الآية ١١ ، الاصحاح العاشر الآية ٧ ، الاصحاح ٢٥ ، الآية ١٨
 - ٤ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٨/١) ، Hastings, P., 333, Ency. Bibl., P., 1974, Glaser, Skizze, 2, S. 323 E. Meyer, Geschichte des Alterthums, Bd., 1, S., 224 Delitzsch, Wo lag des Paradies? S., 12, 57.
 - ٥ البلدان (٤٣٦/٣) ، (١٢٠/٥) .
 - ٦ Handbook of Arabia, 1, P., 12, Ency. Brit., Vol., 2, P., 173.
 - ٧ البلدان (١٤/٤) ، القاموس المحيط (٢١/٢) ، (كتاب الدارات) للاصمعي بعناية (أوغست هفتر) ، في مجلة المشرق ، السنة الاولى ، الجزء الاول سنة ١٨٩٨ ص ٢٤ وما بعدها .

الأعشاب والصلبان والنباتات الصحراوية^١، ويبلغ عددها زهاء عشر دارات ومئة^٢.
ولبعض هذه الدارات شهرة ، اذ وردت أسماءها في الشعر الجاهلي والإسلامي ،
مثل (دارة جلجل) ، التي ورد ذكرها في شعر امرئ القيس الكندي^٣ .
و (دارة الآرام) وكانت مملوءة من شقائق النعمان ، كما جاء ذلك في شعر
برج بن خنزير المازني الذي كلفه الحجاج بن يوسف حرب الخوارج^٤ .

الجبال :

تكون سلسلة جبال السَّرات العمود الفقري لجزيرة العرب ، وتتصل فقراته
بسلسلة جبال بلاد الشام المشرفة على البادية، المتحركة فيها تحكم الجنود في القلاع.
وبعض قمم هذه السلسلة مرتفعة ، وقد تتساقط الثلوج عليها كجبل دباغ الذي
يرتفع (٢,٢٠٠) متر عن سطح البحر* ، وجبل وثر وجبل شيبان . وتنخفض
هذه السلسلة عند دنوها من مكة ، فتكون القمم في أوطأ ارتفاع ، ثم تعود
بعد ذلك الى العلو حيث تصل الى مستوى عال في اليمن حيث تتساقط الثلوج
على قمم بعض الجبال^٥ .

وتمتد في محاذة السواحل الجنوبية سلاسل جبلية تنفرع من جبال اليمن ، ثم
تنحدر نحو الشرق الى أرض عمان ، حيث ترتفع قمم الجبل الأخضر ارتفاعاً يتراوح
من تسعة آلاف قدم الى عشرة آلاف قدم^٦ . وتتخلل هذه السلاسل الجنوبية
أودية تمثل اتجاه مسایل الأمطار الى البحر .

وتفصل بين البحر والسلاسل الجبلية سهول ساحلية ضيقة في الغالب ، ربما
لا تتجاوز خمسة عشر ميلاً عن سواحل البحر الأحمر^٧ . وتكون هذه السواحل

-
- ١ البلدان (١٤/٤) .
 - ٢ القاموس المحيط (٢١/٢) ، البلدان (١٤/٤) .
 - ٣ البلدان (١٦/٤) ، مجلة المشرق العدد المذكور ص ٢٦ .
 - ٤ فأبرق وأرعد لي اذا العيس خلفت
البلدان (١٥/٤) المشرق ، العدد المذكور (ص ٢٦) .
 - ٥ Moritz, S., 5 f.
 - ٦ الواسعي ، تاريخ اليمن ، ص ٨٠ ، حتى ٢١ (الترجمة العربية) .
 - ٧ Ency. Brit., Vol., 2, P., 169.
 - ٨ Ency. Brit., Vol., 2, P. 169.

حارة رطبة في الغالب ، يتضايق منها الانسان ، وتكون غير صحية في بعض الأماكن . ويطلق على بعض أقسام التهام (الغور) و (السافلة) ، لانخفاض بقاعها . وقد ذهب بعض العلماء الى اطلاق تهامة على طول الأغوار الساحلية الممتدة من شبه جزيرة سيناء وبحر القلزم الى الجنوب^١ . وسأحدث عنها فيما بعد . وتكون هذه السلاسل مانعاً — للأبحر المتصاعدة من البحر الأحمر والبحر العربي — من وقوع الأمطار في أواسط بلاد العرب وفيما وراء السفوح الشرقية للسراة والسفوح الشمالية للسلاسل الجبلية الجنوبية ، لذلك كثرت الأودية القصيرة التي تسيل فيها المياه في هذه المناطق ، وزادت فيها امكانيات الحصب والزراعة عن البقاع التي وراء السراة حتى الخليج .

وفي نجد ، وهي هضبة يبلغ ارتفاعها زهاء ٢٥٠٠ قدم ، منطقة جبلية تتكون من (الغرانيت) ، يقال لها جبل (شمر) ، وهي من مواضع (طيء) التي اشتهر أمرها قبل الإسلام اشتهاراً كبيراً ، وقد عرفت قديماً بجبل طيء^٢ . وتتألف من سلسلتين ، يقال لإحدهما أجأ ، وللأخرى سلمى^٣ . وهناك منابع عديدة للمياه في شعاب هذه السلسلة وفي السهل الكبير المنبسط بينهما . ويمكن الحصول على المياه فيها بوفرة تحت طبقات الرمال والصخور^٤ . وأما جبل (طويق) فهو مرتفعات تقع في الوسط الشرقي من نجد وفي جنوب شرقي الرياض ، وتتألف من الحجارة الرملية وتحيط بها الصخور والحجارة الكلسية ، وتدل البحوث على أن من الصخور والمواد البركانية ما قدفته البراكين الى هذه الجهات^٥ .

الأنهار والأودية :

ليس في جزيرة العرب أنهار كبيرة بالمعنى المعروف من لفظة نهر مثل نهر دجلة أو الفرات أو النيل ، بل فيها أنهار صغيرة أو جعافر . وهي لذلك تعد في جملة الأرضين التي تقل فيها الأنهار والبحيرات، وفي جملة البلاد التي يتغلب

-
- ١ البلدان (٤٢٦/٢) ، (٣١١/٦) ، صفة (ص ٥٤ ، ١١٩ وما بعدها) ، بلوغ الأرب (١٨٨/١) .
 - ٢ تاريخ نجد ، لالوسي (ص ٢١) .
 - ٣ وهبة ص ٦٣ .
 - ٤ Moritz, S., 6.

Moritz, S., 6, Handbook, Vol., 1, P., 13.

عليها الجفاف . ويقبل فيها سقوط الأمطار ، ولذلك أصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان . غير انها كثيرة الأودية، تغطي عليها السيول عند سقوط الأمطار ، فتصير وكأنها طاغية مزبدة . وهي في الغالب طويلة ، تسير في اتجاه ميل الأرض . أما الأودية التي تصب في البحر الأحمر أو في البحر العربي، فإنها قصيرة بعض الشيء ، وذات مجرى أعمق ، وانحدار أشد ، والمياه تسيل فيها بسرعة فتجرف ما يعترضها من عوائق ، وتنحدر هذه السيول الى البحر فتضيع فيه ، ومن الممكن الاستفادة منها في الأغراض الزراعية والصناعية . وقد تكون السيول خطراً يهدد القوافل والمدن والأماكن ، ويأتي على الناس بأفدح الخسائر^١. وفي كتب المؤلفين الإسلاميين إشارات الى سيول عارمة جارفة، أضرت بالمدن والقرى والمزارع وبالقوافل والناس ، إذ كانت قوية مكنتها من جرف الأبنية والناس ، ومن إغراقهم حتى ذكر أن خراب عاصمة اليمامة القديمة كان بفعل السيل ، وأن كثيراً من المزارع والأموال هلكت وتلفت بفعل لعب السيول بها لعباً لم تتحمله ، فهلكت من هذا المزاح الثقيل^٢ .

وليس في استطاعة أحد التحدث عن ملاحاة بالمعنى المفهوم من الملاحاة في نهيرات جزيرة العرب ، وذلك لأن هذه النهيرات اما قصيرة سريعة الجريان منحدره انحداراً شديداً ، واما ضحلة تجف مياهها في بعض المراسم فلا تصلح في كلتا الحالتين للملاحاة . وهي أيضاً شعبية بالثروة الحيوانية ، وليس فيها إلا مقادير قليلة من الأسماك .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كثيراً من أودية جزيرة العرب كانت أنهاراً في يوم من الأيام . واستدلوا على ذلك بوجود ترسبات في هذه الأودية ، هي من نوع الترسبات التي تكون في العادة في قيعان الأنهار ، ومن عشور السياح على عاديات وآثار سكن على حافات الأودية . ومن نص بعض الكتبة (الكلاسيكيين) على وجود أنهار في جزيرة العرب . فقد ذكر (هيرودوتس) نهراً سماه «كورس» زعم انه نهر كبير عظيم ، يصب في (البحر الأريتوي) ، ويقصد به البحر الأحمر ، وزعم أن العرب يذكرون أن ملكهم كان قد عمل ثلاثة أنابيب صنعها

١ فتوح البلدان للبلاذري ، الفصل الذي عقده لاختبار السيول ، الطبري والازرقى في أخبار السيول .

٢ Naval, PP., 24.

من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات ، امتدت من هذا النهر الى البادية مسيرة اثني عشر يوماً ، حملت الماء من النهر الى مواضع متقورة ، نقرت لخزن المياه الآتية من ذلك النهر فيها^١ .

وهناك موضع على مقربة من ساحل البحر الأحمر اسمه (قرح)^٢ على مسافة ٤٣ كيلومتراً من (الحجر) في مكان يمر به خط الحديد الحجازي في منطقة صحراوية ، وكان في الأزمنة السابقة من المحلات المزروعة ، وبه بساتين عدة تعرف بـ (بساتين قرح) ، وعلى مقربة منها (سقيا يزيد) أو (قصر عنتر) (اسطبل عنتر) ، كما تعرف به في الزمن الحاضر على بعد ٩٨ كيلومتراً من المدينة . والى شماله (وادي الحمض) الذي يرى بعض العلماء أنه المكان الذي أراده (هيرودوتس)^٣ .

وذكر (بطليموس) نهراً عظيماً سماه (لار) Lar ، زعم انه ينبع من منطقة (نجران) ، أي من الجانب الشرقي من السلسلة الجبلية ، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية متحرّفاً بلاد العرب حيث يصب في الخليج العربي^٤ . ولا يعرف من أمر هذا النهر شيء في الزمن الحاضر ، ولعله كان وادياً من الأودية التي كانت تسيل فيها المياه في بعض المواسم ، أو كان بقايا نهر ، أثرت في مياهه عوامل الجفاف . ويرى (موريتس) ان هذا النهر الذي أشار اليه (بطليموس) ، هو وادي الدواسر ، الذي يمس حافة الربع الخالي عند نقطة تبعد زهاء خمسين ميلاً من جنوب شرقي السليل ، وتمده بعض الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول^٥ ، وتفيض مياهه في الرمال في مواضع عديدة ، فتكون بعض الواحات التي يستقى منها ، ويزرع عليها . ويلاحظ وجود مياه غزيرة في واديه ، في مواضع لا تبعد كثيراً عن القشرة . وهذا مما

١ Herodotus, Vol., 1, P., 214, Bertram Thomas, The Arabs, P., 350.

٢ البكري ٧٨٧ ، المقدسي ٨٣ ، ٩٨ ، ١١٢ ، (قرح) بالضم ثم السكون ، البلدان (٤٨/٧) وكانت من أسواق العرب في الجاهلية ، وزعم بعضهم ان بها كان هلاك

عاد قوم هود ، مما يدل على انها من المواضع القديمة في بلاد العرب .
٣ (اسطبل عنتر) ، وهبه ص ٢٠ ، والظاهر انها كانت تعرف بـ (سقيا) ، وهي من المواضع الجاهلية القديمة ، البلدان (١٤/٥) .

٤ Moritz, S. 21.

٥ وهبه ٥٤ ، الألوسي ، تاريخ نجد (ص ٢٦) .

يحمل على الاعتقاد بوجود مجاري أرضية تحت سطح الوادي ، وانه كان في يوم ما نهراً من الأنهار ، غير اننا لا نستطيع أن نتكهن في أمر هذا الوادي أكان نهراً جارياً في زمن بطلميوس كما أشار الى ذلك ، أو كان وادياً رطب القيعان لم تكن عوامل الجفاف قد أثرت فيه أثرها في الزمن الحاضر. لذلك كانت تمكث فيه السيول والأمطار المتساقطة على السفوح الشرقية لجبال اليمن مدة أطول مما هي عليه الآن^١ . والرأي عندي ان هذه الأنهار وأمثالها التي يشير اليها المؤلفون اليونان والرومان ، لم تكن في الواقع وبالنسبة الى ذلك الزمن الا سيولاً عارمة جارفة سمعوا بأنخبارها من تجارهم ومن بعض رجالهم الذين كتب لهم الذهاب الى بلاد العرب أو اتصلوا بالعرب ، فظنوا انها أنهار عظيمة على نحو ما ذكروه . فلا يعقل وجود الأنهار الكبيرة في ذلك الزمن ، اذ كان الجفاف قد أثر تأثيره في إقليم جزيرة العرب قبل ذلك بأمد طويل ، فلا مجال لبقاء أنهار على النحو الذي يذكره أولئك الكتاب .

وينطبق هذا الاحتمال على الأودية الأخرى ، وهي كما قلت كثيرة ، ومنها وادي الرمة ووادي الحمض ، وبعد هذان الواديان من الأودية الجافة ، إلا في مواسم الأمطار الشديدة حيث تصب السيول فيها ، غير أن لها مجاري أرضية ، تشير الى تلك الحقيقة ، ويمكن الحصول على المياه فيها بجحر الآبار على أعماق ليست بعيدة عن السطح . وقد تظهر على سطح الأرض في بعض المحال ، وربما كانا قبل آلاف السنين ، أنهاراً تجري فيها المياه، فتروي ما عليها من أرضين^٢ .

يتكون (وادي الرمة) عند (حرة خيبر) أو (حرة فذك)^٣ من التقاء بضعة أودية ممتدة من الشمال على ارتفاع ستة آلاف قدم ، ثم تتجه بعد ذلك نحو الشرق ثم تأخذ اتجاهها جنوبياً شرقياً حيث تتصل بـ (الجريير) أو (الجريب) كما كان يعرف سابقاً ، وهو من أوسع فروع وادي الرمة . ويتجه هذا الوادي

١ Moritz, S., 21.

٢ Moritz, S., 21, Philby, in the Geogr. Journ, CXIII, (1949), 86.

٣ ويقال له (بطن الرمة) بضم الراء وتشديد الميم ، وقد يقال بالتخفيف ، البلدان (٢١٩/٢) ، ومنها وادي القصيم ، المسمى وادي الرمة (تاريخ نجد ، للالوسي (ص ٢٩) .

٤ (الجريب) بالفتح ثم الكسر ، البلدان (٩١/٣) ، Moritz, S., 23

نحو الشرق حيث يصل الى (بريدة) ، ثم ينعطف نحو الشمال الشرقي فالشرق الى (القصيم) حيث يسمى بعد ذلك (الباطن) (البطن) ثم يتفرع الى فرعين يخترقان منطقة صحراوية ، ويسير أحدهما في (النفود) حيث يتصل بالدهناء إلى أن يبلغ موضعاً قرب البصرة^١ . ويبلغ طول هذا الوادي زهاء ٩٥٠ كيلومتراً أو أكثر^٢ .

وأما مبدأ وادي الحمض أو وادي إضم كما كان يسمى قديماً ، فمن جنوب حرة نخير ، ثم يتجه نحو الجنوب الغربي الى أن يصل الى يثرب حيث تتصل به أودية فرعية أخرى ، منها (وادي العقيق) ، ويتصل به كذلك (وادي القرى) ، ويستمد مياهه من السيول التي تنحدر اليه من الجبال من العيون التي عند نخير حيث يصب في البحر الأحمر في جنوب قرية الوجه . وعند هذا المصب بقايا قرية يونانية قديمة ، وبقايا معبد يعرف عند الأهليين (كصر كريم)^٣ ، وهو من مخلفات المستعمرات اليونانية القديمة التي كان الملاحون والتجار اليونانيون قد أقاموها عند ساحل البحر الأحمر لحماية سفنهم من القرصان ، وللاتجار مع الأعراب ، ولتموين رجال القوافل البحرية بما يحتاجون اليه من ماء وزاد . ويعتقد (موريتس) أن هذا الموضع هو محل مدينة (لويكه كومه) (Leuke Kome) المشهورة التي وصل اليها (أوليوس كالوس) لما همّ بفتح اليمن^٤ ، على حين يرى آخرون أن هذه المدينة هي في المحل المعروف باسم (الحوراء) . ويبلغ طول وادي الحمض زهاء ٩٠٠ كيلومتر^٥ .

١ (البطن) (بطن الرمة) ، البلدان (٢١٩/٢) ، صفة ١٤٤

٢ وهبه ص ٢ ، (القصيم) ، بالفتح ثم الكسر على (فعيل) قال الاصمعي :

(وأسافل الرمة تنتهي الى القصيم) ، البلدان (١١٦/٧) ، (بطن) الحماسة

(فرايتاك) ٦٠٨ ، صفة ١٤٤ ، الدينوري : الاخبار ، ١٦٠ ، ٢٥٨ ، ويرى

(موريتس) احتمال كون نهر (بيشون Pischon) الذي هو احد انهار

الجنة الاربعة في التوراة هو وادي الرمة ،

Moritz, S., 23, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 10.

٣ (اضم) بالكسر ثم الفتح وميم ، قال ابن السكيت : اضم واد يشق الحجاز حتى

يفرغ في البحر ، البلدان (٢٨١/١) ، وادي (الحمض) ، البلدان (٣٤٢/٣) .

٤ Moritz, S., 24, Pauly-Wissowa, Leuke Kome.

٥ (الحوراء) بالفتح والمد ، كانت بها اثار خرائب قديمة حتى ايام ياقوت الحموي

وكانت قد هجرت في ايامه ، وكانت ميناء المصريين الى المدينة ، البلدان (٢٥٩/٣)

Moritz, S., 21.

وهناك (وادي حنيفة) ، وهو من الأودية المهمة كذلك ، يبتدىء من غرب (جبل طويق) ثم يتجه نحو الشرق نحو الخليج العربي . وهو مهم ، ويمكن الحصول على المياه فيه بطريقة حفر الآبار ، لأن الماء غير بعيد عن قاعه . وأما عند هطول الأمطار ، فإن المياه تجري إليه من السفوح فتسيل فيه^١ .

ولقلة المياه في بلاد العرب ، انحصرت الزراعة فيها في الأماكن التي حبتها الطبيعة بمواسم تتساقط فيها الأمطار مثل العربية الجنوبية ، وفي الأماكن التي ظهرت فيها عيون وينابيع ، مثل وادي القرى في الحجاز ، والأحساء على الخليج العربي . وفي الأودية والأماكن التي تكثر فيها المياه الجوفية ، حيث استنبطت المياه منها بحفر الآبار . والزراعة في هذه الأماكن — باستثناء العربية الجنوبية — هي زراعة محدودة ، حدودها ضيقة ، وآفاقها غير بعيدة ، ونتاجها قليل لا يكفي لإعاشة كل السكان .

وقد لزم سكان الأرضين التي تغيث السماء أرضهم ، بانزال الغيث عليها ، الاستفادة من الأمطار المنهمرة ، بحصرها وتوجيهها الى مخازن تخزنها لوقت الحاجة ، وذلك بإنشاء السدود وإقامة خزانات ذوات أبواب تفتح وتغلق لتوجيه المياه الوجهة التي يريد بها الانسان . وقد أقيمت هذه السدود في مواضع متناثرة من جزيرة العرب ، خاصة في الأماكن التي يركبها المطر مثل العربية الجنوبية والعربية الغربية . وتشاهد اليوم آثار سدود جاهلية استعملها الجاهليون للاستفادة من مياه الأمطار .

ولما كانت الأمطار رحمة ونعمة كبرى ، اذا انحبست نفقت لبسل العرب ومواشيهم ، صار انحباسها نقمة وهلاكاً ، وعدوا انحباسها عنهم غضباً من الآلة ينزل بهم ، ولهذا كان الجاهليون يتضرعون الى آلهتهم ويتقربون اليها ، أن تنزل عليهم الغيث ، ولهم في ذلك صلوات وأدعية للاستسقاء سيأتي الحديث عنها في باب الدين عند الجاهليين .

وعلى خلاف العيون الحارة التي هي من آثار التفاعلات البركانية والتفاعلات الباطنية الكيميائية ، فإن في بلاد العرب عيون وينابيع وواحات ، صارت موطناً للزراع والزرع . وبعض هذه العيون ، تتدفق من الجبال والهضاب وبعد مجرى قصير تعود فتدخل باطن الأرض كما هو الحال في أرض (مديّن) . وهناك

١ حافظ وهبه ، جزيرة العرب (ص ٦٤) . Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 10.

عيون تتوقف حياتها على المطر . وقد استفاد الجاهليون من بعض العيون والينابيع فربطوها بكهاريز وبقنوات تجري فيها المياه تحت سطح الأرض الى بيوتهم ومزارعهم دون أن تتعرض للتبخر الزائد ، فتفقد كميات كبيرة من المياه تذهب هباء . وقد عثر على شبكات منها في عُمان وفي وادي فاطمة بالحجاز وفي اليمن^١ .

أقسام بلاد العرب :

قسم اليونان واللاتين جزيرة العرب الى أقسام ثلاثة :

- ١ - العربية السعيدة Arabia Felix .
- ٢ - العربية الصخرية ، وترجمت بالعربية الحجرية كذلك (Arabia Petreae) .
- ٣ - العربية الصحراوية Arabia Deserta .

وهو تقسيم يتفق مع الناحية السياسية التي كانت عليها البلاد العربية في القرن الأول للميلاد . فالقسم الأول مستقل ، والقسم الثاني قريب من الرومان ثم أصبح تحت نفوذهم ، وأما القسم الثالث فهو البادية الى نهر الفرات^٢ .

وقد أشير الى العربية السعيدة والعربية الصحراوية في الموارد (الكلاسيكية) القديمة مثل جغرافية (سترابون)^٣ . ويرى بعض العلماء ان القسم الآخر وهو (العربية الصخرية) Arabia Petreae هو من اضافة (بطليموس) العالم الجغرافي الشهير ، وقد قصد به برية شبه جزيرة سيناء وما يتصل بها من فلسطين الى الأردن^٤ . فهو في رأي هؤلاء أحدث عهداً في التسمية من التسميتين الأخريين . ولم يأخذ الجغرافيون العرب بالتقسيم (الكلاسيكي) ، مع أنهم وقفوا على بعض مؤلفاتهم ، كجغرافية بطليموس^٥ . الا ان جزيرة العرب عندهم ، هي (العربية السعيدة) في اصطلاح أكثر الكتبة اليونان واللاتين .

١ Naval, PP., 33.

٢ Christina Phelps Grant, The Syrian Desert, London, 1937, P., 10, Ch. Forster, The Historical Geography of Arabia, in 2 Vols., Vol., 2 P., 109.

٣ Strabo, vol., 3, P., 309.

٤ William Smith, A Dictionary of the Bible, Vol., 1, P., 91.

٥ Forster, 2, 109, Edward Gibbon, The Decline and fall of the Roman Empire, Vol., 5, P., 209, (Everyman's Library ed. 1931).

العربية السعيدة : Arabia Felix

أما العربية السعيدة ، ويقال لها (Arabia Beata) و (Arabia Eudaimon) في اليونانية ، فهي أكبر الأقسام الثلاثة رقعة ، وتشمل كل المناطق التي يقال لها جزيرة العرب في الكتب العربية كما يفهم من بعض المؤلفات ، وليست لها حدود شمالية ثابتة ، لأنها كانت تتبدل وتتغير على حسب الأوضاع السياسية . ولكن يمكن القول إنها تبدأ في رأي أكثر الكتاب اليونان والرومان من مدينة (هيروبوليس) (Heropolis) على مقربة من مدينة السويس الحالية ، ثم تسير حدود العربية الحجرية الجنوبية ، ثم تخترق الصحراء حتى تتصل بمناطق الأهوار (أهوار كلديا) عند موضع (Thapsacus) . وقد أدخل بعض الكتاب هذه الأهوار في جملة العربية السعيدة ، وجعلها بعضهم خارجة عنها بحيث يمر خط الحدود في جنوبها إلى أن تتصل بمصب شط العرب في الخليج^١ . وعرفت البادية الواسعة التي هي جزء من النفود والتي تمر بها حدود العربية السعيدة الشمالية ، باسم (Eremos) عند اليونان ، وهي امتداد لبادية الشام^٢ .

العربية الصحراوية :

ويقال لها في اليونانية (Arabia Eremos)^٣ . أما حدودها ، فلم يعينها الكتاب اليونان واللاتين تعييناً دقيقاً . ويفهم من مؤلفاتهم أنهم يقصدون بها البادية الواسعة الفاصلة بين العراق والشام ، أي البادية المعروفة عندنا بـ (بادية الشام) . ويكون نهر الفرات الحدود الشرقية لها إلى ملتقى الحدود بالعربية السعيدة . وأما الحدود الشمالية ، فغير ثابتة ، بل كانت تتبدل بحسب الأوضاع السياسية . وأما الحدود الغربية ، فكانت تتبدل وتتغير كذلك ، ويمكن أن يقال بصورة عامة إن حدودها هي المناطق الصحراوية التي تصاقب الأرضين الزراعية لبلاد الشام . فما كان بعيداً عن امكانيات الرومان واليونان ومتناول جيوشهم ، عد من العربية الصحراوية^٤ .

١ Ptolemy, VI, 7, 2, 27, Strabo, XVI, 4:2, Musil, Arabia Deserta P. 498 The Bible Dictionary, Vol., 1, P., 98, A. Grohmann, Arabian, S., 4.

٢ Musil, Arabia Deserta, P., 499.

٣ Musil, Deserta, P., 497, 511, Hitti, 44.

٤ Forster Vol., 2, P., 110 ff.

ويفهم من العربية الصحراوية أحياناً (بادية السماوة)^١، وقد يجعلون حدودها على مقربة من بحيرة النجف ، أي في حدود الحيرة القديمة ، حيث تبدأ (بطائح كلدية) التي كانت تشغل اذ ذاك مساحة واسعة من جنوب العراق . وعرفت عند بطليموس باسم (Amardocaea) ، وهي تمتد حتى تتصل ببطائح (Maisanios Kolpos) أو (خليج مسنيوس) (خليج ميسان) ، الذي يكون امتداد الخليج العربي (Persikos Kolpos) . وكل ما وقع جنوب ذلك الخط الوهمي ، عدّ في العربية السعيدة^٢ .

وقد فهم (دبودورس) من (العربية الصحراوية) المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المتبدية ، وتقع في شمالها وفي شمالها الشرقي في نظره أرض مملكة (تدمر) . وأما حدّها الشمالي الغربي والغربي حتى ملتقاها بالعربية الحجرية ، فتدخل في جملة بلاد الشام . وأما حدودها الشرقية ، فتضرب في البادية الى الفرات . فأراد بها البادية اذن . وقد جعل من سكانها الإرميين والنبط^٣ .

وتقابل العربية الصحراوية ، ما يقال له (أربى) عند الآشوريين ، و (ماتوأربى) عند البابليين ، و (أرباية) عند السريان والفرس .

كانت البادية ، بادية الشام ، أو (العربية الصحراوية) ، مأهولة بالقبائل العربية ، سكنتها قبل الميلاد بمئات السنين . وليست لدينا مع الأسف ، نصوص كتابية قديمة أقدم من النصوص الآشورية التي كانت أول نصوص أشارت الى العرب في هذه المنطقة ، وذكرت انه كانت لديهم حكومات يحكمها ملوك . وأقدم هذه النصوص هو النص الذي يعود تأريخه الى سنة ٨٥٤ ق. م^٤ . وقد ورد فيه اسم العرب في جملة من كان يعارض السياسة الآشورية ، ولما كان هذا النص يشير الى وجود مشيخة أو مملكة عربية ، يحكمها ملك فلا يعقل أن يكون العرب قد نزلوا في هذا العهد في هذه البادية ، بل تشير كل الدلائل الى أن وجودهم فيها كان قبل هذا العهد بأمد ، وربما كان قبل الألف الثاني قبل الميلاد . وقد كانت هذه القبائل تهاجم أرض ما بين النهرين وبلاد الشام ، وتكون مصدر

١ Musil, Deserta, P., 235.

٢ Musil, Deserta, P., 500, 503, Stephan of Byzantium, Ethnica, P., 237, (Ed. Meineke).

٣ Musil, Deserta, P., 499, Diodorus, Bibl. Hist., 11, 54.

٤ D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Vol., 1, 611.

رعب للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وكانت تتقل في هذه البادية
الواسعة ، لا تعترف بفواصل ولا بحدود ، فتقيم حيث الكأ والماء والمحل الذي
يلائهم طبعها^١ .

أما الروايات العربية ، وهي لا تستند الى وثائق أو نصوص جاهلية ، فقد
رجحت وجود العرب في هذه الأرضين الى ما بعد الميلاد في الغالب ، ولم يتجاوز
بعض من تجاوز الميلاد أيام (بحث نصر) وهو بالطبع حديث مغلوط فيه .

العربية الحجرية ، العربية الصخرية :

وأما العربية الحجرية ، فتشمل الأرضين التي كان يسكن فيها الأنباط ،
وخضعت لنفوذ الرومان والبيزنطيين . ويطلق ذلك الاسم ، أي العربية الحجرية ،
على شبه جزيرة سيناء ، وعلى المملكة النبطية ، وعاصمتها (بطرا) (بتر)
(البتر)^٢ . وكانت حدود هذه المنطقة تتوسع وتتقلص بحسب الظروف السياسية
وبحسب مقدرة العرب ، ففي عهد الحارث الرابع ملك الأنباط (من سنة ٩ ق.م
الى سنة ٤٠ ب.م) اتسعت حدودها حتى بلغت نهايتها الشمالية مدينة دمشق^٣ .
ولما ضعف أمر النبط ، استولى الامبراطور (تراجان) عام (١٠٦ م) على هذه
المقاطعة وضمها الى المقاطعة التي كونها الرومان وأطلقوا عليها اسم (المقاطعة
العربية) (Provincia Arabia) . ويظهر من وصف (ديودورس) لهذه
المنطقة انها في شرق مصر وفي جنوب البحر الميت ، وجنوبه الغربي وفي شمال
العربية السعيدة وغربها^٤ . وان الأنباط يقيمون في الأرضين الجبلية وفي المرتفعات
المتصلة بها التي في شرق البحر الميت ، وفي شرق وادي العربية ، وفي جنوب
اليهودية حتى الخليج العربي ، (خليج العقبة)^٥ . وأما الأقسام الباقية ، فكانت
تسكنها قبائل عربية قيل لها (سبئية) ، وهي تسمية كانت تطلق عند الكتبة

Forster, Vol., 1, P., 347. ١

R.E. Brunnow und A. v. Domszewski, Die Provincia Arabia, in 3 Bd. ٢

Hitti, P., 44, 68. ٣

Diodorus, 11, 48, Musil, Hegaz, P. 309. ٤

Musil, Hegaz, P., 309, Deserta, P., 499. ٥

اليونان والرومان على أكثر القبائل المجهولة أسماءها، التي تقطن وراء مناطق نفوذ الأنباط والرومان ، ويعنون بذلك قبائل جنوبية في الغالب .

التقسيم العربي :

ويؤسفنا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن وجهة نظر أحد من الجاهليين في أقسام بلاد العرب، لعدم ورود شيء من ذلك في النصوص أو في الروايات التي يروونها عنهم أهل الأخبار ، وكلهم مسلمون .

أما الإسلاميون ، فقد اكتفوا بجزيرة العرب ، فأخرجوا بذلك البادية الواسعة منها ، وأخرجوا القسم الأكبر مما دعاه الكلاسيكيون بالعربية الحجرية منها كذلك. وجزيرة العرب وحدها ، هي (العربية السعيدة) عند اليونان والرومان ، وما يقال له أيضاً بـ (Arabia Proper) في الانكليزية^١ .

وقد قسموا جزيرة العرب الى خمسة أقسام : الحجاز ، وتهامة ، واليمن ، والعروض ، ونجد^٢ . ويرجع الرواة أقدم رواياتهم في هذا التقسيم الى عبدالله بن عباس^٣ .

أما الحجاز ، فتمتد رقعته في رأي أكثر علماء الجغرافية المسلمين ، من تخوم الشام عند العقبة الى (الليث)^٤ ، وهو واد بأسفل السراة يدفع في البحر ، فتبدأ عندئذ أرض تهامة^٥ . وقد عد قسم من العلماء (تبوك) وفلسطين من أرض الحجاز^٦ . ويقال للقسم الشمالي من الحجاز أرض مدين وحسمى ، نسبة الى السلسلة الجبلية المسماة بهذا الاسم ، التي تتجه من الشمال نحو الجنوب^٧ ، وتتخللها

Forster, Vol., 2, PP., 112.

١ صفة (ص ٤٧ وما بعدها) ، البلدان (٢١٨/٣) ، الفضليات ص ٤١٦ .

٢ صفة ص ٤٦ .

٣ (الليث) بكسر اللام ثم الياء الساكنة والشاء المثناة ، البلدان (٢١٨/٣) ، (٣٤٦/٧) ، (اذا خلفت عجلزا صعدا فقد انجذت ، فلا تزال منجدا حتى تنحدر من ثنایا ذات مرق ، فاذا فعلت فقد اتهمت الى البحر ، واذا عرضت لك الحرار وانت منجد فتلك الحجاز) ، (حد الحجاز ، الاول بطن نخلة وظهر حرة ليلى ، والحد الثاني مما يلي الشام شعب وبدا ، والحد الثالث مما يلي تهامة بدر والسقيا ورهاط وعكاظ ، والحد الرابع شابة وودان ، ثم ينحدر الى الحد الاول) ، بلوغ الارب (١٨٧/١ وما بعدها) .

٤ البلدان (٢١٨/٣)

٥ البلدان (٢١٨/٣)

٦ Ency., 1, 368, Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 96.

٧ البلدان (٤١٧/٧)

أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة ، وأرض بني عذرة من ظهرة حرة نهيل من جهة أخرى^١ . وكانت تسكنها في الجاهلية قبائل جذام^٢ . ويسكنها في الزمن الحاضر عرب الحويطات ، ويعتقد المستشرقون أنهم من بقايا النبط^٣ .

وأرض (حسمى) ، أرض خصبة كثيرة المياه . وكانت من المناطق المعمورة ، وبها آثار كثيرة ومن جبالها جبل يعرف بـ (لرم)^٤ . ويرى بعض المستشرقين أن لهذا الجبل علاقة بموضوع (لرم) الوارد ذكره في القرآن الكريم وفي كتب قصص الأنبياء والتواريخ^٥ . ويرى (موريتس) أنه موضع (Aramaia) الذي ذكره (بطليموس) على أنه أول موضع من مواضع العربية السعيدة ، وأنه لا يبعد كثيراً عن البحر^٦ . ويقال له (رم) في الزمن الحاضر^٧ .

وتتخلل الحجاز أودية عديدة ، منها وادي لإضم الذي ورد ذكره في أشعار الجاهلية وفي أخبار سرايا الرسول^٨ . ووادي نخال ، ويصب في الصفراء بين مكة والمدينة^٩ . والصفراء واد من ناحية المدينة ، كثير النخل والزرع ، في طريق الحاج ، سلكه الرسول غير مرة ، وعليه قرية الصفراء ، وماؤها عيون تجري إلى ينبع ، وهي لجهينة والأنصار ولبنى فهر ونهد ورضوى^{١٠} . ووادي (بدا) قرب أيلة ، يتصل بوادي القرى^{١١} . ووادي القرى واد مهم يقع بين العلا والمدينة ، ويمر به طريق القوافل القديم الذي كان شرياناً من شرايين الحركة

١ البلدان (٢٧٦/٣) ، لسان العرب (٢٤/١٥) .

٢ Ency., Vol., I, P. 368, Doughty, Vol. 2, P. 624.

٣ Ency., Vol., 2, P., 349.

٤ البلدان (٢٧٧/٣) .

٥ Mr. Horsfield, in Revue Biblique, XLI, (1932),

PP., 581, XLII, (1933), PP., 405, XLIII, (1934),

PP., 572, XLIV, (1935) PP., 45.

٦ Ptolemy, VI, 7 : 27, B. Moritz, in MFOB, III, P., 395, "Ausflüge in der Arabla Petraea".

٧ Musil, Hegaz, P., 273.

٨ البلدان (٢٨١/١) ، صفة ١٧١ .

٩ البلدان (٢٧٢/٨) .

١٠ البلدان (٢٧٢/٨) .

١١ البلدان (٣٦٧/٥) .

التجارية في العالم القديم ، ويقال له (وادي الديبدان)^١ ، ويصب فيه واديان هما : وادي جزل من الشمال ، ووادي الحمض من الجنوب ، ويلتقي به واد آخر هو وادي التبج ، أي وادي السلسلة^٢ . وكان عامراً جداً ، تكثر فيه المياه ، وتشاهد فيه اليوم آثار المدن والقرى^٣ . وقد عثر فيه على كتابات كثيرة لحياة وسبئية ومعينية وغيرها ، سأحدث عنها .

ومن أهم مواضع وادي القرى (العلا) ، وقد نزل الرسول في طريقه الى تبوك^٤ . ويقع في موضع (ديدان) (ددان) (ددن) القديم . وبه واحة ونهر صغير^٥ . ومدينة (قرح) ، وكانت من أسواق العرب في الجاهلية ، وقد زعم أنها القرية التي كان بها هلاك عاد^٦ . وتبعد عن خرائب (ديدان) بمسافة ثلاثة كيلومترات ، وقد سكنتها قبائل (بلي) من القبائل العربية القديمة^٧ . وهي ملتقى طريق مصر القديم بطريق الشام . ويرى (موسل) أنها هي (العلا) ، دعت بهذا الاسم فيما بعد^٨ . ولما سألت (دوتي) الأعراب القاطنين في هذه الأماكن عن (قرح) ، لم يعرفوا من أمرها شيئاً^٩ .

ووجد (دوتي) في قرى وادي القرى وخرائبه عدداً كبيراً من الحجارة المكتوبة بحرف المسند ، وقد اتخذها السكان أحجاراً من أحجار البناء^{١٠} . وعثر في (الخريبة) على كتابات بهذا القلم ، وعلى آثار أبنية ومواطن حضارة وعلى ألواح من الحجر كان يستعملها الصيارفة لصنف نقودهم عليها ، أو لذبح القرابين^{١١} . كما شاهد موضعاً يقال له (اسطبل عنتر) على قمة جبل شاهق يرنو الى الوادي ولعله معبد أحد الأصنام التي كانت تعبد هناك .

١ البلدان (٨٧/٢)

٢ Ency., Vol., 4, P., 1077, Doughty, Travels in Arabia Deserta, London, 1936, Vol., 1, P., 187.

٣ Ency., Vol., 4 P., 1077.

٤ (وكان بين سبأ والشام قرى متصلة ، فكانوا لا يحتاجون من وادي سبأ الى الشام الى زاد) ، لسان العرب (٣٨/١٩) .

٥ البلدان (٢٠٧/٦) .

٦ وهبه ٢٠ .

٧ البلدان (٤٩/٧) .

٨ Musil, Hegaz, P., 295, Doughty, 1, P., 203.

٩ Musil, P., 295.

١٠ Doughty, I, P. 87

١١ Doughty, 1, P., 203 f.

تهامة :

وتبدأ حدود تهامة ، في رأي بعض الجغرافيين ، من بحر القلزم^١ ، فتكون المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر^٢ . ويقال لتهامة الواقعة في اليمن (تهامة اليمن) ، ويختلف عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر وبعدها عنه ، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلاً في بعض الأماكن . وترتفع أرض تهامة الجنوبية الواقعة على البحر العربي ما اتجهت نحو الشرق ، وتتكون فيها سلاسل من التلال المؤلفة من حجارة كلسية ترجع الى العهود الجيولوجية الحديثة أو من حجارة بركانية^٣ .

ولانخفاض أرض تهامة قبل لها (الغور) و (السافلة)^٤ . وقد وردت لفظة تهامة على هذا الشكل (تهمت) (تهتم) في النصوص العربية الجنوبية^٥ .

ويظهر ان لهذه اللفظة علاقة بكلمة (Tiamtu) ، التي تعني البحر في البابلية . وبكلمة (تيهوم Tehom) العبرانية^٦ . وعندني ان هذه الكلمة ترجع الى أصل سامي قديم ، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر ، والتي تكون لذلك شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف^٧ . ولهذا فإنها في العربية بلهجة القرآن الكريم وباللهجات الجنوبية السواحل المنخفضة الواقعة بين الجبال والبحر ، وهي حارة وحة شديدة الرطوبة كأنها من بقاع جهنم في الصيف .

اليمن :

حدث اليمن في عرف بعض العلماء من وراء « تثليث » وما سامتها الى صنعاء

- ١ (القلزم) بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة وميم ، البلدان (١٤٥/٧) .
- ٢ راجع حدود تهامة في : البلدان (٣١١/٦) ، صفة ٥٤ ، ١١٩ ، ١٢١ ، بلوغ العرب (١٨٨/١) .
- ٣ Ency., Vol., 4, P., 769.
- ٤ البلدان (٤٣٧/٢) ، (٣١١/٦) .
- ٥ Glaser 554, 618, Ency., Vol., 4, P., 764.
- ٦ Schrader, Die Kellinschriften und das Alte Testament, neu bearbeitet von Zimmern und Winckler, Berlin, 1903, S., 492.
- ٧ وسأشير اليه برمز : KAT

وما قاربها الى حضرموت والشحر وعمان، الى عدن أبين وما يلي ذلك من التهامم والنجود . وقيل : يفصل بين اليمن وباقي جزيرة العرب خط ، يأخذ من حدود عمان ويرين الى ما بين اليمن واليامة فإلى حدود الهجيرة وتثليث وكثبة وجرش ومنحدرأ في السراة الى شحف عتر وشغف الجبل أعلاه الى تهامة الى أم جحدم الى البحر الى جبل يقال له كرممل بالقرب من حضنة ، وذلك حد ما بين كنانة واليمن من بطن تهامة^١ . أما النصوص العربية الجنوبية ، فلم تثبت حدود اليمن . ولكن اليمن فيها وتسمى (يمنت) (يمنتات) ، منطقة صغيرة ذكرت في نص يعود عهده الى أيام الملك (شمر يهرعش) ، المعروف في الكتب الإسلامية بـ (شمر يرعش)^٢ ، بعد (حضرموت) في الترتيب . وعلى هذا الترتيب وردت أيضاً في نص (أبرهة) نائب النجاشي على اليمن . ويعود عهده الى سنة ٥٤٣ م^٣ .

وتحترق السراة اليمن من الشمال الى الجنوب حتى البحر ، وتدخلها الأودية التي تنساب فيها مياه الأمطار، وتمتد بين الهضاب والشعاب فلاة تنفرع من الدهناء من ناحية اليامة والفالج يقال لها (الغائط) ، وتظهر في أواسطها (الصيهدة) ، وتقع بين مأرب وحضرموت^٤ .

وفي شمال منطقة عدن صحراء تتصل بالربع الخالي ، يحترق الهضاب المهيمنة على عدن عدد من الأودية الجافة يظهر أنها كانت مسابيل مياه ، وأنها من بقايا

١ KAT, S., 492, anm., 2, P. Jensen, Keilinschr. Bibl., VI, 1, S. 559 Ency. Vol. 4 P. 764

٢ (قال الاصمعي : اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عمان الى نجران ، ثم يلتوى على بحر العرب الى عدن الى الشحر حتى يجتاز عمان ، فينقطع من بينونة ، وبينونة بين عمان والبحرين ، فليست بينونة من اليمن . . .) ، البلدان (٨١/٥) ، (٥٢٢/٨ وما بعدها) ، صفة ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، البكري : معجم ما استعجم (١٦/١) ، ابن خرداذبه ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٨٩ ، بلوغ الارب (٢٠٢/١ وما بعدها) و Ency., Vol., 4, P. 1155

٣ الاكليل (١٠٨/٨ وما بعدها) ، التيجان ص ٢٢٢ فما بعدها ، اخبار عبيد ص ٤٢٨ ، تاريخ الطبري (٥٤٧/١ ، ٧٩٣ فما بعدها) ، (الطبعة الاوربية) Glaser, Zwei Inschriften ueber den Dammbruch von Marib, in Mithell. der Vorder-Asiat. Ges. 1887.

٤ صفة ٨٤ ، البلدان (٤١٩/٥) .

أنهار جفت ، وتسيل في بعضها المياه عند سقوط الأمطار ، ومنها (وادي تب) ^١ ، وهو من بقايا نهر طويل ، له فروع عديدة ، وتمر به الطريق الرئيسية المؤدية الى اليمن ^٢ .

ويخترق حضرموت واد ، يوازي الساحل ، يبلغ طوله بضعة مئات من الأميال ويتألف سطحه من أرضين متموجة تتخللها أودية عميقة تكثر فيها المياه ، في باطن الأرض ، وبعض تلاله مخضبة ^٣ .

وفي حضرموت حجارة بركانية ومناطق واسعة ، يظهر أنها كانت تحت تأثير البراكين . والظاهر أن دورها لم ينته إلا منذ عهد ليس ببعيد ^٤ . ويزرع الناس في هذه الأودية حيث يحفرون آباراً في قيعانها فتظهر المياه على أبعاد متفاوتة ، وهناك نهر يقال له نهر حجر ^٥ .

ومن شرق سيحوت تبتدئ سواحل (مهرة) ، وتعرف عند الجغرافيين باسم (الشحر) . ومعنى كلمة (مهرة) في العربية الجنوبية القديمة (ساحل) ^٦ . ويطلق اليوم اسم (الشحر) على الميناء الغربي وحده . وفي (قارة) ^٧ مدينة (ظفار) ، وهي غير ظفار اليمن ^٨ . وعند خليج ظفار كان موضع (Syagro) المشهور عند اليونان والرومان ^٩ .

ويمتد إقليم ظفار من سيحوت الى حدود عمان ، وهو هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، تهب عليها الرياح الموسمية ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكندر التي اشتهرت بها بلاد العرب قبل الإسلام . وتشققها طولاً وعرضاً أودية تكسوها

١ Hugh Scott, In the High Yemen, P., 25, f.

٢ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 179 f.

٣ وادي عدم : الهلال ، الجزء السادس عشر ، السنة السادسة ، نيسان ١٨٩٨

ص ٦٠٣ ، Adolf von Wrede, S., 290, Ency., 1, P., 369.

٤ Ency., 1, P., 369, Reise, S., 287, ff.

٥ تاريخ حضرموت السياسي ، تأليف صلاح البكري (٣/١) ، (القاهرة ١٣٥٤) ، (نهر ميفع) ، الهلال ، العدد المذكور ص ٦٠٤ ، وقد تحدث صاحب المقال عن الآثار التي رآها في وادي عدم .

٦ البكري (١٤١/٢) فما بعدها ، Ency., 1, 369

٧ وتنمو في قارة نباتات الطيب والافاويه ، Hugh Scott, PP., 147.

٨ Reise, S., 39.

٩ Reise, S., 33, Forster, Vol., 2, P., 161, 166, 224 234.

الأعشاب وتخللها الأشجار . وبها جبال (قرا) ^١ ، ومنحدراتها أرجوانية ، وقد تفتت الصخور الحمر فيها ، فأكسبت الأودية والسهول الحمرة ، وتوجد نهيرات وعيون ، ويمكن الحصول على المياه بحفر الآبار . ولا زال السكان يحتفظون بعاداتهم القديمة الموروثة مما قبل الإسلام ^٢ .

ويظهر أن هذه المنطقة كانت أماكن (القرين) من الشعوب العربية الجنوبية القديمة ، وهناك قبيلة لا تزال حتى اليوم يقال لها (بنو قرا) ^٣ لعل لها صلة بالقرين .

ويتكلم أهل (مهرة) بلهجة خاصة ، يقال لها (المهرية) أو (الأمهرية) ، وهي متأثرة بالجعزية ^٤ . كما يتكلم أهل قارة (قرا) بلهجة يقال لها (أحكيليلة) ، ويظن أنها من اللهجات العربية القديمة .

وتتألف أرض عمان من أماكن جبلية ، وهضاب متموجة ، وسهول ساحلية . وأكثر حجاراتها كلسية وجرانيتية ، وفيها أيضاً حجارة بركانية . والظاهر أنها كانت من مناطق البراكين ^٥ . وفي مناطق التلال وفي (جعلان) عيون ومجاري مياه معدنية أكثرها ذات درجات حرارة مرتفعة . وتوجد آبار في (الباطنة) وفي المناطق المجاورة للصحراء وفي الأقسام الشرقية من عمان ^٦ .

وتتخلل هضاب عمان وجبالها أودية معظمها جاف ، وتكون طرق المواصلات بين الساحل والأرضين الباطنة ، وجوؤها حار استوائي ، وتتجه الجبال من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، وأعلى قمة فيها هي قمة الجبل الأخضر ، ويبلغ ارتفاعها تسعة آلاف قدم . والأرضون المحيطة بهذا الجبل ، خصبة ، وقابلة للاستثمار ^٧ .

١ Hugh Scott, P., 147.

٢ اليافعي (٢٠١/٢) فما بعدها .

٣ اليافعي (٢٠٦/٢) فما بعدها .

٤ Relse, S., 33, Leo Hirsch, Reisen in Sued-Arabien, Mahra Und Hadramut, Leiden, 1897, S., 19, 34, 51, 52, 53.

٥ Handbook of Arabia, Vol., 1, P., 238, Ency. Brit., Vol., 16, P., 785.

٦ Handbook, Vol., 1, P., 238, Leo Hirsch, S., 183.

٧ S.H. Steinberg, The Statesman's Yearbook, London, 1948, P., 689.

وفي عمان مدن قديمة ، منها (صحار) و (نزوة)^١ و (دبا) أو (دما) ، وكانت من المدن المهمة في أيام الرسول ، وهي عاصمة عمان الشمالية ، كما كانت سوقاً من أسواق الجاهلية ، وسكانها من الأزد . والعُمانيون من الشعوب البحرية المحبة لركوب البحار ، ولهم صلات وروابط بسواحل افريقية والهند . ونجد بينهم عدداً كبيراً من الزنوج والهنود والفرس والبلوج^٢ .

العروض :

وأما العروض ، فيشمل اليمامة والبحرين وما والاها^٣ . وأغلب الأرضين فيه صحارى وسهول ساحلية ، ترتفع في الجهات الغربية عن ساحل البحر . ويمتد مرتفع الصمان الصخري موازياً لساحل الخليج ، متوسطاً بين الأحساء والدهناء . ومن أودية الأحساء ، وادي فروق في الجنوب ، وهو قسم من وادي المياه^٤ .

ومن أقسام العروض ، شبه جزيرة (قطر) التي تمتد من عمان الى حدود الأحساء^٥ . يشغل سكانها بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ ، وقد عرفت بـ (Cataraei) عند (بلينيوس)^٦ . ومعظم أراضيها صحارى، وفيها واحات قليلة ، ويزرع السكان في بعض الأماكن على مياه الآبار^٧ . وقد عرفت قديماً بأنواع من الثياب والمنسوجات القطرية ، كانت تصدر الى الخارج ، كما عرفت بتصدير النجائب والنعام^٨ .

ويلى شبه جزيرة قطر ، (الأحساء) ، وكان يقال لهذه المنطقة قديماً (هجر)

١ البلدان (٣٠/٤) ، (٣٣٩/٥) ، (٢٨١/٨) .

٢ Steinberg, P., 690, O'shen, The Sand Klngs of Oman, London, 1947.

٣ البلدان (١٠١/٣) ، (١٦٠/٦) .

٤ وهبة ٦٨ ، (الصمان) ، بالفتح ثم التشديد واخره نون ، البلدان (٣٨٣/٥) .

٥ البلدان (١٢٣/٧) ، (٦٩٢) ، Steinberg, P., 692.

٦ Pliny, Natura. Hist., VI, 28, 147, Ency., Vol., 2, P., 817 Sprenger, Geogr. Arab. S., 116, Skizze, BD., 2, S., 75.

٧ Ency., Vol., 2, P., 817, Fr. Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S., 177, Palgrave, Travels in Arabia, London, 1865, Vol., 2, PP., 232.

٨ البلدان (١٢٣/٧) .

والبحرين^١ . والقسم الأكبر من الأحساء ، سهل صحراوي ، يرتفع في الجهة الغربية عن ساحل البحر ، ويتخلله كثير من التلال ، يتجه بعضها باتجاه وادي المياه وجبل الطف^٢ . والمنطقة الساحلية ، سبخة في الغالب ، وتكثر فيها الآبار التي لا تبعد مياهها كثيراً عن سطح الأرض . وأغنى مناطق الأحساء ، منطقة الأحساء والقطيف في الجنوب حيث تكثر المياه من آبار وعيون^٣ .

وتظهر المياه الجوفية المنحدرة من الأمطار التي تتساقط بمقدار أربع عقد أو خمس عقد (انج) في السنة على حافات جبل (طويق) في (الهفوف) ، تظهر فيها على شكل عيون ، تبلغ زهاء أربعين عيناً ، جعلت المنطقة من أهم الواحات في المملكة العربية السعودية^٤ . وبحذاء هجر في الجنوب الغربي من مدينة القطيف تقع (العقير) ، وهي الآن ميناء صغير^٥ . وعلى مقربة منها خرائب عادية ، يعتقد العلماء أنها موضع (Gerrhaei) المدينة التجارية العظيمة التي اشتهر أمرها ، وبلغت شهرتها اليونان والرومان^٦ . وكانت محطة من المحطات التجارية العالمية ، وملتقى طرق القوافل التي كانت ترد من جنوب بلاد العرب قاصدة العراق . وقد أغرت الطامعين ، فطمعوا في الاستيلاء عليها ، وأوحت الى الكتبة (الكلاسيكيين) ، فكتبوا فيها قصصاً من نسج الخيال ، وتقع على خليج سماء (الكلاسيكيون) (Sinus Gerraicus) ، أي خليج جرها^٧ .

وتقع القطيف على خليج يشمل جزيرة (تاروت) وتعد المدينة البحرية الرئيسية في الأحساء ، يرتفع سطحها بضع أقدام عن سطح البحر ، وتكثر بها مياه العيون^٨ . وتشاهد عندها خرائب عادية ، يستدل منها على أن هذه المدينة كانت

١ وهبة ٦٨ . Handbook, Vol., 1, P., 298

٢ الطف ، بالفتح والغاء مشددة ، البلدان (٥١/٦) ، وهبة ٦٨ ،

٣ وهبة ٦٨ ، Handbook, Vol., 1, P., 298

٤ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 58.

٥ وهبة ٧٢ فما بعدها ، البلدان (١٩٨/٦) ، مروج الذهب (٩١/١) ،

Handbook, Vol., 1, P., 308, Chesman, PP., 27,

وكانت هجر قصبة بلاد البحرين ، البلدان (٤٤٦/٨)

٦ الجرها ، « Gerrael »

Forster, Vol., P., 217, "Gerrael", Glaser, Skizze, Bd, 2, S. 75.

٧ Strabo, Vol., 3, P., 186, 187, Forster, Vol., 2 P. 217.

٨ Forster, Vol., I, P., 196, 197, 291, Vol., 2, P. 220. Cornwall in The National Geographical Magazine, April, 1948.

ذات تاريخ قديم ، ربما يعود الى آخر عهد من عهود العصر النحاسي .
وفي هذه المنطقة ، يجب أن يكون موقع مدينة (بلبانا) (Bilbana)
(Bilaena) (Bilana) ، إحدى مدن (الجرهابيين)^١ . ومواطن قبيلتي
(Gaulopes) و (Chateni) على سواحل خليج سمياه (بليينوس)
(Sinus Gaulopeus) أي (خليج كيبوس) . ويرى (شبرنكر) أنه
(خليج القطيف)^٢ . ويذكرنا اسم (Chateni) (خطيني) باسم (الخط) ،
ويطلق في العربية على سيف البحرين كله^٣ . وربما كان (كيبوس) ، الذي
سمي الخليج به ، هو تحريف (Cateus) الذي يشير بكل وضوح الى اسم
(القطيف) .

وأما جزيرة (تاروت) الصغيرة التي في هذا الخليج ، فالظاهر انها جزيرة
(Tahr) أو (Taro) أو (Ithar) في جغرافية (بطليموس)^٤ ، وفيها
مدينة (دارين) . ويظهر انها أقيمت على أنقاض أبنية قديمة ، ولعلها كانت
معبداً للإله (عشروت) . اشتهرت به ، ثم حذفت المقطع الأول من اسم
الإله اختصاراً ، وصارت تعرف بالمقطعين الأخيرين ، وهما (تاروت) .
والقسم الأكبر من أرض الكويت منبسط ، وأكثر السواحل رملياً ، الا بعض
المضارب أو التلال البارزة . وفي المحال التي تتيسر فيها المياه تتوافر الزراعة ،
وأكثر ما يزرع هناك النخيل . وليس في الكويت من الأنهار الجارية غير مجرى
واحد أو نهر يقال له (المقطع) ، يصب في البحر . ومشكلة ماء الشرب من
أهم المشكلات في هذه الإمارة ، لأن ماء أغلب الآبار ملح أجاج ، ولذلك يضطر
الأغنياء الى جلب المياه من شط العرب^٥ .

ومن أشهر مدن الكويت مدينة (الكويت) ، وهي العاصمة ، وهي على ساحل
الخليج ، و (جهرة) ، وهي في منطقة زراعية خصبة ، ذات آبار على مقربة
من خليج الكويت^٦ . ويظن أن الخندق الذي أمر بحفره (سابور ذو الأكتاف)

١ Forster, Vol., 2, P., 216, Glaser, Skizze, 2, S., 74.

٢ Enc., 2, P., 821.

٣ البلدان (٤٤٩/٣) ، المفضليات ص ٢٤٥ .

٤ Forster, Vol., 2, P., 216.

٥ Forster, Vol., 1, P., 298, 301, Vol., 2, P., 216 217 220 Glaser Skizze 2 S. 76.

٦ وهبة ص ٧٦ ، Handbook, Vol., 1, P., 285, Ency., 2, P., 1173.

٧ (الجهرة) ، وهبة ٧٧ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ومواضع أخرى
Handbook, Vol., 1, P., 298.

ليحمي السواد من غزو الأعراب ، كان ينتهي في البحر عند (خليج كاظمة) في شمال الإمارة^١ .

وأرض الكويت ، مثل سائر أرض العروص ، كانت موطن شعوب قديمة ، فيظهر أن (Bukae) أو (Abucaei) أو (Abukae) ، وعاصمتهم مدينة (Coromanis) ، هم أسلاف بني عبد القيس ، وأن (Coromanis) ، المصدر اللغوي الذي اشتق منه (القرين) ، الاسم القديم للكويت^٢ .

ولعلّ (Idicare) هي (قارة) من مواضع الكويت^٣ ، وإن (Jucara) هي (الجهرة) من أخصب مناطق الكويت في الزمن الحاضر، وكانت من المواضع المأهولة قبل الإسلام^٤ .

وقد عرف (ياقوت) البحرين بأنها الأرضون التي على ساحل بحر الهند بين البصرة ومُعمان ، وذكر أن من الناس من يزعم أن البحرين قصبة هجر ، وأن منهم من يرى العكس ، أي أن هجرأ هي قصبة البحرين^٥ .

أما (أبو الفداء) فذكر أن البحرين هي ناحية على (شط بحر فارس) ، وهي ديار القرامطة ولها قرى كثيرة ، وبلاد البحرين هي هجر . وذكر أيضاً أن من الناس من يرى أن هجرأ اسم يشتمل جميع البحرين كالشام والعراق ، وليس هو مدينة بعينها^٦ . ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عن البحرين أن رأيهم في حدودها كان متبايناً ، وأنهم لم يكونوا على اتفاق في تحديدها، فتارةً يوسعونها ، وتارةً يقلصونها .

ومن مواضع البحرين (محلم) ، وبه نهر اشتهر بنخله ، واليه أشار (بشر بن أبي خازم الأسدي) بقوله :

كأن حد وجههم لما استقلوا نخل (محلم) فيها ينوع^٧

١ Ency, 2, P., 1173.

٢ تاريخ الكويت ، لعبد العزيز الرشيد (بغداد ١٩٢٦) ، (٢٢/١) ، Forster, Vol., 2, P., 213.

٣ وهبة ص ٧٩ ، Forster, Vol., 2, P., 214.

٤ Forster, Vol., 2, P., 214.

٥ البلدان (٣٤٦/١) (دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥) .

٦ تقويم البلدان (ص ٩٩) .

٧ ديوان بشر (ص ١٣٠) .

اليامة :

وأما اليامة ، فكانت تعرف بـ (جو) أيضاً ^١ ، وقد عدّها (ياقوت الحموي) من نجد ^٢ ، وقاعدتها (حجر) . وكانت عامرة ذات قرى ومدن عند ظهور الإسلام ، منها (منفوحة) ، وبها قبر كان ينسب الى الشاعر (الأعشى) ^٣ . و (سدوس) من المدن القديمة ، وبها الآن آثار كثيرة ، وقد عثر فيها على تمثال يبلغ قطره ثلاث أقدام ، وارتفاعه ٢٢ قدماً ^٤ . و (القرية) ، وعلى مقربة منها بئر ، قال الهمداني - وهو يتحدث عنها - : « فإن تيامنت شربت ماءً عادياً ، يسمى قرية ، الى جنبه آبار عادية وكنيسة منحوتة في الصخر ، ثم ترد ثجر » ^٥ . والظاهر أن هذا الموضع كان من المواضع الكبيرة المعروفة . وذكر ياقوت وغيره ان اليامة « كانت تسمى جوا والقرية » ^٦ . ولا يعقل تسمية اليامة بالقرية لو لم يكن لهذا الموضع شهرة .

وقد نشر (فليبي) وبعض رجال شركة النفط العربية السعودية صوراً فوتوغرافية لكتابات ونقوش عثروا عليها في موضع يقال له (قرية الفأو) على الطريق الموصلة الى نجران ويقع على مسافة سبعين كيلومتراً من جنوب ملتقى وادي الدواسر بجبل الطويق ، وعلى مسافة (١٢٠) كيلومتراً من شرقي (نجران) ^٧ ،

- ١ صفة ١٦١ ، البلدان (٥١٦/٨) ، (واليامة القرية التي قصبتها حجر ، كان اسمها فيما خلا جوا . وفي الصحاح كان اسمها الجو) ، لسان العرب (١٣٥/١٥)
- ٢ البلدان (٥١٦/٨)
- ٣ البلدان (١٨٢/٨) ، صفة ١٦٢ .
- ٤ وهبة ص ٥١ ، راجع وصف (فليبي) لسدوس في كتابه Arabia of the Wahabis, P., 77.

- ٥ صفة ص ١٥٢ .
- ٦ البلدان (٥١٦/٨) ، وقد نزل بنو سدوس بن شيبان بن ذهل ، ولذلك قيل لها (قرية بني سدوس) ، قال ياقوت : (قرية بني سدوس بن شيبان بن ذهل ، وفيها منبر وقصر يقال أن سليمان بن داود عليه السلام بناه من حجر واحد من اوله الى آخره ، وهي اخصب قرى اليامة ، لها رمان موصوف ، وربما قيل لها القرية) ، البلدان (٤٦/٥) (٧٦/٧) .

The Geographical Journal, Vol., CXII, June, 1949, PP., 86, v
Le Museon, LXII, (1949), 1-2, PP., 87.

راجع ايضا ما كتبه (فليبي) في بعض مؤلفاته عن هذا الموضع .

وعلى ثلاثين ميلاً من جنوب غربي (السليل) في وادي الدواسر^١ .

كما وجدوا آثاراً أبنية ضخمة ، يظهر أنها بقايا قصور كبيرة ، ووجدوا كهفاً منحوتاً في الصخر مزداناً بالكتابات والتصاویر واسعة ، يقول له الناس هناك (سردباً) أو (سرداباً) . وعند هذا الموضع عين ماء وآبار قديمة ، وقد كتب اسم الصنم (ود) بحروف بارزة . وتدل كل الدلائل على أن الموضع الذي تتغلب عليه الطبيعة الصحراوية في الزمن الحاضر ، كان مدينة ذات شأن^٢ .

وقد أشار الألوسي في كتابه (تأريخ نجد) الى سدوس وآثارها فقال : (وفي قربها أبنية قديمة يظن أنها من آثار حمير وأبنية التباة .) (نقل لي بعض الأصحاب الثقات من أهل نجد : ان من جملة هذه الأبنية شاخصاً كالمنارة ، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها . فلما رأى أهل قرية سدوس اختلاف بعض السياحين من الإفرنج إليها ، هدموها ملاحظة التدخل معهم)^٣ . وفي هذا الوصف دلالة على أن الخرائب التي ذكرها (ياقوت الحموي) بقيت ، وأن المنبر الذي أشار اليه ، قد يكون هذا الشاخص الذي شبه بالمنارة والذي أزيل على نحو ما ذكره الألوسي .

والكتابات التي عثر عليها في (قرية الفاو) ذات أهمية كبيرة ، لأنها أول كتابة باللهجات العربية الجنوبية عثر عليها في هذه المواضع ، وتعود الى ما قبل

١ كتاب من الدكتور (جورج ماثيوس) تأريخه ٣٠ اغسطس ١٩٥٠ م في تعيين وضع المكان . (قرية : موضع في جنوب نجد ، في الطريق بينه وبين نجران ، ويبعد عن نجران ٣٤٣ كيلو متراً وعن الأفلاج الواقعة في جنوب نجد (٣٨٣) كيلو متر (الأفلاج تبعد عن الرياض ٢٧٣ كيلو متر) ، ويقع بينها وبين الأفلاج العقيق - الموقع الذي ذكره ألهمداني في صفة الجزيرة ، وأشار الى وجود جالية اجنبية فيه في العهد القديم تشتغل بالتعدين ، وأشار الى معبد منحوت في الصخر في تلك الجهة ، وبلغني ان في الجبال القريبة من (قرية) هذه - كتابات ونقوشاً وصوراً كثيرة . وقد مر بها المستر فليبي ، وتبعد عن العقيق ٩٤ كيلو متراً في جنوبه . ويبعد العقيق عن الأفلاج ٢٨٠ كيلو متراً تقريباً) . كتاب من السيد حمد الجاسر تأريخه ١٣ نوفمبر ١٩٥٠ (العقيق مدينة فيها مثناً يهودي ، ونخل كثير ، وسيوح وابار) ، صفة ١٥٢ ، البلدان (١٩٨/٦)

٢ The Geographical Journal, CXIII, June, 1949, P., 90, Philby, Sheba's Daughter's, P. 430

٣ تاريخ نجد (ص ٢٨) .

الميلاد . وعثر فيها على مقابر ، وعلى أدوات وقطع فخارية ظهر من فحصها أنها تعود الى القرن الثاني قبل الميلاد^١ . ويرى من فحص هذه الآثار أنها تعود الى السبئين . والظاهر أن هذا الموضع هو بقايا مدينة قديمة كانت تتحكم في الطريق التجارية التي تخترقها القوافل التي تقصد الخليج الفارسي والعراق من اليمن عن طريق نجران . وفي هذه المنطقة بصورة عامة بقايا مدن تخربت قبل الإسلام . ورأى (برترام توماس) (Bertram Thomas) أن آبار (العويفرة) القرية من القرية هي موضع (أوفير) (Ophir) الوارد ذكره في التوراة والذي اشتهر بالذهب ، والطواويس ، وإن الاسم العربي القديم هو (عفر) (Ofar) ، وقد تحرف بالنقل الى العبرانية واليونانية ، فصار (Ophir) . وهذا الموضع قريب من مناجم الذهب^٢ . وبالجمله إن هذه الأرضين ويعرين ووبار وغيرها ، هي من المناطق التي تستحق الالتفات اليها وتجريد البعثات العلمية للتنقيب فيها ودراسة أحوالها والتطورات التي طرأت عليها .

ويظهر ان هنالك جملة عوامل أثرت في اليامة وفي أواسط جزيرة العرب ، فحولت أراضيها الى مناطق صحراوية ، على حين أننا نجد في الكتب انها كانت غزيرة المياه ، ذات عيون وآبار ومزارع ومراع .

ومن أودية اليامة (العرض) (العارض) الذي يخترق اليامة من أعلاها الى أسفلها . ولما كان من الأودية الحصبة ، كثرت فيها القرى والزرع^٣ . وهو واد طويل ، لعله من بقايا مجرى ماء قديم ، و (الفقي) ، في طرف عارض اليامة ، تحيط به قرى عامرة، تسمى (الوشم)^٤ . و (وادي حنيقة) و (عرض شمام)^٥ . وفي اليامة مرتفعات مثل (جبل شهوان) ، تخرج منه عيون ومياه^٦ ، و (عارض اليامة) ، ويبلغ طوله مسيرة أيام ، وتكون عند سفوحه الآبار^٧ .

١ The Geogr. Jour., Vol., CXIII, June, 1949, P., 92, Sanger, The Arabian Peninsula, P., 139.

٢ The Empty Quarter, P., 177, Bertram Thomas, Arabia Felix, P., 163.

٣ البلدان (١٤٦/٦ فما بعدها) ، (١٢٨/٨) ، صفة ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ويقال له أحيانا عرض حجر .

٤ (الوشم) بالفتح ثم السكون ، البلدان (٤٢٤/٨) ، صفة ١٦٣ .

٥ البلدان (١٤٧/٦) .

٦ البلدان (٣٨٦/٧) .

٧ البلدان (٣٨٦/٦) ، (عارض) (عارض اليامة) ، البلدان - ٩٣/٦ - (العارض) ، وهبة ٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥١ ومواضع أخرى ، صفة ص ١٦٣ .

وتعد (الأفلاج) من المناطق التي تكثر فيها المياه ، وتصب فيها أودية العارض ، وفيها السيوح الجارية والجداول التي تمتد العيون . وقد ذكر (الهمداني) من سيوحه (الرقادي) و (الأطلس) و (نهر محلم) . قال : ويقال انه في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم^١ . وطبيعي ان يكثر فيها وجود الخرائب العادية التي تعود الى ما قبل الإسلام . وقد وصف الهمداني بعض التحصينات القوية ، فقال عنها : انها من عاديات طسم وجديس ، مثل (حصن مرغم) و (القصر العادي) بالأثل^٢ . ويرجع (فلي) الخراب الذي حل باليامة الى العوامل الطبيعية ، ومنها فيضان وادي حنيفة^٣ .

نجد :

نجد في الكتب العربية « اسم للأرض العريقة التي أعلاها تهامة واليمن ، وأسفلها العراق والشام »^٤ . وحدها ذات عرق من ناحية الحجاز ، وما ارتفع عن بطن الرمة ، فهو نجد الى أطراف العراق وبادية السماوة^٥ . وليست لنجد في هذه الكتب حدود واضحة دقيقة ، وهي بصورة عامة الهضبة التي تكون قلب الجزيرة ، وقد قيل لها في الانكليزية : (The Heart of Arabia)^٦ . وتتخلل الهضبة أودية وتلال ترتفع عن سطح هذه الهضبة بضع مئات من الأقدام ، وتتألف حجارتها في الغالب من صخور كلسية ومن صخور رملية غرايتية في بعض المواضع . وأعلى أراضيها هي أرضو نجد الغربية المحاذية للحجاز ، ثم تأخذ في الانحدار كلما اتجهت نحو الشرق حتى تتصل بالعروض .

وتتألف نجد من الوجهة الطبيعية من مناطق ثلاث :

- ١ صفة ص ١٦٠
- ٢ صفة ص ١٦٠
- ٣ Ency., Vol., 4, P., 1155, Philby, The Heart of Arabia, Vol., 2, PP. 81.
- ٤ البلدان (٢٥٨/٨ فما بعدها) ، الالوسي : محمود شكري ، تاريخ نجد (الطبعة الثانية) ، القاهرة (١٣٤٧ هـ) ، (ص ٧ فما بعدها) .
- ٥ صفة ص ٤٨
- ٦ K. S. Twitchell, Saudi Arabia, P., 8, Stamp, P., 137.

١ - منطقة وادي الرمة ، وتتألف أرضوها من طبقات طباشيرية في الشمال وحجارة رملية في الجنوب ، وتغطي وجه الأرض في بعض أقسامها طبقات مختلفة السمك من الرمال ، وتدخلها أرضون خصبة تتوافر فيها المياه على أعماق مختلفة ، ولكنها ليست بعيدة في الجملة عن سطح الأرض ، وتسرب إليها المياه من المرتفعات التي تشرف عليها وخاصة من جبل شمر^١ ، ومن الحرار الغربية التي تجود على الوادي بالمياه . ويختلف عرض وادي الرمة ، فيبلغ زهاء ميلين في بعض المحلات ، وقد يضيق فيبلغ عرضه زهاء (٥٠٠) ياردة ، وتصل مياه السيول الى ارتفاع تسع أقدام في بعض الأوقات^٢ .

٢ - المنطقة الوسطى، وهي هضبة تتألف من تربة طباشيرية، متموجة ، تدخلها أودية تنحدر من الشمال الى الجنوب . وبها (جبل طويق) ، والأرض عنده مؤلفة من حجارة كلسية، وحجارة رملية ، ويرتفع زهاء (٦٠٠) قدم عن مستوى الهضبة . وتفرع من جبل طويق عدة أودية تسيل فيها المياه في مواسم الأمطار ، فتصل الى الربع الخالي فتغور في رماله . ويمكن اصلاح قسم كبير من هذه المنطقة ، ولا سيما الأقسام الواقعة عند حافات وادي حنيفة^٣ .

٣ - المنطقة الجنوبية ، وتتكون من المنحدرات الممتدة بالتدريج من جبل طويق ومرتفعات المنطقة الوسطى الى الصحارى في اتجاه الجنوب . وفيها مناطق معشبة ذات عيون وآبار ، مثل (الحريق) و (الخرج) ، ويرى الخبراء ان مصدر مياه هذه المنطقة من جبل طويق ومن وادي حنيفة . ومن مناطقها المشهورة (الأفلاج) و (السليل) و (الدواسر) ، وفي جنوب هذه المنطقة تقل المياه ، وتظهر الرمال حيث تتصل عندئذ بالآحفاف .

ويقسم علماء العرب نجداً الى قسمين : نجد العالية ، ونجد السافلة . أما العالية فما ولي الحجاز وتهامة^٤ . وأما السافلة ، فما ولي العراق . وكانت نجد حتى القرن السادس للميلاد ذات أشجار وغابات ، ولا سيما في (الشربة) جنوب (وادي الرمة) وفي (وجرة)^٥ .

١ وهبة ص ٦٠

٢ Handbook, Vol., 1, P., 349.

٣ Ency., Vol., 3, P., 894, Handbook, Vol., 1, P., 349.

٤ البلدان (١/٨) ، تاريخ نجد ص ٨ .

٥ Ency., Vol., 3, P., 895, Philby, The Heart of Arabia, 1, P., 116.

وفي جزيرة العرب وبادية الشام أرضون يمكن أن تكون مورداً عظيماً للماشية بل وللمحسوب أيضاً ، لو مسها وابل وهطلت عليها أمطار ، وتوفرت فيها مياه ، فإن أرضها الكلسية تساعد كثيراً على تربية الماشية بجميع أنواعها . كما تساعد على الاستيطان فيها ، ولهذا يتحول بعضها الى جنان تخلب الألباب وتسحر النفوس عند هبوط الأمطار عليها ، فتجلب اليها الانسان يسوق معه إبله لتشبع منها . ولكن هذه الجنان لا تعمر ، ويا للأسف ، طويلاً ، فيضطر أصحاب الإبل الى الذهاب الى أرضين أخرى ، والى التنقل من مكان الى مكان ، فصارت حياته حياة تنقل وهي حياة الأعراب .

أما وقد انتهيت من الحديث إجمالاً عن صفة جزيرة العرب وعن حدودها ورسومها العامة ، فلا بد لي من الإشارة الى جزيرة (سقطرى) (سوقطره) من الجزر التي تقابل الساحل العربي الجنوبي ، وهي جزيرة كانت تعادل وزنها ذهباً يوم كان البخور والصبر يعادلان بالذهب . أما اليوم فما زال سكانها يجمعون الصبر والبخور والند ، ولكنهم لا يجدون لحاصلهم السوق القديمة لزوال دولة المعابد والملوك الآلهة ، وحلول عهد الدرة والبترول . وسكانها منذ القديم ، خليط من عرب وإفريقيين وهنود ويونان . يتكلمون بلغة خاصة هي من بقايا اختلاط اللغات في هذه الجزيرة ، فيها اللهجات العربية الجنوبية القديمة والمصرية والإفريقية . وهم يعيشون في كهوف ومغاور في الغالب ينالون رزقهم من الطبيعة بغير جهد . وترى في الجزيرة آثار الماضي وقد اختلط بعضه ببعض ، لتداخل الحكم في هذه الجزيرة الثمينة التي هي اليوم في قبضة الانكليز .

والآن وقد وقفت على صفة جزيرة العرب ، وعرفت على سبيل الاجال معالم وجهها ، وكيف تغلبت الصحراوية ، وظهر الجفاف عليها ، فإن في وسعك أن تكون رأياً في سبب قلة نفوس جزيرة العرب في الماضي وفي الحاضر ، وفي سبب عدم نشوء مجتمعات حضرية وحكومات مركزية كبيرة فيها ، وفي سبب تفشي البداوة وغلبة الطبيعة الأعراوية على أهلها وبروز الروح الفردية عند أهلها ، وتقاتل القبائل بعضها مع بعض . ونفرة أهلها من الزراعة والحرف واعتدادهم إياها من حرف الوضعاء والرقيق . إن بيئة تحكمت فيها الطبيعة على هذا النحو ،

١ جان جاك بيربي : جزيرة العرب (ص ١٩٢ فما بعدها) .

لا يمكن أن يشاكل سكانها سكان المناطق الباردة ذات الأمطار الغزيرة والخصرة الطبيعية الدائمة، أو سكان الأرضين التي حباها الله الخصب والأنهار والماء الغزير . من هنا اختلفت حياة العرب عن حياة غيرهم من الشعوب . وللسبب المتقدم، أي بسبب تحكم الطبيعة في مصير الانسان ، انحصرت الحضارة في جزيرة العرب في الأماكن المطورة والأماكن التي خرجت فيها المياه الجوفية عيوناً وبناييع ، أو قاربت المياه فيها سطح الأرض ، فأمكن حفر الآبار فيها . في هذه المواضع نبعت الحضارة وأظهر العربي فيها أنه مثل غيره من البشر قادر على الابداع حين تنهأ له الأحوال المواتية ، وتساعد الطبيعة ، ومن هذه الأماكن نستقي علمنا في العادة عن الجاهليين .

وعلى الرغم من سعة مساحة جزيرة العرب واتساعها ، فلإنها لم تتسع لعدد كبير من السكان لأن معظم أرضها صحراوية ، لا تجذب الناس إليها ولا تساعد على ازدياد عدد السكان فيها ازدياداً كبيراً ، غير ان ذلك لا يعني أنها لا يمكن أن تتسع لعدد أكبر من سكانها الحاليين ، وان طاقتها لا يمكنها أن تتحمل هذا العدد أو ضعفه ، بل الواقع هو أن في استطاعة الجزيرة تحمل أضعاف أضعاف هذا العدد ، لو تهيأت لها حكومات حديثة رشيدة ، تأخذ بأساليب العلم الحديث في استنباط مواردها الطبيعية لمصلحة أهلها وفي تحسين الصحة العامة وإيجاد موارد رزق للناس ، وضمان الأمن والسلامة لهم ، واسكان الأعراب ، وعمل ما شاكل ذلك من أمور . فإن سكان الجزيرة سيزدادون حتماً، ويملون أضعاف أضعاف ما هم عليه اليوم .

ونجد بين سكان جزيرة العرب في الوقت الحاضر اختلافاً في الملامح الجسمية . فأهل أعالي نجد هم أقرب في الملامح الى قبائل عرب الأردن وعرب بادية الشام . وأهل الحجاز والسواحل ، يختلفون بصورة عامة عن أهل البوطن ، أي باطن الجزيرة ، في الملامح بسبب اختلاط أهل السواحل بسكان السواحل المقابلة لهم، وامتزاج دمائهم . وقد أجرى بعض الباحثين المحدثين فحوصاً علمية على السكان في مواضع متعددة من جزيرة العرب لمعرفة الملامح البارزة عليهم والأصول التي يرجعون إليها، فوجدوا أن هناك امتزاجاً واضحاً بين السكان يظهر بصورة خاصة في السواحل ، وهو امتزاج يرجع بعضه الى ما قبل الإسلام ويرجع بعض آخر الى الزمن الحاضر^١ .

Naval, P., 365.

ولم يكن لسان عرب الجاهلية لساناً واحداً ، ولكن كان كما سئى ألسنة ولهجات . وقد استطعنا بفضل الكتابات الجاهلية أن نقف على بعضها . أما في الزمن الحاضر ، فإن لغة القرآن الكريم هي اللغة المتحكمة الموحدة للألسنة، وهي لغة العلم والأدب والحكومات ، غير أن بعض القبائل لا تزال تحتفظ ب لهجاتها القديمة ، وكذلك بعض أهل القرى والأرياف البعيدة عن الحضارة ، فإنها تتكلم ب لهجات وألسنة متفرعة من اللهجات العربية الجاهلية ، كما الحال في مواضع من اليمن وفي العربية الجنوبية . ونجد في العربية الجنوبية قبائل تتكلم لهجات غربية عن عربيتنا مثل اللغة المهرية واللغة الشحرية، واللهجات المسماة بألسنة (أهل الهدرة) . وهي لهجات لها صلة باللغات العربية الجنوبية الجاهلية واللغات الإفريقية^١ .

الفصل الخامس

طبيعة جزيرة العرب وثرواتها وسكانها

لم تدرس طبيعة أرض جزيرة العرب دراسة علمية مستفيضة شاملة ، بالرغم من قيام الشركات الأجنبية بالبحث ، في أنحاء منها ، عن طبيعة تربتها للتوصل بذلك الى اكتشاف ما في باطنها من ثروات . فأرض جزيرة العرب ، أرض واسعة ، تغطي الرمال أكثر مساحاتها ، فليس من السهل البحث فيها بحثاً علمياً عميقاً عن تركيبها وعن تطورها في كل أنحائها ، لهذا كان علمنا بهذه النواحي من البحث ضحلاً مختصراً في الغالب .

يتألف ثلثا الأقسام الشرقية من أرض المملكة العربية السعودية ، من طبقات رسوبية يقال لها في علم طبقات الأرض (Sedimentary Formation) ، تكون نوعاً من الصخور يتأثر ببعض المؤثرات الأرضية ، فتكون من أحسن الأماكن الملائمة للبترول والفحم . وتتألف هذه الطبقات الرسوبية في الدرجة الأولى من الحجارة الكلسية . وتتكون أرض منطقة آبار البترول عند (الظهران) والمناطق الأخرى التي أصابت شركة البترول العربية السعودية الأمريكية فيها البترول ، من هذا النوع من الصخور .

وتوجد آثار طبقات رسوبية في المناطق الغربية من جزيرة العرب المطلة على

البحر الأحمر عند جزر (فرسان)^١ و (جيزان)^٢ و (صبيا)^٣ و (أملج)^٤ و (المويلح)^٥ الواقع على مقربة من رأس خليج العقبة ، و (ضبا)^٦ ، وحجارة رملية في العلا في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة بكميات واسعة ، وحجارة بركانية ولا سيما في مناطق الحرار، وصخور تكونت بفعل الترسبات المتأثرة بالضغط والحرارة ، وهي التي يقال لها : (Metamorphic Formation) ، وتساعد على تكوين المعادن . وقد وجدت في هذه المنطقة^٧ ، خامات المعادن ولكنها لم تستغل حتى الآن استغلالاً تجارياً ، كما أن هذه الخامات والأرضين لم تفحص فحوصاً فنياً لمعرفة النسب المعدنية فيها .

وتوجد الصخور الرملية في عسير وفي وادي الدواسر ، وتشاهد في منطقة هذا الوادي تلال تتجه من الشمال الى الجنوب ، تقع الى جنوب (التماسين) وعلى ارتفاع (٢٢٠٠) قدم ، يظهر أنها تكونت من الصخور (الأيولينية) (Aelian Sandstone) ومن حجارة « الكوارتز » الضخمة ، وقد حوت مقداراً من (أكاسيد الحديد) أعطت هذه السلسلة لوناً أحمر غامقاً . ويتكون فئات هذه الحجارة على هيئة ألواح صلبة ، وعند قطعها يلاحظ أنها تتكون من طبقات ، ويمكن فصلها على أشكال ألواح ، وقد تكونت على حافات هذه السلسلة وجوانبها أشكال طبيعية مذهشة أخاذا بتأثير فعل الرياح والرمال فيها . وتتكون أرض (قرية) من صخور كلسية ، وهناك آبار قديمة تبلغ أعماقها

١ وهبة ص ٤٠ ، البلدان (٣٥٩/٦) ، صفة ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٨ ، Twitchell, P., 8, 63.

٢ (ميناء صغير على بعد مئتي ميل من جنوب الجنوب الشرقي للقنفذة ، وهي واقعة امام مجموعة جزائر فرسان ، ويحيط بها من جهة الداخل جبل جيزان) ، وهبة ص ٤٠ .

٣ البلدان (٣٣٧/٥) ، صفة ٧٣،٥٤ ١٢٠ (صبيا على بعد عشرين ميلاً في الداخل وهي الى الجنوب الشرقي من جيزان ، وكانت عاصمة الادراسة) ، وهبة ٤٠ .
٤ (أملج : قرية بها نحو مئة منزل ، بها قلعة صغيرة ، وامامها تقع جزيرة حسان التي من رملها يصنع الزجاج ، بها مزارع ونخيل ، ومنها تمتد طريق في الداخل الى اصطبل عنتر ، احدى محطات سكة حديد الحجاز) ، وهبة ١٥ ، ٢٠ .

٥ قرية وقلعة على بعد ١٥٠ ميلاً الى الجنوب من العقبة ، وهبة ١٩ .
٦ الى جنوب المويلح ، المحل الرئيس لقبيلة الحويطات ، اتخذها الاتراك مركز دفاع عن الشاطئ ، وهبة ص ١٩ .

Twitchell, P., 8.

تسعين قدماً ، حفرت في طبقات أرضية مؤلفة من حجارة الكلس ، تتخللها طبقات من الحجارة الرملية غير أنها ليست ثخينة^١ . أما أرض (بثر حما) التي يبلغ ارتفاعها زهاء أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتقع على الحافات الغربية للربع الحالي ، فلأنها مؤلفة من الحجارة الرملية الأيولينية الحمراء ، وعلى مسافة (٣٥) ميلاً إلى الجنوب الغربي من (حما) موضع يقال له (بثر الحسينية) فيه بثر يبلغ عمقها (١٢٩) قدماً ، وقد حفرت في أرض فيها طبقات ثخينة من (الغرانيت) . وتتألف أكثر الأرضين التي تمتد من هذا الموضع إلى نجران من حجارة (غرانيتية) . وتظهر الحجارة الرملية في القسم الجنوبي والغربي من هذه المنطقة التي ترتفع زهاء (١٥٠٠) قدم عن مستوى سطح الوادي الموصل إلى نجران ، والذي يرتفع هو نفسه زهاء أربعة آلاف قدم عن سطح البحر. وتتألف مناطق واسعة من اليمن من حجارة رملية ومن الطبقات المترسبة (Sediments)^٢.

قلت : إن هنالك مناطق في الحجاز مكونة من طبقات مترسبة تعد من أحسن الصخور والطبقات الأرضية ، ملائمة للنفط والفحم ، وإن هنالك مناطق فيها صخور بركانية وناارية ، وقد تكون أكثرها بعد تغيرات كبيرة وعمليات طويلة من ضغط هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تكون العمود الفقري لجزيرة العرب . وترتفع زهاء (٩٠٠٠ - ١١٠٠٠) قدم عن مستوى سطح البحر في اليمن على ما تحتها من طبقات .

ونجد مناطق واسعة من (اللابات) مبعثرة على طول هذه السلسلة ، منها ما هو حديث التكوين . ويشاهد في الزمن الحاضر لسان بارز من (اللابة) في شرقي (أبي عريش)^٣ يمتد حتى يتأخم حدود اليمن ، كما نشاهد مناطق أخرى مؤلفة من هذه الحجارة في مواضع عديدة بين (شقيق)^٤ و (خور البرك)^٥ مثلاً حيث تصل (اللابة) إلى البحر الأحمر فتدخل فيه . وكذلك في شمالي (شقيق) عند (جهمة) حيث توجد بقايا بركان يكون جزيرة في البحر مقابل هذا

١ Twitchell, P., 9.

٢ Twitchell, P., 9.

٣ أبو عريش في تهامة على بعد سبعين ميلاً شمالي اللحية ، وهبة ٤٠ .

٤ في تهامة ، وهبة ٣٨ .

٥ البرك ، وهبة ٣٨ .

الموضع^١ .

وعلى مسافة اثني عشر ميلاً من مكة جبل ، يقال له جبل النورة ، حيث تحرق حجارة الكلس المكونة له ، لاستخراج النورة واستعمالها في البناء^٢ . وهذه الحجارة الكلسية هي من الطبقات المترسبة المتحولة . وهناك أماكن أخرى تكونت من هذه الحجارة ، يشاهدها المار من جدة إلى موضع (مهد الذهب) ، الذي تستغل الآن مناجمه ، لاستخراج الذهب ، وتكون ثلال مهد الذهب من الحجارة المترسبة التي تعرضت لتغيرات طبيعية عديدة ، عليها طبقات من حجارة (البازلت) (Basalt) . وفي حجارة المناجم خامات معادن متعددة، وفيها حجارة (الكوارتز) (Quartz)^٣ . وتوجد في منطقة الطائف صخور (الغرانيت) ، وفي نهاية هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تنتهي في اليمن تشاهد (لابات) الحِرار، وبقايا الحِرار التي كانت تزعج اليابانيين، إذ هي قد تقلّفهم حممها في يوم من الأيام فتسومهم سوء العذاب .

وفي أرض اليمن عدد كبير من الحِرار ، ذكر السياح بعضها ، مثل حرة (أرجب) ، وتقع شمالي (صنعاء) ولها لابة استخراج منها الناس حجارة سوداً لبناء البيوت^٥ . وعلى مقربة من (ذمار) تكون الأرض بركانية^٦ . وتوجد الحِرار في القسم الشمالي من (وادي أبرد)^٧ ، وفي الوادي بين (صرواح) و (مأرب)^٨ . وقد حمل بعض المستشرقين وجود الحِرار في اليمن بهذه الكثرة وعلى مقربة من المدن القديمة ، على تفسير هلاك بعض المدن كخراب (مأرب)^٩ و (حقة)^{١٠} و (شبوة)^{١١} بتأثير هياج البراكين .

- | | |
|--|----|
| Twitchell, P., 10. | ١ |
| Twitchell, P., 10. | ٢ |
| Twitchell, P., 10. | ٣ |
| Twitchell, P., 10. | ٤ |
| H. Scott, In the High Yemen, London, 1947, P., 8, 114. Scott, P., 113. | ٥ |
| Scott, P. 113. | ٦ |
| Philby, Sheba's Daughter's, P., 389. | ٧ |
| المصدر نفسه ص ٣٩٢ | ٨ |
| كذلك ص ٣٨٩ | ٩ |
| Scott, P., 195. | ١٠ |
| Philby, in Geogr. Journal, 92, PP., 127, August, 1938, Sheba's, 103. | ١١ |

كذلك توجد مناطق حرار في العربية الجنوبية، في عدن^١ وحضرموت وعمان^٢ وفي الربع الخالي ، وقد استعمل القدماء حجارة البراكين في البناء ، ولا يزال الناس يستعملونها في البناء حتى اليوم ، وقد وجد بين الحجارة المكتوبة عدد من صخور البراكين . وقد استغل الجاهليون بعض الحِرار لاستخراج الكبريت منها، وذكر (نيبور) أن أهل اليمن كانوا يستخرجون الكبريت من جبل يقع في شرقي ذمار ، ويظهر أن هذا الجبل بركان قديم^٣ .

وتتكون بعض هضاب اليمن من الصخور المتبلورة التي مرت في أدوار طويلة. ويرى العلماء أنها كانت في الأصل تحت سطح البحر ، ثم ترسبت عليها طبقات ثخينة من المواد الرسوبية حتى تبلورت وتصلبت^٤ . وقد استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل في النوافذ، لتقوم مقام الزجاج . وهناك طبقة طباشيرية وطبقات من صخور رملية غدت المناطق المنخفضة ، وهي تهائم اليمن ، بالرمال. وكذلك المنطقة التي يقال لها الرمل^٥ . وتتكون التربة في تهامة وفي سهل صنعاء من المواد الصلصالية التي تعود الى الأزمنة (الجيولوجية) ، المتأخرة ، ومن المكونات (الأيولينية) التي حصلت بتأثير فعل الرياح في الصخور الرملية^٦ . ويكثر وجود الصخور المتبلورة في الحجاز وفي العربية الجنوبية كذلك^٧ . وتوجد الصخور والطبقات الرسوبية في اليمن وفي حضرموت وعمان ، وقد وجدت في هذه المناطق علائم وجود البترول .

والسواحل الشرقية لجزيرة العرب ، أي السواحل الواقعة على الخليج ، هي سهول ، ولكنها سهول من الرمال في الغالب ، ولهذا قلت فيها الزراعة ، إلا في المواضع التي تتوافر فيها المياه الجوفية، وتنفجر عيوناً، مثل الأحساء والقطيف . وهناك سباح ومستنقعات ناتجة من انخفاض الأرض، جوّها غير صحي. والبترول في القرن العشرين ، هو الذي أغاث أهل هذه الأرض ، وجلب لهم الثراء والمال.

Stamp, P., 140. ١

D.G. Hogarth, The Nearer East, P., 97. ٢

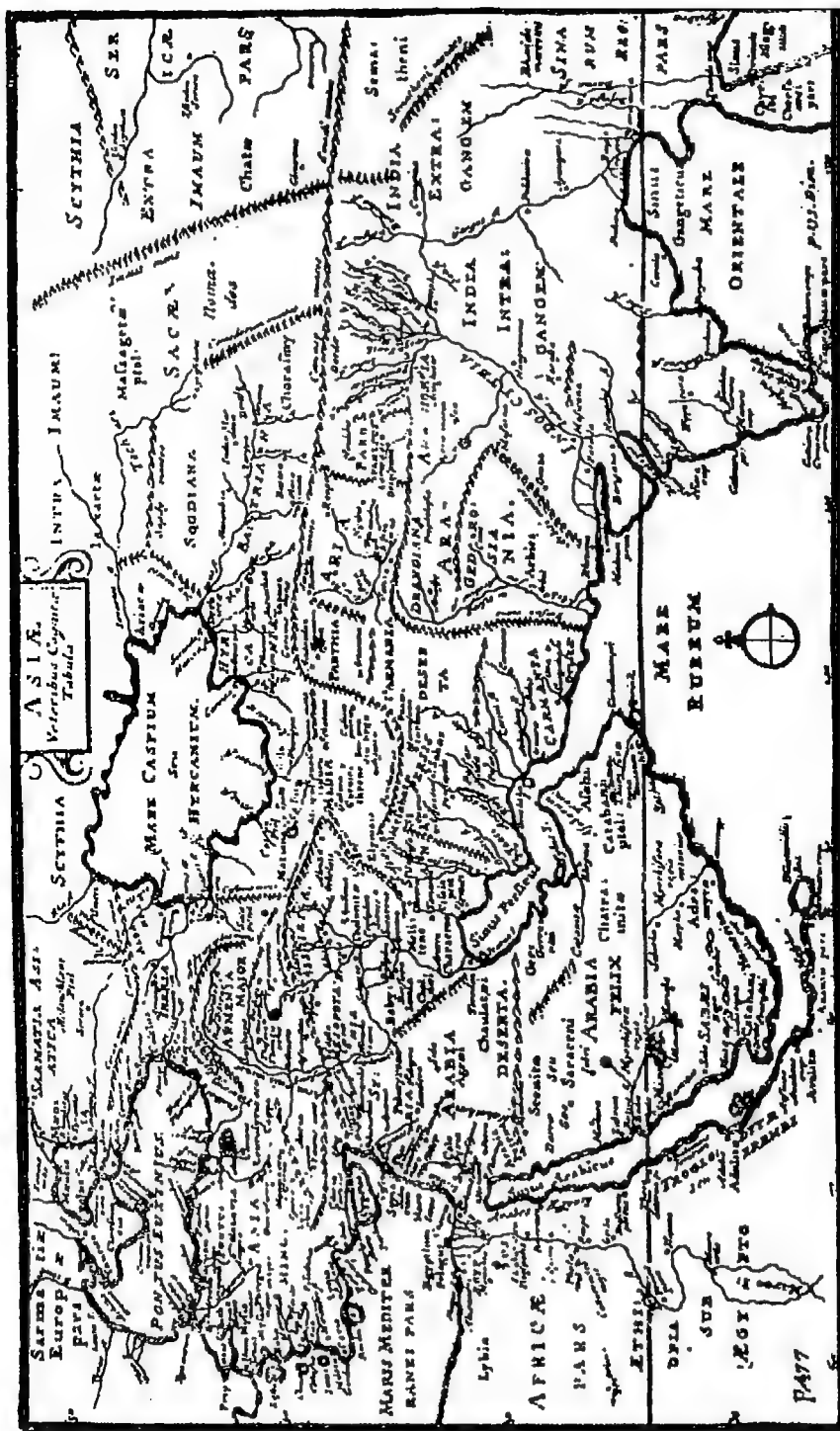
Scott, P., 114, 237, Niebuhr, Reisebeschreibung, S., 324. ٣

Scott, PP. 6. ٤

Handbook, Vol., 1, PP., 145. ٥

Scott, P., 8. ٦

In Unknown Arabia, PP., 421, Stamp, P., 109. ٧



مالك الشرقين الأوسط وشعوبها في نظر الكلاسيكيين . Booth, P. 477.

الوافر والسيارات الفارحة وآلات التبريد ووسائل الترف والرفاهية ، وبعث فيها الحياة بعد أن كانت خامدة خاملة .

وقد كانت حال هذه السواحل قبل الإسلام أحسن بكثير من حالها في القرن التاسع عشر الى يوم استنباط البترول في القرن العشرين ، بدليل ما نقرؤه في الموارد التاريخية من أسماء مواضع كانت مأهولة ، زالت واندثرت ، وأسماء قبائل كانت تنزل بها ، اضطرتها أحوال القاهرة متعددة متنوعة الى هجرها ، فقل عدد سكانها بالتدريج .

وتعد البحرين من أكتف المناطق في جزيرة العرب . فلن نسبة عدد سكانها بالقياس الى مساحة أرضها عالية نسبياً قبل الإسلام وفي الإسلام . وسبب ذلك هو توافر الماء فيها ، واعتمادها على استخراج اللؤلؤ من البحر وعلى صيد السمك الذي يقدم للأهلين المادة الأولى للمعيشة . والماء فيها غير عميق عن سطح الأرض وقد كون عيوناً في بعض الأماكن ولهذا المميزات صارت موطناً للحضر قبل الإسلام بزمان طويل .

وفي جزيرة العرب خامات معادن ، ومن الممكن استغلال بعضها استغلالاً اقتصادياً ، ومن هذه المعادن الذهب . وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء ومواضع عرفت بوجود خام الذهب بها ، مثل موضع (بيشة) أو (بيش) ، وقد كان الناس يجمعون التبر منه ، ويستخلصون منه الذهب^١ . و (ضنكان) ، وكان به معدن غزير من التبر^٢ ، والمنطقة التي بين القنفذة و (مرسي حليج)^٣ .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية أن المنطقة التي بين القنفذة و (عتود) ، كانت معروفة بوجود التبر فيها ، فكان الناس يشتغلون هناك باستخلاص الذهب منه ، ولهذا رأى (موريتس) أن هذه المنطقة هي منطقة (أوفير) (Ophir) التي ورد ذكرها في التوراة على أنها كانت تصدر الذهب^٤ . ويشاهد في وادي تثليث على مقربة من (حمضة) وعلى مسافة ١٨٣ ميلاً من

١ البلدان (٢٣٣/٢) فما بعدها ، صفة (١٢٧ ، ٢٥٧) ، المسالك والممالك (١٨٨)
فؤاد حمزة ، في بلاد عسير (٦١ فما بعدها) ، Moritz, S., 105.

٢ صفة ١٢٠

٣ Moritz, S., 110, Glaser, Skizze, S., 29.

٤ Hommel, Grundriss, Vol., 1, S., 13, Moritz, S., 110.

نجران آثار التبر ، ويظهر انه كان من المواضع التي استغلت قديماً لاستخراج الذهب منها^١ . وقد اشتهرت ديار بني سليم بوجود المعادن فيها^٢ ، وفي جملتها معدن الذهب ، ويستغل اليوم الموضع الذي يقال له (مهد الذهب) ، ويقع الى الشمال من المدينة باستخراج الذهب منه ، وتقوم بذلك شركة تستعمل الوسائل الحديثة ، تحررت في مواضع عديدة من الحجاز الذهب والفضة ومعادن أخرى ، فوجدت أماكن عديدة ، استغلت قديماً لاستخراج (التبر) منها، ولكنها تركتها لعدم تمكنها من الحصول على الذهب منها بصورة تجارية ، تأتيا بأرباح حسنة ، واكتفت بتوسيع عملها في (مهد الذهب) ، لأنه من أغزر تلك الأماكن بخام الذهب ، وظلت تنقب به الى أن تركت العمل فيه ، وحلت نفسها ، وتركت كل شغل لها بالتعدين^٣ .

وقد ذكر الكتبة اليونان أن الذهب يستخرج في مواضع من جزيرة العرب خالصاً نقياً ، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته . قالوا ولهذا قيل له (ابيرون) (Apyron) . وقد ذهب (شرنكر) الى أن العبرانيين أخذوا لفظة (أوفير) من هذه الكلمة^٤ .

وقد عثرت الشركة في أثناء بحثها عن الذهب في (مهد الذهب) على أدوات استعملها الأولون قبل الإسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحي وأدوات تنظيف ومدقات ومصاييح ، وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكون الذهب ، وأمثال ذلك مما يدل على أن هذا المكان كان منجماً للذهب قبل الإسلام بزمان طويل ، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب الى (سليمان) ، فأضيف الى كنوزه ، على نحو ما هو مذكور في التوراة^٥ .

١ The Middle East, (Royal Inst. of Inter. Affairs), P., 91, (1950), Twitchell, P., 77.

٢ صفة ١١٣ ، ١٥٣ ، ومواضع أخرى

٣ (شركة التعدين السعودية العربية) ، ويشمل امتيازها كل أرض الحجاز ، وتقوم بالبحث عن جمع المعادن ، وقد بحثت في منطقة الطائف ، غير انها لم توسع أعمالها كثيراً ، تأسست سنة ١٩٣٤ م ، ثم صفت أعمالها وتوقفت عن العمل .

(Saudi Arabian Mining Syndicate, Ltd), Twitchell, P., 146, 157, Sheba's, P., 15, The, Middle East, 1948, P., 248.

٤ Montgomery, Arabia, P., 39.

٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 20, 23.

ويظن بعض الباحثين أن منجم (مهد الذهب) هو المنجم الذي كان لبني سليم ، فعرف باسمهم وقيل له : (معدن بني سليم) ، وقد وهبه الرسول الى بلال بن الحارث^١ .

وعرفت (أرض مدين) وما والاها من الأرضين في شمال (وادي الحمض) ، بوجود التبر فيها . واستخراج الناس له هناك قبل الميلاد بمئات من السنين . وتوجد آثار المناجم التي كانت تستغل مبعثرة في مواضع عديدة حتى اليوم^٢ .

وتوجد خامات معادن أخرى في الحجاز منها الكبريت والنحاس والقصدير والحديد^٣ ، وتستخرج الأملاح من الصخور المحلية التي في الحجاز وفي عسير عند جيزان ، ويستخرج الأهلون منها مسحوقاً لاستعماله في عمل المفرقات^٤ كما أن هنالك مثل هذه الصخور المحلية في السلف من اليمن . ويمكن الاستفادة من هذه الأملاح فائدة كبيرة من الوجهة الاقتصادية حيث تدخل في كثير من الصناعات.

وفي منطقة (رابغ) توجد رواسب (الباريت) (Barite) ، وتدل البحوث الأولية على أنه من الممكن استخراج عشرة آلاف طن من (الباريت) في كل عام^٥ . وتدل الدلائل على أن هنالك منجماً قديماً في منطقة (رابغ) كان يستغل لاستخراج (الكالينه) (Galena) ، غير أن النماذج التي فحصت فحصاً أولياً دلت على أن هذه المادة قليلة فيها . ويظهر أن هناك كميات كبيرة من تراب الحديد في (العقيق) على مقربة من (مهد الذهب) كما شوهدت خامات المعادن في موضع (برم) جنوب الطائف^٦ وفي موضع (نفى)^٧ ، ولا يستبعد العثور على البترول في الحجاز في المواضع المتكونة من الطبقات المترسبة (Sedimentary Formations) ، وتوجد في الحجاز الرمال التي تصلح لصنع الزجاج^٨ . وتستغل أرض الأحساء في استخراج (البترول)^٩ ، ويكثر وجود البترول في

Naval, P., 517. ١

Richard Burton, The Arabian Peninsula, P., 17. ٢

Twitchell, P., 162. ٣

Twitchell, P., 163. ٤

Twitchell, P., 164. ٥

المصدر نفسه ص ١٦٤ ، (معدن البرم) ، البلدان (٩٤/٨) . ٦

(نفى) البلدان (٣٠٨/٨) ، Twitchell, P., 164 ٧

وهبة ٢٠. ٨

The Middle East, (1960), P., 90. ٩

العروض حيث حفرت الآبار في الكويت والبحرين ، وتدل الدلائل على وجوده في قطر وعمان ، كذلك دلت التحريات على وجوده في حضرموت في منطقة (شبوة)^١ ، وفي المناطق وراء شبوة الى داخل جزيرة العرب ، حيث يحتمل العثور على مناجم للذهب كذلك^٢ . ويجري البحث عن البترول في شمعية (عدن) وفي اليمن .

ودلت التقارير الأولية على وجود الفحم في حضرموت في منطقة (شبوة) ، وتوجد الصخور الملحية مترسبة في بطن طبقات الأرض يقطعها الأهلون ، وتستغل في الأعمال التجارية ، كذلك توجد هذه الصخور الملحية في اليمن ، وقد تكونت بفعل العوامل (الجيولوجية) والضغط المتواصل ، فتحجرت بمرور آلاف السنين عليها ، وتكمن تحت سطح الأرض في بعض الأماكن حيث تحفر جوانب التلال للوصول الى قلب مناجم الملح المتحجرة ، وقد يفتت باستعمال المواد المتفجرة (الديناميت)^٣ ، وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية بيضاء كأنها البلور^٤ . مثل الملح المستخرج من (جبل الملح) بمأرب ، فإن ملحه كما يقال صاف كالبلور^٥ . وتشتهر (السلف) بوجود مناجم ملح فيها ، تقع على مسافة أربعين ميلاً الى الشمال من الحديدية . وتوجد في جزيرة (قران) المقابلة لهذا الموضع مناجم ملح ، وكذلك في (اللحية)^٦ .

والى وجود مثل هذه الصخور الملحية في كثير من أنحاء جزيرة العرب ، يجب أن يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التاريخ والأدب .

ولما كانت أرض اليمن وأكثر الأنحاء الأخرى من الجزيرة ، لم تفحص حتى الآن فحصاً فنياً ، ولم تطأها أقدام الخبراء ، فمن الصعب التحدث عن مواطن المعادن فيها ، وعن أنواع التربة ، وأثرها في الحضارة الجاهلية . وقد وجدت مصنوعات حديد في اليمن ، عثر عليها في الخرائب والآثار

Sheba's, P., 103. ١

المصدر نفسه ص ١٩٨ ٢

كذلك ص ٩٩ ، ١١٤ . ٣

أيضاً ، ص ١١٤ ، ١٢٧ ٤

صفة ص ٢٠١ ٥

Scott, P., 114, 237. ٦

والأماكن العادية ، كما اشتهرت اليمن بسيفها ، في الجاهلية وفي الاسلام ، غير أننا لا نعرف الآن المواطن التي كانت تستغل لاستخراج الحديد منها ، وقد ذكر الرحالة « نيبور » انه كان في « صعدة » منجم ، يستخرج منه الحديد ، وأن أماكن أخرى كانت تستغل لإنتاج هذه المادة^١ .

وذكر (الهمداني) من معادن اليمن الذهب والفضة ، وقال : انه كان يستخرج من (الرضواض) ولا نظير لفضته ، والحديد ، وكان يستخرج من (نقم) و (غمدان) و (فصوص البقران) ، وتستخرج من جبل أنس . و (فصوص السعوانية) وتستخرج من (وادي سعوان) جنب صنعاء ، وهو فص أسود فيه عرق أبيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد الى جنب هنوم وظليمة والجمش من شرف همدان ، وحجر (العشاري) ، وهو الحجر العشاري من عشار بالقرب من صنعاء ، والبلور، والمسني الذي تعمل منه أنصاب السكاكين والعقيق الأحمر ، والعقيق الأصفر من الهان والجزع الموشى والمسير ، والشزب تعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف وأنصاب سكاكين ومداهن وقحفة وغير ذلك^٢ . وعرفت اليمن بعقيقها الذي يقال له (عقيق يمانى) و (حجر يمانى) وهو (الجزع) (Onyx)^٣ .

وقد بقيت بعض المواضع المذكورة تستغل معادنها في الإسلام ، إلا أن تغير الوضع في جزيرة العرب في الإسلام وهجرة كثير من القبائل الى البلاد المفتوحة ، ووجود صناعات فيها ومعادن أثمانها أرخص من أثمان معادن الجزيرة ، ثم تقدم العالم بعد ذلك وظهور الثورة الصناعية ، كل هذا وأمثاله أثر في وضع التعدين وفي صناعة المعادن في جزيرة العرب ، فدثرها ، أو تركها مشلولة لا تعمل إلا في حدود مرسومة ضيقة وفي مجال محلي .

وليست دولة الحيوان في جزيرة العرب دولة ضخمة عظيمة ، وكيف تكون ضخمة وأكثر أرض الجزيرة عدو للحيوان ولكل ذي روح ؟ والجمل هو الحيوان الأليف الوحيد الذي استطاع بعناده وبصلابته على السير بجبروت وبتبختر فوق

١ Scott, P., 114, 237.

٢ صفحة ص ٢٠٢ فما بعدها .

٣ Scott, P. 237

رمال الصحارى ، غير عابىء بالرياح العاتية التي تزدرو الرمال في الأعين ، وتنقل أكواماً منها معها ، تكفي لدفن الجمل ومن عليه أو من معه ومع ذلك فإن هذا الحيوان الصبور العنيد . لم يتفوق أيضاً في تحطيم جبروت البوادي في كل مكان ، فظلّ بعضها أرضاً حراماً عليه وعلى السابلة، تحطم من يريد التجاوز عليها والاعتداء على استقلالها ، بأن تميته عطشاً ، فتفتح ذرات رملها الناعم ، وعندئذ تغوص قوائم الجمل فيها فيبقى في مكانه حتى ينفق .

والجمل ، هو أيضاً من أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب ، وأعزّها . وقد صورّ في النصوص الآشورية ، عند ذكر معركة (قرقر) ومعارك أخرى ، وقعت بين العرب والآشوريين . وطبيعي أن يقرن الجمل بالبادية، وأن يجعل رمزاً لها، فليس لحيوان آخر القدرة على اجتياز البوادي واختراقها وتحمل مشقاتها وعطشها مثل الجمل . ثم انه مركب العرب ، يحملهم ، ويحمل تجارتهم وماءهم، وهو مموّنهم بالوبر لصنع البيوت حتى قيل للأعراب (أهل الوبر) ومنه يصنعون أكسية عديدة . ولبن الإبل ، هو لبن أهل البادية ، واذا احتاجوا الى لحم ، ذبحوا الجمل ، فأكلوه ، وأفادوا من جلده .

والجمل ثروة ، والثري العربي هو من يملك عدداً كبيراً من الإبل، وتقدر ثروته بقدر ما يملكه منها . وقد كان الجمل مقام (النقد) ، أي مقام الدينار والدرهم في الغالب ، فبعدد من الإبل يقدر مهر الفتاة ، وبعدد من الإبل تفضّ الديّات والخصومات . وهكذا يتعامل به كما نتعامل اليوم بالنقد .

ويرى العلماء أن الانسان ذلل الجمل حتى صيره أليفاً مطيعاً له في الألف الثانية قبل الميلاد^١ . وقد ذهب بعضهم الى أن العربية الشرقية كانت الموطن الذي ذلّل فيه هذا الحيوان في الشرق الأدنى ، استدلووا على ذلك باطلاق العراقيين القدماء على الجمل اسم (حمار البحر) ، وقالوا إن قصدهم من (البحر) الخليج ، وأن لفظة (الجمل) (جملو) (كملو) في (الأكادية) إنما وردت من بادية الشام ، ومعظم سكان البادية هم من العرب ، وقد كانوا يستعملون الجمل استعمال الناس للسيارات ولوسائل الركوب في هذا الزمن . وقد استعملوه في الألف

W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, Baltimore, 1946, PP., 107, 120, Reinhard Waltz, Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 101, 1951, S., 29, ff., 1954, S., 47, ff., Discoveries, P. 35.

الثانية قبل الميلاد، فدخله من البوادي الى العراق هو دليل على أن العرب كانوا قد استخدموه أولاً^١ ومنهم انتقل الى العراق والبلاد الأخرى^٢.

ويرى (البريت) أن البداوة الحقيقية على نحو ما نعرفها اليوم من السكنى في البوادي والتنقل فيها من مكان الى مكان ، لم تظهر في جزيرة العرب إلا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد ، وذلك بتدليل الانسان للجمال وبزويضه له لخدمة أغراضه ، ففتح له بذلك أبواب البوادي، وتمكن من التوغل فيها واجتيازها بفضل جملة خادمه المطيع . أما ما قبل الجمل، فقد كان العربي لا يستطيع اجتياز البوادي واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة الركوب عنده، لا يتحمل ولوج البادية ، ولا يستطيع أن يعيش فيها ، وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل ، لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية ، وقبل وقت تدليل الجمل رعاة في الغالب ، وسائط ركوبهم الحمير ، ولم يكونوا قد طرّقوا البوادي أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيما بعد^٣ .

فالجمال اذن هو الذي فتح لأهل جزيرة العرب آفاق البوادي ، ووسع البداوة عندهم ، حتى جعلها عالماً خاصاً يقابل عالم الحضارة في الجزيرة . وهو الذي صار أهم واسطة لنقل الأموال بالطرق البرية الطويلة التي تربط أجزاء الجزيرة بعضها ببعض، وتربط طرق الجزيرة مع الطرق الخارجية . وبفضل الجمل القادر على تحمل العطش والصبر على الجوع ، وعلى تحمل الصعاب صار في امكان العرب التنقل الى مسافات بعيدة من الجزيرة وحمل أثقاله معه . فاستخدام العرب له هو في الواقع ثورة كبيرة في ذلك العهد بالنسبة الى وسائط النقل والحمل وفي عالم التجارة والاقتصاد . ومن حق العربي اذا ما عبّر عن الغنى ان يعبر بكثرة ما عند الانسان من إبل .

وقد عرف الجمل بوجود غريزة الانتقام فيه ، وبعدم نسيانه أذى من يؤذيه، لذلك زعم أنه يبقى حاقداً على المسيء اليه حتى ينتقم منه ولو بعد زمن طويل . ويظن أن لتفسير اشتقاق اسمه دخلاً في ظهور هذه الفكرة ، فقد فسرت لفظة الجمل بأنها من فعل (كَمَلَ) (جَمَلَ) (كَامَلَ) (جَامَلَ) ، أي انتقم ، مع أنها تعني (حَمَلَ) أيضاً . وقالوا إن معنى (الجمل) (المنتقم) ،

١ BASOR., Num. 160, 1960, P., 42.

٢ Recoveries, P., 87.

وقالوا إنه سمي بذلك لأنه حيوان منتقم. ومن ثم وصف (أرسطو) و (أريان)،
الجمال بأنه حيوان لا ينسى الأذى ، سريع الانتقام . وقد يكون لأقوالهما ولأقوال
غيرهما في الجمال دخل في تكون هذه الفكرة عنه عند الناس حتى اليوم^١ .

الجمال المعروف في جزيرة العرب ، هو الجمال ذو السنام الواحد . وهناك
نوع من الجمال يقال للواحد منها (المهجين) ، وهو الجمال المضرب ، ويكون
أصغر حجماً من الجمال العربي الأصيل ، إلا أنه أسرع عدواً منه^٢ . وقد عدّ
الجمال عند العبرانيين من موارد الثروة والغنى كذلك ، ولذلك عدّ (أيوب)
من أغنياء زمانه لأنه كان يملك ألفي جمال ، وعد (المديانيون) (أهل مدين)
وهم من العرب ، أغنياء ، لأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الجمال^٣ .

وللجمال في العربية أسماء كثيرة . أما في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى،
فلا نجد فيها مثل هذه الكثرة . ويقال للجمال (كمل) و (بكرة) . وبراد
ب (كمل) الجمال . أما (بكرة) فالجمال الصغير . والجمال من أقدم الحيوانات
المذكورة في التوراة ، وذكر أنه كان لإبراهيم عدد كبير من الجمال^٤ .

وبالرغم من اشتهار جزيرة العرب بجمال خيلها ، وبتربيتها لأحسن الخيل ،
وبتصديرها لها . فإن الخيل في جزيرة العرب إنما هي من الحيوانات المهجنة
الدخيلة الواردة عليها من الخارج ، ولا ترتقي أيام وصولها إلى الجزيرة إلى ما
قبل الميلاد بكثير . قيل إنها وردت إليها من العراق . ومن بلاد الشام ، أو من
مصر^٥ ، وإن وطنها الأصلي الأول هو منطقة (بحر قزوين) . ولهذا لا نجد
في الكتابات الآشورية ، أو في (العهد القديم) أو في المؤلفات (الكلاسيكية)،
إشارات إلى تربية الخيل في جزيرة العرب، أو استعمال العرب لها في حلهم وترحالهم
وفي حروبهم .

وقد بقي العرب إلى ما بعد الميلاد ، بل إلى ظهور الإسلام ، لا يملكون
عدداً كبيراً من الخيل . وفي غزوات النبي ومعاركه مع المشركين ، كان عدد
الخيل التي اشتركت في المعارك محدوداً معدوداً ، مع أنها كانت مهمة جداً وعدة

١ قاموس الكتاب المقدس (٣٣٨/١) .

٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٣٩/١) .

٣ القضاة ، الاصحاح السابع ، الآية ١٢ .

٤ Hastings, 1, P., 344.

٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 77.

حاصمة في احراز النصر . وذلك بسبب قلتها اذ ذاك ، وعدم تمكن كل الناس من اقتنائها ، إلا من كان موسراً منهم، أو في حال حسنة . فقد كانت تكاليف الخيل كثيرة لا يتحملها إلا ذوو الدخل الحسن ، فالخيل في حاجة الى عناية ورعاية، وطعامها للمحافظة على صحتها يكلف باهظاً . فلا بد من تقديم الحشائش والحبوب لها ثم إن مجال استعمالها في البادية محدود لأنها لا تستطيع تحمل جوع الصحراء وعطشها تحمل الجمل ، كما أنها لا تستطيع السير في رمال البوادي المهلكة المتعبة مسافات بعيدة لهذا لم يقبل الأعرابي العادي على شرائها أو تربيتها في تلك الأيام ، فصارت من نصيب أهل اليسر والحال الحسنة ، يمتلكها ويعتني بها من يملك السيارات في هذه الأيام . كثرتها عند الرجل علامة على ثرائه ووجاهته بين الناس .

ونظراً لسرعة الخيل وخفتها في الكر والفر ، صارت أهم سلاح لنجاح الغزو وإلحاق الأذى بالعدو ، يغير عليها المغير فيباغت خصمه بهجوم سريع خاطف ، فربكه ، ولهذا أخذت القبائل ، ولا سيما القبائل الساكنة في مضارب قريبة من الأرياف ومن الحضر ، تشتري الخيل وتعتني بها للمحافظة على حياتها في الدفاع والمهجوم . وعدت القبائل البقوية ، هي التي تملك عدداً كبيراً من الخيل ، وصار للفارس مقام خطير في ذلك الزمن ، لشجاعته وصبره في الدفاع عن مواطنيه ، فهو بمثابة (الكومندو) في هذه الأيام .

واستعملت الخيل للتسلية واللهو واللعب ، فتسابق على ظهورها الفرسان في حلبات السباق ، وتراهن الناس على السباق ، ولعب الفرسان بعض الألعاب : ألعاب الفروسية وخرجوا على ظهورها للصيد ، فالصياد الراكب، أقدر من الصياد الراجل على مطاردة الصيد .

وفي القرآن ذكر للخيل كمصدر من مصادر القوة ، يرهب بها المسلمون أعداءهم ومصدر من مصادر الثروة ، ومصدر من مصادر الزينة وبهجة الحياة الدنيا^٢ . وفي الحديث ذكر لها كذلك وثناء عليها. وُعدت الخيول من الحيوانات

١ قاموس الكتاب المقدس (١٥٥/١ وما بعدها) .

٢ آل عمران ، الآية ١٤ ، الانفال ، الآية ٦٠ ، النحل ، الآية ٨ ، الحشر ، اية ٦ اسراء ، اية ٦٤ .

الشريفة الرفيعة في التوراة^١ ، وصورت على شكل خيول من نار فيها، تهبط على أعداء الرب لتنتزل بهم الهلاك والدمار^٢ .

أما البغال ، فلأنها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات ، وقدرتها على السير في المناطق الوعرة ، مثل الهضاب والأرضين المتموجة والجبال . وقد استعملت في الحمل وفي الركوب ، وهي تؤدي خدمات في هذه المناطق يعسر على الجمل القيام بها ، وقد يعجز عنها . أما هي ، فإن من الصعب عليها العمل في البوادي ذات الرمال ، كما أنها لا تستطيع الصبر صبر الجمل على تحمل الجوع والعطش أياماً متوالية عديدة ، لذلك لم يقبل عليها أهل البادية ، ولم يعتنوا بها .

وقد حرم قدماء العبرانيين على أنفسهم تربية البغال ، وأول من أباح ذلك وجوز لهم استعمالها هو (داوود) ، ومنذ ذلك الحين ، أقبلوا على تربيتها والاستفادة منها في أرض فلسطين^٣ . ويظهر ان قدماء العبرانيين لم يكونوا يعرفون البغال ، فلما وجدوها عند أم وثنية غريبة عنهم ، كرهوا استعمالها فحرموها على أنفسهم ، حتى انتبه (داوود) لفائدتها ومنافعها ، فاستعملها ، ثم قلده في ذلك بقية العبرانيين بالتدريج .

ويظهر أن البغال لم تكن كثيرة الاستعمال في جزيرة العرب حتى ظهور الإسلام . فقد ورد في كتب السير ان (دلدلاً) ، بغلة النبي ، (أول بغلة رثيت في الإسلام أهداها له المقوقس ، وأهدى معها حماراً يقال له عُفَيْر)^٤ . وورد أيضاً : (أهدى لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بغلة شهباء فهي أول شهباء كانت في الإسلام)^٥ . وورد : (أهدى فروة بن عمرو الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بغلة يقال لها فضة)^٦ .

-
- ١ ايوب ٣٩، اية ١٩ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٥/٢) .
 - ٢ الملوك الثاني ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٦/٢) .
 - ٣ اللاويون ١٩ ، ١٩ ، صموئيل ١٣ ، ٢٩ ، ١٨ ، ٩ ، الملوك الاول ، ٣٢١ ، ١٠ .
Hastings, P., 637. ٥٥ ، ١٨ ، ٢٥
 - ٤ ابن سعد الطبقات (٤٩١/١) (طبعة دار صادر) .
 - ٥ المصدر نفسه
 - ٦ كذلك .

وورد في القرآن الكريم : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... »^١ ، مما يدل على أن من الناس من استعمل البغال للركوب وللزينة . وقد كان من الإشراف والوجهاء من يتخذ البغال للركوب في الطرق الوعرة . أما من هم دونهم في منزلة ، فكانوا يتخذون الحمير .

وقد ورد في شعر لـ (بشر بن أبي خازم الأسدي) ما يفيد أن البغال كانت معروفة في بعض المواضع ، وأن أبوالها كانت ترك وقيماً أي أثراً على الأرض^٢ . والظاهر أنه قصد بعض الأرضين الوعرة التي كان من الصعب على غير البغال السير بها ، وذلك مثل بلاد اليمن التي كانت تستعمل البغال للركوب ولرفع الأثقال .

والحمير هي أول واسطة للركوب وللحمل عند الحضر وأهمها ، هي للحضري مثل الجمال للبدوي ، وهي مركب مريح لا يسبب ازعاجاً ، ولا سيما إذا كان أثاثاً ، لأنها أهدأ وآمن من العثار . هذا ، إلى أنها صبور^٣ تتحمل المشقات ، ولعل صبرها وتحملها وسكوتها عند ضربها ، قد حمل كل الناس على وسمها بالبلادة . فشبه البليد بالحمار ، فإذا أريد تعبير شخص بالبلادة وعدم الفهم قيل إنه (حمار) . ليس ذلك عند العرب وحدهم ، بل عند غيرهم من الشعوب القريبة منهم مثل العبرانيين ، والبعيدة عنهم . فشهرة الحمار بالبلادة شهرة عالمية^٤ . ويقال للحمار (حامور) (Hamor) في العبرانية . أما الأثني ، فلإنها (أثون) (Athon) أي (أثان) في العربية . وأما الحمار الصغير ، وهو ما يقال له (الكر) أو (الجحش) ، فإنه (عير) (Ayir) في العبرانية^٥ .

ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين أن الحمار في جزيرة العرب هو أقدم عهداً من الجمل ومن الخيل والبغال ، إذ كان واسطة الركوب والنقل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد . فلما حل الجمل محله خفف من واجباته وأعماله ، وصار عند العرب في منزلة هي دون منزلة الجمل بكثير .

١ النحل ، الآية ٨ .

٢ وقد جاوزن من غمدان أرضاً لا يوال البغال بها وقيع وفي بعض الكتب (عيدان) في مكان (غمدان) ديوان بشر (ص ١٣٢) .

٣ Hastings, P., 59.

٤ Hastings, P., 59.

والبقر من الحيوانات القديمة في بلاد العرب ، وهي من الحيوانات الملازمة لأهل الحضر في الغالب، ولا سيما لأهل الريف ، أما الأعراب فإن استفادتهم منها غير ممكنة وتكاليقها كثيرة بالنسبة إليهم ، ثم لأنها لا تستطيع تحمل طبيعة البادية ، لذلك لم يقبلوا عليها ، ولم يعتنوا بتربيتها ، بل ربما نظروا إلى أصحابها نظرة ازدراء وعدم احترام . ويستفاد من ألبانها ومن لحومها وجلودها ، كما يستفاد منها في حرث الأرض ، وفي سحب الماء من الآبار ، وفي جر العربات . وقد عثر على ألواح مكتوبة بالمسند وعليها صور ثيران تقوم بحراثة التربة لتهيئتها للزراعة .

والأغنام ، هي المادة الرئيسية لتأمين الناس باللحوم والصوف . تربى في كل أنحاء جزيرة العرب ، ويستفاد من ألبانها كذلك . أما (المعز) فيربى في المناطق المتموجة ، أي ذات التلال ، وفي الأرضين الجبلية بصورة خاصة . ويستفاد منها مادة للحوم وللحليب وللجلود ، ويستعمل شعرها للخيام السود المصنوعة من شعرها في تلك الأزمنة^١ . ولكن هذه الأنواع من الماشية، لا تستطيع العيش في البادية ، لذلك كانت من نصيب أهل المدن وحدهم . أما أهل الوبر الضاربون في البادية فلأن ماشيتهم الوحيدة الإبل .

وعرفت جزيرة العرب الأسد ، الذي قل وجوده فيها في الإسلام ، ويظهر من كثرة أسمائه في اللغة ومن ورود اسمه في الشعر الجاهلي ، أنه كان كثيراً فيها ، وقد اشتهرت أماكن خاصة منها بكثرة أسودها حتى قيل لها (مأسد) والواحدة (مأسدة) . ومن هذه الأماكن (عثر) ، وإليها نسبت (أسود عثر) ، و (عتود) وهي قرية نسبت إليها الأسود كذلك^٢ . وقد عرف الأسد بشدة بطشه وقوته وبسيادته على سائر مملكة الحيوان في القوة، ولهذا لقبوا الشجاع الذي لا يقهر أسداً .

أما بقية الحيوانات المعروفة باسم الحيوانات الوحشية ، أي التي لم تألف الإنسان ، فمنها النمر^٣ والفهد والثعلب والذئب والقط والوحشي والضبع والبقرة

١ Hastings, P., 906.

٢ المخصص (٥٩/٨ فما بعدها) ، صفة (٥٤) ، Moritz, S, 40., f., Noldeke, in, Zdmg, 49, 713, f.

٣ صفة (٢٠٢) .

الوحشي^١ ، أو الرثم والحجار الوحشي ، وقد كان الجاهليون يصطادونه ويأكلونه عند الحاجة ، حتى حرمه الإسلام ، والنعام^٢ والغزال والضَّبّ ، وله ذنب معقد ، ويأكله الأعراب . والورل والوزغ ، والبربوع ، والقنفذ . ولا تزال مواضع من اليمن والحجاز وحضرموت تحتضن قردة تتيه وحدها على الجبال والمرتفعات ، فخورة بأنها من نسل تلك القردة التي عاشت قبل الإسلام بأمد طويل .

وعرف العقاب والبازي والنسر والصقر والبوم من بين الكواسر التي تنقض على الطيور الضعيفة والهامم فتعيش عليها ، والغراب بأنواعه معروف في جزيرة العرب وله قصص في الأساطير العربية، ولهذا الطائر قصص في الآداب الأعجمية كذلك ، لها علاقة كما هي عند العرب بالتفاؤل والتشاؤم بصورة خاصة وكان من الحيوانات التي تركت أثراً في أساطير الشعوب القديمة وما برح الناس بتطيرون من نعيه . والهدهد المذكور في القرآن الكريم ، من الطيور الجميلة المحبوبة ، وهناك أنواع عديدة من الحمام والعصافير والقطط والعنادل ، وغيرها من الطيور الجميلة ولبعضها أصوات جميلة أنحاذاة ساحرة ، كما أن لبعضها ألواناً زاهية .

والجراد ، وإن كان طعاماً شهياً لكثير من البدو ، بلاء على أهل الحضر يأكل زرعهم ويأتي على ما غرسوه فتحل بهم المجاعة ، ويزيد في قساوة الطبيعة على الانسان . ولذلك عد نقمة توجهها الآلهة على البشر ، وتعبيراً عن الغضب الإلهي على الخارجين على طاعة الآلهة، ولما كان يحدثه من أضرار بالزرع والأثمار والأشجار^٣ .

والعقارب ذات أحجام وألوان ، وهي تلدغ من تصيبه فتؤذيه وتؤلمه إيلاماً شديداً ، وهي مثال الحق والظلم عند العرب ، فيضرب المثل بطبيعتها ، على عكس الأفاعي والحيات ، مع أنها مؤذية كذلك ، وقد تمت من تلدغه . والسبب في ذلك أنها أكبر حجماً من العقرب ، وفي استطاعة الإنسان رؤيتها وتجنبها ، ثم لأنها لا تقدم على الانسان ولا تلدغه إلا إذا شعرت أنها في وضع

١ Moritz, S, 42, Wellhausen, *Lieder der Hudhailiten*, no., 175, 176.

٢ Euting, 1, 230, Moritz, S, 42.

٣ الخروج ، الاصحاح العاشر ، الآية ٤ وما بعدها ، مزامير ، المزمور ٧٨ ، الآية ٤٦ ، ١٠٥ ، الآية ٣٤ ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ٣٢٢) .

خرج مخيف بالنسبة اليها . ولهذا ورد في الأمثال : « نحو العقرب لا تقرب ، نحو الحية افرش ونم » ، وزعم أن العقرب عمياء مع أنها ترى مثل سائر الحيوانات . ولكن صغر حجمها ولونها الذي يقرب من لون التراب ، وكثرة وجودها في البيوت ، هي عوامل تجعل الانسان لا يميزها بسهولة ، ولا يشعر بها إلاّ وقدمه عندها أو فوقها ، فتلدغه عندئذ دفاعاً عن نفسها ، كما يفعل أي حيوان آخر باستعمال ما عنده من وسائل الدفاع عن النفس .

وقد تركت الأفاعي والحيات أثراً كبيراً في القصص العربي . ولما كان بعضها كبير الحجم ، يقفز على من يهاجمه بسرعة خاطفة ، أفرع الناس في البوادي والأودية ، وترك في مخيلاتهم آثاراً باقية لا تنسى . جعلهم يربطون بين الحيات والأفاعي والعقارب ، وبين الجن « الجان » ، بأن جعلت فصائل منها .

وتعيش في الرمال وفي الغابات وبين الصخور ، فصائل من الحيات مختلفة الأحجام ، بعضها صغير ، يقفز قفز بعض السمك فوق سطح البحر ، أو الهوام وبعض الحشرات فوق سطح الأرض . فلا يشعر المار إلاّ وأمامه حية قافزة تفزعه وترعبه . وقد طار صيتها وانتشر خبرها خارج حدود جزيرة العرب ، فوصفت بلاد العرب بكثرة الحيات الطائرة ، حتى زعم أن لبعضها أجنحة ، وأنها ذات ألوان متعددة ، وكون وجودها قصصاً في تخيلة الآشوريين واليونان والرومان ، نرى أثره فيما ذكره « هيرودتس » و « سترابو » عن تلك الحيات^١ .

وقد فزع جيش (أسرحدون) في أثناء اختراقه البادية من كثرة الثعابين والحيات التي كانت تشور عليهم وتقفز أمامهم كما يقول نص «أسرحدون» . وذكر أن من بينها ثعابين ذات رأسين ، وأن من بينها ما له جناح فيطير . ولما مرّ الجيش بأرض (بوزو) (بازو) (Bozu) (Bazu) ، وجد الأرض مغطاة بالثعابين والعقارب ، وهي في كثرتها مثل الذباب والبعض^٢ . والظاهر أن البوادي كانت منازل طيبة للثعابين . وقد تذر الاسرائيليون من « الثعابين الطائرة » وفزعوا منها عندما كانوا يقطعون البوادي والفيافي في طريقهم الى

١ Herodotus, III, 107, 113, Strabo, XVI, 4, 19, 25.

Rogers, Cunelform parallels to the Old Testament, P., 359, Luckenbill, II, ٢ 209, 229, Montgomery, Arabia and the Bible, PP. 8.

فلسطين^١ . وقد أفزعت السياح المحدثين والمستشرقين ، ومنهم «لورنس» الذي هاله ما رأى من كثرة الثعابين في الأماكن التي نزل بها وفي جملتها «وادي السرحان»^٢ .

والسمك هو من أهم موادّ العيش لسكان سواحل الجزيرة ، يعيشون عليه ويبيعونه لحماً جافاً ويصدرونه الى الأماكن البعيدة ويحملون الطري منه الى الأماكن التي لا تبعد كثيراً عن الساحل . ويجفف ويدق ليكون طعاماً عند الحاجة اليه ، كما يكون طعاماً لحيواناتهم كذلك . ولا يزال سكان السواحل يصيدون السمك بالطرق التي تعود أهل الجاهلية استعمالها في السمك . ويأتي سمك (السردين) أي السمك الصغير في مواسم الشتاء الى السواحل بكثرة ، فيصاد بسهولة وتغذى به الحيوانات . وطالما تنبعث الروائح الكريهة ويترآكم الذباب بدرجة منفرة من تكدس الأسماك المعرضة للشمس لتجفيفها ، فتكون من شر الأماكن لمن لم يعود دخولها .

ومن أنواع السمك الكبير الذي يوجد في البحر الأحمر وفي البحر العربي والخليج ، نوع يقال له (القرش) ، يحتاج صيده الى مهارة وبراعة ، ويحمل لبيع لحمه مقطعاً في الأسواق .

وقد اشتهرت اليمن والطائف في الحجاز ومواقع أهل الحضرة الأخرى بدباغة الجلود ومعالجتها لتحويلها الى مادة نافعة لصنع الأحذية أو الدلاء أو القُرَب وما شابه ذلك . وقد تصدرّ الجلود مدبوغة أو غير مدبوغة ، الى العراق أو إلى بلاد الشام لبيعها هناك .

وليست لدينا في الزمن الحاضر دراسات علمية دقيقة عن أنواع الحيوانات التي عاشت في جزيرة العرب في العصور السحيقة لما قبل الإسلام . فما عثر عليه من بقايا عظام قديم ، أو أصداف ومحار ، هو قليل لا يكفي لاعطاء أحكام علمية عن حيوانات جزيرة العرب في العصور البرنزية والحديدية والحجرية ، أو ما قبل هذه العصور التاريخية . فليس لنا الا الانتظار ، حتى تأتي الفرص الملائمة التي يقوم فيها العلماء المتخصصون بالتجوال في مختلف المناطق بحثاً عن آثار عظام

١ العدد ٢١ الآية ٢٤ وما بعدها ، اشعيا ، ٣٠ ، الآية ٦ .

٢ Colonel Lawrence, Revolt in the Desert, P., 93, G. Jacob, Studien in Arab. Dichtern, Heft, 1, S., 93, Heft, 4, S., 10, Montgomery P. 9.

وهياكل ، تكشف القناع عن ذلك العالم الحي ، الذي عاش في هذه البقاع قبل آلاف السنين .

واذا كان الجمل ، هو رمز جزيرة العرب ، لالتصاقه بها ، فإن النخيل هي رمز آخر لها ، وكتاية عن أهم حاصل ومنتوج زراعي تصدره تلك البلاد ، ولهذا صارت رمزاً لها . وصار (التمر) ، عند كثير من المسلمين من أهم ما يتناولونه في شهر رمضان ، للافطار به ، لأنه رمز الإسلام ورمز المدينة التي عاش وتوفي فيها الرسول .

وكما أفاد الجمل أهله الفوائد المذكورة المعلومة ، من ناحية حمله ولحمه وجلده ووبره ، كذلك أفادت النخلة سكان جزيرة العرب فوائد عديدة ، حية وميتة ، أفادتهم في تقديم ثمرة صارت إداماً للعرب ، وطباً يستطبون بها لمعالجة عدد من الأمراض . ومادة استخرجوا منها دبساً وخبثاً وشراباً ، وأفادهم كل جزء من أجزائها ، حتى أنهم لم يتركوا شيئاً من النخلة يذهب عبثاً . فهي اذن رمز الخير والبركة بكل جدارة وحق لأهل جزيرة العرب ، لا يدانيها في ذلك أي نوع من أنواع النباتات النامية في هذه البلاد .

وكائن له هذه الفوائد والمنفعة ، ينمو ويثمر بسهولة ويسر ، لا بد أن يثمن ويقدر ، ويميز على غيره . ولهذا صارت النخلة سيادة الشجر ، لا عند العرب وحدهم بل عند قدماء الساميين أيضاً ، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم^١ . وزخرفت معابدهم بصورها واستعمل سعفها الأخضر في استقبال الأعياد والأبطال والملوك وكبار الضيوف ، لأنه علامة اليُمن والبركة والسعادة والفرح . ولا يزال السعف زينة تزين بها الشوارع في المناسبات العامة المهمة حتى اليوم . وقد عثر على صورها وصور سعفها على النقود القديمة وفي جملتها نقود العبرانيين الذين يحترمون النخلة احتراماً لا يقل عن احترام العرب لها ، ولهذا ورد ذكرها في مواضع عديدة من التوراة والتلمود^٢ .

والنخيل ، هي مثل الجبال ثروة ورأس مال يدور على صاحبه ربحاً وافرأ . ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً . وقد ربح يهود الحجاز أرباحاً طائلة من

١ Hastings, P., 876.

٢ اللاويون ، ٢٣ ، ٤٠ ، نحemia ، ١٥٨ ، المكابيون الاول ، ١٣ ، ٥١ ، Hastings, P., 876.

اشتغالهم بزراعة النخيل هناك . فالتمر هو مادة ضرورية للأعرابي يعيش عليها ويأتم بها ، واذ هو لم يكن يفلح ولا يزرع ، كان يشتريه مقايضة في الغالب من تجار التمور ، فيكسب أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من بيعهم التمور . ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء ، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه ، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر تلك الأمكنة . لا يزارحها نبات آخر من النبات .

والنخلة هي من أقدم الأشجار التي احتضنها الساميون ، ولعل الفوائد التي حصل الساميون عليها من هذه الشجرة ، هي التي حملتهم على تقديسها وعدّها من الأشجار المقدسة ، فنجد النخلة مقدسة عند قدماء الساميين وعدّوا ثمرها وهو التمر من الثمار المقدسة التي تنفع الناس^١ .

أما الكروم ، فقد غرست في مناطق من الجزيرة اشتهرت وعرفت بها مثل الطائف واليمن . وأما الأشجار المثمرة الأخرى مثل الرمان والتفاح والمشمش وأمثالها ، فقد غرست في مناطق عرفت بالخصب ، ويتوافر الماء فيها ، ويميل أهلها الى الزراعة والاستقرار ، مثل مدينة (الطائف) مصيف أهل مكة منذ الجاهلية ، واليمن . وقد ذكر أن الكروم دخلت الى بعض المناطق حديثاً، فورد أنها دخلت الى (مسقط) مثلاً في القرن السادس عشر للميلاد ، على أيدي البرتغاليين^٢ ، ودخلت الى الحجاز في القرن الرابع بعد الميلاد غربية من بلاد الشام . ويرى بعض الباحثين أن النبط واليهود كانوا الوسطاء في نقل الأشجار المثمرة الى الحجاز^٣ .

أما أشجار ضخمة تمد الناس بالخشب على نحو ما نجده في الهند أو في إفريقية، فلجفاف الجزيرة لا نجد فيها مثل تلك الأشجار . لذلك استورد العرب خشب سفنهم ومعابدهم وبيوتهم من الخارج في الغالب ، من إفريقية ومن الهند ، خلا الأمكنة القريبة من الجبال والمرتفعات التي يصيبها المطر ، وتصطدم بها الرطوبة، فقد نبتت فيها أشجار كونت غابات وأيكات ، أفادت من في جوارها ، إذ

١ Hastings, P., 675.

٢ جان جاك بيربي ، جزيرة العرب (٢٠٥) ، وفي هذه الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٩٦٠ ببيروت ، اغلاط كثيرة في ضبط الاعلام .

٣ حتى (٢٢) .

أمدتهم بما احتاجوا اليه من خشب لاستعماله في مختلف الأغراض . وقد كانت منطقة (حسمى) وأعالي الحجاز ذات غابات ، وقد تعبد أهلها لإله اسمه (ذو غابة) ، إله الغابات ، كما كست الأحراج الطبيعية والغابات جبال اليمن وجبال حضرموت وعمان .

وما زال أهل العروض ولا سيما سكان الخط ، يستوردون أخشاب سفنهم من الهند ، لعدم وجود الخشب الصالح لبناء السفن عندهم أو في أماكن قريبة منهم . وهم في ذلك على سنة أجدادهم الذين عاشوا قبل الإسلام بل قبل الميلاد، يذهبون بسفنهم الشراعية الى سواحل الهند وسيلان تحمل اليها التمور وحاصلات جزيرة العرب والعراق وتعود بهم محملة بحاصلات الهند ومنها الخشب الثمين للاستفادة منه في بناء السفن ولاستعماله في المعابد الضخمة المهمة وفي قصور الملوك .

والسدر من الأشجار المعروفة في جزيرة العرب ، وترتفع شجرته أمتاراً عن سطح الأرض، وتكون ظلاً يقي من يجلس تحته لخب الشمس ووهجها المحرق . وتكون له ساق قوية متينة . وهو لا يحتاج الى سقي دائم ، لأن جذوره تمتد عميقة في باطن الأرض ، فتمتص الرطوبة ، ويعطي ثمراً هو (النبق) ، ويستعمل ورقه استعمال الصابون في تنظيف الجسم .

وأشجار مثل السدر ذات ارتفاع وظل ، وهي أشجار ذات نفع كبير لأهل البلاد التي تغلب عليها طبيعة الجفاف ، لا يمكن أن يقدر أهميتها وفائدتها الا من ركب الصحراء في يوم حار ، ثم جاء فجأة فجلس تحت ظل شجرة تقيه وتقي حيوانه من لهب الشمس ، سرى نفسه في جنّة وسط جهنم . فلا عجب اذا ما عبد بعض العرب وبعض الساميين مثل هذه الأشجار ، وتقربوا اليها بالنذور والقرابين ، وتوسلوا اليها ، أو عدّوها من الأشجار المقدسة ، من الأشجار المباركة ، من أشجار طوبى ، الأشجار التي وعد بها المتقون في الجنة .

وقد عبد قداماء العبرانيين بعض الأشجار المثمرة ، وعدّوها إلهة أنثى ، لا إلهاً ذكراً ، وذلك لخاصية الحمل التي فيها ، وقد تصوروا أن للقمر أثراً في حمل تلك الأشجار ، أي في اعطاء الثمرة .

A Religious Encyclopaedia, or Dictionary of Biblical, Historical, Doctrinal, and Practical, Theology, by Philip Schaff, Vol., 2, P., 916.

وقد ذكرت أسماء بعض الفواكه والأثمار والأشجار في القرآن الكريم ، ويدل ذلك على وجودها في الحجاز ، واستعمال الناس لها ، ووقوفهم عليها ، مثل التين والزيتون والأعناب والطلح والسدر والرمان وعلى وجودها وزرعها في الحجاز ، قبل الإسلام بأمد . ولم يكن الحجاز مثل اليمن وحضرموت في كثرة الأشجار والفواكه ، وذلك لخفاه بالقياس الى جو العربية الجنوبية الذي ساعد على نمو الأشجار .

والأثل والأراك والغصن الذي يستخرج منه الفحم ، والمعروف بجمره ، و (السنط) ، والسمح ، و (الصعتر) ، وأمثالها ، هي من الأشجار التي لا تزال تنمو وتعيش في مواضع متعددة من الجزيرة ، وبعضها في الأقسام الغربية والجنوبية حيث تنمو وتثبت على المرتفعات ، يستخرج منها الناس وقوداً ، أو ثمراً برياً يأكلونه ، وقد يستفيدون من ورقه فيجففونه ويسحقونه فيبيعونه .

وأما الحبوب والخضر والبقول ، فتحْتَاج كلها الى سقي ، لهذا انحصرت زراعتها في الأماكن التي تتوافر فيها المياه أو تتساقط عليها الأمطار في المواسم المناسبة . لذلك نجد في الحجاز وفي اليمن وفي العربية الجنوبية وفي مواضع المياه من نجد والعروض . والحبوب هي الحنطة والشعير والذرة والأرز، وسأحدث عنها وعن بقيتها في باب الزراعة عند الجاهليين . وبعض الخضر ، مستورد من الخارج ، أدخل من العراق أو من بلاد الشام أو من إفريقية والهند ، فالبطيخ مثلاً المعروف بـ (الخربز) عند أهل المدينة مستورد كما يدل عليه اسمه الفارسي من العراق : استورد قبل الإسلام بأمد . ويمكن الاستدلال من أسماء الأثمار والخضر ، ومن دراسة توزيعها وأماكن وجودها ، على الأماكن التي جاءت منها ، فدخلت جزيرة العرب قبل الإسلام .

أما (البخور) واللبان — يترول العالم في ذلك الزمان — والصموغ والمرّ والمنتوجات الزراعية الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وكانت مصدر رخائها ، ومصدر تنافس الدول الكبرى عليها في ذلك الزمان ، فقد زالت أهميتها بالتدريج ، وذهب أثر سحرها بتبدل الأيام . و (ظفار) والمناطق الأخرى ، وإن كانت لا تزال ترى أشجار البخور تثبت على الفطرة حتى اليوم ، قد زالت دولتها الآن ، فلا تأتي للسكان بالذهب والفضة ، فقد تغير ذوق العالم ، وتبدلت تجارتها ، وصار يفتش عن الذهب الأسود ، منتوج الطبيعة في باطن الأرض .

وفي هذه المواضع من العربية الجنوبية وفي الأودية وحافات الهضاب والجبال التي كانت تنبت بها تلك المواد الثمينة ، والتي لا تزال تنبت على الطبيعة، تشاهد كهوف ومغاور غربية وآبار وكتابات جاهلية بالمسند ، وآثار مقابر تتحدث كلها عن قوم كانوا قد استوطنوا هذه الأماكن قبل الإسلام بزمان طويل^١ . أما الآن ، فهي خرائب ، ترجو من الأحياء توجيه نظرهم إليها لإحيائها ولاستنطاق آثارها وكنوزها لتحديثهم عن ماضيها القديم .

وقد حبت الطبيعة اليمن بمزية جعلتها تحتضن كل النباتات المذكورة ، وتنبت أكثر أنواع المزروعات ، وذلك بانعامها عليها بجبال وبمرتفعات وبمنخفضات حارة رطبة ، هيأت لها ثلاثة جواء ، تنتج محاصيل ثلاثة أنواع من المناخ : منتج المناخ المرتفع البارد ، ومنتج المناطق المعتدلة ، ومنتج المناطق الحارة .

وقد عرف أهل اليمن الأذكياء كيف يستغلون تربتهم ، فعملوا مدارج على سفوح جبالهم وعلى المرتفعات ، أصلحوا تربتها ، وذلك لحصر مياه المطر عند نزوله ، ضماناً لدخوله التربة وإروائها ، وزرعوا تلك المدارج أو السلاالم العريضة بمختلف المزروعات وذلك قبل الإسلام بأمد طويل ، فأمنوا بذلك خيراً وأفرأ لهم ، جعل اليمن من أسعد بلاد جزيرة العرب ، فهي العربية السعيدة والعربية الخضراء بكل جدارة ، وهي موطن الحضارة وأرقى مكان نعرفه في الجزيرة في أيام ما قبل الإسلام .

ومن النبات ما هو دخيل استورد من الخارج، من العراق أو من بلاد الشام ، وقد احتفظ قسم منه باسمه الأعجمي القديم . ويظهر أن بعضه قد دخل بعد الميلاد . وقد يكون من المفيد دراسة نبات جزيرة العرب قبل الإسلام ، لمعرفة الدخيل منه وكيفية وصوله إلى الجزيرة ، كما يستحسن دراسة الكتابات الجاهلية لاستخراج ما ورد فيها من أسماء النبات .

وأما البوادي فإن ظروف الخصب والماء فيها محدودة ، تركزت في مواضع المياه وفي الأماكن الرطبة التي تكون المياه الجوفية فيها على حافة القشرة ، وفي أعقاب الأمطار ، حيث تخضر الأرض وتلبس حلة خضراء سندسية جميلة ، لكن لبسها لا يدوم طويلاً ، فسرعان ما تمزقها الرياح الجافة والأهوية الحارة، فتقتضي

Sanger, The Arabian Peninsula, P., 126. ١

عليها وتظهر حقيقة ما تحتها من تربة جافة عبوس، لا مكان للنبات فيها ولا مجال لزراع فيها في مثل هذه الظروف .

والواحات ومواضع الآبار والمياه في البوادي ، هي رحمة للانسان حقاً، ومنظر تقرأ به العين . فالواحة في البادية ، لؤلؤة وكنز وجنة وسط جحيم ، لا يدرك جمالها ولا يعرف قدرها إلا من اضطر إلى ركوب البوادي وتعرض لرياح السموم ووهج الشمس وعواصف الرمال تستقبل الأوجه بلدات الرمل الناعمة ، تهاجم العيون والأنوف والأفواه، وتضطر حتى الجمل إلى البطء في سيره وإلى التوقف ، ثم تأتي على ما لدى الإنسان من ماء حرص على حمل أكبر كمية يستطيع حملها للوصول إلى مكانه المقصود لضمان حياته في هذه البادية وحياة حيوانه الذي هو فيها جزء من حياته أيضاً . ولولا الآبار والواحات في هذه البوادي ، لما كان من الممكن طرقها وسلوكها ، وإلا كان الدمار والمهلك .

وفي هذه المواضع التي حبتها الطبيعة بـ (إكسير الحياة) يستعيد المسافر نشاطه ويتجدد أمله ، ويسترد قواه ، يعطيه مأواها قوة تعيد إليه كبريائه وعظمته وجبروته ، ثم تنسيه كل ما تعرض له من مصاعب ومشقات ، وما أبداه من عجز وضعف تجاه القوى الخفية القادرة المهيمنة على الصحراء . وعندئذ يتذكر حكمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حي »^١ . ويشعر ببحر الماء والخضراء ، يسحر هذه الأشجار والشجيرات والأعشاب النامية في هذه التربة بفضل (إكسير الحياة) . ومهما كان الانسان في هذا المكان من السلاجة والبلادة والجهل ، فلا بد أن يستولي عليه شعور من حيث لا يشعر بعظمة سحر هذا المكان .

أما الغرباء الذين يعجبون من تقاتل العرب فيما بينهم على موضع صغير فيه بئر أو بركة ماء أو عشب ، فإنهم سيدركون سر هذا التقاتل في حياة أهل البادية لو كلفوا أنفسهم يوماً اجتياز تلك البوادي الواسعة العابسة . عندئذ فقط ، يدركون أن ذلك القتال الذي وسم أهل البادية بسمة حب الغزو والغارات لم يكن سببه فردية وأنانية ، وإنما غريزة انسانية تثبت في كل انسان متى عاش في هذه الظروف القاسية العابسة الفقيرة . إنها غريزة المحافظة على الحياة .

ولا غرابة بعد إذا ما تغنى العربي بمواضع المياه والبادية بعد نزول الغيث

١ الانبياء، الآية ٣٠ .

عليها ، واذا ما أظهر الحنين اليها ، وتوجع في شعره وفي غنائه على الليالي المقمرة يقضيها في باديته يتأجج سماءه الصافية ونور قره الساطع يغازله ويوحى اليه ، ويرسل اليه النسمات العليقة ، والى جانبه حبيته . يذكر حسه هذا في شعره وفي غنائه وفي موسيقاه ، حتى يبدو للغريب ، وكأن ما يقوله العربي ويحس به نغمة واحدة ساذجة مكررة تعاد وتعاد من غير معنى ولا مسبب . ولكن حسه هذا حس الصحراء ، وليس في الصحراء غير نغم واحد ، ترنم به الطبيعة ، فلما هدوء شامل ، ولما نسمة واحدة عليقة مستمرة ، ولما عواصف رملية ، اذا هدأت عاد الى الصحراء هدوؤها المعهود .

ومناخ جزيرة العرب - على العموم - حار شديد الحرارة ، جاف ، إلا على السواحل ، ولا سيما في التهائم ، فإن الرطوبة تكون عالية فيها، ولهذا يتضايق الناس من أثر الحر فيهم ، مع أن الحرارة ذاتها فيها لا تكون عالية كثيراً ، وانما مبعث هذا التضايق هو من الرطوبة المصحوبة بالحرارة ، ولهذا صار بعض مواضع التهائم من شر الأمكنة على وجه هذه الأرض .

ولهذا الجو الرطب الحار أثر في حالة الناس ، في صحتهم وفي نشاطهم . فانتشرت الأمراض في الأماكن التي تكثر فيها السباخ والمستنقعات ، وفتكت بالناس ، وتكدس فيها الذباب وتجمعت الحشرات لملاءمة مثل هذه الأجواء لمعيشة هذه المخلوقات .

ولهذا السبب المذكور ، عاشت في هذه الأرضين ونمت النباتات التي تألف المناطق الحارة الرطبة ، والأعشاب التي تعيش على المستنقعات وفي الأرض الرطبة، من حشائش وقصب وأعشاب .

أما في الداخل ، فإن الحرارة فيها تكون جافة ، ولهذا فإنها لا تكون حديدية الطبع ، على نحو حر السواحل . ويتلطف الجو في الليالي في النجساد ، فيكون الليل رحمة للناس ينسيهم قسوة النهار وشدة حرارته ، وفقر الحياة ، لا سيما إذا كمل القمر ، وصار قرصاً يسحر الناظرين . فإن سحره يكون عاماً ، يشمل الغني والفقير ، ويبعث في النفوس الرقة والحنان ، ويشير فيها عواطف الشجن المنبعثة من قسوة الحياة وشحها وفقر الأرض ، فتأخذ النفوس الرقيقة في مناجاته بقيثارة بسيطة ذات ثقب ، ينفخ فيها لتخرج منها أصواتاً تسمع القمر فعلى سحره في نفس الانسان المعذب في النهار المحروم من طيب الحياة التي ينعم بها

أهل الأرضين الآخرون ، أو بآلات بسيطة أخرى صنعوها بأيديهم لتعبر أناملهم وأوتار آلاتهم الساذجة عن إحساسهم الحزين، ثم لا يكتفي أصحاب هذه النفوس الرقيقة في الغالب بإرسال نغمات الحس العميق من آلة ، بل يقرنون تلك النغمات الحزينة بنغمات بشرية تنطق بما في قلب الإنسان من حس وألم دفين ، يوجهه إليه ألم الحرمان ، ودغدغة النسيم العليل ، وسحر القمر وتلاؤف مصابيح السماء . فتخرج نغمات شجية حزينة ، تعاد وتكرر، لتسبح السماء على هذا الجبال الساحر ، ولتفسر للسامع نوع الحياة في هذه البقاع التي وهبتها الطبيعة عاطفة عميقة ، وسحراً فائتاً في الليل ، وحرمتها خيرات الدنيا في أثناء النهار ، ولتخبره بهذه النغمات المعادة أن الحياة هنا بسيطة لا تعقيد فيها ولا التواء وأنها معدودة محدودة، وعودة وتكرار .

وقد يعجب الغريب من تغزل العرب بـ (ريح الصبا) ، ومن مدحهم لها الى حد بلغ الإفراط ، فليس في أشعار العالم ، ولا في نثرهم ، شعر أو نثر فيه هذا القدر من التغزل بريح من الرياح . وقد لا يفهم الغريب أي تعليل يقدم اليه ولا يقبله ، وخير جواب يقدم اليه هو حضوره بنفسه الى جزيرة العرب للاستمتاع بلذة (الصبا) في ليلة مقمرة من ليالي الجزيرة ، وسيعرف عندئذ سحر دلال (الصبا) وسحر تغزل العرب بها ، على عكس (السموم) ، التي تشوي الوجوه ، وتعمي العيون ، فتجعل الشعراء يلعنونها ، والناس يتذكرون ثقلها وشدها عليهم وما ألحقته بهم من مهالك وأضرار .

والمطر هو غوث ورحمة لسكان جزيرة العرب ، يبعث الحياة للأرض ، فتنبث العشب والكلأ والكمأة والأزهار ، ويحول وجهها العابس الكئيب الى وجه مشرق ضحوك ، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم ، ويخرج أهل الحضر الى البادية للتمتع برؤية البساط الأخضر المطرز بالأزهار ، وللإستمتاع بالمنظر الساحر الذي كسا الربيع به وجوه البوادي ، ولصيد الغزلان والحيوانات الأخرى التي جاءت هي أيضاً من مآويها لتشارك الطبيعة في فرحتها ، ولتشبع نفسها بعد جوع وعطش . وتفرح الإبل ، ويدرب لبنها ، ويكثر نسلها ، وتتضاعف بذلك ثروة أصحابها ، ويسير الجمل متبختراً فخوراً بنفسه معتزاً ، بطراً لا يقضم منها إلا ما يعتقد أنه طعام للذئب له ، يقضم من موضع ثم يتركه بطراً الى موضع آخر ، وقد كان قبل ذلك من جوعه يأكل كل ما يقع بصره عليه ويراه . أفليس من حق العرب

اذن أن تسمي المطر (غيثاً) ؟ وأن تفرع وتتوجع من انحباسه ، وأن تفرع الى ألفتها تتوسل اليها لإرسال سحب المطر اليها ، وتتقرب اليها بالبدعاء وبصلوات (الاستسقاء) و (الاستمطار) ، لترسل اليها غيثاً يغيثها ويفرج كربتها يدرأ عنها مصيبة تنزل بها إن انحبس المطر ؟ لذلك كان انحباس (الغيث) عند العرب كارثة يتألم منها الناس ، ويكابد من فداحتها الحيوان .

والجفاف هو الصفة الغالبة على جو جزيرة العرب ، فالأمطار قليلة والرطوبة منخفضة في الداخل إلا التهامم والسواحل ، فلأنها ترتفع فيها كما ذكرنا . ولكن الطبيعة رأفت بحال بعض المناطق ، فجعلت لها مواسم تنزل فيها الغيث ، لإغاثة كل حي ، وأهمها اليمن . أما عمان ، فينزل فيها مقدار منه ، ينفع الناس ويعينهم على تصريف أمورهم . وأما باقي الأقسام ، فإن أكثرها حظوة ونصيباً من المطر ، هي النفود الشمالي ، وجبل شمر ، فتتزل بها الأمطار في الشتاء ، فتنبت أعشاب الربيع . وأما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها من المطر إلا رذاذ ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ .

وينهمر المطر أحياناً من السماء وكأنه أفواه قرب قد تفتحت ، فيكون سيولاً عارمة جارفة تكتسح كل ما تراه أمامها ، وتسيل إلى الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان . وقد لاقت (مكة) من السيول مصاعب كثيرة ، وكذلك المدينة والمواضع الأخرى^٢ وقد يهلك فيها خلق من الناس ، وتسيل مياه السيول الى مسافات حتى تصب في البحر ، وقد تبتلعها الرمال فنغوص فيها وتجري في باطن الأرض مكونة مجاري جوفية ، تقرب وتبتعد عن قشرة الأرض على حسب قربها أو بعدها منها ، وعلى حسب قرارة المكان الذي تسيل عليه . وقد تبلغ البحر فتندفق عيوناً في قاعه ، كالذي نشاهده في الخليج بين الساحل والبحرين . وقد استفاد أهل اليمن بصورة خاصة وأهل حضرموت والحجاز من السيول بأن بنوا سدوداً للسيطرة عليها ، ولحبسها الى حين الحاجة . وسد (مأرب) الشهير هو خير تلك السدود شهرة وصيتاً ، وقد غذى بإكسير الحياة مساحات واسعة من أرض مباء . وقد وجد السياح آثار سدود قديمة في نواحي من الحجاز ونجد والعربية الجنوبية تعود الى ما قبل الإسلام ، بنيت في مواضع ممتازة تصلح

١ حافظ وهبة : جزيرة العرب (٦) .
٢ البلاذري ، فتوح البلدان (٥٣ فما بعدها) ، الأزرقى ، تاريخ مكة .

جيداً لمنع مياه السيول من الذهاب عبثاً ، حتى إن المهندسين المحدثين رأوا انشاء سدود جديدة في هذه الأمكنة للاستفادة من مياه السيول لإحياء أراضين موات في الزمان الحاضر ، يمكن قلبها الى مزارع وجنان خضر .

إن أرض اليمن التي صادقتها الطبيعة فأحسنّت إليها ووهبتها هبات تحسدها المناطق الأخرى عليها ، ووهبتها أمطاراً موسمية ووهبتها جواً حاراً رطباً في نهامة



منظر يمثل المدرجات القائمة على الجبال والتلال لزراعتها
من كتاب « Jemen, das Verbotene Land » لـ Guenther Pawelke (الصفحة ٥٦)

اليمن ، وجواً معتدلاً في المرتفعات ، وجواً لطيفاً في الجبال ، ووهبتها نباتات كثيرة تناسب تنوع هوائها وحيوانات عديدة كثيرة ، ومعادن متنوعة ، هي

أرض ذات حظ كذلك بعدد سكانها ، فإنها حتى اليوم من أكثف مناطق جزيرة العرب وأكثرها سكاناً . وسكانها ثروة مهمة ومصنع غدى بلاد العرب والبلاد الإسلامية بموجات من القبائل ، نشرت الإسلام والثقافة العربية في البلاد المفتوحة ، كما أنه موطن العراق وبلاد الشام في الجاهلية بقبائل ، استوطنت هناك ، فكوّنت حكومات مثل حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة ، ونسب المناذرة ونسب الغساسنة يرجع الى اليمن . ولا تزال اليمن تقذف بالألوف من أبنائها كل عام ، تقذف بهم في شتى الأنحاء إلى سواحل إفريقية المقابلة ، حتى بلغ بعضهم الولايات المتحدة وانكلترا ، فكوّنوا فيها جاليات يمانية . ويعيش اليوم زهاء مليون يمني خارج اليمن ، هاجروا من بلادهم لظروف مختلفة لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد سبقهم أجدادهم قبل الإسلام ، فطفروا حدود جزيرة العرب وذهبوا الى مصر وإلى بعض جزر اليونان .

ويعد سكان « الجبل الأخضر » سعداء حقاً بالقياس الى سكان جزيرة العرب الساكنين في العربية الشرقية أو في البوادي الواقعة في جنوب المملكة العربية السعودية ، فإن الغيوم المثقلة بالأبخرة تصطدم بمرتفعات هذا الجبل فتضطر الى تفريغ شحنتها عليه . ولهذا توافرت المياه فيها ، فاستغلها السكان وزرعوا عليها . وصارت الأودية من مواطن الحضارة القديمة التي تعود الى ما قبل الإسلام بزمان طويل ، كما صارت سفوح الجبال والمرتفعات موارد رزق للزراع ، يستهلكون من الحاصل ما يحتاجون اليه ، ويصدرون الباقي لمن يحتاج اليه من أهل بقية جزيرة العرب . وما زال أهل البلاد يزرعون على سنة آبائهم وأجدادهم الأقدمين . وقد شاهد السياح آثار سدود في هذه المناطق شيدها الأقدمون للتحكم في الأمطار التي تسقط بغزارة وتجري سيولاً .

وفي مثل هذه الأمكنة نجد كتابات دونها أصحابها شكراً لآلهم على إنعامها عليهم بالغلة الوفرة وبالخصاد الغزير، أو لاتعامها عليهم بأرض مخصبة ولمساعدتها إيتامهم على حفر بئر زودتهم بماء للسقي وللزراع ، ووجود هذه الكتابات دليل ناطق على وجود الحضارة فيها في تلك الأيام .

أما مواطن الحضارة ، فقد وزعتها الطبيعة بيدها ، وما برح هذا التوزيع معترفاً به . وزعتها عليها توزيعها للنبات والمعادن والماء . ففي المحلات ذوات الحظ التي أحبها الماء ، فظهر فيها واحات وعيوناً واحساءً أو رطوبات أو

نهرات أو مطراً موسمياً ، ظهر الاستقرار ، وتولدت الحضارة على قدر إسعاف الماء ومقدار إستعداده لوضع نفسه في خدمة الأهليين وفي خدمة حيواناتهم وزراعتهم لا فرق بين أن يكون الماء في باطن الجزيرة أو في الأودية أو في السواحل ، ولو أن لموقعه دخلاً في ازدياد ثروة أصحابه وفي تمكينهم من الاتصال بالخارج ، فتفتتح عندئذ لهم أبواب العالم ، كأن يكون الموضع على طريق ، أو على مفترق طرق ، أو على ساحل أو مرفأ بحري ، أو على مقربة من بلد متحضر مثل العراق أو بلاد الشام . أما إذا كان واحة منعزلة ومحلاً نائياً ، فإن الحضارة لا يمكن أن تظهر بالطبع فيه ظهورها في الأماكن المذكورة .

ومن هنا نرى الحضارة والإستقرار والميل الى الإستقرار في بلاد اليمن وحضرموت أظهر وأبرز من أي مكان آخر ، نرى فيها حكومات بالمعنى المفهوم من الحكومة قبل الميلاد بأمد طويل ، ونرى فيها مدناً عامرة مسورة لها حصون وقلاع وتنظيمات وتشكيلات حكومية ، ونرى فيها مؤسسات دينية ترعى المسائل الروحية والروابط التي تربط بين البشر وخالقهم ، ونرى أنظمة وقوانين مكتوبة وسدوداً وأبنية عالية مرتفعة وفناً ما زالت جلوده ومظاهره خالدة باقية في دم الناس . ثم نرى مثل ذلك أو قريباً منه في أعالي الحجاز وفي الأرضين الداخلة في هذا اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية . أما الواحات والعيون والآبار ، فقد صارت مستوطنات لتمدن المستقر والقادم بالماء والتمر وبشيء من الحبوب والخضر ، وإذا كانت على طريق صارت مأوى للقوافل ، ولهذا لم يكن من الممكن قيام حكومات كبيرة بها ، لعدم توفر الشروط اللازمة لإنشاء الحكومات الكبيرة بها ، واضطرت إلى توثيق علاقاتها بأهل البادية ، وإلى الارتباط بهم بروابط العهود والمواثيق ودفع الإتاوة لمتهم من التعرض لهم بسوء .

فالحياة في جزيرة العرب ، هي هبة الماء ، ولهذا انحصرت في هذه الأماكن المذكورة ، وصار فرضاً على رجال القوافل وأصحاب التجارات المرور بها ، وهو أي الماء، الذي رسم لأصحاب الجمال خطوط سيرهم إلى المواضع التي يريدون السير إليها ، وحدد لهم معالم الطرق . وأقام لهم أماكن الراحة، وما زال الأعراب والتجار يسلكون تلك الطرق ، للوصول إلى الأماكن النائية بالوسائل القديمة التي استعمالها سكان الجزيرة قبل الإسلام ، وبالركب القديم ، بطوله وبعرضه وهو الجمل . ولكن وسائل النقل الحديثة التي نافسته وأحالت مكرهاً على التقاعد

واضطرتة الى الانسحاب من بعض الطرق ، لا تزال تطارده وتنافس في الطرق الأخرى ، وعندئذ لا بد من حدوث مشكلات بالنسبة الى تربية هذا الحيوان الصحراوي القديم الذي أخلص للبادية ، وبقي على إخلاصه لها ، ولكن الأمر ليس بيد البادية ، وإنما هو بأيدي قاهر البوادي والأرضين والجواء ، السيد الإنسان .

أما السواحل ، فخلقت من سكانها رجال بحر، يجتوون ركوب البحر واستخراج ما فيه للتعيش به ولبيعه وتصريفه في الأسواق ، كما جعلتهم أصحاب ضيافة ، يقدمون الماء وما عندهم من طعام الى السفن القادمة اليهم ، ويعرضون ما عندهم من سلع فائضة لبيعها لهم ، ويشترون من أصحاب تلك السفن ما عندهم من بضاعة نافعة ، فتحولت الى أسواق للبيع والشراء، المتعاملون بها مزيج من القادمين اليها من أنحاء الجزيرة ومن الوافدين الأجانب القادمين اليها من الخارج ، وقد اجتذبت هذه الأمكنة اليها الغرباء ، فسكنوا بها ، واختلطوا بسكانها ، وتولدت بها أجيال مختلطة بمتزجة الدماء ، كلما كانت قرية من ساحل مقابل، كان مظهر الاختلاط والامتزاج أظهر وأكثر ، ولهذا احتضنت تهامة والسواحل العربية الجنوبية عدداً كبيراً من الإفريقيين ، هاجروا اليها من السواحل الإفريقية المقابلة واستقروا فيها بكثرة ، واختلطوا بأصحاب البلاد الأصليين . أما سواحل عمان والخليج ، فقد اجتذبت اليها الهنود والفرس ، وقد عثر في مواضع من سواحل عمان على بقايا عظام بشرية اتضح أنها من بقايا الهنود (ال دراودين) ، سكان الهند القدماء . ولم ينس البحارة وأصحاب السفن اليونان سواحل جزيرة العرب، فأقاموا مستعمرات يونانية في مواضع متعددة منها سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

وقدفت الطبيعة بالأعراب في كل مكان من أمكنة الجزيرة، حتى زاد عددهم على الحضر . والصفة الغالبة عليهم ، أنهم لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بأرضه ، ولا يستقرون في مكان إلا إذا وجدوا فيه الكلاً والماء، فإذا جفّ الكلاً وقلّ الماء ، ارتحلوا الى مواضع جديدة . وهكذا حياتهم حياة تنقل وعدم استقرار ، لا يحترفون الحرف على شاكلة أهل الحضر ، ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية، يتمثل مجتمعهم في القبيلة . فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي : وإن حياة على هذا الشكل والطراز ، حياة لا تعرف الراحة والاستقرار ، ولا تعرف إلا بمنطق القوة . حياة جلبت المشقة لأصحابها ، والمشقة لمن يقيم على

مقربة منهم من الحضرة . فهم في نزاع دائم فيما بينهم ، ثم هم في نزاع مع الحضرة ، ولهذا كان خطر البداوة على العرب ، يوازي خطر الغربة البعداء عليهم ، وصارت البداوة مشكلة عويصة لكل حكومة ، ولا تزال مشكلة حتى اليوم . ولن نحل إلا باقناع الأعراب بأن حياة الاستقرار خير لهم وأفضل من حياتهم التي يحيونها ، وذلك بوسائل لا يدخل الكلام عليها في حيز هذا الكتاب .

الطرق البرية :

من نتائج غلبة الطبيعة الصحراوية على أرض جزيرة العرب ، أن انحصر امتداد شرايين المواصلات فيها في أماكن خططتها الطبيعة نفسها للإنسان ، فجعلتها تسير بمحاذاة الأودية ومواضع المياه والآبار ، وهي السبل الوحيدة التي يستطيع المسافر ورجال القوافل أن يستريحوا في مواضع منها ويحملوا منها الماء . وتنتهي رؤوس هذه الطرق بالعراق وبلاد الشام في الشمال وبالعربية الجنوبية وبموانئها في الجنوب ، وهناك طرق أخرى امتدت من العربية الشرقية إلى العربية الغربية ، ولها مراكز اتصال بالطرق الطولية الممتدة من الشمال إلى الجنوب في الغالب . وقد أقيمت في مواضع من هذه الطرق مواضع سكنى ذات مياه من عيون أو آبار ، عاشت ونمت بفضل منة مائها عليها ، فصارت منازل مريحة لرجال القوافل يحمدون أهنتهم عليها ، ويحمد أصحاب ذلك الماء أهنتهم على مننتها عليهم باعطائهم ذلك الكثر العظيم الذي أعانهم على العيش وجلب لهم كرم التجار .

وفي العقد الحساسة من هذه الطرق نشأت المستوطنات ، ومواطن السكنى القديمة انتشرت في أماكن متباعدة بعضها عن بعض في الغالب ، فكان لهذا التوزيع أثر كبير في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والعسكرية ، ولا شك . وما الطرق الحالية التي يسلكها الناس اليوم إلا بقية من بقايا تلك الطرق القديمة التي ربطت أجزاء الجزيرة بعضها ببعض ، كما ربطت الجزيرة بالعالم الخارجي . ونجد في مخلفات تلك المستوطنات مواد مستوردة من مواضع بعيدة ، هي دليل بالطبع على أن الإنسان كان يقطع الطرق قبل الميلاد بمئات من السنين ليتاجر ويبيع ويشترى دون أن يبالي ببعد المسافة وطول الشقة وصعوبة الحصول على وسائل النقل وما يتعرض له ، وهو في طريقه إلى هدفه ، من مخاطر وأحوال .

وتعد (نجران) من أهم المواضع المهمة الحساسة في شبكة المواصلات البرية قبل الإسلام ، ففيها تلتقي طرق المواصلات الممتدة في الجنوب ، وفيها يتصل الطريق البري التجاري المهم الممتد الى بلاد الشام ، فيلتقي بطريق العربية الجنوبية ومنها يسير الطريق المار الى (الدواسر) فالأفلاج فالهامة أو ساحل الخليج ومنه الى العراق .

ولم تَمُوتْ الطرق البرية المارة بالعربية الشرقية أي (ساحل الخليج) العراق بتجارة جزيرة العرب وبالمواد المستوردة اليها من الهند ، بل موّنتها بموجات من البشر منذ آلاف السنين قبل الميلاد . فقد كانت القبائل العربية النازحة من الجنوب لأسباب متعددة تحطّ رحالها على هذا الساحل ، انتهازاً لفرصة ملائمة ترحل خلالها الى العراق لتستقر فيه . وقد سلكت أكثر القبائل العربية التي استوطنت العراق هذا السبيل حينما هاجرت اليه قبل الميلاد وبعده أيضاً .

الفصل السادس

صلات العرب بالساميين

لاحظ المعنيون بلغات (الشرق الأدنى) وجود أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والأرمية والعربية واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وأمثالها ، فهي تشترك أو تتقارب في أمور أصلية وأساسية من جوهر اللغة ، وذلك في مثل جذور الأفعال ، وأصول التصريف ، تصريف الأفعال ، وفي زمني الفعل الرئيسين ، وهما : التام والناقص ، أو الماضي والمستقبل ، وفي أصول المفردات والضمائر والأسماء الدالة على القرابة الدموية والأعداد ، وبعض أسماء أعضاء الجسم الرئيسية^١ ، وفي تغير الحركات في وسط الكلمات الذي يحدث تغيراً في المعنى ، وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين^٢ ، وفي أمور مشابهة أخرى ، فقالوا بوجوب وجود وحدة مشتركة كانت تجمع شمل هذه الشعوب ، وأطلقوا على ذلك الأصل ، أو الوحدة (الرس السامي) أو (الجنس السامي) ، أو (الأصل السامي) ، أو (السامية) (Semites) (shemites)^٣ (Semitic Race) وعلى اللغات التي تكلمت وتتكلم بها هذه الشعوب

Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol., II, PP, 378 (1934), Zimmern, ١
Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin 1898, P., 82, ff.

Ency. Brita., 20, PP., 315. ٢

Leland. W. Parr, An Introduction to the Anthropology of the Near East, X٢
Amsterdam, 1934, P., 43.

(اللغات السامية) ، (Semitic Languages)^١ .

وقد أخذ من أطلق هذه التسمية ، تسميته هذه من التوراة^٢ . أخذها من اسم « سام بن نوح » ، جد هذه الشعوب الأكبر ، كما هو وارد فيها . وأول من أطلقها وأذاعها بين العلماء علماً على هذه الشعوب ، عالم نمساوي اسمه (أوغست لودويك شلوتسر) August Ludwig schloetzer أطلقها عام (١٧٨١م) فشاعت منذ ذلك الحين ، وأصبحت عند العلماء والباحثين في موضوع لغات الشرق الأدنى علماً للمجموعة المذكورة من الشعوب^٣ وقد أخذ (آيشهورن) (Joh. Cotte. Eichhorn) هذه التسمية ، وسعى لتعميمها بين العلماء علماً على الشعوب المذكورة^٤ .

وفي عام (١٨٦٩ م) قسم العلماء اللغات السامية الى مجموعتين : المجموعة السامية الشمالية ، والمجموعة السامية الجنوبية^٥ وتتألف المجموعة الشمالية من العبرانية والفينيقية والآرامية والآشورية والبابلية والكنعانية . وأما المجموعة الجنوبية ، فتألف من العربية بلهجاتها والحبشية . وعم استعمال هذا الاصطلاح بينهم وأصبح موضوع (الساميات) من الدراسات الخاصة عند المستشرقين ، تقوم على مقارنات وفحوص (أنتولوجية) و (بيولوجية) وفحوص علمية أخرى ، فضلاً عن الدراسات التاريخية واللغوية والدينية^٦ .

وهذه القرابة الواردة في التوراة ، وذلك التقسيم المذكور فيها للبشر ، لا يستندان إلى أسس علمية أو عنصرية صحيحة ، بل بُنيت تلك القرابة ، ووضع ذلك التقسيم على اعتبارات سياسية وعاطفية وعلى الآراء التي كانت شائعة عند شعوب

١ Hommel, Grundriss, Bd., I, S., 17, Ency. Brita., Vol., 20, PP. 314. Eichhorna, Geschichte der Neuern Sprachenkunde, I, abt., Gottingen, 1807.

٢ التكوين ، الأصحاح العاشر ، الآية ، ١ ، ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ٥٣١) .

٣ Hommel, Grundriss, I, S, 76, Ency. Brita., 20, PP., 314, The Universal Jewish Encyclopedia, Vol., 4, P., 473, Hastings, P., 845, S. Moscati, The Semites in ancient History, Cardiff, 1959.

٤ Elshhorn, Geschichte der Neueren Sprachenkunde, I abt., Gottingen, 1807, Sprachen, der Semiten in Westasien, S., 403-872,

٥ Hommel, Grundriss, 1, S., 76, Eichhorn, S., 405, Eberhard Schrader, S., 76.

٦ S.H. Hooke, The Origins of early Semitic ritual, London, 1938, Hommel, Grundriss, I, PP., 84.

العالم في ذلك الزمان عن النسب والأنساب وتوزع البشر^١ . فحشرت التوراة في السامية شعوباً لا يمكن عدّها من الشعوب السامية، مثل (العيلاميين) (Elam) و (اللوديين) (Ludim) (Lud) ، وأقصت منها جماعة من الواجب عدّها من الساميين ، مثل (الفينيقيين) و (الكنعانيين)^٢ .

ويرى (بروكلمن) أن العبرانيين كانوا قد تعددوا لإقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام ، لأسباب سيامية ودينية ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية^٣ .

وقد رَجَّع الإصحاح العاشر من التكوين نسب الفينيقيين والسبثيين إلى حام، جد الكوشيين ، ذوي البشرة السوداء ، مع أنهم لم يكونوا من الحاميين ، وقد يكون ذلك بسبب وجود جاليات فينيقية وسبثية في افريقية ، فعدّ كتبة التوراة هؤلاء من الحاميين^٤ .

وقد عرف المسلمون اسم (سام بن نوح) ، وقد كان لا بد لهم من البحث عن أولاد (نوح) لما لذلك من علاقة بما جاء عن (نوح) وعن الطوفان في القرآن الكريم . وقد روي أن رسول الله قال : (سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش)^٥ ، وقد روى (الطبري) جملة أحاديث عنه في هذا المعنى . وقد لاحظت أنها كلها وردت من طريق (سعيد بن أبي عروبة) عن (قتادة) عن (الحسن) عن (سمرة بن جندب) ، وهي في الواقع حديث واحد ، ولا يختلف إلا اختلافاً يسيراً في ترتيب الأسماء أو في لفظ أو لفظين^٦ . ومن هنا يجب أن يدرس هذا الحديث وكل الأحاديث المنسوبة إلى الرسول في هذا الباب دراسة وافية ، لنرى مدى صحة نسبتها إلى الرسول ، كما يجب دراسة ما نسب إلى عبدالله بن عباس أو غيره في هذا الشأن ، فإن مثل هذه الدراسات تحيطنا علماً برأي المسلمين أيام الرسول وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى في نسبتهم إلى سام بن نوح^٧ .

١ George Aaron Barton, Semitic, and Hamitic Origins, London, 1934, P., 1, ١

٢ (التكوين ، الأصحاح العاشر) الآية ١ ، فما بعدها ، ٢
Hastings, P., 945, Ency. of Relig. and Ethic., Vol., II, PP., 37 378, Barton, P. I.

٣ Brockelman, Sprachwissenschaft, S., 15, ٣

٤ Reynold, A. Nicholson A Literary History of the Arabs, P., XV. ٤

٥ الطبري (٢٠٩/١) « دار المعارف » ٥

٦ الطبري (٢٠٩/١) « دار المعارف » ٦

٧ الاكليل (٦٤/١) . ٧

وقد قسم بعض علماء الساميات المحدثين اللغات السامية الى أربع مجموعات هي :
المجموعة السامية الشرقية ومنها البابلية والآشورية، والمجموعة الشمالية ومنها الأمورية
والأرمية ، والمجموعة الغربية ومنها الكنعانية والعبرانية والموابية والفينيقية، والمجموعة
الجنوبية ومنها المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والأمهرية^١ . ويلاحظ أن واضعي
هذا التقسيم لم يراعوا في وضعه التطورات التاريخية التي مرت بها هذه اللغات
بل وضعوا تقسيمهم هذا على أسس المواقع الجغرافية لتلك الشعوب .

والسامية بعد، ليست رساً (Race) بالمعنى المفهوم من الرس عند علماء الأحياء،
أي جنس له خصائص جسمية وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى.
فبين الساميين تمايز وتباين في الملامح وفي العلامات الفارقة يجعل اطلاق (الرس)
عليهم بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من (علم الأجناس) ، أو الفروع العلمية
الأخرى نوعاً من الاسراف واللغو ، كما أننا نرى تبايناً في داخل الشعب الواحد
من هذه الشعوب السامية في الملامح والمظاهر الجسمية ، وفي هذا التمايز والتباين
دلالة على وجود اختلاط وامتزاج في الدماء ، سأحدث عنه في الفصل الخاص
بالأنساب وبانقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين .

ولقد وجد بعض علماء (الانثروبولوجي) مثلاً أن بين اليهود تبايناً في
الصفات وفي الخصائص التي وضعها هذا العلم للجنس ، مع ما عرف عن اليهود
من التقيد بالزواج وبالابتعاد عن الزواج من غير اليهود^٢ . وكذلك وجد العلماء
الذين درسوا العرب دراسة (انثروبولوجية) أن بين العرب تبايناً في الملامح
الجسمية . وقد اتضح وجود هذا التباين عند الجاهليين أيضاً ، كما دلت على
ذلك الفحوص التي أجريت على بقايا العظام التي عثر عليها في مقابر جاهلية^٣ .
كذلك وجد علماء (الأنثروبولوجي) من فحص العظام التي عثر عليها في الآثار
الآشورية والبابلية أن أصحابها يختلفون أيضاً فيما بينهم في الملامح التي تعد أساساً
في تكوين جنس من الأجناس .

١ Ency. Brita., 20, P., 316, Gesenius, Geschichte, der Hebraeischen Sprache und
Schrift, Graf Arthur, Gobineau, Die Ungleichheit der Menschenrassen, Berlin,
S., 180, (German translation).

Buxton, The People of Asia, P., 96. ff. ٢

Buxton, P., 99. ff. ٣

ولهذا ، فلإني حين أتحدث عن السامية لا أتحدث عنها على أنها جنس ، أي رسّ صاف بالمعنى (الأنثروبولوجي) ، بل أتحدث عنها على أنها مجموعة ثقافية وعلى أنها مصطلح أطلقه العلماء على هذه المجموعة لتمييزها عن بقية الأجناس البشرية ، فأنا أجاريهم لذلك في هذه التسمية ، ليس غير .

إن بحوث العلماء في موضوع السلالات البشرية وفي الأجناس البشرية وفي توزيع الشعوب وخصائص ومميزات الأجناس لا تزال بحوثاً قلقة غير مستقرة . ولهذا نجد نتائج بحوثهم في تعريف الجنس وفي صفات الأجناس وفي المسائل الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع مختلفة ، ولا سيما أن هنالك عدة أمور تؤثر في حياة الإنسان وفي خصائصه الروحية والجسمية . والنواحي اللغوية وبعض الخصائص الروحية الأخرى ، وإن كانت مهمة وضرورية لدراسة الناحية العقلية للإنسان ، إلا أنها ليست الأسس الوحيدة لتكوين رأي في الأجناس البشرية^١ .

فالسامية إذن ، بهذا المعنى هي مجرد اصطلاح ، قصد به التعبير عن هذه الروابط أو الظواهر التي نراها بين الشعوب المذكورة، أما البحث على أن الساميين جنس من الأجناس بالتعبير الذي يعنيه أهل العلوم من لفظة جنس، فإن ذلك في نظري موضوع لا يسع علماء الساميات أو علماء التاريخ أن يبتوا فيه ويصدروا حكماً في شأنه ، لأنه بحث يجب أن يستند إلى تجارب وبحوث مختبرية ، وإلى دراسات للشعوب الباقية من السامية ، بأن ندرس جاجم قدماء الساميين وعظامهم في جزيرة العرب وفي المواطن الأخرى التي انتشر فيها الساميون ، وعند اكتمال مثل هذه الدراسات ووصولها إلى درجات كافية ناضجة يمكن العلماء حينئذ أن يتحدثوا عن السامية من حيث أنها جنس بالمعنى العلمي ، أو جنس بالمعنى الاصطلاحي .

هذا وقد عني بعض الباحثين المحدثين بدراسة ما عثر عليه في بعض القبور العادية من عظام ، لتحديد أوصافها وخصائصها والجنس الذي تعود إليه ، كما قام بعضهم بدراسة أجسام الأحياء وأجراء فحوص عليها وتسجيل قياسات الرؤوس

١ Ralph Linton, The Study of Man, L. H. Dudley Buxton, The Peoples of Asia, London, 1925, Sonia Cole, Races of Man, British Museum, (Natural History), London, 1965.

وملامح الأجسام وما الى ذلك مما يتعلق بموضوع (الأجناس البشرية) ، وإذا ما استمر العلماء على هذه الدراسة وتوسعوا فيها ، فسيكون لها شأن خطير في وضع نظريات علمية عن تأريخ أجناس الشرق الأدنى وفي جملتهم الساميين .

ومن بحث في (أنثروبولوجية) الشرق الأدنى (كبرس Ariens Kappers) ، وقد وضع مؤلفاً قيماً في دراسة شعوب الشرق الأدنى^١ . و (الدكتور ملكمن) (Dr. Seligman)^٢ ، و (شكنل W. Shanklin) الذي عني بدراسة (أنثروبولوجية) سكان شرقي الأردن وتقسياتهم وحالات أعصابهم^٣ ، و (A. Mochi)^٤ ، و (برترام توماس) الذي قام بدراسات علمية عديدة من هذه الناحية لنماذج من أفراد القبائل العربية الجنوبية^٥ ، والبعثة الأمريكية التي أرسلها متحف (فيلد) بشيكاغو لدراسة (أنثروبولوجية) القبائل العراقية النازلة على مقربة من (كيش) ، عدا دراسات أخرى عديدة قام بها علماء آخرون^٦ .

وقد أجريت أكثر هذه البحوث في مناطق عرفت باتصالها منذ القديم بالعالم الخارجي ، وفي أرضين استضافت الغريباء ، فهي لذلك لا يمكن أن تعطينا فكرة علمية عن (أنثروبولوجية) داخل جزيرة العرب ، فلا بد من القيام بدراسات دقيقة في قلب الجزيرة لتكوين رأي علمي عن عرب هذه الأماكن .

وقد لاحظ الفاحصون للعظام التي عثر عليها في الأقسام الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب وجود تشابه كبير بين جماجم أهل عمان وجاجم سكان السواحل الهندية المقابلة لهذه البقاع، كما لاحظوا تشابهاً كبيراً في الملامح الجسمية بين العرب الجنوبيين أهل عدن وبقية العربية الجنوبية الغربية وتهامة وسكان إفريقية الشرقية .

١ C.U. Ariens Kappers, An Introduction to the Anthropology of the Near East in ancient and recent Times, Amsterdam, 1934, P., 73.

٢ Dr. Seligman, The Physical Characters of the Arabs, in Journal of the Royal Anthropol. Inst., Vol., 47, 1917, P., 217, The Races of Africa, 1930.

٣ W. Shanklin, The Anthropology of the Transjordan Arabs, Psychiatrische en Neurologische bladen, 1934, Anniversary Book for the central Institute of Brainresearch Amsterdam.

٤ A. Mochi, Sulla Anthropologia Gluffrida Ruggeri, in Crani Egiziani antichi, ed., Arabo — Egiziani, Atti della Soc. Romana d'Anthrop., T., 15, 1915.

٥ راجع الفصل الذي كتبه «Dr. Wilton Marion Krogman» في كتاب «Arabia Felix» (صفحة ٣٠١)

٦ Henry Field, The Anthropology of Iraq, Field Museum of Natural History, Chicago, 1940.

وقد اتخذ القائلون إن أصل العرب الجنوبيين من إفريقية هذا التشابه حجة ،
تدفعوا بها في إثبات نظرياتهم هذه^١ .

غير أن هذه الفحوص أشارت من جهة أخرى الى حقيقة تخالف النظرية
الإفريقية ، إذ^٢ بينت أن أشكال جماجم العرب الجنوبيين ورؤوسهم هي من النوع
الذي يقال له : (Brachycephaly)^٣ . أما أشكال جماجم سكان إفريقية الشرقية
ورؤوسهم ، فن النوع الذي يعرف باسم (Dolichocephaly) في الغالب^٤ .
وهذا التباين لا يشير الى وحدة الأصل . وقد تبين من هذه الفحوص أن أشكال
جماجم العرب الشماليين ورؤوسهم ، هي من نوع (Dolichocephaly) كذلك ،
أي أنها نوع مشابه لأشكال جماجم الإفريقيين الشرقيين ورؤوسهم^٥ .

وقد حملت هذه النتائج بعض الباحثين على التفكير في أن العرب الجنوبيين
كانوا في الأصل في المواطن التي تكثر فيها الرؤوس المستديرة ، وأن هذه المواطن
هي من آسية الصغرى الى الأفغان ، فزعموا أنهم كانوا هناك ثم هاجروا منها
الى مواطنهم الجديدة في العربية الجنوبية* ، كما زعموا أن سكان (عمان) قد
تأثروا تأثراً كبيراً بالدماء (الدراويدنية) (Dravidian) الهندية ، لهذا نجد
أنهم يختلفون بعض الاختلاف عن بقية العرب الجنوبيين^٦ .

وإذا قامت بعثات علمية بالبحوث (الأنثروبولوجية) في مواضع أخرى من
جزيرة العرب ولا سيما في باطن الجزيرة ، وإذا ما استمر العلماء والسياح في البحث
عن العظام والأحداث ، وفي دراستها دراسة مختبرية ، واستمروا في إجراء
فحوصهم على الأحياء ، وقورنت نتائج فحوصها بنتائج فحوص العلماء في بقية
أنحاء الشرق الأدنى ، فإن البحث في الساميات وفي علاقات الشعوب القديمة بعضها

١ Arabia Felix, P., 302.

٢ اصطلاح يطلق في علم « النثروبولوجي » على الجماجم التي يبلغ عرضها حوالي
« ٨٠٪ » أو أكثر من مقدار طول الجمجمة من الامام الى الخلف . ويقال لهذه

الرؤوس قصيرة . راجع : Enc. Britanica., Vol., 3, P., 1003, 18, P., 865.

٣ ويعنى اصحاب الرؤوس الطويلة ، وهي الجماجم التي تكون ابعادها من جانب
الى جانب تساوى « ٧٥٪ » أو اقل من طول المسافة بين جبهة الجمجمة

والؤخرة . راجع : Enc. Britanica., Vol., 7, P., 508.

٤ Seligman, The Races of Africa, 1930, Arabia Felix, P., 304, P., 308.

٥ Arabia Felix, P., 304, 322.

٦ Dr. Wilton Marion Krogman, in Arabia Felix, P., 316.

بعض ، سيتقدم كثيراً، وسيأتي ولا شك بنتائج علمية مقبولة في موضوع السامية والجنس السامي .

وطن الساميين :

وتساءل العلماء الباحثون في الأجناس البشرية : من أين جاء الساميون الأول، آباء الشعوب السامية ؟ وأين كان موطنهم الأول وبيتهم القديم ، الذي ضاق بهم في الدهر الأول ، فغادروه الى بيوت أخرى ؟ أما أجوبتهم ، فجاءت متباينة غير متفقة لعدم اهتدائهم حتى الآن الى دليل مادي يشير الى ذلك الوطن ، أو يؤيد نظرية وجود مثل هذا الوطن ، فقامت آراؤهم على نظريات وفرضيات ، وبحوث لغوية وعلى آراء مستمدة من الروايات الواردة في التوراة عن أصل البشر، وعن أبناء نوح ، والأماكن التي حل بها هؤلاء الأبناء وأحفادهم ثم أحفاد أحفادهم ، وهكذا على نحو ما تصورته مخيلة العراقيين . فرأى نفر منهم ان أرض بابل ، كانت المهد الأول للساميين ، ورأى آخرون أن جزيرة العرب هي المهد الأول لأبناء سام ، وخصص فريق آخر موطناً معيناً من جزيرة العرب ، ليكون وطن سام وأبنائه الأول ، وذهب قسم الى إفريقية فاختارها لتكون ذلك الوطن ، لما لاحظته من وجود صلة بين اللغات السامية والحامية ، ورأى قوم في أرض (الأموريين) الوطن الصالح لأن يكون أرض أبي الساميين ، على حين ذهب قوم آخرون الى تفضيل أرض (أرمنية) على تلك الأوطان المذكورة . وهكذا انقسموا وتشعبوا في موضوع اختيار الوطن السامي ، ولكل حجج وبراهين .

وحتى القائلون بنظرية من هذه النظريات وبرأي من هذه الآراء ، هم قلقون غير مستقرين في نظرياتهم هذه ، فتراهم يغيّرون فيها ويبدلون . يفترضون وطناً أصلياً لجد الساميين ، ثم يفترضون وطناً ثانياً يزعمون ان قدماء الساميين كانوا قد تحولوا من الوطن الأول اليه ، فصار الموطن الأقدم لهم . فقد ذهب (فون كريمر) مثلاً ، وهو عالم ألماني الى أن اقليم (بابل) هو موطن الساميين الأول ، وذلك لوجود ألفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية (حياتية) أخرى تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة ، وهي مسميات لأموور هي من صميم

حياة هذا الاقليم ، الا أنه عاد فذكر أنه وجد أن لفظة (الجمل) لهذا الحيوان المعروف هي لفظة واردة في جميع اللغات السامية وفي ورود هذه التسمية في جميع هذه اللغات دلالة على أنها من بقايا اللغة (السامية) الأولى . ولكن الجمل حيوان أصله وموطنه الأول الهضبة المركزية التي في آسية على مقربة من نهر سيحون ونهر جيحون ، ولما كان قد لازم الساميين من فجر تأريخهم واقرن اسمه باسمهم ، وجب أن يكون موطن الساميين الأقدم اذن هو تلك الهضبة ، إلا أن أجداد الساميين غادروها في الدهر الأول ، وارتحلوا عنها فانجازوا الى الغرب محتازين ايران والأرضين المأهولة بالشعوب (الهند أوروبية) حتى وصلوا الى اقليم (بابل) ، فزلوا فيه ، فصار هذا الإقليم الوطن الأقدم أو الأول للساميين .

وطريقة (فون كريمر) في هذه النظرية ، دراسة أسماء النبات والحيوان في اللغات السامية وتصنيفها وتبويبها للتمكن بذلك من معرفة المسميات المشتركة والمسميات التي ترد بكثرة في أغلب تلك اللغات . والتوصل بهذه الطريقة الى الوقوف على أقدم الحيوان والنبات عند تلك الشعوب ، فإذا اهتمينا اليها صار من السهل على رأيه التوصل الى معرفة الوطن الأصل الذي جمع في يوم ما شمل أجداد الساميين^١ .

أما (كويدي) ، وهو من القائلين أيضاً ان اقليم بابل هو الموطن الأول للساميين ، فقد سار على نفس أسلوب (فون كريمر) نفسه وطريقته ، ولكن بصورة مستقلة عنه . درس الكلمات المألوفة في جميع اللغات السامية عن العمران والحيوان والنبات ونواحي الحياة الأخرى ، وقارن بينها وتتبع أصولها ثم قال قوله المذكور ، إلا انه اختلف عن (فون كريمر) في الوطن الأول ، حيث رأى أن مواطن الساميين الأول كانت الأرضين في جنوب بحر قزوين وفي جنوب شرقه إلا أنهم غادروها بعد ذلك وارتحلوا عنها الى اقليم بابل^٢ .

وأما (هومل) ، وهو من العلماء الألمان الحاذقين في الدراسات اللغوية ، فقد

١ Von Kremer, Semitische Culturen Entlehnungen aus Pflanzen-und Thierreiche, in das Ausland, Bd., IV, note, 1, und 2.

٢ Guidi, Della sede primitiva dei Popoli Semitici, Roma, 1879, Wright, Comparative Grammar of the Semitic Languages, P., 5 Barton, P., 3, Hommel, Grundriss, 1. S., 80, A. Grohmann, Kulturgeschichte, S., 14.

ذهب أولاً الى أن موطن الساميين هو شمال العراق ، ثم عاد فقرر أن اقليم بابل هو الوطن الأصل ، وذهب أيضاً الى أن قدماء المصريين هم فرع من فروع الشجرة التي أثمرت الثمرة السامية ، وهم الذين نقلوا على رأيه الحضارة الى مصر نقلوها من البابليين^١ .

وقد ناقش (نولدكه) آراء هؤلاء العلماء المذكورين القائمة على المقابلات والموازنات اللغوية ، وعارضها معارضة شديدة ، مبيناً أن من الخطأ الاعتماد في وضع نظريات مهمة كهذه على مجرد دراسة كلمات واجراء موازنات بين ألفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق ، وأورد جملة أمثلة اختلف فيها الساميون ، مع أنها أجدر المعاني بأن يكون لها لفظ مشترك في جميع اللغات السامية^٢ .

ومن أوجه النقد التي وجهت الى نظرية القائلين إن العراق ، أو اقليم بابل منه بصورة خاصة ، هو موطن الساميين ، هو أن القول بذلك يستدعي تصور انتقال الساميين من أرض زراعية خصبة ذات مياه الى بواد قفرة جرد ، وابدال حياة زراعية بحياة خشنة بدوية ، ومثل هذا التصور يخالف المنطق والمعقول والنظم الاجتماعية .

وأما القائلون إن الموطن الأصلي لجميع الساميين هو جزيرة العرب ، فكان من أولهم (شبرنكر) . فقد رأى أن أواسط جزيرة العرب ، ولا سيما نجد ، هو المكان الذي يجب أن يكون الوطن الأول للساميين ، وذلك لأسباب وعوامل شرحها وذكرها . ومن هذا الوطن خرج الساميون في رأيه الى الهلال الخصيب فطبعوه بالطابع السامي ، ومن هذا الهلال انتشروا الى أماكن أخرى^٣ .

وقد أيد هذه النظرية جماعة من المستشرقين الباحثين في هذا الموضوع من

Hommel, Die Namen der Saeugethiere bei den Suedsemitischen Volkern, Leipzig, 1879, S., 406, Die Semitischen Voelker und Sprachen, 1881, Bd., I, S., 20, 63, Barton, P., 3 Hommel, Grundriss, I, S., 10. f.

Noeldeke, Semitischen Sprachen, Leipzig, 1887, S., 3, 2ed., 1899, Enc. Brit., ٢ 9th. ed., Article, Semitic Language.

A. Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861, Bd., I, S., 241, ٣ Alte Geographie Arabiens, 1875, S., 293, Barton, P., 4.

أمثال (سايس)^١ و (أبرهرد شرادر)^٢ ، و (دي كويه)^٣ و (هوبرت كرمه)^٤ و (كارل بروكلمن)^٥ و (كينغ)^٦ و (جول ماير)^٧ و (كوك)^٨ ، وآخرين^٩ .

وقد مال الى تأييدها وترجيحها (دتف نلسن) ، وهو من الباحثين في التأريخ العربي قبل الإسلام^{١٠} . وكذلك (هوكو ونكلر) . و (هومل) الذي يرى أن موطن جميع الساميين الغربيين هو جزيرة العرب^{١١} .

وقد ذهب نفر من القائلين بهذه النظرية الى أن العروض ولا سيما البحرين والسواحل المقابلة لها ، هي الوطن السامي القديم . ويستشهد هذا نفر على صحة نظريته ببعض الروايات والدراسات التي قام بها العلماء فكشفت عن هجرة بغض الأقسام كالفينيقيين وغيرهم من هذه الأماكن .

أما (فلي) ، فذهب في دراساته المسهبة لأحوال جزيرة العرب الى أن الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين . وفي هذه الأرضين نبتت السامية ، ومنها هاجرت بعد اضطرارها الى ترك مواطنها القديمة للحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره منذ عصر (الباليوليتيك) (Palaeolithic) هاجرت في رأيه ، في موجات متعاقبة سلكت الطرق البرية والبحرية حتى وصلت الى المناطق التي استقرت فيها . هاجرت وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة ، حملت معها آلهتها ، وأولها الإله (القمر) ، وحملت معها ثقافتها ونخطها

1 Sayce, Assyrian Grammer, 1872, P., 13, Barton, P., 4.

2 Eberhard Schrader, in ZDMG., XXVII, (1873), S., 397. ff., "Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten".

3 De Goeje, Het Vaterland der Semitische Volken, Barton, P., 5, Wright, Comparative Grammer of the Semitic Languages, P., 8.

4 Hubert Grimme, Mohammed, Weltgeschichte in Charakterbildern, 1904, S., 6. f., Barton, P., 5.

5 Carl Brockelmann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin, Berlin, 1908, 1, 2.

6 L.W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1915, P., 119.

7 John L. Meyers, in Cambridge ancient History, Cambridge 1923, 1, 38, Barton, P. 6.

8 S.A. Cook, in Cambridge ancient History, I, P., 192. f.

9 Ditlef Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde, I, Kopenhagen, Paris, Leipzig, 1927, 47, 55.

10 A. Grohmann, S., 14, Hommel, Ethnologie und Geographie des alten Orient, 11. Muenchen, 1926, S., 10.

الذي اشتقت منه سائر الأقسام ، ومنه القلم الفينيقي ، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع السامي الذي ما زال باقياً حتى اليوم . وقد أخذ (فليبي) رأيه هذا من دراسات العلماء لأحوال جزيرة العرب ومن الحوادث التاريخية التي تشير إلى هجرة القبائل من اليمن نحو الشمال^١ .

فاليمن في رأي (فليبي) وجماعة آخرين من المستشرقين ، هي (مهد العرب) ومهد الساميين ، منها انطلقت الموجات البشرية الى سائر الأنحاء . وهي في نظر بعض المستشرقين أيضاً (مصنع العرب) ، وذلك لأن بقعتها أمدت الجزيرة بعد كبير من القبائل ، قبل الإسلام بأمد طويل وفي الإسلام^٢ . ومن اليمن كان (نمرود) وكذلك جميع الساميين^٣ .

والذين يقولون إن نجداً هي موطن الساميين الأول ، يفترضون أن موجات هجرة الساميين اتجهت نحو الشمال كما اتجهت نحو الجنوب والشرق والغرب^٤ ، فكانت نجداً معين ماء يفيض فيسيل ماؤه الى أطرافه .

غير أن هنالك جماعة من الباحثين ترى أن نجداً لا يمكن أن تكون الموطن الأول للساميين ، وذلك لأن شروط الحياة اللازمة لم تكن تتوفر بها ، اللهم إلا في المواضع التي توجد بها آبار أو واحات ، وهي قليلة متناثرة ، وذلك حتى في العصور (الباليوثية) (Palaeolithic Ages) . أما المراعي التي كانت بها في تلك الأوقات فلم تكن دائمة الخضرة ، بل كانت مع المواسم ولهذا فإن السكن فيها لا يمكن أن يكون سكناً دائماً مستمراً ، ثم إن السكن في نجد يقتضي وجود الجمل فيها ولم يكن الجمل موجوداً عند الساميين في اليهود القديمة بل كان الحمار هو واسطة الركوب والنقل عندهم . ولما كان الحمار لا يتحمل العيش في البوادي الواسعة الفسيحة ، لذلك لم يتمكن الساميون إذ ذاك من التوغل في

Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1949, P., 9, ff. ١

Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934, P., 126, Background, P. 9. ٢

Eberhard Schrader, Die Abstammung der Chaldaer und die Ursitze der Semiten, in ZDMG, S., 14. ٣

James Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 74. f. W. ٤

Warrell, A Study of Races in ancient Near East, Cambridge, 1927, 7, 45, 94.

B. Thomas, Anthropological observation in South Arabia, 93-94, A. Grohmann, Arabien, S., 14.

الصحراء والسكن بعيداً عن مواضع الماء ، فانحصر سكنهم في أسياف البوادي أي في مناطق قريبة من الحضر ، ولهذا السبب رفض العلماء رأي من يقول إن نجداً هي الموطن الأول للساميين^١ .

ويمكن تلخيص الحجج والبيانات التي استند إليها هؤلاء العلماء لاثبات نظريتهم في الأمور الآتية :

١ - لا يعقل أن ينتقل سكان الجبال والمزارعون من حياة الحضارة والاستقرار الى البداوة ، بل يحدث العكس . ولما كانت الشعوب السامية قد قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية ، فلا بد أن يكون وطنها الأول وطناً صحراوياً ، وجزيرة العرب تصلح أن تكون ذلك الوطن أكثر من أي مكان آخر .

٢ - ثبت أن معظم المدن والقرى التي تكونت في العراق أو الشام إنما كونتها عناصر بدوية استقرت في مواضعها ، واشتغلت باصلاح أراضيها وعمرانها، واشتغلت بالتجارة ، فنشأت من ذلك تلك المدن والقرى . ولما كانت أكثر هذه العناصر البدوية قد جاءت من جزيرة العرب ، فتكون الجزيرة قياساً على ذلك الموطن الذي غذى العراق وبادية الشام وبلاد الشام بالساميين ، وأرسل عليها موجات متوالية منها .

٣ - هناك أدلة دينية ولغوية ، وتاريخية وجغرافية ، تشير بوضوح الى أن جزيرة العرب هي مهد السامية ووطن الساميين^٢ .

٤ - إننا نرى أن جزيرة العرب قد أمدت العراق وبلاد الشام بالسكان، وأن القبائل الضاربة في الهلال الخصيب قد جاءت من جزيرة العرب ، فليس بمستبعد إذن أن يكون الساميون قد هاجروا منها الى الهلال الخصيب .

وقد عارض هذه النظرية طائفة من علماء الساميات ، وحججهم : أن كل ما قبل وذكر من حجج وبيانات ، لا يدل يقيناً على أن جزيرة العرب كانت هي المهد الأصلي للأمم السامية ، ونظرت الى إفريقية على أنها المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للساميين . ومن هذه الطائفة من علماء الساميات (بلكريف) ،

١ Ancient Iraq, P., 125.

٢ ومن القائلين أن جزيرة العرب هي مهد الساميين (روبرتسن سمث Robertson)
(Smith) الهلال ، نيسان ١٩٠٦ ، ج ٧ سنة ١٤ ، ص ٣٩٩ ،

Kinship and Marriage in Early Arabia, P., 178, Barton, P., 5.

وقد كَوّن رأيه من وجود تشابه في الملامح ، وفي الخصائص الجنسية ، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب دفعته الى القول بأن الوطن الأول للساميين هو إفريقية^١ .

وذهب الى هذا الرأي (جيرلند Gerland) ، مستنداً الى الدراسات (الفيزيولوجية) مثل تكوين الجمجم ، والبحوث اللغوية . وقد زعم ان شمال إفريقية هو الموطن الأصلي للساميين ، وادعى ان الساميين والحاميين من سلالة واحدة ودوحة تفرعت منها جملة فروع، منها هذا الفرع السامي الذي اختار الشرق الأدنى موطناً له^٢ .

وهناك نفر من العلماء أيدوا هذه النظرية ودافعوا عنها أو استحسوها ، مثل (برتن Bertin)^٣ و (نولدكه)^٤ و (موريس جسترو)^٥ و (كسين) و (ريلي) وغيرهم^٦ . ولكنهم اختلفوا أيضاً في تعيين المكان الذي نبت فيه الساميون أول مرة في القارة الإفريقية ، واختلفوا كذلك في الطريق الذي أوصل الساميين الى جزيرة العرب^٧ ، فاختر (برتن) Brinton شمال غربي إفريقية ، ولا سيما منطقة جبال (الأطلس) فجعلها الموطن الأصلي للساميين^٨ .

واختر نفر آخر إفريقية الشرقية موطناً أول للساميين ، للعلاقات (الأنثولوجية) الظاهرة التي تلاحظ على سكان هذه المنطقة والساميين^٩ . وزعم أن الساميين سلكوا في عبورهم الى آسية أحد طريقين : إما طريق سيناء حيث هبطوا في العربية

١ Enc. Brit., 9Th. Ed., "Arabia", Barton, P., 6, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٢ Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380, Barton, P., 6, Iconographic Enc., Art., "Ethnography".

٣ Bertin, Journal of the Anthropological Institute, XI, 431, (1882), Barton, P., 6.

٤ Noeldeke, Die Semit. Sprachen, S., 9, Ency. Brita., (1911), "Semitic Languages", Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٥ Barton, P., 7, Brinton, The Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132.

٦ Barton, P., 7, A Sketch of Semitic Origin Social and Religious, Ch. I, New 1901.

٧ Barton, P., 6, C.U. Ariens Kapper and Leland W. Paar, An Introduction to the Anthropology of the Near East, Amsterdam, 1934, P., 47.

٨ Barton, P., 7, Brinton, Cradle of the Semites, Philadelphia, 1890, Races and Peoples, New York, 1890, P., 132, Enc. of Relig. and Ethics, Vol., II, P., 380.

٩ حتي (ص ١٠) .

الحجرية وأناخوا فيها مدة ثم انتشروا منها^١ ، ولما طريق المندب حيث دخلوا العربية السعيدة من مواضع مختلفة من الحبشة ومن أرض (فنت Punt)^٢ . وهي الصومال الحديثة^٣ . وقد اكتسبتهم أقامتهم في بلاد العرب خصائص جديدة ، وسمتهم بسمات اقتضتها طبيعة الوطن الثاني ، ولكنها لم تتمكن من القضاء على الخصائص الأولى التي تشير الى الوطن الأول قضاء تاماً ، ولا على الصلة بين اللغات الحامية والسامية التي تشير الى الأصل المشترك كذلك^٤ .

وهذه النظرية ، بالرغم من دفاع بعض كبار علماء اللغات والأجناس عنها لا تخلو من ضعف ، ومن مواطن ضعفها أنها غضت الطرف عن الاعتبارات التاريخية ، واستسلمت لدراسات لم تنضج بعد ، فمن الممكن مثلاً ارجاع ما لاحظته علماء اللغات السامية واللغة المصرية القديمة الى عوامل الهجرات السامية من جزيرة العرب وعن طريق سيناء الى إفريقية ، مثل هجرة (الهكسوس) وهم من أصل سامي جاؤوا مصر من بلاد العرب . وقد ثبت أيضاً من تحقيقات العلماء أن كثيراً من الأسماء المصرية القديمة التي كانت تطلق على الأقسام الشرقية من الديار المصرية هي أسماء سامية . وإذا سوغ علماء النظرية الإفريقية لأنفسهم الاستدلال على إفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية واللغات السامية مثلاً ، فلن من الممكن ارجاع هذه القرابة الى أثر الهجرات السامية في اللغة المصرية .

١ Barton, P., 6, Journal of the Anthropol. Inst, XI, 431.

٢ يجب تعريب "Punt" بـ « فنت » ، قياساً على طريقة تعريب الأسماء الأعجمية الى العربية . وقد عربها بعضهم بـ « فوط » وتقابل كلمة « فوط » كلمة Put أو Phut الواردة في التوراة أنها مسكن ابن حام الثالث ، غير أن علماء التوراة لم يتفقوا حتى الآن على موضع « فوط » ، فذهب بعضهم الى أنها في نواحي طرابلس الغرب « ليبيا » ، ورأى آخرون أنها بين مصر و « كوش » ، أي السودان أو الحبشة ، وربما كانت نوبيا الجنوبية ، وهناك آراء أخرى . فلا أرى من الصحيح تسمية Punt بفوط لمكان هذا الاختلاف . راجع عن « فوط » ، أرميا ، اصحاح ٤٦ ، آية ٦ ، وحزقيال ، اصحاح ٢٧ ، آية ١٠ و ٣٠ ، آية ٥ ، و ٣٨ ، آية ٥ ، ناحوم ، اصحاح ٣ آية ٩ ، قاموس الكتاب المقدس (١٨ / ٢) ، عربت في ترجمة « تاريخ العرب المطول » للدكتور حتي بـ « فوط » ص ٤٢ .
Hastings, P., 777, Enc. Bibl., P., 3984.

٣ حتى (ص ١٣) ،

٤ Barton, P., 8.

وأما تقارب الحبشية من اللهجات العربية الجنوبية وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند ، فلا يكون دليلاً قاطعاً على هجرة الساميين من إفريقية عن طريق الحبشة الى جزيرة العرب ، إذ يجوز العكس ، وقديماً هاجر الساميون من العربية الجنوبية الى الحبشة . والساميون هم الذين كوّنوا دولة (أكسوم) التي كانت تتكلم باللغة (الجعزية) ، وهي لغة سامية ، كما أن قلمها الذي يشبه قلم المسند هو وليد القلم العربي الجنوبي . وكتابات (يها) (يها) المكتوبة بالمسند ، في حد ذاتها دليل على أثر العرب الجنوبيين في الإفريقيين (الكوشيين) ، وهذه الكتابات حديثة عهد بالنسبة إلى كتابات السبثيين^١ ، كما يمكن اعتبار تشابه أسماء بعض الأماكن القديمة في الحبشة مع نظائر لها في اليمن ووجود معبد في الحبشة خص بالإله (المقة) إله سبأ العظيم^٢ ، وأمور أخرى دينية ولغوية وأثرية ، واعتراف الأحباش بأنهم من نسل ملكة سبأ (بلقيس) (ماقدة)^٣ ، من (سليمان الحكيم) ، وأن (حبشت) التي أخذ الأحباش منها اسمهم في اللغة العربية هي مقاطعة تقع في العربية الجنوبية في رأي أكثر العلماء^٤ ، وأن (الأجاعز) أصحاب اللغة الجعزية هم أقدم من هاجر من اليمن إلى الحبشة ، ووجود صلات قديمة بين الساحلين الإفريقي والعربي ، إذا نظرنا إلى كل هذه الأمور نظرة علمية دقيقة ، نجد أنها تجعل أمام القائلين إن أصل الساميين من إفريقية صعوبات ليس من السهل التغلب عليها ، ولا سيما إذا أضفنا إليها الأثر الذي تركته اليهودية والنصرانية في الأحباش وفي الشعوب الكوشية الأخرى ، فقرب ثقافتها من الثقافة السامية وأثر في لغتها ، وهو أثر يجب أن يقام له وزن عند بحث هذا الموضوع .

ثم ان كثيراً من علماء (الأنثروبولوجي) يرون أن إفريقية تأثرت بالدماء الآسيوية . أما تأثيرها في دماء أهل الشرق الأدنى وفي دماء سكان جزيرة العرب ،

Mueller, Epigraphische Denkmäler aus Abessinien, Glaser, Die Abessiner in Arabien und Africa, Muenchen, 1895. ١

Ditlef Nielsen, Der Sabaische Gott Imukah, S., I, D. H. Mueller, Epigraphische Denkmäler, S., 57. ٢

Enc., Vol., I, P. 720, B. Littman, The Legend of Queen of Sheba in Tradition of Axum, in Bibliotheca Abessinica. ٣

Enc., Vol., I, P., 119, Conti Rossini, Note sugli Habshat, Roma, 1905. ٤

فقد كان قليلاً لقد دخلت إليها دماء شعوب الشرق الأدنى من البحر المتوسط ومن طورسيناء ومن مضيق باب المندب . ويظهر أثر هذا الاختلاط واضحاً في إفريقية الشرقية وإفريقية الشمالية ، وما زال هذا التأثير واضحاً حتى اليوم^١ . ولهذا فإن من الصعب تصور هجرة الساميين من إفريقية الى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق على وفق نظرية هؤلاء العلماء .

ومن القائلين إن المهمل الأصلي للساميين هو أرض إرمينية (جون بيترس) ، وحجته في ذلك أن هذا المحل هو أنسب مكان يتفق مع رواية التوراة في الطوفان ، وهو المحل الأصلي للأمم السامية والآرية^٢ . ثم إن الأنف الحثي يشبه كل الشبه الأنف العبراني ، وفي هذه التسمية دلالة على المكان ، وقد نسي أن العرب وهم من الساميين لم يرزقوا هذا الأنف^٣ .

وقد ذهب (أنكناد) (Ungnad) الى أن أصل الساميين من أوروبة ، وقد تركوها وهاجروا منها إلى آسية الصغرى ، ثم هاجروا منها الى أرض (أمورو) (Amurru) ، وذهب قسم منهم في الألف الرابعة قبل الميلاد الى بابل وبقية أنحاء العراق^٤ .

وذهب (كلي) الى أن الوطن الأصلي للساميين هو أرض (أمورو) (Amurru) (الأموريين) وتشمل هذه الأرض ، في رأيه ، بلاد الشام ومنطقة الفرات^٥ . من هذه المنطقة هاجر الساميون ، وهو قد توصل الى نظريته هذه من الدراسات اللغوية^٦ ، ولكنها لا تستند في الواقع إلى أدلة قوية . والأموريون من الشعوب السامية القديمة التي سكنت في فلسطين والشام واقليم بابل^٧ .

١ L. H. D. Buxton, The People of Asla, London, 1925, P., 34.

٢ السامية (ص ٤)

Journal of the American Oriental Society, XXXIX, 243, ff, Barton, P., 8.

Barton, P., 8. ٣

A. Ungnad, Die Aeltesten Voelkerwanderungen Vorderasiens, Kulturfragen, I, (Breslau), 1923, 5, A. Grohmann, Arabien, S., 14. ٤

Barton, P., 8, A. T. Clay, Amurru, The Home of the Northern Semites, Philadelphia, 1909, The Empire of the Amorites, New Haven, 1919, Enc. of Rel. and Ethics, II, 380. ٥

Barton, P., 9. ٦

Hastings, P., 27, Enc. Bibl., P., 146, Meissner, Altar. Privatrecht, No. 42, Schrader, K. A. T., S., 178. ff. ٧

وذهب آخرون إلى أن الوطن الأول الأصل للساميين هو أرض (قفقاسية) ،
إذ كان البشر من ثلاثة أجناس أساسية، هي : الجنس القفقاسي (Caucassids)
والجنس المنغولي (Mongoloids) (الآسيويين) ، والجنس الزنجي Negroids .
وقد قصدوا بالجنس القفقاسي أصحاب البشريتين البيضاء والسمراء ، أي الآرين
والساميين . فوطن هذين الجنسين الأول هو (قفقاسية) على هذا الرأي . منه
انتقل الساميون إلى أوطانهم الجديدة ، بهجرتهم إلى الجنوب واستقرارهم فيما يقال
له (الهلال الخصيب) ، ثم فيما وراءه إلى السواحل الجنوبية لجزيرة العرب ،
ومنه انتقل الآريون إلى الجنوب الشرقي لقفقاسية وإلى الغرب والشمال ، أي إلى
آسية وأوروبية ثم إلى أماكن أخرى فيما بعد^١ .

وهجرات على هذا النحو ، لا بد أن تكون لها أسباب ومسببات، إذ لا يعقل
ترك إنسان لوطنه من غير سبب . وقد بحث القائلون بهذا الرأي عن الأسباب
التي أدت إلى وقوع تلك الهجرات ، فوضعوا لهم جملة فرضيات .

ظهر الساميون على مسرح الوجود في الألف الثالثة قبل الميلاد ، واستقروا في
هذه الأرضين التي اصطبغت بالصبغة السامية ، وهي الهلال الخصيب وشبه جزيرة
سيناء وجزيرة العرب ، حيث تعد اليوم المواطن الرئيسية للساميين^٢ .

وقد توسط بعض الباحثين بين الآراء المتباينة ، عن الوطن الأول للجنس
السامي، فذهب إلى أن الهلال الخصيب وأطراف جزيرة العرب هي الوطن الأول
للساميين والميدان الذي وجدوا فيه منذ أقدم أيامهم، وقد كان هذا الميدان موضع
صراع بين البداوة والحضارة ، فقد كان البدو يهاجمون الحضرة سكان القرى
والمدن ، والبدو هم من الساميين ، وكثير من الحضرة كانوا من الساميين أيضاً،
ومن هذا التنازع على الحياة تكون تاريخ الساميين في هذه المنطقة الواسعة من
الهلال الخصيب التي تحدها من الشرق والشمال والغرب الجبال والتي تمتد فتشمل
كل جزيرة العرب^٣ .

Sonia Cole, Races of man, British Museum (Natural History). PP. 9. ١

Simon Dubnow, Weltgeschichte des Juedischen Volkes, Bd., I, S., 3. ٢

Ancient Iraq, PP., 128. ٣

الهجرات السامية :

تقول كل النظريات التي رأيناها عن أصل الوطن السامي ، بهجرات الساميين من ذلك الوطن الأم الى أوطان أخرى في أزمان مختلفة متباعدة ، وذلك لأسباب عديدة منها : ضيق أرض الوطن من تحمل عدد كبير من الناس ، وتراحم الناس على الرزق ، مما دعاهم الى التحاسد والتباغض والتفتيش عن وطن جديد، وظهور تغيرات في طبيعة ذلك الاقليم ، الى عوامل أخرى .

وقد تصور القائلون ان جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، بلاد العرب كمخزان هائل يفيض في حقبة متعاقبة ، تبلغ الحقبة منها زهاء ألف عام ، بما يزيد على طاقته من البشر الى الخارج، يقذف بهم موجات أطلقوا عليها (الموجات السامية)^١ .

وقد علل القائلون بنظرية أن جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، سبب هذه الهجرات بعدم استطاعة جزيرة العرب قبول عدد كبير من السكان يزيد على طاقتها ، فلا يبقى أمامهم غير سلوك طريق الهجرات الى الأماكن الخصبة في الشمال . وقد كانت الطرق الساحلية من أهم المسالك التي أوصلت المهاجرين الى أهدافهم .

وفي جملة أسباب ضيق جزيرة العرب عن استيعاب العدد الكبير من السكان تغير مستمر طرأ عليها ، أدى الى انحباس الأمطار عنها وشيوع الجفاف فيها مما أثر على قشرتها وعلى أحيائها ، فهلك من هلك وهاجر من هاجر من جزيرة العرب ، وقد استمر هذا التغير آلافاً من السنين حتى حوّل بلاد العرب أرضين غلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، وقلّت فيها الرطوبة ، وغلب على أكثر بقاعها الجفاف^٢ .

وقد رأى بعض العلماء أن جزيرة العرب كانت في عصر (البلايستوسين) (Pleistocene) خصبة جداً كثيرة المياه ، تتساقط عليها الأمطار بغزارة في جميع فصول السنة ، وذات غابات كبيرة وأشجار ضخمة، كالأشجار التي نجدها في الزمان

١ حتى (ص ١٣) . Montgomery, Arabia and the Bible, P., 21.

٢ Montgomery, Arabia and the Bible, PP., 90, « The Problem of the Physical change in Arabia ».

الحاضر في الهند وإفريقية ، وأن جوها كان خصباً من جو أوروبا في العصور الجليدية التي كانت تغطي الثلوج معظم تلك القارة ، ثم أخذ الجو يتغير في العالم ، فذابت الثلوج بالتدريج ، وتغير جو بلاد العرب بالطبع ، حدث هذا التغير في عصر الـ (نيوليثك Neolithic) أو في عصر الـ (كالكوليثك Chalcolithic) ، ولم يكن هذا التغير في مصلحة جزيرة العرب ، لأنه صار يقلل من الرطوبة ويزيد في الجفاف ، ويحول رطوبة التربة إلى يبوسة فيميت الزرع بالتدريج ، ويهيج سطح القشرة فيحولها رمالاً وتراباً ثم صحارى لا تصلح للنبات ولا الحياة الأحياء^١ .

فاضطرب سكان الجزيرة الذين كانوا من الصيادين إلى أن يكيّفوا أنفسهم بحسب الوضع الجديد ، فأخذ ناس منهم يهاجرون إلى مناطق أخرى ملائمة لتوائهم حياتهم ومزاجهم ، وأخذ ناس آخرون يعتمدون على الزرع وتدجين الحيوانات ، وعلى الاكتفاء بصيد ما يرونه من حيوانات تحملت الجو الجديد متنقلين من مكان إلى مكان حيث الكأ والماء . وهكذا تعرضت حياة الأجسام الحية من نبات وحيوان لتغيرات تدريجية مستمرة ، فرضها عليها تغير الجو .

وقد أدى انحباس المطر وازدياد الجفاف ويبوسة الجو إلى انخفاض الرطوبة من سطح الأرض ، وهبوط مستوى الماء بالتدريج عن قشرة الأرض ، وظهور الأملاح في الآبار ، وجفاف بعض الآبار ، فأدى ذلك إلى ترك الناس هذه الأماكن ، إذ صعب عليهم استغلالها بالزراعة ، واصلاحها بحفر آبار لا تساعد مياهها المالحة على نمو النبات ، ومعيشة الحيوان . حدث ذلك حتى في العصور الإسلامية حيث نسمع شكاوى مريرة من هذه العوارض الطبيعية^٢ .

١ BOASOR, Suppl., No. 7-9, P. 41, (1950), Discoveries, P. 82, A. Grohmann., Arabien, S. 5, B. Thomas, Anthropological Observations in South Arabia, Proceedings of the Royal Anthropological Institute.

٢ تجد امثلة كثيرة وبحثا فيما في هذا الموضوع كتبه (موريتس B. Moritz) في كتابه :

Arabien, Studien Zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes.

وقد تحدث (فلي) عن هبوط مستوى مياه بعض الآبار التي زارها عام ١٩١٧م في الخرج^١ ، كما تحدث غيره من السياح عن حوادث مشابهة حدثت في تهامة والحجاز وأماكن أخرى^٢ .

ويعزو علماء طبقات الأرض انخفاض مستوى سطح الماء في جزيرة العرب إلى عوامل أخرى، إضافة إلى الجفاف مثل هبوط درجات الضغط على قشرة الأرض . وقد رأى الخبير الأمريكي (تويجل) (Twitchell) ، أن الماء قد انخفض زهاء سبع وعشرين قدماً عن مستواه الذي كان عليه قبل ألفي عام^٣ . ومن العلماء من يرى أن مستوى سطح الماء في البحر الأحمر وفي الخليج العربي قد انخفض كذلك، فذهب بعض علماء دراسة التوراة إلى أن مستوى سطح الماء في خليج السويس قد انخفض (٢٥) قدماً عما كان عليه في (أيام الخروج - Exodus)^٤ . وذهبت جماعة منهم إلى أن هذا الهبوط لم يكن كبيراً ، وإنما بلغ زهاء ست أقدام أو أقل من ذلك في خلال ثلاثة آلاف سنة^٥ . أما مستوى سطح الخليج العربي ، فقد هبط على رأي بعضهم زهاء عشر أقدام أو خمس أقدام خلال ألفي عام ، وإن ماء البحر قد تراجع في هذه المدة ، ويستدلون على ذلك بوجود السبخ في الأحساء والقطيف ، وهي ، في رأيهم ، من بقايا تآثر البحر في الأرض وبما ذهب إليه بعضهم من أن الريح الخالي ، وقد عثر فيه على بقايا بحر واسع في السهل المنخفض الذي يقال له أبو بحر ، كان متصلاً بالبحر العربي^٦ . ومهما يكن من شيء ، فإن هبوط مستوى سطح الماء مهما كان مقداره قد أثر في سطح الأرض .

وقد وجد السياح محاراً من النوع الذي يكون في المياه العذبة ، وأدوات من الصوان ترجع إلى ما قبل التأريخ والعصور الحجرية ، وبقايا عظام ترجع إلى هذه العصور في مناطق صحراوية ، ويدل وجودها فيها على أنها كانت مأهولة، وأنها لم تهمل إلا لعوارض طبيعية قاهرة لم يكن من الممكن التغلب عليها ، حولت

١ Philby, The Heart of Arabia, P., 37, 38, BOASOR, Suppl., Nos, 7-9, P., 41.

٢ راجع كتاب « موريتس » المذكور Discoveries, P., 83.

٣ Twitchell, Saudi Arabia, P., 44, 51.

٤ BOASOR, Suppl., Stud., Nos, 7-9, P. 42.

٥ المصدر نفسه

٦ Philby, The Heart of Arabia, P., 31, Dougherty, The Sealand, P., 160.

تلك المناطق الحصبة في ألوف من السنين إلى مناطق لا تتوفر فيها شروط الحياة ،
فهجرت^١ .

كما أننا نجد في الكتب العربية ذكر أشجار ضخمة كانت تنمو في مناطق
لا تنبت شيئاً ما في الزمان الحاضر ، وذكر مناطق كانت تحمي ، يقال لها
(الحمى) وقد جفت معظمها ، وعاد أرضين قفرة جرداء ، فهلاك هذه النباتات
وجفاف هذه الأرضين ، لا يمكن أن يعزى إلى سوء الأوضاع السياسية وهجرة
القبائل والمزارعين إلى أماكن أخرى لفساد الإدارة في الأماكن البعيدة حسب ،
بل لا بد أن يكون للطبيعة يد في هذا التحول ونصيب . إن هذا التغير الذي
حدث في جو جزيرة العرب ، فساعد على ازدياد الجفاف وانجbas الأمطار ،
قد أباد النباتات ، وقاوم نمو المزروعات ، وعفى على الأشجار الضخمة التي
كانت تعيش من امتصاص جذورها العميقة للرطوبة من أعماق الأرض ، كما أثر
في حياة الحيوان كالأسد الذي قلّ وجوده ، وقد كان كثير الوجود ، ويدل
على كثرة وجوده هذه الأسماء الكثيرة التي وضعت له وحفظت في كتب
اللغة^٢ . وحمار الوحش وقد كان من الحيوانات التي يخرج الناس لصيدها في
الحجاز وفي نجد ، والنعام^٣ . والرثم أو بقر الوحش ، والفهد ، والنسر^٤ .

ومن العلماء الذين نسبوا هجرة الساميين من جزيرة العرب إلى خارجها ، إلى
عامل الجفاف والتغير الذي وقع في جو جزيرة العرب ، العالم الايطالي (كيتاني)
(L. Caetani) . لقد تصور (كيتاني) بلاد العرب في الدورة الجليدية جنة ،
بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة وكانت سبباً في رسم تلك الصورة
البديعة في نخيلة كتاب التوراة عن (جنة عدن) . وجنة عدن المذكورة في
العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر (كيتاني) في جزيرة العرب ،

١ المراجع نفسها ، مجلة سومر ١٩٤٩ ، المجلد الخامس ، ١٢٧/٢ فما بعدها .

٢ المخصص (٥٩/٨) فما بعدها) وقد اشتهرت بعض الأماكن بأسودها ، مثل
(عثر) قال الهمداني : « وإلى حارة عثر تنسب الاسود التي يقال لها اسود
عثر ، واسود عتود وهي قرية من بواديها وقد ذكرها ابن مقبل : »

جلوسا بها الشم اللجان كأنهم اسود بشرج او اسود بعثودا

Moritz, S., 35. ff., 40, Noeldeke, In ZDMG., 49, 713. f.

٣ Moritz, S., 42, Weilhausen, Lieder der Hudhaliten, No., 175, 176, Bunting, I, 230.

٤ صفة ص ٢٠٢

غير أن الطبيعة قست عليها ، فأبدلتها صحارى ورمالاً ، حتى اضطر أصحابها إلى الارتحال عنها إلى أماكن تتوافر فيها ضروريات الحياة على الأقل فكانت الهجرات إلى العراق وبلاد الشام ومصر والمواطن السامية الأخرى . وكانت هذه الهجرات كما يقول قوية وعنيفة بين سنة ٢٥٠٠ ومئة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، فدخل الهكسوس أرض مصر ، وهاجر العبرانيون إلى فلسطين ، ثم ولي ذلك عدد من الهجرات^١ .

ويرى (كيتاني) أن هذا التغير الذي طرأ على جو جزيرة العرب ، انما ظهر قبل ميلاد المسيح بنحو عشرة آلاف سنة ، غير أن أثره لم يبرز ولم يؤثر تأثيراً محسوساً ملموساً إلا قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة آلاف سنة . وعندئذ صار سكان بلاد العرب ، وهم الساميون ، ينزحون عنها أمواجاً ، للبحث عن مواطن أخرى يتوفر فيها الحصب والخير ، وحياة أفضل من هذه الحياة التي أخذت تضيق منذ هذا الزمن^٢ .

وقد تصور (كيتاني) أودية جزيرة العرب ، مثل وادي الحمض ووادي السرحان ووادي الرمة ووادي الدواسر ، أنها رأ كانت ذات مياه غزيرة تنساب إليها من المرتفعات والجبال في الدهور الغابرة ، أثرت فيها التغيرات الطبيعية المذكورة ، فقللت من مياهها حتى جفت ، فصارت أودية ، لا تجري فيها المياه إلا أحياناً ، إذ تسيل فيها السيول بعد هطول الأمطار^٣ .

وقد ذهب إلى هذا الرأي المستشرق الألماني (فرتزهومل) أيضاً ، فرأى أن الأنهر المذكورة في التوراة على أنها أنهر جنة (عدن) ، هي أنهر تقع في بلاد العرب ، وأن الأنهر المشار إليها ، هي وادي الدواسر ، ووادي الرمة ، ووادي السرحان ، ووادي حوران^٤ . وأما (كلاسر) ، فذهب إلى أن نهري

١ المقتطف ، جزء يوليو ١٩٤٤ ، ص ١٢٣ فما بعدها ، الجزء الثاني من المجلد الخامس بعد المئة ، مجلة سومر ، الجزء الثاني ، المجلد الخامس ١٩٤٩ ، ص ١٢٣ فما بعدها ،

Caetani, Studi della Historia Orientale, Vol., I, P., 64, 185, 186, 188, 192. 277.
Musil, Negd, P., 311, 305, Caetani, Studi, Vol. 2, PP. 53, 65.

Montgomery, Arabia and the Bible, P., 95. ٢

Caetani, Studi, Vol., I, P., 64, 80, 248, Vol. 2, PP. 53. 65. Musil. Negd. ٣
P., 305, Caetani, Annali Dell'Islam, II, Part II, (1907), 831. ff.

Montgomery, Arabia, PP., 9, F. Hommel, Opus Magnum Ethnologie und ٤
Geographie des Alten Orients, II, 508, 547, 1928.

(جيحون) و (فيشون) ، وهما من أنهر (جنة عدن) الأربعة في رواية التوراة^١ ، هما في جزيرة العرب^٢ .

ويعتقد (كيتاني) أن الفيلة والحيوانات الضخمة التي يندر وجودها اليوم في بلاد العرب ، كانت موجودة فيها بكثرة ، ولا سيما في أرض (مدين) . وكان الصيادون يخرجون لاصطيادها لأكل لحومها^٣ . وقد جاء بأمثلة لتأييد رأيه من كتب (الكلاسيكيين)^٤ .

وقد قسّم (كيتاني) جزيرة العرب إلى قسمين : غربي وشرقي . أما القسم الغربي ، فهو الذي على ساحل البحر الأحمر الشرقي ، وفيه سلاسل جبلية ومرتفعات . وأما القسم الشرقي ، فالأرضون التي تأخذ في الانحدار والميل . وهي عند السفوح الشرقية للجبال ، وتمتد نحو الخليج . وقد كان سكان المناطق الغربية - في رأيه - في مستوى راق من المدنية ، وكان لهم سلطان كبير على المناطق الشرقية ، وعلى سكانها الذين كان يغلب عليهم الفقر . وقد كان فعل الجفاف أشد وأسرع في الأرضين الشرقية منه في الأقسام الغربية ، لذلك بدأت الهجرات من هذه المناطق قبل المناطق الغربية ، وظهرت فيها البداوة بصورة أوضح من ظهورها في الأرضين التي على ساحل البحر الأحمر والمتصلة باليمن وبلاد الشام . ولما توسعت منطقة الجفاف وأخذت الرطوبة تقلّ في جو بلاد العرب الغربي ، ظهرت أعراض الصحراوية في تلك الأرضين كذلك ، واضطر السكان إلى الهجرة منها إلى مناطق أخرى^٥ .

وقد لاقت نظرية (كيتاني) هذه رواجاً بين عدد كبير من المستشرقين ، واعتدها (السير توماس أرنولد) من أهم النظريات التي اكتشفها المؤرخون الحديثون بالنسبة إلى التأريخ العربي^٦ . غير أن المستشرق (الويس موسل) ، يرى أنها لا تستند إلى أسس تاريخية ، ولا إلى أدلة علمية ، وأن القائلين بها قد بالغوا

١ التكوين ، الإصحاح الثاني ، آية ١٠ . فما بعدها .

٢ Glaser, Skizze, S., 314, Montgomery, P., 94.

٣ Musil, Negd, P., 308.

٤ Strabo, Geography, XVI, 4, 18, Periplus, PP., 177, (Mueller Ed.), Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 43. f.

٥ Musil, Negd, P., 311, Caetani, Studl., P., 210.

٦ Musil, Negd, P., 304, Arnold, The Caliphate, (1924), PP. 23.

فيها مبالغة كبيرة ، ويرى أنه ما دامت البحوث (الجيولوجية) التي قام بها العلماء في مراحلها الأولى ، وقد جرت في مناطق محدودة فلم تفحص أكثر مناطق جزيرة العرب فحصاً علمياً فنياً ، حتى الآن ، فلا يصح الاعتماد على فرضيات ، تبنى عليها آراء ثابتة . ولهذا فهو يرى أن الأدلة (الجيولوجية) التي استشهد بها (كيتاني) ضعيفة وغير كافية ، فهي لا تستحق مناقشة ، واكتفى بمناقشة الأدلة التاريخية^١ .

يرجع (موسل) سبب الهجرات ، وتحول الأرضين الحصبة صحارى ، إلى عاملين هما : ضعف الحكومات ، وتحول الطرق التجارية^٢ . فضعف الحكومات ينشأ عنه تزعم سادات القبائل والرؤساء ، وانشقاقهم على الحكومات المركزية ، ونشوب الفتن والاضطرابات واشتعال نيران الحروب ، وانصراف الحكومة والشعب عن الأعمال العمرانية ، وتلف المزارع والمدن ، وتوقف الأعمال التجارية وحصول الكساد ، وانتشار الأمراض والمجاعة ، والهجرة إلى مواطن أخرى يأمن فيها الإنسان على نفسه وأهله وماله . فعراق سد^٣ (مأرب) مثلاً لا يعود إلى فعل الجفاف الذي أثر على السد^٤ كما تصور ذلك (كيتاني)^٥ ، بل يعود إلى عامل آخر لا صلة له بالجفاف ، هو ضعف الحكومة في اليمن ، وتزعم (الأقيال) و (الأذواء) فيها ، وتدخل الحكومات الأخرى في شؤون العريضة الجنوبية كالحبشة والفرس ، مما أدى إلى اضطراب الأمن في اليمن ، وظهور ثورات داخلية وحروب ، كالذي يظهر من الكتابات التي تعود إلى النصف الثاني من القرن السادس للميلاد^٦ ، فألمى ذلك الحكومة عن القيام بإصلاح السد ، فتصدعت جوانبه ، فحدث الانفجار ، فخسرت منطقة واسعة من أرض اليمن مورد عيشها الأول ، وهو الماء ، وببست المزارع التي كانت تترتوي منه ، واضطرت القبائل وأهل القرى والمدن الواقعة فيها إلى الهجرة إلى مواطن جديدة . وتصدع السد بسبب ضغط الماء على جوانبه ، هو في حد ذاته دليل على فساد نظرية الجفاف^٧ .

Musil Negd, P., 304. ١

Musil, Negd, PP., 317. ٢

Musil, Negd, P., 309, Caetani, Studl., 267, 296. ٣

Corpus Inscriptionum Semiticarum, (1911), Part, 4, Vol., 2, Nos. 384, 540, 541. ٤

Musil, Negd, P., 310, Corpus Inscript. Semit, No. 540, II, 54-54. ٥

ويرى (موسل) أن التقدم الذي حدث في البلاد العربية بعد القرن التاسع عشر دليل آخر على فساد نظرية (كيتاني) ، فقد ظهرت مدن حديثة ، وعمرت قرى ، وشقت ترع ، وحفرت آبار ، وعاش الانسان والحيوان والنبات في مناطق من العراق وسورية ولبنان وفلسطين والأردن كانت تعبد من الأرضين الصحراوية^١ . فليس الجفاف هو المانع من عمارة هذه المناطق ، والسبب في تكون هذه الصحارى ، بل السبب شيء آخر ، هو ضعف الحكومات وانصرافها عن العمارة وعن المحافظة على الثروة الطبيعية وضبط الأمن ، ووقوفها موقف المتفرج تجاه قطع الناس للأشجار واستئصالها لاستخراج الفحم منها ، أو لاستعمال خشبها في أغراض أخرى ، وقتال القبائل بعضها ببعض ، هذا وان من الممكن إعادة قسم من الأرضين الجرد إلى ما كانت عليه ، إذا ما تهيأت لها حكومة قوية رشيدة تنصرف إلى حفر الآبار ، واقامة السدود ، وغرس الجبال ، وانشاء الغابات ، والاستفادة من مياه العيون^٢ .

ويرى (موسل) أيضاً أن ما ذكره (كيتاني) عن الأنهار في جزيرة العرب مسألة لا يمكن البت فيه الآن ، لقلة الدراسات العلمية^٣ ، كما ان ما ذكره عن انعدام أجناس من الحيوانات ، ليس مرده إلى الجفاف وعدم احتمال تلك الحيوانات الجو الجديد ، فهلك ، أو هاجرت إلى مواطن جديدة ، بل مرده في نظره إلى اعتداء الانسان عليها ، وقتله إياها . ودليله على ذلك أن الحيوانات التي ورد ذكرها في كتب (الكلاسيكيين) لا تزال تعيش في المناطق التي عيشتها أولئك الكتاب ، ولكنها بقلّة . كذلك نجد الهمداني وغيره ينكر وجود الأسد وحيوانات أخرى في مواضع قلّ فيها وجودها الآن ، وهذا مما يشير إلى أن هذه الحيوانات لم تنقرض أو تقل بفعل تبدل الجو ، بل بفعل اعتداء البشر عليها ، وان اعتداء البشر على الحيوان شر من اعتداء الطبيعة عليه^٤ .

ولا يوافق (موسل) على نظرية (كيتاني) في هجرة القبائل العربية من الجنوب إلى الشمال ، أو من الشرق إلى الشمال . وقد رأى (كيتاني) كما سبق

Musil, Negd, P., 310. ١

Musil, Negd, P., 318. ٢

Musil, Negd, P., 305, Caetani, Studl., P., 60, 87. ff. ٣

Musil, Negd, P., 309. ٤

أن ذكرنا تقسيم جزيرة العرب إلى قسمين : قسم غربي وهو الممتد من فلسطين إلى اليمن ، ويتتهي بالبحر العربي ، وتكون حدوده الشرقية (السراة) والغربية البحر الأحمر ومضيق باب المندب . وقسم شرقي ، وهو ما وقع شرقي (السراة) إلى الخليج والبحر العربي^١ .

وقد ظهر الجفاف في رأي (كيتاني) في القسم الشرقي قبل الغربي ، ولهذا صار سكانه يهاجرون منه بالتدريج إلى مواطن جديدة صالحة للاستيطان مثل العراق والشام ، كما صار سبباً لظهور الصحارى الشاسعة في هذا القسم بصورة لا نعهد لها في القسم الغربي^٢ .

ويرى (موسل) أن هذا تقسيم لا يستند إلى أسس طبيعية وجغرافية ، ولا إلى آراء (الكلاسيكيين) ، أو علماء الجغرافية العرب ، أو غيرهم ، وأنه مجرد رأي لا يمكن أن يكون حجة لاثبات مثل هذا الرأي^٣ .

ولموسل رأي في الهجرات ، يرى أن ما قاله (كيتاني) وغيره عن الهجرات من جزيرة العرب ، من اليمن أو من نجد إلى الشمال ، قول لا يستند إلى دليل تاريخي قوي . فليست لدينا حتى الآن براهين كافية تثبت - على حد قول موسل - أن أصل (الهكسوس) أو (العبرانيين) مثلاً من جزيرة العرب^٤ . كما أن ما ادعاه (كيتاني) عن استمرار الهجرات من الألف الثالث أو قبل ذلك قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد قول لا ينطبق مع المنطق . فلكم ظلت هذه الهجرات مستمرة إلى أن توقفت بعد القرن السابع للميلاد ؟ أزدت الرطوبة وتحسن الجو ؟ أم أن القبائل الكبيرة كانت قد تمزأت إلى قبائل صغيرة وعشائر وأفخاذ ، فأصبح في إمكانها العيش بعض الشيء في محال صغيرة ، لا تحتاج إلى مراعي شاسعة ، ولا إلى مياه غزيرة ؟ فلم تدفعها الحاجة منذ هذا العهد إلى الهجرة في شكل موجات كبيرة . وهل كان الجفاف هو المانع من مهاجمة حدود الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية اللتين كانتا قد سدتا أبواب جزيرة العرب على أهلها ، فلم تسمح للقبائل بتخطي هذه الحدود ؟ ويرى ان

Musl, Negd, P., 311. ١

Caetani, P., 210, Musl, Negd, P., 311. ٢

Musl, Negd, P., 311. ٣

Musl, Negd, P., 311. ٤

ما ادعاه (كيتاني) من أن الجفاف والجوع حملا قبائل اليمن على الهجرة إلى الهلال الخصيب حيث نزلت في أرضين كانت خالية مهجورة على أطراف الفرات والشام ، فألفت حكومتي (المناذرة) و (الغساسنة) ، قول لا يؤيده ما جاء في الكتب (الكلاسيكية) وفي المصادر (السريانية) من أن تلك الأرضين كانت عامرة ، آهلة بالسكان ، تمر بها الطرق التجارية العالمية . ويرى (موسل) أن الحكومتين (اللخمية) و (الغسانية) إنما ظهورتا بعد سقوط (تدمر) وقد أسس الدولتين (مشايخ) من أهل الهلال الخصيب، ولم يكونوا مهاجرين وردوا من الجنوب ، أو من العروض على نحو ما تزعمه بعض الروايات^١ .

ويأخذ (موسل) على (كيتاني) تصديقه الرواية العربية عن هجرة القبائل ونظريتها في الأنساب ، واعتدادها من جملة الأدلة التي تثبت نظرية الجفاف . ويرى أنها - مع التسليم بصحتها - تنطبق على الوضع الذي كان في القرن السابع للميلاد وفي الجاهلية القريبة من الإسلام ، وأنها رواية تستند إلى خبر مسوغ لا يصح أن يكون سنداً في اثبات الهجرات لما قبل الميلاد^٢ .

ويمكن تفسير انتساب القبائل - على حد قول موسل - بصورة أخرى ، هو أن العرب الجنوبيين كانوا قد هيموا في الجاهلية وقبل الإسلام بقرون على الطريق التجارية التي تصل الشام باليمن وعلى الطرق التجارية الأخرى ، وكانت لهم حاميات فيها لحماية القوافل من غارات الأعراب ، فلما ضعف أمر حكومات اليمن ، استقلت هذه الحاميات ، وكان كثيراً من أفرادها قد تزاوجوا مع من كان يجاورهم من القبائل ، واتصلوا بهم . ولما كان لليمن مقام عظيم وشرف بين القبائل ، انتسب هؤلاء إلى اليمن ، وصاروا يعدون أنفسهم مهاجرين ، يتصل نسبهم بنسب اليمن . ومن هنا نشأت ، في رأي (موسل) أسطورة الأنساب ! ثم جاء علماء الأنساب في (المدينة) و (الكوفة) فسجلوها على أنها حقيقة واقعة ، ومنهم انتقلت إلى كتب التاريخ ، فتوسعت وتضخمت في الإسلام^٣ .

ويدعي (موسل) أنه لو كانت هنالك هجرات حقاً ، لرأينا أثرها في لغة

١ Musil, Negd, P., 312, Kuseir 'Amra, PP., 131.

٢ Caetani, PP., 268, Musil, Negd, P., 311.

٣ Musil, Negd, P., 312.

القبائل النازحة إلى الشمال وفي عقيدتها الدينية وفي ثقافتها وفي أساطيرها وفي قصصها الشعبي ، ولوجدنا في أقل الأحوال إشارة في الكتابات العربية الجنوبية التي تعود إلى ما قبل الإسلام . ولكننا لا نجد شيئاً من ذلك ، وهذا مما يفند رأي القائلين بالهجرات، وبأن أصل كثير من القبائل التي كانت تقيم في شمال جزيرة العرب ، ومن هؤلاء الغساسنة والمناذرة ، هم من اليمن^١ .

ويعترض (موسل) أيضاً على دعوى (كيتاني) وغيره من المستشرقين ممن زعموا أن الفتح الإسلامي هو آخر هجرة سامية قذفت بها جزيرة العرب إلى الخارج ، وأنها كانت بسبب الجفاف والجوع ، ويرى أن ما جاء في هذه الدعوى لا يتفق مع الحقيقة ، وأن ما ذكره (كيتاني) عن عدد نفوس الحجاز مبالغ فيه ، وأن الجيوش التي اشتركت في فتح العراق والشام وفلسطين لم تكن حجازية أو نجدية حسب ، بل كانت فيها قبائل عراقية وشامية نصرانية، ساعدت أبناء جنسها العرب مع اختلافها مع المسلمين في الدين، وحاربت الروم والفرس ، ولذلك فليست الفتوحات الإسلامية هجرة من جزيرة العرب إلى الخارج على نحو ما تصوره (كيتاني) بدافع الفقر والجوع^٢ .

والرأي عندي أن ما يسمى بموضوع تغير الجو في جزيرة العرب وبالهجرات السامية والاستشهاد بآثار السكنى عند حافات الأودية وفي أماكن مهجورة نائية ، لاتخاذ ذلك دليلاً على الوطن السامي وعلى هجرة الساميين ، هو موضوع لم ينضج بعد ، وهو لا يزال بعدُ يحتاج إلى دراسات علمية وإلى نتائج أبحاث علماء (الجيولوجيا) والعلوم الأخرى ، ليقولوا كلمتهم في هذا الموضوع . فعلى بحث هؤلاء يتوقف الحكم في موضوع تطور الجو وتغير الإقليم . أما الحدس والتخمين ، وأما الاعتماد على حوادث وعلى بحوث لغوية ومقابلات ومطابقات في أمور دينية وثقافية أخرى ، فلأنها لا تكفي في نظري للبت في قضايا يجب أن يكون فيها الحكم والكلمة للعلوم لا للحدس والتصور والتخمين . هذا هو رأيي الآن في هذا الموضوع ، وفي كل الآراء الواردة عن مواطن الساميين .

فقد رأينا أن بعض تلك الآراء إنما قيلت لاعتقاد أصحابها بما ورد في التوراة،

١ Musil, Negd, P., 318.

٢ Musil, Negd, P., 313, Caetani, Studl., P., 307.

فجاءت بكل ما عندها من حجج وأدلة لإثبات رأيها هذا ، ورأينا أن في بعض الأدلة متناقضات واستشهادات ضعيفة ، ورأينا أن الاستشهاد باشتراك اللغات في الألفاظ لا يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً على الأصل المشترك ، ثم إننا لا نملك سجلاً تاريخياً للنبات والحيوان ولظهور الألفاظ حتى نستشهد به في إثبات نظرية من النظريات ، وكل ما لدينا من هذا النوع إنما هو مجرد رأي وحس. والرأي لا يكون رأياً علمياً إلا بحجة قاطعة وبدليل علمي دامغ وبحوث مخبرية وآثار تثبت ذلك للعيان ، فن حقي إذن أن ألتزم التريث والانتظار وأستعجل العلماء المتخصصين في دراسة طبقات الأرض ، لئرى نتائج بحوثهم لنستشير بها في إعطاء أحكام في هذه الآراء .

أما بعض الأمثلة التي استشهد بها لإثبات تغير جو جزيرة العرب ، فهي أمثلة لا يمكن أن تكون دليلاً للتغير ، وإنما ترجع إلى عوامل أخرى مثل تغير طريق القوافل ، وتغير اتجاهات السفن البحرية ، وإلى الفتن والحروب وغارات القبائل المتوالية التي هي من شر الأوبئة التي فتكت بالمجتمع العربي ، فسببت هرب الجضر من أماكن إقامتهم إلى أماكن أخرى ، لعدم وجود قوات نظامية وحكومة ترد اعتداءات الأعراب عليهم ، ثم الحروب الأهلية التي وقعت في اليمن بين الحبش وأهل اليمن وأمثال ذلك مما وقع بين الفرس والعرب . أما في الإسلام، فقد كان للفتوحات دخل كبير في هجرة القبائل لنشر الإسلام وللإستمتاع بخيرات بقاء جديدة في العراق وفي بلاد الشام وفي أماكن أخرى لا يوجد بها مثل في جزيرة العرب ، فتخربت لذلك بعض القرى والسدود القديمة التي كانت في الإسلام ، وهي اليوم خراب . أضف إلى ذلك الحروب والفتن التي وقعت في اليمن وفي باقي العربية الجنوبية والعروض في أيام الأمويين والعباسيين وفي الأيام التي تلتهم ، فنشرت في تلك الديار الخراب ، ثم إهمال الأمويين ومن جاء بعدهم من خلفاء وملوك وحكام شأن جزيرة العرب ، لفقرها وعدم وجود موارد غنية فيها ، وانتقال أصحابها أصحاب الجاه والتفوذ إلى البلاد الغنية ، فلم يبق من يدافع عنها ويتحدث بلسانها باعتبارها مهد العرب الأول ومهد الإسلام، فتقوى الخراب بذلك على العمار ، وأخذ يبتلع ما يجده أمامه من مستوطنات حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم .

والدليل على ذلك ، ورود أسماء مواضع عديدة في اليمامة وفي الحجاز وفي

نجد واليمن وفي كل أنحاء جزيرة العرب الأخرى في الموارد العربية الإسلامية ، كانت مأهولة مزروعة في صدر الإسلام ، خربت وهجرت وصارت أثراً ، وقد ذهب عن أكثرها حتى الاسم . فلما كتب عنها الجغرافيون لم يجدوا من عمراتها شيئاً . بل نجد في كتب الجغرافيين أسماء مواضع نزلوا بها وأقاموا فيها ، وكانت معمورة مسكونة . أما اليوم فلم يبق من أكثرها شيئاً ، فهل نرجع فعل هلاكها إلى الجفاف وتغير الجو وإلى اندثار الواحات والبحيرات والأنهار ؟ إن الجغرافيين المذكورين لم يشيروا إلى وجود واحات وبحيرات وأنهار حتى نقول بفعل الجو فيها ، بل هنالك عوامل أخرى عديدة اضطرت الناس إلى ترك مواطنهم تلك التي ذكرتها ، وفي مقدمتها الفتن والغزو وتغير الطريق وعدم قيام حكومة قوية تحمي الأمن .

وأما موضوع الاستشهاد بالمهجرات ، فإنه موضوع غامض يحتاج إلى دراسة علمية عميقة ، فالذين يرون أن جزيرة العرب كانت مهد الجنس السامي ، وضعوا نظريتهم هذه قياساً على روايات أهل الأخبار من أمر هجرة العرب إلى تلك الأرضين ، ومن الفتح الإسلامي الذي جرف قبائل عدنانية وقحطانية فساقها إلى بلاد العراق وبلاد الشام وإلى ما وراء هذه الأرضين ، ومن هجرة قبائل من جزيرة العرب إلى تلك البلاد حتى الزمن القريب ، ومن أخبار عن هجرة الفينيقيين من البحرين إلى بلاد الشام . ولكننا نجد من ناحية أخرى أن التوراة تذكر أن الاسماعيليين هم سكان أرضين تقع في الأقسام الشمالية الغربية من جزيرة العرب وفي شرق فلسطين في البادية وفي طور سيناء ، والأخباريون يذكرون أن العدنانيين هم من سلالة اسماعيل أي أنهم اسماعيليون ، ويذكرون أنهم جاؤوا من الشمال فسكنوا الحجاز ، وأن جددهم رفع قواعد البيت الحرام . ونرى أن اليهود زحفوا من فلسطين نحو الحجاز ، وأن أقواماً من سكان العراق زحفوا نحو الجنوب فسكنوها في العروص . وأن قبائل عراقية كالقبائل العبرانية هاجرت من العراق إلى بلاد الشام ثم إلى مصر ثم عادت إلى بلاد الشام ، فمثل هذه الهجرات تلفت النظر وتجعل الباحث يبحث عن أمثلة أخرى من هذا القبيل ، لعله يجد غيرها أيضاً . وهي تجعله يشعر أن الهجرات لم تكن دائماً في اتجاه واحد ، بل كانت حركة دائمة تتجه مختلف الاتجاهات ، لعوامل سياسية واقتصادية وحربية ساحتها من شمال بلدية الشام إلى سواحل البحر العربي في الجنوب ، ومن سواحل البحر

الأحمر إلى سواحل الخليج العربي ، فهي ليست هجرات بالمعنى الذي نفهمه من الهجرات في لغة علماء الساميات ، ذات أزمان معينة لها أمد محدود كآلف عام أو أكثر من ذلك أو أقل ، وبمقياس ضخم كبير ، بل هي حركة دائمة لقبائل أو الجماعات تنتقل من مكان إلى مكان طلباً للمعاش أو لأحوال سياسية وحربية ، فهي هجرة بهذا المعنى لاذن ليس غير . فهذه الأرضون التي تشمل كل جزيرة العرب والعراق إلى حدود الجبال وكل البادية الواسعة حتى سواحل البحر الأبيض فطور سيناء إلى نهر النيل ، هي مواطن الساميين، ومسارحهم التي كانوا وما زالوا يدرجون عليها . وقد درجت عليها أقوام أخرى أيضاً ليست بأقوام سامية ، قبل الميلاد وبعده ، بل حتى في زمن الإسلام ، ولكنها غلبت على أمرها، وصهرت في بوتقة الساميين ، أمثال الفرس واليونان والرومان والصليبيين . فقد بقي من هؤلاء خلق اندمجوا بهم وتحلقوا بأخلاقهم وتكلموا بلستهم بمرّ السنين ، حتى صاروا مثلهم ومنهم ، وبذلك امتزجت دماء الساميين بدماء غريبة عنهم فدمهم من هنا ليس بدم صاف تقي ، وليس في الأجناس البشرية جنس يستطيع أن يفخر فخراً مطلقاً بكونه الجنس النقي الخالص الذي لم يختلط قط بأي دم غريب .

أضف إلى ما تقدم أن العلماء القائلين بتبدل الجو وبتغيره ، هم على خلاف بينهم في الأزمنة وفي الأسباب . فمنهم من بالغ ، ومنهم من أفرط حتى قال إن الجو في جزيرة العرب كان يختلف في أيام اليونان والرومان عنه في الأيام الحديثة^١ . ومنهم من قال إن الجو لم يتبدل تبديلاً محسوساً مؤثراً فيها منذ حوالي ألفي عام ، ومنهم من عزا أسباب انخفاض مستوى الماء الأرضي في جزيرة العرب إلى عوامل ليست لها صلة بتبدل الجو، وعزا خراب القرى والمدن واندثار السدود إلى عوامل أخرى لا علاقة لها بتبدل الجو^٢ . ومع كل ذلك ، فإن هذه الدراسات لم تنضج بعد ، ودراسة أرض جزيرة العرب وجوها لم تتم بصورة علمية مختبرية بعد ، وأكثر ما ذكرته هو ملاحظات مؤرخين أو باحثين علميين ، على نحو من الحدس والتخمين ، ولا يمكن بناء نظريات معقولة مقبولة على مثل هذه الآراء .

Discoveries, P., 82, E. Huntington, Palestine and its Transformation, Cambridge, 1911.

١

Discoveries, P., 84.

٢

إن هذه الملاحظات تدفعني إلى التريث في البت في وطن الجنس السامي، حتى تنهياً دراسات أخرى علمية دقيقة عنه ، لأن الأخذ بالقياس، وبمجرد الملاحظات والمشاهدات ، لا يمكن أن يكون دليلاً علمياً مقنعاً في تثبيت الوطن الأول الذي ظهر فيه هذا النسل الذي نسميه بالنسل السامي . وإن كنت أجد أن جزيرة العرب قد أمدت الأقسام العليا منها ، وهي بلاد العراق والبادية وبلاد الشام بفيض من الناس ، بصورة دائمة مستمرة ، وذلك لأسباب عديدة عسكرية واقتصادية ، وأنها لم تأخذ من تلك الأرضين مثل هذا الفيض .

إن نظرية موطن الجنس السامي ، هي في نظري جزء من مسألة كبرى معقدة ، هي مسألة موطن الجنس البشري بكامله ، هل هو موطن واحد في الأصل ، أو جملة مواطن ، وإذا كان ذلك الموطن موطناً واحداً ، فأين كان؟ وكيف ظهرت هذه الأجناس البشرية بألوانها المتعددة وبسحنها المختلفة ؟ إن هذه بحوث ، على البشرية أن تضفي نفسها في البحث عنها ! وكل بحوثنا الآن حدس وتخمين ، حتى يترقى العلم البشري إلى درجات فدرجات .

اللغة السامية الأم :

تدفعنا هذه النظريات التي قالها العلماء عن السامية وعن القرابة اللغوية التي نراها في مجموعة اللغات السامية ، وعن اشتراكها في كثير من أسس النحو والصرف ، إلى التفكير في أن جميع هذه اللغات تفرعت من لغة واحدة هي أم اللغات السامية ، (Ursemitisch) كما يعبر عنها بالألمانية . ويدفعنا ذلك إلى البحث عن أقدم النصوص المدونة في اللغات السامية ، وعن الخصائص الأساسية المشتركة بين كل هذه اللغات ، للوقوف على اللغة السامية الأولى التي انقرضت ، وبقيت آثارها في هذه الجذور التي غدت اللغات السامية القديمة منها والحديثة بالخصائص السامية ، وعن أقرب الفروع التي انفصلت من الأم .

لقد بحث المستشرقون في هذا الموضوع ولا يزالون يبحثون فيه ، فمنهم من وجد أن العبرانية أقدم اللغات السامية ، وأقربها عهداً بالأم ، ومنهم من رأى أن العربية على حداثة عهدها جديدة بالدراسة والعناية ، لأنها تحمل جرثومة السامية ، ومنهم من رأى القسدم للآشورية أو البابلية ، وهناك من رأى غير

ذلك^١ . وبالجمله ، لم يدع أحد من العلماء أنه توصل إلى تشخيص لغة (سام) ، وتمكن من معرفة اللغة التي تحدث بها مع أبيه (نوح) أو مع أبنائه الذين نسلوا هذه السلالات السامية .

وكان من جملة العوامل التي ألهمت نار الحماسة في نفوس علماء التوراة والساميات للبحث عن اللغة السامية الأولى أو أقرب لغة سامية إليها ، القصص الوارد في التوراة عن سام وعن لغات البشر ، وبابل ولغاتها والطوفان وما شاكل ذلك ، ثم وجد المستشرقون المعاصرون أن البحث في هذا الموضوع ضرب من العبث ، لأن هذه اللغات السامية الباقية حتى الآن هي محصول سلسلة من التطورات والتقلبات لا تحصى ، مرت بها حتى وصلت إلى مرحلتها الحاضرة ، كما أنها حاصل لغات ولهجات منقرضة . واللغة السامية القديمة لم تكن إلا لغة محكية زالت من الوجود ، دون أن تترك أثراً . ومن الجائز أن يهتدي العلماء في المستقبل إلى لغات أخرى ، كانت عقداً بين اللغات السامية القديمة التي لا نعرف من أمرها شيئاً وبين اللغات السامية المعروفة . والأفضل أن نتصرف الآن إلى دراسة اللغات السامية والموازنة بينها ، لنستخلص المشتركات والأصول . ومتى تتكون هذه الثروة اللغوية ، يسهل البحث في اللغة السامية الأم ، كما تستحسن الموازنة بين هذه اللغات واللغات التي ظهرت في القارة الإفريقية ، مثل المصرية القديمة والبربرية والهررية وبقية اللهجات الحبشية ، لتكوين فكرة علمية عن الصلات التي تربط بين الحاميين والساميين وكانت من جملة العوامل التي دفعت بعض العلماء إلى القول بأن أصل الجنسين واحد ، كان يقيم في قارة إفريقية .

وبالجمله إن هناك جماعة من المستشرقين ترى ان اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة إلى اللغات السامية الأخرى ، هي أنسب اللغات السامية الباقية للدراسة وأكثرها ملاءمة للبحث ، لأنها لغة لم تختلط كثيراً باللغات الأخرى ، ولم تتصل باللغات الأعجمية قبل الإسلام ، فبقيت في مواطنها المعزولة صافية ، أو أصفى من غيرها في أقل الأحوال ، ثم أنها حافظت على خواص السامية القديمة مثل المحافظة على الإعراب على حين فقدت هذه الخاصة المهمة أكثر تلك اللغات ،

Carl Brocklemann, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen Berlin, 1908
Zimmern, Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, 1898.

ولهذه الأسباب وغيرها رأوا أن دراستها تفيد كثيراً في الوقوف على خصائص السامية القديمة ومزاياها^١.

وقد شغل علماء العرب أنفسهم بموضوع اللغة السامية أو لغة سام بن نوح بتعبير أصبح ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، ذهبوا إلى البحث في لغة آدم أبي البشر وفي لغة أهل الجنة . وقد سبق لليهود والنصارى أن بحثوا في هذا الموضوع أيضاً ، في موضوع لغة آدم أي لغة البشر الأولى ، التي تفرعت منها كل لغات البشر حتى اليوم . وقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن العربية هي اللسان الأول ، هي لسان آدم ، إلا أنها حرفت ومسخت بتطاول الزمن عليها ، فظهرت منها السريانية ، ثم سائر اللغات . قالوا : « كان اللسان الأول الذي نزل به آدم من الجنة عربياً ، إلى أن بعد العهد وطال ، فحرف وصار سريانياً . وهو يشاكل اللسان العربي إلا أنه محرف »^٢ . وقد أدركوا ما أدركه غيرهم من وجود قرابة وصلة بين العربية وبين السريانية ، فقال المسعودي : « ولأنما تختلف لغات هذه الشعوب (أي شعوب جزيرة العرب) من السريانيين اختلافاً يسيراً »^٣ .

وقد أخذ علماء العربية نظريتهم هذه من أهل الكتاب . ولما كانت السريانية هي لغة الثقافة والمثقفين ، ولغة يهود العراق وأكثر أهل الكتاب في جزيرة العرب في ذلك العهد ، فلا يستغرب إذن قول من قال إن السريانية هي أصل اللغات وانها لسان آدم ولسان سام بن نوح .

العقلية السامية :

وتحدث المشتغلون بالتاريخ الثقافي و (علم الأجناس) عن عقلية خاصة بالشعوب السامية ، دعوها (العقلية السامية) ، كما تحدثوا عن عقلية (آريسة) وعن عقليات أخرى ، وحاولوا وضع حدود لأوصاف العقلية السامية ، ورسم صورة خاصة بها تميزها عن صور العقليات البشرية الأخرى .

١ Nicholson, A Literary History of the Arabs, P., XVI.

٢ المرهبر (٢٠/١) .

٣ التنبيه (ص ٦٨) .

وقد شاعت هذه النظرية نظرية خصائص العقلية السامية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ووجدت لها رواجاً كبيراً ، لظهور بعض الآراء والمذاهب التي مجدت العقلية الأوروبية ، وسبّحت بحمدها ، وقالت بتفوق العقل الغربي الخلاق المبدع على العقل الشرقي الساذج البسيط ! ورمز العقل الشرقي هو العقل السامي ، فهو لذلك عقل ساذج بسيط . ومن أشهر مروجي هذه النظرية الفيلسوف الفرنسي (رينان) (Ernest Renan) (١٨٢٣ - ١٨٩٢ م) ، و (كراف كوينو) (Graf Arthur Gobineau) (١٨١٦ - ١٨٨٢ م) ، وهو من القائلين بـمايز العنصريات البشرية وبتفوق بعضها على بعض وبسيادة العقلية الآرية على سائر العقلات^١ ، و (هوستن ستيوارت شامبرلين (Hosten Stewart Chamberlain) (١٨٥٥ - ١٩٢٧ م) صاحب كتاب (أسس القرن التاسع عشر)^٢ .

ومن هذه الموارد أخذت (النازية) نظريتها في تفوق العرق الآري على سائر أعراق البشر ، وتفوق الجنس (الجرمانى) خاصة من العرق الآري على سائر الأجناس والأعراق البشرية . ومن هنا وضع (هتلر) (قوانين نورنبرك) لحماية الدم الآري من الاختلاط بالدماء الأخرى ، ولصيانته ولبقائه دماً نقياً صافياً . ولترسيخ هذه النظرية في نفوس الناس ولترويجها بين الألمان والأوروبيين ، شجع البحث في موضوع (الأجناس البشرية) ، وحشد عدداً كبيراً من الأساتذة لإجراء بحوث ودراسات فيه ، وأوحى إلى أساتذة التاريخ كتابة التاريخ بطريقة تظهر دائماً أن الحضارة البشرية هي حاصل عمل الشعوب الآرية وحدها ، وناتج من نتائجها ، بتلك الشعوب بدأت وبها تستمر . وقرر أن ما يقال عن حضارات الشرق الأدنى القديمة هو لغو وهراء ، ولهذا أوجب كتابة تاريخ هذه الشعوب على نحو جديد ، وعلى أساس هذه الفلسفة .

وبحوث مثل هذه تقوم في ظروف كهذه أو في ظروف مشابهة لها ، لا يمكن أن تكون الا دراسات فجّة مغرضة ، مبعثها عاطفة وقصد مبيت ، لذلك لا يمكن الاطمئنان إليها ولا الاعتماد عليها . والبحث في خصائص جنس من

Essai sur L'Inégalité des Races Humaines. ١

Hosten Stewart Chamberlain, Die Grundlagen des neunzehnten Jahrhunderts, ٢
in 2 Vols.

الأجناس وفي مميزاته وسماته الظاهرة والباطنة ، يقتضي تقصي ملامح الجنس في الحاضر والماضي ، وذلك بدراسة ملامح الباقيين وبفحص أجسامهم وخصائصهم بطرق علمية حديثة ، وبدراسة عظام الماضين وما تخلف من أجسامهم في باطن الأرض بالأساليب العلمية الحديثة أيضاً ، ليكون بحثنا شاملاً للماضي والحاضر ، ومثل هذه البحوث لم تجرِ حتى الآن ، لا على العرب ، ولا على غير العرب من هذه الشعوب التي نسميها (الشعوب السامية) .

ثم إن البحوث العلمية على قلتها وضآلتها تدل على وجود فروق بارزة بين الساميين في الملامح الجسمية ، في مثل شكل الجمجمة والأنف . ووجود مثل هذه الفروق ، لا يمكن أن يكون علاقة على وجود (جنس) بالمعنى العلمي المفهوم من (الجنس) يضم شمل الساميين . وعلى وجود عقلية خاصة بالساميين ذات حدود ورسوم تختلف عن عقليات الأجناس البشرية الأخرى .

والصفة العامة التي يراها علماء الساميات في الساميين ، أن الساميين يحبون الحركة والتنقل والهجرة من مكان الى مكان على طريقة الأعراب ، وأنهم ميالون الى الغزو والأخذ بالثأر ، وعاطفيون تتحكم العواطف في حياتهم ، ويغضبون لثأفه الأمور ويرضون بسرعة ، يحبون فيسرفون في حبّهم ، ويظهرون الوجد فيه ، ويغضبون فيبالغون في بغضهم حتى ليصلوا الى حد القساوة والعنف لأسباب تافهة لا تستوجب كراهية ولا بغضاً ، فرديون في طباعهم ، تتغلب عليهم الفردية ، لذلك تراهم في الأصل قبائل ، اذا اتحدت وكونت حكومة قوية كبيرة ، لا تلبث أن تتعرض للانفصال والتفتت ، الحياة عندهم على وتيرة واحدة . موسيقاهم وشعورهم العام بما في ذلك الشعر والغناء وكل وسائل التعبير عنه ، حزن ونغم محدود مكرراً^١ . قضاؤهم قضاء قبلي ، يقوم على القصاص بالمثل ، على أساس السن بالسن والعين بالعين والقتل بالقتل ، ونظام الحكم عندهم نظام ، أسسه الفكرة القبلية ، وديانتهم متشابهة ، تتجلى عندهم الغريزة الدينية وانتقاد المخيلة وقوة الشعور الفردي والقسوة^٢ . وتتغلب عليهم السطحية في التفكير ، فلا يميلون الى التعمق في درس الأشياء للوصول الى كنهها وجوهرها ، كما فعل اليونان .

١ Hastings, Extra Volume, P., 85.

٢ Hastings, A Dictionary of the Bible dealing with its Language Literature and Contents, Including the Biblical Theology, Extra Volume, 1904, P., 90.

وليس لهم قابلية في فهم الأمور المعقدة، ولهذا صارت أحكامهم عامة شاملة ساذجة لا تعقيد فيها ، لأن تفكيرهم تفكير ساذج غير معقد . وتفكيرهم هذا هو الذي جعلهم يبشرون بالتوحيد على حين كانت الأديان الآرية - على حد قولهم - أدياناً معقدة تعتقد بوجود أكثر من إله ١

ويرى هؤلاء العلماء أن البدوي هو خير ممثل للعقلية السامية، فقد عاش الساميون بدواً أمداً طويلاً ، ومرّوا في حياتهم بحياة البداوة ولهذا صارت عقليتهم عقلية بداوة ، تجمع بينهم صفات مشتركة نتجت من اشتراكهم في تلك الحياة ٢ .

وقد وضع المتعصبون للنظرية العنصرية كتباً في موضوعات متعددة ، تعالج الجسم والروح عند الساميين والآريين ، وعنا عناية خاصة بدراسة الحياة الروحية ومظاهرها عند الجنسيتين ، فبحثوا في الناحية القانونية والتشريعات المختلفة عند الساميين والآريين ، وقارنوا بين التشريع عند الجماعتين ٣ . كذلك عالجوا مختلف النواحي الأخرى من الحياة ، حتى إن بعضهم ألف كتاباً في موضوع حرمة أكل لحم الخنزير عند الساميين . مع انه من اللحوم الشهية عند الآريين ، وعدّ ذلك من مميزات الجنس ٤ .

وهناك جماعة من العلماء ، ردّت على هذه النظرية التي تحدد العقليات ، وترسم لها حدوداً وتضع لها معالم ، رأت أن ما يذهب إليه أصحابها من وجود عقليات صافية خالصة للأجناس البشرية المذكورة ، يستوجب وجود أجناس بشرية صافية خالصة ذات دماء نقية ، لم تمتزج بها دماء غريبة ، ويقتضي ذلك افتراضنا اعتزال الأجناس بعضها عن بعض عزلة تامة، وهو افتراض محال ، لأن البشرية لم تعرف العزلة منذ القدم ، ولم تكن حولها أسواراً مرتفعة لتحول بينها وبين الاختلاط ببقية الأجناس ، والشواهد التاريخية والبحوث العلمية المختبرية تشير الى العكس، تشير الى الاختلاط والامتزاج ، كما ذكرنا آنفاً ، فما يقال عن اختلاف العقليات ، هو حديث أوحته العواطف والتزوات . أما ما نشاهده من اختلاف في أساليب

1 Ancient Iraq, by Georges Roux, London, 1964, P., 126, A. Guillaume, Prophecy and Divination among the Hebrews and other Semites, London, 1938.

2 Hastings, P., 85, ff. (Extra Volume).

3 Gerd. Ruehle, Rasse und Sozialismus im Recht, Berlin, 1935.

4 R. Walter Darré, Das Schwein als Kriterium fuer Nordische Voelker und Semiten, Muenchen, 1933.

الفكر وفي فهم الأمور، فليس مرجعه ومردّه الى الدم ، بل الى البيئات الطبيعية والاجتماعية والثقافية ، فهي التي أثّرت وكونت هذه الفروق . وعلى الباحث دراسة كل ما يؤثر على الانسان من محيط ومن مؤثرات طبيعية مثل الضغوط الجوية والحرارة والبرودة والرطوبة ، ومن تركيب الأجسام وأشكالها . وألوان الشعر والبشرة والعين وبنية الجسم بصورة عامة ، ومن أنواع الأغذية التي يتناولها والمحيطات الثقافية التي يعيش فيها الى غير ذلك من مؤثرات يدرسها علماء الأجناس اليوم ، وذلك لاصدار أحكام معقولة عن أجناس البشر .

الفصل السّابع

طبيعة العقلية العربية

لكل أمة عقلية خاصة بها ، تظهر في تعامل أفرادها بعضهم مع بعض وفي تعامل تلك الأمة مع الأمم الأخرى ، كما أن لكل أمة نفسية تميزها عن نفسيات الأمم الأخرى ، وشخصية تمثل تلك الأمة، وملامح تكون غالبية على أكثر أفرادها، تجعلها سمة لتلك الأمة تميزها عن سمات الأمم الأخرى^١ .

والعرب مثل غيرهم من الناس لهم ملامح امتازوا بها عن غيرهم ، وعقلية خاصة بهم . ولهم شمائل عرفوا واشتهروا بها بين أمم العالم ، ونحن هنا نحاول التعرف على عقلية العربي وعلى ملامحه قبل الإسلام ، أي قبل اندماجه واختلاطه اختلاطاً شديداً بالأمم الأخرى ، وهو ما وقع وحدث في الإسلام .

وقد بحث بعض العلماء والكتاب المحدثين في العقلية العربية ، فتكلموا عليها بصورة عامة ، بدوية وحضرية ، جاهلية وإسلامية . فجاء تعميمهم هذا مغلوطاً وجاءت أحكامهم في الغالب خاطئة . وقد كان عليهم التمييز بين العرب الجاهليين والعرب الإسلاميين ، وبين الأعراب والعرب ، والتفريق بين سكان البوطن أي بوطن البوادي وسكان الأرياف وسكان أسياف بلاد الحضارة . ثم كان عليهم البحث عن العوامل والأسباب التي جبلت العرب من النوعين : أهل الوبير وأهل الحضر ، تلك الجبلية ، من عوامل اقليمية وعوامل طبيعية أثرت فيهم ، فطبعتهم بطابع خاص ، ميزهم عن غيرهم من الناس .

١ فجر الاسلام ، احمد امين ١٩٢٨ (٣٥/١)

بل إن الحديث عن العقلية العربية ، حديث قديم ، ففي التوراة شيء عن صفاتهم وأوصافهم ، كونه من علاقات الإسرائيليين بهم ، ومن تعاملهم واختلاطهم بالعرب النازلين في فلسطين وطور سيناء أو في البوادي المتصلة بفلسطين . ومن أوصافهم فيها : أنهم متنابدون يغزون بعضهم بعضاً ، مقاتلون يقاتلون غيرهم كما يقاتلون بعضهم بعضاً (يده على الكل ، ويد الكل عليه)^١ . يغيرون على القوافل فيسلبونها ويأخذون أصحابها أمراً ، يبيعونهم في أسواق النخاسة ، أو يسترقونهم فيتخذونهم خدماً ورقيقاً يقومون بما يؤمرون به من أعمال ، الى غير ذلك من نعوت وصفات .

والعرب في التوراة ، هم الأعراب ، أي سكان البوادي ، لذلك فإنّ النعوت الواردة فيها عنهم ، هي نعوت لعرب البادية ، أي للأعراب ، ولم تكن صلاتهم حسنة بالعبرانيين .

وفي كتب اليونان والرومان والأنجيل ، نعوت أيضاً نعت بها العرب وأوصاف وصفوا بها ، ولكننا اذا درسناها وقرأنا المواضع التي وردت فيها ، نرى أنها مثل التوراة ، قصدت بها الأعراب ، وقد كانوا يغيرون على حدود امبراطوريتي الرومان واليونان ، ويسلبون القوافل ، ويأخذون الإتاوات من التجار والمسافرين وأصحاب القوافل للسماح لهم بالمرور .

وقد وصف (ديودورس الصقلي) العرب بأنهم يعشقون الحرية ، فيلتحقون السماء . وقد اختاروا الإقامة في أرضين لا أنهار فيها ولا عيون ماء ، فلا يستطيع العدو المغامر الذي يريد الايقاع بهم أن يجد له فيها مأوى . انهم لا يزرعون حباً ، ولا يغرسون شجراً ، ولا يشربون خمرأ ، ولا يبنون بيوتاً . ومن يخالف العرف يقتل . وهم يعتقدون بالارادة الحرة ، وبالحرية^٢ . وهو يشارك في ذلك رأي (هيرودوتس) الذي أشاد بحب العرب للحرية ، وحفاظهم عليها ومقاومتهم لأية قوة تحاول استرقاقهم واستذلالهم^٣ . فالحرية عند العرب هي من أهم الصفات التي يتصف بها العرب في نظر الكتبة اليونان واللاتين .

وفي كتب الأدب وصف مناظرة ، قيل انها وقعت بين (النعمان بن المنذر)

١ التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ١٢

٢ Diodorus, 19, 94, 95, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 31.

٣ Herodotus, Vol., I, P., 254.

ملك الحيرة وبين (كسرى) ملك الفرس في شأن العرب : صفاتهم وأخلاقهم وعقولهم ، ثم وصف مناظرة أخرى جرت بين (كسرى) هذا وبين وفد أرسله (النعمان) لمناظرته ومحاكمته فيما جرى الحديث عليه سابقاً بين الملكين^١ . وفي هذه الكتب أيضاً رأى (الشعوبين) في العرب ، وحججهم في تصغير شأن العرب وازدراؤهم لهم ، ورد الكتاب عليهم^٢ . وهي حجج لا تزال تقرأ بالعرب في بعض الكتب .

ومجمل ما نسب الى (كسرى) من مأخذ زُعم انه أخذها على العرب ، هو أنه نظر فوجد أن لكل أمة من الأمم ميزة وصفة ، فوجد للروم حظاً في اجتماع الألفة وعظم السلطان وكثرة المدائن ووثيق البنيان ، وأن لهم ديناً يبين حلالهم وحرامهم ويرد سفيهم ويقيم جاهلهم ، ورأى للهند، نحواً من ذلك في حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ودقيق حسابها وكثرة عددها . ووجد للصين كثرة صناعات أيديها وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً يجمعها ، وأن للترك والخزر ، على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلة الريف والثمار والحصون ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم . ولم يرَ للعرب ديناً ولا حزماً ولا قوة . همتهم ضعيفة بدليل سكنهم في بوادي قراء ، ورضائهم بالعيش البسيط ، والقوت الشحيح ، يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة . أفضل طعامهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها . « وإن قرى أحدهم ضيفاً عدتها مكرمة . وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم »^٣ . ثم إنهم مع قتلهم وفاقتهم وبؤس حالهم ، يفتخرون بأنفسهم ، ويتطاولون على غيرهم وينزلون أنفسهم فوق مراتب الناس^٤ . « حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين » ، وأبوا الإنقياد لرجل واحد منهم يسوسهم ويجمعهم .

١ بلوغ العرب (١٤٧/١) وما بعدها .

٢ البيان والتبيين (١٥/٣) فما بعدها ، العقد الفريد (٨٦/٢) ، فجر الاسلام (٣٥ / ١) بلوغ العرب (١٥٨/١) فما بعدها .

٣ بلوغ العرب (١٤٧/١) وما بعدها

٤ بلوغ العرب (١٤٨/١) .

إذا عاهدوا فقير وافين^١. سلاحهم كلامهم ، به يتفتنون ، وبكلامهم يتلاعبون . ليس لهم ميل إلى صنعة أو عمل ولا فن ، لا صبر لهم ، إذا حاربوا ووجدوا قوة أمامهم ، حاولوا جهدهم التغلب عليها ، أما إذا وجدوها قوة منظمة هربوا مشتين متبعثرين شراذم ، يخضعون لحكم الغريب ويهابونه ويأخذون برأيه فيهم ، ما دام قوياً ، ويقبلون بمن ينصبه عليهم ، ولا يقبلون بحكم واحد منهم ، إذا أراد أن يفرض سلطانه عليهم^٢ .

وقد ذكر أن أحد ملوك الهند كتب كتاباً إلى « عمر بن عبد العزيز » ، جاء فيه « لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة ، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والاصطرلاب الذي يعدل به النجوم ويدرك به الأبعاد ودوران الأفلاك وعلم الكسوف وغير ذلك من الآثار المتقنة ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ، ويقمع ظلمها وينهى سفيها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر . وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذي تفتخر به العرب على العجم فإنما هي كاللذائب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعض . فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فإذا أدركهن الصريخ استنفذن بالعشي ، وقد وطنن كما توطأ الطريق المهيع^٣ » . إلى آخر ذلك من كلام .

وقد تعرض « السيد محمود شكري الألوسي » في كتابه « بلوغ الأرب » ، لهذا الموضوع ، فجاء بما اقتبسته منه ، ثم جاء برأي « ابن قتيبة » على الشعوبية ، في كتابه : « كتاب تفضيل العرب » ، ثم أنهاه ببيان رأيه في هذه الآراء وفي رد « ابن قتيبة » عليها .

- ١ بلوغ الأرب (١٥٦/١) .
- ٢ راجع أصل المناظرة وحجج الشعوبيين في تفضيل الأعاجم على العرب ، ورد العرب عليهم ، بلوغ الأرب (١٤٧/١) وما بعدها .
- ٣ بلوغ الأرب (١٦٥/١) وما بعدها .
- ٤ بلوغ الأرب (١٤٧/١) فما بعدها .

ولابن خلدون رأي معروف في العرب ، خلاصته « أن العربي متوحش
نهّاب سلاب اذا أخضع مملكة أسرع اليها الخراب ، يصعب انقياده لرئيس ،
لا يجيد صناعة ولا يحسن علماً ولا عنده استعداد للاجادة فيها ، سليم الطباع ،
مستعد للخير شجاع »^١ . وتجدر آراءه هذه مدوّنة في مقدمته الشهيرة لكتابه العام
في التاريخ .

وقد رمى بعض المستشرقين العرب بالمادية وبصفات أخرى ، فقال « أوليري » :
« إن العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً ، ماديّ ، ينظر الى الأشياء نظرة مادية
وضيعة ، ولا يقوّمها إلا بحسب ما تنتج من نفع ، يمتلك الطمع مشاعره ،
وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ، لا يميل كثيراً الى دين ، ولا يكثر
بشيء إلا بقدر ما ينتج من فائدة عملية ، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى
ليثور على كل شكل من أشكال السلطة ، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده
في الحروب الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ولو كان
صديقاً حميماً له من قبل ، من أحسن اليه كان موضع نقمته ، لأن الاحسان
يثير فيه شعوراً بالخضوع وضعف المترلة وأن عليه واجباً لمن أحسن . يقول
لامانس « إن العربي نموذج الديمقراطية » ، ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها الى
حد بعيد ، وإن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحد من حريته ولو كانت في
مصلحته هي السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء
في تاريخ العرب ، وجهل هذا السر هو الذي قاد الأوروبيين في أيامنا هذه الى
كثير من الأخطاء ، وحملهم كثيراً من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها ،
وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هي التي تحول بينهم وبين سيرهم
في سبيل الحضارة الغربية ، ويبلغ حب العربي لحريته مبلغاً كبيراً ، حتى إذا
حاولت أن تحدّها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش في قفص ، وثار ثورة
جنونية لتعطيم أغلاله والعودة الى حريته . ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص ،
مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم يؤدي واجبات الضيافة والمخالفة في الحروب كما يؤدي
واجبات الصداقة مخلصاً في أداؤها بحسب ما رسمه العرف ... وعلى العموم ، فالذي

١ هذا تلخيص المرحوم احمد امين لراى ابن خلدون ، تجده في كتابه : فجر الاسلام
(٤١/١) .

يظهر لي أن هذه الصفات والخصائص أقرب أن تعد صفات وخصائص لهذا الطور من النشوء الاجتماعي عامة من أن تعد صفات خاصة لشعب معين ، حتى إذا قر العرب وعاشوا عيشة زراعية مثلاً ، تعدلت هذه العقلية ١ . ويوافق المستشرق (براون أوليري) في رمي العرب بالمادية المفرطة ٢ . ورماهم (أوليري) أيضاً بضعف الخيال وجمود العواطف ٣ .

أما (دوزي) فقد رأى أن بين العرب اختلافاً في العقلية وفي النفسية، وأن القحطانيين يختلفون في النفسية عن نفسية العدنانيين ٤ .

وقد تعرض (أحمد أمين) في الجزء الأول من (فجر الإسلام) للعقلية العربية ، وأورد رأي الشعبين في العرب ، ثم رأي (ابن خلدون) فيهم ، وتكلم على وصف المستشرق (أوليري) لتلك العقلية ، ثم ناقش تلك الآراء ، وأبان رأيه فيها وذلك في الفصل الثالث من هذا الجزء ، وتحدث في الفصل الرابع عن (الحياة العقلية للعرب في الجاهلية) . وخصص الفصل الخامس بـ (مظاهر الحياة العقلية) ، وتتجلى عنده في : اللغة والشعر والمثل والقصص . أوجز (أحمد أمين) في بداية الفصل الثالث آراء المذكورين في العرب، وبعد أن انتهى من عرضها وتلخيصها ناقشها بقوله : « لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا النوع من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، ويتزهمهم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي ، انما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتأريخه ككل أمة أخرى ، فالقول الذي يمثله الرأي الخاص لا يستحق مناقشة ولا جدلاً ، كذلك يخطئ الشعوية أصحاب القول الأول الذين كانوا يتطلبون من العرب فلسفة كفلسفة اليونان ، وقانوناً كقانون الرومان ، أو أن يمهروا في الصناعات كصناعة الديباج ، أو في المخترعات كالاصطربلاب ، فإنه إن كان يقارن هذه الأمم بالعرب في جاهليتها كانت مقارنة خطأ ، لأن المقارنة انما تصح بين أمم في طور واحد من الحضارة ، لا بين أمة

١ اقتباساً من فجر الإسلام (٣٩/١) فما بعدها .

٢ فجر الإسلام (٤١/١) .

٣ فجر الإسلام (٤٣/١) .

٤ Dozy, Gesch. d. Mauren in Spanien, Vol., I, S., 73, Muh. Stud., I, S. 89, Nallino. Raccolta, Vol., 3, P., 73.

متبديّة وأخرى متحضرة ، ومثل هذه المقارنة كمقارنة بين عقل في طفولته وعقل في كهولته ، وكل أمة من هذه الأمم كالفرس والروم مرت بدور بداوة لم يكن لها فيه فلسفة ولا مخترعات . أما إن كان يقارن العرب بعد حضارتها ، فقد كان لها قانون وكان لها علم وإن كان قليلاً ..^١ ثم استمر يناقش تلك الآراء إلى أن قال : فلنقتصر الآن على وصف العربي الجاهلي^٢ ، فوصفه بهذا الوصف :

« العربي عصبي المزاج ، سريع الغضب ، يهيج للشيء النافه ، ثم لا يقف في هياجه عند حد ، وهو أشد هياجاً إذا جرحت كرامته ، أو انتهكت حرمة قبيلته . وإذا احتاج ، أسرع إلى السيف ، واحتكم إليه ، حتى أفتتهم الحروب ، وحتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم اليومية المعتادة .

« والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء ، وفي الحق أن العربي ذكي ، يظهر ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والاشارة البعيدة ، كما يظهر في حضور بديته ، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بحسن الجواب ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر ، فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة ، فيبهرك تغننه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى ، وإن شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله .

« خياله محدود وغير متنوع ، فقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحياة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف (المثل الأعلى) ، لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم بشر إليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعري في عالم جديد يستقي منه معنى جديداً ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب .

« أما ناحيتهم الخلقية ، فبيل إلى حرية قل أن يحدّها حد ، ولكن الذي فهموه من الحرية هي الحرية الشخصية لا الإجتماعية ، فهم لا يدينون بالطاعة لرئيس ولا حاكم ، تأريخهم في الجاهلية - حتى وفي الإسلام - سلسلة حروب داخلية وعهد عمر بن الخطاب كان عصرهم الذهبي ، لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية بحروب خارجية ، ولأنه ، رضي الله عنه ، منح فهماً عميقاً ممتازاً لنفسية العرب .

١ فجر الاسلام (١/٤٠) فما بعدها .

٢ فجر الاسلام (١/٤٣) .

« والعربي يحب المساواة ، ولكنها مساواة في حدود القبيلة ، وهو مع حبه للمساواة كبير الاعتداد بقبيلته ثم بجنسه ، يشعر في أعماق نفسه بأنه من دم ممتاز ، لم يؤمن بعظمة الفرس والروم مع ما له ولهم من جذب وخصب وفقر وغنى وبداءة وحضارة ، حتى إذا فتح بلادهم نظر اليهم نظرة السيد الى المسود »^١ .

ثم خلص الى أن العرب في جاهليتهم كان أكثرهم بدواً ، وأن طور البداءة طور اجتماعي طبيعي تمر به الأمم في اثناء سيرها الى الحضارة ، وأن لهذا الطور مظاهر عقلية طبيعية ، تتجلى في ضعف التعليل ، وغنى بذلك عدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب فهماً تاماً ، « يمرض أحدهم ويألم من مرضه ، فيصفون له علاجاً ، فيفهم نوعاً ما من الارتباط بين الدواء والداء ، ولكن لا يفهمه فهم العقل الدقيق الذي يتفلسف ، يفهم ان عادة القبيلة أن تتناول هذا الدواء عند هذا الداء ، وهذا كل شيء في نظره ، لهذا لا يرى عقله بأساً من أن يعتقد ان دم الرئيس يشفي من الكلب ، أو ان سبب المرض روح شرير حل فيه فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، أو انه اذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقدار وعظام الموتى الى كثير من أمثال ذلك ، ولا يستنكر شيئاً من ذلك ما دامت القبيلة تفعله ، لأن منشأ الإستنكار دقة النظر والقدرة على بحث المرض وأسبابه وعوارضه ، وما يزيل هذه العوارض ، وهذه درجة لا يصل اليها العقل في طوره الأول »^٢ .

ثم أورد أمثلة للاستدلال بها على ضعف التعليل ، مثل قولهم بخراب سدّ مأرب بسبب جرذان مُحَرَّر ، ومثل قصة قتل النعمان لسِنَمَار بسبب آجرّة وضعها سِنَمَار في أساس قصر الحورنق ، لو زالت سقط القصر .

ثم تحدث عن مظهر آخر من مظاهر العقلية العربية ، لاحظته بعض المستشرقين ووافقهم هو عليه ، هو : ان طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس في استطاعتها ذلك . فالعربي لم ينظر الى العالم نظرة عامة شاملة كما فعل اليوناني ، بل كان يطوف فيها حوله ، فإذا رأى منظرأً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاس صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر أو الحكمة أو

١ فجر الاسلام (٤٤/١) فما بعدها .

٢ فجر الاسلام (٤٦/١) .

المثل . « فأما نظرة شاملة وتحليل دقيق لأسسه وعوارضه فذلك ما لا يتفق والعقل العربي . وفوق هذا هو اذا نظر الى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه ، فهو اذا وقف أمام شجرة ، لا ينظر اليها ككل ، انما يستوقف نظره شيء خاص فيها، كاستواء ساقها أو جمال أغصانها ، واذا كان أمام بستان، لا يحيطه بنظره، ولا يلتقطه ذهنه كما تلتقطه (الفوتوغرافيا) ، انما يكون كالنحلة ، يطير من زهرة الى زهرة ، فيرتشف من كل رشفة . الى ان قال : « هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف ما ترى في أدب العرب — حتى في العصور الإسلامية — من نقص وما ترى فيه من جمال » .

وقد خلص من بحثه ، الى أن هذا النوع من النظر الذي نجده عند العربي ، هو طور طبيعي تمر به الأمم جميعاً في أثناء سيرها الى الكمال ، نشأ من البيئات الطبيعية والاجتماعية التي عاش فيها العرب ، وهو ليس إلا وراثته لتنتج هذه البيئات ، « ولو كانت هنالك أية أمة أخرى في مثل بيئاتهم ، لكان لها مثل عقليتهم ، وأكبر دليل على ذلك ما يقرره الباحثون من الشبه القوي في الأخلاق والعقليات بين الأمم التي تعيش في بيئات متشابهة أو متقاربة ، واذا كان العرب سكان صحارى ، كان لهم شبه كبير بسكان الصحارى في البقاع الأخرى من حيث العقل والخلق »^١ .

أما العوامل التي عملت في تكوين العقلية العربية وفي تشكيلها بالشكل الذي ذكره ، فهي عاملان قويان . هما : البيئة الطبيعية . وعنى بها ما يحيط بالشعب طبيعياً من جبال وأنهار وصحراء وغير ذلك ، والبيئة الاجتماعية ، وأراد بها ما يحيط بالامة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك . وليس أحد العاملين وحده هو المؤثر في العقلية .

وحصر أحمد أمين مظاهر الحياة العقلية في الجاهلية في الأمور التالية : اللغة والشعر والأمثال والتقصص . وتكلم على كل مظهر من هذه المظاهر وجاء بأمثلة استدلل بها ما ذهب اليه .

والحدود التي وضعها أحمد أمين للعقلية العربية الجاهلية ، هي حدود عامة ،

١ فجر الاسلام (٦٦) وما بعدها) .

جعلها تنطبق على عقلية أهل الوبر وعقلية أهل المدر ، لم يفرق فيها بين عقلية من عقلية الجماعين . وقد كونها ورسمها من دراساته لما ورد في المؤلفات الإسلامية من أمور لها صلة بالحياة العقلية ومن مطالعته لما أورده (أوليري) (وبراون) وأمثالها عن العقلية العربية ، ومن آرائه وملاحظاته لمشكلات العالم العربي ولوضع العرب في الزمن الحاضر . والحدود المذكورة هي صورة مقاربة مع الصورة التي يرسمها العلماء المشتغلون بالسامية عادة عن العقلية السامية، وهي مثلها أيضاً مستمدة من آراء وملاحظات وأوصاف عامة شاملة، ولم تستند الى بحوث علمية ودراسات مختبرية ، لذا فأنني لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلته بالنسبة الى تحديد العقلية السامية ، من وجوب التريث والاستمرار في البحث ومن ضرورة تجنب التعميم والاستعجال في اعطاء الأحكام .

وتقوم نظرية أحمد أمين في العقلية العربية على أساس أنها حاصل شيئين وخلاصة عاملين ، أثرا مجتمعين في العرب وكونا فيها هذه العقلية التي حددها ورسم معالمها في النعوت المذكورة . والعاملان في رأيه هما: البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية: وعنى بالبيئة الطبيعية ما يحيط بالشعب طبعياً من جبال وأنهار وصحراء ونحو ذلك ، وبالبيئة الاجتماعية ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك . وهما معاً مجتمعين غير منفصلين ، أثرا في تلك العقلية . ولهذا رفض أن تكون تلك العقلية حاصل البيئة الطبيعية وحدها ، أو حاصل البيئة الاجتماعية وحدها . وخطأ من أنكر أثر البيئة الطبيعية في تكوين العقلية ومن هنا انتقد (هيكلم) (Hegel) ، لأنه أنكر ما للبيئة الطبيعية من أثر في تكوين العقلي اليوناني ، وحججه (هيكلم) أنه لو كان للبيئة الطبيعية أثر في تكوين العقلية ، لبان ذلك في عقلية الأتراك الذين احتلوا أرض اليونان وعاشوا في بلادهم ، ولكنهم لم يكتسبوا مع ذلك عقلهم ولم تكن لهم قابلياتهم ولا ثقافتهم . ورد (أحمد أمين) عليه هو أن ذلك يكون صحيحاً لو كانت البيئة الطبيعية هي المؤثر الوحيد ، إذن لكان مثل العقل اليوناني يوجد حيث يوجد اقليمه ، وينعدم حيث ينعدم ، أما والعقل اليوناني نتيجة عاملين ، فوجود جزء العلة لا يستلزم وجود المعلوم ١ .

١ فجر الاسلام (٥٢ فما بعدها) .

وأثر البيئة الطبيعية في العرب ، أنها جعلت بلادهم بقعة صحراوية تصهرها الشمس، ويقل فيها الماء ، ويحجب الهواء ، وهي أمور لم تسمح للنبات أن يكثر، ولا للمزروعات أن تنمو ، إلا ككلاً مبعثراً هنا وهناك ، وأنواعاً من الأشجار والنبات مفرقة استطاعت أن تتحمل الصيف القاسئ ، والجو الجاف ، فهزلت حيواناتهم ، ونحلت أجسامهم ، وهي كذلك أضعفت فيها حركة المرور ، فلم يستطع السير فيها إلا الجمل ، فصعب على المدنيين المجاورة من فرس وروم أن تستعمر الجزيرة ، وتفويض عليها من ثقافتها ، اللهم إلا ما تسرب منها في مجار ضيقة معوجة عن طرق مختلفة .

وأثر آخر كان لهذه البيئة الطبيعية في العرب، هو أنها أثرت في النفوس فجعلتها تشعر أنها وحدها تجاه طبيعة قاسية ، تقابلها وجهاً لوجه، لا حول لها ولا قوة ، لا مزروعات واسعة ، ولا أشجار باسقة ، تطلع الشمس فلا ظل ، ويطلع القمر والنجوم فلا حائل ، تبعث الشمس أشعتها المحرقة القاسية فتصيب أعماق نخاعه ، ويسطح القمر فيرسل أشعته الفضية الراحلة فتبهز لبسه ، وتتألق النجوم في السماء. فتملك عليه نفسه ، وتعصف الرياح العاتية فتدمر كل ما أتت عليه . أمام هذه الطبيعة القوية ، والطبيعة الجميلة ، والطبيعة القاسية ، تهرع النفوس الحساسة الى رحمن رحيم ، والى بارئ مصور والى حفيظ مغيث - الى الله - . ولعل هذا هو السر في أن الديانات الثلاث التي يدين بها أكثر العالم ، وهي اليهودية والنصرانية والإسلام نبتت من صحراء سيناء وفلسطين وصحراء العرب^١ .

والبيئة الطبيعية أيضاً ، هي التي أثرت - على رأيه - في طبع العربي ، فجعلته كثيراً صامداً يغلب عليه الوجد ، موسيقاه ذات نغمة واحدة متكررة عابسة حزينة ، ولغته غنية بالألفاظ ، إذا كانت تلك الألفاظ من ضروريات الحياة في المعيشة البدوية ، وشعره ذو حدود معينة مرسومة ، وقوانينه تقاليد القبيلة وعرف الناس ، وهي التي جعلته كريماً على فقره ، يبذل نفسه في سبيل الدفاع عن حمى قبيلته . كل هذه وأمثالها من صفات ذكرها وشرحها هي في رأيه من خلق هذه البيئة الطبيعية التي جعلت لجزيرة العرب وضعاً خاصاً ومن أهلها جماعة امتازت عن بقية الناس بالميزات المذكورة .

١ فجر الاسلام (٥٤) فما بعدها .

وقد استمر (أحمد أمين) ، في شرح أثر البيئة الطبيعية في عقلية العرب وفي مظاهر تلك العقلية التي حصرها كما ذكرت في اللغة والشعر والأمثال والقصص ، حتى انتهى من الفصول التي خصصها في تلك العقلية . أما أثر البيئة الاجتماعية التي هي في نظره شريكة البيئة الطبيعية في عملها وفعلها في العقلية الجاهلية وفي كل عقلية من العقليات ، فلم يتحدث عنه ولم يشر الى فعله ، ولم يتكلم على أنواع تلك البيئة ومقوماتها التي ذكرها في أثناء تعريفه لها ، وهي : « ما يحيط بالأمة من نظم اجتماعية كنظام حكومة ودين وأسرة ونحو ذلك » ، ثم يخلص من بحثه عن العقلية العربية وعن مظاهرها وكأنه نسي ما نسبته الى العامل الثاني من فعل ، بل الذي رأيت وفهمته من خلال ما كتبه انه أرجع ما يجب ارجاعه الى عامل البيئة الاجتماعية - على حد قوله - الى فعل عامل البيئة الطبيعية وأثرها في عقلية العرب الجاهليين . وهكذا صارت البيئة الطبيعية هي العامل الأول الفعال في تكوين تلك العقلية ، وحرمتنا بذلك من الوقوف على أمثلته لتأثير عامل البيئة الاجتماعية في تكوين عقلية الجاهليين .

وأعتقد ان (أحمد أمين) لو كان قد وقف على ما كتب في الألمانية أو الفرنسية أو الانكليزية عن تأريخ اليمن القديم المستمد من المسند ، ولو كان قد وقف على ترجحات كتابات المسند أو الكتابات الشمودية والصفوية والحيانية ، لما كان قد أهمل الإشارة الى أصحاب تلك الكتابات ، ولعدل حتماً في حدود تعريفه للعقلية العربية ، ولأفرز صفحة أو أكثر الى أثر طبيعة أرض اليمن وحضرموت في عقلية أهل اليمن وفي تكوين حضارتهم وثقافتهم ، فإن فيما ذكره في فصوله عن العقلية العربية الجاهلية ما يجب رفعه وحذفه بالنسبة الى أهل اليمن وأعالي الحجاز .

ونجد في كتاب (جزيرة العرب في القرن العشرين) لحافظ وهبة فصلاً بعنوان (السكان) ، وردت فيه ملاحظات كيسة عن عقلية الحضرة وعقلية البدو في المملكة العربية السعودية وفي بعض المناطق المجاورة لها في الزمان الحاضر. وهذه الملاحظات وان كانت تتعلق بعرب هذا اليوم ، الا أنها مع ذلك ذات فائدة ومنفعة لفهم العقلية الجاهلية، فالزمان وان تباعد بين عرب الجاهلية وعرب القرن العشرين، الا ان الخصائص العقلية لأكثر أهل البادية المنعزلين عن عالمهم الخارجي لا تزال هي هي ، لم تتغير في كثير من الأمور ، بل خد من تسميهم (الحضر)

أو العرب المستقرين في جزيرة العرب ، فإن البعيدين منهم عن الأماكن التي لها اتصال بالعالم الخارجي وبالأجانب لا يزالون يحتفظون بكثير من خصائص عقلية حضر اليمن أو الحجاز عند ظهور الإسلام . ومن هنا تفيدنا ملاحظات (حافظ وهبة) هذه وملاحظات غيره من أذكاء العرب والسياح والخبراء الأجانب ، فائدة كبيرة في التعرف على أسس تفكير العرب قبل الإسلام .

وفي حديث (حافظ وهبة) عن طباع الحضر أشار الى اختلاف طباعهم باختلاف أماكنهم ، فقال : « والحضر تختلف طباعهم باختلاف المناطق التي يعيشون فيها ، وظروف الحياة التي تحيط بهم فأهل حائل أقرب مظهراً الى البداوة . وأهل مكة والمدينة واليمن العالية أبعد مظهراً عن البداوة من البلاد الأخرى العربية ، وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض ، لأنهم كثير و الاختلاط والتعامل مع البلاد الأخرى كالشام وفلسطين ومصر ، ولذا فترى موظفي ديوان الملك المكلفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم أو حائل .

وأهل الرياض أرقى بكثير من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا بلادهم ، ولم يعرفوا شيئاً عن أحوال العالم الخارجي ' .

وأشار إلى تنافس الحضر والى تفاخرهم وتفضيل أنفسهم بعضهم على بعض في الشتمات والعادات وحتى في اللهجات .

ومن طباع الحضري ، كما يقول « حافظ وهبة » « الخلق التجاري » ، وهم يتباينون في ذلك أيضاً بتباين أماكنهم ، « فأهل القصيم والزلفى وشقرا ، أنشط من أهل نجد في التجارة . فقوافلهم تقصد سائر الجهات العربية ، وتجارهم كثيراً ما يسافرون الى الهند ومصر في سبيل التجارة ، والتجار التجديون المعروفون في الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد » . « أما أهل الكويت ، فنشاطهم في التجارة البحرية ... ويغلب على حضر الجزيرة - وعلى الأخص أهل خليج فارس - التعاون التجاري سواء بين الأهالي بعضهم مع بعض أو بين الأمراء والأهالي » ٢ .

أما طباع البداوة، وهي طباع تختلف عن طباع أهل المدن فقد وصفها بقوله:

١ حافظ وهبة (ص ٧) .

٢ المصدر نفسه (ص ٨ فما بعدها)

« أما البدو ، فهم القبائل الرحل المتنقلون من جهة الى أخرى طلباً للمرعى أو الماء ، والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة ، وحياة البدوي حياة شاقة مضيئة ، ولكنه وهو متمتع بأكبر قسط من الحرية يفضلها على أي حياة مدنية أخرى . هذه الحياة الخشنة هي التي جعلت القبائل يتقاتلون في سبيل المرعى والماء ، وهي التي جعلت سوء الظن يغلب على طباعهم ، فالبدو ينظر الى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى .

« إن البدوي في الصحراء لا يهتم إلا المطر والمرعى ، فأزمته الحقيقية انحباس المطر وقلة المرعى ولا يبالي بما يصيب العالم في الخارج ما دامت أرضه مخضرة ، وبغيره سميئاً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحمًا .

« أما إذا تما السكان وضائق بهم الأرض او لم تجد اراضيهم بالمرعى، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقتال ، أو الهجرة إن كان هناك سبيل إليها ، وكذلك القبيلة التي غلبت على أمرها وحرمت من مراعيها وأراضيها ليس أمامها سبيل آخر سوى الهجرة .

« لقد كان البدو قبل ثلاثين سنة في غارات وحروب مستمرة ، كل قبيلة تنتهز الفرص للإغارة على جاراتها لنهب مالها ، وتعدد الإمارات وتشاحن الأمراء وتخاصمهم مما يشجع البدوي .

« ولهذا كان للقبيلة قيمتها في بلاد العرب، فالإنسان يقوى بأبنائه وأبناء عمومته الأقربين والأبعدين ، وإذا كانت العvisية ضعيفة أمكن تقوية القبيلة بالتحالف مع سواها حتى يقوى الفريقان وبأمننا شر غيرهما من القبائل القوية .

« وقد جرى العرف ان القبائل تعتبر الأرض التي اعتادت رعيها، والمياه التي اعتادت أن تردها ملكاً لها ، لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدخول منها الا بإذنها ورضاهها، وكثيراً ما تأنس إحدى القبائل من نفسها القوة فتهاجم بلا سابق انذار على قبيلة أخرى ، وتتزع منها مراعيها ومياهها .

« إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل ، فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا ، كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في أيدي الناس .

« ليس للبدو قيمة حرية تذكر ، ولذا كان اعتماد الأمراء على الخضر ، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه . وكثيراً ما كان البدو

شراً على الأمير المصاحبين له ، فإن ذلك الأمير اذا ما بدت الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ويحتجون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين » ١ .
« والبدوي إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ، ويخضع غيره بها . على أن لهؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها ، فالقوافل التي تمر بأرض قبيلة وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب ، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستتم بأرضها ويسمون هذا رقيقاً .

والبدوي يحتقر الحضري مهما أكرمه ، كما ان الحضري يحقر البدوي ، فإذا وصف البدوي الحضري ، فانه في الغالب يقول حُضيري تصغيراً لشأنه .
ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء ، وانتقاد ما يراه مخالفاً للوقه أو لعادته بكل صراحة ، فإذا مرت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من أين أنت قادم ؟ وعن وراءك من المشايخ والحكام ؟ وعن المياه التي مررت بها ؟ وعن أخبار الأمطار والمراعي ؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة ؟ وعن في البلد من القبائل ؟ وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض .

ومع أن البدو قد اعتادوا النهب والسلب ، فإنهم كثيراً ما يعفون عن أهل العلم خوفاً من غضب الله عليهم ، وبعض البدو لا يحلف كاذباً مهما كانت النتيجة . والبدوي ينكر إذا وجد مجالاً للإنكار ، ويفلت بمهارة من الاجابة عما يسأل ، ولكن إذا وجه له اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه إذا كان مذنباً ، ولا يحلف كاذباً » .

« وليس أعدل من البدوي في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تجريباً للعدل ، ويقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص أو السروال ، كل هذا إرضاءً لضمايرهم ودفعاً للظلم ، إنهم يعرفون الخيام حق المعرفة لأنها بيوتهم التي يعيشون فيها ، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاةً للعدل ، أما الإبل والغنم فإنهم يقسمونها اذا أمكن القسمة أو يقومونها بضمن اذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة » .
« والبدو لا يفهمون الحياة حق الفهم كما يفهمها الحضري ، لا يفهمون

١ وهبة (ص ١١ فما بعدها) .

البيوت وهندستها ، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية ، حتى ان البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين في الثورة العربية كان عملهم بعد الإستيلاء على الطائف نزع خشب النوافذ والأبواب ، لا لبيعها والانتفاع بثمنها ، بل لاستعمالها وقوداً اما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة ، وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً ، فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل في ثكنة جَرُوكْ ، اكتشفت الحكومة ان النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج، وانها استعملت للطبخ وتحضير القهوة ، فأخرجهم جلالة الملك تواء من الثكنة ، وأسكن الحضر فيها ، والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه جهلة البدو عن النوافذ والأبواب .

« وللبدو مهارة فائقة في اقتفاء الأثر ، وكثيراً ما كانت هذه المعرفة سبباً في اكتشاف كثير من الجرائم ولا تكاد تخلو قبيلة من طائفة منهم .

« والقبائل العربية المشهورة من حضر وبادية تحافظ على أنسابها تمام المحافظة وتحرص عليها كل الحرص ، فلا تصاهر الا من يساويها في النسب ، والقبائل المشكوك في نسبها لا يصاهرها أحد من القبائل المعروفة .

« أما حكام العرب، فيترفعون عن سائر الناس حضرهم وبدوهم، لا يزوجون بناتهم الا لقرباهم . أما هم فيتزوجون من يشاءون ، وطبقات الحكام يترفع بعضها على بعض : الأشراف يرون أنفسهم أرفع الخلق بنسبهم ، وآل سعود يرون أنفسهم أرفع من الأشراف ، وأرفع من سواهم من حكام العرب الآخرين ،^١ .

« وهنا ترى الروح الصحيحة البدوية التي لا تملك شروى نقيض ترفض الزواج من غني ، لأنه ابن صانع ، أو انه من سلالة العبيد ، أو لأن نسبه القبلي يحيط به شيء من الشك ، فسلطان المال لا قيمة له عند العرب . ومع وجود هذه الروح الأرستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم، فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى .

ومن عادة القسم الأكبر من سكان الجزيرة ، ولا سيما البدو ، مخاطبة رؤسائهم بأسمائهم أو بألقابهم ، لأنهم لا يعرفون الألقاب وألفاظ التعظيم والتفخيم، فيقولون يا فلان ويا أبا فلان ويا طويل العمر .

١ هبة (ص ١٣ فما بعدها) .

ولا يزال العربي الصريح ينظر الى الحِرَف والمِهَن نظرة ازدراء ، والى المشتغل بها نظرة احتقار وعدم تقدير .
والبدوي ، لا ينسى المعروف ، ولكنه لا ينسى الإساءة كذلك ، فإذا أُسيء اليه ، ولم يتمكن من رد الإساءة في الحال ، كظم حقه في نفسه ، وثرى بص بالمسيء حتى يجد فرصته فينتقم منه . فذاكرة البدوي ، ذاكرة قوية حافظة لا تنسى الأشياء .

فترى من هذه الملاحظات أن كثيراً من الطبائع التي تطبع بها عرب الجاهلية ما زالت باقية ، وبينها طبائع نهى عنها الإسلام وحرمتها ، لأنها من خلال الجاهلية ، ومع ذلك احتفظ بها البدوي وحافظ عليها حتى اليوم ، وسبب ذلك أن من الصعب عليه نبذ ما كان عليه آباؤه وأجداده من عادات وتقاليد . فالتقاليد والعرف وما تعارف عليه القبيلة هي عنده قانون البداوة . وقانون البداوة دستور لا يمكن تخطيه ولا مخالفته ، ومن هنا يخطيء من يظن أن البداوة حرية لا حد لها ، وفوضى لا يردعها رادع ، وأن الأعراب فرديون لا يخضعون لنظام ولا لقانون على نحو ما يتراءى ذلك للحضري أو للغريب . أنهم في الواقع خاضعون لعرفهم القبلي خضوعاً صارماً شديداً ، وكل من يخرج على ذلك العرف يطرد من أهله ويترك قومه منه ، ويضطر أن يعيش (طريداً) أو (صعلوكاً) مع بقية (صعاليك) .

العرب والعربي رجل جاد صارم ، لا يميل الى هزل ولا دعابة ، فليس من طبع الرجل أن يكون صاحب هزل ودعابة ، لأنها من مظاهر الخفة والحمق ، ولا يليق بالرجل أن يكون خفيفاً . ولهذا حذر في كلامه وتشدد في مجلسه ، وقل في مجتمعه الإسفاف . وإذا كان مجلس عام ، أو مجلس سيد قبيلة ، روعي فيه الإحتشام ، والابتعاد عن قول السخف ، والإستهزاء بالآخرين ، وإلقاء النكات والمضحكات ، حرمة لأداب المجالس ومكانة الرجال .

وإذا وجدوا في رجل دعابة أو ميلاً الى ضحك أو اضحاك ، عابوا ذلك الرجل وانتقصوا من شأنه كائناً من كان ، وعبرة مثل « لا عيب فيه غير أن فيه دعابة » أو « لا عيب فيه الا أن فيه دعابة » ، هي من العبارات التي تعبّر عن الانتقاص والهمز واللمز .

والبدوي محافظ متمسك بحياته وبما قدر له ، معتر بما كتب له وإن كانت

حياته خشونة وصعوبة ومشقة . ومن هذه الروح المسيطرة عليه ، بقي هو هو ، لا يريد تجديدًا وتطويرًا ، الا اذا أكرهه على التجديد والتغيير والتبديل ، فهنا فقط ينحضع لقانون (القوة) ، وهو لا يسلم له الا بعد مقاومة، والا بعد شعوره بضعفه وبعدم قابليته على المقاومة ، فيقبل الأمر الواقع مستسلمًا، ومع ذلك يبقى متعلقًا بما فيه ، يحاول جهد امكانه التمسك به ، ولو بإلباسه ثوبًا جديدًا . وفي القرآن الكريم آيات بينات فيها تقريع وتعنيف للأعراب ، ووصف لحياتهم النفسية . فيها أن الأعرابي محافظ لا يقبل تجديدًا ، ولا يرضى بأي تغيير كان لا يتفق وسنة الآباء والأجداد ، ومنطقه في ذلك : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا »^١ ، « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون »^٢ .

ولهذا لا نجد البدو يؤمنون بسنة التقدم والنشوء والارتقاء . فالبدوي يعيش أبدًا كما عاش آباؤه وأجداده ، مساكنه بيوت الشعر ، وهي لا تحميه ولا تقيه من أثر أشعة الشمس المحرقة ولا من العواصف والأمطار ، ومع ذلك لا يستبدلها بيتًا آخر ، ولا يفكر في تحسين وضعه وتغيير حاله : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » . وليس من الممكن أن تقوم في هذه البادية ثقافة غير هذه الثقافة الصحراوية الساذجة ، ما دام البدوي مستسلمًا مسلمًا نفسه للطبيعة ولحكم القدر ، وهو استسلام اضطر الى الخضوع له والإيمان بحكمه ، بحكم عمل الطبيعة القاسية فيه منذ آلاف السنين .

وكيف يغير حاله ، وليس في البادية ما يساعده على تغيير الحال ، ليس فيها ماء كاف ولا شجر نام ولا أمطار وخضرة ، فهو يعيش على كرم الطبيعة ورحمتها . أما اذا تكاثرت عدده ، وزاد عدد خيام القبيلة ، اضطرت الى التنقل الى مكان آخر ، أحسن وأنسب من المكان القديم . وهكذا صار دائماً في تنقل من مكان الى مكان .

وتحمس الأعراب وأشباه الحضر في دفاعهم عن العرف ، ليس عن بلادة وغباء وشعور بضعف في الكفايات ، كلا فللبدوي ذكاء وقاد وفطنة وكفاية وموهبة ، وهو إذ يقاوم التغيير والتبدل والتجدد ، لا يقاومه عن غباء وبلادة

١ المائدة ، الآية ١٠٤ .

٢ الزخرف ، الآية ٢٣ .

وعن شعور بضعف تجاه تقبل الحياة الجديدة ، وإنما يقاومه لأنه يشعر عن غريزة فيه أن حياته أفضل وأن البسداوة حرية وانطلاق وعدم تقيد ، وأن التطور إن لم يأت منه ، فهو شر وبلاء ، وأن كيانه مرتبط بتقاليده ، وأن وجوده من وجود آبائه وأجداده ، فهو إن انحرف عن عرفه عرض نفسه وأهله وقبيلته وكل وجود قومه للهلاك ، فهو لذلك يرفض كل تجديد وتغيير وإن بدا لنا أو له أنه لمصلحته ، لغريزة طبيعية فيه وفي كل انسان ، هي غريزة المحافظة على البقاء ، فخوفه من تعرض تقاليده وكيانه للخطر ، هو الذي جعله محافظاً شديد التمسك بالعرف والعادة . أما إذا شعر هو أو أشعر من طريق غير مباشر بفائدة التطور والتغيير وبما سيأتيه من نفع وريح ، ولا سيما إذا لم يكن في التغيير ما يعارض عرفه ولا يناقض تقاليده ، فإنه يتقبله ويأخذه ، ويظهر مقدرة ومهارة فيسه ، حتى في الأمور الفنية الحديثة الغربية عنه . ويروي خبراء شركات البترول كثيراً من القصص عن مقدار براعة البدو وحذقهم في إدارة الآلات والأعمال التي وكلت اليهم . وهناك شهادات أخرى مماثلة وردت من جهات فنية أخرى . ولو تبنياً لهؤلاء البدو مرشدون وخبراء عقلاء كيسون لهم علم بنفسياتهم ، ولو عرفت الحكومات العربية عقلياتهم ومشكلاتهم ، لكان في الامكان تحويلهم الى ثروة نافعة لا تقدر بثمن ، ولتجنبنا بذلك المشكلات التي تواجهها منهم^١ .

حتى الطب ، هو في البادية طب بدوي متوارث لا يتغير ولا يتبدل ، يقوم على المداواة بتجارب (العارفة) في الطب . ولا يطمئن الاعرابي الى طب أهل الحضر ، مهما فتكت به الأمراض وأنزلت به من آلام ، ذلك لأن طب أهل الحضر هو طب غريب عليه بعيد عنه ، فهو لذلك لا يطمئن اليه . اللهم إلا اذا أقبل عليه رؤساؤه وساداته ، أو أقنع بمنطقه وبطريقة إدراكه هو للأمور أن في الدواء الذي يداوى به شفاءً لمرضه ، وعندئذ يقبل عليه ثم يزيد اقباله عليه ، حتى يكون مألوفاً عنده ، بل يقوم في مثل هذه الحالات باختزان ما يمكن اختزانه من الدواء للمستقبل من غير أن يفكر في كيفية خزنه ، أو في المدة المقدرة لعمر ذلك الدواء ، وتلفه بعد انقضائها .

ووصف الأعراب في القرآن الكريم بالغلظة والجفاوة وبعدم الادراك وبالنفاق

١ جان جاك بيرلي : جزيرة العرب (ص ١٠٢) .

وبالتظاهر في اللسان بما يخالف ما في الجنان : « قالت الأعراب : آمنا ، قل ، لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمانُ في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله ، لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم » ١ .
« ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدُّوا على النفاق ، لا تعلمهم ، نحن نعلمهم ، سنُعذبهم مرتين ، ثم يردُّون إلى عذاب عظيم » ٢ .

فالأعرابي « البدوي » إنسان لا يعتمد عليه، مسلم ومع ذلك يتربص بالمسلمين الدوائر ، فإذا خذل المسلمون في معركة ، أو شعر بضعف موقفهم خذلهم وانقلب عليهم ، أو اشترط شروطاً ثقيلة عليهم ، بحيث يجد فيها مخرجاً له ليخلص نفسه من الوضع الحرج الذي أصاب المسلمين . فلا يكلف نفسه ، ولا يخشى من مصير سيء ينتظره إن غلب المسلمون . « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم » ٣ ، والأعرابي لم يُسَلِّمْ في الغالب عن عقيدة وعن فهم ، إنما أسلم لأن رئيسه قد أسلم فسيئد القبيلة إذا آمن وأسلم ، أسلمت قبيلته معه . وقد دخلت قبائل برمتها في النصرانية للدخول سيئدها فيها . وقد وردت في سورة الحجرات هذه الآيات في وصف بعض الأعراب : « قالت الأعراب آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا . إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون ، الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل أتعلَّمون الله بدينكم ؛ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض . والله بكل شيء عليم . يمتنون عليك أن أسلموا . قل لا تمتدوا عليّ لإسلامكم ، بل الله يمتن عليكم ، أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » ٤ .

وقد استثنى القرآن الكريم بعض الأعراب مما وصهم به من الكفر والنفاق والتربص وانتهاز الفرص فنزل الوحي فيهم : « ومن الأعراب من يؤمن بالله

-
- ١ سورة الحجرات الآية ١٤ .
 - ٢ سورة التوبة ، الآية ١٠١ .
 - ٣ سورة التوبة الآية ٩٧ وما بعدها .
 - ٤ سورة الحجرات الآية ١٤ وما بعدها .

واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم ١ .

وقد وصف الأعراب بالغلظة والخشونة ، فقيل : أعرابي قَحْ ، وأعرابي جلجف ، وما شاكل ذلك . وفي الحديث (من بدا جفا) ، أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب ٢ .

وذكر أن الرسول وصفه (سراقه) وهو من أعراب (بني مدلج) بقوله : « وان كان أعرابياً بوّالاً على عقبيه » ٣ . وأنه نعت (عَيْسَنَة بن حصن) قائد (غطفان) يوم الأحزاب بـ (الأحمق المطاع) ٤ . « وكان دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، بغير إذن ، فلما قال له أين الاذن ؟ قال ما استأذنت على مضربي قبلك . وقال : ما هذه الحميراء معك يا محمد ؟ فقال : هي عائشة بنت أبي بكر . فقال : طلقها وانزل لك عن أم البنين . في أمور كثيرة تذكر من جفائه . أسلم ثم ارتد وآمن بطليحة حين تنبأ وأخذ أسيراً فأثني به أبو بكر ، رضي الله عنه ، أسيراً فنّ عليه ولم يزل مظهراً للإسلام على جفوته وعنجهيته ولوثه أعرابيته حتى مات » .

وذكر ان « الأعرابي اذا قيل له يا عربي فرح بذلك وهش » ، والعربي اذا قيل له يا أعرابي غضب ٥ . وذلك لإزدراء العرب الأعراب ، ولارتفاعهم عنهم في العقل وفي الثقافة والمترلة الإجتماعية .

وهذه الصفات التي لا تلائم الحضارة ولا توائم سنن التقدم في هذه الحياة ، هي التي حملت الإسلام على اعتبار (التبدي) أي (التعرب) بعد الهجرة ردّة على بعض الأقوال وعلى النهي عن الرجوع الى البادية والعيش بها عيشة أعرابية . فلما خرج (أبوذر) الى الربرة قال له عثمان بن عفان : « تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً » . فكان « يختلف من الربرة الى المدينة مخافة الأعرابية » ٦ . ولما وصل

-
- ١ سورة التوبة الآية ٩٩
 - ٢ الفاخر (ص ٦٥) ، بلوغ الارب (٣ / ٤٢٥) .
 - ٣ الروض الانف (٦ / ٢) .
 - ٤ الروض الانف (٢ / ١٨٨) .
 - ٥ تاج العروس (٣ / ٣٣٤) ، « الكويت » .
 - ٦ الطبري (٤ / ٢٨٤) .

(عبدالله بن مسعود) الريلة ، ورأى ابنة أبي ذر وهي حائرة وكان والدها قد فارق الحياة لتوّه ، سألتها : « ما دعاه الى الإعراب »^١ . وفي الحديث : « ثلاث من الكبائر منها التعرب بعد الهجرة » . وهو أن يعود الى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً . وكان من رجع بعد الهجرة الى موضعه من غير عذر يعدّونه كالمتردّ^٢ . وذلك بسبب جفاء الأعراب والجهالة ، ومن هنا كرهت شهادة البدوي على الحضري فورد في الحديث « لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية » . لأنهم في الغالب لا يضبطون الشهادة على وجهها ولمّا في البدوي من جفاء وجهالة بأحكام الشرع^٣ .

وقد عُرِفَ العربي الحضري بـ (القراري) ، أي الذي لا ينتجع ويكون من أهل الأمصار ، وقيل ان كل صانع عند العرب قرازي^٤ . وهذه النظرية هي نظرة أهل البداوة بالنسبة لأهل الحضارة ، فالصانع عندهم انسان مزدري لاشتغاله بصناعة من هذه الصنائع التي يأنف منها العربي الحرّ .

والحق ان النعوت المذكورة لا تلازم جميع الأعراب ولا تنطبق عليهم كلهم . فهم يختلفون مثل أهل الحضرة ، باختلاف مواضعهم ، من قرب عن حضارة ومن بعد عنها ، ومن وجود ماء وخصب ، أو جذب أو فقر ، وما شاكل ذلك . كما ان بعض النعوت المذكورة تنطبق على بعض أهل المدر أيضاً . ولهذا نجد القرآن الكريم يطلقها عليهم ، ولكن لا على سبيل التعميم بل على سبيل التخصيص ، فهي نتائج ظروف خاصة وأحوال معينة ، لا بد وأن تؤثر في أصحابها فتكسبهم تلك الصفات والمؤثرات . كما ان العرب ، أي الحضرة ، لم يكونوا كلهم في التحضير على درجة واحدة سواء ، فبينهم اختلاف وتباين ، وهذا التباين تباينت خصائصهم النفسية بعضهم عن بعض .

والبدوي الذي تمكن « ابن سعود » أو غيره من الحكام من ضبطه بعض الضبط ومن الحد من غاراته على الحضرة أو على البدو الآخرين ، هو البدوي نفسه الذي عاش قبل الميلاد وفي عهد إسماعيل ، والذي قالت في حقه التوراة :

- ١ الطبري (٣٠٨/٤) .
- ٢ تاج العروس (٣٥٤/٣) ، « الكويت » .
- ٣ اللسان (٦٧/١٤) .
- ٤ اللسان (٩٠/٥) .

« يده على الكل ويد الكل عليه »^١ . وهو سيبقى كذلك ما دام بدوياً ترتبط حياته بالصحراء ، ينتهز الفرص كلما وجد وهناً في الحكومات وقوة في نفسه على أخذ ما يجده عند الآخرين . وهو إن هداً وسكن ، فلأنه يجد نفسه ضعيفاً تجاه سلطة الحكومة ، ليس في استطاعته مقاومتها لضعف سلاحه ، فإذا شعر بقوته لم ينش عندئذ أحداً .

وقد تأصلت الفردية في أنفس الأعراب وفي أنفس أشباه الحضرة وفي أكثر الحضرة ، حتى صارت أنانية مفرطة ، عاقت المجتمع العربي في الجاهلية وفي الإسلام عن التقدم وعن التوثق والاتحاد . وفي الأدبين الجاهلي والإسلامي أمثلة عديدة سارت بين الناس تمثل هذه النظرية الضيقة الى الحياة . ورد في الحديث عن أبي هريرة أنه قال: « قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الى الصلاة ، وقتنا معه ، فقال أعرابي في الصلاة : اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا »^٢ . فقد تم نفسه على الرسول ، مع أنه مسلم يحمله دينه وأدبه : أدب الإسلام على تقديم الرسول عليه ، ثم لأنه لم يخص أحداً بالرحمة غير الرسول وغير نفسه مدفوعاً بهذه الأنانية القبيحة . وكثيراً ما تسمع الناس يتمثلون بقول أبي فراس : « اذا مت ظمأناً فلا نزل القطر » .

يتمثل به الحضرة تعبيراً عن فلسفة ووجهة نظر قديمة الى هذه الحياة ، مبعثها الوضع السيء العام القلق الذي عمّ المجتمع وما زال يعمه ، والذي جعل الفرد يشعر بعدم وجود من يحميه ويساعده ، فتحول غضبه الى عقيدة مؤذية مضرّة ويا للأسف .

والبدواة عالم خاص قائم بذاته ، تكونت طباعها وخصائصها من الظروف التي نشأت فيها ، لها مقاييسها وموازينها الخاصة ، وهي مقاييس وموازين تختلف عن مقاييس الحضرة وموازينهم ، الحضرة البعيدين عن البادية وعن أحوال البدواة ولذلك اختلفت افهام الجماعتين وتباعدت عقلياتهما ، ومن هنا يظهر خطأ من يحكم على البدواة بمقاييس أهل الحضارة ويفسر ما يقع من الأعراب تفسيره لما يقع من أهل المدر من أعمال ، ومن هنا أيضاً نجد أن البدواة لا تستطيع فهم منطق الحضرة

١ التكوين ، الاصحاح ١٦ ، الآية ١٢

٢ سنن أبي داود (٨٩/١) .

ولا تستنسخ أسلوب حياتهم ، ولا تأمنهم ، لأن عالمها يختلف عن عالم الحضرة ، ولأنها تجد من قيود الريف والمدن ما يصعب عليها تحمله ، ولأنها ترى في الحضرة جماعة حيل وشرّ ومكر فلا تأمنهم ، ولا تستطيع أن تطمئن اليهم ، مهما أظهر الحضرة نحوها من عطف واحسان. وقد كابدت البداوة كثيراً كما كابدت الحضارة كثيراً أيضاً من جراء سوء الفهم هذا الناجم من اختلاف العقليتين .

ويظهر البدوي في عين الحضري الحديث ، وكأنه افسان مزدوج الشخصية جامع للتقيضين ، له وجهان . فهو محارب يحارب معك وفي صفوفك ، أما اذا شعر أن الهزيمة ستحل بك ، فإنه أول من ينقلب عليك ، فيمعن عندئذ في سلبك ما معك ونهبه ، لا فرق عنده أن يكون الذي يحارب معه وفي صفوفه عربياً أو أعجمياً ، شريفاً من أسرة عريقة أم قائداً محترفاً . وهو كريم جواد يقدم لضيفه آخر شيء عنده ليأكله ويحبيه بكل وسائل الاكرام ، ولكنه لا يمتنع من سلب غريب يجده في طريقه ، ومن أخذ ما عنده . وهو رجل متدين لا يحلف كاذباً مهما رأى النتيجة، ولكن تدينه تدين بدويّ سطحي الى غير ذلك من متناقضات .

أما الأعرابي ، فيستخر من انهام الحضري له بهذه التهم ، ويعجب من سذاجة منطقته وحكمه ، فنطقه في نظره منطق رجل ساذج مريض معلول ، وحكمه حكم إنسان ضعيف ذليل . وإلا فكيف يسمح عقل إنسان سليم لإنسان مثلاً أن يترك أموال صاحبه أو أصحابه تقع في أيدي غيره أو أعدائه ، يأخذونها لينعموا بها وليفتخروا بحصولهم عليها ، ثم لا يمد هو يده اليها يأخذ منها ما يحتاج اليه ويريد ؟ ألا يدل هذا العمل على السخف والضعف وفساد الرأي ؟ إن المحارب في نظر الأعرابي أولى من غيره بأموال زميله المحارب ، وهو أحق بها من أي إنسان آخر للحصول عليها إن دامه خطر ، وشعر أن تلك الأموال ستقع في أيدي عدوه ، فهو زميله وصديقه ، وهو فوق ذلك به حاجة اليها ، فمن حقه الطبيعي إذن أن يأخذها ولو عنوة ويولي بها ليحرم عدوه الحصول عليها والحصول على أي مكسب كان من هذه الحرب . ثم لأنه إن لم يباشر أخذ ما يجده أمامه في الوقت الملائم ، فإن غيره سيأخذه حتماً ، وقد يكون غيره هو خصمه وعدوه : ولما كانت النفس مقدمة على غيرها ، كان من العقل والحكمة أن يأخذ حقه بنفسه ، وإلا ضاع حقه عليه وأفلت منه . ومن هنا اختلف منطق الحضري وباين حكمه على الأمور حكم الحضري .

وحكم الأعراب على الأمور، حكم صادر عن عقلية خاصة بهم ، كونتها عندهم الأحوال التي يعيشون فيها والمحيط الذي يتحكم فيهم من جفاف وحرارة وضوء ساطع واختلاف في درجات الضغط الجوي وانجاس الأمطار وفقر محال لأغلب الأرضين ومن فقر وتفتير وبساطة في المأكل وأمثال ذلك من مؤثرات كونت عندهم عقلية خاصة وثقافة خاصة ، فهمت الأمور بمنطقها لا بمنطق الآخرين . ومن هنا اختلفت أيضاً عقليات الأعراب وتباينت بعض التباين باختلاف الأحوال التي تحيط بالأمكنة التي يتزلون بها وبقرى تلك الأمكنة وبعدها من الحضر ومن الحضارة . وبمقدار تأثيرها بالمؤثرات الخارجية وبالثقافات الواردة من الخارج ، كالذي نلاحظه من وجود شيء من التباين بين عقليات القبائل المتنصرة وأعمالها وعقليات القبائل الوثنية وأعمالها ، بالرغم من أن نصرانية تلك القبائل لم تكن نصرانية عميقة صميمة ، ولم تكن صافية خالصة، وذلك لأن هذه القبائل المتنصرة، على سطحية تنصرها ، كانت مواطنها ملاصقة للحضر وللحضارة وذات اتصال بالحضر وبالأعاجم وبالثقافات الأجنبية وبالبيئات الثقافية الغربية ، وعاش بينها رجال دين عرفوا من ثقافات غربية وبشروا بين العرب المتنصرة بأراء غريبة عنهم ، كما تأثر رؤساء تلك القبائل بمؤثرات الحضر الذين احتكوا بهم ورجال السياسة والدين الذين كانوا على اتصال بهم ، وقد تزوج بعضهم من نساء نصرانيات ، أثرن في بيئة ذلك الزوج .

وقد نص الأقدمون على اختلاف طباع القبائل، فعرف بعضها باللين والسهولة، وعرف بعضها بالشدة والحشونة والغلظة ، وعرف آخرون بالشجاعة والصبر على المكارِه والميل إلى الغزو والحروب ، وعرف غيرهم بالميل إلى الاستقرار وبقابليتها على الاستيطان واستغلال الأرض والإلتئام مع الجيران . ولوجود هذه الصفات في القبائل كان الحكماء في الجاهلية وفي الإسلام إذا أرادوا أمراً وكلوه إلى القبيلة التي تناسب صفتها التي اشتهرت بها مع العمل الذي يراد القيام به ، وصار اعتماد الحكماء على هذه الفراسة في الغالب . وما زال هذا التباين في كُنَايات القبائل معروفاً حتى اليوم ، فقد اشتهرت بعض قبائل نجد بأمور لم تشتهر بها القبائل الأخرى ، أو انها فاقت بها سائر قبائل نجد، فاشتهرت بعضها بالقتال، واشتهرت بعضها بالصرامة والصبر ، وما إلى ذلك ، ويراعي حكام جزيرة العرب اليوم هذه الصفات في ضبط الأمور في حكوماتهم وفي حفظ التوازن في حكم البوادي

والأعراب وفي السياسة العامة للحكومة . وفي تقارير السياسيين الوطنيين والأجانب وفي كتب السياح والبعثات الأجنبية على اختلاف أنواعها كلام على تباين طباع الأعراب في جزيرة العرب وطباع الحضر في هذا اليوم .

فترى اذن أن للأعراب رأياً في الحضر يشبه رأي الحضر فيهم ، أي رأي فيه ازدياد وحط من شأن الحضر ومن مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، ومن قيمهم في هذه الحياة ، وهو رأي تكون عندهم من بيناتهم التي يعيشون فيها ومن ثقافتهم الخاصة بهم ، التي تفسر الأمور بمقاييسها وأوزانها ، وهي مقاييس وأوزان بعيدة عن مقاييس الحضر والحضارة . ولا أقصد بالحضر هنا حضر الأعاجم وحدهم ، بل ادخل فيهم حتى الحضر العرب ، كالذي يتبين من استهجان الأعراب لشأن أهل المدر في كل مكان من أمكنة جزيرة العرب ومن ازديادهم لأحلامهم ومثلهم في الحياة . فالبدواة ثقافة خاصة بهذا العالم ، عالم البدواة ، والحضارة ثقافة أخرى خاصة بالحضر ، وبين الثقافتين بون وخلاف .

وليست هذه الطباع ورائة تنتقل من الآباء الى الأبناء أبداً في الدم، فلا تتبدل ولا تتغير ، بل هي حاصل أحوال وبيئة ، اذا تغيرت الأحوال والبيئة وقع تغير يتوقف على مقدار فعل البيئة الجديدة في الإنسان وعلى الزمان الذي يقضيه فيه وعلى مقدار استعداد ذلك الإنسان لتقبل البيئة الجديدة والثقافة الجديدة التي دخل فيها ، ولهذا يكون فعل التغير في الجيل القديم أقل من الجيل الجديد. وعلى ذلك يخطيء من يصف العرب بصفات يلصقها بهم يجعلها عامة فيهم أبدية . ودليلنا على ذلك أن من عاش من الأعاجم بين العرب وفي بيئة عربية ، تطبع بطباع العرب وصار مثلهم ، حتى اذا انقرض الجيل القديم ونبع الجيل الجديد تحول الى جيل عربي في كل شيء ، لا نستفي من ذلك حتى الإنساب الى العرب الى عدنان وقحطان وحتى التعصب والعصبيات . والإسلام الذي صهر الأعاجم في بوتقته ، وجعلهم جنوداً يحاربون في الصفوف الأمامية لنشره وإعلاء كلمته ، لم يلبث أن أنساهم أصولهم ولغاتهم ، فحوّلهم بذلك الى عرب من حيث لم يشعر العرب ولا الأعاجم أنفسهم به .

والأعرابي واقعي ، تتأثر أحكامه بالواقع الذي يراه ، وبمقياس المادية التي تتمثل عنده ، يؤمن بالروح ، ولكنه يحوّلها الى ما يشبه المادة الملموسة . يؤمن بإله أو بآلهة ، كما كان في الجاهلية ولكنه حوّل تلك الآلهة الى أوثان وأصنام،

يلمسها ويحسها بيديه ، فيتقرب إليها ويتوسل بها ، وخاف من الأرواح مثل الجن والأرواح الخبيثة التي صورتها عقله ، أكثر من خوفه من آلهته ، فإذا نزل مكاناً قفراً ، أو محلاً موحشاً ، أو دخل مكاناً مظلماً أو كهفاً ، تعوذ من الأرواح ، واحتال عليها بمختلف الحيل التي ابتكرها عقله ، ليتغلب عليها وليتخلص منها . فهو يخافها أكثر من خوفه من الآلهة ، لأنه جعلها تعيش معه في كل مكان ، فهي تحيط به . أما الآلهة ، فإنها بعيدة عنه ، ثم إنها لا تؤذي ، ومن طبع الإنسان التخوف من المؤذنين .

وهو لا يحفل بما بعد الموت ، لأن هذا العالم الثاني عالم غير محسوس بالقياس إليه . ولهذا لم يتصوره كتصور غيره من الأمم الأخرى ، بل هو لم يتعب نفسه بالتفكير فيه ، ولهذا كانت مراسم دفن الميت بسيطة جداً ، لا تكلف فيها ولا تعقيد ، على نحو ما نجده عند الحضري أو العجم ، متى دفن في قبره وهيل التراب عليه ، انتهى كل شيء . ولهذا كان عجبهم شديداً اذ سمعوا بالبعث وبالقيامة والحشر والنشر . « إذا أمتنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ، أو آباءنا الأولون » ١ . وكان قائلهم يقول :

حياة ، ثم موت ، ثم نشر : حديث خرافة ، يا أم عمرو ٢
وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك ، يرثي قتلى قريش يوم بدر :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ٣

وقد ورد البيت المذكور في صورة أخرى في كتاب (الصبح المنير في شعر أبي بصير) ، في باب شعر (أعشى نهشل) ، ورد في هذا الشكل :

وكائن بالقلب قلب بدر	من الفتيان والعرب الكرام
أبوعدي ابن كبشة أن سنحيا	وكيف حياة أصداء وهام ؟
أعجز أن يرد الموت عني	وينشرني إذا بليت عظامي
ألا من مبلغ الرحمن عني	بأنني تارك شهر الصيام
فقل لله يمنعني شرابي	وقل لله يمنعني طعامي ٤

١ سورة الواقعة ، الآية ٤٧ ، « إذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد » سورة ق ، الآية ٣

٢ بلوغ الأرب (١٩٨/٢) .

٣ الصبح المنير (ص ٣٠٨) « طبعة اورية ١٩٢٧ » .

والحضر الذين نظروا الى الأعراب ، نظرة استصغار وازدراء ، لما بينهم وبين الأعراب من تفاوت في الثقافة وفي العقلية ، هم أنفسهم وفي الواقع أشباه حضر ، وأخص من هؤلاء الحضر حضر الحجاز ، فخصائص التعرب غالبية عليهم ، غلبة تزيد على خصائص الحياة الحضرية . فقد قامت قراهم مثلاً وأعظمها مكة ويثرب على الفكرة الأعرابية القائمة على أساس النسب ، فكل من مكة ويثرب شعاب ، كل شعب لفخذ أو عائلة أو ما أشبه ذلك من أسماء تدخل في أسماء أجزاء القبيلة ، تتعصب وتتحزب وتتقاتل فيما بينها وتتحالف ، كما يتقاتل أو يتحالف الأعراب . ثم لأنهم كانوا يأنفون من الاشتغال بالحرف ، تماماً كما يفعل البدو ، ويعافون الزراعة في الغالب ، لا استثنى منها زراعة النخيل ، لأن الزراعة في نظرهم من أعمال النبط والرقيق ، والروح الفردية سائدة بينهم ، موجودة عندهم ، إلا في أوقات الشدة والضيق ، والفردية الجائحة من طبائع البداوة ومن خصائصها ، الى أمور أخرى عديدة تعسد من صميم الحياة الأعرابية . وسبب ذلك أن هذه المستوطنات التي سموها قرى كانت وسطاً بين البداوة والحضارة ، وكانت كالجزر الصغيرة وسط المحيطات الواسعة ، محيطات من الأعراب ، تعتمد غذاءها الروحي والمادي من البداوة أكثر مما تستمد من الحضارة . أضف الى ذلك عامل الطبيعة الذي يلعب دوراً خطيراً في تكون المجتمعات وفي تكييفها بالشكل الملائم . ولذلك لم تتكون في يثرب أو في مكة أو في غيرها حياة مشابهة لحياة الحضر العجم في الأماكن الأخرى مثل مدن وقرى العراق وبلاد الشام ومصر ، بل وحتى حضر مدن اليمن وهم من العرب بالطبع .

ومن هنا نجد حضر اليمن ، بل وأعراب اليمن أيضاً يختلفون عن حضر وأعراب الحجاز ونجد والعربية الشرقية ، في كثير من الخصائص والصفات . مع أنهم كلهم عرب ومن أصل واحد . فحضر اليمن ، حضر لا يأنفون من العمل ولا يستصغرون شأن الحرف . ولا يأنفون من الزراعة . بينهم الحائك والنساج والمشتغل بالأرض ، والصانع والحداد والتجار وعامل البناء ، وقالع الحجر ومربي الماعز والغنم والبقر ، وزارع الحضر والبقول ، ودانج الجلود ، مع أنها حرف يراها العربي في بقية مواضع جزيرة العرب من حرف العبيد والطبقات الدنيا من الناس .

وأعراب اليمن ، الذين ميزهم حضر اليمن عن أنفسهم في الجاهلية باطلاق

لفظة (عرب) عليهم ، لأنهم لم يكونوا في مستواهم وفي درجتهم في الحضارة. هم مع ذلك وبوجه عام أرقى مستوى وأكثر ادراكاً من أعراب الحجاز ونجد. لقد وطنوا أنفسهم في أطراف الخواضر وعند مواضع الماء والخصب ، وزرعوا ورعوا ماشية وأنعاماً ، واستقروا في بيوت من مدر أو حجارة . وهي حياة لا يألفها البدوي الفح . ولا يراها من مقومات البداوة . ثم انهم لم يكونوا رحلاً على شاكلة أعراب الحجاز أو نجد أو بادية الشام . وإذا كنا نرى بعض قبائل اليمن ، وهي ترحل من مواضعها ، فرحيلها هذا هو عن سبب قاهر ، مثل حروب أو كوارث طبيعية تجعل من الصعب عليها البقاء في منازلها ، فلا يكون أمامها للمحافظة على حياتها غير الرحيل الى مكان آخر . انهم بالقياس الى عرب الحجاز أو نجد رعاة أو شبه أعراب^١ .

ومرجع هذه الفروق هو في التباين في الطبيعة . فطبيعة أرض اليمن مثلاً طبيعة لطيفة خفيفة ، الحرارة فيها معتدلة بوجه عام ، والفروق في درجات الحرارة بين الصيف والشتاء، أو بين الليل والنهار ليست كبيرة متناقضة متعاكسة . والضغط الجوي فيها معتدلة غير قلقة متغيرة بكثرة في اليوم أو في الشهر أو في السنة ، والأمطار متوفرة بوجه عام ، تزور اليمن في مواسم معينة ، وجبال اليمن العالية جبال تقف شامخة عنيدة وفي وضع مناسب أمام الأبحر المتصاعدة من البحار ، حتى تضطرها على الهبوط غيثاً على اليمن يغيث الناس . ثم ان اليمن هضاب وأودية وتهاثم ، ومسابل طبيعية تقود السيول الى أحواض حضرتها الطبيعة ، وعلمت هذه الطبيعة الإنسان على رفع حافاتها لتحبس الماء في الأحواض ، وعلى عمل فتحات فيها لخروج الماء منها وقت الحاجة . وهي غنية بالمعادن وبالحجر الصالح للبناء وبالأشجار التي غرستها الطبيعة بيدها ، وأرض على هذا النحو وعلى هذه الشاكلة لا بد وأن تؤثر على أجسام وعلى عقول أصحابها ، فجعلتهم من ثم من أنشط شعوب جزيرة العرب في ميدان العمل والخيالة في كسب العيش وفي اقامة المجتمعات وانشاء حضارة ، وفوقتهم بذلك بوجه عام على سائر عرب جزيرة العرب ، وصيرتهم قوماً لا يرون الاشتغال بالحرف عيباً ، ولا امتهان المهن العملية نقصاً . ولو كانت أرضهم على شاكلة أرض الحجاز أو نجد ، ولو

Naval, P., 402.

كانت طبيعتها ذات طبيعة صحراوية قاسية ، لما صار أهل اليمن بالشكل الذي ذكرته . ولهذا السبب ، اختلفت طبائع من يسميهم أهل الأخبار بالقحطانيين الساكنين خارج اليمن في نجد أو في بادية الشام عن طبائع أهل اليمن ، فصاروا أعراباً أقحاحاً يأنفون من الاشتغال بالحرف ، ولا يعيشون الا على تربية الإبل ، الى غير ذلك من سمات وسم بها البدو مع انهم يمانيون كما يذكر أهل الأخبار . ولو كانت طبيعة أرض البادية على نحو آخر ، على نحو يؤمن العيش والراحة لمن يقيم بها ، لما وجدنا ما وصفناه من أوصاف عند الأعراب ، فإن الطبيعة تصقلهم اذ ذاك صقلاً آخر ، قد يجعلهم مستقرين مقيمين على الأقل ، ودليل ذلك أثر الأمطار والريبع فيهم ، عندما تغيثهم السماء ، سنين متواليه ، اذ يبقون في أماكنهم ، ويقيمون فيها ، ولا يخطر ببالهم عندئذ خاطر الارتحال والتنقل من هذه الأرض .

ولأثر الطبيعة المذكور في طبائع الناس ، اختلفت طبائع أهل « الطائف » عن طبائع أهل مكة مع أنها أقرب الى مكة من اليمن ، وسبب ذلك ان الطائف أرض مرتفعة ذات جو معتدل ، بها مياه وفيرة ، وبها أشجار وهبتها الطبيعة لأرضها منذ القدم ، أرضها خصبة فرحة ، لا تسودها كثابة البادية ولا يخيم عليها عبوس اليبداء ، فصارت أخلاق أهلها من ثم أقرب الى أخلاق أهل اليمن ، وصاروا أذكاء ، عقولهم متفتحة نيرة ، استغلوا أيديهم ، فزاولوا الحرف مثل الدباغة ، واستغلوا الأرض ، إذ زرعوها حباً وأشجاراً مثمرة ، وربوا الماشية ، وصارت مدينتهم حتى اليوم مصيف أهل مكة . مع أنهم عرب ما في أصلهم العربي أدنى شك ، وهم وعرب مكة أو يثرب أو نجد من طينة واحدة ، لا شك في ذلك ولا شبهة .

فللطبيعة إذن من حرّ ويرد ومن اختلاف في الضغوط الجوية ومن أشعة شمس محرقة منهكة ومن اشعاع أرضي ومن أمطار وأهوية ورياح ومن طبيعة أرض وموقع ، ومن هبة الطبيعة الى السكان من طعام غني أو فقير ، من حبوب وأثمار وخضر وحيوان ، أثر بالغ في تكون الطباع وفي خلق التمايز بين الأجناس البشرية ، تضاف الى ذلك الظروف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تحيط بالناس ثم التكوين الجسماني ومظهره . ومن هنا نجد العربي الأصيل الذي لا شك ولا شبهة في أصله العربي ، إذا أقام وحده مدة في مجتمع غربي مثل انكلترة

أو اسكاندينافية أو أميركا الشمالية ، حيث الطبيعة مختلفة عن طبيعة بلاده وحيث الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية متباينة عن الظروف المذكورة في بلاده ، تغير وتبدل واضطر مختاراً أو كرهاً عن غريزة تطور كامنة فيه الى التأقلم والانسجام مع القوم الذين صار يعيش بينهم . ويتوقف هذا التحول بالطبع على عمر الشخص وعلى قابلياته وعلى مدة اقامته في المكان . ولو أقام ذلك العربي طيلة حياته كلها في ذلك الوطن الجديد ، وصار له نسل من زوجته العربية التي قدمت معه أيضاً ، فإن النسل الجديد سيكتسب صفات الموطن الذي نشأ فيه ، ويتخلق بأخلاقه ، أما نسل نسله ، فإنه سيتحول الى شخص آخر غريب عن جده ، غريب عنه حتى في لغته . ومن هنا نجد الجيل الثالث من أجيال المهاجرين العرب الذين هاجروا الى أميركا ، وتجنسوا بها ، جيلاً أميركياً في كل شيء ، حتى في لغته وثقافته وشعوره وهواه ، يشعر أن حنجرته لا تطاوعه على تعلم العربية وأن أوتارها لا تساعد على النطق بها . مع أنه من أصل عربي أباً وأماً . وقد برز من هذا الجيل الجديد اليوم قوم في ميادين العلم والتجارة والمال والصناعة والسياسة والعمل ، ودخل نفر منهم مجلس النواب في واشنطن ، وسيزيد هذا العدد ولا شك ، لم يعقهم عن ذلك عائق الرمس والعنصر والجنس وخصائص الدم ولو كان الدم عائقاً الى الأبد ، لما حدث في المذكورين ما نراه عملياً في هذا اليوم .

والعربي بعد ، إن وصف في الجاهلية أو في الإسلام بالحمول والكسل ، وبـ « الرومانطيقية » ، أي بالخيال ، وبعدم الصبر وبالأناية والفردية وبما شاكل ذلك من صفات ، فصفاته هذه ليست حاصل خصائص دم ونتيجة سمات عرق ، وإنما هي ظروف وأحوال وأوضاع أجبرته على ذلك ، ولو أطعم ذلك العربي طعاماً صحياً فيه المواد الغذائية الضرورية لنمو الجسم والعقل ، ولو تغيرت ظروفه ، فهو كما ذكرت سيتغير حتماً . وما كان الأوروبي ليفتوق على الشرقي لو أن طبيعة اقليمه وأرضه كانت كطبيعة جزيرة العرب ، ولو سكن الألماني أو السويدي أو الانكليزي بلاد العرب ، وصار له نسل ، فإن نسله لا ينشأ كما لو نشأ في وطن والده أو جدّه ، لاختلاف الظروف والأجواء . وما كانت أوروبا خضراء هذه الخضرة ونشطة هذا النشاط بسبب دم أهلها وحده ، بل لأن طبيعتها ساعدت الناس وعاونتهم ، فأنبتت الرطوبة والأمطار الأشجار بنفسها وكونت لأهلها الغابات ،

ودفع البرد الناس على العمل دفعاً ، ولهذا نجد الناس عندنا في الشتاء يندفعون الى العمل اندفاعاً بعامل البرد الذي يدفع الجسم الى الحركة .

أضف الى كل ذلك عوامل أخرى تؤثر في جسم الإنسان وفي تصرفاته واتجاهاته من تركيب جسم ومن ملامح ، مثل لون شعر وتركيبه ولون بشرة أو لون عين وشكل جمجمة وأمر أخرى يدرسها ويبحث فيها علماء الأجناس البشرية ، تؤثر أيضاً في خصائص الإنسان وفي أجناسه وفصائله ، مما لا مجال للبحث عنها في هذا المكان .

والبحث في موضوع نفسيات الشعوب وأصول تفكيرها وميزات عقلها ، بحث يجب أن يستند الى أسس علمية حديثة ، والى تجارب دقيقة عامة، لذلك لا يمكن التعميم ما دمنا لا نملك بحوثاً ودراسات علمية منسقة ، قام بها علماء متخصصون في البوادي وفي الحواضر وفي كل مكان من جزيرة العرب ، روعي عند اجرائها الظروف الطبيعية المؤثرة في ذلك المكان ، والظروف الثقافية السائدة عليه، ودرجة تأثير ذلك المكان بالمؤثرات الخارجية ، أي بمؤثرات المناطق المجاورة له . فبين أهل جزيرة العرب بون كبير في العقلية ، وبين أهل البوادي في الجاهلية وفي هذا اليوم فروق في النفسيات وفي التعامل ، حتى وسمت القبائل بسمات ، فوسمت (معد) مثلاً بالحيلة والكيد والذكاء وبالغلظة والخشونة ، ووسمت (ثقيف) بسمات ، ووسمت (كندة) بسمات . وقد رأينا ما ذكره (حافظ وهبة) عن أهل نجد من حضر وبدو .

بل اننا نرى ان الأعاجم المتعربين أي الذين يتزلون بين العرب وينسلون بينهم ويتخللون العربية لساناً لهم ، سرعان ما يتعربون كل التعرب ، ويتحول أبناؤهم الى جيل عربي خالص ، حتى ليصعب عليك التفريق بينهم وبين العرب في الرسوم والعادات والتفكير ، وذلك بتأثير المحيط الذي حلوا به، والظروف الطبيعية المؤثرة بالمكان . وقد تعرب آراميون في العراق وفي بلاد الشام ، وصاروا عرباً في كل شيء حتى في الصفات التي ذكرناها ، وقد وجدت البعثة الأمريكية التي جاءت الى العراق للبحث عن السلالات البشرية ان في دماء القبائل العربية التي ترى نفسها انها قبائل عربية خالصة نسباً مختلفة من الدماء الغربية ، واذا أدركنا هذه الملاحظة وقيمة أمثال هذه الدراسات في موضوع تكون العقلية وفي حدودها ورسم معالمها ، علمنا انه ليس من السهل في الواقع البحث عن عقلية عربية خالصة

تعبّر عن عقلية جميع العرب وفي كل مكان .
إن الذين بحثوا في العقلية العربية بصورة عامة ، تصورووا العرب وكأنهم جنس واحد انحدر من عرق واحد . وبهذا الاعتقاد وضعوا حدود تلك العقلية. أما اذا نظرنا الى نتائج فحوص بعض علماء (الأنثروبولوجي) وعلماء الآثار وعلماء الحياة لبقايا الجاجم والعظام التي عثروا عليها من عهود ما قبل الإسلام، والى فحوصهم للملامح العرب الأحياء وأجسامهم، فإنها على قلتها ، تشير الى وجود أعراق متعددة بين سكان جزيرة العرب ، الأموات منهم والأحياء ، الجاهليين والإسلاميين ، والى وجود اختلاف في نفسياتهم وفي قابلياتهم العقلية ، وقد تحدثت قبل قليل عن ملاحظات (حافظ وهبة) عن عقليات عرب المملكة العربية السعودية ، وتحدثت عن رأي علماء الحياة والأجناس في تعدد الأعراق وتسرب دماء غريبة الى جزيرة العرب يجعل من الصعب على الباحث الحذر أن يعتقد بإمكان وضع صورة دقيقة تمثل وجود عقلية واحدة لجميع أولئك الناس وفي كل العصور والعهود.

الفصل الثامن

طبقات العرب

اتفق الرواة وأهل الأخبار ، أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم الى طبقات : عرب بائدة، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة . أو عرب عاربة ، وعرب متعربة ، وعرب مستعربة. أو عرب عاربة وعرباء وهم الخالص، والمتعربة. واتفقوا أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث النسب الى قسمين: قحطانية ، منازلهم الأولى في اليمن . وعدنانية ، منازلهم الأولى في الحجاز^١ .

واتفقوا ، أو كادوا يتفقون على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله ، وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها ويفقهها من يسمع هذه الكلمة . فهم الأصل ، والعدنانية الفرع ، منهم أخذوا العربية ، وبلسانهم تكلم أبناء إسماعيل بعد هجرتهم الى الحجاز ، شرح الله صدر جدهم إسماعيل ، فتكلم بالعربية ، بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه التي كانت الإرمية ، أو الكلدانية ، أو العبرانية على بعض الأقوال^٢ .

وتجدد الأخباريين والمؤرخين يقسمون العرب أحياناً الى طبقتين : عرب عاربة، وعرب مستعربة . ويدخلون في العرب العاربة عاداً وعيلاً ابني (عوص بن لرم)،

١ ابن خلدون (١٦/٢) « طبعة بولاق » ، الهلال : الجزء العشرون ، السنة الخامسة حزيران ، ١٨٩٧ (ص ٧٦٨ فما بعدها) ، تاج العروس (٣٣٣/٣) ، « الكويت »
٢ مرجع الذهب (٢٦٢/١) ، نهاية الارب ، للنويري (٢٩٢/٢)

وثمود وجديس ابني (جاثر بن لأم) ، وعمليق وطسم وأميم بني (لوزان بن لأم) ، و (بني يقطن بن عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام) ، وهم : جرهم ، وحضرموت ، والسلف ، وجاسم بن عمان بن سبأ بن يقشان بن ابراهيم^١. أما (الحمداني) ، فقد عدّ كل القبائل التي أولها (جاسم) وآخرها (عبّس الأولى) من العرب العاربة^٢. والقبائل المذكورة هي (جاسم) الذين نزلوا بعمان والبحرين ، وبنو هيف ، وسعد ، وهزان الأولى ، وبنو مطر ، وبنو الأزرق ، وبنو بديل ، وراجل ، وغفار ، وتيماء ، وبنو أثابر ، وبنو عبد ضخم^٣.

وظل الرواة يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا في تاريخ العرب قبل الإسلام ، وفي موضوع الأنساب. ولا حاجة بنا الى أن نعود ، فنقول : إن كل ما روي من هذا التقسيم وما رواه الرواة من أخبار تلك الطبقات ، لم يرد إلينا من النصوص الجاهلية ، وإنما ورد إلينا متواتراً من الكتب المدونة في الإسلام ، لذلك لا نستطيع أن نجرؤ فنقول : إن هذا التقسيم وضعه الجاهليون ، وتوارثوه كابراً عن كابر ، حتى وصل إلى صدر الإسلام ، ثم منه وصل إلينا :

وتقسيم العرب الى طبقات — وذلك من ناحية القدم والتقدم في العربية — هو تقسيم لا نجد له ذكراً لا في التوراة أو الموارد اليهودية الأخرى ولا في الموارد اليونانية أو اللاتينية ، أو السريانية . ويظهر أنه تقسيم عربي خالص ، نشأ من الجمع بين العرب الذين ذكر أنهم بادوا قبل الإسلام ، فلم تبق منهم غير ذكريات ، وبين العرب الباقين ، وهم إما من عدنان ، وإما من قحطان .

وجماع العرب البائدة في عرف أكثر أهل الأخبار ، هم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، وجاسم ، وعييل ، وعبد ضخم ، وجرهم الأولى ، والمالقة ، وحضوراء^٤. هؤلاء هم مادة العرب البائدة وخامها ، وهم أقدم طبقات العرب على الإطلاق في نظر أهل الأخبار .

١ المحبر (ص ٢٩٥) .

٢ الاكليل (٧٥/١) .

٣ الاكليل (٧٢/٢) فما بعدها .

٤ الطبرى (١٠٣/١) فما بعدها ، (٢٠٣/١) فما بعدها ، طبعة « دار المعارف » ، وتجد اختلافاً في الأنساب ، التنبيه والاشراف (١٥٧) ، « طبعة الصاوي ، العرب العاربة سبع قبائل » « وهم تسع قبائل » تاج العروس (٣٣٣/٣) ، « الكويت » .

أما عاد ، فلأنهم من نسل (عاد بن عوص بن لرم) . وأما ثمود فن نسل (ثمود بن غائر بن لرم) . وأما (طسم) ، فن نسل (طسم بن لاوذ) . وأما (جدیس) ، فن نسل (جدیس بن غائر بن لرم) ، في رواية أو من نسل (جدیس بن لاوذ بن سام) على رواية أخرى^١ . وأما (أميم) ، فلأنهم من نسل (أميم بن لاوذ بن سام)^٢ . وأما (جاسم) ، فن نسل (جاسم) ، وهو من العماليق أبناء (عمليق) ، فهم اذن من نسل (لاوذ بن سام) . وأما (عييل) ، فلأنهم من نسل (عييل بن عوص بن لرم)^٣، وأما (عبد ضخم) ، فن نسل (عبد ضخم) من نسل (لاوذ) ، وقد جعلوا من صُلْب (أبناء لرم) في رواية أخرى . وأما (جرهم الأولى) ، فن نسل (عابر) ، وهم غير جرهم الثانية ، الذين هم من القحطانيين^٤ . وأما العماليق ، فلأنهم أبناء (عمليق بن لاوذ) ، وأما (حضورا) ، فلأنهم كانوا بالرس ، وهلكوا . نرى مما تقدم ان أهل الأخبار قد رجعوا نسب العرب البائدة إما الى (لرم) ، وإما الى (لاوذ) ، باستثناء (جرهم الأولى) الذين ألحق بعض النسابين نسبهم بـ (عابر) . وهذه الأسماء هي أسماء توراتية ، وردت في التوراة ، وأخذها أهل الأخبار من منابع ترجع الى أهل الكتاب ، وربطوا بينها وبين القبائل المذكورة ، وكونوا منها الطبقة الأولى من طبقات العرب .

و (لرم) ، هو شقيق (لاوذ) في التوراة ، وأبوها هو (سام بن نوح) ، وقد ترك (سام) هذا من الأولاد (آشور) Asshur و (أرفكشاد) و (لود) و (لرم) و (عيلام) . كما ورد في التوراة^٥ . وقد أجرى أصحاب الأخبار بعض التحوير والتغيير في هذه الأسماء ، بأن صيروا (آشور) (أشوذ) و (انشور) و (أرفكشاد) (أرفخشذ) ، و (لود) (لاوذ) ، و (عيلام) (عويلم) . أما (لرم) ، فقد أبقوه ولم يغيروا في شكله^٦ .

١ « وولد للاوذ بن سام : طسم وجدیس » ، الطبري (٢٠٤/١ ، ٢٠٦) ، « دار المعارف » .

٢ الطبري (٢٠٣/١) ، « دار المعارف » .

٣ الطبري (٢٠٣/١ وما بعدها) ، « عوض » ، الكامل (٣١/١) ، مروج (٢٤/١) .

٤ ابن خلدون (٣٠٧/٢) ، صبح الاعشى (٣١٤/١) .

٥ « آشور » « آشور » Asshur أرفكشاد ، أرفخشذ ، Arpachshad
لود ، Lud لوديم ، Ludim أرم ، Aram « عيلام » ،
Elam

٦ الطبري (٢٠٣/١) ، « دار المعارف » .

ولا نجد لـ (لود) أي (لاوذ) ولداً في التوراة . فأولاده المذكورون هم هدية من أهل الأخبار قدمت اليه . أما (إرم)، وهو (آرام) في التوراة، فإن له من الأولاد (عوص) و (حول) و (ماش) و (كيثر)^١ . ولم تذكر التوراة ولداً لهؤلاء الأبناء الأربعة ، فالأولاد الذين ذكرهم أهل الأخبار ، على أنهم ولد (عوص) و (كيثر) (غائر) (كاثر)، هم هبة من الأخباريين قدموها الى هذين الأخوين .

وأما (لود) الذي صار (لاوذ) ، عند أهل الأخبار ، فإن آراء الباحثين في التوراة مختلفة في المراد منه . وقد ظن بعضهم أنه جد (اللوديين)، وذكر هؤلاء (اللوديين) مع (كوش) و (فوط) ، وبين (فارس) و (فوط) . وأما (لود) أبوهم ، فإنه ابن (مصرايم) أي مصر^٢ . ويحملنا هذا على التفكير في أنهم شعب من شعوب إفريقية . ولكن هذا الرأي يخالف ما جاء عن (لود) من أنه ابن (سام)، وأنه شقيق لإخوته المذكورين الذين تقع أملاكهم في الهلال الخصيب ، ومقياساً على هذه المواضع يجب أن يكون ملكه في هذه الأرضين أيضاً . ومهما يكن من شيء ، فإن آراء العلماء متباينة في مواضع نسله، ولم ينوه أحد منهم أنها في جزيرة العرب^٣ .

وأما عوص ، فإن آراء العلماء متباينة كذلك في المكان المنسوب اليه ، فذهب بعضهم الى أن أرض (عوص) يجب أن تكون على تخوم (ايديم)^٤ أو تخوم العربية الشمالية ، وذهب بعض آخر الى أنها المناطق التي على نهر الفرات، وذهب بعضهم الى أنها في منطقة (حوران) وذهب بعض آخر الى أنها أرض (دمشق) و (اللجاة) (اللجاء)^٥ ، وذهب آخرون الى أنها في الحجاز أو في نجد^٦ . ورأى بعض أهل الأخبار أن منزل (عوص) هو (الأحقاف)^٧ .

-
- ١ « عوص » Uz « حول » Hul ماش Mash كيثر
 — كاثر — جائر — غائر — Gether التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٣ .
 ٢ « مصرايم » Mizraim
 ٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٩٩/٢) ، Hastings, P., 557.
 ٤ « ايديم » (Idumaea) (Edom)
 ٥ Trachonitis
 ٦ قاموس الكتاب المقدس (١٢٦/٢) ، Hastings, P., 956.
 ٧ الطبري (٢٠٦/١) ، « دار المعارف » .

وأرض (عوص) هي موطن (أيوب) الشهير صاحب السفر المعروف باسمه ، والذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وضرب به المثل في الصبر .
وأكاثر (جائر) (Gether) ، فلا يعلم من أمره شيء^١ ، ويجب أن تكون مواطن (الكاثريين) في الهلال الخصيب ، أو في بادية الشام ، أو في التخوم الشمالية لجزيرة العرب ، وذلك نظراً لوروده مع (عوص) و (ماش) .
وقد جعل أهل الأخبار (النبط) من نسل (نبيط بن ماش) ، وجعلوا أهل الجزيرة والعال من ولد (ماش) كذلك^٢ . أما النبط في التوراة ، فإنهم (نبيوت)^٣ نسبة الى الابن الأكبر لأبناء (اسماعيل) المسمى بـ (نابت) عند أهل الأخبار^٤ وليس لـ (ماش) علاقة به وبالنبط . وأما (ماش) ، فإنه كناية عن موضع سكنه جماعة عرفوا بهذا الاسم ، لعله (بادية ماش) (صحراء ماش) المذكورة في الكتابات الآشورية ، وهي في البادية الكبيرة المسماة (بادية الشام)^٥ .

العرب البائدة :

ونحن جرياً مع عادة أهل الأخبار في تقسيم العرب الى الطبقات الثلاث المذكورة ، نبدأ بذكر الطبقة الأولى من طبقات العرب ، وهي طبقة العرب البائدة .
وقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الأقوام المؤلفة لهذه الطبقة ، فعدّها بعضهم من الأقوام الخرافية التي ابتدعتها خيلة الرواة ، وخاصة حين عجزوا عن العثور على أسماء مشابهة لها أو قريبة منها في اللغات القديمة أو في الكتب الكلاسيكية ، وقد اتضح الآن أن في هذه الأحكام شيئاً من التسرع ، إذ تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض هذه الأقوام ، ومن الحصول على بعض

١ Hastings, P., 292.

٢ الطبري (٢٠٧/١) .

٣ « نبيوت » ، Nebaloth

٤ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرين ، الآية ١٣ ، أخبار الايام الاول ،

الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٢٩ ، Hastings, P., 648.

٥ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٣ ، أخبار الايام الاول ، الاصحاح

الاول ، الآية ١٧ ، Hastings, P., 590.

المعلومات عنها ، ومن حلّ رموز بعض كتاباتهم مثل الكتابات التمودية . وقد اتضح أن بعض هذه الأقوام أو أكثرها قد عاشوا بعد المسيح ولم يكونوا ممنوعين في القدم على نحو ما تصور الرواة . ولعلّ هذا كان السبب في رسوخ أسمائهم في مخيلة الأخباريين .

وأبدأ الآن بالتحدث عن (عاد) :

عاد : وإذا جازينا الأخباريين ، وسرنا على طريقتهم في ترتيب الشعوب العربية ، وجب علينا تقديم طسم وعمليق وأميم وأمثالهم على عاد وشمود ، لأنهم من أبناء (لاوذ بن سام) شقيق (إرم) ، وعاد وشمود من حَقْدَة (إرم بن سام) . ولكن الأخباريين يقدمون عاداً على غيرهم ، ويبدأون بهم ، وهم عندهم أقدم هذه الأقوام ، ويضربون بهم المثل في القدم^١ . ومثلهم في ذلك مثل أخباري العبرانيين الذين عدّوا العالقة أول الشعوب^٢ . ولعل هذه النظرية تكونت عند الجاهليين من قدم عاد ، أو من ورود اسم عاد في القرآن الكريم في سورة الفجر^٣ ثم مجيء اسم (شمود) بعد ذلك . ولهذا صاروا إذا ذكروا (عاداً) ذكروا (شموداً) بعدها في الترتيب . فلورودهما في القرآن الكريم قدما على بقية الأقوام .

وقد أورد (الطبري) ملاحظة مهمة عن قوم (عاد) وعن رأي أهل الكتاب فيهم ، إذ قال : « فأما أهل التوراة ، فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا شمود ولا لهود وصالح في التوراة ، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية ، والإسلام كشهرة إبراهيم وقومه^٤ » . ويظهر من ذلك أن المسلمين حيناً راجعوا اليهود يسألونهم علمهم عن عاد وأمثالهم ، أخبروهم بعدم وجود ذكرهم في التوراة . والواقع أن التوراة لا علم لها فيهم . فأحاديث عاد وشمود وهود وصالح إنما هي أحاديث عربية ، تحدث بها الجاهليون ، وليس لها ذكر في كتب يهود ، ولكن أهل الأخبار ربطوا مع ذلك بينها وبين التوراة ، وأوجدوا لها صلة ونسباً

١ ومنهم من رأى أنهم أبناء « إرم » اللسان (٢٨٠/١٤)

٢ التكوين ، الأصحاح الرابع والعشرون ، آية ٢٠ ، قاموس الكتاب المقدس (١١٣/٢)
Hastings, P., 24.

٣ سورة الفجر ، رقم ٨٩ ، الآية ٦ فما بعدها .

٤ الطبري (٢٣٢/١) .

بأسماء أعيان وردت في التوراة . ولكن عملهم هذا لا يخفى بالطبع على من له وقوف على التوراة .

وأكثر هذه الأقوام أقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة ، عاشت بعد الميلاد في الغالب ، ولعل منها من عاش الى عهد غير بعيد عن الإسلام . ثم إن التوراة والكتب اليهودية الأخرى لم تهتم إلا بالشؤون التي لها علاقة بالebraانيين ، وهي ليست كتباً في التواريخ العامة للعالم حتى تكتب عنهم وعن أمثالهم من قبائل . أما بقاء أخبار قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة في ذاكرة أهل الأخبار ، فلا أنهم عاشوا بعد الميلاد ، وفي عهد غير بعيد عن الإسلام ، ومع ذلك ، فقد أخذت أخبارهم طابع القصص والأساطير . وقد ذهب بعض أهل الأخبار الى أن عاداً هي (هـدورام) في التوراة^١ . ودليلهم على ذلك اقتران عاد بإرم في الكتب العريية ، وبعض القراءات التي قرأت (عاد إرم) في الآية : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد »^٢ على الإضافة ، أو مفتوحتين ، أو بسكون الراء على التخفيف ، أو بإضافة إرم الى ذات العماد . وبين (عاد إرم) و (هـدورام) تشابه كبير في النطق^٣ .

ولكن التوراة تشير الى أن (هـدورام) من نسل (يقطان) ، أي قحطان في الكتب العريية ، وهذا لا يستقيم مع الروايات . ويرد (جرجي زيدان) على هذا الاعتراض بقوله : « ولعل كاتب سفر الخليفة رأى مقر تلك القبيلة في بلاد اليمن ، فقال انها من نسل قحطان ، لأن مقام عاد في الأحقاف بين حضرموت واليمن . وكثيراً ما التبس علماء التوراة في هـدورام أو هادرام ومقر نسله ، ولم يهتدوا الى شيء عنه ، مع أنهم اهتدوا الى أماكن أكثر أبناء قحطان ، وكلها بجوار الأحقاف ، فعاد هي (هـدورام) في التوراة . ولما أن يكون كاتب سفر الخليفة أراد بيان القبائل التي سكنت اليمن ، وكلها ينسب الى قحطان ، فرأى عاد إرم في جملتها ، فجعله من أولاد قحطان وبعبارة أخرى : من القبائل

١ التكوين ، الأصحاح العاشر ، الآية ٢٧ ، أخبار الأيام الاول ، الأصحاح الاول ، الآية ٢١ ، الاكليل (١٦٢/٨) .

٢ سورة الفجر ، الآية ٦ فما بعدها .

٣ الهلال : الجزء الثالث والعشرون ، السنة السادسة ، آب ١٨٩٠ م (ص ٨٩٠)

المتفرعة عن قبيلة قحطان . ولما أن يكون بالحقيقة من نسل قحطان . وهم العرب في نسبه الى آرام ^١ .

ورأى (فورستر) وجود صلة بين (عادة) ، وهو اسم زوجة (لملك) ، وبين (عاد) ، وهي والدة (يابال) الذي كان أباً لسكان الحيام ورعاة المواشي ^٢ ، ونسلها من الأعراب . وقوم عاد من الأعراب كذلك . وذهب أيضاً الى أن هؤلاء هم Oaditae وهو اسم (قوم ذكرهم) بطليموس ^٣ (على أنهم كانوا يقيمون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب ^٤ ، ولعلمهم كانوا يقيمون عند موضع (بئر لرم) ، وهي من الآبار القديمة في منطقة (حسمى) على مقربة من جبل يعرف بهذا الاسم في ديلر جندام بين أيلة وتيه بني اسرائيل ^٥ . ولا يبعد هذا الموضع عن أماكن ثمود الذين ارتبط اسمهم باسم عاد . وقد أيد هذا الرأي (شبرنكر) وجماعة من المستشرقين ، وهو أقرب الآراء الى الصواب .

وذهب الأخباريون الى وجود طبقتين لقوم عاد هما : عاد الأولى ، وعاد الثانية ، وكانت عاد الأولى ، في زعم أهل الأخبار ، من أعظم الأمم بطشاً وقوة ، وكانت مؤلفة من عدة بطون تزيد على الألف ، منهم : رقد، ورميل ، وصد، والعبود ^٦ . والظاهر أن فكرة وجود طبقتين لعاد قد نشأت عند الأخباريين من الآية : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثموداً فما أبقى » ^٧ ، فتصوروا وجود عاد ثانية ، قالوا انها ظهرت بعد هلاك عاد الأولى ^٨ .

وقد ذهب بعض العلماء الى أن (عاداً الأولى) ، هو (عاد بن عاديا ابن سام بن نوح) ، الذين أهلكهم الله ، وأوردوا في ذلك بيت شعر ينسب

١ المصدر نفسه .

٢ التكوين ، الإصحاح الرابع ، الآية ٢٠ .

٣ Forster, Vol., 2, P., 32 ff.

٤ Forster, Vol., 2, P., 32, Enc., Vol., I, P., 121, Sprenger Geogra. S. 207.

٥ البلدان (١٩٦/١) ، صفة (ص ١٢٩)

٦ Enc., Vol., I, P., 121, Sprenger, S., 207, Wensink und J H Kramers, Handwörterbuch des Islam, Leiden, 1941, S. 13.

وسأرمز اليه ب : Wensink

٧ الهلال : الجزء نفسه ، (ص ٨٩١) .

٨ سورة النجم ، سورة رقم ٥٣ ، الآية ٥٠ فما بعدها .

ابن خلدون (٢٠/٢) .

الى (زهير)^١ . وأما عاد الأخيرة ، فهم (بنو تميم) ويتزلون برمال عالج^٢ .
 وذهب الطبري الى أن عاداً الأولى ، هم نسل بن عوص بن لرم بن سام
 ابن نوح^٣ ، وأن عاداً الأخيرة هم رهط قيل بن عتر ، ولقيم بن هزّال
 ابن هزّيل بن عثّيل بن صد بن عاد الأكبر ، ومرشد بن سعد بن عفير ،
 وعمرو بن لقيم بن هزّال ، وعامر بن لقيم ، وعمرو بن لقيم بن هزّال ،
 وكانوا في أيام (بكر بن معاوية)^٤ صاحب (الجرادتين) ، وهما قيتان له
 تغنيان^٥ . وقد هلكوا جميعاً الا (بني اللوذية) ، وهم (بنو لقيم بن هزّال
 ابن هزّيل بن هزيلة ابنة بكر) ، وكانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم (آل بكر
 ابن معاوية) ، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الأخيرة ، ومن كان من
 نسلهم الذين بقوا من عاد^٦ .

وجعل بعض أهل الأخبار عدد قبائل عاد ثلاث عشرة قبيلة^٧ ، ذكروا منها :
 (رقد) و (زمل) و (صد) و (العبود)^٨ .

وجعلها (الحمداني) أحد عشر قبيلة وهي : العبود ، والخلود ، وهم رهط
 هود النبي المرسل ، وفيهم بيت عاد وشرفهم ، وهم بنو خالد . وقيل :
 بنو مخلد ، وبنو معبد ، ورفد ، وزمر وزمل ، وضد وضمود^٩ ، وجاهد ،
 ومناف ، وسود ، وهو جد^{١٠} .

وقد ذهب العلماء لمذاهب في تفسير المراد من (لرم ذات العباد) في الآية :
 (ألم ترَ كيف فعل ربك بعادٍ ، لرمَ ذات العباد)^{١١} فذهب بعضهم الى أن

١ « واهلك لقمان بن عاد وعاديا » ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، اللسان (٣١٧/٤) .

٢ اللسان (٣١٧/٤) .

٣ الطبري (٢١٦/١) « طبعة دار المعارف » .

٤ الطبري (٢١٩/١) « دار المعارف » ، وورد « معاوية بن بكر » في رواية أخرى .

٥ الطبري (٢٢١/١) وما بعدها .

٦ المصدر نفسه .

٧ المعارف (١٤) .

٨ تأمرنا لترك آل رقد وزمل وال صد والعبود

الطبري (٢٢١/١) « دار المعارف » .

٩ « ضد » و « ضمود » ، هكذا ضبط محقق الاكليل (٨٧/١) ، اللفظتين ، وقد

ضبطتا بحرف « الصاد » « صد » و (ضمود) ، أكثر المؤلفات الأخرى .

١٠ الاكليل (٨٧/١) .

١١ سورة الفجر ، سورة رقم ٨٩ ، الآية ٦ فما بعدها ، اللسان (٢٨٠/١٤) .

(إرم ذات العمد) مدينة في (تيه أبين) بين عدن وحضرموت ، وذهب آخرون الى أنها دمشق^١ أو الإسكندرية^٢ . والذي دعاهم الى هذا الرأي - على ما أرى - هو كثرة وجود المباني ذوات العمد في هاتين المدينتين وما عرف عنهما من القدم ، فوجد الأخباريون فيها وصفاً ينطبق على وصف إرم ذات العمد^٣ . وقد خلقت (باب جيرون) من أبواب دمشق قصة (جيرون بن سعد ابن عاد) الذي قالوا فيه إنه كان ملكاً من ملوكهم ، وإنه الذي اختط مدينة دمشق ، وجمع عمد الرخام والمرمر إليها ، وسماها (إرم)^٤ .

وهناك مناسبة أخرى جعلت بعض العلماء يذهبون الى أن دمشق هي (إرم) أو (إرم ذات العمد) ، فقد كانت دمشق - كما هو معروف - من أهم مراكز الإرميين (الآراميين) ، وكانت عاصمة من عواصمهم . ولهذا السبب أيضاً قال نفر من الباحثين إن (إرم) تعني (أرام) ، وأن عاداً من (الآراميين) ، وأن (عاد إرم) إنما تعني (عاد أرام) ، فالتبس الأمر على المؤرخين وظنوا أن ذات العمد صفة ، فزعموا أنها مدينة بناها عاد^٥ . غير أنه قول لا يؤيده دليل يثبت أن (إرم) في هذا الموضع تعني (أرام)^٦ . ومن الجائز أن تكون (إرم ذات العمد) هي التي أوحى الى النسابين فكرة جعل (عاد) من نسل (عوص بن ارم) ، لتشابه اسم (ارام) و (ارم) عند العرب التي هي (آرام) فأصبحت عاد من الإرميين .

١ الاكليل (٣٣/٨) ، « طبعة نبيه » ، صفة (٨٠) ، البكري (١٤٠/١) « طبعة السقا » ، منتخبات (٢) سبائك الذهب ، للسويدي (١٥) .

٢ البلدان (١٩٧/١) ، منتخبات (٢) ، مروج (٤٢٠/٢) فما بعدها ، « طبعة مينارد » ، Meynard

BOASOR, Number 73, February, 1939, p., 13, Koranic Iram, Legendary and Historical, by, Harold W. Glidden.

٣ « والعجم تذكر ان ارم ذات العمد بدمشق ، وان جيرون بن سعد بن عاد بنى مدينتها ، وسماها جيرون ذات العمد ، لكبر اعمدة حجارتها » ، الاكليل (٣٣/٨) « طبعة نبيه » .

٤ ابن خلدون (١٩/٢) ، المسعودي ، مروج (٤٢٠/٢) الاكليل (٣٣) « طبعة نبيه » BOASOR, Number 73, P., 13, (1939).

٥ « وكان يقال لعاد في دهرهم عاد ارم » ، الطبقات (١/١ ص ١٩) ، البكري ، معجم (٤٨/١) .

٦ Enc., Vol., I, P., 121.

ويرى بعض المستشرقين أن الذي حمل الأخباريين على القول إن (الإسكندرية) هي (إرم ذات العماد) ، هو أثر قصص الإسكندر في الأساطير العربية الجنوبية ذلك الأثر الذي نجده في كتب القصص اليونانيين ، في مثل كتاب (التيجان) المنسوب إلى وهب بن منبه ، وفي الرواية اليانانية . وقد حاول الإسكندر كما نعرف احتلال اليمن ، فغدا (شداد بن عاد) بانياً للإسكندرية ، وأصبح (الإسكندر) مكتشفاً لها^١ .

وقد فسر العلماء لفظة (إرمي) الواردة في بيت الحارث بن حازمة الشكري :

إِرْمِيَّ بِمِثْلِهِ جَالَتْ الْجَنِّ قَابَتُ لِحْصَمِهَا الْأَجْلَاءِ

بأنها نسبة إلى (إرم عاد) في قدم ملكه ، وقيل في حلمه^٢ . ونسب بعض أهل الأخبار لـ (عاد) ولدأ ، دعوه (شداداً) قالوا : إنه كان قوياً جباراً ، سمع بوصف الجنة ، فأراد بناء مدينة تفوقها حسناً وجمالاً ، فأرسل عماله ، وهم : (غانم بن علوان) ، و (الضحاك بن علوان) ، و (الوليد بن الريان) ، إلى الآفاق ، ليجمعوا له جميع ما في أرضهم من ذهب وفضة ودرّ وياقوت ، فابتنى بها مدينته ، مدينة (إرم) باليمن ، بين حضرموت وصنعاء ، ولكنه لم ينعم بها إذ كفر بالله ، ولم يصدق بنبوّة (هود) ، فهلك . وتولى من بعده ابنه (شديد)^٣ .

وزعم بعض النسابين أن نسب (شداد) هو على هذه الصورة : (شداد ابن عمليق بن عويج بن عامر بن إرم) ، فأبعدوه بذلك عن (عاد) . وقيل في نسبه غير ذلك^٤ .

ويفهم من القرآن الكريم أن مساكن (عاد) بالأحقاف ، (واذكر أنما عاد ، إذ أنذر قومه بالأحقاف)^٥ . والأحقاف : الرمل بين اليمن وعمان إلى

١ BOASOR, Number, 73, P., 13., (1939).

٢ المعاني الكبير (٨٢٦/٢) .

٣ وقيل أخوه ، البلدان (١٩٨/١) ، « يقول اليمانية وأكثر العلماء في البلاد : أن إرم ذات العماد في تيه إيبين ، وهو غائط بين حضرموت وبين إيبين » ، الأكليل (٣٣/٨) .

٤ « عويج » ، البلدان (١٩٩/١) .

٥ سورة الأحقاف ، سورة رقم ٤٦ ، الآية ٢١ ، اللسان (٣٩٨/١٠) .

حضر موت والشحر^١ . وديارهم بالدو^٢ والدهناء وعالج ويبرين ووبار الى عمان الى حضر موت الى اليمن . وقد اندفع أكثر الأخباريين يلتمسون مواضعهم في الصحارى ، لأنها أنسب المواضع التي تلائم مفهوم الأحقاف ، فوضعوا من أجل ذلك قصصاً كثيراً في البحث عن مواطن عاد وقبور عاد، ورووا في ذلك كثيراً من قصص المغامرات التي تشبه قصص مغامرات لصوص البحر^٣ .

وفي بعض الأخبار : أن (عاداً) لجلت بالشحر ، فسكنت به، وعليه هلكوا بوادٍ يقال له (مغيث) . فلحقهم بعد (مهرة) بالشحر^٤ . وقد سبق أن قلت : إن Oaditae الذين ذكرهم (بظلمبوس) هم قوم (عاد) ، ولأنهم كانوا يسكنون في الأرضين الشمالية الغربية من جزيرة العرب في منطقة (حسمى) ، أي في أعالي الحجاز ، وعلى مقربة من مناطق ثمود . وهو أقرب الى الصواب ، إذ اقترن ذكر عاد في القرآن بذكر (ثمود الذين جابوا الصخر بالواد) ^٥ . (حسمى) أقرب الى هذا الوصف من الرمال . ولم يعين القرآن موضع الأحقاف ، وإنما عينه المفسرون ، ولا يحتم تفسيرهم تخصيص الأحقاف بهذا المكان ، حيث جعلوا رمال (وبار) في جملة المناطق التي كانت لعاد^٦ .

وقد ذهب (موريتس) الى أن موضع (Aramaua) الذي ورد عند (بظلمبوس) ، وهو (لرم) ، أو (لرم ذات العاد) . ويقال له الآن (رم) ^٧ . وقد أيد (موسل) رأى (موريتس) غير أنه لم يذهب الى ما ذهب اليه من أنه (لرم) ^٨ . وقد أظهرت الحفريات التي قام بها (المعهد الفرنسي) في القدس ، صحة هذا الرأي ، إذ ورد في الكتابات (النبطية) التي عثر عليها في خرائب معبد اكتشف في (رم) أن اسم الموضع هو (لرم) ^٩ . فيتضح من

١ ابن خلدون (١٩/٢) ، « والحقف وجمعه احقاف ، وهي الرمال . وكانت الاحقاف رمالا قبل عمان الى حضر موت . قال : وكانت منازل عاد » ، المفضليات (١٥) « والاحقاف : رمال بأعيانها في اسفل حضر موت » ، منتخبات (٢)

٢ المعارف (١٤) .

٣ الطبري (٢٠٨/١) « دار المعارف » .

٤ الفجر ، سورة رقم ٨٩ ، آية ٩ .

٥ ديوان الطرماح ، « طبعة كرتكو » ، (١٤٨) .

٦ B. Moritz, Ausflüge in der Arabia Petraea, in MFOB, III, S. 395.

٧ Musil, The Northern Hegaz, P. 273, BOASOR, Number, 73, P. 15 (1939).

٨ BOASOR, Number, 73, P. 15, (1939).

ذلك أن هذا الموضع حافظ على اسمه القديم، غير أنه صار يعرف أخيراً بـ (رم) بدلاً من (لرم) .

وفي سنة ١٩٣٢ قام (هورسفيلد) Horsfield من دائرة الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية بحفريات في موضع جبل (رم) ، ويقع على مسافة (٢٥) ميلاً الى الشرق من العقبة ، ويقع المكان الذي بحث فيه عند واد ، وعلى مقربة منه (عين ماء) ، ووجد في جانب الجبل آثاراً جاهلية قديمة^١ . وقد حملت اكتشافاته هذه واكتشافات (سافينياك) Savignac واكتشافات (كليدن) H. W. Glidden على القول : إن هذا المكان هو موضع (لرم) الوارد ذكره في القرآن، والذي كان قد حل به الخراب قبل الإسلام ، فلم يبق منه عند ظهور الإسلام غير عين ماء كان يتزل عليها التجار وأصحاب القوافل الذين يمرون بطريق الشام - مصر - الحجاز^٢ .

وذكر (ياقوت الحموي) اسم مكان سمّاه (جش لرم) ، قال عنه : إنه اسم جبل عند (أجا) أحد جبلي طيء ، أجلس الأعلى ، سهل ترعاه الإبل، وفي دروته مساكن لعاد ولرم ، فيه صور منحوتة من الصخر^٣ . ففرق (ياقوت) هنا بين عاد ولرم ، وجعلهما قومين : قوم عاد وقوم لرم ، وقد تكون الواو بين الكلمتين زيادة من الناسخ، فيبطل حينئذ الاستدلال على تفريق ياقوت بينهما . وفي الكتب العربية أسماء محلات أخرى قديمة عثر فيها على نقوش وتماثيل، وصفت أنها من مساكن قوم عاد .

وبالإضافة الى المواضع التي أشير فيها الى (عاد) في القرآن الكريم^٤ ، فقد أشير اليهم في الشعر الجاهلي كذلك في شعر طرفة^٥ وفي شعر النابغة^٦ وفي شعر

١ BOASOR, Number 73, P. 14, (1939), Revue Biblique, XLI, (1932), PP. 581, XLII, (1933), PP., 405, XLIII, (1934), PP., 572, XLIV, (1935), PP. 245.

٢ BOASOR, Number 73, P. 15, (1939).

٣ بالفتح والضم ثم التشديد ، النجفة وفيه ارتفاع ، البلدان (١٠٧/٣) .
٤ سورة الحج ، رقم ٢٢ ، آية ٤٢ ، سورة الحاقة ، ٦٩ ، آية ٦٤ ، سورة الفرقان ، ٢٥ ، آية ٣٨ ، سورة فطت ، ٤١ ، آية ١٣ ، سورة الاعراف ، ٧ ، آية ٦٥ ، سورة هود ، آية ٥٠ .

٥ طرفة ١ ، ٨ ، Enc., Vol., I, P. 121.

٦ احلام عاد واجساد مطهرة من العفة والافات والائم

ديوان النابغة مع شرحه للبطلبيوسي (٧٤) ،

البطلبيوسي (٧٤) ، Enc., Vol., I, P. 121.

زهير^١ وفي شعر المهذلين^٢ ، وفي شعر طفيل بن عوف الغنوي^٣ ، وفي شعر (متمم بن نويرة) شقيق (مالك بن نويرة) ، وهو من الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام^٤ ، وفي شعر (أمية بن أبي الصلت) ، وهو ممن عاش في أيام الرسول كذلك^٥ ، وفي شعر غيرهم من الشعراء الجاهلين المخضرمين^٦ .

وورد في شعر لزهير بن أبي سلمى (أحر عاد)^٧ ، وضرب المثل بشؤم أحر عاد ، فقيل : أشأم من أحر عاد^٨ . وجعل الشاعر (أبو خدّاش الهذلي) (كليب وائل) كأحر عاد في الشؤم ، وذلك بسبب الحرب التي هاجت بين

- ١ فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم
معلقة زهير ، البيت ٣٢ ، Enc., I, P., 121.
- ٢ ديوان الهذليين ، XXXX, 6 ، ٣١ ، ديوان هذيل ، ٥٣١
- ٣ شعر طفيل بن عوف الغنوي ، رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي (طبعة لوزاك ١٩٢٧) ، سلسلة « كب » بعناية « ف . كرتكو » ، (ص ١٣٥ ، ١٤٨) .
« لنا الجبلان من أرمّان عاد » .
- ٤ أفنين عاداً ثم آل محرق فتركهم بلداً وما قد جمعوا
شرح الفضليات (ص ٧٨) ، (٢٤/٢) ، ملحوظة ٤ ، الفضليات (ص ١٤)
« طبعة السندوبى » .
- ٥ فقال : ألا لا تجزعي وتكلبني ملائكة من رب عاد وجرهم
ديوان « أمية بن أبي الصلت » ، « طبعة بشير يموت » (ص ٥٨) ، بيروت ١٩٣٨
Friedrich Schulthess, Uman Ibn Abi-Salt, Leipzig, 1911, S. 48.
- ٦ سويد بن أبي كاهل :
غلبت عاداً ومن بعدهم فأبت بعد فليست تتضع
الفضليات (٤٠٤) ، قول « صريم بن معشر بن ذهل » الملقب بأفنون من شعراء الجاهلية :
لو أنني كنت من عاد ومن أرمّان ربيت فيهم ولقمان ومن جدن
الفضليات (ص ٥٢٥) ، وقال الطرمّاح بن حكيم :
لنا الجبلان من أرمّان عاد ومجتمع إلا لاءة والفضاة
ديوان الطرمّاح (ص ١٣٥) ، سلسلة « كب » ، لندن ١٩٢٧ ، بعناية « كرتكو » .
- ٧ فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كاحمر عاد ثم ترضع فتفطم
معلقة زهير ، بيت ٣٢ .
- ٨ الأمثال (ص ١١) ، « طبعة حيدر أباد الدكن » ، ابن قتيبة الدينوري ، المعاني الكبير (٨٧٩/٢ ، ١٠٢٣) .

بكر وتغلب^١. وقد نص (ابن قتيبة الدينوري) على أن المراد من (أحر عاد) (أحر ثمود) الذي عقر الناقة^٢.

ويدل ورود خبر (عاد) في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي على أن القصة كانت شائعة بين عرب الجاهلية معروفة عندهم ، وأنهم كانوا يتصورون أن قوم (عاد) كانوا من أقدم الأقوام ، ولذلك ضُربَ بقدمهم المثل حتى لأنهم كانوا ينسبون الشيء الذي يريدون أن يبالغوا بقدمه ، الى عاد ، فيقولون إنه (عادي). وإذا رأوا أثراً قديماً أو أثلاً قديماً عليها نقوش لا يعرفون صاحبها ، قالوا إنها عادية ، أي من أيام عاد^٣. وإذا رأوا بناءً قديماً لا يعرفون صاحبه ، قالوا إنه بناء عادي^٤. وقد تحدث (المسعودي) عن أشجار عادية ، أي قديمة جداً^٥. ولهذا السبب رأى (وهوزن)^٦ أن كلمة (عاد) لم تكن اسم علم في الأصل ، بل كان يراد بها القدم ، وأن كلمة (عادي) تعني منذ عهد قديم جداً ، وكذلك كلمة (من عاد) أو (من العاد) ، أو من (عهد عاد). وان المعنى هو الذي حل الناس على وضع تلك الأساطير عن أيام (عاد)^٧.

وقد جعل بعض الشعراء أيام (عاد) من أوليات الزمان ، التي جاءت بعد (نوح)^٨ وجعل بعض آخر لفظة (إرمي) ، بمعنى (عادي) ، أي قديم

١ المعاني الكبير (١٠٢٣/٢) .

٢ المعاني الكبير (٨٧٩/٢ ، ١٠٢٣) .

٣ لعادية من السلاح استعرتها

وكان بكم فقر إلى الفدر او عدم
المفضليات (ص ٦١٣) ، « والعادي الشيء القديم » ، اللسان (٣١٧/٤) ،
الحماسة « طبعة فرايتاغ » Freytag (١٩٥/١ ، ٣٤١) ،

Causin de Perceval, Essai, Vol. I, P. 259, Blochet, Le Culte D'Aphrodite.

Sprenger, Das Leben, Bd., I, S., 512. ٤

٥ المصدر نفسه .

٦ قال أبو دواد الأبادي :

الا ابلغ خزاعة أهل مر
تركنا دارهم لآثرونا
واخوتهم كنانة عن اباد
وكننا اهلها من عهد عاد
التنبية والاشراف (ص ١٧٥) ، « طبعة الصاوي » .

Wensick, P., 13. ٧

٨ وقال بعض طيء :

وبالجبيلين معقل
ملكناه فسي اوليات الزمان
صعدنا اليه بسم الصعاد
من بعد نوح ومن قبل عاد
الاكليل (٩٠/١) .

كأنه من عهد إرم وعاد ، أو كأنه في الحكم من عاد^١ .
وقد ضرب المثل في القرآن الكريم بقدم (قوم نوح) وقوم (عاد وثمود)
حتى إن أخبارهم خفيت عن الناس فلا يعلمها إلا الله : (ألم يأتيهم نبأ الذين
من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) ، وفي
ذلك دلالة على أن الناس في أيام الرسول كانوا يرون أن الأقوام المذكورة هي
من أقدم الأقوام ، ولهذا ذكروا بهم للاعطاء^٢ .

وقد ورد ذكر عاد في الكتاب الذي وجهه (يزيد بن معاوية) الى أهل
المدينة يهددهم فيه بمصير يشبه مصير (عاد وثمود) ، حيث يتزل بهم عقاباً
شديداً ويصيرهم حديثاً للناس ، (واترككم أحاديث تنسخ بها أخباركم مع أخبار
عاد وثمود)^٣ . وقال (سبيع) لأهل اليمامة : « يا بني حنيفة بعداً كما بعدت
عاد وثمود »^٤ .

وضرب المثل برجل من (عاد) اسمه (ابن بيض) ، زعموا أنه كان من
عاد ، وكان تاجراً مكثرأ عقر ناقة له على ثنية ، فسد بها الطريق على السابلة ،
فضرب به المثل^٥ .

وزعم أهل الأخبار أن رجلاً غنياً من بقية (عاد) اسمه (حمار) كان متمسكاً
بالتوحيد ، فسافر بنوه ، فأصابتهم صاعقة فأهلكتهم ، فأشرك بالله وكفر بعد
التوحيد ، فأحرق الله أمواله وواديه الذي كان يسكن فيه فلم ينبت بعده شيء .
ويزعمون أن (امرأ القيس) الشاعر ذكر ذلك الوادي في شعر له^٦ .
ويذكر أهل الأخبار أن المكان الذي كان فيه (حمار) المذكور هو (جوف) ،
وهو موضع في ديار عاد ، وقد نسب إليه ، ف قيل (جوف حمار) ، نسبة الى

١ الاكليل (٨٩/١) وما بعدها .

٢ التنبيه والاشراف (ص ٨٢) .

٣ عيون الاخبار ، لابن قتيبة (٢٠٢/١) .

٤ المصدر نفسه (٢٣٣/١) .

٥ ورد في شعر بشامة بن عمرو :

كثوب ابن بيض وقاهم به فسد على السالكين السبيلا

المفضليات (ص ١٦) « طبعة السندوبي » .

٦ ووداد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل

شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، (ص ٢٨) « طبعة دار صادر » .

(حمار بن مويلع) ، فلما أشرك بالله وكفر ، أرسل الله ناراً عليه فأحرقتة وأحرقت الجوف أيضاً ، فصار ملعباً للجن لا يستجريء أحد أن يمر به ، والعرب تضرب به المثل ، فتقول : (أخلى من جوف حمار)^١ .

هود :

ويرد مع قوم (عاد) ذكر نبي منهم ، هو (هود) ، وقد نعت في القرآن الكريم بـ (أخي عاد) : « والى عاد أخوهم هوداً » قال : يا قوم ، عبدوا الله^٢ . كما نعت القرآن عاداً بقوم هود : « ألا ، إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بَعْدَ عاد قوم هود^٣ . » قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح^٤ . وقد نسبته الناسيون إلى (الخلود بن معبد بن عاد)^٥ ، وإلى (عبدالله بن رباح ابن جابو بن عاد بن عوص بن لرم)^٦ ، وإلى (عبدالله بن رباح بن الخلود ابن عاد بن عوص بن لرم)^٧ ، ومن أهل الأنساب من زعم أنه (عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح) ، إلى غير ذلك من روايات^٨ .

وقد وردت قصته مع قومه ونبيه لهم عن عبادة الأصنام في القرآن الكريم^٩ . وقد ضرب المثل بكفر رجل من عاد ، اسمه (حمار) ، ف قيل : (أكفر من حمار) ، قالوا : « هو رجل من عاد ، مات له أولاد ، فكفر كفراً عظيماً ، فلا يمر بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر ، فإن أجابه ، والا قتله »^{١٠} . وذلك على نحو ما ذكرته عنه قبل قليل . وهي قصة واحدة ، رويت بطرق متعددة ،

-
- ١ البكري ، معجم (٤٠٥/١) .
 - ٢ الأعراف ٧ ، آية ٦٥ ، سورة هود ، ١١ ، آية ٥٠ ، الشعراء ٢٦ ، آية ١٢٤ .
 - ٣ هود ، ١١ ، آية ٦٥ .
 - ٤ هود ، ١١ ، آية ٨٩ .
 - ٥ نهاية الأرب (٥٢/١٣) ، الأكليل (٩٣/١) .
 - ٦ المعارف (١٤) .
 - ٧ الطبري (٢١٦/١) « دار المعارف » .
 - ٨ الطبري (٢١٦/١) ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (١٢٠/١) .
 - ٩ سورة هود ، ١١ ، آية ٦٥ ، ٧٩ ، الشعراء ٢٦ ، آية ١٢٤ ، الأعراف ٧ ، آية ٦٥ .
 - ١٠ اللسان (٢٩٥/٥) .

تختلف في التفاصيل ، لكنها متفقة من حيث الفكرة والجوهر، وعليها طابع قصص الوعظ وأهل الأخبار . وقد ذكر أصحاب الأخبار أن غالبية (عاد) كفرت بنبو (هود) ، ولم تؤمن به ، لهذا أصابها العذاب والمهلك . ولم ينج منهم الا من آمن بـ (هود) واتبعه وسار معه حين ترك قومه : قوم عاد .

وقد نبه المستشرقون الى وجود شبه بين هود و (هود) الواردة في القرآن أيضاً بمعنى (يهود)^١ : « وقالوا كونوا هوداً ، أو نصارى ، تهتدوا »^٢ : وأشاروا الى أن (هوداً) تعني اليهود ، أي الدخول في اليهودية ، كما لاحظوا ان بعض النسايب قالوا ان هوداً هو (عابر بن شالح بن أرفكشاد) جد اليهود ، فذهبوا الى أن هوداً لم يكن اسم رجل ، وإنما هو اسم جماعة من اليهود هاجرت الى بلاد العرب ، وأقامت في الأحقاف ، وحاولت تهويد الوثنيين ، وعرفوا يهوداً ، ومنها جاءت كلمة (هود)^٣ ، وانها استعملت من باب التجوز علماً لشخص^٤ .

وزعم الرواة ان هوداً ارتحل هو ومن معه من المؤمنين بعد النكبة التي حلت بقومه الكافرين من أرض عاد الى الشحر . فلما مات دفن بأرض حضرموت^٥ . ويدعي الرواة انه قبر في وادٍ يقال له (وادي برهوت) غير بعيد عن (بئر برهوت) التي تقع في الوادي الرئيسي للبيعة الأودية^٦ . وهي من الآبار القديمة

١ اللسان (٤٥١/٤) ، القاموس (٣٤٩/١)
Enc., Vol. 2, P. 327. f., Hirschfeld, Beitrage zu Erklarung des Koran,
Leipzig, 1886, S., 17, Note, 4.

٢ البقرة ، ٢ ، آية ١١١ ، ١٣٥ ، ١٤٠
٣ الهلال ، ٢٣ ، سنة ٦ ، جزء اب ، ١٨٩٨ (ص ٨٩٤) .
٤ « والهود : جمع هائد ، وهو التائب ، والهود : اليهود ، قال الله تعالى : « كونوا هوداً أو نصارى » . التهويد : المشي الرويد ، وفي حديث عمران بن حصين : اذا مت فخرجتم بي فاسرعوا المشي ولا تهودوا كما تهود اليهود والنصارى » ، « وهود الانسان ولده : أي جعله على دين اليهود » ، منتخبات (ص ١١١ وما بعدها) ،
Enc. Vol., 2, P., 328.

٥ « قال الواقدي : « ما يعلم موضع قبر نبي من الانبياء ، الا ثلاثة : قبر اسماعيل فانه تحت الميزاب بين الركن والبيت ، وقبر هود ، فانه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة تندى وموضعه اشد الارض حرا ، وقبر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فان هذه قبورهم بحق » ، الطبقات ، القسم الاول من الجزء الاول (ص ٢٥) ، « تحقيق سخو » ، نهاية الارب (٦٠/١٣) ،
Forster, Vol., 2, PP., 374.

٦ البكري ، تاريخ حضرموت السياسي (٦٥/١ فما بعدها) .

التي اشتهرت في الجاهلية بكونها شر بشر في الأرض ، ماؤها أسود ممتن ، تتصاعد من جوفها صيحات مزعجة ، وتخرج منها رواائح كريهة ، ولذلك تصور الناس انها موضع تتعذب أرواح الكفار فيه^١ .

ويذهب السياح الذين زاروا هذا المكان ودرسوه الى انه موضع بركان قديم ، يظهر أنه انفجر ، فأهلك من كان حوله . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في الكتب العربية من أنه كان يسمع لهذا المكان أصوات كالرعد من مسافات ، وأنه كان يقدف ألواناً من اللحم يسمع لها أزيز رابع^٢ . ومن هنا نشأت قصة قبر هود ، وعذاب عاد في هذا الموضع ، على رأي المستشرق (فون كريبمر)^٣ .

ولا يزال هذا الموضع الذي يقال له (قبر هود) ، يزار حتى الآن ، يقصده الناس من أماكن بعيدة في اليوم الحادي عشر من شعبان للزيارة ، وربما كان من الأماكن التي كان يقدسها الجاهليون^٤ .

وفي هذه المناطق آثار مدن بائدة ، وقرى جاهلية ، وتشاهد كهوف ومغاور على حافتي الوادي ، وكتابات وصور منقوشة على الصخور تدل كلها على أنها كانت من المناطق المأهولة ، وأنها تركت لسبب آفات وكوارث طبيعية نزلت بهذه الديار^٥ .

ورأى نفر من المستشرقين أن هذا المكان الذي فيه قبر (هود) هو الموضع الذي سماه الكتاب اليونان Styx أو Stygis ، والذي زعم الرومان أن قبيلتين من قبائل جزيرة (اقريطش) (كريت) وهما قبيلة Minos و (رودوماتنس)

١ البلدان (١٥٧/٢) ، « خير بشر في الأرض زمزم ، وشر بشر في الأرض برهوت » ، منتخبات (ص ٧) ، « برهوت وأد معروف قيل هو بحضرموت ، وفي حديث علي عليه السلام : شر بشر في الأرض برهوت . هي بفتح الباء والراء ، بشر عميقة بحضرموت لا يستطيع النزول الى قعرها . ويقال : برهوت بضم الباء وسكون الراء » ، اللسان (١٤٣/١) ، (٣١٤/٢) .

٢ تاريخ حضرموت السياسي (٦٧/١) .
٣ « ويفيض وادي ثوبة الى بلد مهرة ، وحيث قبر هود النبي ، صلى الله عليه ، وقبره في الكتيب الاحمر ، ثم منه في كهف مشرف في أسفل وادي الاحقاف ، وهو واد يأخذ من بلد حضرموت الى بلد مهرة مسيرة أيام ، وأهل حضرموت يزورونه هم وأهل مهرة في كل وقت » ، صفة (ص ٧) ،
von Kremer, Über die Suedarabische Sage, S., 21.

٤ تاريخ حضرموت السياسي (٦٢/١) ، Enc., Vol., I, P., 634.
٥ تاريخ حضرموت السياسي (٦٢/١) ، الهلال : الجزء السادس عشر ، السنة السادسة ، نيسان ١٨٩٨ (ص ٦٠٥) .

Rhodomantys تركنا موطنها الأصلي، وارتحلنا الى هذا المكان الذي ضم مئات من القبائل العربية ، فكانتا من أقواها . وقد سكنتا في رأيهم ، على مقربة من موضع سماه (بلينيوس) Stygis Aguniae Fossa^١ .

أما الأخباريون الذين زعموا أن (هوداً) اعتزل قومه بعد يأسه من قبول دعوته ، وأنه ذهب مع من آمن به الى مكة ، فقد ذهبوا الى أنه عاش فيها أمداً ، ثم مات هناك ، فقبّره بمكة مع قبور ثمانية وتسعين نبياً من الأنبياء^٢ . وذكر جماعة أنه بدمشق في المسجد الأموي^٣ . ولعل القصص الوارد عن (دمشق) ، وأنها (لأم ذات العباد) هو الذي أوحى الى هؤلاء فكرة جعل قبر (هود) بدمشق . ومهما يكن من شيء فإن هناك جماعة من أهل الأخبار قبرت بعض الأنبياء في هذه المدينة ، واختارت المسجد الأموي نفسه مقبرة لهم . ولعل ذلك بسبب أن هذا المسجد كان كنيسة معظمة قديمة عند أهل دمشق قبل دخولهم في الإسلام ، وكان قد قبر فيها جماعة من قديسيهم ورجال دينهم ، فلما تحولت الكنيسة الى جامع تحولت قبور هؤلاء بعواطف الناس القديمة الى قبور أنبياء . وقد ظهر مثل هذه الروايات التي تمجد الجامع الأموي في الوقت الذي تحصن فيه (ابن الزبير) بمكة ، وتحزب أهل الحجاز على الأمويين .

وقد اتخذ القحطانيون هوداً جداً من أجدادهم ، وألحقوا نسبهم به ، وتفاخروا به^٤ . فعلوا ذلك بدافع العصبية والمفاخرة على العدنانيين الذين كانوا يقولون إن فيهم الأنبياء ، ولم يكن في قحطان نبي ، فأوجد نسباً لهم نسباً يوصلهم الى الأنبياء ، كما أوجدوا لهم نسباً احتكر لهم العروبة ، وجعلهم الأصل والعدنانيون من الطائرين عليهم ، كما سيأتي الحديث عن ذلك .

١ Enc. Vol. I, P. 654, Wensinck, P. 175.

٢ أخبار مكة ، للزركي (٣٠/١ وما بعدها) ، Enc., Vol. 2, P. 327.

٣ رحلة ابن بطوطة (٢٠٥/١) ، (٢٠٣/٢) « طبعة باريس » .

٤ « هود النبي ، عليه السلام ، المرسل الى عاد المنكور في القرآن ، هو أبو قحطان قحطان بن هود . قال حسان :

ابونا نبي الله هود بن عابر

وهو هود بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح النبي » ، ابن خلدون (٢٠/٢) ، نهاية الارب (٥١/١٣) ، ديوان النابغة مع شرحه للبطلوسي (ص ٦٣ فما بعدها) التنبيه والاشراف (ص ٧١) « طبعة الصاوي » .

وإذا صح أن الشعر المنسوب إلى حسّان بن ثابت الذي افتخر فيه بانتسابه إلى (هود بن عابر) ، وبأن قومه وهم من (قحطان) منهم ، هو لهذا الشاعر حقاً ، يكون لدينا أول دليل يثبت أن هذا الانتساب كان معروفاً عند ظهور الإسلام^١ . وأن أهل (يثرب) ، وهم من الأوس والخزرج ، وهم من قحطان في عرف النسّابين ، كانوا قد انتسبوا إليه قبل الإسلام . أخذوا ذلك من اليهود النازلين بينهم ، الذين كانوا يحاولون التقرب إلى أهل يثرب ، للعيش معهم عيشة طيبة . فأشاعوا بين الناس أن (عابراً) ، وهو جد العبرانيين ، ووالد ولدين هما (فالغ) و (يقطان) كان جدّهم وجد أهل يثرب ، لأن أصلهم من يقطان ، وأن علاقتهم لذلك بهم هي علاقة أبناء عمّ بأبناء عم . ولما نزل الوحي بنجر (هود) ، وتفاخر المكّيون على أهل يثرب بالإسلام ، استعار أهل يثرب (هوداً) ، وصبروه (قحطاناً) ، أو ابناً له ، وانتسبوا إليه ، ليظهروا بذلك أنهم كانوا أيضاً من نسل نبي ، وإن نبوءة قدمة كانت فيهم ، وقد كان (حسّان بن ثابت) من المتعصبين للأزد قوم أهل يثرب ، والأزد من قحطان ، وكان من المتباهين بيمين وقحطان .

لقمان :

ومن قبائل عاد قبيلة كان فيها (لقمان) الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وفي الشعر الجاهلي وفي القصص^٢ . وقد ضرب به المثل بطول العمر ، فعُدّ في طليعة المعمرين^٣ ، وعدّه (أبو حاتم السجستاني) ثاني المُعمرين في العالم بعد

١ « أبونا نبي الله هود بن عابر » ، وسأتكلم عن ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب وعندني أنه متحول ، وأنه حمل عليه .

٢ سورة لقمان ، تفسير الطبري (٣٩/٢١) « القاهرة ١٣٢١ هـ » ، قال صريم بن معشر بن ذهل المعروف بـ « أفنون » :

لو أنني كنت من عاد ومن أرم
المفضليات (ص ٥٢٥) ، ديوان النابغة مع شرحه للبطلوسي (ص ٧٥) .
نمين فلا له في سوق رأس
إلى لقمان في سوق مقام
البيان والتبيين (٢٣/١)

٣ Enc., Vol., 3, P. 35, Goldziher, Abhandlungen zur arabischen Philologie, S. 2, ٣
Leiden, 1899, Rene Basset, Loqman Berbere, Paris, 1890, Wensinck, P. 365.

الخضر^١ . وقد كان عرب الجاهلية يعرفون قصص (لقمان) ، وكانوا يصفونه بالحكمة . وقد وُصف في القرآن الكريم بهذه الصفة : « ولقد آتينا لقمان الحكمة »^٢ . ولهذا السبب عرف بين الناس وفي الكتب بـ (لقمان الحكيم) . وذكر عنه انه كان (حكيماً عالماً بعلم الأبدان والأزمان)^٣ وانه طلب من الله أن يُعَمَّرَ طويلاً فأعطاه طلبه : وُعمرَ عمر سبعة أنسر ، وذكر الأخباريون أن آخر نسر أدركه ، وهلك بهلاكه اسمه (لبـد) . قالوا واليه يشير (النابغة) بقوله :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبـد^٤

وقد أكرت العرب في صفة طول عمر النسر ، وضربت به الأمثال . وبلبد ، ويصحة بدن الغراب . وذكروا في ذلك شعراً ، منه ما نسب الى (الخارجي) في طول عمر (معاذ بن مسلم بن رجاء) ، مولى القعقاع بن حكيم :

يا نسر لقمان ، كم تعيش ، كم تليس ثوب الحياة يا لبـد^٥ ؟
قد أصبحت دار حمير خربت وأنت فيها كأنك الودد^٦
تسأل غير بانها اذا حـجـجـلت كيف يكون الصداق والرمـد^٧ ؟

ويذكر أهل الأخبار ان (لقمان) قد عرف لذلك بـ (لقمان النسر) ، لأنه عُمِّرَ عمر سبعة نسور^٨ . وذكر بعض أهل الأخبار انه عُمِّرَ مائة وخمسين سنة ، وانه لما مات قبر بحضرموت ، أو بالحجر من مكة^٩ . وهو عمر لا يتناسب مع ما يذكره أهل الأخبار من طولهِ ، ومن انه يعادل عمر سبعة نسور . أما

١ ابو حاتم السجستاني : كتاب المعمرين « طبعة كولدتزهر » ، (ص ٢) ، Goldziher, Abhandlungen, 2, S. 2, Enc., Vol., 3, P. 35.

٢ سورة لقمان ٣١ ، آية ١٢ .

٣ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) .

٤ الفاخر (ص ٦٨) ، الطبري (٢٢٣/١) ، « دار المعارف » ، عيون الأخبار (٥٩/٤) ، نهاية الارب (٦٠/١٣) وما بعدها ، ابو الفداء ، المختصر (٢١/١) وما بعدها ، « دار الكتب اللبنانية » ، الكامل ، لابن الاثير ، (٩٩/١) وما بعدها .

٥ مروج الذهب (٩٢/٢) وما بعدها ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد .

٦ نهاية الارب (٦٠/١٣) وما بعدها .

٧ الكامل ، لابن الاثير (٩٩/١) وما بعدها .

(السجستاني) ، فجعل عمره خمسمائة سنة وستين . وهو عدد أخذه من عمر النور المذكورة ، اذ عاش كل نسر ثمانين عاماً ، والعدد المذكور هو مجموع عمر تلك النور السبعة . غير ان من الأخباريين من أعطاه عمراً قدره بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة^١ . وهو عمر يؤهله ولا شك لأن يكون في عداد المعمرين . وقد ورد اسم لقمان على انه اسم خنّار في شعر منسوب للناطقة حيث يقول :

كان مشعشعاً من خمر بصرى نمته البخت مشدود الخيام
حلن قلالة من بين رأس الى لقمان في سوق مقام^٢

وجعلوا للقمان نسباً هو (لقمان بن عاد)^٣ ، وصبروه (لقمان بن ناحور بن تارخ) ، وهو (آزر) أبو (ابراهيم)^٤ . وقال بعضهم : بل هو ابن أخت (أيوب) ، أو ابن خالته ، وجعله آخرون من حمير ، فقالوا له : (لقمان الحميري)^٥ ، وصبره آخرون قاضياً من قضاة (بني اسرائيل)^٦ . وقد اشتهر عند المسلمين بالقضاء ، ويظهر أن هذا السبب هو الذي جعل الواقدي يقول : إنه كان قاضياً في بني اسرائيل . ولم يفتن الأخباريون الى هذه الأخبار المتناقضة التي تخالف رواياتهم في عاد ، وأنها من أمم العرب البائدة ، إلا اذا جعلناه من الطارئين على قوم عاد الداخلين فيهم ، فهو غريب بين قوم عاد .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن الأخباريين كانوا يرون وجود لقمان آخر ، هو غير لقمان عاد . فقد زعموا أنه كان في عهد (داوود) لقمان ، عرف به (لقمان الحكيم) . وقد نسبوا بعضهم على هذا النحو : (لقمان بن عتقاد) ، وقد زعم (المسعودي) ، أنه كان نوبياً ، وأنه كان مولى للقين ابن جسر ، ولد على عشر سنين من ملك داوود ، وكان عبداً صالحاً ، من الله عليه بالحكمة ، ولم يزل باقياً في الأرض مظهراً للحكمة في هذا العالم الى

١ المعمرون (ص ٤) « طبعة عبد المنعم عامر » .

٢ البكري ، معجم (١١٦١/٣) .

٣ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) ، نهاية الارب (١٣/٦٠) ، البيان والتبيين (١٧٤/٣) .

٤ قصص الانبياء ، للثعالبي ، (ص ٢٠٥) .

٥ منتخبات (ص ٩٥ فما بعدها) .

٦ قصص الانبياء (ص ٢٠٥) .

أيام يونس بن متى حين أرسل الى أرض نينوى في بلاد الموصل^١ .
وهناك من فرق بين (لقمان بن عاد) وبين (لقمان) المذكور في القرآن ،
قال الجاحظ : (وكانت العرب تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر ،
ولقيم بن لقمان في التباهة والقدر وفي العلم والحكم ، في اللسان وفي الحلم ، وهذان
غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقوله المفسرون)^٢ . وقد أورد
الجاحظ جملة أبيات للنمر بن تولب في لقمان وليم^٣ .

وقد ذكر الجاحظ أنه كانت للقمان أخت محمقة ، تلد أولاداً حمقى ، فذهبت
الى زوجة لقمان ، وطلبت منها أن تنام في فراشها حتى يتصل بها لقمان ، فتلد
منه ولداً كيساً على شاكلته ، فوقع عليها فأحبها به « لقيم » الذي أشرت اليه ،
فهو ابن لقمان اذن من أخته . وقد أورد الجاحظ في ذلك شعراً جاء به على
لسان الشاعر المذكور ، أي : (النمر بن تولب) ، زعم أنه نظم في هذه
القصة ، وزعم الجاحظ أيضاً أن لقمان قتل ابنته (صُحرا) أخت (لقيم) ، وذلك
أنه كان قد تزوج عدة نساء كلهن خنّه في أنفسهن ، فلما قتل أخراهن ونزل
من الجبل ، كان أول من تلقاه (صحرا) ابنته فوثب عليها فقتلها ، وقال :
(وأنت أيضاً امرأة) . وكان قد ابتلي بأخته على نحو ما ذكرت ، فاستاء من
النساء . وضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان ابنته صحرا ، وقد أشير الى
ذلك في شعر لـ (خفاف بن ثدبة)^٤ .

وقد أشير الى (حي لقمان) في شعر لأبي الطحان القيني^٥ ، كما أشير اليه

١ أبو الفداء : المختصر (٢١/١ وما بعدها) ، مروج الذهب (٥٧/١ وما بعدها) ،
منتخبات (ص ٩٥ وما بعدها) ، ابن كثير ، البداية (٢٦/٢) ، « مطبعة
السعادة » ، تفسير ابن كثير (٤٤٣/٣ وما بعدها) ، تفسير البيضاوي (١٣٤/٧)
وما بعدها ، البلدان (٦٠٩ / ٣) ، تفسير الفخر الرازي (٧١/٧) ، تفسير
الطبري (٦٧/٢١) ، الحيوان ، للجاحظ (٢١/١) .

٢ البيان والتبيين (١٣٦/١) .

٣ البيان والتبيين (١٣٦/١) ، (١٦١/١) « القاهرة ١٩٣٤ م » ، نهاية الارب
(٦١/١٢) .

٤ البيان والتبيين (١٦١/١) .

٥ الحيوان (٢١/١) « طبعة الحلبي » .

٦ امست بنو القين افراقاً موزعة
البيان والتبيين (١٦٤/١) .

كانهم من بقايا حي لقمان

في شعر ينسب الى (لييد بن ربيعة الجعفري)^١ . وفي شعر للفرزدق^٢ ، وفي شعر لبنت وثيمة بن عثمان ترثي به أباها^٣ .

وأضافوا الى (لقمان) أمثالا كثيرة نسبت اليه في الإسلام ، ولم تكن معروفة في الجاهلية^٤ . ونسب اليه بعض الأخباريين الميل الى انشاء المدن والبناء ، وضرىوا به أيضاً المثل في كثرة الأكل ، فقالوا : (آكل من لقمان)^٥ .

وزعم (وهب بن منبه) انه قرأ من حكمة (لقمان) نحواً من عشرة آلاف باب^٦ ، وزعم الرواة ان عرب الجاهلية كانت عندهم (مجلة لقمان) ، وفيها الحكمة والعلم والأمثلة^٧ ، وان جماعة منهم كانوا قد قرأوها وامتلكوها ، ذكروا من جملتهم (سويد بن الصامت) . وقد رووا انه كان يقرأها ، وانه أخبر الرسول بها لما قدم عليه^٨ . وقد جمع الناس ، فيما بعد ، حكمته وأمثاله والقصص المروي عنه ، ويشبه ما نسب اليه المنسوب الى (ايسوب) Aesop صاحب الأساطير والحكم والأمثال الموضوعة على لسان الحيوانات عند اليونان^٩ .

وبالغوا في حكمته وفي علمه حتى زعم انه كان يدرك من الأشياء ما يعجز عن ادراكه الانسان السوي^{١٠} . وضرب المثل في أيساره ، وعظم أمره ، حتى قيل (أيسار لقمان) ، كالذي ورد في شعر (طرفة) .

وورد في الأخبار : « اذا شرف الأيسار ، وعظم أمرهم قيل : هم أيسار لقمان . يعنون لقمان بن عاد » . واستشهدوا على ذلك بيت طرفة :

وهم أيسارُ لقمانٍ ، اذا أغلت الشتوةُ أبداءَ الجزُر^{١١}

١ واخلف قساليثني ولعلني واعى على لقمان حكم التدبير

البيان والتبيين (١٦١/١) .

٢ البيان والتبيين (١٦١/١)

٣ البيان والتبيين (١٦١/١) .

٤ اللسان (٢٠/١٦ وما بعدها) ، Enc., Vol., 3, P., 35.

٥ مجمع الامثال ، للميداني (٩٨/١) .

٦ المعارف (ص ٢٥)

٧ Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Bd. I, S. 93.

٨ امثال لقمان الحكيم ، « طبعة ديرنبورغ » ، لندن (١٨٥٠)

٩ Sprenger, Das Leben. I, S. 93.

١٠ المعاني الكبير (١١٩٣/٣)

١١ المعاني الكبير (١١٥٢/٣) .

وقد زعم أن (زرقاء اليمامة) ، التي اشتهرت بحدة بصرها وقوة رؤيتها حتى أنها كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام ، كانت امرأة من بنات لقمان بن عاد ، وكانت ملكة اليمامة واليمامة اسمها ، فسميت الأرض باسمها . وقد زعم أن النابغة الديباني أشار إليها في شعره^١ .
وقد ورد في بعض الأشعار (لقمان بن عاد) . اذ جاء :

تراه يطوف الآفاق حرصاً ليأكل رأس لقمان بن عاد

وهناك أمثلة عديدة ينسبها الرواة الى (احدى حظيات لقمان) ، ووردت على لسانها وعلى لسان لقمان وعلى لسان فتى اسمه عمرو^٢ .
وقد زعم بعض أهل الأخبار ان لقمان بن عاد ، هو الذي بنى سد مأرب ، وأن مأرب اسم قبيلة من عاد ، وقد سمي باسمها هذا الموضع^٣ .
لم يبق بعد هلاك عاد الأولى ، على رأي أهل الأخبار إلا هود ونفر ممن آمن به والوفد الذي سار الى مكة للاستسقاء ، وفيهم لقمان وكان من أكابر العادين . فأنشأ هؤلاء عاداً الثانية ، وخالف لقمان (الخليلجان) ملك عاد الأولى ، الذي خالف هوداً ، فهلك . وخاف العاديون انحباس المطر والجفاف ، فارتحلوا الى أرض سبأ ، وبني لقمان سد (العرم) قرب مأرب ، وبقيت عاد الثانية قائمة ، الى أن تغلبت عليها قبائل قحطان ، ثم انقرضت وبادت^٤ .
ويذكر أهل الأخبار ان عاداً لما رأوا انحباس المطر عنهم ، أرسلوا وفداً ، بلغ سبعين رجلاً في قول بعض الرواة ، الى مكة يستسقون ، وكان أصحابها هم العالقة يومئذ ، ورئيسهم (معاوية بن بكر) ، فأكرمهم وأضافهم ، وأقاموا عنده شهراً : يشربون الخمر وتغنيهم (الجرادتان) وهما قيتان لمعاوية بن بكر ، وفي الوفد المذكور لقمان . ونسوا أنفسهم هناك ، ولم يفتنوا لما جاؤوا اليه ،

-
- ١ واحكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت
قالت : الا ليثما هذا الحمام لنا
شرح ابن عقيل لافية ابن مالك ، (٢٩٠/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، القاهرة ١٩٦٢ م .
 - ٢ الامثال ، للميداني (٣٧/١) ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .
 - ٣ البكري ، معجم (١١٧١/٣) « لجنة التأليف والترجمة والنشر » .
 - ٤ الطبري (٢٢١/١) وما بعدها .

إلا بعد أن ذكرتهم (الجرادتان) بما جاؤوا به إليها ، فاستسقوا ، فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية ، أهلكت عاداً في ديارها^١ ، ودمرت كل شيء ، فهلكت ، ولم يبق من عساد إلا من كان خارج أرضهم بمكة ، وهم من (آل لقيم بن هزال بن هزيل بن هزيلة ابنة بكر) ، فهم عاد الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد^٢ .

وقد ذكر المؤرخون وأصحاب الأخبار أن (عاداً) تعبدوا لأصنام ثلاثة ، يقال لأحدها : صداء ، وللآخر صمود ، وللثالث الهباء^٣ . ولم نعثر على أسماء هذه الأصنام حتى الآن في الكتابات .

وكان هلاك (عاد) واندثارهم بسبب انحباس المطر عنهم سنين ثلاثاً ، أعقبه هبوب رياح عاتية شديدة استمرت (سبع ليال وثمانية أيام حسوماً)^٤ فهلك الناس واقتلعتهم الرياح وصارت ترميهم من شدتها ، (كأنهم أعجاز نخل منقعر)^٥ . (ففرى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية^٦) وخلت ديارهم منهم ، وصارت أماكنهم أثراً .

ويجمع أهل الأخبار على أن هلاك عاد ، إنما كان بفعل عوارض طبيعية نزلت بهم فأهلكتهم ، وهي على اختلاف رواياتهم في وصفها وفي شرحها ، انحباس الأمطار عنهم ، وهبوب رياح شديدة عاتية عليهم . وقد تحدث المفسرون عنها لورود ذكرها في القرآن الكريم^٧ . وروي أن النبي أشار إلى أن هلاكهم وهلاك ثمود كان بالصواعق ، والصواعق من العوارض الطبيعية بالطبع^٨ .

ويرجع قسط من أخبار (عاد) إلى الجاهليين ، فهو من القصص الشعبي القديم الموروث عنهم ، ويعود قسط آخر منه إلى الإسلاميين ، وهو القسط الذي

- ١ سورة الاحقاف ٢٤ ، آية ٢٥ .
- ٢ الطبري (٢١٨/١) فما بعدها ، الفاخر (ص ٦٨) .
- ٣ الطبري (٢١٦/١) « دار المعارف » ، قصص الانبياء (ص ٣٩) ، نهاية الارب (٥١/١٣) ، الاصنام (١١٠ وما بعدها) ، « تحقيق احمد زكي باشا » ، مروج الذهب (٦١/٢) « طبعة دار الرجاء » .
- ٤ سورة الحاقة ، آية ٧ ، الطبري (٢٢٥/١) فما بعدها .
- ٥ سورة القمر ، آية ٢٠ .
- ٦ الحاقة ، آية ٧ .
- ٧ ابن كثير ، البداية (١٢٠/١ وما بعدها) ، تفسير الرازي (٤٣/٢٩) ، القاهرة ١٩٣٨ م ، (٩/٨) ، تاريخ ابن عساكر (١٤/١) .
- ٨ القد الفريد (٣٦/٢) .

جاء شرحاً لما جاء موجزاً في القرآن الكريم ، ويرجع بعضه الى (الحارث بن حسان البكري) و (الحارث بن يزيد البكري) ، وتزعم رواية وردت في تأريخ الطبري أنه قص على الرسول قصصاً عن أمر (عاد)^١ ، ويرجع بعض آخر الى (كعب الأحبار) والى (وهب بن منبه) ، وهما من مسلمة يهود^٢، والى (السدي)^٣، والى أشخاص آخرين تجد ذكرهم في سند الروايات المذكورة عند (محمد بن اسحاق) صاحب السيرة ، وعند الطبري وعند آخرين من أهل الأخبار والتواريخ ممن ساروا على طريقة ذكر المسند مع الروايات .

ويظهر أن كثيراً من أخبار (عاد) وضعت في أيام (معاوية) الذي كان له ولع خاص بأخبار الماضين ، فجمع في قصره جماعة اشتهرت بروايتها هذا النوع من القصص ، وفي مقدمة هؤلاء (عبيد بن شريفة الجرهمي) و (كعب الأحبار)^٤ .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن رجلاً قصّ في أيام معاوية ، أن إبلاً له ظلت في تيه أيمن ، وهو غائط بين حضرموت وأبين ، فالتقطها من هناك ، ووجد فيه موضع (إرم ذات العمد) ، ووصف أبنته العجيبة ، وهذا الرجل هو في جملة من موّن العاشقين للأساطير بأخبار عاد . وقد ذكر الطبري أن (وهب بن منبه) ، قصّ أنه سمع من رجل اسمه (عبد الله بن قلابة) أن إبلاً له كانت قد شردت ، فأخذ يتعقبها ، فبينما هو في صحارى (عدن) ، وقف على موضع (إرم ذات العمد) ، وقد وصف ذلك الموضع على النحو المألوف عن (وهب) ، من اغراقه في الأساطير وفي القصص الخيالي البعيد عن العقل .

ثمود :

ويرد اسم ثمود في الكتب العربية مقروناً باسم (عاد) ، وبعد هذا الاسم

-
- ١ الطبري (٢١٧/١) فما بعدها ، شمس العلوم (ح ١ ، القسم الاول ، ص ٢٦٢)
 - ٢ الطبري (٢٢٦/١) .
 - ٣ الطبري (٢٢٥/١) .
 - ٤ نهاية الأرب (٦٢/١٣) فما بعدها) راجع قصة « ابن بيض » مع لقمان ، ويظهر أنها من قصص الجاهلية ، المفضليات (ص ٩١) ، ديوان المفضليات (ص ٩١)
 - ٥ « طبعة بيروت ١٩٢٠ م » . تفسير الطبرسي (٤٨٦/٩)

في الغالب ، والروايات العربية الواردة عنهم لا تعرف من تأريخهم شيئاً ، إنما روت عنهم قصصاً أوردتها لمناسبة ما ذكر عنهم في القرآن الكريم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير . وقد وردت اشارات عنهم في الشعر الجاهلي^١ .

وجاء اسم (ثمود) في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، جاء منفرداً ، وجاء مقروناً باسم شعوب أخرى مثل قوم (نوح) وقوم (عاد) ، فبدأ بقوم نوح ثم عاد ثم ثمود^٢ . وجاء مع ثمود في موضعين (أصحاب الرس) ، وجاءوا بعد (ثمود)^٣ كما جاء اسمهم قبل (ثمود)^٤ . وورد أيضاً ذكر قوم (لوط) و (أصحاب الأيكة) ، وقد تقدم في هذا الموضع اسم (ثمود) ، ودعت الآية أولئك : (الأحزاب)^٥ ، كما ورد ذكر (ثمود) مع (عاد)^٦ . وقد تقدم اسم (عاد) على ثمود إلا في آية واحدة تقدم فيها اسم ثمود على اسم (عاد) : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة »^٧ ، وورد اسم (ثمود) في آيات

١ ورد في الشعر المنسوب لامية بن ابي الصلت :

كثمود التي تفتكت الدين عتيا وام سقب عقيرا

وذكر قصة الناقة ، رجع ديوانه (ص ٤٤) ، « طبعة فر . شلتيز Fr. Schulthess » لايزك ١٩١١ م .

وورد في شعر لسلمة بن الحرث ، وهو من معاصري عمرو بن كلثوم :

حتى تزور السباع ملحمة كانها من ثمود او ارما

راجع الفضليات (ص ٤٢٨) .

وورد اسم ثمود ايضا في شعر لجريز بن خرقاء العجلي :

ويوم الحنو قد علمت معد حصدناكم كما حصدت ثمود

الفضليات (ص ٤٣٩) ، وورد في شعر لبيد اسم ارم وعاد وثمرود ، ديوان لبيد ، (ص ٢٥) ، سبائك الذهب ، للسويدي (ص ١٥) .

٢ سورة التوبة ٩ ، الآية ٧٠ ، سورة ابراهيم ١٤ ، الآية ٩ ، سورة الحج ٢٢ ، الآية ٤٢ ، سورة غافر ٤٠ ، الآية ٣١ .

٣ « وعادا وثمرودا وأصحاب الرس » ، سورة الفرقان ٢٥ ، الآية ٣٨ .

٤ سورة ق ، ٥٠ ، الآية ١٢ .

٥ سورة ص ، ٢٨ ، الآية ١٣ .

٦ سورة العنكبوت ٢٩ ، الآية ٣٨ ، سورة فصلت ٤١ ، الآية ١٣ ، سورة النجم ٥٣ ، الآية ٥١ .

٧ سورة الحاقة ، ٦٩ ، الآية ٤ .

أخرى من القرآن الكريم^١ .

وقد ذكر الطبري ان شعراء الجاهلية ذكرت في شعرها عاداً وثمود ، وان أمرهما كان معروفاً عند العرب في الشهرة قبل الإسلام، وأن من يظن أن الجاهليين لم يكونوا يعرفون عاداً أو ثموداً فإنه على وهم وخطأ^٢ .

ويظهر من ورود ذكر (ثمود) في مواضع متعددة من القرآن ، لتهريب (الكفار) من العقابة التي آلت إليها حالة (ثمود) بعد أن استحبوا العمى على الهدى ، واستمروا بطغواهم كما استمر طغيان (فرعون)^٣ وقوم (مدين)^٤ وغيرهم ممن ذكرناهم ، أن الجاهليين كانوا يعلمون مصير ثمود ومصير عاد الذي كان من نوع مصير ثموده ، وأنهم كانوا يعرفون منازلهم كالذي يظهر بجلاء من الآية : (وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم)^٥ معرفة جيدة ، ولم يعين القرآن الكريم موضع منازل (ثمود) ، وإنما يظهر من آية : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد^٦) ، أن مواضعهم كانت في مناطق جبلية ، أو في هضاب ذات صخور . وقد ذكر المفسرون أن معنى (جابوا الصخر) قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً^٧ ، وأن (الواد) هو وادي القرى . فتكون مواضع ثمود في هذه الأماكن . وقد عين أكثر الرواة (الحجر) على أنه ديار ثمود ، وهو قرية بوادي القرى . وقد زارها بعض الجغرافيين وعلماء البلدان

١ سورة الاعراف ٧ ، الآية ٧٣ ، سورة هود ١١ ، الآية ٦١ ، ٦٨ ، ٩٥ ، سورة الاسراء ١٧ ، الآية ٥٩ ، سورة الشعراء ٢٦ ، الآية ١٤١ ، سورة النمل ٢٧ ، الآية ٤٥ ، سورة الذاريات ٥١ ، الآية ٤٣ ، سورة القمر ٥٤ ، الآية ٢٣ ، سورة البروج ٨٥ ، الآية ١٨ ، سورة الفجر ٨٩ ، الآية ٩ ، سورة الشمس ٩١ ، الآية ١١ .

٢ الطبري (٢٣٢/١) ، « طبعة دار المعارف » ، الكامل ، لابن الاثير (١/٥٠) ، نهاية الارب (٢٩٢/٢) .

٣ سورة البروج ٨٥ ، الآية ١٨ .

٤ سورة هود ١١ ، الآية ٩٥ .

٥ سورة فصلت ٤١ ، الآية ١٣ .

٦ سورة العنكبوت ٢٩ ، الآية ٢٨ .

٧ سورة الفجر ٨٩ ، الآية ٩ .

٨ الكشف ، للزمخشري (٢٠٩/٤) ، تفسير الطبري (١١٣/٣٠) ، روح المعاني ،

للأوسى (١٢٤/٣٠) .

والسياح ، وذكروا أن بها بئراً تسمى بئر (ثمود)^١ ، وقد نزل بها الرسول مع أصحابه في غزوة (تبوك)^٢ . وقد ذكر المسعودي أن منازلهم كانت بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الحبشي ، وديارهم بفتح الناقة ، وأن بيوتهم منحوتة في الجبال ، وأن رمهم كانت في أيامه باقية ، وآثارهم بادية ، وذلك في طريق الحاج لمن ورد الشام بالقرب من وادي القرى^٣ .

وينسب النسابون ثمود الى (ثمود بن جائر أو كائر بن إرم بن سام بن نوح)^٤ ، ويكتفي بعضهم بارجاع نسبهم الى عاد ، فيقولون عنهم لأنهم من بقية عاد^٥ . وينسبهم بعض آخر إلى (عابر بن إرم بن سام بن نوح) ، وزعموا أن ثمود هو أخو جديس^٦ .

وقد استطاع المستشرقون التعرف على الثموديين من الكتابات والمؤلفات (الكلاسيكية) ، فوجدوا اسم ثمود في النصوص الآشورية : وجدوه في نص من نصوص (سرجون الثاني) ، مع أسماء شعوب أخرى سوف أتحدث عنها . وقد دعوا بـ (Tamudi) (Thamudi)^٧ ، وذلك بمناسبة معركة جرت بين الآشوريين وبين هذه الشعوب ، انتصر فيها الآشوريون ، كما وجدوه في النصوص والكتابات الثمودية ، وقد عثر عليها في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وفي النصوص (الكلاسيكية) حيث عرفوا باسم (Thamudeni) (Thamudenoï) (Thamydenoi) (Thamyditai)^٨ .

- ١ البلدان (٢٢١/٣) ، الطبري (١١٨/١) ، اللسان (٢٤٢/٥) ، سبائك الذهب (ص ١٥) ، صبح الاعشى (٣١٣/١) ، تقويم البلدان (٨٩) .
- ٢ البكري ، معجم (٤٢٦/٢) « طبعة السقا » الأغاني (٢٨/٦) ، ابن كثير ، البداية (١٣١/١) وما بعدها .
- ٣ مروج الذهب (٢٥٩/١) ، « قال كعب : لما أهلك الله عز وجل عاداً ، جاءت ثمود وعمرت الأرض ، وكانوا بضع عشر قبيلة وكانت منازلهم ما بين الحجاز الى الشام ، وهي ديار الحجر من وادي القرى » ، نهاية الارب (٧١/١٣) .
- ٤ صبح الاعشى (٣١٣/١) .
- ٥ « وثمود ، كصبور ابن عابر بن إرم بن سام . قبيلة من العرب الاول ، ويقال أنهم من بقية عاد » ، تاج العروس (٣١٢/٢) ، اللسان (١٠٥/٣) « صادر » .
- ٦ ابن كثير ، البداية (١٣٠/١) وما بعدها .

^٧ Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, Vol. I, Pl. 36, Lyon,

Sargon, P., 4, Musil, Deserta, P., 291.

Musil, Deserta, P., 291, Ptolemy, Geography, VI, 7 ; 4, VI,

7; 21, Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 44, Forster, Vol. I, P., 323,

Vol., 2, P., 30, 117, 274, 284.

ولقد وصف مؤلف كتاب : (الطواف حول البحر الأريتري) مواضع الثموديين (Thamudeni) مستنداً إلى مورد آخر ، أخذ منه ، أقدم عهداً منه . فذكر أن (Thamudeni) ، كانوا يقيمون على ساحل صخري طويل ، لا يصلح لسير السفن ، وليست فيه خلجان تستطيع أن تأوي إليه القوارب فتحتمي بها من الرياح ، ولا ميناء تتمكن من الرسو فيه ، ولا موضع أو جزر عنده تقبل إليه القوارب الهاربة من الأخطار^١ . فيظهر من وصف هذا المؤلف أن مواطن ثمود كانت في الحجاز على ساحل البحر الأحمر .

وقد ذكر هذا الوصف ، ولكن بشيء من التحوير (ديودورس)^٢ . وأما (بلينيوس) ، فذكر (Tamudaei) بين (Domata) و (Haegra) ومدينة دعاها (Badanatha) (Baclanaza) . وأما (بطلميوس) ، فقد جعل قوم ثمود (Thamuditae) (Thamudeni) بين الـ (Sarakenoi) وبين (Apatae)^٣ ويظهر من كل ذلك أن ديارهم في شمال غربي (العربية السعيدة)^٤ ، أي في المواضع التي عينتها المصادر العربية .

يظهر من جغرافية (بطلميوس) اذن ، أن ديار ثمود كانت غير بعيدة عن ديار (عاد) ، ليس بينها وبين ديار عاد (Oaditae) الا ديار (سره كيني) (Sarakeni) وكلها في أعالي الحجاز في هذه المنطقة الجبلية التي تخترقها الطرق التجارية التي توصل الشام ومصر بالحجاز واليمن . وفي هذا تأييد للروايات العربية القائلة ان ديار ثمود كانت على مقربة من ديار عاد . فإذا كانت (الحجر) وما والاها هي مواطن ثمود : وجب أن تكون ديار (عاد) على مقربة من هذه المواضع .

وأما تأريخ قوم (ثمود) ، فيعود الى ما قبل الميلاد بزمان . وقد ذكرت قبل قليل أنهم كانوا في جملة الشعوب التي حاربت الآشوريين في عهد (سرجون

١ Musil, Deserta, p., 302, The Periples of the Erythrean Sea, by William Vincent, London, 1800, Part the Second, P., 262.

٢ Diodorus, Bibliotheca Historica, III, 44, Musil, Deserta, P., 291.

٣ Pliny, Natur. History, (translated by H. Rackham), Vol., 2, P., 456 457, VI, 32.

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 108, Ptolemy, VI, 7:4 VI, 7:21, V, 19 7 Hastings.

A Dictionary of the Bible, Vol., I, P., 630.

٥ Musil, Hegaz, P., 291, Glaser, Skizze, 2, S., 108, 266.

الثاني) ، وقد ذكر هذا الملك في النصوص التاريخية التي سجلها ، أنه تغلب عليهم ، وأنه أجلاهم من مواطنهم الى (السامرة) (Samaria)^١ . ولم يكن أولئك الثموديون الذين حاربوه من أبناء الساعة ، بل لابد أن يكون لهم أسلاف عاشوا قبلهم عدة قرون .

وقد عرفت المنطقة التي حارب بها قوم ثمود والشعوب الأخرى الآشوريين باسم (بري) (Bari) ، ويظهر أنها تعني لفظة (بر) و (برة) العربية ، أي (البادية) فحرفّت الى (بري) على وفق الآشوري^٢ .

ويرى بعض الباحثين أن آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم (ثمود) كان في القرن الخامس للميلاد ، حيث ورد أن قوماً منهم كانوا فرساناً في جيش الروم^٣ .

وقد كان الثموديون يقطنون بعد الميلاد في مواطنهم المذكورة في أعالي الحجاز في (دومة الجندل) و (الحجر) وفي غرب (تباء) . وقد ذكر أنهم كانوا يمتلكون في منتصف القرن الثاني للميلاد حِزْرَتَيَّ* (العوارض) و (الأرحاء)^٤ . ويرى (دوتي) أن (الحجر) التي سكن بها قوم ثمود ، هي موضع (الحريية) في الزمن الحاضر ، لا (مدائن صالح) التي هي في نظره (حجر) النبط . وتقع (مدائن صالح) ، وهي عاصمة النبط ، على مسافة عشرة أميال من موضع (الحريية)^٥ .

ولم يرد في الموارد العربية الإسلامية، ما يفيد وجود قبائل ثمودية قبيل الإسلام، أو في الإسلام ، غير ما ذكره بعضهم من نسب (ثقيف) الذي رجعه الى ثمود، ولكن ذلك لم يرض الثقيفيين . فقد كان الحجاج بن يوسف يكذب ذلك^٦ ، والظاهر أن أعداء ثقيف ولا سيما معارضي الحجاج وضعوا ذلك على ثقيف بغضاً

١ Lyon, Kellschrifttexte Sargons, S., 4, (1883), Winckler, Kellschrifttexte Sargons, (1889), Bd., 2, PL., 2, No., I, Linie 20, Schrader, Kellschriftliche Bibliothek, (1889-1900), Bd., 2, S., 42, Musil, Deserta, P., 479, Musil, Hegaz, P., 289.

٢ Sprenger, Geography, S., 28. ٢

Doughty, Vol., I, P., 229, Sprenger, S., 28. ٣

Musil, Hegaz, P., 291. ٤

Doughty, Vol., I, P., 229. ٥

٦ ابن خلدون (٢٤/٢) ، الكامل (٢٧٦/١) .

للحجاج ، الذي كان قاسياً عاتياً شديداً . وقد روى (دوتي) أن بدو نجد يذكرون ان قبيلة (بني هلال) هي من نسل عاد وثمود^١ .

ونجد في كتاب : (Mission archéologique en Arabie) لمؤلفيه (Jaussen) و (Savignac) ، عدداً من الكتابات الثمودية ، عثر عليها في (العلا) وفي مواضع أخرى من الأرضين التي هي اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية وفي أعالي الحجاز من المملكة العربية السعودية ، كما عثر غيرها قبلها وبعدها على عدد آخر ، أغلبه من هذه الكتابات القصيرة ، التي كتبت على مختلف الأحجار ، بالمناسبات ، مثل تذكّر شخص، أو تسجيل اسم لمناسبة وجود صاحبه في هذا المكان ، كما يفعل كثير من الناس في أيامنا^٢ .

ويمكن (لانكستر هاردنك) محافظ مديرية الآثار العتيقة في المملكة الأردنية الهاشمية من تصوير ما يزيد على خمسمائة كتابة ثمودية أرسلها الى المستشرق (أنوليمان) ، يعود بعضها الى ما قبل الميلاد ، ويعود قسم منها الى ما بعد الميلاد ، ومن بينها نص أرخ بسنة (٢٦٧) للميلاد ، ونص آخر رسمت فيه دائرة في داخلها صورة تشبه الصليب ، وكتابة قرأها المستشرق (أنوليمان) : (يشوع) أو (ليشوع) ، أي (ليسوع) ، وهو النص الذي رُقم بـ (٤٧٦) . والظاهر ان صاحبه كتبه تيمناً باسم المسيح ، ولا يعرف تاريخه بالضبط . ويعتقد (ليمان) انه أقدم شاهد عرف حتى الآن عن انتشار النصرانية في شمال جزيرة العرب^٣ . وقد قرأها المستشرق (فان دين برندن) : (بوايوب) أي (لأيوب) ، أو (بأيوب) ، أو (أيوب) . وبالجملة فان العلماء لم يتمكنوا من ترجمة تلك الكتابات ترجمة صحيحة حتى الآن^٤ .

وفي المتاحف الأوروبية وفي مكاتب بعض الجامعات وفي أوراق المستشرقين مجموعة من النصوص الثمودية ، جميعها في أمور شخصية وفي موضوعات دينية وأدعية لآلهة ثمود . وأما المناطق التي وجدت فيها هذه النصوص ، أو أخذت

١ Die Offenbarung Arabiens, (Arabia Deserta), Leipzig, 1937, S., 63.

٢ Van den Branden, Les Inscriptions Thamoudéennes, Louvain-Heverbe, 1950.

٣ The Muslim World, Vol., XI, No., I, January, 1950, Jesus in Pre-Islamic Arabic Inscription, by Henno Littmann.

٤ A. Van den Branden, in Le Museon, LXIII, (1950) 1-2, P., 47-51, "Une Inscription Thamoudeenne".

صورها ، فهي مناطق (حائل) بنجد ، وأرض (تبوك) وتناء ومدائن صالح والسلاسل الجبلية الممتدة بين هذه المنطقة والحجاز ، وعثر في الطائف على بعض النصوص الثمودية أيضاً وفي السواحل الحجازية الشمالية للبحر الأحمر عند (الوجه) وفي (طور سيناء) وفي (الصفا) شرقي دمشق وفي مصر^١ . وفي (الحرة) و (الرحبة) وفي شمال غربي تدمر^٢ .

وقد عثر على نقوش ثمودية في اليمن ، وبذل وجود هذه الكتابات هنالك على وجود صلات بين اليمن وتمدود ، ولعلمهم كانوا يقيمون في اليمن كذلك . وقد عثرت البعثة المصرية التي زارت اليمن على مخربشات ثمودية في (حجر المعقاب) عند جبل (حليل) على مسافة ليست بعيدة من (بيت حميد) بوادي شرع بالخارد^٣ .

ويشك المستشرق (هوبرت كريمة) (Hubert Grimme) في صحة نسبة كثير من هذه النصوص الى ثمود ، ويرى أنها لأناس غيرهم ، إذ لا دليل علمياً هناك يثبت كون هذه النصوص تعود الى هؤلاء .

وهناك عدد غير قليل من النصوص الثمودية يعود عهدها الى العهد النبطي ، ويشغل حيزاً من الزمن يقع بين حوالي مئتي سنة قبل المسيح وثلاث مئة سنة بعده ، وتمتزع في مثل هذه النصوص الثمودية بالنبطية . وقد عثر على بعض نصوص نبطية في الحجاز ظن أنها نصوص ثمودية ، مثل نص : Hu. 418 = Eu. 772 ، ونص آخر يعود الى سنة ٢٦٧ للميلاد^٤ .

إلا أن هناك نصوصاً ثمودية يظهر عليها أثر عبادة (صلم) (Salm) . وقد كانت (تياء) من أهم الأماكن التي كانت تقدر هذا الإله حوالي سنة (٦٠٠) ق.م ، ويرمز أهل تياء الى (صلم) برأس ثور ، وقد وجد هذا الرمز

١ Ency., Vol., 4, P., 736, Musil, Negd, P., 104, 140, Huber in Journal D'un Voyage en Arabie, 1883-1884, Grimme, Entzifferung Thamudenischer Inschriften, 1904, Jausen-Savignac, Mission Archéologique en Arabie, 1-2 1901, 1914.

٢ E. Littmann, Thamud und Safa, S., 6, 1, 95, 1, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 164.

٣ نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحهما ، للدكتور خليل يحيى نامي ، القاهرة ١٩٤٣ (ص ١٠٩) ، وقد عثر الرحالة « فليبي » على بعض الكتابات التي يظهر أنها ثمودية لحيانية ، Philby, Sheba's Daughters, P., 441.

٤ Ch. Doughty, Documents Epigraphiques Recueillis dans le Nord de L'arabie, 1884.

على النقوش الثمودية ، كما وجدت أسماء بعض الآلهة التي كان يتعبد لها أهل تيهام منقوشة في النصوص الثمودية ، مما يدل على أن قوم ثمود كانوا يتعبدون لها كذلك ، وأن هنالك صلات ثقافية ودينية بين تيهام و ثمود .

ويرجح بعض الباحثين تأريخ عدد من الكتابات الثمودية الى القرن السابع قبل الميلاد . وهناك كتابات يرون أنها أقدم عهداً من القرن السابع . غير أن أكثر ما عثر عليه يعود تأريخه الى ما بعد الميلاد . وهي بالجملة في أمور شخصية ، لا تفيد المؤرخ الذي يريد تدوين تأريخ (ثمود) فائدة كبيرة . ولكنها نافعة على كل حال من نواح أخرى ، فهي تفيد اللغوي الذي يريد الوقوف على لغة الثموديين ومعرفة أسمائهم ولهجاتهم ، وتفيد الباحثين في اللهجات العربية الجاهلية وفي الساميات .

والكتابات الثمودية في نظر الباحثين نوعان : كتابات قديمة وقد دونت بالقلم الثمودي القديم ، وكتابات حديثة وقد كتبت بقلم ثمودي متطور تختلف أشكال حروفه ورسومها بعض الاختلاف عن القلم القديم . والقلم الثمودي صلة بقلم (طور سيناء) ، كما أن له علاقة بالقلم المسند . وتفيد دراسته من هذه الناحية في الوقوف على تأريخ تطور الكتابة في جزيرة العرب قبل الميلاد ، وفي تطور الأقلام بوجه عام^١ .

ويلاحظ وجود بعض الخواص في الكتابات الثمودية التي عثر عليها في الحجاز ، لا نجدها ، أو قلما نجدها في كتابات ثمودية أخرى ، عثر عليها في نجد وفي اليمن . ويعود سبب ذلك الى تأثير البيئات ، ولا شك ، في هؤلاء الثموديين الذين تأثروا بلهجات جيرانهم وثقافتهم ، فظهر ذلك الأثر في هذه الكتابات^٢ .

ويظهر من الكتابات الثمودية أن قوم ثمود كانوا زُرّاعاً وأصحاب ماشية ، وأنهم كانوا أقرب الى الحضر، منهم الى أهل الوبر ، فقد كانت لهم مستوطنات ثابتة استقروا فيها ، وكانت لهم معابد ثابتة أيضاً ، أي مبنية ، وبينهم قوم اشتغلوا بالتجارة . ولعل الأيام ستجود علينا بكتابات ثمودية تتحدث عن أمور عامة ، وعندئذ نستطيع أن نستنبط منها شيئاً عن أحوالهم من مختلف الوجوه .

Hubert Grimme, Die Loesung des Sinaischriftproblems, Die
Altthamudische schrift, S., 24.

١

Grimme, Die Loesung, S., 25. ٢

ومن أصنام ثمود التي ورد ذكرها في كتاباتهم ، الصنم (ودّ) ، وهو من الآلهة القديمة عند العرب^١ . والصنم (جد - هد) أو (جد - هدد) ، وله عندهم معابد وسدنة يخدمونه ، ويعرف سادن الأصنام عندهم بـ (قسو) أي (قس) . عرفنا أسماء بعضهم ، ومنهم السادن (ايليا) (ايلية)^٢ . ويظهر أنه كان من الآلهة العربية العتيقة ، غير أن سعده أخذ في الأفول ، فأخذت مكانه آلهة أخرى ، ثم غنى أثره من الذاكرة ، فلم يرد اسمه بين الأصنام التي كان يعبدها الجاهليون قبيل الإسلام . وقد بقيت مع ذلك أسماء مثل: (عبد جد) تشير الى اسم الإله العربي القديم^٣ .

و (شمس) و (مناف) و (مناة) و (كاهل) و (بعلة) (بعلت) و (بعل) و (يهو) و (رضو) أو (رضى) ، هي أيضاً من أصنام ثمود ، سأتحادث عنها كلها في أثناء بحثي في الديانة العربية قبل الإسلام . ومن بقية آلهة ثمود (عثرت) (عثيرة) ، و (وتسن) (وت) ، و (بثع) (سمع) و (سميع) و (هبل) و (سحر) ، و (سين) و (عم) و (قين) و (يغوث) و (إله) و (أل) و (إلهي) و (الت) و (اللات) و (حول) (حويل) و (ذو شري) و (سمين) و (هلال) و (صلم) و (نهي) و (عثر سمين) و (كاهل) (كهل) ، و (ملك) و (مالك) ، و (هادي) (هادي) ، و (بخل) ، و (رتل) ، و (هيتج) ، و (شوع) ، و (ستار) ، و (طنفت) ، و (سعى) ، و (غم) ، و (عس) ، و (عسحرد) ، و (عشير) ، و (عطير) ، و (تجر) ، و (دبر)^٤ .

وبعض هذه الأسماء ليست في الواقع أسماء آلهة ، وإنما هي من قبيل ما يقال له (الأسماء الحسنى) عندنا أو صفات الله ، فلفظة (سمع) مثلاً ، وهي بمعنى (سميع) أو (السميع) في عربيتنا ليست اسم إله معين ، إنما هي صفة للإله ، بمعنى أن الإله هو سميع يسمع دعوات الداعين . ولذلك يخاطبه المؤمنون ويقولون له (سمع) (يا سميع) ، ليسمع دعاءهم وليجيب طلباتهم ، وهناك ألفاظ

J. Wellhausen, Reste, S., 14. ١

Grimme, S., 39, Note 9. ٢

Wellhausen, S., 146. ٣

Van den Brandeen, Les Inscriptions, PP., 10. ٤

أخرى هي من هذا القبيل .

ووصلت إلينا أسماء ثمودية كثيرة ، مثل : (أوس) و (سعد) و (عفير) و (وائل) و (بارح) و (كربال) (كرب إيل) و (عش) (عائش) و (مالك) (ملك) و (عذرال) (عذرايل) ، و (عوذ) ، و (أسعد) ، و (عياش) ، و (إياس) ، و (قيس بن وائل) (قس بن وال) وغيرها ، مما يخرجنا ذكرها عما نحن فيه . وهي أسماء لا يزال بعضها مستعملاً^١ .

ويلاحظ أن بعض هذه الأسماء مثل (كرب ال) و (عذرال) ، وما شاكله ، قلّ استعمالها عند العرب قبيل الإسلام ، بينما كانت من الأسماء الشائعة في الجاهلية البعيدة عن الإسلام ، ولا سيما بين الجاهليين في العربية الجنوبية ، حيث ترد بكثرة في كتابات المسند .

ويرى (برو) Brau أن ثموداً أصيبوا بكارثة عظيمة ، من ثوران براكين أو هزات أرضية ، بدليل ورود كلمة (رجفة)^٢ وكلمة (صيحة) في القرآن الكريم ، وذلك محتمل جداً ، لأن البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحرارة^٣ .

ويشبه مصير (عاد) و (ثمود) مصير (سدوم) (Sodom) وعمورة (جمورة) (كمورة) (Gomorrah) وبقية مدن الدائرة في عمق السديم^٤ التي تقع — على رأي كثير من علماء التوراة — في جنوب البحر الميت ، فقد لاقت هذه المدن ، وهي خمس على سهل (دائرة الأردن) المصير الذي لقيه قوم عاد و ثمود ، حيث أرسل الله عليهم عذاباً (فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض)^٥ . وأصحاب هذه المدن هم : قوم (Lot) (لوت) .

١ E, Littmann, Thamud und Safa, (Abhand. f. d. Kunde d. Morgenlandes 25, I), 1940, Die Araber in der Alten Welt, I, S., 163. ff., M. Hofner, Die Beduinen in L'Antica Societa Beduina (Studi Semitici), 1959, 53. f.

٢ Ency., Vol., 4, P., 736.

٣ James A. Montgomery, Arabia and the Bible, P., 91, Hastings, P., 734.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٥٥١/١) ، (١١٩/٢) ، (٣٠٠) ، Hastings, P., 734, Ency. Bibl., P., 3790.

٥ التكوين ، الاصحاح التاسع عشر ، الآية ٢٣ وما بعدها .

و (لوت) هو (لوط) المذكور في القرآن الكريم . وقد رأيت ان القرآن الكريم قد أشار الى مصير (قوم لوط) ، وأطلق على ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة (الأحزاب) . « و ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب »^١ .

وقد تعرض المفسرون لقوم (لوط) وما حل بهم من العذاب ، وبحث عنهم أهل الأخبار والتأريخ ، باعتبار ان أخبارهم هي صفحة من صفحات التأريخ القديم العام قبل الإسلام . وفي الرواية التي ذكرها (الطبري) في تأريخه عنهم ، وسندها مرفوع الى (محمد بن كعب القرظي) ذكر للقرى الخمس الواقعة حول (سهل دائرة الأردن) ، وقد دعاها ب (المؤتفكات) المأخوذة من القرآن الكريم من « والمؤتفكة أهوى »^٢ ، وهي : صبعة ، وصعرة ، وعمرة ، ودوما ، وسدوم ، بحسب رواية الطبري هذه^٣ . وفي هذه الأسماء تحريف وتغيير في الترتيب الذي وردت به في التوراة ، اذ هي فيها على هذا الشكل : سدوم (Sodom) و (عمورة) (Gomorrah) و (ادمة) (Admah) و (صبوبيم) (Zeboim) و (بال) (Bela) وتسمى أيضاً بـ (صوغر) (Zoar)^٤ .

وقد نبه القرآن قريشاً الى مصير يشبه مصير (ثمود) ، اذ كفروا بنبوة نبيهم (صالح) ، وعقروا (الناقة) التي أرسلت لهم آية تحذرهم من عاقبة كفرهم ومن استمرارهم في تكذيبهم نبوة نبيهم . فلما استمروا في غيهم وضلالهم ، أرسل الله عليهم (الصيحة) ، فأهلكهم ، ورجفت الأرض بهم ، فلم يبق من كفارهم على الأرض إلا رجل واحد ، هو (أبو رغال) كان في حرم الله^٥ ، فأنعمه الله من عذاب الله .

ويذكر أهل الأخبار أن رسول الله لما غزا غزاة تبوك ، نزل (الحجر) ، ونهى الناس من دخول القرية ، ومن شرب مائها ، وأراهم مرتقى الفصيل .

١ سورة ص رقم ٢٨ ، الآية ١٣ ، وتجد قصة لوط وقومه مفصلة في تأريخ الطبري (١٥٠/١) وما بعدها ، نهاية الارب (١٢٣/١٣ ، ٢٤٨) .

٢ سورة النجم ، الآية ٥٣ .

٣ الطبري (٣٠٧/١) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٣٠٠/٢) ، Hastings, P. 734 .

٥ الطبري (٢٣١/١) فما بعدها ، « طبعة دار المعارف » .

والقرية المذكورة هي (الحجر) ، وهي (قرية ثمود)^١ .
وقد ورد في شعر (حسان بن ثابت) : (أشقى ثمود) ، وقد ذكر
الشرائح أنه (قدار بن مالف أحيمر ثمود) ، وهو عاقر ناقة صالح^٢ . وهكذا
نجد لثمود (أحيمراً) على نحو ما وجدنا عند عاد .
ويرجع سند روايات (الطبري) عن ثمود الى (الحسن بن يحيى) ، ويتصل
سنده بـ (أبي الطفيل) ، والى (القاسم) ، وينتهي مسنده الى (عمرو بن
خارجة) ، و (ابن جريج) عن جابر بن عبد الله و (اسماعيل بن المتوكل الأشجعي)
وينتهي مسنده بـ (عبد الله بن عثمان بن خثم) عن (أبي الطفيل)^٣ .
وتفيدنا دراسة هذه الأسانيد وأمثالها فائدة كبيرة في الوصول الى معرفة الموارد
التي أمدّت الأخباريين بأمثال هذه الأخبار .

طسم وجديس :

وساق الأخباريون نسب (طسم) على هذه الصورة : (طسم بن لاوذ بن
إرم) أو (طسم بن لاوذ بن سام) ، أو (طسم بن كائر) ، أو ما شابه
ذلك من نسب^٤ . ونحن لا نعرف الآن من أمرهم غير ما ورد من القصص
المدون في الكتب ، ولم يرد لهم ذكر في القرآن الكريم . وقد جعلهم بعض
أهل الأخبار من أهل الزمان الأول ، أو من عادة^٥ .
وقد شكّ حتى الأخباريون في الأخبار المنسوبة الى (طسم) ، إذ اعتبروها
أخباراً موضوعة ، فقال بعضهم : (وأحاديث طسم : يقال لما لا أصل له .
تقول لمن يخبرك بما لا أصل له : أحاديث طسم وأحلامها ، وطسم إحدى قبائل

-
- ١ الطبري (٢٣١/١) فما بعدها .
 - ٢ كاشقى ثمود ، إذ تعاطى لحينه
ديوان حسان (ص ١٢٠) « للبرقوقي » .
 - ٣ الطبري (٢٣١/١) .
 - ٤ الطبري (٧٧١/١) « طبعة أوربة » ، ابن خلدون (٢٤/٢) ، الاغانى (٤٨/١٠) ،
ابن الاثير (١٣٩/١) ، الطبري (٢٠٣/١) وما بعدها ، « دار المعارف »
اللسان (٣٦٣/١٢) .

العرب البائدة (١) .

أما مواطن طسم ، فكانت اليمامة ، وعند بعضهم الأحقاف والبحرين^٢ . وقد زعم الأخباريون أن طسماً وجديساً سكنتا اليمامة معاً ، وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها ، ثم انتهى الملك الى رجل ظالم غشوم من (طسم) يقال له (عمليق) أو (عملاق) استذلّ جديساً ، وأهانها ، فثارت جديس وقتلت عمليقاً ومن كان معه من حاشيته ، واستعانت طسم بـ (حسان بن تبع) من تبابعة اليمن ، فوقعت حرب أهلكت طسماً وجديساً ، وبقيت اليمامة خالية ، فحل بها (بنو حنيقة) الذين كانوا بها عند ظهور الإسلام^٣ .

وذهب نفر من المستشرقين الى أن طسماً من الشعوب الخرافية التي ابتدعها الأخباريون ، غير أنه لا يستبعد أن يأتي يوم قد يعثر فيه على أخبار هؤلاء القوم وعلى اسمهم في الكتابات . وقد وردت في نص يوناني عثر عليه في (صلخد) ، ويعود تاريخه الى سنة (٣٢٢ م) جملة (أنعم طسم) ، فلا يستبعد أن يأتي اليوم الذي نقرأ فيه نصوصاً تعود الى طسم^٤ .

ويروي أهل الأخبار ان (الأسود بن رباح) ، وهو قاتل عمليق ، هرب بعد ذلك من اليمامة الى جبلي طيء ، فأقام بها الى أن جاءت طيء ، وأمر سيدهم (سامة بن لؤي) ابنه الغوث أن يقتل الأسود ، بعد أن رأوا ضخامة جسمه بالنسبة الى أجسامهم ، وخافوا منه ، فجاء اليه الغوث ، ثم أخذ يكلمه ، ثم باغته بأن رماه بسهم قتله ، واستقرت طيء بالجبلين^٥ .

وذهب (جرجي زيدان) الى أن (طسماً) هي (لطوشيم)^٦ ، وهي قبيلة من العرب ورد اسمها في التوراة على انها من نسل (ددان بن يقشان) وورد

١ الاغانى (١٠٣/١١) ، اللسان (٢٥٦/١٥) ، الاغانى (٤٥٦/١٠) ، الطبري (٢٠٦/١) ، دار المعارف .

٢ ابن خلدون (٢٤/٢) ، الطبري (٢٠٦/١) ، المعارف لابن قتيبة (١٣)
Enc., Vol., I, P., 992.

٣ وعند الطبري انه « تبان اسعد كرب ملكي كرب » ابن خلدون (٢٥/٢) ، المعارف (٣٠٨) ، الأمثال للميداني (١٩٢/١) ، (٦٩٠/٢) الاغانى (٤٥٦/١٠) (٨٦/١٠) « بيروت »

٤ D. H. Mueller, Suedarabische Studien, S., 67.

٥ ابن خلدون (٢٥/٢) ، الاغانى (٤٧/١٠) ، (٩٢/١٠) « طبعة بيروت » .

٦ الهلال ، الجزء العشرون ، السنة الخامسة ، حزيران « ١٨٩٧ م » ، (ص ٧٧٦)

معها اسم قبيلة أخرى من قبائل (ددان) دعيت بـ (Leummim) (لأميم) ، يرى زيدان أنها (أميم)^١ .

ونسب الأخباريون الى طسم صنماً سموه (كثرى) ، لعله الصنم (كثرى) الذي أدرك الإسلام ، فحُطِم مع الأصنام الأخرى التي أمر الرسول بتحطيمها تخلصاً من عبادة الأصنام ، فحطمت أينما وجدت ، وقد حطم الصنم (كثرى) (نهشل بن الربيس بن عرعة) ، ولحق بالنبي^٢ .

وقد ضرب أهل الأخبار المثل بـ (كلب طسم) . وذكروا قصته على هذا النحو : كان لرجل من طسم كلب ، وكان يسقيه اللبن ويطعمه اللحم ويسمنه ، يرجو أن يصيب به خيراً ويحرسه ، فجاء يوماً فهجم على صاحبه وأكله ، فضرب به المثل فقيل : ستمن كلبك يأكلك^٣ .

وقد جاء ذكر طسم في شعر للحارث بن حلزة ، هو :

أم علينا جرى إباد كما قيل لطسم أخوكم الأبناء

وقد قال الأصمعي في شرحه : « كان طسم وجديس أخوين ، فكسرت جديس على الملك خواجه ، فأخذت طسم بدين جديس »^٤ . فضرب لذلك بها المثل ، لمن يؤخذ بجريرة غيره .

جديس :

وقالوا عن (جديس) أنهم حي من عاد ، وهم اخوة طسم ، أو أنهم

١ التكوين ، اصحاح ٢٥ ، آية ٢٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩٣/٢) .

٢ قال عمرو بن صخر بن أشنع :
حلفت بكثري حلفة غير برة
لستليني اثواب قيس بن عازب
الأصنام (ص ١١٠) ، تاج العروس (١٢٥/٢) .

٣ قال بعض الشعراء :
ككلب طسم وقد يربيه
ظل عليه يوماً يفرقه
يعله بالحليب في الفلس
أن لا يلغ في الدماء ينتهس
الفاخر (ص ٥٧) .

٤ المللاني الكبير ، (١٠١١/٢) ، « طبعة حيدر اباد دكن » .

حي من العرب كانوا يناسبون عادةً الأولى^١ . وقالوا أنهم أبناء (جديس بن لاوذ ابن لرم بن سام بن نوح)^٢ ، أو أبناء (جديس) شقيق (ثمود بن غائر ابن لرم بن سام بن نوح) ، أو ما شابه ذلك من نسب^٣ . وقد كانوا أتباعاً لطسم ، ويسكنون معهم في اليامة ، ثاروا على (عمليق) (عملوق) ملك طسم ، فكانت نهاية طسم كما كانت نهاية (جديس) ، ولذلك قيل « بوار طسم بيدَي جديس »^٤ .

ويذكر أهل الأخبار أن جديساً لما قتلت (عملوقاً) ومن كان معه من قومه طسم ، هرب رجل من طسم اسمه (رباح بن مروة) ، حتى أتى (حسان بن قُبُع) ، فاستغاث به ، فخرج (حسان) في حَمِير ، فأباد جديساً، وأخرب بلادهم ، وهدم قصورهم وحصونهم^٥ . ويرى (كوسين دي برسفال) أن اغارة حبر المذكورة كانت حوالي سنة (٢٥٠) بعد الميلاد^٦ .

ويرتبط بخبر هذه الابداء قصة امرأة زعم انها كانت أقوى الناس بصراً ، ترى من مسافات بعيدة جداً ، عرفت به (زرقاء اليامة) . وقد ورد قصص عنها ذكره أهل الأخبار^٧ .

وورد في بعض الأخبار أن (جذيمة الأبرش) كان قد حارب (طسماً)

١ اللسان (٣٥/٦) .

٢ الطبري (٧٧١/١) « طبعة اوربة » ، (٦٢٩/١) « دار المعارف » ، ابن خلدون (٢٤/٢) ، الاغانى (٤٨/١٠) ، المعارف (ص ١٤) ، « جديس بن عامر بن ازهر ابن سام بن نوح ، ابن الاثير الكامل (١٣٩/١) ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٦٧/١) ، « وجديس : حي من عاد ، وهم اخوة طسم . وفي التهذيب جديس : حي من العرب ، كانوا يناسبون عادة الأولى » ، اللسان (٣٣٣/٧) .

٣ المصادر نفسها . Ency., Vol., I, P., 992.

٤ اللسان (٣٣٤/٧) ، الامثال ، للميداني (١٩٢/١) ، (٦٩٠/٢) ، الاغانى (١٦٤/١١) ، « دار الكتب المصرية » .

٥ الطبري (٦٢٩/١) فما بعدها ، « حسان بن اسعد تبع » ، شمس العلوم (الجزء الاول ، القسم الثاني) (ص ٣٠٧) .

٦ Caussin de Perceval, Essai, 2, P., 26, Ency., Vol., I, P., 992.

٧ وهناك قصة عن زرقاء أخرى ، كانت ترى من مسافة بعيدة ذكروها في تفرق ولد معد ، الاغانى (٣٦/١١ ، ١٥٥) ، « دار الكتب المصرية » ، مجمع الامثال ، للميداني (١٢٠/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٢٠٧/١) .

و (جديساً) ١ .

ويذكر أهل الأخبار أن (حسان بن تبع) الذي أوقع بجديس ، هو (ذو معاهر) ، وهو (تبع بن تبع تبار أسعد أبي كرب بن ملكي كرب بن تبع بن أقرن) ، وهو أبو (تبع بن حسان) ، الذي يزعم أهل اليمن أنه قدم مكة ويثرب ، وأنه وجّه ابنه (حسان) الى (السند) وابنه (شمر الجناح) (شمر) ، إلى آخر ذلك من قصص سأحدث عنه في أثناء الكلام على مملكة (حير وذي ريدان) ٢ .

ويذكر أهل الأخبار أيضاً أن التي أبصرت جند (حسان) اسمها (اليامة) ، وكانت أول من اكتحلت بالإثمد ، ولهذا تكونت في عينيها عروق سود منه ، كانت هي السبب في نشوء حدة البصر عندها ، وأن (حسان) أمر ففقت عيناها لإدراك سبب حدة بصرها ، فاكتشف وجود الإثمد بهما، ويزعمون أنه أمر بابدال اسم (جو) مساكن طسم وجديس الى (اليامة) ، فعرفت بهذه التسمية مذ ذلك الحين ٣ .

وإذا كان ما جاء في شعر الأعشى عن (اليامة) وعن حسان صحيحاً، فإن ذلك يدل على أن القصة المذكورة كانت شائعة معروفة في أيامه بل وربما قبل أيامه ، والظاهر أن أهل الأخبار قد أخذوا اسم اليامة من اسم المكان ، فصيره لمرأة ذات بصر حديد . ونجد قصة (اليامة) ومجيء التبّع في شعر للنمر بن تولب العسكلي ٤ . ونجد اتفاقاً بين القول المنسوب الى اليامة في سياق القصة وبين قولها في الشعر المنسوب الى الأعشى وإلى النمر .

وقد ذكر (ابن دريد) أن (تبع) أرسل على مقدمته (عبد كلال بن مثوب بن ذي حرث بن الحارث بن مالك بن غيدان) الى اليامة ، فقتل طسماً وجديساً . ولم يذكر اسم ذلك التبّع ٥ .

١ Enc., Vol., I, P., 992.

٢ « سمي ذا الجناح » في طبعة « دار المعارف » ، (٦٣٢/١) ، (شمر) في الطبقات الأخرى ، وفي الموارد الأخرى . وهو الصحيح .

٣ الطبري (٦٣٠/١) « دار المعارف » .

٤ ديوان الأعشى (٧٢ - ٧٤) ، الطبري (٦٣٠/١) وما بعدها ، الكامل ، لابن الأثير (٤٥١/١) .

٥ الاشتقاق (ص ٣٠٧ وما بعدها) .

ويعتقد بعض المستشرقين أن اسم (Jolisitae) أو (Jodisitae) الوارد في (جغرافيا بطليموس) إنما يقصد به قوم (جدیس) ، وأنهم كانوا معروفين في حوالي سنة (١٢٠) بعد الميلاد^١ .

وقد نسب أهل الأخبار أماكن عديدة إلى طسم وجدیس ، وهي قرى ومدن ذكر أنها كانت عامرة أهلة بالسكان ذات مزارع ، وقد بقي بعضها في الإسلام ، ووصفه أهل الأخبار . وإذا صح أنها كانت لطسم وجدیس حقاً ، وأنها كانت من أعمالهم ونتائجهم ، فإن ذلك يدل على أن القوم كانوا حضراً وعلى مستوى من الرقي ، ولم يكونوا بدوياً على شاكلة الأعراب . وربما يعثر على كتابات في هذه المواضع تكشف اللثام عن حقيقة أصحاب هذه المواضع وهوية الأقوام التي عاشت فيها .

ومن الأماكن المذكورة (المشقر) ، وهو حصن بين نجران والبحرين على تل عال ، يقابله حصن سدوس ، وهو من أمكنة (طسم) . وقد نسب بعض الرواة بناءه — كعادتهم عند جهلهم أسماء الأماكن — إلى سليمان ، وقد سكنته عبد القيس أهل البحرين^٢ . و (معنق) من قصور اليمامة على أكمة مرتفعة^٣ . و (الشموس) قيل : أنه من بناء (جدیس)^٤ .

ومن قرى اليمامة الشهيرة (حجر) ، وكانت لطسم وجدیس ، والظاهر أنها كانت عامرة ذات قصور عالية كثيرة ، وأنها كانت محاطة بالمزارع ، وأنها بقيت مدة طويلة مهملة في وسط الرمال التي تكونت في تلك البقاع المنبتة الخصبية التي تحولت إلى صحراء^٥ . و (القرية) (قرية بني سدّوس) ، وكان بها قصر عظيم من الصخر ، وقد زعموا أنه كان من حجر واحد بناه جنّ سليمان^٦ . و (جعدة) وهي حصن ، وبها قصر قديم (عادي) ينسبونه إلى طسم وجدیس ، ويظهر أنه ظلّ باقياً إلى أيام (الهمداني) ، بدليل وصفه له في كتابه (صفة

١ Ptolemy, Geogr., I, 29, Libr., VIII, (Ed. Willberg),
Ency., Vol., I, P., 992.

٢ البلدان (٦٥/٨) ، اللسان (٩١/٦) .

٣ البلدان (٦٥/٨) .

٤ البلدان (١٠٠/٨) .

٥ البلدان (٢٢١/٣) .

٦ البلدان (٧٦/٧) فما بعدها ، الهمداني ، صفة (ص ١٤١) .

جزيرة العرب (والظاهر من وصفه أن الحصن كان عظيماً ، وأنه كان يحيط بالقرية ، وأن أساسه من اللبن وحوله منازل الحاشية للرئيس الذي يكون فيه ، وكان فيه الأتيل والنخيل ، وحوله منازل الناس والسوق، ويحيط بالقرية خندق ، وفي السوق آبار . قال الهمداني : أنها مثنان وستون بئراً ماؤها عذب فرات^١ . و (خضراء حجر) ، وهي حضور (طسم) و (جديس) ، وفيها آثارهم وحصونهم وبتلهم ، الواحد بتيل ، وهو مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين . وقد بولغ في وصف ارتفاع هذه (البتل) وطولها ، حتى زعم أن ارتفاع ما تبقى منها إلى أيام الهمداني كان قد بلغ مئتي ذراع في السماء^٢ . و (الحضرة) ، وكانت لجديس ، وبها آثار قديمة كثيرة^٣ ، و (الهدار)^٤ و (ريمان)^٥ .

أميم :

وجعل الأخباريون (أميماً) في طبقة طسم وجديس ، وقالوا أنهم من نسل (لاوذ بن عمليق)^٦ ، أو (لوذ بن نوح) ، أو ما شابه ذلك من شجرات نسب^٧ . وكان من شعوبهم على زعم أهل الأخبار (وبار بن أميم) ، نزلوا برم (عالج) بين اليمامة والشحر ، وانهارت عليهم الرمال فأهلكتهم^٨ . ويزعم أهل الأخبار أن ديار (أميم) كانت بأرض فارس ، ولذلك زعم بعض نسبة الفرس أنهم من (أميم) ، وإن (كيومرت) الذي يُنسبون إليه هو ابن أميم ابن لاوذ^٩ .

-
- ١ الهمداني : صفة (ص ١٤١) .
 - ٢ صفة (١٤١) .
 - ٣ صفة (١٤١) .
 - ٤ صفة (١٤١) .
 - ٥ صفة (١٤١) .
 - ٦ الطبري (٢١٤/١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، (٢٠٣/١) وما بعدها ، « دار المعارف » .
 - ٧ طبقات ابن سعد (١/١ ص ١٩) .
 - ٨ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .
 - ٩ ابن خلدون (٢٨/٢) .

ولا نعرف من أمر أميم شيئاً غير هذه التتف ، ولم يذكر الأخباريون كيف عدوهم من طبقة العرب الأولى اذا كانت ديارهم بأرض فارس ، ولم يشرحوا لنا كذلك كيف وصلوا نسب (وبار) بأميم ، وما العلاقة بينهما .

وقد ذكر الهمداني أن وبار هو شقيق (كيومرت) ويقال (جيومرت) ، وقد أولدهما (أميم) . ويوبار عرفت أرض (وبار) ، وهي أرض أميم^١ .

وجاء في جغرافيا (بطلميوس) اسم شعب عربي دعسي (Iobaritai) (Jobaritae) (Jobabita) ، على انه من شعوب العربية الجنوبية ، ويسكن على مقربة من أرض قبيلة أخرى دعاها Sachalitae ، وتوطن عند خليج يدعى باسمها (Sinus Sachalits)^٢ . وهذا الاسم قريب جداً من اسم (وبار) ، لذلك ذهب المستشرقون الى أن (Jobaritae) ، هو شعب وبار^٣ أو (بنو وبار)^٤ . غير أن هنالك عدداً من العلماء يرون أن الاسم الأصلي الذي ورد في جغرافيا بطلميوس هو (يوباب) ، غير أن النساخ قد أخطأوا في النسخ فحرفوا حرف الباء (B) الثاني في هذا الاسم وصيروه داء (R) ، فصار الاسم بعد هذا التحريف (Jobabita)^٥ . فالشعب الذي قصده بطلميوس - على حد قول هؤلاء - هو (يوباب) أو (يباب) ، الا انه لا يوجد هنالك دليل قوي يثبت حدوث هذا التحريف^٦ .

وفي موضع ليس ببعيد عن هذا المكان الذي ذكره بطلميوس تقع أرض وبار الشهيرة ، وهي بين رمال يبرين واليمن « ما بين نجران وحضرموت وما بين مهرة والشحر » ، أو ما بين الشحر الى تخوم صنعاء . وقيل : « قرية وبار كانت لبني وبار ، وبين رمال بني سعد وبين الشحر ومهرة » ، والنسبة اليها

١ الاكليل (٧٧/١) ، « ولحقت أميم بارض اباد فهلكوا بها » وهي بين اليمامة والشحر ، ولا يصل اليها اليوم أحد ، غلبت عليها الجن . وانما سميت ابار بابار بن أميم » ، الطبري (٢٠٨ / ١) « دار المعارف » .

٢ Forster, Vol., I, P., 173. f., Vol., 2, P., 270. Ptolemy, VI, 7, Glaser, Skizze, 2, S., 256.

٣ Ritter, Erdkunde, Berlin, 1896, Bd., XIII, S., 315, Sprenger, Geographie, S. 296.

٤ الطبري (٧٥٠/١) « طبعة أوربة » .

٥ Forster, Vol., I, P., 177.

٦ Forster, Vol., I, P., 173, Vol., 2, P., 270.

(أباري)^١ . ونرى ان هذه النسبة قريبة من الاسم الذي ذكره بطلميوس .. ويدعي (ياقوت الحموي) انها مسماة به (وبار بن إرم بن سام بن نوح)^٢ . وقد روت الكتب العربية قصصاً كثيرة عن (وبار) ، ومن جملة الأساطير التي تروى عنها أسطورة (النسناس) . وتتلخص في أنهم (من ولد النسناس بن أميم بن عمليق بن يلمع بن لاوذ بن سام) ، وأنهم كانوا في الأصل بشراً ، فجعلهم الله نسناساً، للرجل منهم نصف رأس ونصف وجه وعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة ، وأنهم صاروا يرعون كما ترعى البهائم ، وأنهم يقفزون قفزاً شديداً ويعدون عدواً منكراً^٣ . والظاهر أن لهذه القصص والأساطير أصولاً جاهلية ، وقد وضع منها في الإسلام شيء كثير ، ووضع معها شعر كثير على لسان ذلك (الإنسان الحيوان) ، ولا يزال الناس يروونها حتى الآن .

وقد أنكر بعض المستشرقين ، وجود وبار ، وزعموا أنهم من الشعوب التي ابتكر وجودها القصص قائلين إن تلك الرمال الواسعة المخيفة هي السبي أوحث إلى القصص والأخباريين لإختراع شعب (وبار) وقصص النسناس^٤ . والذي أراه أن هذا لا يمنع من وجود شعب بهذا الاسم ، وإن كنا لا نعرف من أمره شيئاً إلا هذه القصص والأساطير . وقديماً أنكروا وجود عاد وثمود ، ثم انضح بعد ذلك من الكتابات وجود عاد وثمود . وهكذا قد يعثر في المستقبل على كتابات وبارية لعلها تلقي ضوءاً على حالة ذلك الشعب .

ونجد في رواية أهل الأخبار عن عمار (وبار) وكثرة زروعها ومراعيها ومياهاها في الجاهلية شيئاً من الأساس . فقد أيد السياح ذلك ، وأثبتوا وجود أثر من آثار عمران قديم^٥ . وهو سند يتخذ القائلون بتطور جو بلاد العرب ، وسطحها لإثبات رأيهم في هذا التغيير .

١ البلدان (٣٩٢/٨) فما بعدها ، منتخبات (ص ١١٣) ، « ولحقت أميم بارض وبار فهلكوا بها ، وهي بين اليمامة والشحر . ولا يصل اليوم إليها أحد ، غلبت عليها الجن . وانما سميت أبار بأبار بن أميم » ، طبقات ابن سعد (ج ١ ، قسم ١ ص ٢٠) .

٢ البلدان (٣٩٢/٨) .

٣ البلدان (٣٩٢/٨) فما بعدها ، القزويني ، عجائب المخلوقات (٤١/٢) ، « طبعة وستنفلد » ، المسعودي ، التنبيه (ص ١٨٤) ، صفة (١٥٤ ، ٢٢٣) .

٤ Sprenger Geogr., S. 206.

٥ Enc., Vol., 4, P., 1077, Philby, The Heart of Arabia, Vol., 2, P., 353.

ولم يذهب اسم (وبار) من ذاكرة سكان العرب حتى هذا اليوم . فهم يروون أن في الربع الخالي موضعاً منكوباً هو الآن خراب ، هو مكان (وبار) . وقد قاد بعض الأعراب (فليبي) الى موضع في الربع الخالي ، قال له عنه إنه مكان (وبار) المدينة التي غضب الله عليها ، فأنزله بها العقاب، وصارت خراباً . وقد تبين لـ (فليبي) أن ذلك الموضع هو فوهة بركان ، قذف حمماً ، فبانت الأرض المحيطة به وكأنها خرائب تولدت من حريق^١ . وتحديث أعراب آخرون للسائح (برترام توماس) عن مكان آخر يقع في جنوب شرقي هذا الموضع بمسافة (٢٠٠) ميل ، قالوا له إنه مكان (وبار) المدينة المفقودة المنكوبة كما عثر رجال شركة (أرامكو) على موضع في البادية وذلك في سنة ١٩٤٤ ؛ زعم لهم الأعراب انه مكان وبار، مما يدل على أن الأعراب يطلقون اسم وبار على مواضع عديدة تقع في البوادي . والبوادي أنسب مكان يليق في نظرهم بأن يكون موطن وبار^٢ .

عيبيل :

و (عيبيل) مثل أميم لا نعرف من أمرهم غير نتف ذكرها الأخباريون الذين زعموا أنهم اخوان عاد بن عوص ، أو اخوان عوص بن إرم ، وأنهم لحقوا بموضع (يثرب) حيث اختطوا يثرب . وكان الذي اختطها منهم رجل يقال له (يثرب بن باثلة بن مهلهل بن عيبيل)^٣ . ثم ان قسماً من العماليق انحدروا الى يثرب ، فأخرجوا منها عيبلاً ، فزلوا موضع (الجحفة) ، فأقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسميت (الجحفة)^٤ .

وقد ورد في التوراة اسم ولد من أولاد (يقطان) ، هو (Obal) (عوبال)

Philby, The Empty Quarter, P., 165, R. H. Sanger, The Arabian Peninsula, P., 126, 132. ١

Sanger, The Arabian Peninsula, P., 132. ٢

٣ ابن خلدون (٢١/٢) ، « وعاد وعيبيل ابنا عوص بن إرم بن سام بن نوح » ، طبقات ابن سعد (١٠ ، قسم ١ ص ١٩) .

٤ ابن سعد ، طبقات (١٠ قسم ١ ص ٢٠) ، البلدان (٦٢/٣) .

أو (Ebal) ^١ . وهذا الاسم قريب من (عيبيل) ، لذلك رأى بعض علماء التوراة أن من الممكن أن يكون (عيبيل) هو (عوبال) ^٢ . ونجد في جغرافيا بطليموس اسم موضع يقال له Avalitae على خليج يدعى بهذا الاسم (Avalites Sinus) وعليه مدينة تسمى (Avalites Emporium) ، وسكانها يعرفون باسم (Avalites) . وقد ورد هذا الاسم عند (بلينيوس) على صورة (Abalitae) و (Abalites) ، ويرى (فورستر) أن من المحتمل أن يكون هؤلاء هم (عوبال) ^٣ وقد يكون أبناء عوبال هم عيبيل .

وذكر أن في اليمن مكاناً يقال له عيبيل ^٤ ، وقرية تقع على طريق صنعاء تعرف بـ (عبال) ^٥ . وهذان الاسمان قريبان من اسم عيبيل . غير أنني لا أريد أن أقول الآن شيئاً فيما يخص (عيبلا) ، فلا يجوز الحكم في مثل هذه الأمور لمجرد تشابه الأسماء ، وإنما ذكرت ذلك للمناسبة العارضة وللتنبية .

وأما عبد ضخم ، فكانت تسكن على قول الأخباريين الطائف ، وهلكوا فيمن هلك من الشعوب البائدة ، وكانوا أول من كتب بالخط العربي ^٦ . وذكر الطبري أنهم حي من عبس الأول ^٧ .

ويذكر أهل الأخبار ان (أمية بن أبي الصلت) ذكر (بني عبد ضخم) في شعره ، اذ قال فيهم :

كما أفني بني عبد بن ضخم فما يذكر لصالحها شهاب
بني بيض ورهط بني معاذ وفيهم عزة وهم غلاب ^٨

١ أخبار الأيام الاول ، الاصحاح الاول ، اية ٢٢ ، التكوين ، الاصحاح العاشر ، اية ٢٨ .

٢ Hastings, P., 201, Ency., Bibl., P., 2462, M. Gottfried Buchner's Biblische Real und Verbal Hand., S., 276

٣ Forster, Vol., I, P., 148, 149.

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 426.

٥ Scott The High Yemen, P., 185.

٦ ابن خلدون (٢١/٢) ، « عبد ضخم بن ارم » .

٧ « وكان ساكني الطائف بنو عبد ضخم ، حي من عبس الاول » ، الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .

٨ الاكليل (٧٥/١) .

وقد ذكر الهمداني أن (ابن الكلبي) يرى أن (عبد ضخم) و (بيض) ،
وهما حيّان ، هما اللذان وضعا الكتاب العربي ، وذكر الهمداني أن الشاعر
(حاجز الأزدي) ضمن هذا الرأي بقوله :

عبد بن ضخم اذا نسبتهم وبيض أهل العلوة في النسب
ابتدعوا منطقاً لخطهم فبين الخط لهجة العرب^١

جرهم الأولى :

وجرهم هؤلاء ، هم غير (جرهم) القحطانية على رأي النسابين والأخباريين ،
ولذلك يقولون لجرهم هذه (جرهم الأولى) ، ولجرهم القحطانية (جرهم
الثانية) ، ويقولون عن الأولى إنهم من طبقة العرب البائدة ، وأنهم كانوا على
عهد عاد وممود والعاقلة^١ . ويظهر من روايات الأخباريين أنهم كانوا يقيمون
بمكة ، ويرجعون أنسابهم الى (عابر) ، وأنهم أبيدوا : أبادهم القحطانيون^٢ .
أما جرهم الثانية ، أي جرهم القحطانيين فينسبهم بعض أهل الأخبار الى
(جرهم بن قحطان بن هود) وهم أصهار اسماعيل^٣ .
وقد ورد اسم (جرهم) عند (اصطيفان البيزنطي) من الكتبة اليونان^٤ .

العاقلة :

وحشر الأخباريون العاقلة (العاليق) في هذه الطبقة أيضاً ، فنسبهم الى
(عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح)^٥ . ولم تذكر التوراة أصلهم ونسبهم ،

١ الاكليل (٧٨/١) .

٢ Enc., Vol., I, P., 1066.

٣ ابن خلدون (٣٠/٢) ، صبح الاعشى (٣١٤/١) ، Enc., Vol., I, P., 1066.

٤ شمس العلوم (١٠٠ ق ، ١ ص ٣٢٢) .

٥ Enc., Vol., I, P., 1066.

٦ الطبري (٢١٣/١ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، « طبعة أوربة » .

وهي لا تشير الى أبناء (لود) أو (لاوذ) كما يقول له الأخباريون^١ .
 وعمليق (جد العمالة ، هو شقيق طسم . ويذكرون أنهم كانوا أئماً كثيرة ،
 تفرقت في البلاد ، فكان منهم أهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر .
 ويعرف أهل عمان والبحرين بـ (جاسم) ، وجاسم هم من نسل عمليق على زعم
 أهل الأخبار . وكان من العمالة أهل المدينة ، ومنهم (بنو هف) و (سعد
 ابن هزان) و (بنو مطر) و (بنو الأزرق) . وكذلك سكان نجد ، ومنهم
 بديل وراحل وغفار ، وكذلك أهل تيماء^٢ .

وكان ملكهم (الأرقم) ، وهو من العمالة^٣ . وهو من معاصري (موسى)
 على رواية الهمداني . وقد أرسل (موسى) عليه جنداً لمقاتلته فقتل بأتباعه أهل
 تيماء وببقية عمالة الحجاز^٤ .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن (عماليق) لحقت بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء ،
 ثم انحدر بعضهم الى يثرب ، فأخرجوا منها (عبيلاً) ، وسكنوا في ديارهم ،
 وذهبت (عبيلى) الى موضع (الجحفة) ، فأقبل السيل فاجتحمهم ، فذهب
 بهم ، فسميت الجحفة^٥ . وذكروا أن (موسى) أرسل جيشاً لحرب عماليق
 يثرب^٦ ، ولم نجد في التوراة ذكراً لمثل هذا الجيش ، أو الحرب .

والعمالة الذين نتحدث عنهم ، هم عرب صُرحاء ، من أقدم العرب زماناً ،
 لسانهم اللسان المُضَرِّي الذي هو لسان كل العرب البائدة على حد قول أهل
 الأخبار^٧ . بل زعم بعضهم أن عمليقاً، وهو أبو العمالة ، أول من تكلم بالعربية
 حين ظعنوا من بابل ، فكان يقال لهم ولجرحهم (العرب العاربة)^٨ .
 ويظهر من فحص هذا المروي في كتب الأخباريين عن العمالة ونقده أنه
 مأخوذ من منابع يهودية ، فقد ذكر العمالة في التوراة ، وقد كانوا اول شعب

١ قاموس الكتاب المقدس (١١٢/٢) فما بعدها) ،
 Hastings, P., 24, The Unl. Jew. Enc., Vol. I., P., 218.

٢ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف »

٣ الطبري (٢٠٣/١)

٤ الاكليل (٧٤/١) وما بعدها) .

٥ الطبري (٢٠٣/١) .

٦ Enc., Vol. I, P., 325.

٧ الطبري (٢٠٣/١) فما بعدها) .

٨ الطبري (٢٠٧/١) فما بعدها) .

صدم العبرانيين حينما خرجوا من مصر متجهين الى فلسطين^١ . وظلوا يحاربونهم ، ويكبدونهم خسائر فادحة ، وأوقعوا الرعب في نفوسهم ، ولهذا ثار الحقد بينهم على العماليق . ويتجلى هذا الحقد في الآيات التي قالها النبي (صموئيل) لشاؤول (Saul) أول ملك ظهر عند العبرانيين ، قالها لهم باسم اسرائيل : « لياي أرسل الرب لمسحك ملكاً على شعبه اسرائيل . والآن فاسمع صوت كلام الرب . هكذا يقول رب الجنود . اني افتقدت ما عمل عمليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر . فالآن اذهب واضرب عماليق ، وحرّموا كل ماله ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجلاً وامرأة ، طفلاً ورضيعاً ، بقراً وغنماً ، جملاً وحماراً^٢ . وهذا الحقد هو الذي جعلهم يخرجونهم من قائمة النسب التي تربطهم بالساميين .

وقد كانت منازل العماليق من حدود مصر فطور سيناء الى فلسطين . وعدم ذكر العبرانيين لهم في جملة قبائل العرب لا يدل على أنهم لم يكونوا عرباً ، فقد ذكرت أن العبرانيين لم يطلقوا لفظة (عرب) الا على الأعراب ، أعراب البادية ، ولا سيما بادية الشام^٣ . ثم ان العماليق من أقدم الشعوب التي اصطدم بها العبرانيون ، وحملوا حقداً عليها ، وهم عندهم وفي نظرهم أقدم من القحطانيين والإسماعيليين .

حضورا :

وأورد أهل الأخبار قصصاً عن (حضورا) ، فذكروا أن (حضورا) كانوا يقيمون بالرس^٤ ، وكانوا يعبدون الأوثان ، وبعث اليهم منهم نبي منهم اسمه (شعيب بن ذي مهرع) ، فكلّبوه ، وهلكوا^٥ .
وهناك عدة مواضع يقال لها (الرس) منها موضع بالهامة ، وموضع كان فيه ديار نفر من ثمود^٥ .

١ Musil, Hegaz, P., 460, The Uni. Jew. Enc., Vol., I, P., 218.

٢ صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١ فما بعدها .

٣ Hastings, A. Dictionary of the Bible Vol., I, P., 77.

٤ ابن خلدون (٢٠٠/٢) ، نهاية الارب (٨٦/١٣) فما بعدها ، « قال كعب : ان

اصحاب الرس كانوا بحضرموت » ، نهاية الارب (٨٨/١٣) .

٥ البلدان (٢٥٠/٤) .

وورد في القرآن الكريم (أصحاب الرس)^١ ، مع عاد وثمود ، وذهب المفسرون الى أنهم كانوا جماعة (حنظلة) ، وهو نبي ، فكفروا به ورستوه في البشر^٢ ، الى غير ذلك من الأقوال .

ويظهر من القرآن الكريم أن (أصحاب الرس) كانوا مثل جماعة عاد وثمود في الطبقة ، أي في زمانهم ، وأنهم هلكوا أيضاً . وقد ذكر بعض أهل الأخبار أن نبي (أصحاب الرس) هو (خالد بن سنان) ، وقد ذكروا أن الرسول ذكره ، فقال فيه : « ذاك نبي ضيعة قومه »^٣ .

وذكر (الهمداني) أن (حنظلة بن صفوان) كان نبياً في اليمن ، وقد أرسل الى سبأ ، وكان من (الأقيون) ، وهم بطن دخل في (حير) ، وذكر أنه وجدت عند قبره هذه الكتابة : « أنا حنظلة بن صفوان . أنا رسول الله . بعثني الله الى حير وهدان والعريب من أهل اليمن ، فكذبوني وقتلوني » . وأنه أنذر قومه (سبأ) برسائله فكذبوه ، فلما كذبوه ، أرسل الله عليهم سيل العرم^٤ .

وذكر (الهمداني) أيضاً نقلاً عن (ابن هشام) أن (حنظلة بن صفوان ابن الأقيون) ، هو ، نبي الرّس ، والرس بناحية صيهد ، وهي بلدة منحرفة ما بين بيحان ومأرب والجوف ، فنجران فالعقيق فالدهناء ، فراجعا الى حضرموت . وذكر أيضاً أن الرس ، بمعنى البشر القليلة الماء ، وأن أهل الرس قبائل من نسل أسلم ويامن أبو زرع ورعويل وقدمان ، وهم من نسل قحطان . وقد كذبوا نبيهم (حنظلة) وقتلوه وطرحوه في بحر رس ماؤها^٥ .

وروى أهل الأخبار أن (بنختنصر) (بنوخد نصر) غزا أهل (حضور) (حضوراء) وأعمل فيهم السيف وأجلى خلقاً منهم الى أماكن أخرى ، لأنهم كفروا وجحدوا نبوة نبي منهم أرسله الله اليهم ، وهو (شعيب بن مهلم بن ذي مهلم بن المقدم بن حضور) ، ولم يصدقوه ، وكانوا أصحاب بطش وشدة

١ « وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا » ، الفرقان ، ٢٥ ، آية ٣٨ ، « كذبت قبلهم قوم نوح ، وأصحاب الرس وثمود » ، ق ، ٥٠ ، آية ١٢ .

٢ البلدان (٢٥٠/٤) ، قصص الانبياء (١٤١) ، حياة الحيوان ، للدميري ، مادة عنقاء نهاية الارب (١٣ / ٨) ، Enc., Vol., I, P., 479.

٣ الإصابة (٤٦٨/١) .

٤ الاكليل (١٢٠/١) وما بعدها .

٥ الاكليل (١٢١/١) وما بعدها .

وغلظة . فلما قتلوه، أوحى الله الى نبي في عصره هو (برخيا بن أخيا بن رزنائيل ابن شالسان) ، وكان من سبط (يهوذا بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل)، أن يأتي (بختنصر) ، فيأمره بغزو (العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب) ، ويطأ بلادهم بالجنود ، فيقتل مقاتلهم ، ويستبيح أموالهم . فأقبل (برخيا) من نجران ، حتى قدم على (بختنصر) ، وذلك في زمان (معد بن عدنان) ، فوثب (بختنصر) على من كان في بلاده من العرب ، وجمع من ظفر به منهم ، فبنى لهم حيراً على النجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه ، ووكّل بهم حرساً وحفظه ، ثم سار في بلاد العرب فالتقى بعدنان بذات عرق ، فهزم (بختنصر) عدنان ، وسار الى (حضور) ، فانهزم الناس وفروا فرقتين : فرقة أخذت الى (ريسوب) وعليهم (عك) ، وفرقة قصدت وبار. أما الذين بقوا في (حضور) ، وحاربوا (بختنصر) فقد احتصلتهم السيوف . ثم رجع ملك بابل بما جمع من السبايا ، فألقاهم بالأنبار ، وخالطهم بعد ذلك النبط ، ومات عدنان . فلما مات (بختنصر) ، خرج (معد بن عدنان) حتى أتى مكة ، ثم ذهب الى (ريسوب) فاستخرج أهلها ، وسأل عن بقي من ولد (الحارث بن مضاض الجرهمي) وهو الذي قاتل دوس العتق ، فأفنى أكثر جرهم على يديه - فقليل : بقي (جرشم بن جلهمة) ، فتزوج معد ابنته (معانة) ، فولدت له (نزاراً) ١ .

وأهل حضور الذين قتلوا نبيهم ، وقتلهم (بختنصر) هم شعب من أهل اليمن على رأي الأخباريين ، كانوا يقيمون الحضور أو (حضوراء) . وفي اليمن موضع يسمى (حضور) ، ينسبه أصحاب الأخبار الى (حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن حير بن سبأ) ٢ ، وذكروا أنه المكان الذي قصده (بختنصر) ، فقتل أهله ٣ . وعلى هذا المكان مسجد يزار حتى اليوم ، يقال له مسجد شعيب نبي أصحاب الرس ٤ . وهو جبل من جبال اليمن المقدسة ،

١ الطبري (٢٩١/١ وما بعدها) ، (٥٥٩/١) « دار المعارف » .
٢ « حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن حير بن سبأ » ، البكري ، معجم (٤٥٦/٢) « طبعة السقا » ، اللسان (٢٧٨/٥) .
٣ البلدان (٢٩٦/٣) .
٤ الأكليل (١٢١/٨) « طبعة نبيه » ، Enc., Vol., 2, P., 210.

قال الهمداني : (وأما الجبال المقدسة عند أهل اليمن ، فجبل حضور وصتين ورأس بيت فائش من رأس جبل تخلى ورأس هنوم ورأس تعكر ورأس صبر . وفي رؤوس هذه الجبال مساجد مباركة مأثورة)^١ .

وأرى أن قداسة هذه الجبال وردت إليها من الأيام التي سبقت الإسلام ، من أيام الوثنية ، وأن المساجد التي أنشئت في رؤوسها ، إنما أنشئت فوق معابد قديمة ، لعبادة الأصنام ، وذلك كما حدث في أماكن أخرى من جزيرة العرب حيث اكتسبت بعض المعابد الوثنية القديمة قدسية خاصة . فلما جاء الإسلام ، ألبست ثوباً إسلامياً ، فبقيت حية ، وتحولت بمرور الزمن الى مزارات ومساجد تقام فيها الصلوات .

وقد اعتمد رواة خبر غزو (بختنصر) لأهل (حضور) على ما جاء عن (ابن الكلبي) و (ابن اسحاق) ونفر آخر ممن عرفوا بروايتهم هذا النوع من الروايات التي تعرف من معين الإسرائيليات . وما بنا حاجة أبداً الى البحث في أسماء رواة المعرفة صلته بالتوراة . فالمسألة جد واضحة . خذ التوراة واقراً ما جاء في أسفار (أرميا) ونبوءته، تجد القصة مكتوبة في السفر التاسع والأربعين : (عن قيثار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ راصر^٢ ملك بابل . هكذا قال الرب : قوموا اصعدوا الى قيثار ، اخربوا بني المشرق . يأخذون خيامهم وغنمهم ، يأخذون لأنفسهم شققهم وكل آتيتهم وجالهم ، وينادون اليهم الخوف من كل جانب .

« اهربوا ، انهزموا جداً ، تعمقوا في السكن يا سكان حاصور، يقول الرب ، لأنّ نبوخذ راصر ملك بابل قد أشار عليكم مشورة ، وفكر عليكم فكراً . قوموا الى أمة مطمئنة ساكنة آمنة . يقول الرب لا مصاريع ولا عوارض لها . تسكن وحدها وتكون جالهم نهياً ، وكثرة ماشيتهم غنيمة ، وأدرى لكل ريح مقصوص الشعر مستديراً ، وآنى بهلاكهم من كل جهاته يقول الرب . وتكون حاصور مسكن بنات آوى، الى الأبد، لا يسكن هناك انسان، ولا يتغرب فيها ابن آدم^٣ .

١ الاكليل (١٢١/٨) « طبعة نبيه » .

٢ « نبوخذ راصر » « بختنصر » (نبوخذ نصر) .

٣ ارميا ، اصحاح ٤٩ ، آية ٢٨ وما بعدها .

أما النبي (برخيا) الذي زعم الأخباريون أنه هو الذي أشار على (بختنصر) بغزو (حضور) ، فهو « باروخ بن نيريا (نريا) بن محسيا » شقيق (سرايا) (Seraiah)^١ . وقد كان كاتباً ، حياً مخلصاً للنبي (أرميا)^٢ ، وكان يكتب لأرميا ، وهو الذي كلفه النبي (أرميا) بالذهاب الى (بختنصر) حاملاً رسالة الى الملك^٣ . وهي الرسالة المدونة في أسفار (أرميا) . وقد ذهب الى بابل وقابل الملك ، ثم عاد الى القدس حيث هاجم (بختنصر) القدس واستولى عليها بتحريض من هذا النبي نبي العبرانيين !

ترى أن الأخباريين أخذوا قصة غزو (بختنصر) لحضور ، القصة الواردة في أسفار (أرميا) ، وجعلوها غزواً لشعب (حضور) في اليمن ، وهو موضع بعيد لا يعقل وصول (بختنصر) اليه ، وأضافوا اليه شيئاً من الزخارف التي وضعها (ابن الكلبي) أو غيره ، كإقحام اسم عدنان ومعد بن عدنان واسم نبي عربي جنوبي في القصة ، ولم يكفهم ذلك ، فجعلوا (برخيا) من أهل (نجران) ، وجعلوه يقطع المسافة ما بين نجران وبابل ، ليكلف (بختنصر) غزو العرب . وصيروا (حاصور) (حضور) الواردة في (أرميا) (حضور) و (حضوراء) ، وجعلوه في اليمن ، ولم ينسوا البحث عن سبب ، فجعلوه اعتداء أهل (حضور) على نبيهم .

أما (حاصور) التوراة ، فإنها أرضون تقع في (العربية) ، كانت فيها ممالك صغيرة ، أو مشيخات ، كما يفهم ذلك من عبارة (أرميا) « وعن ممالك حاصور »^٤ . وكانت تتاخم (قيدار) ولعلها كانت في البادية^٥ . ويرى علماء التوراة أن سكانها كانوا من أهل المدر ، وقيمون في بيوت ثابتة ، وقد أطلقت كلمة (حاصور) (Hazor) عليهم تمييزاً لهم عن أهل الوبر ، وكانت ديارهم في جنوب فلسطين أو شرقها^٦ .

- ١ أرميا ، اصحاح ٢٥ ، الآية ٥٩ .
- ٢ أرميا ، اصحاح ٣٢ ، الآية ١٢ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٠٤/١) ، وقد سجن مع أرميا في القدس وكانا يعارضان الملك « يهو ياقيم » « ٦٠٤ ق.م » ، Hastings, P., 85, Enc., Bibl., P., 491.
- ٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٤/١) .
- ٤ أرميا ، اصحاح ٤٩ ، الآية ٢٨ .
- ٥ Hastings, P., 334.
- ٦ Enc., Bibl., P., 1978.

وتعني كلمة (حاصور) (Hazor) (Hasor) وجمعها (Hazerim) (Haserim) ما تعنيه لفظة (حيرتا) (Herta) في الإرامية و (الحيرة) في العربية ، من معنى (محاط) أي (محصور) (محاصر) ، بمعنى الحصن أو الأمكنة المحاطة المحصورة أو (المضرب) و (الحمى) . وقد كان مشايخهم يقيمون في أسياف البادية في غيمات ومضارب مع أتباعهم ، فهي في معنى (حيرتا) عند بني لارم و (Paremboles) عند اليونان^١ . وكانوا يرعون الماشية من ماعز وأغنام وجمال في مناطقهم التي اعتادوا الإقامة بها ، ويظهر أنهم تعرضوا للجيوش (مختنصر) ، أو أنهم لم يساعده في حملته على فلسطين ، فاغتاز منهم ، وجرده عليهم حملة ، وكان من عادتهم اللجوء الى الكهوف والمغاور حين مهاجمة عدو لهم ، حيث يذهبون الى مناطق بعيدة يصعب على الجيوش مطاردتهم ، فيتخذون منها مواطن آمنة ويعيشون فيها ما دام الخطر^٢ .

ولم يكن للأخباريين علم دقيق بما يرد في التوراة من أمور ، فلم يفتنوا أن من غير الممكن أن يكون أهل (حاصور) من أهل اليمن ، لأن ذكر التوراة لهم مع (قيدر) يجعل مواضعهم في شمال جزيرة العرب ، ثم إن اليمن بعيدة جداً عن (مختنصر) ، ولا يعقل أن يكون في امكان جيوشه الوصول بسهولة الى هناك . ثم إن الكتب اليهودية تصور (حاصور) في مكان في العربية الشمالية في جوار أرض (قيدر) ، ولم يكن لها علم واسع عن اليمن ، كما أن (باروخ) من القدس ولم يكن من أهل نجران .

ويظهر أن حرباً قديمة ماحقة ، أو كارثة طبيعية مثل زلزال أو هياج حرة ، وقعت في (حضور) اليمن ، سبب تلفها وانزال خسائر كبيرة بها وبأهلها ، فترك ذلك أثراً عميقاً في ذاكرة الناس ، رواه كابر عن كابر ، فوجد الأخباريون الذين وقفوا على أخبار التوراة ، أو كانوا يجالسون أهل الكتاب ويسألونهم ، شيئاً بين (حاصور) و (حضور) ، وظنوا جهلاً بالطبع بما ورد في (أرميا) عن (حاصور) ، أن (حاصور) التوراة (حضور) اليمن ، ثم أضافوا الى ذلك ما شاءوا على طريقتهم في أمثال هذه المناسبات .

Musil, Deserta, P., 490.

Musil, Deserta, P., 490, Montgomery, Arabia and the Bible, P., 64.

هلاك العرب البائدة :

هذا ويلاحظ أن هلاك العرب البائدة كان بسبب كوارث طبيعية نزلت بهم مثل انحباس المطر جملة سنين مما يؤدي الى هلاك الحيوان وجوع الإنسان ، واضطراره الى ترك المكان والارتحال عنه الى موضع آخر ، قد يجد فيه زرعاً وماءً وقوماً يسمحون له بالنزول معهم كرهاً لقوته ولتغلبه عليهم ، أو صلحاً بأن يسمح الأقدمون له بالنزول في جوارهم لاتساع الأرض وللفائدة المرجوة للطرفين . وقد يتفرق ويتشتت بين القبائل ، فيندمج فيها بمرور الزمن ويلتحق بها في النسب والعصبة ، فيكون نسبه النسب الجديد . وبذلك ينظم ذكر القبيلة القديم والأصل الذي كان منه . وقد لا يبقى منه غير الذكريات ، كالذي رأيناه من أمر القبائل البائدة .

وقد تكون الكارثة هيجان حرات وهبوب عواصف رملية شديدة عاتية تستمر أياماً واهتزازات أرضية في الأرضين غير المستقرة ، مما يلحق الأذى بالناس . ومن هنا نجد ذكر هذه الكوارث في القرآن الكريم وفي الأخبار الواردة عن هلاك القبائل المذكورة فيه ، أو التي لم ترد فيه ، وانما يذكر أسماءها أهل الأخبار . هذا وقد ألفت بعض أهل الأخبار كتباً في بعض العرب البائدة ومن هؤلاء (عبيد بن شربة الجُرهمي) ، و (ابن الكلبي) ، فقد ذكر ان لهذا مؤلفاً دعاه (كتاب عاد الأولى والآخرة) و (كتاب تفرق عاد)^١ ، ومنهم (أبو البخري) و (وهب بن وهب بن كثير) فله (كتاب طسم وجديس)^٢ وغير ذلك . والغالب على هذه المؤلفات كما يظهر من الاقتباسات منها والمبثوثة في الكتب الباقية ، أنها ذات طابع أسطوري .

١ الفهرست (ص ١٤٧) .

٢ الفهرست (ص ١٥٢) .

الفصل التاسع

العرب العاربة والعرب المستعربة

تحدثت في الفصل السابق عن العرب البائدة، وهم العرب الذين هلكوا واندثروا قبل الإسلام ، ولم يبق منهم غير آثار وذكريات . أما العرب العاربة والعرب المستعربة (المتعربة) ، أو العرب القحطانيون والعرب العدنانيون ، فإنهم العرب الباقون الذين كانوا يؤلفون جمهرة العرب بعد هلاك الطبقة الأولى ، فهم العرب الذين كتب لهم البقاء ، وكان ينتمي إليهم كل العرب الصرحاء عند ظهور الإسلام^١ .

العرب العاربة :

أما الطبقة الثانية من طبقات العرب بعد البائدة ، فهي (العرب العاربة) على أقوال النسابين ، وهم من أبناء قحطان وأسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين ، الذين هم العرب المستعربة في عرف النسابين .

وقحطان الذي يرد في الكتب العربية ، هو (يقطان) الذي يرد اسمه في سفر التكوين ، وهو (قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)

١ الطبري (٢٠٤/١) « دار المعارف » .

في رأي أكثر النسابين^١ . وهو (يقطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام ابن نوح) في التوراة^٢ .

فترى من ذلك مطابقة تامة بين النسب الوارد في الكتب العربية والنسب الوارد في التوراة ، مما يدل دلالة واضحة على أن الأخباريين أخذوا علمهم بنسبه من روايات أهل الكتاب ، وهم يؤيدون ذلك ولا ينكرونه^٣ .

وقد سرد بعض الأخباريين نسب قحطان في شكل آخر : مثل (قحطان بن هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح)^٤ . على أن هوداً هو عابر ، أو (قحطان بن هود بن عبد الله بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح) ، أو (قحطان بن يمن بن قدار) ، أو (قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن اسماعيل بن إبراهيم)^٥ . فترى من ذلك أن بعض شجرات النسب أدخلت أسماء عربية بين الأسماء المأخوذة من التوراة .

وقد ألح بعض نسابي اليمن على جعل (هود) عابراً ، وعلى جعله والد قحطان ، وأصروا على ورود ذلك في الشعر ، ولم يكن من العسير عليهم بالطبع إيجاد ذلك الشعر ووضعه ، فكانوا إذا نوقشوا في ذلك ، احتجوا بقول الشاعر :

وأبو قحطان هو ذو الحقف^٦

واحتجوا بأمثال ذلك من كلام منظوم أو مثور . وجاءوا بأكثر من ذلك لإفحام الخصوم .

- ١ مروج (٢٧٦/١) فما بعدها ، ابن هشام (٤/١) « طبعة وستنفلد » ، (٥/١) ، « طبعة الابياري وجماعته » ، القاهرة (١٩٣٦ م) ، نهاية الارب (٢٧٥/٢) ، الاخبار الطوال (ص ٩) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) ، الاكلیل (٨٧/١) فما بعدها الطبري (٢٠٥/١) ، « دار المعارف » ابن خلدون (٩/١)
- ٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الاية ٢٥ فما بعدها .
- ٣ « ويقطن » هو قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، الطبقات : لابن سعد ، الجزء الاول ، القسم الاول ، (ص ١٨) فما بعدها ، ابن خلدون (٩/١) ، النويري ، نهاية الارب (٢٨٩/٢) .
- ٤ التنبيه (ص ٧٠) .

Wuestenfeld, Genealogische Tabellen der Arabischen Staemme und Familien, Goettingen, 1852-1853.

- ٥ التنبيه (ص ٧١) ، ابن خلدون (٤٦/٢) .
- ٦ التنبيه (ص ٧١) ، منتخبات (ص ٨٣) ، اخبار عبيد (ص ٣١٣) .

والقائلون إنَّ (قحطان) هو (قحطان بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن إسماعيل) هم نَسَابُو ولد (نزار بن معد) ، أي التزارية ، الذين كانوا يقابلون (اليمانية) في صدر الإسلام وفي الدولة الأموية والعباسية ، يؤيدهم في ذلك بعض اليمانية ، مثل (هشام بن الكلبي) ، و (الشرقي بن القطامي) و (نصر بن زروع الكلبي) و (الهيثم بن عدي) ^١ . ويظهر أن غايتهم من ذلك وصل نسب قحطان بشجرة نسب أولاد إسماعيل . أما سائر اليمانية ، فتأبى ذلك ، وتذهب إلى أنه (قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح) ^٢ .

وتستهدف هذه الروايات غاية عاطفية بعيدة على ما يظهر ، كانت ذات أهمية في نظر القحطانيين ، هي وصل نسبهم بالأنبياء . فبعد أن ذكروا ما ذكروا من أخبار مُلكهم ودولهم قبل الإسلام ، وجدوا أن العدنانيين يفخرون عليهم مع ذلك بأن فيهم النبوة والأنبياء ، منهم الرسول ، وفيهم إسماعيل جدهم . فأرادوا أن يكون لهم أجداد أنبياء : أنبياء خلص قحطانيون ، أو أن يكون لهم نسب يتصل بنسب إسماعيل على الأقل ، أو أن يصل نسب إسماعيل بأسباب نسبهم ، فقالوا : إنهم من نسل هود ، وهود نبي من أنبياء الله ، وقالوا : إن قحطان من نسل إسماعيل ، وقالوا : إن هوداً هو عابر ، وعابر من نسل الأنبياء ، وقالوا أشياء أخرى من هذا القبيل ترمي إلى ترجيح كفتهم على كفة منافسيهم العدنانيين في الفخر بالأنساب على الأقل .

ولم يعجب اليمانية المعنى الوارد في التوراة للفظ (يقطان) (يقطن) ، ولعلمهم عرفوا معناها من أهل الكتاب ، فعكسوا المعنى بأن صبروه على الضد تماماً . جعلوه (الجبار) ، وقالوا : (واسمه في التوراة الجبار) ^٣ ، مؤكدين جازمين . أما في التوراة وعند أهل الكتاب وفي العبرانية ، فهو العكس ، فـ (يقطان) في التوراة لفظة تعني (صائر صغير) ^٤ ، فهي في معنى : (صغير) . وبين صغير وجبار فرق كبير . وهكذا صار الصغير جباراً . وبهذا التفسير أعاد النسابون أو أحد المتحدثين إليهم من أهل الكتاب الهيبة والمكانة إلى (قحطان) . وشاء بعض أهل الأخبار أن يكون دقيقاً في حكمه ، عارفاً بمدة حكم

١ التنبية (ص ٧١) ، الاكليل (١٠٣/١ وما بعدها) .

٢ التنبية (ص ٧١) .

٣ التنبية (ص ٧٠) .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٥٢٤/٢) .

(قحطان) ، لثلاثا يترك الناس في جهل من أمرها ، فجعلها مثني سنة، لم يزد عليها ولم ينقص منها . وكان صاحب هذا الحسب (هشام بن الكلبي) رأس الأخباريين في مثل هذه الأمور^١ .

وقد ورد في جغرافيا (بطليموس) اسم قريب من اسم (قحطان) ، هو (كتنيتة) (كتانيتة) (Katanitae)^٢ . غير أن هذا لا يدل حتماً على أن المراد منه (قحطان) ، إذ يجوز أن يكون اسم موضع لا علاقة له بقحطان ، أو اسم قبيلة من القبائل اسمها قريب منه . وقد ورد اسم قبيلة تدعى (قطن) أو (بنو قطن) ، كما ورد اسم موضع عرف بـ (جو قطن)^٣ ، وذكر اسم مدينة بين (زبيد) و (صنعاء) ، يقال لها (قحطان)^٤ . وأشار (المسعودي) إلى (جزائر قطن)^٥ ، لهذا أرى أن من الخير ألا يتخذ الآن أي موقف كان لا سلباً ولا إيجاباً ، قبل اكتمال العدة والظفر بمواد مساعدة تكفي لاصدار الأحكام .

وقد عثر على اسم قبيلة عربية عرفت بقبيلة (قحطن) ، أي قحطان ، في نصوص المسند ، لا أستبعد أن يكون لاسمها علاقة بقحطان الذي صيرَه أهل الأخبار جداً لكل العرب الجنوبيين . فقد ذكر بعد اسم (كدت) الذي هو كندة في النص : (Jamme 635)^٦ وكان على قبيلة قحطان وعلى كندة ملك واحد اسمه (ربيعت) (ربيعة) ، وهو من (ثورم) (آل ثورم) (الثورم) أي (آل ثور) . وثور هو جد قبيلة كندة في عرف النسابين من أيام الملك (شعر أوتر) ، وسأحدث عنه وعن الملك فيما بعد .

ونحن لا نعرف من أمر (قحطان) شيئاً غير هذا النسب الذي يردده الأخباريون ، وليس لدى العبرانيين من أمره غير ما ورد من أنه أحد أولاد

١ المجر (٣٦٤) .

Ptolemy, Geogr., VI, 7,20,23, Glaser, Skizze, Bd., 2, S. 283

٢ Knobel, Die Voekerstafel der Gensis, S., 185, Forster, The Historical Geography, Vol., I, 80, O'leary, P., 18.

٣ Glaser, Skizze, S., 288, 422, Enc., Vol., 2, P., 629.

٤ احسن التقاسيم ، (٨٧/٣ ، ٩٤) « الطبعة الثانية » .

٥ مروج (٩١/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » .

٦ Jamme 635, MaMb270, Mahram, P., 136.

(عابر) وآخرهم ، وانه جد قبائل عديدة قديمة . وسكوت أهل الأخبار عنه واكتفاؤهم بسرد نسبه ، دليل على أخذهم له من التوراة .
 أما أولاده ، فلم ييخل عليه أهل الأخبار بالأولاد ، فوهب بعضهم له امرأة سموها (حنى بنت روق بن قزارة بن سعد بن سويد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح)^١ ، ووهبوا له من الولد ما تراوح عدده من عشرة ذكور الى واحد وثلاثين على حسب كرم الراوي أو يخله على قحطان ، من بينهم يعرب وحضر موت وعمان وجرهم^٢ .

وقد ذكر (الهمداني) أولاد (قحطان) على هذا النحو : يعرب ابن قحطان ، ودعاه بـ (المزدغف) ، ومعنى (المزدغف) المحتوي للأشياء ، وجرهم بن قحطان ، ولؤي ، وخابر ، والمتلمس ، والعاض (العاصي) (القاضي) ، وغاشم ، والمتعصم ، وغاصب ، ومغرز ، ومبتع ، والقطامي ، وظالم ، و (الحارث) (الحارث) ، ونباتة ، وقاحط ، وقحيط ، ويعفر جد المعافر ، والمود ، والمودد ، والسلف ، والسالف ، ويكلأ ، وغوث ، والمرتاد ، وطسم ، وجديس ، وحضر موت ، وسماك ، وظالم ، وخيار ، والمتنع ، وذو هوزن ، ويأمن ، ويفوث ، وهذرم . وقد أخذ هذه الأسماء من روايات أشار الى أسماء روايتها . وقد جمعتهما ليكون في إمكان القارئ الاحاطة بها^٣ .

وذكر (الهمداني) في موضع آخر انه قرأ « في السجل الأول : أولد قحطان بن هود أربعة وعشرين رجلاً » ، وهم : يعرب ، والسلف الكبرى ، ويشجب ، وأزال ، وهو الذي بنى صنعاء ، ويكلي الصغرى ، وخولان - خولان رداع في الفقاعة - والحارث ، وغوث ، والمرتاد ، وجرهم ، وجديس ، والمتنع ، والمتلمس ، والمتغشم ، وعباد وذو هوزن ، ويمن ، وبسه سميت اليمن ، والقطامي ، ونباتة ، وحضر موت ، وسماك ، وظالم ، وخيار ، والمشقر^٤ . وقصد بـ (السجل الأول) سجل خولان الذي تحدثت عنه آنفاً .

أما الذي تولى الملك بعد قحطان - على رأي الأخباريين - فكان يعرب ،

-
- ١ مروج (٢٧٧/١) .
 - ٢ مروج (٢٧٧/١) ، ابن خلدون (٤٧/١) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) .
 - ٣ الاكليل (١١٦/١) وما بعدها .
 - ٤ الاكليل (١٣١/١) وما بعدها .

وكان ملكه باليمن ، وقد غلب بقايا عاد ، ووزع اخوته في الأقطار ، فأقر أخاه حضرموت على الأرضين التي عرفت باسمه فقبل لها حضرموت ، وعين عمان على أرض عمان ، وولى جرهماً على الحجاز^١ .

ولا نعرف من أمر يعرب شيئاً غير ما ذكره بعض الأخباريين من ان أم يعرب هي من عاد أو من العماليق ، ومن أن له اخوة من أمه ، هم : جرهم والمعتمر والمثلث وعاصم ومنيع والقطامي وعامي وحير وغيرهم^٢ .

وقد حكم (يعرب) على رأي بعض أهل الأخبار مدة تساوي المدة التي حكم فيها أبوه ، أي مئتي سنة^٣ . وإذا كانت هذه المدة هسي مدة حكمه ، فلا بد أن تكون أيام حياته أطول من أيام حكمه . فعمره اذن عمر لا بد أن يحسده عليه كل أحياء هذا القرن ومن سيأتي بعدهم من الناس .

ولم ينسب أهل الأخبار والنسب الى يعرب ولداً كثيراً . فقد نسب بعضهم اليه يشجب ، قالوا وبه كان يكنى ، وشجبان ، وبه سميت (شجبان) باليمن ، وهي أعلا رَمَع^٤ .

ويلاحظ أن بين (يشجب) و (شجبان) تقارباً كبيراً ، ولعل أحد الاسمين خلق الاسم الثاني . وجعل بعضهم ليعرب من الولد : يشجب ، وحيدان ، وحيادة^٥ ، وجنادة ، ووائل^٦ ، وكعباً^٦ .

ولم يرد اسم (يعرب) في الشعر الجاهلي . وإنما ورد اسمه في شعر ينسب الى (حسان بن ثابت)^٧ ، وفي شعر ينسب الى (مضاض بن عمرو الجرهمي) ، وهو من جرهم ، قيل : إنه قاله لما أخرجتهم الأزدي من مكة^٨ . والشعران من النوع المصنوع المحمول على حسان وعلى (مضاض) الذي لا أدري أكان يتكلم

١ صبح الأعشى (١٩/٥) ، ابن خلدون (٤٧/٢) ، القاموس (١٠٣/١)

٢ الأخبار الطوال (ص ١١) .

٣ المحبر (ص ٣٦٥)

٤ الاكلیل (١٢٤/١) .

٥ الاكلیل (١٢٥/١) .

٦ الاكلیل (١٣٢/١) .

٧ تعلمتم من منطق الشيخ يعرب

الاكلیل (١١٦/١) .

٨ الاكلیل (١١٧/١) .

بهذا اللسان العربي الذي نزل به القرآن ، أم بلسان أهل اليمن الذي يختلف عن هذا اللسان .

ولا نعرف لـ (يعرب) اسماً في التوراة ، لا في أبناء يقطان ولا في غير أبنائه . إنما نعرف أن في التوراة اسم ملك سمته (يرب Jareb) يظن بعض علماء العهد القديم أنه اسم ملك عربي كان يحكم مقاطعة عربية ، ومن الجائز في نظرهم أن يكون قد حكم (يثرب) ، أو مكاناً آخر في جزيرة العرب^١ . ولا يستبعد أن يكون أهل الأخبار قد سمعوا باسمه من يهود (يثرب) ، فصيّروه (يعرب بن قحطان) .

ويقصد الأخباريون بجرهم جرهماً الثانية، التي جاءت بعد هلاك جرهم الأولى . وقد أقامت بمكة ، وكان منها أرباب البيت^٢ . ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يتصورون أن قبيلة جرهم كانت ترعى البيت الحرام^٣ . وقد ذكر الأخباريون أن إسماعيل نشأ بينها وتزوج منها ، وأن أباه إبراهيم بعد أن قام ببناء الكعبة ورفع قواعدها ، ترك ابنه بينهم ، فصارت له صلة بهم^٤ . ثم تغلبت على جرهم خزاعة ، فانتزعت منهم السدانة ، واحتفظت بها إلى أن انتقلت إلى قريش .

وكان سبب تغلب خزاعة على جرهم وخروجها من مكة أن جرهماً بغت على (قطوراء) وتنافست معها ، وكان (قطوراء) أبناء عم لجرهم، وكانوا يقيمون أسفل مكة بأجياد، وجرهم في أعلاها بـ (قُعيّعمان) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً،

١ Hastings, P., 427, Enc. Biblica., P., 331, KAT, 2, 414, 439, 3 ed. P. 150.

٢ « جرهم » كقنفذ : حي من اليمن ، وهو ابن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح ، نزلوا مكة ، وتزوج فيهم إسماعيل عليه السلام ، وهم اصهاره ثم الحلول وإبادهم الله تعالى . . « ، تاج العروس (٢٢٧/٨) ، « جرهم : حي من العرب من ولد جرهم بن قحطان بن هود « شمس العلوم (١ ق ٢ ص ٣٢٢) ، Enc., Vol., I, P., 1066.

٣ في بيت ينسب لزهير بن أبي سلمى :
فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال ، بنوه ، من قريش وجرهم
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : صنعة الامام أبي العباس احمد بن يحيى ثعلب ،
مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٤ م (ص ١٤) .
٤ ابن خلدون (٣٩٠/٢) ، اللسان (٣٩٤/١٤) .

وقتل (السמידع) صاحب (قطوراء) ، وتصلح الطرفان ، واستقر الأمر لجُرْهم . ثم إن جرهماً بغت بمكة، وظلمت من دخلها من غير أهلها ، وأكلت مال الكعبة الذي يهدى لها . فلما رأت (بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة) و (غبشان) من خزاعة ذلك ، أجمعوا على حربها وإخراجها من مكة، فاقْتتلوا، فغلبتهم (بنو بكر) و (غبشان) فنفوهم من مكة^١ .

وذكر النسابون أن (قطوراء) (قطورا) كانوا أبناء عم جرهم ، وكانوا ظعنًا من اليمن، فأقبلوا سيارة، وعلى جرهم مُضاض بن عمرو ، وعلى (قطوراء) السמידع ، فاستقروا بمكة^٢ . وعاشوا مع جرهم والعدنانيين أبناء اسماعيل بمكة بعد هجرتهم هذه من اليمن ، ولم يتعمق النسابون في البحث عن أصل قبيلة (قطوراء) .

وقد نص (الطبري) ، على أن اسم جرهم هو (هذرم) ، ونص على أن والده هو (عابر بن سبأ بن يقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام ابن نوح)^٣. وهو نسب أخذ من التوراة إلا أن من أخذه ونقل الطبري روايته منه لم يروه صافياً تقياً ، بل غير فيه وبدّل ، جهلاً أو لسبب آخر . فإن (هذرم) هو (هذورام) (Hadoram) في التوراة ، وهو الابن الخامس من أبناء (يقطان) أي قحطان^٤ . وبذلك تكون (جرهم) من القبائل القحطانية بحسب رواية التوراة .

ولم يختلف ذكر جرهم حتى في صدر الإسلام ، فكان القاص (عبيد بن شربة الجرهمي) ينسب إلى جرهم ، ويظهر من شعر (حسان بن ثابت) أن

١ ابن هشام (١٢٣/١) فما بعدها) ، وجعل ابن اسحاق « قطوراء » اخا لجرهم ، تاج العروس (٢٢٧/٨) .

٢ ابن هشام (١٢٣/١) ، « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، « قال ابن اسحاق : وكان اخوه قطوراء ، اول من تكلم بالعربية عند تبليل الالسنه » تاج العروس (٢٢٧/٨) .

٣ الطبري (٢٠٧/١) ، « دار المعارف » .

٤ التكوين : الاصحاح العاشر ، الاية ٢٧ ، واخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الاية ٢١ ، قاموس الكتاب المقدس ، (٤٥٠/٢) ، Hastings, P., 324 .

بقية منها بقيت باقية^١ ، وظلت جماعة منها تعيش على ساحل البحر الأحمر المقابل لمكة الى أواخر القرن الثاني للهجرة^٢ . ومن بقايا جرهم ، (العبيديون) في اليمن ، على زعم بعض الأخباريين^٣ . هذا ، وما ذكره (الطبري) من وجود علاقة بين (جرهم) و (لحيان) يستند الى حقيقة^٤ .

وقد ذكر (بلينيوس) اسم شعب دعاه : (Charmaei) ، وذكره (أسطيفان البيزنطي) كذلك ، ويرى (فورستر) انه (جرهم)^٥ . ويشك بعض الباحثين في صحة هذا الرأي ، وذلك لأن الشعب المذكور كان يعيش على مقربة من المعينيين ، أي في أرض بعيدة عن مكة . ويدل ذكر (بلينيوس) و (أسطيفان البيزنطي) لهم ، على أنهم كانوا من الشعوب العربية المعروفة في حوالي الميلاد وبعده ، ولهذا ورد ذكره عند هذين الكتّابين^٦ .

وقد ذكر (الهمداني) ان موضعاً كان بمكة يقال له : (دوحة الزيتون) ، كان مقبرة من مقابر جرهم ، وان نفراً دخلوا المقابر ، فوجدوا أشياء ثمينة من مصوغات وكتابات^٧ .

والى يعرب ينسب أهل الأخبار نشوء العربية ، فيزعمون انه كان أول من أعرب في لسانه ، ولهذا قيل لسانه (العربية)^٨ . وهذه رواية قحطانية تعارض الروايات العدنانية بالطبع ، ويظهر من بعض روايات أهل الأخبار ان (يعرب) هو الذي جاء بولده الى اليمن ، فأسكنهم بها ، الا انها لم تذكر الموطن الذي

١ فلو سئلت عنه معد بأسرها وقحطان او باقي بقية جرهما ديوان حسان بن ثابت ، رواية ابي سعيد الحسن بن عبد الله بن المزيان السيرافي « طبعة سلسلة جب » ، بعناية « هرشفلد » ، ليدن ١٩١٠ م ، (ص ٤٤) .

Enc., Vol., I, P., 1066.

Enc., Vol., I, P., 1066.

٣ الهمداني : صفة (ص ١٨٨)

٤ الطبري (٧٤٩/١) « طبعة أوربة » ، Enc., Vol., I, P., 1066.

٥ Forster, Vol., I, P., 123.

٦ Enc., Vol., I, 1066.

٧ الاكليل (١٦١/٨) فما بعدها ، « طبعة نبيه » ، (١٨٣) فما بعدها « طبعة الكرمل » .

٨ مروج (٢٧٧/١) .

جاء منه^١ . وتذكر هذه الروايات ان ولده كانوا أول من جيًا بتحية الملك ، فقالوا له : (أبيت اللعن) و (أنعم صباحاً)^٢ ، وهي تحايا ينسبها بقية الأخباريين الى غيره من الملوك المتأخرين . وسأحدث عنها فيما بعد .

وانتقل الملك - على رأي الأخباريين - من يعرب الى ابنه يشجب ، ويقال له (يمن) ، ومن ولده عبد شمس ، ويقال له عامر ويلقب بـ (سبأ) على زعم بعض الأخباريين . زعموا انه هو الذي بنى قصر سبأ ومدينة (مأرب) ، وانه فتح مصر وبنى بها مدينة عين شمس ، وانه أول من سنّ السبئيّ ، ولذلك عرف بـ (سبأ) ، وغير ذلك مما يقصده علينا أهل الأخبار^٣ .

ويلاحظ ان النسابين قد بخلوا على (يشجب) كثيراً ، فلم يهبوا له أولاداً كثيرين ، وكل ما أعطوه هو : (سبأ الأكبر) ، واسمه كما رأينا (عبد شمس) ، وأعطاه بعضهم بالاضافة اليه : (جرهيم بن يشجب) ، و (شجبان بن يشجب) ، فأولد (شجبان) صيفياً ، وأولد صيفي مالكا ، وأولد مالك الحارث ، وقد ملك^٤ .

ويذكر (الممداني) نقلاً عن بعض الرواة ان لقب (سبأ) ، هو (الأعقف) ، قال : « وكان أول من استعمل لتدمير الحكم في ملكه ، وأول من نصب ولي العهد في حياته .. وأول من سبى السبي ممن ختر به وحاربه وناصبه » . وروى في ذلك شعراً نسبته الى (علقمة بن ذي جعدن)^٥ .

وذكر (حمزة الأصفهاني) نقلاً عن (عيسى بن داب) ان ملك (عبد شمس) ، أي (سبأ) ، كان في زمن (كيقباد) ، فسار (سبأ) في مدن اليمن ومخابثها ، وكانت اذ ذاك في بقايا عاد ، فلم يدع بأرض اليمن أحداً منهم الا سباه واستعبده فسمي (سبأ) ، ووطد بذلك حكم القحطانيين في اليمن^٦ .

١ « صار يعرب بن قحطان الى ارض اليمن في ولده فاستوطنها ، وهو اول من نطق بالعربية » ، حمزة (ص ٨١) .

٢ حمزة (ص ٨١) ، الاكليل (١١٦/١) وما بعدها .

٣ ابن خلدون (٤٧/٢) ، التيجان (ص ٤٩) ، المحبر (ص ٣٦٤) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) ، حمزة (ص ٨١) .

Enc., Vol., 4, P., 1160, Wuestenfeld, Register, S., 388.

٤ الاكليل (١٢٥/١) وما بعدها .

٥ الاكليل (١٢٥/١) .

٦ حمزة (ص ٨٢) .

وقد عثر العلماء على نصٍّ وسموه بـ (Rep. Epigr. 4304) ، هذا نصه :
 (عبد شمس ، سبأ بن يشجب ، يعرب بن قحطان) . وهو نص أشك في صحته ، وأرى أنه وضع بعد الجاهلية بزمان ، قد يكون غير بعيد . صنعه بعض من تعلم حروف المسند ، أو ممن يتقنون صناعة تزييف العاديات اليبانية ، لأن أسلوب المسند معروف ، ولا نجد في نصوصه نصاً واحداً دون على هذا النسق في تدوين النسب . ثم إن هذا النسب هو نسب متأخر وضع على أثر احتدام النزاع بين القحطانيين والعدنانيين في العصر الأموي كما سنرى فيما بعد . والظاهر أن ناقش النص ، وهو من اليمن ، أراد إثبات ورود هذا النسب عند السبئيين واقناع الناس بأنه كان معروفاً فدوّنهُ ، على كل حال إن في استطاعة الباحثين تقدير زمن تدوين هذا النص ، ودراسة طبيعة اللوح الذي دوّن عليه بالطرق الفنية ، وعندئذ يمكن إثبات صحة تلك الكتابة أو عدم صحتها بطريقة علمية لا تقبل جدلاً .

وجعل (المسعودي) لسبأ عشرة أولاد ، تشاءم منهم أربعة ، وتيامن منهم ستة . فالذين تشاءموا : لحم وجُذام وعاملة وغسان ، والذين تيامنوا حمير والأزد ومذحج وكنانة والأشعريون وأنمار الذين هم بجيلة وخشعم^١ . وذلك على رواية من جعل أنماراً من سبأ ، وجعلهم في كتابه (التنبيه والأشراف) : حمير وكهلان وعمرو والأشعر وأنمار وعاملة ومُر^٢ . وجاء في كتاب (شمس العلوم) : (سئل النبي عن سبأ ، فقال : رجل من العرب أولد عشرة : تيامن منهم ستة : حمير وهمدان وكندة ومذحج والأشاعر وأنمار ، وتشاءم منهم أربعة : جُذام ولحم وعاملة والأزد^٣) .

وأما (الهمداني) ، فأولد لسبأ العرنجج ، وهو حمير ، وكهلان ، وأضاف إليهما استناداً إلى رواية (ابن الكلبي) : نصرأ ، وأفلح ، وزيدان ، وعبدالله ، ونعمان ، والمود ، وهوذة أو أهود ، ويشجب ، ودرهما ، وشداد ، وربيعة^٤ . وأضاف إلى هؤلاء استناداً إلى رواية أخرى : أبا ملك عميكرب بن سبأ ، وأهون

١ مروج (٢٧٨/١) .

٢ التنبيه (ص ٤٦) ، الاشتقاق (ص ٢١٧) .

٣ شمس العلوم (١٠٤ ، ٢ ، ص ٣١٢) .

٤ الاكليل (١٢٦/١) وما بعدها .

ابن سبأ (الهون) ، وجعلهم : حميراً ، وكهلان ، وبشراً ، وريدان ، وعبدالله ، وأفلح ، والنعمان ، والمود ويشجب ، ورهماً ، وشداداً ، وربيعاً ، في مكان آخر^١ .
وبذكر المسعودي أن حمير هو الذي تولى الملك بعد أبيه : وكان كما يقول :
أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن ، ولذلك عرف بـ (المتوج) .
وحكم خمسين سنة^٢ . وقد عرف حمير بـ (العرنج) (العرنجج) . وذكر (ابن الكلبي) أنه كان يلبس حلاً حمراً ، وصرح بعض أهل الأخبار أنه كان هناك ثلاثة رجال عرفوا بـ (حمير) ، هم : الأكبر والأصغر ، والأدنى . فالأدنى هو حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن علي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة ، وهو حمير الأصغر بن سبأ الأصغر بن كعب بن سهل بن زيد بن عمرو ابن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حذار بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهيسع بن العرنجج ، وهو حمير الأكبر ابن سبأ الأكبر بن يشجب^٣ .

وأولاد حمير هم : مالك ، وعامر ، وعمرو ، وسعد ، ووائل في رواية .
والهميسع بن حمير ، ومالك بن حمير ، ولهيعة بن حمير ، ومرة بن حمير علي رواية (أبي نصر) في قول (الهمداني) ، والهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل ، ومشروح (مسروح) ، ومعديكرب ، وأوس ، ومرة على رواية أخرى ، وجعلهم بعض الرواة أكثر من ذلك عدداً^٤ . وقد ورد في الجزء الأول من الإكليل (عميكرب) في موضع (معديكرب) و (واسا) في موضع (أوس)^٥ .

١ الإكليل (١٣٣/١)

٢ مروج (٢٧٨/١) ، وجعل بعض النسابين لحمير تسعة اولاد ، هم : الهميسع ، ومالك ، وزيد ، وعريب ، ووائل ، ومشروح (مسروح) ومعديكرب ، وأوس ، ومرة ، وجعلهم بعض آخر أكثر عدداً ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٠٦) ابن خلدون (٢٤٢/٢) .

٣ تاج العروس (١٥٨/٣) ، « زرعة ، هو حمير الأصغر » ، الاشتقاق (ص ٢١٧ ، ٣٠٦) ، اللسان (١٤٧/٣) ، تاج العروس (٧٣/٢) .

٤ الإكليل (١٢٩/١) ، مروج (٢٧٨/١) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٤٠٦) ، ابن خلدون (٢٤٢/٢) .

٥ الإكليل (١٣٣)

وولد مالك بن حمير ، قضاة بن مالك بن حمير ، جد قبائل قضاة في زعم من يجعل قبائل قضاة من اليمن . أما نسابو العدنانيين ، فيدخلونها في عدنان ، ولا يوافقون على إلحاق نسبها باليمن ، ويرون ان ذلك وقع متأخراً لدوافع سياسية وعصبية . وجعل (الهمداني) لقضاة أولاداً هم : الحاف ، والحاذي ، ووديعة ، وعبادة^١ . أما صاحب (الاشتقاق) ، فقد اكتفى بذكر ولدين هما : الحاف والحاذي ، ثم قال : ومنها تفرعت قضاة^٢ .

وولد الحاف بن قضاة على رأي (الهمداني) هم : عمران بن الحاف ، وعمرو بن الحاف ، وأسلم بن الحاف ، وعُراييد بن الحاف ، وزيد بن الحاف ، وعبيد بن الحاف ، وعشم بن الحاف ، وسقام بن الحاف ، وليلى بنت الحاف ، وسلمان بن الحاف على ما ورد في سجل خولان^٣ .

فولد عمران بن الحاف ، حلوان بن عمران بن الحاف ، وتزيد بن عمران ابن الحاف ، وسليح بن عمران بن الحاف^٤ . فولد حلوان بن عمران تغلب الغلباء، وربان وهو علاف^٥ . وقد عدهم (ابن حبيب) من (قبائل الحُمسِي من العرب)^٦ . وقد جعل بعض النسابين (سليحاً) ابناً لعمر بن الحاف ابن قضاة^٧ . وذكر بعضهم ان اسم سليح هو (عمرو) . ونسبوا الى حلوان أبناء آخرين ، هم : مزاح ، وعابد ، وعائد ، وتزيد . وقد دخل بعض هذه القبائل في قبائل أخرى ، فدخلت (عابد) و (عائد) في غسان ، ودخلت تزيد في تنوخ .

وولد تغلب وبرة ، فولد وبرة كلباً والنمر والأسد والدبب والثعلب والفهد والضبع والدب والسيد والسرطان والبرك وتغلب والحشد وعيساً وضنسة . فولد الأسد بن وبرة تيم الله فهماً^٨ وقهماً^٩ في همدان ، وهو تنوخ ، وقد دخل في

١ الاكلیل (١٦٦/١ ، ١٨٠) .

٢ الاشتقاق (ص ١٣٣) .

٣ الاكلیل (١٨٠/١ وما بعدها) .

٤ الاكلیل (١٨١/١ وما بعدها) .

٥ الاكلیل (١٨٠/١) .

٦ المحبر (١٧٦) .

٧ المحبر (ص ٢٥٠) .

٨ بالفاء

٩ بالقاف .

تنوخ المتخين ، وهم : جرم ، ونهد ، والأزد ، وإياد ، وشيع الله بن أسد.
فأولد شيع الله جسراً ، فولد الجسر القسين بن جسر . وولد تغلب بن وبرة
عامراً ، وهو طابحة ، وولد النمر بن وبرة التيم وخشينا وفتية بن النمرا .

وولد (ربان) جرماً ، وعوقاً ، وأولد أسلم بن الحاف سوداً وحوتكة
أبي أسلم . فولد سود ليثاً ، فولد ليث زيداً ، فولد زيد نهداً ، وسعداً وجهينة .
فولد سعد — ويعرف بسعد هذيم — عذرة والحارث وصعباً ومعاوية ووائلنا بطون
كلها . وولد عمرو بن الحاف^٢ بهراء وبلياً وحيدان وخولان ولوذة . وخولان
تقول : لوذ. فأولد لوذ (هوذة) . وولد حيدان بن عمرو ، مهرة ، ومجيداً ،
وتزيد الذين تنسب إليهم (الثياب التزيدية)^٣ .

وأولد مهرة بن حيدان : اضطمرى بن مهرة ، فولد اضطمرى ثلاثة نفر :
الأمري ، ويقال آمري ، ونادغم ، والدين ، فولد الأمري : القمر ، والقرا ،
والمصلا ، والمسكا . ومن قبائل القمر : بنو ريام ، وبلدهم قرية يقال لها رضاع
على ساحل بحر عُمان . ولهم جبل حصين بناحية عمان يتمتعون فيه يعرف بجبل
بني ريام ، وبنو خنزريت ، وبنو تبرح . ومن قبائل الديلم حسريت ، فأولد
حسريت : الشوجم ، ويحجن ، وأولد يحجن : كرشان ، والنعين ، فمن النعين
بنو تبلة بن شاسة^٤ .

ويختلف ما في (سجل خولان وحجر بصعدة) عن نسب مهرة بعض الاختلاف
في رواية (أبي راشد) المتقدمة التي ذكرها الهمداني . ففي السجل المذكور :
أولد مهرة : الأمري ، والدين ، ونادغم ويبدع بطن . فولد الأمري : اضطمرى
ومهرى . فولد اضطمرى : القمر ، وبرح . فولد ببرح : القرا ، وبني رثام .
وولد مهرى : المذاذ والمسكا ، والمصلا . فولد المصلا ، المزافر . وولد الدين :
الوجد ، والغيث ، فمن الغيث : بنو باغت ، وبنو داهر . وولد نادغم : العيد

١ الاكليل (١٨٢/١) وما بعدها .

٢ في الاكليل (١٨٨/١) ، « وولد عمر بن الحاف بهرا » ، والصحيح « عمرو »
والخطأ ، هو خطأ مطبعي ، أردت التنبيه عليه لاصلاحه .

٣ الثياب التزيدية ، هي التي بها خطوط حمر ، الاكليل (١٨٩/١) . « التزيديات »
« برود بني تزيد » ، معاهد التنصيص (ص ٨٥ ، ٢٥٧) ، الاكليل (١٨٩/١) وما
بعدها ، شمس العلوم (١٠٠ ، ١٠١ ، ص ١٩٦)

٤ الاكليل (١٩٢/١) وما بعدها .

وحسريت ، والعقار . فولد حسريت : الشوجم ، ويحّن ، فولد يحّن : الثعين ،
والثغراء ، والكشران . وقال بعض الحضارمة : من نادغم : بنو حديد ،
وبنو بنخ^١ .

وأولد مجيد بن عمرو بن حيدان بن عمرو ويحّنا ، وحيا ، وحبيباً، وعندلاً^٢
ووداعة ، والأقارع^٣ .

فأولد خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاة سبعة نفر : حيّ بن خولان
وهو الأكبر من ولده ، وسعد بن خولان ، وهو الذي ملك بصرواح ، ورشوان
ابن خولان ، وهانيء بن خولان ، ورازح بن خولان ، والأزمع بن خولان ،
وصُحار بن خولان^٤ . ويضيف بعض النسابة اليهم أولاداً آخرين ، وجعلهم
بعضهم ثلاثة عشر ابناً^٥ .

وأولد حيّ بن خولان : عدي بن حيّ ، وزيد بن حيّ ، وشعب بن حيّ ،
ومرثد بن حيّ ، وغنم بن حيّ ، والمقدام بن حيّ ، ونوف بن حيّ^٦ . وتجد
بعض الاختلاف في هذه الأسماء ، بحسب اختلاف روايات النسابة^٧ .
ومن ولد حيّ بن خولان (جيهم) ، وهو الذي قال فيه امرؤ القيس :

فن يأمن الأيام من بعد جيهم فعلن به كما فعلن بحزفرا

وقد زعم أهل الأخبار أن (جيهم) المذكور كان ملكاً من ملوك حمير^٨ .
وأولد سعد بن خولان : ربيعة بن سعد ، وسعد بن سعد ، وعمرو بن سعد^٩ .
فأولد ربيعة : حجر بن ربيعة ، وسعد بن ربيعة ، وكامل بن ربيعة ، وفروذ
ابن ربيعة ، ويغنم بن ربيعة ، ورشوان الأصغر بن ربيعة ، وداهكة بن ربيعة
في بعض الروايات^{١٠} .

-
- ١ الاكليل (١٩٣/١) وما بعدها .
 - ٢ الاكليل (١٩٨/١) .
 - ٣ الاكليل (٢٠١/١) وما بعدها ، (٣٤٨) .
 - ٤ الاكليل (٢٠٣/١) .
 - ٥ الاكليل (٢٠٥/١) وما بعدها .
 - ٦ الاكليل (٣٤٨/١) .
 - ٧ شمس العلوم (ح ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٨) .
 - ٨ الاكليل (٢١٧/١) ، (٣٤٨) .
 - ٩ الاكليل (٢١٨/١) .

وأولد سعد بن سعد بن خولان : الحارث بن سعد ، وحرب بن سعد ، وغالب بن سعد ، وسهمك بن سعد ، وقثم بن سعد^١ . وأولد غالب بن سعد ابن سعد بن خولان : يعلى بن غالب ، فأولد يعلى بن غالب : جبراً ، ومعيشاً ، وشبلاً^٢ ، ثلاثة أبطن^٣ .

وولد هانيء بن خولان : هلالاً^٤ ، وعلياً . فولد هلال شرحبيل وجابرأ ، فولد شرحبيل هلالاً^٥ ، فولد هلال شرحبيل الأصغر ، وجابرأ . وأولد شرحبيل الأصغر (جماعة) ، وهي قبيلة عزيزة . وهم أهل بوصان من أرض خولان . وجعل بعض النسابين ولد هانيء خمسة نفر : هلالاً^٦ ، ويعلى ، وعلياً ، وسعداً ، وجامعاً^٧ .

وأولد بن خولان مرتدأ ، وعويضاً ، ورائماً ، ويعلى ، ويغماً ، وبزياً ، بطون كلها . وذكر بعضهم قائمة تختلف عن هذه في أسماء هؤلاء الأولاد^٨ . وأولد رشوان بن خولان : لاحقاً ، ومخلفاً ، وخليفة ، وسعداً ، ومنبرأ ، وحرباً ، وخولياً . وهناك رواية أخرى تختلف عن هذه في ذكر الأسماء^٩ . وولد الأزمع بن خولان ثابئاً ، والأجبول ، وأخيل ، ومخيلاً ، والأسوق ، والجعل ، ومرآن^{١٠} . وجعل بعض الأخباريين عدة ولده عشرة ، هم : مرآن ، والكرب ، والأسوق ، وحفنى ، وعبد الله ، ويعلى ، وثابت ، وعمرو ، وعمر ، والناسك^{١١} .

وأولد صحرار بن خولان ستة نفر : عامراً ، وبشرأ ، وطارقاً ، وعلقمة ، وشبلاً ، وحاذراً . وكل هذه بطون كبار^{١٢} .

هذا واننا لنجد اختلافاً بين النسابين في تثبيت هذه الأنساب ، مما يدل على ان أهل النسب مع دعواهم بحفظ النسب ووجود مشجرات للأنساب عندهم ،

١ الافليل (٢٩٨/١) .

٢ الاكليل (٣١٤/١) .

٣ الاكليل (٣٢١/١) وما بعدها ، ٣٤٨ .

٤ الاكليل (٣٢٣/١) وما بعدها ، ٣٤٨ .

٥ الاكليل (٣٢٤/١ ، ٣٤٨) .

٦ الاكليل (١ / ٣٢٥) .

٧ الاكليل (١ / ٣٤٨) .

٨ الاكليل (١ / ٣٢٦) .

كانوا يختلفون فيما بينهم في النسب ، حتى اننا نستطيع أن نقول ان سجل خولان وحير الذي بصعدة ، لم يكن يتفق مع الروايات الأخرى الواردة في النسب ، ويتجلى ذلك في الروايات المتناقضة التي نراها في الإكليل وفي غيره من كتب الأنساب ، ويظهر ان نسابي أهل اليمن، كانوا يعتمدون على علمائهم في النسب، وعلى ما كان مدوناً عندهم منه ، ولهذا تجددهم يختلفون في كثير من أنساب أهل اليمن عن النسابين الشماليين الساكنين في العراق أو في بلاد الشام .

وجعل (الهمداني) ولد (مالك بن حير) على هذا النحو: (زيد بن مالك)، و (زهران بن مالك) ، وهم حيّ عظيم ، ولهم كانت اليمامة ، و (هوازن الأولى بن مالك) و (الغمر بن مالك) و (الأخطور بن مالك) ، وقيل (هزان الأولى بن مالك) . وقد ولد زيد بن مالك (مرة بن زيد) ، فولد مرة بن زيد عمرو بن مرة ، فولد عمرو بن مرة مالك بن عمرو ، فولد مالك بن عمرو قضاة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حير^١ .

وولد عامر بن حير دهمان ، وولد دهمان (يحبص) كلها ، وولد سعد ابن حير السلف وأسلم ، وولد عمرو بن حير الحارث ، وولد (الحارث) (آل ذي رعين)^٢ .

ويذكر ابن (قتيبة) ان الذي حكم بعد (حير) هو أخوه (كهلان) ، وكان ملكه ثلاثمائة سنة ، أي أنه أضعاف أضعاف مدة حكم أخيه حير . وإذا كانت هذه هي مدة حكمه ، فلا بد أن يكون عمره يوم مات أكثر من ذلك بالطبع^٣ . وقد ولد (كهلان) زيدا ، وولد (زيد) مالكا ، وأددا ، فولد أدد طيثا وهو جلهمة ، و (الأشعر) وهو (نبت) ، و (مالكا) وهو (مذجع) ، و (مرة)^٤ .

ومن طيء (بنو فطرة) ، و (الغوث) ، و (الحارث) . ومن (فطرة) : (سعد) ، ومنهم : (الأسعد) ، و (نخارجة) ، و (تيم الله) . ومن

١ الإكليل (١٣٦/١) .

٢ المعارف (ص ٤٧) .

٣ المعارف (ص ٤٧) .

٤ المبرد ، نسب عدنان (ص ١٨) ، وفي المعارف : « طيء بن أد ومالك بن زيد » (٣٥) ، وفي الاشتقاق : هما ابنا « زيد بن كهلان » ، (٢٢٨) .

(خارجة) ، (جديلة) ، ومن (جديلة) : (بنو رومان) ، ومنهم (ذهل) ،
و (ثعلبة) ومن (ذُهل) : ثعلبة ، و (جدعاء) ، ومن (جدعاء) : ثعلبة ،
ومن ثعلبة : تيم^١ .

ومن الغوث بن طيء : عمرو ، ومن عمرو : أشنع ، وثعل ، وبولان ،
وهنيء ، ونهبان ، وجرم^٢ . ومن (ثعل) : معاوية ، وسلامان ، وجرول .
ومن معاوية : سنيس . ومن سلامان : بختر ، ومعن . ومن جرول : ربيعة ،
ولوذان . ومن ربيعة : أنزم^٣ .

ومن ولد (مالك بن أدد) المعروف بمذحج : سعد العشيرة ، وعنس ،
وجلد ، ومراد ، وهو يحابر^٤ . ومن سعد العشيرة : جزء ، وزيد الله ، والحكم ،
وأوس الله ، وصعب ، وجعفي . ومن جزء : الحمد والعدل . ومن الحكم :
جشم ، وسلمهم . ومن صعب : زبيد ، وأود . ومن جعفي : مرآن وحريم^٥ .
ومن جلد : علة . ومن علة : حرب ، وعمرو ، . ومن حرب : يزيد
ابن حرب ، ومنبه بن حرب . ومن منبه : رهاء ، ومن يزيد المعروف بصداء :
الحارث ، والغلي ، وسيحان ، وشمران ، وهفآن ، ومنبه ، هؤلاء الستة يقال
لهم : جَنَّب^٦ .

ومن (عمرو بن علة) : عامر ، وكعب ، والنخع ، وهو جسر^٧ .
ومن عامر : مُسَلِيَة . ومن كعب : الحارث . ومن الحارث : معقل ، والحماس ،

١ نسب عدنان (ص ١٩) ، الاشتقاق (٢٣٣) ، الاغاني (١٦/٩٣) ، سبائك
الذهب (٥٦) .

٢ نسب عدنان (١٩)

٣ نسب عدنان (١٩) ، سبائك الذهب (٥٦) ، الاغاني (١٦/٩٣) ، الاشتقاق
(٢٢٣) ، شمس العلوم (١٠١ ق ١ ، ص ٢٥٠)

٤ نسب عدنان (١٩) .

٥ نسب عدنان (١٩) .

٦ وفيها يقول لبيد :

ولقد بليت يوم النخيل وقبله
مران من ايامنا وحريم

نسب عدنان (١٩) .

٧ ويختلف النسابون في هذه الانساب ، نسب عدنان (٢٠) .

٨ نسب عدنان (١٩) ، « فمن بنى علة : النخع ، قبيلة ، واخوه جسر » ،
الاشتقاق (٢٣٧/٢) .

وعبد المدان . ومن النخع : عوف ، ومالك^١ . ومن النخع : صلاة ، ورزام .
ومنهم الحماس ، والحارث ، وكعب ، وهو الأرت^٢ :

ومن مراد وهو يحابر : زاهر ، وناجية . ومن ناجية : غطيف ، وقرن ،
وبنور دمان . ومنهم من جعل قرناً ابناً لردمان . ومن زاهر : الربض ، وبنو
زوف ، والصنابح^٣ .

ومن الأشعر : الجاهر، والأثغم ، والأدغم ، والأرغم، وجدة ، وعبد شمس،
وعبد الثرياء^٤ .

ومن ولد (أدد) : (مرة) . وولد (مرة) : (الحارث) . وولد
(الحارث) : (عدياً) ، و (مالكاً) . وولد (عدي) : (جذاماً) ، واسمه
عمرو ، ومنهم بنو حرام ، وبنو حشم^٥ ، و (لحماً) ، وهو (لحم بن عدي) .
ومنهم : (بنو جزيلة) ، و (بنو نمارة)^٦ ، و (عفيراً) . ومنهم (ثور
ابن عفير بن عدي) ، وهو (كندة) . و (الحارث) ، وهو (الحارث بن
عدي) . وهو (عاملة)^٧ .

وقد هجا (الكميث) جذاماً لأنها تحولت الى اليمن ، وهي معروفة بأنها من
(بني أسد بن خزيمه)^٨ . وهذا مما يدل على ان جذاماً كانت قد اختلطت نسبها
بسبب اختلاطها بالقبائل المتجمعة، وان نسبها اختلط لذلك بالقحطانيين وبالعدنانيين .
ومن كندة : (بنو معاوية) و (أشرس) . ومن (بني معاوية) :
(الحارث)^٩ ، ومنهم (الرائش)^{١٠} . ومن (أشرس) : (السكون)^{١١} ،

-
- ١ الاشتقاق (٢٣٧/٢) .
 - ٢ الاشتقاق (٢٣٧/٢) .
 - ٣ الاشتقاق (٢٤٧/٢) وما بعدها .
 - ٤ الاشتقاق (٢٤٨/٢) .
 - ٥ الاشتقاق (٢٢٥/٢) .
 - ٦ الاشتقاق (٢٢٥/٢) وما بعدها .
 - ٧ نسب عدنان (ص ٢٠) .
 - ٨ المعاني الكبير (٥٢٤/١) وما بعدها .
 - ٩ نسب عدنان (ص ٢٠) ، نهاية الارب (٣٤١/١٣) ، وفيهم يقول الاعشى :
وان معاويه الاكرمين
نسب عدنان (ص ٢١) .
 - ١٠ نسب عدنان (٢١) ، المعارف (١٥٠) ، الاشتقاق (٢١٨)
 - ١١ نسب عدنان (٢١) ، الاشتقاق (٢٢١) .

و (السكاسك) ، و (بنو حجر)^١ ، و (بنو الجون) ، و (بنو الحارث) ، وأولاده ، وقبائل أخرى^٢ .

ومن (بني حرام) : (غطفان) ، و (أنصى) . ومن (جزيلة) : راشدة ، وحُدس ، ومن نمارة : الدار ، وبنو نصر .

أما (مالك بن الحارث بن مرة بن أدد) ، فولد : (عمراً) ، و (يعفر) : ومن (عمرو) خولان وهو فكل^٣ ، ومن يعفر ولده : المعافر^٤ .

وولد (خيار بن مالك) ربيعة ، وولد (ربيعة) أوسلة ، وهو : همدان^٥ ، وألهان . وولد همدان نوفاً وخيران ، فمنهم بنو حاشد وبنو بكيل . منهم تفرقت همدان ، وعريب^٦ . ومن بطون همدان : السبيع ، ووادة^٧ .

وأما (خارجة) فمنهم جديلة ، وهي من طيء^٨ . وأما عمرو بن سعد ، فهو أبو خولان بن عمرو^٩ . وولد (مراد بن مذحج) : أنعم بن مراد ، ويحابر ، وكان لهم يغوث بجرش . وولد خالد بن مذحج : علة بن خالد . فولد علة عمراً . فولد عمرو : جسراً وكعباً . ومن كعب (بنو النصار) ، و (بنو الحماص) ، و (بنو قنان)^{١٠} .

وأما (سيدعان) ، فمنهم سلامان^{١١} . وأما (زهران) ، فمنهم (دوس ابن عدنان) ، ومنهم جديلة بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس ، وجهضم ابن مالك رهط الجهاضم^{١٢} . وسليمة بن مالك ، وبنو هناة ، ومعن بن مالك .

-
- ١ نسب عدنان (٢١) .
 - ٢ نسب عدنان (٢١) .
 - ٣ الاشتقاق (٢٢٧/٢) .
 - ٤ الاشتقاق (٢٢٧/٢) .
 - ٥ المعارف (٤٨) ، نسب عدنان (٢٠) ، « ولد مالك بن زيد بن كهلان : الخيار ، فولد الخيار أوسلة ، وهو همدان ، وألهان » ، الاشتقاق (٢٥٠/٢)
 - ٦ الاشتقاق (٢٥٠/٢)
 - ٧ الاشتقاق (٢٥٣/٢) ، العقد الفريد (٢٤٦/٢) ، نسب عدنان (٢١) .
 - ٨ طيء بن أدد ، واسمه جلهمه ، الاشتقاق (٢٢٨) .
 - ٩ خولان واسمه فكل بن عمرو . . . ولد يعفر المعافر باليمن ، تنسب إليهم الثياب المعافرية ، الاشتقاق (٢٢٧ وما بعدها) .
 - ١٠ المعارف (٤٨) .
 - ١١ المعارف (٤٩) ، الاشتقاق (٢٨٧) .
 - ١٢ بنو جهضم بن جديلة الأبرش بن مالك ، الاشتقاق (٢٩٢)

ومنهم بطن يقال له محمد ، والقراheid . ومن زهران بنو يشكر والجدرة^١ .
وأما نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ، فقد أولد (الغوٲ) . ومن (الغوٲ)
عمرو والأزد . ومن (عمرو) : أراش ، ومن أراش : أنمار ، ومن أنمار :
خثعم ، وبجيلة ، وعبقر^٢ . ومن بجيلة : بنو قسر . ومن بطونهم : بنو نذير ،
وبنو أفرك ، وعرينة^٣ . ومن (خثعم) : شهران ناهس ، وشهران ، ويقال
لهما بنو عفرس^٤ .

وأما الأزد ، فن ولده : مازن ، وعمرو ، ودوس ، ونصر ، ومالك ،
وقدار ، والهنو ، وميدعان ، وزهران ، وعامر ، وعبدالله ، وغيرهم . وأما
مازن فمنهم : ثعلبة، ومنهم عامر ، وامرؤ القيس، وكُرز . ومن امرئ القيس :
حارثة الغطريف . ومنهم عديّ ، وعامر ماء السماء ، والتوأم ، ومن عامر ماء
السماء ثعلبة العنقاء ، ومالك ، والحارث ، وجفنة ، وكعب ، وهسم غسان .
نزلوا على ماء يسمى غسان فنسبوا إليه . ومن ثعلبة العنقاء حارثة ، ومنهم الأوس
والخزرج^٥ .

وقد عرف (الأوس) و (الخزرج) بابني قَيْلَة^٦ ، وذكر أنهم لم يؤدوا
إثابة قط في الجاهلية الى أحد من الملوك ، وكتب اليهم تبع يدعوهم الى طاعته .
فغزاهم ، (تبع أبو كرب) ؛ فكانوا يقاتلونه نهاراً ، ويخرجون اليه العشاء
ليلاً ، فلما طال مكوثه ، ورأى كرمهم ، رحل عنهم^٧ .

ومن (نصر بن الأزد) : (حمار بن نصر بن الأزد) . قالوا : وكان
له بنون فأتوا ، فحلف لأميّتين من أحياء من أهل الجوف ، فقتل ثمود ، فقبيل:
أخلى من جوف حمار^٨ .

-
- | | |
|---|--|
| ١ | المعارف (٤٩) |
| ٢ | الاشتقاق (٣٠٢/٢) |
| ٣ | الاشتقاق (٣٠٢/٢) |
| ٤ | الاشتقاق (٣٠٤/٢) |
| ٥ | شمس العلوم (ح ١ ، ق ٢ ، ص ٣٤٢) ، نسب عدنان (٢١) ، الاشتقاق
(٢٥٨ ، ٢٨٧) ، المعارف (٤٩) . |
| ٦ | العقد الفريد (١٩٢/١) وما بعدها . |
| ٧ | العقد الفريد (١٩٢/١) وما بعدها . |
| ٨ | شمس العلوم (ح ١ ، ق ١ ، ص ٢٦٢) وما بعدها . |

العرب المستعربة :

والطبقة الثالثة من طبقات العرب — على رأي أهل الأخبار — هم (العرب المستعربة) (المتعربة) ، ويقال لهم العدنانيون أو التزاريون أو المعديون . وهم من صلب (إسماعيل بن إبراهيم) وامراته (رعدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي)^١ . قيل لهم (العرب المستعربة) ، لأنهم انضموا الى العرب العاربة ، وأخذوا العربية منهم . ومنهم تعلم (إسماعيل) الجسد الأكبر للعرب المستعربة العربية ، فصار نسلهم من ثم من العرب واندجوا فيهم . وموطنهم الأول مكة على ما يستنبط من كلام الأخباريين ، فيها تعلم (إسماعيل) العربية ، وفيها ولد أولاده ، فهي إذن المهد الأول للإسماعيليين^٢ .

ويذكر أهل الأخبار أن (إسماعيل) ولد من زوجه (رعدة) ، اثني عشر رجلاً هم : (نابت) وكان أكبرهم ، و (قيذر) و (أذبل) ، و (ميسا ، وسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيا ، ويطور ، ونبش ، وقيسدا^٣ . وأكثر هذه الأسماء وروداً في الكتب العربية ، نابت ، وقيذر . وقد أخذ النسابة هذه الأسماء من التوراة ، فقد جاء فيها : (هذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم ، على حسب مواليدهم : نبايوت بكر إسماعيل ، وقيدار ، وأدبيل ، ومبسام ، ومشاع ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيا ، ويطور ، ونافيش ، وقدمه^٤) . ولم تذكر التوراة اسم المرأة التي تزوجها إسماعيل ، فأولدها هؤلاء الأولاد الذين انتشروا ، فسكنوا في منطقة تمتد من (حويلة) الى (شور)^٥ .

وعدنانيون في نظر العدنانيين هو جدّهم الأعلى، كما أن قحطان هو الجد الأعلى للقحطانيين^٦ . ولما كانت الطبقة الأولى من العرب قد بادت وذابت ، تكون

- ١ ابن هشام (٣/١) ، السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، ابن خلدون (٣٧/٢) ، الطبري (١٦١/١) ، ابن الأثير (٤٩/١) ، الطبقات — ١ ، ص ٢٥ تاج العروس (٣٧٥/١) ، ونابت بن إسماعيل عليه السلام ، ولي بعد أبيه ، أمه السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، تاج العروس (٥٩٠/١)
- ٢ المصادر المذكورة ، نهاية الأرب (٣٩٢/٢) طبقات ، لابن سلام (ص ٤)
- ٣ ابن هشام (٣/١) ، ابن خلدون (٣٩/٢) ، الطبري (١٦١/١) ، ابن الأثير الكامل (٤٩/١) ، مع اختلاف في ضبط الأسماء .
- ٤ التكوين ، الأصحاح ٢٥ ، الآية ١٢ فما بعدها .
- ٥ التكوين ، الأصحاح ٢٥ ، الآية ١٨
- ٦ تاج العروس (٢٧٥/٩)

العرب الباقية وكلها من ولد قحطان وعدنان ، استوعبت شعوب العرب كلها .
وقد رأينا أن (قحطان) هو (يقطن) أو (يقطان) في التوراة . أما
(عدنان) ، فلا نجد له اسماً فيها ، وقد رأينا أن بين (يقطان) و (سام) ثلاثة
آباء أو أربعة . أما بين عدنان وسام ، فعدد كبير من الآباء .

وقد اختلف النسّابون في عدد من كان بين إسماعيل وعدنان من الآباء، فرأى
بعضهم أنهم أربعون ، وروى غيرهم أنهم عشرون ، وقال آخرون أنهم خمسة
عشر شخصاً^١ ، وقالت جماعة ان المدة طويلة بين عدنان وإسماعيل بحيث يستحيل
في العادة أن يكون بينهما هذا العدد من الآباء^٢ .

وقد اختلف الأخباريون وأصحاب الأنساب في نسب عدنان اختلافاً كبيراً ،
واختلفوا بينهم حتى في كيفية النطق بتلك الأسماء، على حين اننا لا نرى اختلافاً
بينهم في نسب قحطان ، ولا في كيفية النطق بتلك الأسماء^٣ . وقد علل محمد
ابن سعد الواقدي ذلك بقوله : « وكان رجل من أهل تدمر يكنى أبا يعقوب
من مسلمة بني إسرائيل قد قرأ من كتبهم ، وعلم علمهم ، فذكر ان بورخ
ابن ناريا ، كاتب أرميا أثبت نسب معد بن عدنان عنده ، ووضعه في كتبه ،
وأنه معروف عند أحبار أهل الكتاب وعلمائهم ، مثبت في أسفارهم، وهو مقارب
لهذه الأسماء . ولعل خلاف ما بينهم من قبيل اللغة ، لأن هذه الأسماء ترجمت
من العبرانية »^٤ .

ويقول الواقدي في موضع آخر : « وهذا الاختلاف في نسبته يدل على انه

١ النويري ، نهاية (٣٢٤/٢) ، ابن عبد البر ، القصد (٢٢)

٢ الطبري (١٩١/٢) ، ابن هشام (٣/١) فما بعدها ، مروج (٣٩٤/١) طبقات
ابن سعد (١ ، ١ ، ص ٢٨ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢) نسب عدنان
(٢) ، صبح الاعشى (٣٠٧/١) ، نسب قريش ، لابي عبد الله المصعب بن
عبد الله بن المصعب الزبيري (تحقيق ليفي بروفنسال ، (ص ٣ فما بعدها) .

Enc., Vol., I, P., 142, Wuestenfeld, Register zu den General.

Tabellen der Arab. Stamme, S., 47, Caussin de Perceval, Essai, I, 8, 175, J.D.
Bate, An Examination of the claims of Ischmael, 1884, P., 109, Sprenger, Life
of Mohammad, 57, Note 3, and 4, Mills, History of Mohammadanism, 7, Pocock,
Specimen, 40.

٣ نهاية الارب (٣٠٦/٢)

٤ الطبقات (١ ، ١ ، ق ١ ، ص ٢٩)

لم يحفظ ، وإنما أخذ من أهل الكتاب ، وترجموه لهم ، فاختلفوا فيه . ولو صح ذلك ، لكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أعلم الناس به . فالأمر عندنا على الانتهاء الى معد بن عدنان ، ثم الإمساك عما وراء ذلك الى اسماعيل ابن ابراهيم ^١ ، وقال أيضاً : « ما وجدنا في علم عالم ولا شعر شاعر أحداً يعرف ما وراء معد بن عدنان بثبت » ^٢ .

ونقل ابن خلدون رأي من تقدمه في هذا الاختلاف ، فقال : « ونقل القرطبي عن هشام بن محمد فيما بين عدنان وقيدار نحواً من أربعين أباً ، وقال : « سمعت رجلاً من أهل تدمر من مسلمة يهود ومن قرأ كتبهم يذكر نسب معد بن عدنان الى اسماعيل من كتاب أرمياء النبي ، عليه السلام ، وهو يقرب من هذا النسب في العدد والأسماء الا قليلاً » ، ولعل الخلاف انما جاء من قبل اللغة ، لأن الأسماء ترجمت من العبرانية » ^٣ .

ويرجع بعض أهل الأخبار اختلاف الناس في عدد الآباء والأجداد فيما بين عدنان واسماعيل الى أيام النبي ، فهم يذكرون ان الناس كانوا في خلاف فيما بينهم في عددهم ، وان الرسول لما رأى خلافهم هذا ، نهاهم عن تجاوز نسب (معد بن عدنان) ، وأمرهم بالتوقف عنده . وانتسب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، الى عدنان ، وقال : « كذب النسايون ، فما بعد عدنان ، فهي أسماء سريانية لا يوضحها الاشتقاق » ^٤ .

وقد جعل بعض الأخباريين اسم والد (عدنان) (أدد) ، وساقوا نسبه على هذا الشكل : (عدنان بن أدد بن يري بن أعراق الثرى) ^٥ ، وساقه آخرون على هذا الوجه : (عدنان بن أدد بن الهميسع بن سلمان بن عوص ابن يوز بن قوال بن أبي بن العوام بن ناشد بن بلداس بن تدلاف بن طابخ ابن جاحم بن ناحس بن ماخي بن عيقي بن عبيد بن الدعا ...) الى آخر ذلك

١ الطبقات (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)

٢ الطبقات (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)

٣ ابن خلدون (٢ / ٢٩٨) ، ابن سلام ، طبقات (١١) ، ابن حزم ، جمهرة (٦) .

٤ الاشتقاق (٢٠) ، ابن خلدون (٣ / ١) ، البلاذري ، انساب (١٢ / ١) .

٥ الطبقات (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)

من سلسلة مفتعلة ولا شك ، رواها (ابن الكلبي)^١ . وقد سبق النسب على هذه الصورة أيضاً : (عدنان بن أد بن الميسع)^٢ . وروي بصور أخرى في كتاب نسب قريش (للزبيري)^٣ .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئاً عن (أد) أو (أدد) ، ولا عن كيفية توصلهم الى أحدهما ، أو كليهما . وقد زعم بعض علماء اللغة ان (أد) من (أدّ) ، والكلمة فعل من المودة ، (قلبت الواو ألفاً لانضمامها)^٤ .

وذكر الأخباريون أن (وُدّآ) ، وهو الصنم الشهير الذي تغلب على دومة الجندل وتعبدت له (كلب) و (قريش) وقبائل أخرى عديدة ، كان يهمز أيضاً ، فيقال (أُدّ) ، وبه سمي (عبد وُدّ) ، كما سمي (أدّ بن طابخة) ، و (أدد جد معدّ بن عدنان)^٥ .

ونجد بين آلهة الشعوب السامية اسم صنم يقال له : (أدد) (Adad) و (أدو) (Addu)^٦ ، أرى أن لاسم هذا الصنم علاقة باسم (أدد) .

وقد ساق (محمد بن إسحاق) نسب عدنان على هذه الصورة أيضاً : (عدنان ابن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسماعيل)^٧ ، فجمع بين نسب (عدنان) ونسب (يعرب) ، ورجعها كما ترى الى (إسماعيل) ، وساقه في مكان آخر بصورة أخرى .

والغريب أن الرواة الذين رووا هذه الأنساب وشجرات النسب التي يتصل سند روايتها بهم ، كابن الكلبي ومحمد بن اسحاق وأمثالهما ، هم أنفسهم يروون هذا النسب بأشكال مختلفة ومتضاربة ، وطالما حرفوا الأسماء العبرانية ، ورووها بصور متعددة ، وقد يحشون بينها أسماء عربية . وقد روى رواياتهم هذه أناس متعددون ، ولكنهم متفقون على أنهم سمعوها منهم ، أو نقلوها من مؤلفاتهم ،

١ الموارد المتقدمة وتاج العروس (٢٧٥/٩) .

٢ تاج العروس (٢٧٥/٩)

٣ نسب قريش (ص ٣ فما بعدها) .

٤ اللسان (٤٩٦/٤) .

٥ اللسان (٤٩٦/٤) .

٦ Schrader, KAT, S., 443. ff.

٧ الطبقات (ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٨) .

كما يتبين ذلك من السند . ولما كان أكثر هذه الأسماء الواردة في عمود نسب (عدنان) محرفة ، وكانت غير موجودة في التوراة ، وإنما هي أسماء عبرانية مسوخة أحياناً ، فإنّ هذا يدل على أن الرواة اليهود الذين كانوا يتحدثون بمثل هذه الأمور إلى ابن الكلبي ومحمد بن إسحاق وغيرهما ممن مال إلى الأخذ منهم ، كانوا إما جهلة بما يتحدثون به ، وإما كذّابين أو ممن كانوا يحاولون التقرب إلى المسلمين بهذه التلفيقات لمآرب خاصة ، أو ادعاءً للعلم . غير أننا لا نستطيع أن نرى هؤلاء الرواة أنفسهم من وصمة الجهل أو الكذب ، ولا سيما ابن الكلبي الذي تفرد برواية معظم هذه الأخبار . الجائز أنه كان يلجأ إلى أهل الكتاب ليأخذ منهم ما عندهم ، ومن الجائز أنه كان يضيف إليها ، أو يخترع من عنده ، ليتحدث به إلى الناس . وإلا فإن من الصعب صدور هذا الخلط من رجل ثقة يعي ما يقول .

وقد استغل نفر من أهل الكتاب مثل اليهودي التدمري المذكور ، الذي أسلم كما يقول الرواة، هذا الجشع الذي ظهر بين أهل الأخبار في البحث عن الأنساب القديمة ، أنساب أجداد العرب القدامى ، فصنعوا ما صنعوا من أسماء عليها مسحة توازنية ، قدموها إليهم على أنها مذكورة في التوراة . وقد أخذها الرواة على عادتهم من غير بحث ولا مراجعة للتوراة . وما الذي يدفعهم إلى البحث والمراجعة ، فإن كل ما يطمعون به ويريدونه هو الحصول على مادة يظهرون بها على أقرانهم من أهل الرواية والأخبار .

ولم يرد اسم (عدنان) في النصوص الجاهلية ، ولا في المؤلفات (الكلاسيكية). أما في الشعر الجاهلي ، فقد ورد في شعر ينسب إلى (لبيد) ، وفي شعر آخر ينسب إلى (عباس بن مرداس) . « ولم يجاوز أبناء نزار في أنسابها وأشعارها عدنان . اقتصروا على معد ، ولم يذكر عدنان جاهلي قط غير لبيد .. وقد يروى لعباس بن مرداس بيت في عدنان »^١ . وهذا يدل على أن (عدنان) لم يكن

١ ممن ذكر عدنان من شعراء الجاهلية ، لبيد . قال :
فان لم تجد من دون عدنان والدا
وفي ديوان « لبيد » ، تحقيق احسان عباس الكويت ١٩٦٢ م ، - باقيا - في موضع والدا (ص ٢٥٥) .
وعباس بن مرداس ، قال :
وعك بن عدنان الذين تلعبوا
وفي رواية « بغسان » ، مكان « بمذحج » ، ابن سلام ، طبقات الشعراء (ص ٥)
ابن هشام (٦/١) .

مناطق واسعة من جزيرة العرب حتى وصلوا الى العراق والشام، واختلطوا بالقبائل الأخرى ، وتفرقوا في كل مكان .

ويظهر من تلك الروايات أيضاً ، أن القبائل العدنانية ، كانت قبائل متشاحنة يحارب بعضها بعضاً ، دفعها الى تشاحنها هذا طبيعة البداوة وفقر البادية، والتقاتل على الكلاً والماء ، حتى ضرب بها المثل في التفرق والتشتت^١ .

ونجد اسم (نزار) على انه اسم قبيلة مذكوراً في نص (امرئ القيس) مع أنه ابن (معد) ، أي حفيد عدنان ، ولا نجد اسم جده في هذا النص . وهذا مما قد يبعث الظن في نفوسنا أن فكرة (عدنان) لم تظهر إلا في الجاهلية القريبة من الإسلام وفي الإسلام .

وأولاد الأخباريون عدنان عدداً من الأولاد ، أشهرهم وأعرفهم في نظرهم : معد^٢ ، وعك^٣ . وقد زعم الأخباريون أن معداً عاش في أيام (بختنصر) ، وأن معداً خلص الى (حران) حينما هاجم ملك بابل أهل (حضورا) في اليمن . أما (عدنان) والده ، فلقى (بختنصر) فيمن اجتمع اليه من (حضورا) وغيرهم في (ذات عرق) ، فهزمهم (بختنصر) ، ومات (عدنان) في أيامه . فلما هلك (بختنصر) خرج (معد^٤) من (حران) الى مكة ، فوجد أخوته وعمومته قد لحقوا بطوائف اليمن ، وتزوجوا فيهم ، فرجع بهم الى بلادهم^٥ .

ورجع (الزبيدي) أيام (معد^٦) الى أيام (موسى) إذ قال : « وكان معد بن عدنان في زمن سيدنا موسى عليه السلام ، كما يعرفه من مارس علم التواريخ والأنساب » .

وقد جعل بعض أهل الأخبار أم معد^٧ بنتاً من بنات يشجب ، قالوا إن اسمها (تيمة) وإنها (تيمة بنت يشجب بن يعرب بن قحطان)^٨ . فربطوا بذلك

١ قال البجلي في تفرق بجيلة :

لقد فرقتم في كل اوب

البكري ، معجم (٥٧/١) .

٢ ابن خلدون (٢٩٩/٢) ، المعارف (ص ٢٩) ، نسب قريش (ص ٥) ابن حزم ، جمهرة (٨) ، نهاية الأرب (٣٥٢/٢) ، الطبري (٢٩/٢) .

٣ ابن خلدون (٢٩٩/٢) .

٤ الاشتقاق (ص ٢٧) .

جداً كبيراً في الجاهلية ، كما صوره أهل الأخبار والأنساب ، فلو كان جداً كبيراً ، لوجب عقلاً تردد اسمه ، وورود شيء عنه . والغريب اننا نجد اسم (معد) مذكوراً عند (بروكويوس) وفي القديم من الشعر الجاهلي ، مع انه ابن (عدنان) .

وقد وردت في الكتابات النبطية والثمودية أسماء قريبة من اسم (عدنان) ، مثل (عبد عدنون) و (عدنون)^١ . أما الكتابات الجاهلية التي عثر عليها في اليمن ، فلم يرد فيها هذا الاسم ، أو اسم آخر قريب منه .

لقد كان من السهل علينا الوقوف على المنبع الذي أمدّ أهل الأخبار بأصل كلمة (قحطان) . أما بالنسبة الى (عدنان) ، فإن من العسير علينا أن نتحدث عن المنبع الذي أمدّ أهل الأخبار باسمه . فليس في التوراة اسم يشابهه بين أسماء أبناء اسماعيل ، أو غير أبناء اسماعيل ، وليس فيها اسم ملك عربي أو سيد قبيلة عربية اسمه يشابه اسم (عدنان) . ثم اننا لا ندري كيف عثر عليه أهل الأخبار ، وكيف صيروه على الوزن الذي صيغ به اسم (قحطان) : هل ابتدعوه ابتداءً ، أو أخذوه من أفواه أناس أدركوا الجاهلية وكانوا قد وقفوا على اسمه بين أهل مكة أو بين القبائل التي تنسب الى اسماعيل ؟ وهل كان اسم قبيلة أو اسم حلف من الأحلاف ، ثم صيّر اسم رجل فيما بعد . هذه أسئلة يجب أن نعترف بأن من غير الممكن الاجابة عنها في الزمن الحاضر ، لعدم وجود مادة لدينا تساعدنا في استنباط أجوبة منها ، لذلك نترك أمرها الى المستقبل ، فلعل الأيام المقبلة تأتي بمادة جديدة ، تزيج النقاب عن هذا الجهل المطبق باسم عدنان ، وبفكرة عدنان .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ان (تهامة) هي موطن العدنانيين ، ومكة من تهامة . ولكن أحوالاً قاهرة أحاطت بالقبائل العدنانية فاضطرتها الى التفرق والهجرة . وكانت (قضاة) أول من تشتت وتفرق بسبب قتال وقع بينها وبين نزار^٢ . ثم أعقب هجرة قضاة هجرات أخرى من العدنانيين ، فانتشروا في

١ Savignac, Mission, Nos., 38, 328, Hardings, Some Thamudic Inscriptions, Leiden, 1952, G. Strenziak, Die Genealogie der Nordaraber nach Ibn Al-Kalbi, Köln, 1953, Enc., Vol., I, P., 210.

٢ الاغانى (١٥٤/١١ فما بعدها) ، ابن خلدون (٢٤٠/٢) .

نسب معدّ بنسب قحطان من جهة الأم . بل ذهب هؤلاء الى أبعد من ذلك بأن جعلوا أم (عدنان) ، بنتاً من بنات (يعرب) ، وقد قالوا لها (بلهاء)^١ . فصار (يعرب بن قحطان) بهذا الزواج ، خالاً لعدنان ولذريته العدنانيين . وجعلها بعض آخر من جدّيس أو من طسم ، وقالوا إن اسمها (مهدي بنت اللّهم) . ويقال (اللّهم بن جلعب بن جدّيس) ، وقيل ابن طسم ، وقيل ابن الطوسم ، ومن ولد يقشان بن ابراهيم^٢ . ومن بقية ولد عدنان على رأي أهل الأخبار : عدن بن عدنان ، وزعم أنه صاحب عدن ، وأبين بن عدنان ، وهو صاحب (أبين) على بعض الآراء ، وأد بن عدنان ، وقد درج ، والضحاك ، والعي ، وأم جميعهم أم معد على بعض الروايات^٣ .

ونجد لمعد ذكراً في الشعر الجاهلي ، فقد ورد في شعر (امرئ القيس)^٤ ، وفي شعر (النابغة الذبياني)^٥ ، وفي شعر (زهير بن أبي سلمى)^٦ ، وفي شعر (قيس بن الخطيم)^٧ ، وفي شعر (بشر بن أبي خازم الأسدي)^٨ ،

-
- ١ الاشتقاق (ص ٢٧)
 - ٢ الطبري (٢٧/٢) القاهرة ١٩٣٩ م ، (٢٧٠/٢) « دار المعارف » .
 - ٣ الطبري (٢٧٠/٢) « دار المعارف » .
 - ٤ فابلق معدا والعباد وطينا وكندة : اني شاكر لبني ثعل
 - شرح ديوان امرئ القيس : للسندوبي (ص ١٦٠) ، Enc., Vol 3, P. 58.
 - ٥ علوت معدا نائلا ونكاية فانت لغيث الحمد اول رائد
 - ديوان النابغة ، شرح البطلبيوسي (ص ٣٤ ، ٧٨) .
 - ٦ وأن الغدر قد علمت معد بناه في بني ذبيان بانني
 - عظيمين في عليا معد هديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
 - أبي الشهداء عندك من معد فليس لما تدب به خفاء

- ٧ بلاد بها عزوا معدا وغيرها مشاربها عذب واعلامها ثمل
- هم خير حي في معد علمتهم لهم نائل في قومهم وفعنائل
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، للإمام أبي العباس ثعلب ، طبع دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٤٤ م ، (ص ١٧ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٠٩) ، الزوزني ، شرح (ص ٧٩) ، « صادر » .
- ٨ ورثنا المجد قد علمت معد فلم نغلب ولم نسبق بوتـر
- شعر قيس (ص ٣٣) .
- هم فضلوا بخلات كرام معدا حيثما حلوا وساروا
- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، دمشق ١٩٦٠ م (ص ٧٢) .

وفي شعر (عمرو بن كلثوم التغلبي)^١ ، وفي شعر (عبد المسيح بن عمرو الغساني)^٢ ، وفي شعر (المثقب العبدى)^٣ ، وفي شعر (سلامة بن جندال السعدي)^٤ ، وفي شعر ينسب الى (الحاجب بن زرارة)^٥ . يقولون انه قاله يردّ فيه على (الحارث) ، وفي شعر ينسب الى الشاعر (ابن دارة) ، زعموا انه قاله في مدح (حاتم الطائي)^٦ ، وفي شعر ينسب الى (زهير بن جناب الكلبي)^٧ ، وغيرهم ، كما ورد اسم معد في شعر المخضرمين^٨ .

وقد استعملت كلمة (الحي المعدي) في شعر لـ (حاجب بن زرارة)^٩ ، كما ورد (حي في معد)^{١٠} ، مما ينبىء ان معداً كانت مؤلفة من أحياء ، لا من حي واحد ، وجاء في شعر عمرو بن كلثوم : « وقد علم القبائل من معد »^{١١} ، ويدل ذلك على ان معداً كانت مؤلفة من قبائل ، وانها لم تكن قبيلة واحدة . ونلاحظ أن شعراء الجاهلية القدامى كانوا يستعملون : « قد

- ١ ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى بيننا
معلقة عمرو بن كلثوم ، شرح المعلقات السبع ، للزوزني (ص ١٢٥) ، « دار صادر » .
- ٢ تقسمنا القبائل من معد علانية كأسرار الجزور
الاغاني (٥٨/١١) ، السجستاني ، العمرون (٣٧) .
- ٣ الفضليات (٢٩٣) ، ديوان زهير (١٠٦)
- ٤ همت معد بنا هما فنهنا عنا طعان فضر غير تعذيب
الفضليات (ص ٤٧) ، « سندوبي » .
- ٥ وقد علم الحي المعدي اننا على ذاك كنا في الخطوب الاوائل
الاغاني (١١ / ١٥٠) .
- ٦ تحن قلوصي في معد وانما تلاقي الربيع في ديار بني ثعل
العقد الفريد (٣٠٩/١)
- ٧ البلاذري ، انساب (١٩/١) .
- ٨ قال ابو ذؤيب :
فان تك انثى في معد كريمة علينا فقد اعطيت نافلة الفضل
ديوان الهذليين ، « طبعة دار الكتب المصرية » (٣٧/١) ، شرح اشعار الهذليين
للسكري (٨٨/١) .
- ٩ وقد علم الحي المعدي اننا على ذاك كنا في الخطوب الاوائل
الاغاني (١٠٠/١١) ، « دار الكتب المصرية »
- ١٠ قال زهير بن ابي سلمى :
هم خير حي في معد علمتهم لهم نائل في قومهم وفضائل
ديوان زهير بن ابي سلمى ، لثعلب (ص ١٠٦) .
- ١١ بيت ٩٤ من معلقة عمرو بن كلثوم ، Goldziher, Muh. Stud., I, S., 91.

علمت معد^١ . ويقول علماء اللغة : ان معداً « غلب عليه التذكير ، وهو مما لا يقال فيه من بني فلان . وما كان على هذه الصورة ، فالتذكير فيه أغلب . وقد يكون اسماً للقبيلة^٢ . ويستتج من هذا ان معداً لم تكن في الأصل اسم علم لرجل تنتمي اليه قبيلة معينة ، وانما كانت كلمة عامة تشمل قبائل تشترك في طراز الحياة وان كانت تعتقد انها ترتبط بعضها ببعض برابط النسب .

وقد استعمل حسّان بن ثابت كلمة (معد) في مقابل (الأنصار) ، وذكر أن الأنصار (لها في كل يوم من معدّ قتال أو سباب أو هجاء^٣) ، وأن الأنصار نصروا رسول الله على رغم أنف معدّ^٤ ، وأورد اسم معد في أحد الأبيات مع قحطان^٥ ، كما قال عن (بني أسد) إنها (تذبذب في معدّ^٦) ، فاستعمل كلمة معدّ في شعره للدلالة على خصوم الأنصار ، كما استعملها في مقابل قبائل معينة . وخصوم الأنصار هم قريش والمهاجرون . ولما كان الشاعر يعد نفسه من اليمن ، وأهل مدينته من أصل يمني ، فإن من الجائز أن نقول إنه عبر عن فكرة معد وقحطان في هذا الزمان وعن رأي أهل مدينته خاصة في النسب عند ظهور الإسلام .

وبينا يصرف حسّان بن ثابت كل فته الى هجاء خصوم الأنصار ، أي أهل مكة والدفاع عن أهل يثرب ، والافتخار بقومه على قوم معد ونزار^٧ ، نرى أنه لا يسمي من يهجوهم عدنانيين ، ولم يستعمل في شعره الواصل الينا المطبوع اسم عدنان ، فلم أغفل حسّان اسم عدنان ؟ أليس عدنان والد معدّ ؟ ألم يكن

١ Goldziher, Muh. Stud., I, S., 91.

٢ تاج العروس (٥٠٣/٢) ، اللسان (٤٠٧/١٦) ، « دار صادر » .

٣ وقال الله قد سرت جنّداً هم الانصار عرضتها للقاء لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء شرح ديوان حسان ، البرقوقي (ص ٦) ، ديوان حسان ، (ص ١) . « طبعة هرشفلد »

٤ ديوان حسان (ص ٥ ، ٦ ، ٢٥) .

٥ فلو سلّيت عنه معد بأسرها وقحطان او باقي بقية جرهما

ديوان حسان (ص ٤٤) ، البرقوقي ، شرح (ص ٣٩٨)

٦ ديوان حسان (ص ٤٧) .

٧ وكل محارب وبني نزار تبين في مشافره الرضاع

ديوان حسان (ص ٣٦) .

من الأجدر به ذكر عدنان وتقديمه على معدّ ؟ ألم يقسم علماء النسب العرب الى أصليين : أصل قحطاني وأصل عدناني ؟ ألسنا نجد في كتب الأنساب والتاريخ اسم عدنان مقدماً على معدّ ، وأن قبائل معدّ تعد نفسها عدنانية ، كما أن قبائل قحطان تعد نفسها قحطانية ؟ لا يعقل بالطبع أن يكون حسّان قد ترك عدنان والعدنانية ولجأ الى استعمال (معدّ) لو لم تكن لفظة (معدّ) أشهر وأعرف وأكثر استعمالاً في أيامه من عدنان . وهذا هو ما نلاحظه أيضاً في سائر الآثار التي تعود الى الجاهلية وصدر الإسلام .

ويلاحظ أن حظ مصطلح (عدنان) و (عدنانية) و (قبائل عدنانية) قد برز في الإسلام بروزاً لا نلاحظه في الجاهلية بل حتى في الجاهلية الملاصقة للإسلام ولهذا غلب على مصطلح (معدّ) و (معدية) و (قبائل معدية) ، فصار (عدنان) في مقابل (قحطان) ومن هنا صار العرب قحطانيين أو عدنانيين ، واختفت بالتدريج المصطلحات الانتسابية الأخرى التي شاعت في الجاهلية أو في صدر الإسلام .

ويستنتج من أقوال علماء اللغة أن لفظة (معدّ) تعني الشظف في العيش ، والغلظ في المعاش والتعشف^١ ، وأنها تعني حياة بدوية شاقة بعيدة عن كل وسائل الحضرة وترف أهل المدر ، وهذا بالنظر لأهل المدن وأهل المدر نوع من الخشونة لا يحمد الانسان عليه . وقد وصفت ملابسهم بالخشونة كذلك فيزت عن غيرها ، جاء « عليكم بالبسة المعدية » أي خشونة اللباس ، وروي : « اخشوشوا وتمعدوا »^٢ . وبهذا المعنى ورد : « نسمع بالمعيدي خير من أن تراه »^٣ . فالظاهر ان كلمة معدّ كانت تعني ما تعنيه (اريبي) (عربي) عند الآشوريين ، أي البدو والأعراب . غير انها خصصت بعد ذلك بقبائل خاصة هي القبائل التي نسبت نفسها الى عدنان واسماعيل ، وأكثرها من مكة وحولها ، ثم تغلبت عليها (العدنانية) في العصر الأموي فما بعده .

والمثل : « نسمع بالمعيدي خير من أن تراه » ، من الأمثال المشهورة

-
- ١ اللسان (٤١٤/٤) ، الاشتقاق (٢٠/١) ، تاج العروس (٥٠٣/٢) .
 - ٢ اللسان (٤١٤/٤) فما بعدها ، ديوان النابغة مع شرحه ، للبطلبيوسي ، (ص ١٠) ، اللسان (٤٠٧/١٦) ، « دار صادر » .
 - ٣ تاج العروس (٥٠٣/٢) ، الميداني ، مجمع الأمثال (١٢٩/١) ، المثل رقم ٦٥٥

المعروفة حتى الآن . ويرتفع أهل الأخبار بزمنه الى أيام الجاهلية ، ويقولون ان النعمان بن المنذر تمثل به يوماً^١ . ولفظة (معيدي) ، تصغير (معدي) ، ويراد بها رجل من معد . وفي اطلاق هذا المثل بهذا المعنى دلالة على المعاني المتقدمة . وفي رواية أن قاتل هذا المثل هو (المنذر بن ماء السماء)^٢ . وقد استخف النابتة الديباني بمعد أيضاً اذ قال :

ضلت حلومهم عنهم وغرهم^٣ سن المعيدي في رعي وتغريب^٤

ولا أستبعد أن يكون بين لفظة (معيدي) و (معدان) التي تطلق في العراق اليوم على الغلاظ السود من بعض الأعراب ، وبين (معد) صلة ، فقد كانت مواطن (معد) في العراق أيضاً ، والصفات المذكورة تنطبق على المعدان كذلك .

وقد اهتم (معد) بالمكر والحيلة والكيد ، فورد في الأخبار : « وان هذه المعدية لا تخلو من مكر وحيلة » ، وورد : « كنت أخبرك ان معداً لا ينال كيدها ومكرها » ، وورد : « ان عدي بن زيد فيه مكر وخديعة ، والمعدى لا يصلح الا هكذا »^٥ ، مما يدل على أن ملوك الحيرة كانوا لا يأمنون من القبائل المعدية ولا يعتمدون عليها ، ولذلك كانوا يحذرونها .

كما اهتم ولد نزار بالحيل ، قال (المسعودي) : « ورأيت بيلاد مأرب من أرض اليمن أناساً من عقيل مخالفة للحدج ، لا فرق بينهم وبين أحلافهم ، لاستقامة كلمتهم ، فيهم حيل كثيرة ومنعة ، وليس في اليمن كلها أحيل من نزار بن معد غير هذا الفخذ من عقيل ، الا ما ذكر من ولد أنمار بن نزار ابن معد ، ودخولهم في اليمن حسب ما ورد به الخبر »^٥ .

وورد في كتاب (تاريخ الحروب) لـ (بروكوبيوس Procopius) المتوفى

١ فقال النعمان : تسمع بالمعدي لا ان تراه ، البيان (١٧٢/١) ، (٢٣٧) ، « لان تسمع بالمعدي خير من ان تراه » ، الميداني ، مجمع الامثال (٢٢٨/١) ، الاشتقاق (٢٤٤)

٢ تاج العروس (٥٠٧/٢) ، مجمع الامثال ، للميداني (١١٣) .

٣ ديوان النابتة الديباني (١٧) .

٤ الاغانى (٢٢/٢) .

٥ مروج (١٧٢/١) ، « طبعة محمد معني الدين عبد الحميد » .

سنة (٥٦٥ م) ، أي في زمن لا يبعد كثيراً عن ميلاد الرسول ، ذكر قبيلة من قبائل (السركينوى) Sarakenoi سماها (Maddeni) (Maddenoi) ، وقال أنها كانت خاضعة لحكم Homeritae ، وأن (يوسطينانوس) (جستنيانوس) (٥٢٧ - ٥٦٥ م)^١ ، قيصر الروم ، أرسل رسولا إلى ملك الـ Homeritae لينضم إلى الروم ويوافق على تعيين شيخ اسمه (Caisus) (Kaisus) على Maddeni ، وتأليف جيش مشترك من (هوميريه) و (مديني) (معديني) لمهاجمة الفرس وشن الغارات على حدودهم . وقد نصب ملكاً على (مديني) ، ورجع الرسول ليخبر القيصر ، غير أن الملكيين لم يغزوا أرض الفرس^٢ .

وقصد (بروكوبيوس) ب (مديني) Maddeni (معداً) وب (هوميريه) Homeritae (حميراً) ، وعنى بذلك اليمن . وكانت معد خاضعة يومئذ لحمير ، وكان هذا الزمن زمن استيلاء الحبشة على اليمن . و Caisus الذي نصب ملكاً على (معد) هو (قيس) ، وكان صاحب كفايات ، شجاعاً محارباً ، وكان قد قتل أحد اقرباء ملك Homeritae ، وكان هذا الملك هو Esimiphaeus ، أي (السميذع أشوع) ، الذي نصبه النجاشي نائباً عنه على اليمن ، فتلقب بلقب (ملك) . والظاهر أن وساطة القيصر لدى (السميذع) إنما كانت لإصلاح ذات البين ، ولتسوية ذلك الحادث . وقد تم على ما يظهر ونجحت الوساطة ، وتلقب (قيس) وهو رئيس (معد) بلقب ملك . ولا أستبعد أن يكون (قيس) هذا أحد رؤساء القيسيين .

وقد ذكر (بروكوبيوس) أن معداً هم جماعة من (السركينوى) ، أي جماعة من القبائل التي عرفت عند اليونان باسم (السرسين) أيضاً ، كما ذكرت ذلك في السابق . وهذا يعني أن معداً لم تكن في أيام ذلك المؤرخ الذي لم يبعد عهده عن الإسلام كثيراً ، على النحو الذي يصوره الأخباريون . وكل ما في الأمر أنها قبيلة أو مجموعة قبائل تسمى بـ (معد) ، وأنها كلها أو قبيلة منها كانت خاضعة لحمير ، أي للسلطة الحاكمة على اليمن يومئذ ، وهي الحبشة ، ثم استقلت عنها . أما بقية معد ، فلم يتحدث المؤرخ عنهم ، لذلك لا ندرى

١ « يوسطينانوس » ، الطبري (١/٧٤٣) ، « طبعة اوربة » ،

Procopius, History of the Wars, P., 181, (H.B. Dewing).

٢ Procopius, History of the Wars, P., 181.

أكان (معد) (بروكويوس) هم كل معد أو جماعة منها .

وإذا كان الشعر المنسوب الى (ابن بقليلة) ، وهو من نقباء الحيرة وساداتها صحيحاً ، تكون كلمة (معد) معروفة في ذلك العهد ، على نحو يفهم منه أنها كانت تعني قبائل عديدة أعراية تنضوي كلها تحت هذه التسمية . فقد جاء في شعره ألم وتوجع لما حل بأهل الحيرة بعد الفتح ، فقد رأى سواماً تروح بالخورنق والسدير بعد ما كانا مكانين مختارين للمنذرين ، وبعد فرسان النعمان ، يرى الناس قلوصلاً بين (مرة والحفير) ، وصاروا بعد هلاك (أبي قبيس) كعجرب المعز في اليوم المطير ، وقد تقاسمتهم القبائل من معد ، علانية كأيسار الجزور ، بعد أن كانوا أناساً لا يرام لهم حريم ، وصاروا كضرة الضرع الفخور ، يؤدون الخراج بعد خراج كسرى ، وخراج من قريظة والنضير ، ثم نخلص الى نتيجة يخلص اليها من يئأس ويقنع ، فقال :

كذلك الدهر دولته سجال^١ فيوم من مساء أو سرور^٢

وقد ذكر (الطبري) ان خالداً لما أمره (أبو بكر) بفتح العراق ، وقصد الأبلّة ، حشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر الى ألفين كانا معه^٣ ، وربما قصد (ابن بقليلة) من (معد) هذه القبائل التي انضافت الى خالد . ولكن القبائل التي انضافت الى خالد في العراق أو التي حاربتة هي من مضر وربيعه في الغالب ، وبين سكان الحيرة قوم يرجعون أنسابهم الى تميم وإلى قبائل معدية ، فكيف يتألف (ابن بقليلة) من إدبار الدنيا ومن اعراضها عنه وعن أمثاله حتى صاروا في حكم (معد) ، وقد اقتسمتهم قبائل معد . فالظاهر انه كان يتأفف لأن الأمر أدبر منه ومن سادة أهل الحيرة والقرى ، وهم حضر مستقرون ، لهم نعيم وملك وقصور وبيوت وعيش رغيد . ولكن الدنيا أدبرت عنهم ، وسلمت الأمر الى قبائل من معد ، وهم أعراب ، وصار أمرهم اليهم ، فتأفف من ذلك الزمان . وقد عرف (حذيفة بن بدر) سيد غطفان بـ (رب معد)^٣ ، وكان من

-
- ١ الطبري (٣٦٢/٣) .
 - ٢ الطبري (٣٤٧/٣) .
 - ٣ المعارف (ص ٣٨) .

أشرف بيوتات هذه القبيلة، التي كانت محالفة لـ (أسد). وقد عرفنا به (الحليفين)^١ مما يدل على أنها كانتا متحالفتين. ويدل هذا النعت الذي نعت به (حليفة)، وهو (رب معد)، على أن معداً كانت قبائل، وكل منها تقتسب إليها، وأنها لم تكن قبيلة معينة، أي أنها كانت قبائل ترى نفسها أنها من نسب واحد، وأن قبيلة واحدة منها إذا برزت وظهرت جاز لها أن تمثل قبائل معد، وأن ينعت رئيسها نفسه ببعض النعوت التي تدل على ترأسه لها، ومنها (رب معد).

فيتبين من كل ما تقدم أن (معداً) كلمة أريد بها أعراب كانوا ينتقلون في البوادي، يهاجمون الحضر والأرياف بصورة خاصة، لأنها كانت أسهل صيد للأعراب بسبب بُعد أهلها عن سيطرة الحكومة المركزية، وعدم وجود قوات دفاعية رادعة لتدافع عنهم. وكانوا يباغتون الناس ويفاجئونهم، وكانت حياتهم حياة قاسية صعبة. ولم يكونوا قبيلة واحدة، ولكن قبائل عديدة، تتشابه في المعيشة، وتشترك في فقرها وفي تعيشها على الغزو والتنقل، وقد كانت تقيم في البوادي وعلى أطراف الحضارة، كانت مواطنها بادية الشام ونجد والحجاز والعربية الشرقية. ثم صارت اللفظة علماً لرجل صير جداً للقبائل التي عاشت هذه المعيشة، وعرفت بهذه التسمية على الطريقة المعروفة عند العرب وعند غيرهم من الساميين من تحويل أسماء الأماكن أو الأصنام أو المحالقات إلى أسماء أجداد وآباء.

وقد كانت (تهامة) موطن أبناء معد على حسب رأي أهل الأخبار. سكنت قضاء من ساحل البحر حيث أنشأت (جدة) فيما بعد إلى حيز الحرم، وسكن أبناء جنادة بن معد منطقة الغمر: غمر ذي كندة، وكانت كندة قد أقامت بها أيضاً فعرفت بها. وسكن أبناء قنص بن معد ومنام بن معد، وبقية ولد معد أرض مكة، حيث أقاموا مع بقايا جرهم. ظلوا على ذلك متساندين متآلفين تضمهم المجامع، وتجمعهم المواسم، حتى وقع الشر بينهم، ففترقوا وتخاذلوا

١ - وسمع مينة النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: غفار وأسلم ومزينة وجهينة خير من الحليفين أسد وغطفان، الاشتقاق (١٧٣/٢).

وقاتل بعضهم بعضاً ، يقتل العزيز منهم الدليل^١ .

عك^٢ :

وقبائل عك^٣، هي القسم الآخر الشهير من أقسام قبائل عدنان ، وتقع أرضها في جنوب أرض معد^٤ ، شقيق عك^٥ . وقد زعم أهل الأخبار أن (بختنصر) لما هاجم (حضورا) انطلق (عك^٦) الى أرض اليمن ، فاستقر بها ، فاختلط من ثم نسب عك باليمنين^٧ . وقد سكن العكيون تهامة اليمن الى جدّة^٨ . ومن معاني لفظة (عك^٩) في اللغة الحر الشديد^{١٠} .

وقد تصور جماعة من النسّابين وجود صلة بين (عك^{١١}) و (الأزد)^{١٢} . والظاهر أن ذلك إنما وقع لهم من اختلاط منازل القبيلتين . وزعم بعض الأخباريين أن نسب عك كان في اليمن في الأصل ، ثم انتقل الى معد ، بعد قتال وقع بين عك وغسان في تهامة ، تغلبت فيه غسان على عك ، فأجلتها عن أوطانها ، فن ثم انتفت عك من اليمن ، وانتسبت في معد^{١٣} .

١ قال مهلهل :

غنيت دارنا تهامة في الدهر وفيها بنو معد حلولا
فتساقوا كاسا أمرت عليهم بينهم يقتل العزيز الدليلا
البكري ، معجم (١٨ / ١) ، « طبعة السقا » .

٢ تركنا أليث أخوتنا وعكنا الى سمران فانعلقوا سراما
وكانوا من بني عدنان حتى اضاعوا الامر بينهم فضاعوا
الطبري (١٩١ / ٢) ، البكري : معجم ، (٥٣ / ١) فما بعدها ، البلاذري ، انساب (١٢ / ١) .

٣ يوم عك اك ، اي شديد الحرارة ، مجالس ثعلب (ص ٢٤٨) ، اللسان (٢٥٣ / ٢)
تاج العروس (١٦٣ / ٧) .

٤ ابن خلدون (٢٩٩ / ٢) ، ابن حزم (٣٠٩) ، تاج العروس (١٦٣ / ٧) ، اللسان (٣٥٧ / ١٢) .

٥ وهذه الرواية اليمنية تتمثل في شعر « نشوان بن سعيد الحميري » الذي قال :

الم تر عكا هامة الازد أصبحت مدبذبة الانساب بين القبائل
وعقت اباهها الازد واستبدلت به ابا لم يلدها في القرون الاوائل
منتخبات في اخيار اليمن من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ،
لنشوان بن سعيد الحميري ، ليدن ١٩١٦ (ص ٧٤) قارن ذلك برواية الطبري (١٩١ / ٢) .

وقد سبق نسب (عك) على هذه الصورة : (عك بن الديث بن عدنان)
في بعض الروايات، وسبق على صور أخرى مثل : (عك بن عدنان بن عبد الله)
من بطون الأزد^١ .

وهناك بيت شعر للشاعر (العباس بن مرداس) يتكرر بعك على اليمن ،
حيث يقول :

وعك بن عدنان الدين تلعبوا بغسان حتى طردوا كل مطرد^٢

ومضمون هذا البيت يخالف ما جاء في الرواية الأخرى التي تدعى تغلب
غسان على عك .

وقد ذكر (ابن دريد) أن (عدنان) والد (عك) ، هو (عدنان بن
عبد الله بن الأزد) ، وأن من نسب (عكاً) إلى الأزد ، نسبته إلى هذه الصورة^٣
فجعل (عدنان) حفيداً من حفدة الأزد .

وقد ورد في جغرافيا (بطليموس) اسم شعب من الشعوب العربية ، دعي
بـ *Anchitae Achitae Akkitae Akkitai*^٤ ، مواطنه هي المواطن التي
نسبها النسابون إلى (عك) ، لهذا ذهب الباحثون المحدثون إلى أن هذا الشعب
هو (عك)^٥ . وعلى ذلك تكون إشارة (بطليموس) إليهم أقدم إشارة إلى
هذه القبيلة في التاريخ . وتكون (عك) بذلك من القبائل المعروفة قبل الإسلام
بزمان . وهي لا بد أن تكون قد عرفت قبل (بطليموس) وإلا لم يذكرها
هذا الجغرافي في جغرافيته .

غير أن (بطليموس) لم يشر إلى أصلها ونسبها ، ولا إلى صلتها بغيرها
من القبائل . وكل ما ذكره عنها أنها قبيلة من قبائل العرب ، تسكن في المواضع
التي عينها في كتابه المذكور .

١ ابن خلدون (٢ / ٢٩٩) ، ابن حزم (٣٠٩) ، تاج العروس (١٦٣ / ٧) ، اللسان
(١٢ / ٣٥٧) .

٢ نسب قريش (ص ٥) .

٣ اشتقاق (٢٨٧) .

٤ Glaser, Skizze, 2, S., 256, Forster, Vol., I, P., 89.

٥ Enc., Vol., I, P., 241.

وقد شبهها بالرتال لمفارقتها نزاراً ، وانتقالها الى اليمن^١ .

ويشير اختلاف النسابين هذا في نسب قضاة الى اختلاط قبائل قضاة بقبائل معد وبقبائل اليمن ، فانتفى قسم منهم الى معد ، وقسم منهم الى اليمن ، ومن هنا وقع هذا الاختلاف . وأرى ان لاختلاط قبائل قضاة في بلاد الشام وفي أماكن أخرى بقبائل ترجع نسبها الى قحطان دخلاً في إدخال نسبها في اليمن . وقد يكون ذلك في العصر الأموي بصورة خاصة، حيث صار نزاع قيس وكنب ، أي نزاع عدنان واليمن نزاعاً سياسياً عنيفاً قسم عرب بلاد الشام الى جماعتين متباغضتين ، تسعى كل جماعة لضم أكثر ما يمكن من القبائل اليها ، ولا سيما القبائل القوية المهمة مثل قضاة . فأدخلها البانيون لذلك فيهم وألحقوا نسبها باليمن . أما قضاة الباقون الذين كانوا في أرضين أخرى ، فلم يقع عليهم مثل هذا التأثير ، وقد كانوا أكثر استقلالاً ، وعلى اتصال متين بالعدنانيين ، ولهذا أبوا إلحاق نسبهم بقحطان .

وإذا غربلنا أخبار الأيام ، وبعض الروايات التي يرويها أهل الأخبار ، فلنأخذ نتوصل منها الى أن قضاة كانت قد اشتركت مع ربيعة ومعد في محاربة (يمن) . فقد ذكر مثلاً : أن (عامر بن الظرب العدواني) قاد ربيعة ومضر وقضاة كلها (يوم البداء) ، لليمن حين تملحجت على بني معد^٢ . وذكر أن (ربيعة ابن الحارث بن زهير التغلبي) قاد مضر وربيعة وقضاة يوم السلان الى أهل اليمن ، وأن ابنه (كليب بن ربيعة) ، وهو (كليب وائل) ، قاد ربيعة ومضر وقضاة يوم (خزازي) الى اليمن^٣ . ولعل في هذه الأمثلة وفي غيرها تأكيداً لرأي غالب قضاة وبقية النسابين الذين يرجعون نسب قضاة الى بني معد ، أي أنها كانت في حلف مع ربيعة ومضر ، وهما من بني معد . ولما كانت ربيعة ومضر في نزاع مع اليمن ، كانت قضاة معها في هذا النزاع .

وتذكر (قضاة) في الأخبار مع (مضر) و (ربيعة) و (اليمن)^٤ وهذا

مفارقة الرميل الى الرميل

١ فلما استرالت حسبت سواء

المعاني الكبير (٣٥٣/١) .

٢ المحبر (ص ٢٤٦)

٣ المحبر (ص ٢٤٦)

٤ المحبر (ص ١٤٤) .

يدل على أنها كانت في منزلة المذكورين في الكثرة والمكانة . وقد عدت في قبائل (الحلة) من العرب ما خلا علافاً وجناباً^١ . وأهميتها هذه وكثرة عددها ، دفعت العدنانيين والقحطانيين الى ضم نسب قضاة اليهم ، لما كان في هذا الضم من أثر كبير في تقوية مركز أحد الطرفين .

ويذكر (ابن سعد) أن ولد (معد) تفرقوا في غير بني معد سوى (نزار)^٢ وقد أدرك (ابن سعد) وأمثاله ذلك من اختلاطهم باليمنيين ، الأمر الذي أدى الى تداخل النسب ، فصارت أنسابهم لذلك مترجحة بين قحطان وعدنان .

نزار :

وهو جد القبائل (التزارية) المنحدرة على رأي النسّابين من نزار بن معد من زوجه (معانة بنت جوشم بن جلهمة) ، أو (معانة بنت جهلة) من جرهم^٣ . وهو على زعم الأخباريين والد أربعة أولاد ، هم : ربيعة ، ومضر ، وأنمار وإياد^٤ . وهم أجداد قبائل كثيرة في الوقت نفسه . وقد انتشرت هذه القبائل في أواسط بلاد العرب وشمالها ، وهناك أسطورة رواها المؤرخون والنسابون عن اختصاص كل ولد من أولاد نزار وعن المناطق التي نزلت بها قبائلهم واحتكامهم الى (الأفعى الجرهمي^٥) أو (أفعى نجران^٦) .

وقد زعم بعض أصحاب الأخبار أن أم ربيعة وأنمار : (حدالة) (جدالة) بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة بن عمرو) من جرهم ، وأن أم (مضر)

١ المحبر (ص ١٧٩)

٢ الطبقات (٥٩/١)

٣ تاج العروس (٥٦٣/٣) ، السهيلي ، روض الانف (٨/١) ، الطبري (١٩٠/٢) الطبقات (١٠١ ، ١٠٢ ، ص ٣٠) ، المحبر (ص ١٣٢)

٤ Enc., Vol., 3, P., 939, Wuestenfeld, Geneal. Tab., A. 3.

٥ الفاخر (ص ١٥٥ فما بعدها) ، حكم الأفعى ، الطبري (١١٠٨/١) مسروج (٣٥/٢) ، طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ، لقد تأثر بهذه القصة الفيلسوف

الفرنسي « فولتير » في « Zadig » ، Enc., Vol., 3, P., 940.

٦ ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، البلاذري ، أنساب (٢٩/١)

(سودة بنت عك)^١ ، كما زعم بعض المؤرخين أن إباداً وأنماراً هما من أبناء معدّ. وأما نزار ، فقد كان من عقبه البطنان : ربيعة ، ومضر^٢ .
وقد نعتت مضر بـ (الحمراء) ، فليل : (مضر الحمراء)^٣ ، ونعتت إباد بـ (الشمطاء) و (البلقاء) ، وقيل لربيعة (الفرس) ، ولأنمار (الحمار)^٤ .
ويقال للنزاريين : (نزارية) و (بنو نزار) و (أبناء نزار) . أما التتزر ، فالانتساب إلى نزار ، ويقال : تنزر الرجل ، إذا تشبه بالنزارية ، أو أدخل نفسه فيهم^٥ . واستعملت (النزارية) في مقابل (اليمانية) في أيام الأمويين^٦ .

ويرى (ليفي ديلافيدا) أن (النزارية) فكرة سياسية نجمت في العصر الأموي ، في وسط ذلك الصراع الحزبي المعروف ، وعلى الأخص بعد معركة (مرج راهط) ، وإنها لا تمثل حقيقة تاريخية ، فهي لا تعني رابطة قبائل بالمعنى المفهوم . ومن رأيه أن هذا الموضوع لم يدرس دراسة كافية بعد ، وأن المواد اللازمة لدراسته غير متوافرة^٧ .

وقد ذهب أيضاً إلى أن أقدم من ذكر اسم (نزار) من الشعراء الجاهليين هو (بشر بن أبي خازم)^٨ ، و (كعب بن زهير) من الشعراء المخضرمين^٩ ويرى أن (بني نزار) الواردة في شعر (حسان بن ثابت) لا تعني النزارية ، أي أبناء نزار بن معد بن عدنان على نحو ما يذهب إليه أهل الأنساب ، بل

- ١ الطبري (١٩٨/٢) ، خيبة بنت عك بن عدنان ، نسب قريش (ص ٦)
- ٢ ابن خلدون (٣٠٠/٢)
- ٣ قال بشر بن أبي خازم الاسدي :
دموا منبت السيفين أنهما لنا
إذا مضر الحمراء شبت حروبها
- ٤ اللسان (٥٩/٧) .
- ٥ ديوان حسان (ص ٣٦) ، الجمحي ، طبقات الشعراء (ص ٥) ، اللسان (٥٩/٧)
Enc., Vol., 3, P., 940.
- ٦ التنبيه (ص ٧٠) .
- ٧ Enc., Vol., 3, P., 940. r.
- ٨ الفضليات (ص ٦٦٧) ، قال بشر بن أبي خازم :
مضى سلافنا حتى حللنا
بارض قد تحامتها نزار
ديوان بشر (ص ٦٧) ، الفضليات (ص ١٦٢) « السندوبي » ،
Enc., Vol., 3, P., 940.
- ٩ صدموا علينا يوم بدر صدمة
ذلت لوقعتها جميع نزار
الجمحي ، طبقات (ص ٢١) ، الطبري (١١٠٦/١) ، « طبعة أوربة » .

جماعة أخرى هي من نسل (نزار بن معيص بن عامر بن لؤي) من قریش^١ . ويرى (ليفي ديلافيدا) أيضاً ان ما ورد في شعر (أمية بن أبي الصلت) من شعر ، نسب فيه ثقيفاً الى نزار^٢ ، وما ورد في قصة (الأقرع بن حابس التميمي) من ذكر (نزار) ، لا يمكن أن يبعث الثقة الى النفوس ولا الاطمئنان الى القلوب ، بل يظهر ان ما ورد انما وضع لأغراض واضحة هي على زعمه إلحاق نسب ثقيف بنزار ، وقد كان ذلك موضع جدل في ذلك العهد ، وإثبات نسب (بجيلة) وهو نسب كان موضع جدل أيضاً^٣ .

أما أنا ، فأرى ان (نزاراً) من القبائل التي كانت معروفة في القرن الرابع بعد الميلاد ، بدليل ورود اسمها في النص المعروف بـ (نص الهارة) السني وضع على قبر (امرئ القيس) ، ويعود عهده الى سنة (٣٢٨) للميلاد . فقد ذكرت في جملة القبائل التي خضعت لحكمه . ولكن النص لم يتحدث عن نسب نزار ومواضعها في ذلك الزمن . وفي الجملة انها ذكرت مع قبيلة (أسد) .

وتتألف القبائل النزارية من ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، على رأي من جعل أنماراً ابناً من أبناء نزار . فأما إياد ، فقبيلة كانت مواطنها تهامة الى حدود نجران ، ثم انتشرت بسبب حروب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر ، فارتحل قسم منها الى العراق ، وانضم قسم آخر الى قضاة وأقام بالبحرين ، وسكن قسم منها في (وادي بيشة) ، وهاجر آخرون الى بلاد الشام^٤ .

وقد كانت رئاسة مضر الى ربيعة في أيام (كليب بن ربيعة) ، المعروف أيضاً بـ (كليب وائل)^٥ . وقد كانت مضر وربيعة متجاورتين ومتحالفتين ، ودليل ذلك اقتران اسم أحدهما بالآخر ، وجعل أهل الأنساب مضر شقيقاً لربيعة غير أن تحاسداً شديداً كان يقع بين سادات مضر وسادات ربيعة ، وطالما كانت

- ١ وكل محارب وبني نزار تبين في مشافره الرضاع ديوان حسان (ص ٣٦) ، البرقوقي ، شرح ديوان حسان (ص ٢٦٦) .
Enc., Vol., 3, P., 940, Wuestenfeld, Genea., S., 15.
- ٢ ديوان أمية (ص ٦٩) ، وهو من الشعر المنسوب اليه ، Enc., Vol., 3, P., 940.
- ٣ النقائض (طبعة بيفان) ، (ص ١٤١ فما بعدها) ، ابن هشام (٥٠/١) ، « طبعة وستنفلد »
Enc., Vol., 3, P., 940.
- ٤ ابن خلدون (٣٠٠/٢) ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٩) .
- ٥ Enc., Vol., 2, P., 565, Wuestenfeld, Register.
- ٦ الفاخر (ص ٧٥ وما بعدها) .

لأحدهما تفتخر على الأخرى ، وترى أنها أعز مكانة ونفراً من شقيقتها ، كالذي يحدث بين القبائل .

ويظهر أن الأمر قد اختلط على بعض أهل النسب في قضية (إياد) ، فجعلوا إياداً ابناً من أبناء معد ، أي شقيقاً لنزار ، وجعلوه ابناً لنزار ، فصيره شقيقاً لربيعة ومضر وأثمار . وقد ذكر المسعودي أن إياداً ينسبون إلى القبيل الأكبر ، وليست لهم قبائل مشهورة . ويذكر قوم أن ثقيفاً من إياد ، ويرى فريق أنهم من قيس عيلان^١ .

وأما (قنص بن معد) ، فيزعم قوم أن (آل المنذر) ملوك الحيرة منهم^٢ . ويظهر من عدم ذكر أسماء قبائل تنسب إلى قنص أن قنصاً لم تكن من القبائل الكبرى ، وأنها دخلت في القبائل الأخرى قبل الإسلام ، فنسبت ، فلما دون أهل الأخبار الأنساب ، لم يكن لها شأن يذكر عندئذ غير الاسم .

ويلاحظ أن النسايب الذين جعلوا (آل نصر) من (قنص بن معد) ، أي من العدنانيين ، يذكرون أنفسهم ويروون في كتبهم أن نسبهم هو من اليمن ، وأنهم من أصل قحطاني .

ويذكر أهل الأخبار أن ربيعة ومضر حاربوا أبناء قنص بن معد وتغلبوا عليهم ، حتى أخرجوهم من ديارهم فتنفروا في البلاد ، وذهب جمع منهم إلى سواد العراق ، ولكنهم اصطدموا بالنبط الأرمانيين من ملوك النبط ، فراجعوا واستقر قسم منهم في الأنبار والحيرة^٣ .

وأما (مضر بن الياس) فولد (الياس بن مضر) ، والياس ، وهو قيس عيلان . وعرف أبناء (الياس) بـ (خندف) نسبة إلى أمهم (خندف) ، وهم : مدركة ، وطابخة ، وقعة^٤ . وذكر المسعودي أن مضر ترجع إلى حين ،

-
- ١ المعارف (ص ٢٩)
 - ٢ المعارف (ص ٢٩) ، الطبري (٦١١/١) ، «دار المعارف» ، ابن حزم ، جمهرة (ص ٨) ، البكري معجم (٥٢/١) ابن هشام (٥/١)
 - ٣ البكري ، معجم (٥٢/١) وما بعدها ، «طبعة السقا» .
 - ٤ المعارف (ص ٣٠) «وكانت أمهم ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وهي خندف ، فغلب على من ذكرنا الألقاب ، ونسب ولد الياس إلى أمهم خندف» ، مروج (٣٩٦/١) ، نسب عدنان (ص ١) ، ابن حزم ، جمهرة (٩) البلاذري ، أنساب (٣١/١) .

هما : خندف ، وقيس^١ .
ومن النسابين من يزعم أن (قعة) ، واسمه (عمير) ، هو والد خزاعة .
أما خزاعة^٢ ، فتأبى ذلك ، وترجع نسبها الى غسان^٣ .
وورد في شعر الشعراء المعاصرين لبني أمية : (ابنا نزار) ، وقد قصدوا
بذلك (ربيعة) و (مضر)^٤ ، كما ورد (بحرا نزار) في المعنى نفسه^٥ .
وجعل (ابن جني) ، اللغة العربية التي نزل بها القرآن (لغة ابني نزار)^٥ .
وقد سمي (الفرزدق) (قيس علان) و (خندفاً) بـ (الحيين) المكونين
لمعد^٦ . وورد في شعر للعجاج (حَيِّيْ مُضَرَّ)^٧ . وجاء في شعر لجرير :

إذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها ، لم تدر من حيث تسرح^٨

مما يدل على ان قيساً وخندفاً ، كانا من القبائل القوية في هذه الأيام .
ويظهر من تقسيم النسابين قبائل مضر الى حين : خندف وقيس عيلان ،
ان تلك القبائل كانت حلفاً في الأصل ، ثم انفصلت عراه ، أو ان خندفاً
تحالفت مع قبائل قيس عيلان ، وربطت نسبها بنسب مضر . وتتألف خندف من

-
- ١ مروج (٣٩٦/١) .
 - ٢ نسب قريش (٨)
 - ٣ قال جرير :
 - وابنا نزار احلاني بمنزلة
الجمحي ، طبقات (ص ٨٩) .
وقال الراعي :
 - تأبى قضاة ان تعرف لكم نسباً
الجمحي ، طبقات (ص ١١٨)
 - ٤ قال الكمي :
اضحت عداوتهم اياي اذ ركبوا
المعاني الكبير (٨٥٥/٢) ، (١١٣٤/٣) .
 - ٥ « وبعد فلسنا نشك في بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابني نزار » ، الخصائص
(٣٩٢/١)
 - ٦ اذا اجتمع الحيان قيس وخندف
فثم معد هامها وعديدها
 - ديوان الفرزدق (١٨٩) .
 - ٧ نسب عدنان (ص ٢) .
 - ٨ نسب عدنان (ص ٢) .

قبائل مهمة ، منها ضبة ، وتميم ، وخزيمية ، وهذيل ، وكنانة ، وقريش ، وأسد وغيرها . وأما قيس عيلان ، فن قبائلها : فهم ، وعدوان ، وغطفان ، وعبس ، وذبيان ، وسليم ، وهوازن ، وباهلة ، وغنى ، وغيرها من قبائل سيأتي ذكرها بعد قليل .

وأما مدركة بن الياس ، فولد : خزيمية ، وهذيل^١ ، وأسد^٢ ، وكنانة . فأما هذيل ، فأولد ثلاثة : سعداً ، ولحياناً ، وعميراً ، والعدد في سعد بن هذيل : تميم وحريث ، ومنعة ، وخزاعة ، وجهامة ، وغنم ، وولد تميم معاوية والحارث^٣ . وجعل مصعب بن عبدالله بن مصعب الزبيري ، أولاد مدركة ولدين ، هما خزيمية وهذيل . أما أسد وكنانة ، فهما عنده ولدان من أولاد خزيمية^٤ .

وأما خزيمية ، فله من الولد كنانة ، وأسد ، وأسدة ، والهون^٥ . وولد أسد دودان ، وكاهلاً ، وعمراً وحملة . فهؤلاء (بنو أسد) ، ومنهم تفرقت أسد كلها . ومن بطونهم المشهورة : (بنو ققفس) ، وبنو الصيداء ، وبنو نصر ابن قعين ، وبنو الزينة ، وبنو غاضرة ، وبنو نعام . أما ولد الهون ، فهم : القارة ، ومن القارة : عضل ، والديش ، وهما قبيلة الهون . وقد اشتهرت القارة بالرماية^٦ . وجعل (الزبيري) ولد الهون ثلاثة : هم عضل ، والديش ، والقارة^٧ .

ويذكر (الزبيري) ، الذي أدخل أسدة في أولاد خزيمية ، ان أسدة يزعمون انه جذام ، ونحهم ، وعاملة ، وقد انتسبوا في اليمن . ويظهر ان قبائل (أسد ابن خزيمية) ادعت ، حين مجيء لحم وجذام مع خالد بن عبدالله القسري الى العراق ، انها والقبائل القادمة من دم واحد ، هو دم خزيمية بن مدركة ، وانها أرادت إلحاق نسبها بهذا النسب^٨ .

١ المعارف (ص ٣٠) ، وقد جعل « ابن قتيبة » قريشا ضمن أبناء مدركة ، ونسي خزيمية .

٢ نسب قريش (ص ٨) .

٣ المعارف (ص ٣٠) ، ولم يذكر صاحب كتاب « المعارف » : أسدة في أولاد خزيمية والذي ادخلهم هو « الزبيري » نسب قريش (ص ٨) .

٤ المعارف (ص ٣٠) .

٥ نسب قريش (ص ٩) .

٦ نسب قريش (ص ٨ فما بعدها) .

وأما كنانة^١ ، فولد النضر ، ومالكاً ، وملكاً ، وعبد مناة . وهو علي ، وربما قالوا مسعوداً^٢ ، وآخرين ذكرهم (الزبير)^٣ . فأما بنو ملكان ، فلهم بقية ، وليس لهم شرف بارع ، مما يدل على أنهم لم يكونوا كثيري العدد . وأما بنو مالك ، فن قبائلهم بنو فقيم وبنو فراس . ومن بني فقيم (القلامس) نسابة الشهور . وأما عبد مناة ، فمنهم (بنو مدلج) القافة ، ومنهم بنو جذيمة ، ومنهم بنو ليث ، ومنهم الدئل ، ومنهم بنو ضمرة . ومن بني ضمرة : غفار . ومنهم بنو عريج^٤ .

وأما (النضر) ، فولده مالك والصلت^٥ . فأما (الصلت) ، فصاروا في اليمن ، ويقول قوم انه أبو خزاعة^٦ . ورجعت قريش الى مالك كلها ، فهو أبوها كلها . وولد مالك بن النضر فهراً والحارث^٧ . فأما (الحارث) الحارث ابن مالك ، فهو من المطيبين ، ويقال ان الخلع منهم . ويقال كانوا من عدوان ، فألحقهم عمر بن الخطاب بالحارث ، وسموا خلعاً لأنهم اختلجوا من عدوان ، وهم بالمدينة كثير^٨ .

وأما فهر بن مالك ، فمنهم تفرقت قبائل قريش ، فقليل لهم (بنو فهر) . وولده : غالب بن فهر ، ومحارب بن فهر^٩ . فأما (محارب) ، فمنهم ضرار ابن الخطاب شاعر قريش في الجاهلية . وأما غالب بن فهر ، فولده لؤي وتيم . فأما تيم ، فهم بنو الأدرم من أعراب قريش^{١٠} .

ويذكر بعض أهل الأخبار أن قريشاً كانوا متفرقين في (بني كنانة) ، فجمع (قصي) الى مكة (بني فهر بن مالك) فجذب قريش كلها (فهر بن مالك)

١ ممن ذكر « كنانة » من الجاهليين « بشر بن ابي خازم الاسدي » ، قال : فابلق ان عرضت بهم رسولا

ديوان بشر (ص ٧٣) .

٢ المعارف (ص ٣٠ فما بعدها) .

٣ نسب قريش (ص ١٠)

٤ المعارف (ص ٣٠)

٥ نسب قريش (ص ١١) ، المعارف (ص ٣١)

٦ نسب قريش (ص ١١) ، الانباه (ص ٩٤)

٧ المعارف (ص ٣١) ، نسب قريش (ص ١٢) .

٨ المعارف (ص ٣١) .

٩ واضاف « الزبير » اليهما « الحادث » ، نسب قريش (ص ١٢)

١٠ المعارف (ص ٣١ فما بعدها) .

فما دونه (قريش) وما فوقه عرب ، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر ، فانما قريش الى (فهر بن مالك) لا تجاوزه^١ . ثم يفسرون معنى (قريش) ، بالقرش أي التجمع ، أو جمع المال والتجارة ، أو غير ذلك مما سأحدث عنه فيما بعد^٢ . مما يدل على أن تلك التسمية لم تكن قديمة ، وإنما هي لقب في الأصل أطلق على جماعة من بني فهر كانوا يسكنون مكة ، فعرفوا به حتى غلب على اسمهم ، وصار اللقب اسماً ، ومن هنا اشتهر بين النسابين انه اسم لإنسان وجدّ قبيلة .

وأما لؤي ، فإليه ينتهي عدد قريش وشرفها . وولده : كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، وسامة بن لؤي ، وسعد بن لؤي ، وخزيمة بن لؤي ، والحارث بن لؤي وعوف بن لؤي^٣ . فأما عامر ، فولده حسيل ومعيص ، ومن حسيل سهل وسهيل والسكران بنو عمرو . وأما سامة ، فوقع بعمان ، وهلك بها فولده هناك . وأما سعد بن لؤي ، فهو أبو ولد بنانة ، وأما خزيمة بن لؤي ، ففهم عائذة ، وهم في بني شيبان . وأما كعب بن لؤي ، فولده مرة ، وهصيص ، وعدي^٤ . فأما هصيص ، ففهم بنو سهم ، وبنو جمع . وأما عدي ، ففهم عمر بن الخطاب . وأما مرة ، ففهم تيم بن مرة رهط أبي بكر ، وآل المكندر ، ومنهم مخزوم ابن يقظة بن مرة ، ومنهم كلاب بن مرة وولد زهرة بن كلاب وقصي ابن كلاب^٥ .

وأما قصي بن كلاب ، فإنه أول من جمع قبائل قريش ، وأنزلها بمكة ، وبني دار الندوة ، وأخذ مفتاح الكعبة من خزاعة . وكان له من الولد : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العزى ، وعبد^٦ . فأما عبد ، فبادوا . وأما عبد العزى ، ففهم خويلد بن أسد أبو خديجة . وأما عبد الدار ، ففهم آل أبي طلحة ، ومنهم شيبه بن عثمان ، وقد أعطاه النبي مفتاح الكعبة ، وصار في

١ العقد الفريد (٣/٣١٣) ، ابن حزم ، جمهرة (١١) الانباه (٦٦) ، البلاذري انساب (٣٩/١) .

٢ الميداني ، مجمع الامثال (٢/٧٢) .

٣ المعارف (ص ٣٢) ، « والحارث ، وهم جشم وهم في همدان » ، نسب قريش (ص ١٣)

٤ نسب قريش (ص ١٣) ، المعارف (ص ٣٢)

٥ المعارف (ص ٣٢) نسب قريش (ص ١٣)

٦ نسب قريش (ص ١٤) ، المعارف (ص ٣٢ فما بعدها)

ولده . وأما عبد مناف ، فولده هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل وأبو عمرو^١ :
وأما طابخة بن الياس ، فولد أدآ ، وولد (أد) مرآ وعبد مناة وضبة
ومزينة وحيساً والرباب . فأما عبد مناة ، ففمنهم تيم بن عبد مناة ويطونها ،
وعدي بن عبد مناة ، وعُطْل بن عبد مناة ، وهؤلاء الثلاثة من الرباب ، وثور
ابن عبد مناة^٢ . وجعل (الزبيري) ولد أد بن طابخة : مزينة ، ومرآ وتيم^٣ .
وأما ضبة بن أد ، فولده سعد وسعيد وباسل . فأما باسل ، فهو أبو الديلم ،
وقتل سعيد ولا عقب له ، وضبة كلها ترجع الى (سعد بن ضبة) ، وهي
جمرة من جمرات العرب ، وهي من الرباب . وولد سعد الذين تنسب اليهم ضبة
بكرآ ، وثعلبة وصريمآ . ومن بطونهم نصر ، ومازن ، والسيل ، وذهل ،
وعائذة ، وتيم اللات ، وزبان ، وعوف ، وشييم . ومن ذهل بجالة ، وتيم ،
وصبيح ، وضبة ، وكعب . ومن كعب ضرار بن عمرو ، وهو بيت ضبة ،
وبنو صباح ، وهم معروفون بالصيد ، وشقرة وهلال^٤ .

وأما مزينة بن أد ، فهم مزينة مضر ، ومنهم الشاعر زهير . وأما حميس
بن أد ، فهم قليلون ، يكونون في البصرة في بني عبد الله بن دارم وبالكوفة
في بني بجاشع . وأما مرآ بن أد ، فولده ثعلبة بن مرآ . وهم بنو ضاعنة ،
ونسبوا الى أمهم . وبكر بن مرآ ، وهم الشعراء وأراشة بن مرآ ولحقوا باليمن ،
فصاروا في جذام ، ويقال لهم جديس ، والغوث بن مر ، وصاروا باليمن ،
ويقال لهم بنو صوفة ، وكانوا يفيضون بالناس قبل بني صفوان وتيم بن مر^٥ .
وأما تيم بن مر ، وقبره بـ (مران) ، فولده زيد مناة ، وعمرو ،
والحارث . فأما الحارث ، ففمنهم شقرة ، وأما عمرو ، فولده العنبر والهجوم
وأسيد والقلب والحارث بن عمرو المعروف بـ (الحبط) ، ويقال لولده (الحبطات) ،
ومالك بن عمرو . وأما زيد مناة ، فولد سعداً وفيهم العدد ، وعامرآ ، وانتسب
ولده الى عامر بن بجاشع والحارث ، وهم قليل ، وامرؤ القيس ، منهم عدي

١ نسب قريش (ص ١٤) ، المعارف (ص ٣٢ وما بعدها)

٢ المعارف (ص ٣٤)

٣ نسب قريش (ص ٨) .

٤ المعارف (ص ٣٤) .

٥ المعارف (ص ٣٤) .

ابن زيد الشاعر ، وقبائلهم بنو عصىة . ومالك بن زيد مائة ومنهم ربيعة الجوع ، ومنهم البراجم ، وهم عمرو وقيس وكلفة وظليم وغالب بنو حنظلة بن مالك : ومنهم بنو يربوع بن حنظلة ، وهم بنو كليب بن يربوع ، ورياح بن يربوع ، وثعلبة بن يربوع ، وعُدانة بن يربوع ، وحزام بن يربوع^١ .

ومن تميم بن مرّ بنو دارم بن مالك بن حنظلة ، ومجاشع بن دارم ، ونهشل ابن دارم ، ومنهم بنو العدوية ، نسبوا الى أمهم ، وهم : زيد بن مالك بن حنظلة ، وصدي بن مالك بن حنظلة ، ويربوع بن مالك بن حنظلة ، وعوف ابن مالك بن حنظلة ، وجشش بن مالك بن حنظلة^٢ .

وأما سعد بن زيد مائة بن تميم فهو الفزّر . وولده كعب بن سعد ، وعمرو ابن سعد ، والحارث بن سعد ، وهم : عوافة ، وعبشمى بن سعد ، واسمه مقروع ، وجشم بن سعد ، ومالك بن سعد ، وهيرة بن سعد . فأما كعب ابن سعد ، ففيهم العدد . منهم مقاعس ، ومنهم حمان ، ومنهم بنو منقر ، ومنهم بنو مرة ، ومنهم ربيعة . ومن (عوف بن كعب) بهدلة رهط الزبرقان ابن بدر ، وقريع رهط بني أنف الناقة ، ومنهم آل عطارذ وآل صفوان بن شجنة الذين كانت فيهم الإفاضة بالناس من عرفة ، ومن عطارذ بنو عوف^٣ :

وأما قيس بن عيلان ، وهو قعة بن الياس بن مضر ، فولد سعداً، وعكرمة ، وأعصرأ ، وعمراً ، وخصفه . وبعض النساب يزعم أن عكرمة هو ابن حفصة ، وأعصر هو ابن سعد^٤ . وأما عمرو بن قيس ، فولده فهم وعدوان . فن فهم تأبط شرأ . وأما عدوان ، فن بطونهم بنو خارجة وبنو وابش وبنو يشكر وبنو عوف والفرعا وبنو رهم وبنو رباح . ومن عدوان عامر بن الظرب حاكم العرب ، وأبو سيارة الذي كان يفيض بالناس ، وعدوان أنزلوا ثقيفاً بالطائف ، وكانت كثيرة السادة ، فنفروا يبغي بعضهم على بعض^٥ .

١ المعارف (ص ٣٥)

٢ المعارف (ص ٣٥)

٣ المعارف (ص ٣٦)

٤ المعارف (ص ٣٦)

٥ المعارف (ص ٣٦)

وأما بنو سعد بن قيس عيلان ، فهم غطفان^١ وأعصر بن سعد : فولد أعصر غنياً ومعتناً وهو أبو باهلة ، وباهلة امرأة من همدان نسب بنو معن اليها ، ومنبه بن أعصر وهم الطفاوة . فأما غني ، فمنهم بنو ضبيبة وبنو بهثة وبنو عبيد . وهم حلفاء في بني كلاب . وأما الطفاوة ، فمنهم بنو جسر وبنو سنان ، وكانوا في بني شيبان حلفاء . ومن الطفاوة الحبال ، وكانوا في المهجم ، وأما معن ابن أعصر ، فولد قتيبة ووائل ، وأما من فزارة ، وأود ، وجاءت أمها باهلة امرأة من همدان ، وقراض وأبو عليم^٢ .

وأما قتيبة بن معن ، فمن ولده غنم ، وولد غنم سهم بن غنم ، ومن بني قتيبة بنو صحب ، وهم يتزلون اليامة . ومنهم عمرو بن عبد واعد وقعب وسعد بن عبد وعامر بن عبد ، ومن بني سعد بنو أصمع . وأما وائل بن معن ، فمنهم بنو سلمة وبنو هلال بن عمرو وبنو زيد وبنو عامر ابن عوف وبنو عصية^٣ .

وأما غطفان بن سعد ، فولد ريث وعبدالله ، فولد ريث بغيضاً وأشجع ، فولد بغيض ذبيان وعيساً وأناراً . وأما عبدالله بن غطفان ، فمنهم في بني عيس : وأما أشجع ، فمنهم بنو دهمان . وأما أنمار بن بغيض ، فمنهم قليل . وأما عيس بن بغيض ، فولد قطيعة ، وورقة ، ومعتم ، والشرف والعدد في قطيعة . وأما ورقة ومعتم ابنا عيس ، فلا يعرف منها أحده^٤ .

وأما ذبيان بن بغيض ، فولد فزارة ، وسعد ، وهاربة البقاء ، وقد بادت هاربة الا بقية^٥ يسيرة في بني ثعلبة بن سعد ، وأما فزارة بن ذبيان ، فولد عدي ، وظالم ، ومازن ، وشمخ . فأما ظالم ، فقد بادوا الا قليلاً ، وأما شمخ بن فزارة ، فولد لؤي وهلال ، وأما مازن بن فزارة ، فمنهم بنو العشاء ، وأما عدي بن فزارة ، فولد ثعلبة وسعد^٥ .

وأما سعد بن ذبيان ، فولد ثعلبة وعوف . فمن ثعلبة بنو جحاش ، وبنو سبيع ، وبنو حشور . وفي بني سبيع البيت والشرف . وولد عوف بن سعد

-
- | | |
|---|-------------------------------------|
| ١ | التنبيه (ص ٢٠٩ ، وما بعدها ، ٢١٦) |
| ٢ | المعارف (ص ٣٦) |
| ٣ | المعارف (ص ٣٧) |
| ٤ | المعارف (ص ٢٧) |
| ٥ | المعارف (ص ٣٨) |

مرة وعيداً . فأما عيد ، فقليل ، وفي مرة بن عوف الشرف والسودد . فولد
مرة بن عوف غيظاً ، ومالكاً ، وحرمة ، وسهما ، وبني صارذ وغيرهم . فولد
غيظ نشبة وبربوعاً^١ .

وأما خصفة بن قيس عيلان ، فولده عكرمة ومحارب . وبعضهم ذكر ان
عكرمة هو ابن قيس . وأما محارب ، فمنهم جسر والخضر . وبنو جسر حلفاء
بني عامر بن صعصعة . وأما عكرمة ، فولده عامر ومنصور ، وأبو مالك .
فأما بنو أبي مالك ، فهم في بني تيم الله . وأما عامر ، فهم حشوة في
بني سليم ولهم بقية بالبادية . وأما منصور بن عكرمة ، فولده سليم ، وسلامان ،
وهوازن ، ومازن . وأما سليم فولده بهثة . وولد بهثة امرأ القيس وعوفاً .
ومن قبائل سليم ، بنو حرام ، وبنو خفاف ، وسماك ، ورعل ، وذكوان ،
ومطروود ، وهز ، وقنفذ ، ورفاعة ، وعصبة ، وظفر ، وبجلة ، وحبيب
ابن مالك ، وبنو الشريد ، وبنو قتيبة^٢ .

وأما هوازن بن منصور ، فولده بكر ، وسبيع ، وحرب ، ومنبه ،
ولا عقب لسبيع وحرب . وأما منبه ، فهو أبو ثقيف في قول بعض النسابين .
وولد بكر بن هوازن سعداً ومعاوية وزيداً . ومن ولد معاوية بن بكر ، جشم ،
ونصر ، وصعصعة ، والسباق ، وجسر ، وجحش ، وجحاش ، وعوف ،
ودحوة ، ودحية . فأما دعوة ، ودحية ، وجحش ، وجحاش ، فلا عقب لهم .
وأما عوف ، فيقال لهم الوقعة^٣ .

وأما صعصعة بن معاوية ، فولده عامر ومرة وغازة ومازن ووائل . فأما
بنو مرة ، فيعرفون بـ (بني سلول) . وأما عامر بن صعصعة ، فولده هلال
ابن عامر ، وسواء بن عامر ونمير بن عامر ، وهي جمرة من جمرات العرب .
وربيعة بن عامر ، وولده بنو مجد وينسبون الى أمهم . وهم عامر بن ربيعة ،
وكلاب بن ربيعة ، وكعب بن ربيعة . فأما عامر بن ربيعة ، فن ولده عمرو
ابن عامر فارس الضحياء ، وبنو البكا بن عامر . وأما كلاب بن ربيعة ، فن
ولده جعفر ، ومعاوية ، وربيع ، وأبو بكر ، وعمرو ، والوحيد ، ورواس ،

١ المعارف (ص ٣٨)

٢ المعارف (ص ٣٨)

٣ المعارف (ص ٣٩) .

والأضبط ، وعبدالله : وأما معاوية بن كلاب ، فثمنهم الضباب ، وهم حصل وحسيل وضب^١ :

وأما عمرو بن كلاب ، فثمنهم بنو دودان . وأما أبو بكر بن كلاب ، فن ولده القرطات : قرط وقريط ومقرط . وأما كعب بن ربيعة ، فن ولده عقيل وقشير والحريش وجعدة وعبدالله وحبيب . وأما عبدالله ، فن ولده بنو العجلان . وأما قشير بن كعب ، فثمنهم غطيف وغطفسان ، ومنهم مالك ذو الرقية ، ومنهم بنو ضمرة . وأما عقيل بن كعب ، فثمنهم خفاجة ، ومنهم الحلفاء ، ومنهم الأخیل^٢ .

وأما منه بن هوازن بن منصور ، فولده قسي ، وهو ثقيف . فولد ثقيف جشم وعوفاً والمسك ، فتزوج قاسط المسك ، فولدت واثلاً أباً بكر بن واثل : وأما جشم ، فولد حطيظاً ، فولد حطيظ مالكاً وغاضرة . وأما عوف ، فهم الأحلاف ، وذلك أنهم تحالفوا على بني مالك وصارت غاضرة مع الأحلاف ، فثقيف فرقان : بنو مالك والأحلاف^٣ .

هذا وإننا لنجد بعض النسابين ينسبون ثقيفاً الى (ثمود) ، فيقولون إنهم من بقاياهم ، وهو نسب لا يرضى عنه الثقفون بالطبع ، ويزعمهم أن يكونوا من قوم هلكوا بسبب غضب الله عليهم^٤ . ومنهم من جعل نسبهم في إيساد : ومنهم من جعل نسبهم من (أبي رغال) الى غير ذلك من أقوال ، يظهر أنها ظهرت في الإسلام كرهاً للحجاج بن يوسف ، أحد بني ثقيف ، المشهور بتعسفه وبظلمه . وقد قيل إن قيساً ، وهو اسم (ثقيف) هو من القسوة ، وكان غليظاً قاسياً^٥ ولا أظن أن هذا التفسير هو مما يرضي الثقفين .

وأما ربيعة بن نزار بن معد ، فولد أسد بن ربيعة وضييلة بن ربيعة وأكلب ابن ربيعة . فأما أكلب بن ربيعة ، فهم في خثعم . وهم بطون كثيرة تنسب الى خثعم . وأما ضبيعة بن ربيعة ، فولد أحمس ، والحارث ، والقلادة ، وأما

١ المعارف (ص ٣٩)

٢ المعارف (ص ٤٠)

٣ المعارف (ص ٤١)

٤ ابن خلدون (٢٤/٢) .

٥ الاشتقاق (١٨٣/٢) ، الاغانى (٢٢٠/١٤) ، المبرد ، الكامل (٢٧٦/١) ، الانباه (٨٩) ، البلاذري ، انساب (٢٥/١)

أسد بن ربيعة ، فولد جديلة وعترة وعميرة . فأما عميرة ، فهم في عبد القيس .
أما عترة ، فاسمه عامر . وأما جديلة ، فولد دعمي وولد دعمي أقصى ، فولد
أقصى هنباً وعبد القيس . فولد عبد القيس اللب وأقصى . وولد أقصى شناً
ولكيزاً . فمن شنّ الدليل بن شنّ . وولده سعد وجديلة وعامر وحبيب . ومنهم
بنو جهثة بن جديلة بن الدليل بن شنّ . وأما لكيز ، فولد نكرة وصباحاً ووديعة .
فأما نكرة ، فهم حلفاء جديلة ، ومنهم هنية بن نكرة ، وهم أهل البحرين^١ .
وفيهم العدد والشرف ، ومنهم المثقب العبدي الشاعر والمزق الشاعر والمفضل
ابن عامر الشاعر وصاحب القصيدة المنصفة . وبعان قوم من نكرة ، وباليمن
قوم منهم .

وأما وديعة ، فولده عمرو وغنم ودهن . فأما دهن ، فهم وائلة ، نسبوا
إلى أمهم . وأما غنم ، فولده عمرو بن غنم وعوف بن غنم . وأما عمرو بن وديعة
فولده أنمار وعجل ومحارب والدليل والعوق وامرؤ القيس . فمن ولد الدليل أهل
عمان . وأما العوق ، فمنهم العوقة ، وهم عمانيون قليل . وأما أنمار ، فمنهم
عصر ، ومنهم ظفر . وأما محارب ، فولد حطمة وظفر أبي محارب^٢ .

وأما هنب بن أقصى ، فولد قاسط بن هنب وعمرو بن هنب وخندف بن
هنب . وأما عمرو بن هنب ، فهم بنو شيان . وأما قاسط ، فولد
عمرو بن قاسط والنمر بن قاسط ووائل بن قاسط . أمهم المسك بنت ثقيف .
وأما النمر بن قاسط ، فولد تيم الله وأوس الله وعائد الله وأمهم هند بنت
تيم بن مر وإخوتهم لأمهم بكر وتغلب ، وأخوهم لأمهم أيضاً اللب بن عبد
القيس . فأما تيم الله ، فولد الخزرج والحريث . وولد الخزرج سعداً . وأما
وائل بن قاسط ، فولد بكر بن وائل وتغلب بن وائل وعنز بن وائل . أمهم
هند بنت تميم بن مر . فأما عنز بن وائل ، فأولد أراشة ورفيدة . فمن أراشة
أشجع وغضاضة^٣ .

وأما تغلب بن وائل ، فولد غنم بن تغلب والأوس بن تغلب وعمران بن
تغلب . فأما غنم بن تغلب ، فمنهم معاوية بن عمرو بن غنم . ومنهم الأرقام ،

١ المعارف (ص ٤١) فما بعدها .

٢ المعارف (ص ٤٢)

٣ المعارف (ص ٤٢)

وهم : جشم ، ومالك ، وعمرو ، وثعلبة ، والحث ، ومعاوية بنو بكر بن حبيب بن عمرو . ومن بني تغلب عكب . ومنهم بنو عدي بن أسامة ، ومنهم بنو كنانة يقال لهم قريش تغلب . وهم بنو عكب . ومنهم جشم بن بكر ، ومن بني جشم بنو الحارث بن زهير ، رهط كليب بن ربيعة ، ومنهم بني زهير بنو عتاب .

وولد بكر بن وائل علي بن بكر ، ويشكر بن بكر ، وبدن بن بكر ، أمهم هند بنت تميم بن مر . ويقال لها أم القبائل . فأما يشكر ، فولد كعباً وكنانة وحرباً . وفي كعب العدد والشرف . فمن ولد كعب حبيب والعتيك ، ومنهم بنو غنم بن حبيب وثعلبة وجشم وعدي بن جشم^١ .
وأما علي بن بكر ، فولده صعب .. وولد صعب لجيماً وعكابة ومالكاً . فأما مالك ، فمنهم بنو زمان وعددهم في بني حنيفة . وأما لجيم ، فولد عجلًا وحنيفة . فأما عجل ، فولده ربيعة وضبيعة وسعد وكعب . فأما كعب وضبيعة فقليل .

وأما حنيفة بن لجيم ، فولده الدول وعدي وعامر وعبد مناة . فأما عبد مناة فهم قليل . وأما الدول ، فمنهم بنو هفان .
وولد عكابة بن صعب قيساً وثعلبة . فأما قيس ، فقليل ، وعددهم في بني ذهل . وأما ثعلبة بن عكابة ، فيقال له الحصن . وولد ثعلبة ذهلاً وشيبان وقيس وتيم الله وأتيداً وضنة . فأما وضنة ، فلحقت باليمن فصارت في بني عذرة . وأما أتيد ، فهي في بني شيبان . وأما تيم الله بن ثعلبة ، فهم اللهازم ، وهم حلفاء بني عجل . فولد تيم الله مالكاً والحارث وعامراً وهلالاً وذهلاً وزماناً وحاطمة ، فهؤلاء يقال لهم الأحلاف ، إلا الحارث وعامراً ومالكاً ، وسمي أولئك أحلافاً لأنهم تحالفوا على هؤلاء^٢ .

وأما قيس بن ثعلبة ، فولد ضبيعة وتيماً وسعداً . وفي ضبيعة العدد . وأما تيم بن قيس وسعد بن قيس ، فهما الحرقتان . وأما ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، فولد شيبان وعامراً . فأما عامر ، فيقال لها الوحيم . وأما شيبان ، فولده سدوس وفيه العدد ، وعمرو ومازن وعلباء وعامر وزيد مناة .

١ المعارف (ص ٤٣)

٢ المعارف (ص ٤٤)

فأما علياء ، فهم قليل . وأما شيان بن ثعلبة بن عكابة ، فولده : ذهل ،
وتيم ، وثعلبة ، وعوف . فأما عوف ، فلا عقب له . وأما ذهل بن شيان ،
فولد مرة بن ذهل ، وربيعة ، وعلم ، والحارث ، وعبد غنم ، وعوفاً ،
وصبحاً وشيآن ، وعمرو وأمه جذرة ، وهم يدعون بني الجذرة ، وهم
قليل^١ .

والأنساب التي دونتها ورتبتها ، لا تعني أنها أنساب كاملة ، كل شجرة
منها بأغصانها وأوراقها ، لم أترك نسباً ، ولم أهمل اسماً . بل هي خلاصة
الأنساب ، أخذتها كما رويت في كتاب (الإكليل) للهمداني وفي كتاب (المعارف)
لابن قتيبة . وقد ترك ابن قتيبة أسماء قبائل وبطون وأفخاذ ، لأنها لم تكن مثل
المذكورين في الشهرة . وبين (ابن قتيبة) وغيره من النسابين اختلاف كبير
في عرض الأنساب وترتيبها . ولما كان عملي هو وضع مخطط عام في النسب
لا غير ، فقد رأيت الاكتفاء بهذا الرسم الأولي ، وترك التفاصيل ومواطن
الخلافاً الى الراغبين في دراسة النسب المتعشقين له ، ليراجعوا الكتب الخاصة بها .
وغايتي من هذا المخطط ، هو تقديم جريدة صغيرة الى القارئ بأسماء قبائل عدنان
وقحطان ، ليقف عليها ، فعلى هذه المعرفة يتوقف فهم كثير من الأحداث .

الفصل العاشر

أثر التوراة

لهذا المدون في التوراة عن الإسماعيليين والقحطانيين ، وعن نوح وأولاده ، وعن الأنساب الأخرى ، أثر ظاهر على عمل أهل الأخبار والأنساب الذين اشتغلوا بموضوع النسب في الإسلام ، بل يظهر أن أثره كان فعالاً ومؤثراً حتى في الجاهليين ، وذلك لاتصالهم واختلاطهم بأهل الكتاب :

وكان لما جاء في القرآن الكريم مجملًا من أمر آدم ونوح والطوفان وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وغيرهم ، وما جاء فيه من أمر عاد وثمود وقوم صالح وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، أثر كبير أيضاً في أهل الأخبار والتفسير حملهم على البحث عنهم . والتفتيش عن أخبارهم من الأحياء المسنين الذين كانوا يقصون على جيلهم قصص الماضي وأخبار العرب المتقدمين ، ومن أهل الكتاب الذين كان لهم إلمام بما جاء في التوراة من الرسل والأنبياء والأمم القديمة والأنساب .

ويمكن حصر الروايات الواردة في الأنساب ، والمأخوذة من أهل الكتاب ورجعها إلى الطرق الأصلية التي وردت منها وإلى الأماكن التي ظهرت فيها ، وسنجد بعد البحث أن أكثر رواة هذا النوع من الأخبار كانوا قد استقوا من معين واحد . هم مسلمة أهل الكتاب ، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وعبدالله بن سلام ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجل من أهل تدمر عرف

بـ (أبي يعقوب) كان يهودياً فأسلم . وقد زود (ابن الكلبي) وغير ابن الكلبي بقسط من هذه الأسماء التي يستعملها النسابون في الأنساب : وكان (محمد ابن اسحاق) صاحب السيرة يعتمد على أهل الكتاب ، ويكثر الرواية عنهم ويسميهـم أهل العلم الأول^١ .

وقد استغل نفر من أهل الكتاب حاجة المسلمين هذه الى الوقوف على (البدء)^٢ أي مبدأ الخلق والتكوين ، وقصص الرسل والأنبياء ، وكيفية توزيع البشر ، فأخذوا يفتعلون ويضعون ويصنعون على التوراة والكتب اليهودية المقدسة ، يبيعونه لهم أو يتقربون به اليهم ، إدعاءً للعلم والفهم . قال الطبري (كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ، ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمناً قليلاً)^٣ .

أما ما ذكره من أن (أبا يعقوب) التدمري وجد في كتاب (بورخ بن ناريا) (كاتب أرميا) ، نسب (معد بن عدنان) فإنه كذب وتلفيق ، فليس في كتاب (بورخ) شيء من هذا النسب . وكتابه من جملة أسفار (الأبوكريفا) في نظر (البروتستانت)^٤ ، وهو مترجم الى العربية ومطبوع مع أسفار التوراة الأخرى ، في الترجمة (الكاثوليكية) ، وقد قرأناه فلم نجد فيه شيئاً من هذا الذي يذكره اليهودي الذي دخل في الإسلام . وليس لـ (بورخ) كتاب آخر فنقول

١ الفهرست (ص ١٣٦) ، « عن محمد بن اسحاق . قال حدثني بعض اهل العلم من اهل الكتاب » ، الاكلیل (٣١/١)

٢ « وفي كتاب البدء ، ونقله ابن سعيد » ، قيل للكتب التي تبحث في الخلق وبدء التكوين والانبياء « كتب البدء » ، قال المسعودي : « وما ذكره اهل التاريخ والمصنفون لكتب البدء ، كوهب بن منبه وابن اسحاق وغيرهما .. » مروج (٣٢٠/١) ابن خلدون (١٨/٢) ٣٤٤

٣ « وكان رجل من اهل تدمر يكنى ابا يعقوب من مسلمة بنى اسرائيل قد قرأ من كتبهم وعلم علمهم ، فذكر ان بورخ بن ناديا كاتب ارميا اثبت نسب معد بن عدنان عنده ووضعه في كتبه ، وانه معروف عند احباء اهل الكتاب وعلمائهم مثبت في اسفارهم ، وهو مقارب لهذه الاسماء ، ولعل خلاف ما بينهم من قبل اللغة ، لان هذه الاسماء ترجمت من العبرانية » ، الطبقات (١ ، ق ١ ، ص ٢٩) ، تفسير الطبري (٣٠٠/١) ، (٢٣١/٣)

Nallino, Raccolta, Vol. 3, P. 120, Sprenger, Mohammad, Vol. 3, P. CXXXIII, Goldziher, Muh. Stud. Bd. I, S. 178, Muir, Life of Muhamet, CVII, Bate, P. 117.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢٠٥/١)

لأنه وجدته فيه ، ولا يعقل أن يكون كتاب (بورخ) الذي قرأه نسخة خاصة لم توجد عند غيره من الناس ، حتى نحسن الظن به . وكل ما نجده في سفر (بورخ) مما قد يكون له علاقة بالعرب هو هذه الكلمات : (لم يسمع به في كنعان ولا تروى في تيان ، وبنو هاجر أيضاً المبتغون للتعقل على الأرض وتجار مرآن وتيان وقائلو الأمثال ومبتغو التعقل ، لم يعرفوا طريق الحكمة ولم يذكروا سبلها)^١ . وليس في هذه الكلمات كما نرى شيء ما له صلة بنسب (معد بن عدنان) .

فكنعان ، كناية عن الكنعانيين ، وليست لهم صلة بمعد أو بعدنان . وأما (تيان) فكناية عن أرض كانت في الجنوب الشرقي من (أدوم) ، وهي أرض (أبناء الشرق) ، وقد نسبت التوراة التينانيين الى (اليفاز بن عيسو)^٢ ، ونسبت اليهم الحكمة^٣ . وليست لهم علاقة أيضاً بأبناء معد ولا بعدنان .

وأما (بنو هاجر) (الهاجريون) (Hagrites) فانهم شعب سكن شرق أرض (جلعاد) ، وقد اختلف علماء التوراة في أصله ، فمنهم من عدّه قبيلة عربية ، ومنهم من عدّه من الآراميين ، ومنهم من رأى انهم (الإسماعيليون) . وقد ذكر الهاجريون مع أقوام من الآراميين في كتابة أخبار انتصارات (تغلا تيليس الثالث) (Tiglath-Pileser III) . وهكذا وجدنا أنفسنا غاجزين حتى في هذا الموضع من سفر (باروخ) من العثور عن أية صلة للكلمات المذكورة بنسب (معد بن عدنان) .

ويروي رواية الشعر وأهل الأخبار شعراً لعدي بن زيد العبادي ولأمية بن أبي الصلت ولنضر آخر من الشعراء في أحداث وأمرور توراتية . وهذه الأشعار إن صح أنها لهم حقاً ، دلت على وقوف أولئك الشعراء على التوراة ، أو على بعض أسفارها ، أو على قصص منها . أما عدي بن زيد ، فلا أستبعد وقوفه على التوراة ، فقد كان نصرانياً قارئاً كاتباً بالفارسية والعربية ، وربما كان كاتباً بلغة بني إرم كذلك ، لغة المثقفين في العراق يومئذ . وقد كان هو نفسه من

١ نبوة باروك ، الاصحاح الثالث ، الاية ٢٢ وما بعدها .

٢ التكوين ، الاصحاح ٣٦ ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ٢٩٦ وما بعدها)

٣ ارميا الاصحاح ٤٩ ، الاية ٧ وما بعدها .

المثقفين ثقافة عالية بالقياس الى زمانه ، وفي شعره زهد وتصوف وتدين وتأمل وتفكر ، فلا يستبعد إذن أخذه من التوراة ومن الأناجيل . وقد أورد (الهمداني) له أبياتاً في قصة آدم وحواء والجنة والحياة^١ . وهي أبيات فيها ركة وضعف ، ولكنها منتزعة من (سفر التكوين) من التوراة أخذت منه^٢ . وهي إن كانت من شعره ومن نظمه حقاً ، كانت أقدم شعر يصل إلينا في نظم بعض قصص التوراة بلغة عربية .

وأما (أمية بن أبي الصلت) ، فقد كان واقفاً على كتب اليهود والنصارى كما يذكر أهل الأخبار ، قارئاً لكتب الديانتين ، مطلعاً على العبرانية أو السريانية أو على اللغتين معاً ، إن كان واقفاً أي حائراً بين الديانتين ، فلم يدخل في أمية ديانة منها ، وإنما كان من الأحناف على حد تعبير أهل الأخبار ، لذلك لا يستبعد وقوفه على قصص توراني وإنجيلي ، وعلى الاستفادة منه في الشعر . ونجد في شعره ألفاظاً غريبة ، يذكر أهل الأخبار أنه أخذها من لغات أهل الكتاب ، فوضعها في شعره ، وشعره كما قلت في مواضع من هذا الكتاب يستحق من هذه الناحية الدرس والنقد ، لنرى الى أية درجة من الحق والصدق تصل دعاوى أهل الأخبار في شعر أمية ، وفي نسبه اليه . وهو إن ثبت أنه له ، كان أيضاً دليلاً على وقوف المثقفين من الجاهليين على كتب أهل الكتاب ، وشيوعه في الحجاز ، وكان أيضاً دليلاً على نظم بعض الشعراء لحوادث التوراة والإنجيل في شعرهم في ذلك العهد :

ونجد في شعر (أمية بن أبي الصلت) وأمثاله من المتصلين بأهل الكتاب القارئون لكتبهم كما يذكر أهل الأخبار ، فائدة كبيرة لنا في تكوين رأي عام عن وقوف العرب على الآراء التوراتية في الجاهلية ، وفي جملة ذلك أنساب التوراة . وفي الشعر المنسوب الى (أمية) آراء مستمدة من التوراة ، مثل شعره في (نوح) وفي قصة (الطوفان) والغراب والحمامة وبقية حكاية الطوفان الى زواله ، فإنه إن صح دل على وقوف (أمية) على خبر قصة (الطوفان) الواردة في السفر السادس فما بعده من التكوين . فإن ما جاء في هذا الشعر هو اقتباس

١ الاكليل (٢٩/١) وما بعدها

٢ الاصحاح الثاني وما بعده

لما ورد في تلك الأسفار^١ : ونجد له أشعاراً أخرى إن صحت نسبتها إليه ، دلّت على أنه كان على اتصال بأهل الكتاب ، وعلى أخذٍ منهم . ولعله كان يغرف من قصصهم الذي كان يشرح للناس ما جاء في التوراة ، أو أنه كان يراجع ترجمات التوراة كانت بعربية أهل الكتاب في ذلك العهد ، أو يسمع منهم ترجمة التوراة سماعاً فوقف على بعض ما جاء فيها ، وفي جملة ذلك هذا القصص ، وربما الأنساب المتعلقة بالعرب كذلك .

وحكاية (أمية) عن الطوفان أقرب الى التوراة من حكاية (الأعشى) أبي بصير ميمون بن قيس ، عن الطوفان . وذلك إن صح أن ذلك الشعر من نظمه حقاً . فإن العناصر التوراتية فيه ليست بارزة واضحة وضوحها في شعر أمية : ويظهر من بعض الجمل الواردة في شعر الأعشى عن الطوفان مثل :

ونادى ابنه نوح وكان بمزل ألا اركب معي واترك مصاحبة الكبر

فقال :

سأوي نحو أعيط مشرف بطول شنان السماء ذي مسلك وعر^٢

ومثل :

ونجا لنوح في السفينة أهله ملاحكة الألواح معطوفة الدر
فلما استوت من أربعين تجرمت تناهت على الجودي أرسى فما تجري^٣

ومن مضمون القصة نفسها ، ان المنبع الذي استقى منه الشاعر (الطوفان) هو القرآن الكريم ، ومن يراجع الآيات المنزلة عن (نوح) وعن الطوفان وعن ابنه ، وكيف امتنع عن الركوب معه بالرغم من إلحاح نوح عليه ، يجزم أن الشاعر المذكور قد أخذ الطوفان من القرآن الكريم ومن موارد اسلامية ، واستعمل ألفاظاً وتراكيب وردت في كتاب الله ، ولم ترد في التوراة :

١ راجع التكوين ، الاصحاح السادس فما بعده ، الاكليل (١٨/١ وما بعدها)
٢ « الكبر » هكذا ضبطت في الاكليل (٥٢/١) ، وارى ان لفظة الكفر انسب الى المعنى من هذه اللفظة .
٣ الاكليل (٥٢/١)

واني أشك في كون هذا الشعر من شعر (الأعشى) . فالأعشى رجل لم يسلم
وان أدرك أيام الرسول ، كان قد قصد الرسول ، ونظم قصيدة في مدحه ،
ولكن قريشاً أثرت عليه ، وحالت بينه وبين الوصول الى الرسول ، وعاد الى
(منفوحة) بلدته ، فمات بها دون أن يسلم . والرأي عندي ان تلك الأبيات ،
هي من صنع مسلم ، وضعها على لسانه .

ولا يعني شكّي في صحة نسبة هذه الأبيات الى الأعشى ، ان الأعشى كان
بعيداً عن آراء ومعتقدات أهل الكتاب ، غير واقف على أخبارهم وعقائدهم .
فقد كان الأعشى جوالاً جواً زار العراق وبلاد الشام ، اتصل بقبائل نصرانية ،
وجالس اليهود والفرس والروم ، ووردت في أشعاره ألفاظ من ألفاظ الحضارة
الأعجمية ، كما وردت فيها أفكار تدل على وقوف على آراء وأفكار دينية
وخواطر فلسفية ، فرجل مثل هذا لا يستبعد وقوفه على قصص يهودي ونصراني
وعلى آراء دينية لأهل الكتاب . وللحكم على مقدار فهمه لها ، يمكن بالطبع
دراسة ما ورد في الشعر على لسانه ، ومطابقته بما نعرفه من آراء القوم لنقف
على درجة صلة ما جاء في شعر الأعشى من آراء ومعتقدات بأراء أهل الكتاب
ومعتقداتهم .

أما الأماكن التي ظهرت فيها هذه الروايات الاسرائيلية ، فهي : اليمن ،
والمدينة ، والعراق . ومن العراق الكوفة بصورة خاصة . وقد كان في كل هذه
المواضع رجال من أهل الكتاب موتوا أهل الأخبار بما كانوا يرغبون في معرفته ،
ولم يكن هؤلاء على قدر واحد في المعرفة والفهم ، والظاهر ان منهم من لم يكن
له إلمام بالتوراة ولا بالتلمود وغيرهما من الكتب ، وانما أخذ ذلك من أهل النظر
منهم ، أو كما وصل اليه من أهله وحاشيته ، ولذلك اضطرب الأخباريون في
بعض الأحيان في رواية خبر واحد ، كما اختلفوا في ضبط الأسماء . وقد علل
ابن خلدون اختلافهم في ضبط الأسماء بقوله : « واعلم ان الخلاف الذي في
ضبط الأسماء انما عرض في غارج الحروف ، فان هذه الأسماء انما أخذها العرب
من أهل التوراة ، وغارج الحروف في لغتهم غير غارجها في لغة العرب . فاذا
وقع الحرف متوسطاً بين حرفين من لغة العرب ، فترده العرب تارة الى هذا
وتارة الى هذا . وكذلك إشباع الحركات قد تحذفه العرب اذا نقلت كلام العجم ،
فن ها هنا اختلف الضبط في هذه الأسماء »^١ .

١ ابن خلدون (٥/٢)

والحق هو ان هذا الخطأ لم يقع في ضبط الأسماء فقط ، بل وقع في أمور جوهرية أخرى ترىنا جهل بعض الرواة بجدول الأنساب ، وترينا الخلط أحياناً بين الروايات الاسرائيلية والروايات الايرانية حتى تكون من هذا المجموع المدون في الكتب الإسلامية عن الأنساب خليط من روايات اسرائيلية وروايات فارسية وقصص شعبي عربي ، يجوز أن نضيف اليه عنصراً آخر هو الوضع ، فقد وضع الرواة شيئاً من عندهم حين عجزوا عن الحصول عليه من الموارد الثلاثة المذكورة ، وكان لا بد لهم من سد تلك الثُغْر ، فسدّوها بما جادت به قرائحهم من شعر ونثر . ومن هذا القبيل ، ما أدخلوه على التوراة أيضاً من أنساب زعموا أنها وردت في التوراة ، وليس لها في الواقع وجود فيها .

خذ آدم ، فقد صيّرهُ الأخباريون (كيومرث)^١ وهو من الفرس ، وخذ نوحاً ترّاه صار (افريدون) عند أهل الأخبار وهو من الفرس أيضاً^٢ ، وجعلوا (لاوذ) ابناً من أبناء إرم من سام أخني عوص وكاثر^٣ ، مع انه (لود) في التوراة ، وهو شقيق إرم بن سام ووالد عوص وجاثر^٤ ، وقالوا أشياء أخرى لا وجود لها في التوراة .

أما متى دخلت أنساب التوراة الى العرب ، ومتى ظهرت وشاعت بينهم ، فنحن لا نستطيع أن نحدد ذلك على وجه مضبوط بالقياس الى أيام الجاهلية . ولكننا نستطيع أن نقول انها كانت قد تسربت الى الجاهليين من اليهود ، وذلك بوجودهم في الجزيرة العربية واتصالهم بالعرب ، وقد يكون من النصارى أيضاً ، وقد تفشت في أماكن من جزيرة العرب وبين بعض القبائل ، وان هؤلاء أي أهل الكتاب هم الذين أشاعوا بين الجاهليين هذه الأنساب . وقد تكون لليهود يدٌ في اشاعة خبر رابطة النسب وأواصر القربى التي تربط بينهم وبين العرب ، وذلك للتأثير عليهم وللتقرب منهم ، وللسكن بينهم بهدوء وسلام .

ونستطيع أن نقول جازمين ان هذا القصص الإسرائيلي ، وهذه الأنساب التي يرويها أهل الأخبار ، لم تكن كثيرة الشيوخ بين الجاهليين ، وانما هي شاعت

١ ابن خلدون (٥/٢)

٢ ابن خلدون (٦/٢)

٣ ابن خلدون (٧/٢) .

٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٢ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ،

الآية ١٧ ، Hastings, P. 557.

وراجت في الإسلام ، وذلك للأسباب المذكورة ، ومروجوها وناشروها هم زمرة تحدثت عنهم في مواضع متعددة من هذا الكتاب .

ونحن لا يهمننا هنا من الأنساب الواردة في التوراة الا الأنساب المتعلقة بالعرب وبالشعوب العربية ، ومعنى هذه الأنساب الخاصة بذرية (سام) و (كوش) : ويهمننا من ذرية (سام) ذرية (إرم) و (لود) و (أرفخشذ) ، حيث ألحق النسابون هؤلاء قبائل العرب . أما أشور و (عيلام) ، وهما بقية أبناء (سام) ، فليس لذريتهم علاقة بالعرب ، فليس لنا كلام عنهم في هذا المكان .

وأولاد سام في التوراة ، هم خمسة : (عيلام) ، و (أشور) ، و (أرفكشاد) ، و (لود) ، و (أرام)^١ . وقد ضبط الأخباريون الأسماء على هذه الصورة : (أشوذ) ، و (أرفخشذ) ، و (عليم) (عويلم) (عيلم) ، و (لاوذ) و (إرم)^٢ . وأضافوا اليهم (عابراً) ، فصيروا أخاً للمذكورين وابناً من أبناء (سام) . أما في التوراة فإن عابراً هو حفيد حفيد (سام) ، وليس بابن له ، وقد سبق نسبه فيها على هذه الصورة : (عابر بن شالح بن أرفكشاد ابن سام) . وكان إبراهيم هو السابع من أعقابه^٣ .

ونجد الطبري يروي في مكان من تأريخه أن أولاد سام ، هم : (أرفخشذ ابن سام ، وأشوذ بن سام ، ولاوذ بن سام ، وعويلم بن سام)^٤ ، فهم أربعة . وقال بعد اسم (عويلم بن سام) مباشرة : (وكان لسام إرم بن سام)^٥ مما يدل على أن المورد الذي نقل منه الطبري روايته لم يكن على علم تام بخبر أم (إرم) ، ويؤيد هذا الاستنتاج قوله : (قال : ولا أدري إرم لأم أرفخشذ واخوته أم لا ٦٩) . وقد قال هذا المورد إن أم أبناء سام المذكورين هي :

-
- ١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٢ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ١٧
 - ٢ ويرد إرم في بعض الكتب إرام وإرم ، الطبري (١٠٣/١) ، ابن خلدون (٧/٢) ، الكامل ، لابن الاثير (٣١/١) ، التيجان (٢٥) .
 - ٣ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢١ ، ٢٥ ، والاصحاح الحادي عشر ، الآية ١٤ فما بعدها ، واخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الآية ١٩
 - ٤ الطبري (٢٠٣/١) « دار المعارف » .
 - ٥ المصدر نفسه
 - ٦ كذلك

(صليب ابنة بتاويل بن محويل بن خنوخ بن قيس بن آدم) فيكون عدد أولاد (سام) خمسة أيضاً وهو العدد المذكور في التوراة إلا أننا نرى تبايناً بين روايتي الطبري والتوراة في الترتيب وفي الضبط : ضبط الأسماء .

ونجد الطبري يروي في مكان آخر أن أولاد سام ، هم : عابر ، وعليم ، وأشوذ ، وأرفخشذ ، ولاوذ ، وإرم . وذكر أن من ولد (أرفخشذ) الأنبياء والرسل وخيار الناس والعرب كلها والقراعة بمصر^٢ . ويظهر من هذه الرواية أن ولد سام هم ستة ، وقد نتج ذلك عن ضم (عابر) الى ولد سام . وهو ضم مخالف لما جاء في التوراة . ولورفعنا اسم (عابر) من الأسماء المذكورة ، لصارت بقية الأسماء خمسة ، وقد رتبنا على وفق ما ورد في (سفر التكوين) : ف (عليم) هو (عيلام) ، و (أشوذ) ، هو (آشور) ، و (أرفخشذ) ، هو (أرفكشاد) ، و (لاوذ) ، هو (لود) ، و (إرم) هو (أرام) .

وليس في التوراة ذكر لأبناء (لود) ، أي (لاوذ) أهل الأخبار والأنساب . وكل ما فيها أن له نسلاً ، وقد عرفوا بـ (اللوديين) . وقد ذكروا مع (كوش) و (فوط) مما يبحث على الظن أنهم إفريقيون^٣ . ولورود اسم جدتهم (لود) مع (آشور) و (أرام) و (عيلام) ، يرى علماء التوراة أن اللوديين الذين هم من نسل (لود بن سام) هم شعب من شعوب الشرق الأدنى ، لا تبعد مواطنهم عن البابليين والآشوريين ، وأنهم غير (اللوديين) الإفريقيين ، اللوديين المنحدرين من صلب (مصرايم) ، أي (مصر) المذكورين أيضاً في التوراة^٤ .

ولهذا فإن الأولاد الذين نسبهم أهل الأخبار الى (لود) ، (لاوذ) ، وهم : طسم وعليق ، وجرجسان ، وفارس على رواية ، وجديس ، وأميم ، وعبد ضخم على رواية أخرى^٥ ، وأمثالهم ممن لم نذكر من الأولاد ، هم هبة منحها

١ الطبري (٢٠٢/١ وما بعدها)

٢ الطبري (٢٠٥/١) ، التيجان (٢٥) ، الكامل (٣١/١)

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٩٩/٢) فما بعدها ، أرميا ، الاصحاح السادس والاربعين ، الآية ٩ .

٤ التكوين الاصحاح العاشر ، الآية ١٣ ، حزقيال ، الاصحاح ٢٧ الآية ١٠ ، الاصحاح

٣٠ ، الآية ٥ ، قاموس الكتاب المقدس ، (٢٩٩/٢) ، Hastings, P. 557

٥ الطبري (١٠٣/١) ، ابن خلدون (٧/٢)

Sprenger, in ZDMG., 17 (1863), S. 373.

أهل الأخبار والأنساب لـ (لاوذ) لا نجد لها ذكراً في التوراة :
 إن (عمليقاً) ، الذي هو جد العماليقة على رأي أهل الأخبار ، وليس من
 نسل (لود) في التوراة ، بل هو جد (أول الشعوب)^١ ، لذلك يبدو تجاسر
 أهل الأخبار بمنح (لود) أولاداً عملاً غريباً ، والظاهر أن (ابن الكلبي) واليه
 ترجع أكثر هذه الروايات ، أو أحد من سألهم عنهم ، اختاروا (لوداً) من
 بين أبناء (سام) ففتحوه أولئك الأولاد . وكان لا بد لهم من نسبتهم الى أحد
 الأجداد المتقدمين القحطانيين ، لأنهم أقدم منهم في نظرهم ، فاختاروا لهم
 ذلك الأب .

أما (أرام) ، وهو (إرم) عند أهل الأخبار ، فقد أولد أولاداً على ما
 جاء في التوراة ، وهم : (عوص) (UZ) ، و (جائر) (كائر) (غائر)
 (Gether) ، و (حويل) ، (حول) (Hul) ، و (ماش) (Mash)^٢ . وقد ذكروا
 في موضع من التوراة أنهم أبناء (سام)^٣ ، وذلك جرياً على طريقة العبرانيين
 في حذف اسم الأب أحياناً ، وإلحاق الحفدة بالجد مباشرة^٤ .

وقد عرف أهل الأخبار هذه الأسماء^٥ ، إلا أنهم قدّموا وأخروا فيها كما
 حرفوا فيها بعض التحريف ، وقد اختار أهل الأخبار (عوصاً) ، فجعلوا له
 أولاداً هم : عاد ، وعيل^٦ ، وغائر بن عوص ، واختاروا (جائر) فجعلوا
 له (ثموداً)^٧ و (جديساً)^٨ . وقالوا عنهم : (وكانوا قوماً عرباً يتكلمون بهذا

-
- ١ العدد ، الاصحاح ٢٤ ، الآية ٢٠ ، قاموس الكتاب المقدس ، (١١٢/٢) .
 - ٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٣
 - ٣ اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ١٧
 - ٤ « ولا يستغرب ذلك ، لان من عوائد العبرانيين في جدول أنسابهم انه كثيرا ما
 ينزلون الحفدة واولادهم منزلة الاولاد من الجيل الاول » ، قاموس الكتاب
 المقدس (١٢٦/٢) .
 - ٥ سفر التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٣
 - ٦ الطبري (٢٠٤/١ ، ٢٠٧) ، الكامل (٣١/١) ، مروج (٢٤/١) (٣١/١) « طبعة
 محمد محيي الدين عبد الحميد »
 - ٧ الطبري (١٠٣/١) ، (٢٠٧/١) « دار المعارف » ، مرو
 محيي الدين عبد الحميد .
 - ٨ الطبري (٢٠٤/١ ، ٢٠٧) « دار المعارف » .

اللسان المضري) ^١ . ولا نجد في التوراة ولا في اليهوديات ذكراً لهؤلاء الأولاد الذين منحهم أهل الأخبار (عوص) أو (غائر) (جائر) . إذن فالنسب المذكور هو من صنع الأخباريين .

و (أرام) هو جد (بني إرم) أي (الآراميين) . وهم قوم معروفون فلا حاجة إلى التحدث عنهم . وأما (عوص) فهو جد (العوصيين) ، سكان أرض (عوص) موطن (أيوب) (Job) ، إلا أن العلماء لم يتفقوا في تعيين مكانه ^٢ . فذهب بعضهم إلى أنه (دمشق) و (اللجاء) (اللجاة) مستندين في ذلك إلى رواية (يوسيفوس) ، وذهب آخرون إلى أنه (أورفا) على الفرات ^٣ ورأى بعض أنه في (نجد) ^٤ ، وذهب بعض آخر إلى أنه (أدوم) أو العربية الشمالية ^٥ ، ورأى (كلاسر) أنه في شمال غرب (المدينة) ^٦ ، ورأى غيره أنه في مكان ما من جزيرة العرب أو من بادية الشام ^٧ .

وقد استدلل بعض الباحثين من سفر (أيوب) وما ورد عنه : ومن اسمه على أنه كان عربياً ، عاش بين العبرانيين ، أو أن بعضهم اختلط به ، فدوّن أخباره وقصصه ^٨ . وقد أمدت كتب (الهكادة) (Haggadah) و (التلمود) و (المدارش) اليهود وأهل الأخبار بقصص عنه وعن أصدقائه الخلفاء الذين لازموا ^٩ .

نرى مما تقدم أن الأخباريين قد ربطوا نسب العرب البائدة أي العرب الأولى بالإرميين (الآراميين) وباللوديين (اللاوذيين) وبالعوصيين وبالجاثريين (الغاثريين) . ولا نجد في كتبهم الأسباب التي حملتهم على رجوع أنساب هؤلاء العرب إلى هؤلاء الآباء . ويظهر أن فكرة وجود عرب أولى عاشت قبل القحطانيين والعدنانيين ،

١ الطبري (٢٠٤/١)

٢ قاموس الكتاب المقدس (١٢٦/٢)

Enc. Bibl. P. 5238, Hastings, P. 956, Musil, Hegaz, P. 248.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١٢٦/٢) Josephus, Ant. I, VI, 4.

٤ قاموس الكتاب المقدس (١٢٦/٢)

Hastings, P. 956.

Hastings, P. 956.

Hastings, P. 956, Enc. Bibl. P. 5238.

Margoliouth, The Relations, P. 31. f.

٩ « الطبعة الجديدة » Enc., I, P. 795.

جعلت أهل الأخبار يبحثون عن آباء لهم ، يكونون أقدم عهداً من (قحطان) ومن (عدنان) ، فنسبوا أولئك العرب الى (لود) و (أرام) ابني سام ، والى (عوص) و (جاثر) ابني (أرام) ، وهم أقدم عهداً من جدي القحطانيين والعدنانيين .

أما أثر التوراة على النسابين وأهل الأخبار بالنسبة الى الطبقة الثانية من العرب ، الطبقة التي دعاها العرب العاربة ، والعرب القحطانيون ، فقد ذكرت في الفصل الخاص بهؤلاء العرب ان (قحطان) جد القحطانيين ، هو (يقطان) في التوراة . وقد نسبه أكثر أهل الأخبار الى (عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح)^١ . وصيره بعضهم ابناً من أبناء سام . وقد ذكرت ان النسب الثاني نسب مغلوط ، وان نسبه المذكور في التوراة يجعله الابن الثاني الأصغر لـ (عابر) . أما الولد البكر فهو (فالج) ، فيكون العبرانيون واليقطانيون أبناء عم وفق هذا النسب . وقد ذهب بعض الباحثين في التوراة الى ان (يقطان) لا وجود له ، وانما ابتدع ابتداءً لاجناد صلة بين العرب والعبرانيين^٢ .

وقد ذهب بعض الباحثين في التوراة الى ان عابراً ، جد قبيلة كبيرة ، انقسمت على نفسها الى قسمين : قسم بقي فيما بين النهرين ، وهو القسم الذي عرف بذرية (فالج) ، ومن هذه الذرية انحدر (العبرانيون) ، وقسم ترك (ما بين النهرين) وارتحل الى جزيرة العرب ، وهو القسم الذي عرف بـ (يقطان) ، ودليلهم على ذلك ان معنى (فالج) هو (الانشقاق) و (الانقسام) ، وان في آياته (قسمت الأرض) على رواية التوراة^٣ . ومعنى ذلك انقسام ذرية (عابر) ، وانشطارهم الى شطرين .

وقد ذكر (الطبري) ان (بني يقطن) لحقت باليمن ، فسميت اليمن حيث تيامنوا ، ومصدر خبره هذا (ابن هشام) ، وقد أخذ (ابن هشام) خبره هذا من أهل الكتاب ولا شك .

١ « ويقطن : هو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح » ابن سعد الطبقات (ح ١ ، ق ١ ، ص ١٨ وما بعدها) ، الطبري (٢٠٧/١) دار المعارف

٢ Hastings, P. 491.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١٤٩/٢) ، التكوين ، الاصحاح العاشر الاية ٢٥ Hastings, P. 490, 697.

٤ الطبري (٢٠٩/١) « طبعة دار المعارف »

ويشك بعض دارسي التوراة في كون (يقطان) المذكور هو (قحطان) الذي يذكره علماء الأنساب ، ويرون ان نظرية من يجعل قحطاناً هو (يقطان) ، فظرية لا تستند الى أساس ، وانما وضعت على التشابه الموجود بين اللفظين، وهذا التشابه هو الذي دفع علماء الأنساب الى اعتبار (قحطان) (يقطاناً) ، فن ثم صار (يقطان) جدّاً للعرب القحطانيين^١ . ولكنهم لا ينكرون مع ذلك أن (يقطان) التوراة ، هو جدّ قبائل ذكرت التوراة أسماءها، وبعضها قبائل عربية معروفة ، فلا يستبعد أن يكون (يقطان) على رأيهم كناية عن قبائل عربية لم يكن العبرانيون على علم بها تمام العلم^٢ .

ولم ترد في القرآن الكريم لفظة (قحطان) أو (يقطان) . ولم ترد كذلك في الكتابات الجاهلية . أما الشعر الجاهلي ، فقد وردت فيه في مواضع الفخر والحماسة . واذا وافقنا على أنها وردت في الجاهلية القريبة من الإسلام، فإن موافقتنا هذه لا تعني أن قدماء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام كانوا على علم بـ (قحطان) ، أو ان قوماً منهم كانوا ينتمون اليه وينسبون بنسبه ، فحكم مثل هذا لا بد أن يستند الى كتابات وأدلة مقبولة. ولهذا رأى نفر من المستشرقين ان الأخباريين جاؤوا بقحطانهم هذا من التوراة ، من تأثرهم بأهل الكتاب ، ومن مطالعتهم للتوراة ، فحولوا النزاع الذي كان بين أهل اليمن وفيهم (سبأ)، والنزاع الذي كان بين أهل مكة وبين أهل مكة ويثرب التي ينتمي أهلها الى اليمن الى نزاع بين جدّين ، وصار (قحطان) وليد (يقطان) (يقطن) جدّاً حقيقياً ليمن ولمن نسب نفسه اليهم من الأفراد والقبائل^٣ .

وقد ورد في جغرافيا (بطليموس) اسم قريب من (قحطان) هو (كتنيته) (كتانيتيه) (Katanitae)^٤ ، قد يكون دليلاً على وجود أسماء عند الجاهليين قريبة من (قحطان) . أما هذه التسمية ، فإننا لا نستطيع أن نقول ان لها علاقة بقحطان . فالتشابه في التسميات ، لا يكون دليلاً قاطعاً على وحدة تلك

Hastings, P. 491. ١

Hastings, P., 490. ٢

Enc. Vol. 2, P., 629. ٣

Ptolemy, Geogr. VI, 7, 20, Glaser, Skizze, Bd., 2, S., 283, Knobel Die Voelkerstafel der Genesis, S. 185, The Historical Geography, Vol. I, P. 80, O'Leary, P. 18. ٤

التسميات . وقد ورد في الموارد العربية اسم قبيلة عرفت بـ (قطن) و بـ (بني قطن) ، كما ورد اسم مكان عرف بـ (جوّ قطن) ، واسم مدينة تدعى (قحطان) ، تقع بين (زبيد) و (صنعاء)^١ . لهذا أرى ان من الخير لنا ألا نتخذ موقفاً خاصاً لا سلباً ولا إيجاباً تجاه هذا الموضوع انتظاراً لاستكمال العدة والحصول على مواد جديدة تكفي لإصدار حكم فيه .

أما بلاد (اليقطينين) ، على رأي التوراة ، فتمتد من (ميشا) (Mesha) الى (سفار) (Sephar)^٢ . ولم تذكر التوراة حدوداً جغرافية لها غير هذين الحدين . ولا يعرف العلماء عن موضوع (ميشا) شيئاً . فذهبوا في تعيينه لمذاهب . ذهب بعضهم الى انه (مسينة) أو (ميسان) (Mesene) على رأس الخليج العربي^٣ ، وذهب آخرون الى انه (موزح) أو (موسج) في نجد^٤ ، ورأى آخرون انه (ماشو) (Mashu) أو (ماش) (Mash) ، أي بادية الشام في الكتابات الآشورية^٥ .

وذهب (ديلمن) (Dillmann) الى ان (ميشا) ، تحريف (مسا) (Massa) ، وهو اسم أحد أبناء اسماعيل ، فتكون حدود (اليقطينين) على رأيه بعد حدود أرض (مسا) ، من قبائل الإسماعيليين مباشرة ، غير اننا لا نستطيع مع ذلك من تعيين الموضع^٦ ، لأننا لا نعلم أيضاً أين كانت مواطن (مسا) من قبائل الإسماعيليين ، فكيف ثبتت هذه الحدود ؟
وأما الحد الآخر ، وهو (سفار) ، فهو الحد الجنوبي للبلاد (اليقطينين) ، وذلك باجماع آراء علماء التوراة . ولكنهم يختلفون في تعيين الوضع فقط ، فمنهم من رأى أنه (ظفار) عاصمة الحميريين ، ومنهم من يرى أنه (ظفار) حضرموت التي اشتهرت شهرة واسعة في العالم القديم ، وورد ذكرها في الكتب (الكلاسيكية)^٧ .

١ احسن التقاسيم (٨٣/٣ ، ٩٤) ، « الطبعة الثانية »
Enc. Vol. 2, P. 629, Glaser, Skizze, 2 S. 288.

٢ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٣٠

٣ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٩/٢) ، Hastings, P. 606.

٤ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٩/٢)

٥ Hastings, P., 607, Delitzsch, Wo Lag ?, S. 242.

٦ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الآية ١٤ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الآية ٣٠
Enc. Bibl., P. 3040.

٧ Enc. Bibl., P., 4370, Ritter, Erdkunde, 14, 372, Sprenger, Alte Geogr. S. 185, Skizze, 2, S. 437, Hastings P. 836.

ومن المرجح أن تكون هي الموضع المقصود ، وذلك لشهرتها هذه ولقدمها .
وقد جعلت التوراة لـ (يقطان) أولاداً ، عدتهم فيها ثلاثة عشر ولداً ،
هم : الموداد ، وشالف ، وحضر موت ، ورياح ، وهودرام ، وأوزال ،
ودقلة ، وعوبال ، واببايل ، وشبا ، وأوفير ، وحويلا ، ويوباب^١ . وهذه
الأسماء ، هي أسماء قبائل ، وأمكنة ، اعتدّها كتبة التوراة على عادة ذلك العهد
أسماء أعيان ، وصيروها أسماء أولاد (يقطان) .

ولا يعني هذا العدد ، في نظري ، أنه جميع القبائل العربية التي كانت تقيم
في مواطن (اليقطينين) ، وإنما هو حاصل ما بلغ إليه علم كتبة تلك الأسفار
في ذلك اليوم من أمر هذه القبائل ، ولم تكن معارف أولئك الكتبة يومئذ أكثر
من هذا الذي ذكروه ودونوه . على نحو ما وصل إلى علمهم ومسامعهم ، فهو
لهذا لا يمثل أيضاً ترتيباً جغرافياً للأماكن المذكورة ولا سرداً على نسق معين
مضبوط^٢ .

ونحن إذا أنعمنا النظر في هذه الأسماء نجد أنها قد كدّست في منطقة ضيقة ،
هي اليمن وحضر موت . أما ما فوقها إلى (ميشا) نهاية الأرض اليقطينية في
الشمال ، فلم يذكر الكتبة من أسماء قبائلها شيئاً ما . وهو يدل على أنهم لم يكونوا
يعرفون عن باطن جزيرة العرب شيئاً ، أو أن موضع (ميشا) في مكان آخر
في غير هذا الموضع الذي تصوره علماء التوراة ، كأن يكون في شمال اليمن
مثلاً ، وبذلك يستقيم التحديد كل الاستقامة مع ما هو شائع معروف من أن
أرض اليمن وبقية العربية الجنوبية هي أصل موطن القحطانيين .

ويظهر أن كتبة النسب في التوراة لم يراعوا في عددهم أسماء أبناء يقطان الترتيب
الجغرافي ، أو قرب اليقطينين وبعدهم عن العبرانيين . فهذا الترتيب ، لا يشير
— في الحقيقة — إلى أن الأسماء وضعت على أساس جغرافي . والظاهر أنها جمعت
كما وصلت إلى مسامع العبرانيين من غير فحص أو تدقيق ، كما أننا لا نستطيع
أن نؤكد أنها وصلت صحيحة سالمة من غير تصحيف أو تحريف .

و (الموداد) (مودد) (المودد) (Al-Modad) ، هو الابن البكر

١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٦ فما بعدها

٢ Enc. Bibl. P. 2564, Hasings, P., 490.

ليقطن على ما يفهم من التوراة . وهو رمز عن شعب من الشعوب البقطنانية ، يرى نفر من علماء التوراة أن مواطنه في العربية الجنوبية . قد يكون في جنوب غربي جزيرة العرب^١ . وقد وردت في النصوص العربية الجنوبية وفي نصوص غير عربية كلمات قريبة من هذه الكلمة، مثل (موددى) في البابلية ، و(مودادو) (موددو) في البابلية أيضاً وفي (الأمودية)^٢ . ووردت لفظة (مودد) في كتابات (جبانية) (كبانية) (Gebanitae) ، في نصوص تدل على تقرب ملوك (جبان) (جن) (كبن) (جبان) من ملوك معين ، وإلى سيادة (معين) على (الجبانين) في ذلك الحين . فورد (مودد ملك معين) بمعنى (المتودد لملك معين) و (المحب لملك معين) . ويرى (كلاسر) أن هذه الجملة لا تعني (أحباء ملوك معين) وأصفىاهم ، وإنما تحكي وظيفة لها علاقة بالإله (ود) ، مثل كهانة الإله (ود) وسدائنه . ومسكن هؤلاء (الجبانين) في الزاوية الجنوبية الغربية لجزيرة العرب^٣ ، كما ورد اسم (مودد) في الكتابات السبئية^٤ ، وفي كتاب الإكليل للهمداني . وقد ذكره قبل (السلف) ، مما يدل على أنه اسم مكان مجاور للسلف^٥ .

وأورد (بطلميوس) في الجغرافيا اسم شعب عربي دعاه (Allumaeotae) يرى (فورستر) أنه شعب (الموداد) الذي نتحدث عنه . ويقع مكان هذا الشعب في جغرافيا (بطلميوس) جنوب (الجرعاء) (Gerraea) (Vicus Jerachaeorum) ، ويتصور أنه على ساحل الخليج العربي عند (قطن)^٦ . وأما (شالف) (Sheleph) الذي ورد في التوراة بعد (الموداد) ، فلم يتمكن العلماء من تشخيصه أيضاً^٧ . ويرى بعضهم أنه شعب (Salepeni) المذكور في جغرافيا (بطلميوس)^٨ : ويرى آخرون أنه (السلف) ، وهم بطن من

١ Hastings, P. 22, Dictionary of the Bible, I, P., 50, By W. Smith.
٢ Enc. Bibl. P. 116, Hommel, A. H. T., S., 113, Early Babylonian Personal Names, P. 30, Montgomery, Arabia and the Bible, P. 40.

٣ Glaser, Skizze, 2, S. 425.

٤ Ency, Bibl. P. 116, ZDMG. 37, 13, 18.

٥ الإكليل (١١٦/١) وما بعدها

٦ Forster, Vol. I, P. 107, F.

٧ Hastings, P., 846, Enc. Bibl. P. 4448, Montgomery, Arabia, P. 40.

٨ Forster, Vol. I, P. 109. f.

ذي الكلاع من حير ، وهو (السلف بن يقطن)^١ ، أو (السلاف) ، أو (بنو سلفان)^٢ . و (السلف) أقرب هذه الأسماء الى (شالف) ، وخاصة اذا أخذنا بما قاله النسابون من انتساب هذه القبيلة الى جدّ أعلى هو (السلف ابن يقطن) ، وذكر (نيبور) في رحلته اسم موضع في اليمن يقال له (سلفية) ، قد تكون لاسمه علاقة بـ (شالف)^٣ . وفي منطقة (يريم) يمر يقال له (نجد الأسلاف)^٤ ، وقد رأى (كلاسر) احتمال وجود صلة بينه وبين (شالف)^٥ . وأما (حزرماوث) ، (Hazarmaveth) ، فهو (حضر موت) . ومعلوماتنا عن هذا الشعب حسنة بفضل الكتابات الجاهلية التي عثر عليها في العربية الجنوبية ، والتي ترجم عدداً منها المستشرقون . وسأحدث عنهم في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب .

وأما (يارح) (Yerah) ، فان معناه (قمر) و (شهر) ، ولهذا ذهب بعض الباحثين الى انه اسم قبيلة عربية . وبين العرب قبيلة تعرف بـ (بني هلال) ، فلا يبعد أن يكون (يارح) اسم قبيلة^٦ . وقد عثر في كتابات تدمر على اسم (يارح) ، وقد ورد اسم علم^٧ ، كما ان اسم (شهر) من الأسماء المعروفة عند الجاهليين ، وقد سُمّي به عدد من الملوك الذين عاشوا قبل الميلاد وبعده . ويرى (كلاسر) ان الشعب كان يقيم في (مهرة) ، أو في جنوب عمان في موضع قد يكون المكان الذي سماه (بطلميوس) (Jerakon Kome)^٨ . و (يارح) هو (يرخ) و (ورخ) في اللهجات العربية الجنوبية ، وتعني (شهراً) (قرأ) . وهناك مواضع متعددة في العربية الجنوبية تسمى بأسماء قريبة من هذه الكلمة ، مثل (وراخ) و (يراخ) . وقد ذكر الهمداني

١ تابع العروس (١٤٣/٦) ، « السلف » ، البلدان (١٠٩/٥) ، نهاية الارب

(٢٧٨/٢) ، القاموس (١٥٣/٣) ، الاكليل (١١٦/١)

٢ الهلال ، ١٣ ، سنة ١٠ ، نيسان ، ١٩٠٢ م (ص ٤٠١)

٣ Enc. Bibl. P. 4448, Niebuhr, Arabien, S. 247, Oslander, in ZDMG., II, 153. ff. Glaser, Skizze, S. 425.

٤ صفة (ص ١٠١ ، ٧١)

٥ Glaser, Skizze, 2 S. 425.

٦ قاموس الكتاب المقدس (٨٧/٢) .

٧ Enc. Bibl. P. 2362, Montgomery, Arabia, P. 40.

٨ Glaser, Skizze, 2, S., 425.

اسم موضع دعاه (وراخ) في مخلاف (العود)^١ ، لذلك رأى بعض العلماء وجود صلة بين هذه المواضع و (يارج) . كما ورد في جغرافيا (بطليموس) اسم مكان دعاه (Insula Jerachaeorum) ، وهو جزيرة تقع في البحر الأحمر جنوب جدة . وورد اسم محل آخر سمي (Vicus Jerachaeorum) ، ويقع في مقابل النهر الذي دعاه نهر (الآر) (Lar) الذي يصب على زعم (بطليموس) في الخليج العربي (الخليج الفارسي) (Sinus Persicus)^٢ .

وأما (هدورام) (Hadoram) ، فبرى (ملر) (Muller) ، و (كلاسر) احتمال أنه (دورم) ، وهو موضع على مقربة من (صنعاء) . ويؤيدان رأيهما هذا بما ورد في المؤلفات العربية من أن اسم (صنعاء) القديم هو (أزال) . و (أزال) هو شقيق (هدورام) ، وقد ذكر بعده في ترتيب أسماء أولاد (يقطان)^٣ .

وقد ذكرت الكتب العربية اسم موضعين يقال لهما (الهدار) . قال الهمداني عن أحدهما : إنه (حصون ونحول وقصور عادية)^٤ ، وقال عن الثاني : إنه (هدار بني الحريص) ، وذكر أن فيه (القطنية)^٥ ، وهذا الموضع الأخير قريب من (هدورام) ، وللظة (القطنية) أهمية كبيرة لقربها من لفظة (يقطان) .

وقد ذكر (الطبري) في تأريخه أن جرهما (اسمه هذرم بن عابر بن يقطن ابن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح)^٦ . وهذا النسب الذي ذكره (الطبري) هو النسب الوارد في التوراة بزيادة (عابر) بين (هذرم) وهو (هدورام) وبين (يقطن) . وهو خطأ ، يرد كثيراً في الأنساب المنقولة من

١ صفة (ص ١٠١) ، « وراخ : ناحية باليمن » البلدان (٤١١/٨)

٢ Forster, Vol. I, P. 116. ff.

٣ Enc. Bibli. P. 1932, Muller, Burgen und Schlosser, I, S. 360

٤ صفة Glaser, Skizze, 2, 426, Hastings, P. 324, Forster, 2, P. 137.

٥ صفة

٦ الطبري (٢٠٧/١) « دار المعارف »

التوراة الى الكتب العربية . ومورد (الطبري) هو (ابن الكلبي)^١ ، ومورد (ابن الكلبي) هو من أهل الكتاب ، شأنه في ذلك شأن كل الأنساب حيث أخذها من أهل الكتاب .

أما (أزال) ، فهو مثل سائر الأسماء المتقدمة ، غير معروف . ولم يتفق علماء التوراة على تعيينه حتى الآن . وقد ذكر أهل الأخبار أن (صنعاء) عاصمة اليمن ، كانت تعرف في الجاهلية بـ (أزال)^٢ . وترجع هذه الرواية الى (وهب بن منبه) ، الذي زعم (أنه وجد في الكتب القديمة المنزلة التي قرأها : أزال كل عليك ، وأنا أتحن عليك)^٣ وزعم أن (أزال) هي (صنعاء) ولم يرد في النصوص الجاهلية ما يفيد أن صنعاء كانت تعرف بـ (أزال) ، بل لدينا نص من أيام الملك (يشرح محضب) (ملك سبأ وذي ريدان) ويعود الى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول لما قبل الميلاد ، أي القرن المتصل بالقرن الأول للميلاد ورد فيه (صنعو) وهو (صنعاء)^٤ .

ويرى (كلاسر) ان اسم (أزال) انما وضع لـ (صنعاء) بعد دخول اليهودية الى اليمن وانتشارها هناك ، وضعه اليهود^٥ . وذكر (البكري) ان صنعاء كلمة حبشية ، ومعناها وثيق وحصين^٦ .

وهناك مواضع أخرى عرفت بـ (أزال) ، منها موضع يعرف بـ (بأزل) ، عند جبل (حضور) ، وموضع آخر في الحجاز ، غير أن من غير الممكن في الزمان الحاضر البت في أي مكان من هذه الأمكنة بأنه هو (أزال) التوراة^٧ . ولم يتمكن علماء التوراة من البت في موضع (دقلة) (Diklah) أيضاً . ويرى بعض المستشرقين ان هذا الاسم يشير الى مكان يجب أن يكون كثير

١ المصدر نفسه

٢ البلدان (٢١٤/١) ، (٢٨٧/٥) ، صفة (ص ٢٥٥)
Montgomery, Arabia, P. 40, Caussin de Perceval, Histoire des Arabes, Vol. I, P. 40.

٣ تاج العروس (٤٢١/٥)

٤ Enc. Bibl. P. 5239, Hastings, P., 956, Enc. Vol. 4, P. 143, Glaser, Skizze 2, S. 427
Sprenger, Geogr. S. 181, Glaser, 424.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 427.

٦ تاج العروس (٤٢١/٥)

٧ Glaser, Skizze, 2, S., 427.

التمر^١ : وقد رأى (هومل) انه موضع (حدّ دقل)^٢ . وذكر (ياقوت الحموي) موضعاً في اليمامة سماه (دقلة)^٣ ، ولكن الباحثين في هذا الموضوع لم يقطعوا برأى فيه .

ورأى بعض الباحثين ان (عوبال) (Obal) (Ebal) ، شعب (عيبيل) ؛ ورأى آخرون انهم (عيبال) في تهامة الحجاز ، أو (عبال) أو (عيبال) ، وهما موضعان في اليمن^٤ .

ورأى (فورستر) احتمال وجود صلة بين (عوبال) و (Avalitae) ، وهو اسم شعب عربي ذكر (بلينيوس) ، أو (Abalitae) ، وقد ذكره بعض الكتبة (الكلاسيكيين)^٥ .

وذهب (كلاسر) الى احتمال كون وادي (آتمة) ، هو موضع شعب (أبيائيل) (Abimael) ، غير ان ذلك مجرد ظن ، ليس غير^٦ .

والولد العاشر من ولد (يقطان) ، هو (شبا) . وقد وردت بعض أخبار (شبا) في أسفار التوراة ، وذكرت قصة (ملك شبا) وزيارتها لسليمان^٧ : فسبأ هنا ، شعب من شعوب اليقطينيين . ولكننا نرى التوراة تجعل (شبا) في موضع آخر ابناً لـ (يقشان) ، و (يقشان) هو ابن (ابراهيم) من زوجته (قطورة) (Keterah) ، وهو شقيق (اسماعيل) من أبيه^٨ . فسبأ هنا من نسل شعب آخر يختلف عن (سبأ) اليقطينيين . ونراها تذكر (سبأ) بالسين المهملة في جملة أبناء (كوش)^٩ . والمعروف ان المراد من (كوش) عند العبرانيين ، الحاميون ، أي الشعوب الإفريقية ، فيكون (سبأ) هنا اسم شعب

١ Enc. Bibli. P. 1101, Forster, I, P., 147, Montgomery, Arabia, P. 40.

٢ Enc. Bibli. P. 1101.

٣ البلدان (٦٥/٤)

٤ Enc. Bibli. P. 1151, Glaser, Skizze, 2, S. 426, Hastings, P. 201, Halevy, Melanges D'epigraphie et D'archéologie Semitiques, 86.

٥ Forster, I, 148. f.

٦ Glaser, Skizze, 2, S. 426, Enc. Bibli. P. 17, Hastings, P. 4.

٧ الملوك الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ١ فما بعدها

٨ قاموس الكتاب المقدس (٥٢٤/٢) ، التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرين ،

الآية ٢ ، اخبار الايام الاول الاصحاح الاول ، الآية ٣٢ Hastings, P. 490.

٩ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٧

من الشعوب الإفريقية^١ .

ومعنى هذا التعدد في النسب انتشار السبثيين وسكناتهم في مواضع متعددة ، وهذا ما حمل كتبة التوراة على ادخال نسب السبثيين الساكنين في إفريقية في نسب (الكوشيين) ، وادخال السبثيين الساكنين عند (ددان) في نسل (رعمة) ، ويرد اسم (أوفير) (Ophir) بين (شبا) و (حويلة) ، وهو كناية عن أرض اشتهرت عند العبرانيين بكثرة ذهبها وبوجود الفضة وخشب الصندل وبعض الأحجار الكريمة فيها^٢ . وقد اختلف في تعيين مكانها ، فذهب كثير من علماء التوراة الى انها في جزيرة العرب ، ولكنهم اختلفوا في تعيين المكان ، فذهب بعضهم الى انها في اليمن ، وذهب آخرون الى انها في عسير ، وآخرون الى انها في اليمامة^٣ أو موضع (العويفرة) الذي لا يبعد كثيراً عن حافات جبل طويق^٤ ، ومنهم من رأى انه (مهد الذهب) في الحجاز ، وهو موضع عرف باستخراج الذهب منه قبل الإسلام بزمان طويل ، وقد نقتب فيه شركة تعدين حديثة ، أغلقت أبوابها من عهد ليس يبعد ، كما ذكرت ذلك في كلامي على معادن جزيرة العرب .

غير أن هنالك جماعة من الباحثين في التوراة ترى أن الوصف الوارد في التوراة لأرض (أوفير) يجعلها أرضاً في الهند ، وذلك لأن الحاصلات المذكورة فيها هي حاصلات هندية ، ومن الصعب تصور وجودها في بلاد العرب في ذلك الزمان^٥ . وذهب فريق آخر الى أنها في إفريقية^٦ .

والابن الثاني عشر من أبناء (يقطان) ، هو (حويلة) . وقد ذكرته التوراة في موضع آخر في جملة أبناء (كوش) مع (سبأ) ، مما يدل على توطن قبيلة

١ قاموس الكتاب المقدس (٢٧٨/٢) ، Hastings, P. 171.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١٧٩/١)

٣ Sprenger, Geogr. S. 49. ff. Glaser, Skizze, 2, S. 357, Hommel, AHT. 236, Montgomery, Arabia, P. 38. ff.

٤ Philby, Sheba's Daughters, P. 430.

٥ Lassen, Indische Alterthumskunde, I, 538, Soetbeer, Das Goldland Ophir, 1880 A.K. Keane. The Gold of Ophir, 1901, Moritz, Arabien, S. 7, Forster, Vol. I P. 161, 2, P. 237.

٦ Peters, Das Goldene Ophir Salamons, 1895, Enc. Bibl. P. 3514, Enc. Brita. Vol. 18, P. 807.

أخرى تسمى بهذا الاسم في (إفريقية) لعلها فرع من فروع (حويلة) بلاد العرب^١ . وقد ذهب بعض العلماء الى أن (حويلة) بلاد العرب ، هي في بادية الشام ، أو على مقربة من خليج العقبة ، وذهب آخرون الى أنها في أواسط جزيرة العرب ، أو في منطقة (جبل ثمر) ، ورأى كلاسر أنها في اليامة^٢ .

وقد ذكر (الهمداني) جماعة دعاهم (الحولين)^٣ ، يظهر أنهم سكان موضع (حوالة) وهناك بطن من بطون اليمن يقال له (بنو حوالة) ، كما ورد في اسم (حويل)^٤ .

وفي التوراة : (وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ، ومن ثم يتشعب فيصير أربعة رؤوس . اسم أحدهما فيشون ، وهو المحيط بجميع أرض حويلسة حيث الذهب . وذهب تلك الأرض جيد . هنالك المقل وحجر الجزع)^٥ . فيفهم منه أن نهر (فيشون) (Pishon) يحيط بأرض (حويلة) وهو من أنهر الجنة الأربعة . وأحد الأنهار الأربعة على رأي علماء التوراة هو نهر النيل ، وأما الثاني فهو الفرات ، وأما الثالث فهو نهر دجلة ، وأما النهر الآخر الذي نتحدث عنه ، فذهبوا الى أنه نهر (كارون) أو شط العرب ، أو أحد الأنهر الأخرى فتكون أرض حويلة عندئذ في منطقة تقع على رأس الخليج^٦ .

وآخر أبناء (يقطان) هو (يوباب) (Jobab) ، ويرى (كلاسر) انه اسم قبيلة (يهيب) ، الذي ورد في النصوص السبئية^٧ . وذهب بعض آخر الى انه اسم شعب (وبار) ، وانه تصحيف لاسم (Jobarital) الوارد في جغرافيا (بطلميوس)^٨ .

- ١ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٩ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الآية ١٩ ، ٢٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٩٨/١)
- ٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٨/١)
- ٣ Enc. Bibli. P. 1974, Musil, Hegaz, P. 261, Hastings, P. 333, Glaser, 2 S. 302
- ٤ الاكليل (٨٥/٨) « طبعة نبيه »
- ٥ تاج العروس (٢٩٧/٧) ، القاموس (٣٦٤/٣) ، اللسان (٢٠٧/١٣)
- ٥ التكوين ، الاصحاح الثاني ، الآية ١٠ وما بعدها
- ٦ Hastings, P. 203.
- ٧ Hastings, P., 472, Glaser, Skizze, 2, S. 303, Enc. Bibli. P. 2491.
- ٨ الهلال : الجزء الثالث عشر من السنة العاشرة ، نيسان ١٩٠٢ ، ص ٣٠٤

وقد أضاف (ابن الكلبي) الى سلسلة أبناء (يقطن) (يقطان) ولداً آخر لم يرد له ذكر في التوراة ، دعاه (توقير) ، زعم انه والد الهند والسندا ، فربط بذلك بين نسب (اليقطنيين) والهنود . ولا ندري : أعبر عن ذلك جهلاً واعتباطاً ، أم كنتى بذلك عن الروابط القديمة التي ربطت بين العربية الجنوبية والهند ، حيث سكن عدد كبير من قدماء الهنود (الدراويدين) (Dravidians) في سواحل عمان وحضرموت ؟ وقد عثرت البعثات العلمية التي نقت في هذه الأماكن على بقايا هياكل عظمية ترجع الى هؤلاء ، كما يتحدث السباح والباحثون في أثر دماء الهند على سكان هذه المناطق .

ولم ينل هؤلاء الأولاد الثلاثة عشر عناية الأخباري (ابن الكلبي) ، ولا عناية (محمد بن اسحاق) ، أو غيرهما من أهل الأخبار المعروفين بأخذهم عن أهل الكتاب ، اذ لم يشيروا اليهم في أثناء كلامهم على أولاد (يقطن) (يقطان) ، ولم يتحدثوا عنهم . بل نسبوا اليه أولاداً آخرين تراوح عددهم من عشرة ذكور الى واحد وثلاثين^٢ ، أسماءهم أسماء عربية ، لا وجود لها في التوراة ، ما عدا اسماً أو اسمين . وهذا الإهمال يثير في نفوسنا الدهشة والاستغراب : لم أهمل يا ترى هؤلاء الأخباريون أبناء (قحطان) المذكورين في التوراة ، مع أنهم أخذوا (يقطان) من التوراة ، وجعلوا نسبه نسباً لقحطان ! ولم تكرموا عليه فأعطوه عدداً من الأولاد لم يأت لهم ذكر في التوراة ؟ ولم لم يضم أهل الأخبار أولاد (يقطان) المذكورين الى أولاد قحطان ؟ ألا يدل ذلك على جهل أهل الأخبار بهم وعدم وقوفهم عليهم ؟ إن كان جهلهم بهم هو السبب ، فان ذلك يدل على ان أهل الأخبار لم يكونوا يرجعون الى التوراة رأساً ، يقرأون أسفارها ويأخذون منها ، بل كانوا — وهذا هو ما أذهب اليه — يراجعون أهل الكتاب ويأخذون منهم ما يريدون . ولهذا لم يقفوا على أولاد (يقطان) ، لأنهم لم يسألوا أهل الكتاب عنهم ، أو لأن أهل الكتاب لم يتحدثوا اليهم عنهم . على اننا لا نستطيع أن نقبل هذا العذر ، ذلك لأن أهل الأخبار كانوا قد ذكروا أسماء أبناء (اسماعيل) ، نقلوها من التوراة وعلى حسب الترتيب الوارد في

١ الطبري (٢٠٧/١) Hastings P. 472.

٢ مروج (٧٧/١) ، ابن خلدون (٤٧/١) .

(التكوين) . وهذا ما يجعلنا نتساءل : لِمَ ذكر أهل الأخبار أبناء (اسماعيل)، وأهملوا أبناء (يقطان) ؟ هل هناك تعمد وغرض ؟ إن الاجابة عن مثل هذه الأسئلة، ليست سهلة في الواقع ، لأن أهل الأخبار لم يكونوا يسرون على قواعد ثابتة وأنظمة معينة في أخذ الأنساب ، ولهذا نراهم يقعون في الغلط ، وذلك يدل على ان علمهم بالأمور الواردة في التوراة لم يكن علماً راسخاً، وان علم محدثيهم من أهل الكتاب لم يكن راسخاً أيضاً ولم يكن مستمداً من التوراة رأساً، بل من السماع والرواية في بعض الأحيان ، والا لما وقعوا في أغلاط شنيعة، وما احتاجوا الى الوضع والكذب ، كالذي نراه من كعب الأخبار ووهب بن منبه وأمثالهما من مسلمة يهود .

الاسماعيليون :

و (اسماعيل) هو الجد الأكبر للعرب المستعربة ، أي العرب العدنانيين . وهو (يشمئيل) (Ishmael) في التوراة ومعنى الاسم (إلهي يسمع) ، أو (يسمع إلهي) . وهو ابن (إبراهيم) من زوجه (هاجر) . وتقول التوراة إنه (ختن) وهو في الثالثة عشرة من عمره ، ورحل الى بَرِّيَّة (فاران) فتزوج فيها من امرأة مصرية ، وعاش فيها رامياً بالسهم حيث اشتهر بالرماية . ولم تذكر التوراة بعد ذلك شيئاً عنه، إلا ما ورد من أنه حضر دفن أبيه (إبراهيم)، وأنه عاش (١٣٧) سنة^١ .

هذا مجمل ما ورد في التوراة عنه . أما ما أورده أهل الأخبار عنه ، فانه يستند الى هذا الوارد في التوراة عنه ، إلا ما ذكروه عن امرأته ، فقد جعلوها امرأة من (جرهم) ، وما أورده عنه من أنه هاجر الى مكة ، وأنه عاش هناك ، وتعلم العربية فيها ، وقبر في (الحجر) عند قبر أمه (هاجر)^٢ ، وأمور أخرى صغيرة تختلف باختلاف الروايات .

١ التكوين ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ٤ فما بعدها ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ١٨ فما بعدها ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٧ فما بعدها .

Hastings, P. 392.

٢ الطبري (١/٣١٤ فما بعدها) .

وقد جعلت التوراة ل (اسماعيل) ولداً ، عدتهم اثنا عشر ولداً ، هم :
 نايوت بكر اسماعيل ، وقيدار ، وأدبيل ، ومبسام ، ومشام ، ودومة ، ومسا ،
 وحدار ، وتيا ، ويطور ، ونافيش ، وقدمه . ذكرتهم على حسب مواليدهم ،
 كما نص على ذلك فيها^١ . وهو عدد يظهر أنه من وضع كتاب الأسفار وترتيبهم^٢ .
 أهمهم امرأة مصرية^٣ ، وهي كناية عن اتصال الاسماعيليين بالمصريين ، وقد أخذ
 أهل الأخبار هذه الأسماء ، وغيروا في نطقها بعض التغيير ، فصيروها : نابت
 وقيلدر ، وأذبل ، ومبشا ، ومسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيا ،
 ويطور ، ونبش ، وقيلدا ، وما شاكل ذلك . وقد نص الطبري على اختلاف
 أهل الأخبار في ضبط هذه الأسماء^٤ . ويعود هذا الاختلاف على ما يظهر الى
 اختلاف المورد الذي أخذ منه أهل الأخبار .

وقد زعم أهل الأخبار أن اسماعيل تزوج من جرهم ، وأن اسم زوجته
 (رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي)^٥ ، أو ما شاكل ذلك من أسماء ،
 وأنها ولدت له اثني عشر رجلاً ، هم : نابت وكان أكبرهم ، وقيلدر ،
 وأذبل ، ومبشا ، ومسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيا ، ويطور ،
 ونبش ، وقيلدا^٦ . وأكثر هذه الأسماء وروداً وتكراراً في الكتب العربية ،
 نابت وقيلدر .

ونرى من عدد هؤلاء الأولاد ومن أسمائهم ، أن رواها أخذوا أولئك الأولاد
 من التوراة . أخذوا العدد وأخذوا الأسماء ، ولكنهم حرفوا وصحفوا فيها ،
 ولا ندري أكان هذا التحريف قد وقع من الأخباريين أنفسهم ، أجروه تعمداً
 ليسهل النطق بها في العربية ، أم وقع من الرواة الاسرائيليين أو النصارى الذين

١ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، الاية ١٢ فما بعدها .

٢ Hastings, P. 392.

٣ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ٢١ .

٤ الطبري (٣١٤/١) « طبعة دار المعارف » .

٥ ابن هشام (٣/١) « طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد » ، « السيدة بنت
 مضاض بن عمرو الجرهمي » ، ابن خلدون (٣٧/٢) ، الطبري (١٦/١) ، ابن
 الاثير ، الكامل (٤٩/١) ، الطبقات (١٠٠ ، ١٠١ ، ص ٢٥) ، تاج العروس
 (٣٧٥/١) ، (٥٩٠/١) .

٦ ابن هشام (٣/١) ، ابن خلدون (٣٩/٢) ، مع اختلاف في ضبط الاسماء ،
 الطبري (١٦١/١) ، ابن الاثير ، الكامل (٤٩/١) .

رَجَعَ أَهْلُ الْأَخْبَارِ إِلَيْهِمْ ، فَأَخَذُوا مِنْهُمْ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ ، أَوْ أَنَّهُ مَجْرَدُ تَحْرِيفٍ وَتَصْحِيفٍ ، وَقَعَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، فَظَهَرَ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ .

أما امرأة (إسماعيل) أم أولاده ، فلأنها ليست جرمية عربية في التوراة ، وإنما هي امرأة مصرية كما ذكرت . لم تذكر التوراة اسمها . وبذكر أهل الأخبار أن إسماعيل كان قد تزوج بامرأة أخرى من جرحهم قبل (رعدة بن مضاض ابن عمرو الجرمي) ، أو (السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرمي) ، كما تعرف في روايات أخرى ، إلا أنه طلقها بأمر أبيه ، لما جاء إلى مكة زائراً ، فلما جاء للمرة الثانية ورأى زوجته الثانية رضي عنها، وأمر ابنه إسماعيل بإبقائها ، فبقيت ، ومنها كان نسله المذكورين^١ .

وقد نص (الطبري) على أن العرب هم من نابت وقيدروا^٢ ، ولم يذكر شيئاً عن بقية الأولاد . والظاهر أن إهمال هذا الإهمال يعود إلى عدم وقوف الموارد التي أمدت الأخباريين على شيء عنها ، وعدم تمكنهم من تعيينها وتثبيت مواضعها ، فإن ذلك يحتاج إلى علم وإلى وقوف على ما جاء في كتب التفسير والشروح والموارد اليهودية الأخرى عن هذه القبائل . والموارد المذكورة نفسها لا تعرف عن تلك القبائل وعن تلك البلاد شيئاً كثيراً يزيد على ما جاء في التوراة . فإن كتبة الأسفار لم يهتموا إلا بما يتعلق بإسرائيل . أما ما وراء إسرائيل من شعوب وأرضين، ولا سيما الشعوب التي لا تخام الأرضين التي وجد فيها العبرانيون، فلأنها لم تكن تُعْنَى بها إلا بمقدار ما لها من صلة بإسرائيل .

وقد حددت التوراة المنازل التي أقام بها (الإسماعيليون) ، فجعلتها من (حويلة) إلى (شور)^٣ . فكل ما وقع بين المكانين ، هو في أرض القبائل الإسماعيلية . وقد ذكرت قبل قليل أن آراء العلماء مختلفة في تعيين موقع أرض (حويلة) ، وعندني أن هذا الموضع يجب ألا يكون بعيداً عن فلسطين ، لأن (شاول) ضرب العماليق من (حويلة) إلى شور^٤ . ولا يعقل أن تكون هذه

١ الطبري (٢٥٦/١) (٣١٤)

٢ الطبري (٣١٤/١) .

٣ التكوين ، اصحاح ٢٥ ، الآية ١٨ .

٤ صموئيل الاول ، اصحاح ١٥ ، الآية ٨ .

الأرضون بعيدة عن فلسطين ، لأن (شاؤول) لم يكن قوياً ذا جيوش جرارة حتى تضرب العماليق في منطقة نائية ، بعيدة عن فلسطين .

وأما (شور) ، فموضع يقع على الحدود الشمالية الشرقية لأرض مصر ، في البرية المسماة بـ (برية تيه بني اسرائيل) وبـ (برية ايتام)^١ . ويرى بعض علماء التوراة ان (الطور) الحالية هي أرض (شور)^٢ .

وبلاحظ ان الأرض التي زعم ان (شاؤول) قد ضرب بها العماليق ، «وضرب شاؤول عماليق من حويلة حتى مجيثك الى شور التي مقابل مصر»^٣ ، هي الأرض ذاتها التي جعلتها التوراة أرضاً لذرية (يشمعثيل) (اسماعيل) . فيظهر من ذلك أن العماليق كانوا قد سكنوها أيضاً . ولما كان العالقة قد سكنوا أرضاً ، تقع بين كتعان ومصر في برية سيناء وتيه بني اسرائيل^٤ ، وجب أن تكون تلك الأرض هي موطن الإسماعيليين .

ويعترف العبرانيون بوجود صلات قرىبى لهم بالإسماعيليين . ويظهر أن القبائل الإسماعيلية عاشت زمناً طويلاً في (طور سيناء) . وفي جنوب فلسطين. عاشت عيشة أعرابية^٥. ولهذا كان الإسماعيليون أهل وبر بالقياس الى اليقطينيين المستقرين. وقد نظر العبرانيون نظرة عداء الى الإسماعيليين ، لأنهم كانوا يتحرشون بهم ويغيرون عليهم ويتعرضون بتجاراتهم . وقد ذكروا في أيام (داوود)^٦ . وقد ورد في التوراة أن الله أوحى الى (هاجر) يبشرها بأن نسل ابنها سيكثر وينمو حتى يكون أمة عظيمة^٧ ، وهو كناية عن كثرة عدد أولئك الأعراب في أيام العبرانيين .

هذا ونحن لا نعرف شيئاً يذكر عن (الاشماعيليين) (الإسماعيليين) ، ولا

١ قاموس الكتاب المقدس (١ / ٦٤١) . Musil, Hegaz, P. 261, 265.

٢ Hastings, P. 852, Enc. Bibl. P. 4498.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١ / ٦٤١) .

Hastings, P. 852, Enc. Bibl. P. 4498, Musil, Hegaz, P. 261, 265. ff.

٤ صموئيل الاول ، الاصحاح الخامس عشر ، الاية ٧ ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ١١٣) .

٥ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١ / ٩٨) .
٦ Enc. Bibl. P. 2211, Hastings, P. 392.

٧ التكوين ، الاصحاح ٢١ ، الاية ١٣ وما بعدها .

عن لهجاتهم . ويرى بعض العلماء أن لهجاتهم يجب أن تكون من اللهجات العربية الشمالية المتأثرة بلغة بني إرم^١ . ولعدم وصول نصّ مدوّن بلهجة من لهجات هذه القبائل ، لا نستطيع أن نبدي في الزمان الحاضر رأياً علمياً في شكل هذه اللهجات .

و (نبايوت) هو بكر اسماعيل وأهم القبائل الإسماعيلية في التوراة ، وقد أعطاه هذه المنزلة أهل الأخبار أيضاً لأخذه منّا . ونحن لا نعرف الأسباب التي جعلت التوراة تعدّه أحسن أولاد (إسماعيل) أراعت في ذلك بعدد القبيلة ، أم راعت قربها من العبرانيين ، أم ضخامتها وكثرة عددها بالقياس إلى القبائل الإسماعيلية الأخرى ، أم أموراً أخرى جعلت العبرانيين ينظرون إليهم على أنهم أقدم تلك القبائل ؟ فليس في التوراة قواعد ثابتة تمشي عليها كتابة العهد القديم في تدوين الأنساب .

ويعرف (نبايوت) بـ (نابت) و (نبت) عند الأخباريين . ومنه ومن قيدير، نشر الله العرب ، على رأي أهل الأخبار^٢ . وقد جعل بعض الأخباريين نابتاً والداً لـ (يشجب)^٣ ، مع أن (يشجب) هو ابن (يعرب) عند الأكثرين .

وقد ورد اسم (نبايوت) مع اسم (قيدير) في النصوص الآشورية ؛ ويظهر أنهم كانوا أقوياء كثيري العدد . ويدل ورود اسمهم مع (قيدير) في التوراة في النصوص الآشورية على أنهم كانوا متجاورين . ولم تعين التوراة مواضع سكنهم ، ولكن ورود اسمهم في رأس قائمة الإسماعيليين واقرانه بالأدوميين عن طريق المصاهرة ووقوف العبرانيين على أخبارهم ، يدل كله على أنهم كانوا يقيمون في المناطق الواقعة في جنوب شرقي فلسطين وفي الأقسام الجنوبية الشرقية من بادية الشام^٤ .

وقد ذهب (كلاسر) إلى أن (نبايوت) (مشيخة) أو مملكة حكمت في (القصيم) ، وقد كانت معاصرة لمملكة (عريبي) ، وكانت لا تزال مستقلة في أيام الفرس^٥ .

1 Enc. Brit. Vol. 12, P. 706.

2 الطبري (٣١٤/١) .

3 ابن هشام (٥/١) .

4 التكوين ، الأصحاح ٢٨ ، الآية ٩ .

5 Glaser, Skizze, 2, S. 266. ff. Schrader, KAT, S. 151, Hommel, AHT, 275.

وقد ظن بعض العلماء أنهم (النبط)^١ ، ذهبوا الى ذلك من تشابه (نبايوت) (Nabaiot) و (نبط) (Nabat) ، غير ان هذا رأي يعارضه كثير من علماء التوراة^٢ .

وقد كان بين الأوس قوم يقال لهم (النبيت) ، افتخر بهم الشاعر (قيس ابن الخطيم) من شعراء الجاهلية ، وقد قتل قبل الهجرة ، ومدحهم ، ووصفهم بالشدة والبأس^٣ ، كما كان في (إيراد) قوم يقال لهم (النبيت)^٤ .

وكان نبيت الأوس يتألفون من (ظفر) رهط الشاعر قيس بن الخطيم، ومن عبد الأشهل ، وحارثة^٥ . وقد وقعت بينها حروب ومعارك، فانضمت حارثة الى الخزرج ، وتحالفت معها ، ودخلت فيها . وأما ظفر وبنو عبد الأشهل ، فقد اضطروا أخيراً الى ترك ديارهم الى مكة للتحالف معهم ، أو مع اليمن ، أو الغساسنة أو المناذرة ، لمساعدتهم على الخزرج ، ولاسترداد ملكهم^٦ . والظاهر أنهم كانوا قديماً من القبائل القوية ، وكانت في الحارث الشرقية ، ثم أقل نجمها، وتشتت شملها بسبب الحروب التي وقعت بين بطونها. ولعلها من القبائل التي كانت تقيم في الشمال ، في العربية الحجرية أو العربية الصحراوية، ثم اضطرت الى الهجرة الى الجنوب والاستيطان في مناطق الحارث. والظاهر أنها كانت على اتصال باليهود، وقد تحالفت معها يهود خيبر .

وقد ورد اسم (قيدار) في النصوص الآشورية ، ورد على هذه الصورة : (قَدرو) (Kidru) و (قَدرو) (Kadru)^٧ ، كما ورد في المؤلفات

١ النبط - النبط - الانباط - نبطي - نبط - قال ابن عباس :

نحن معاشر قريش من النبط - ، تاج العروس (٢٣٩/٥) .

٢ Enc. Bibl. P. 2213, Hastings, P. 648, f.

٣ ويشرب تعلم ان النبيت رأس يشرب ميزانها

وقد علموا ان ماقلهم حديد النبيت واعيانها

فلا امر فكم بعد عز وثروة يقال الا تلك النبيت عساكر

شعر قيس (ص ٩ ، ١٠ ، ٣٨) .

٤ شعر قيس (ص ٩) ، « والنبيت ابو حي ، وفي الصحاح حي من اليمن » .

اللسان (٤٠٢/٢) ، تاج العروس (٥٨٩/١) .

٥ شعر قيس (ص XX) ، القسم الألماني

٦ شعر قيس (ص XX II) ، القسم الألماني .

٧ Schrader, KGF. 101, Kat. 147, Delitzsch, Wo lag das Paradies? S. 299.

(الكلاسيكية) ، فقال لهم (بلينيوس) (Pliny) (قدراي) (Cedrei) ، وذكر أنهم قبيلة عربية تقيم على مقربة من النبط^١ . وقد حاربهم (آشور بنبال) ، وكان ملك (قيدار) في ذلك العهد ، ملك عرف باسم (أو أيطع) (U Aite) ابن (خزاعيل) (Hazael)^٢ ، وقد ذكرهم (آشور بنبال) مع (عريبي) (أريبي) ، كما ذكرهم (حزقيال) مع العرب (العرب وكل رؤساء قيدار)^٣ ، مما يدل على أن مواطن (قيدار) كانت تجاور العرب ، ويراد بالعرب هنا ، الأعراب . وهو ما يتفق مع ما جاء في نص (آشور بنبال) كسل الاتفاق . وذكروا بعد (نايوت) في التوراة ، مما يدل على أنهم كانوا يقطنون في جوارهم ، كما ذكروا مع (ممالك حاصور) التي ضربها (نبوخذ نصر) (بختنصر)^٤ . وقد نكل (بختنصر) بالقيداريين كذلك ، وخرب بلادهم وأخذ غنائم كثيرة منهم ، واستولى على ما وقع في أيدي جيشه من أموالهم وخيامهم وغنمهم وجالهم وقد ورد وصف ذلك في سفر (أرمياء)^٥ .

ويظهر من التوراة أن القيداريين كانوا أعراباً يعيشون في الخيام ، عيشة أهل البداوة^٦ ، وقد وصفت خيامهم بأنها خيام سود (أنا سوداء وجميلة يا بنات اورشليم ، كخيام قيدار ، كشقق سليمان)^٧ . والخيام السود هي بيوت أهل الوبر . وكانوا يعتنون بتربية المواشي ، وقد اشتهروا بأن فيهم رعاة يملكون ماشية كثيرة^٨ . إلا أن منهم من كان متحضراً سكن القرى والمدن^٩ . ونجد (أشعيا) يتنبأ بإفناء (مجد قيدار . وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار)^{١٠} مما يدل على أن القيداريين كانوا قوة وعدداً ضخماً ، فيهم جماعة مهتة برمي السهام . ويتبين من (المزامير) أنهم غزاة ، وحياتهم حياة غزو ، لا يعرفون السلام

١ Pliny, 5, 21, 65, Enc. Bibl. P. 2213, Forster Vol. I, 238 ff.

٢ Musil Deserta P. 485.

٣ حزقيال ، الأصحاح ٢٧ ، الآية ٢١

٤ أرمياء ، الأصحاح ٤٩ ، الآية ٢٨

٥ أرمياء ، الأصحاح ٤٩ ، الآية ٢٨ وما بعدها

٦ قاموس الكتاب المقدس (٢٣٠/٢) .

٧ نشيد الاناشيد ، الأصحاح الأول ، الآية ٥ .

٨ قاموس الكتاب المقدس (٢٣٠/٢) .

٩ أشعيا ، الأصحاح ٤٢ ، الآية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٣٠/٢)

١٠ أشعيا ، الأصحاح ٢١ ، الآية ١٦ وما بعدها ، Hastings, P. 512.

ولا الاستقرار' .

وقد ذكروا مع العرب في جملة من تاجر مع العبرانيين . تاجروا معهم (بالخرفان والكباش والأعتدة^٢) . وكانوا مثل قبائل العرب الأخرى على احتكاك بالعبرانيين ، يتاجرون معهم تارة ، ويخاصمونهم تارة أخرى ، ويظهر أنهم كانوا على عداء شديد معهم ، وخصومة منكرة في أيام (أشعيا) و (أرميا) ، كما يتبين ذلك من الهجوم العنيف الموجه اليهم في سفرهما ومن فرح العبرانيين من النكبات التي حلت بهم ، ولا سيما انتقام (بختنصر) منهم . ويظهر أنه غزاهم ، لأنهم كانوا يتحرشون بالبابليين في أثناء مرورهم بالبادية الى فلسطين ، مما حمل (بختنصر) على الانتقام منهم ومن قبائل أخرى كانت ضاربة في البادية وفي الطرق المؤدية الى بلاد الشام .

وقد ذكر أهل الأخبار اسم رجل دعوه (قدار بن سالف) ، زعموا أنه كان يدعى (أحيمر ثمود)^٣ ، وأنه هو الذي عقر الناقة ، ناقة النبي صالح^٤ ، وذكروا أن (قيذار بن إسماعيل) هو أبو العرب ، وزعم بعضهم أنه كان نبياً ، وزعم أن له قبراً ومشهداً يزار قريباً من السلطانية بالعجم ، وأعقب من ولده (حل بن قيذار) ، وله ابن يقال له (سوارى) . وقد ذكر أهل الأخبار أن (كعب الأحبار) ، قال : (قال الله لرومية : لاني أقسم بعزتي لأهبن سبيك لبني قاذر ، أي بني إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، يريد العرب)^٥ وإذا صح أن هذا الكلام هو من كلام (كعب) حقاً ، فإنه يدل على تحريض (كعب) للمسلمين على اكتساح امبراطورية الروم ، وقد كان اليهود يكرهون الروم ، لما أوقعوه بهم من ظلم ، وأنه كان يعبر عن الحالة التي كانت بين الروم والعرب في ذلك الزمان . وليس الكلام المذكور ، كلام الله في التوراة

١ الزامير ، المزمور ١٢٠ ، الآية ٥ وما بعدها .

٢ حزقيال ، الاصحاح ٢٧ ، الآية ٢١

٣ الطبري (٣١٤/١) « دار المعارف » ، « قيذر » منتخبات (ص ٨٤) مروج (٣٩٤/١) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢) ، تاج العروس (٤٨٣/٣) فما بعدها .

٤ تاج العروس (٤٨٣/٣) .

٥ تاج العروس (٤٨٥/٣) ، عن « قيذار » : الطبري (١٩٣/٢) ، « قيذر » ، منتخبات (ص ٨٤) ، مروج (٣٩٤/١) ، ابن خلدون (٢٩٨/٢)

ولأنما هو كلام (كعب) . ولكعب أمور عديدة من هذا القبيل ، إذ يضع كلاماً يزعم أنه من كلام الله المذكور في الكتب المنزلة .

وأما (أدبثيل) (Adbeel) ، فكناية عن قبيلة عربية أخرى من القبائل الإسماعيلية ، يرى بعض علماء التوراة أنها عاشت في جنوب غربي البحر الميت^١. ويظن أنها قبيلة (ادب ايله) (Idiba'ila) (Dibi'ila) (ادبيله) (ادبعيله) (دبيله) (وبعيلة) المذكورة في كتابة من كتابات الملك (تغلا تبلسر الثالث)^٢. وقد ذكر هذا الملك أنه عين نائباً عنه، أو (مندوياً سامياً) (قيبو) (Kepu) على خمسة عشر موضعاً ، وكان اسم هذا المندوب (ادب ال) (أدب أبل) (أدبثيل) (Idibi'il) ، وهو سيد قبيلة عرفت بهذا الاسم . والظاهر أنه فوّض إليه أمر حماية الحدود والمحافظة عليها من الغزو . وتقع أرض هذه القبيلة على مقربة من الحدود المصرية وفي الجنوب من غزة^٣. وكانت هذه القبيلة لا تزال موجودة في أيام المؤرخ اليهودي (يوسف فلافيوس)^٤ .

ويلى (أدبثيل) (أدب ال) (ادب ايل) في تسلسل أولاد إسماعيل ، مبسام (Mibsam) ، وقد سمي في بعض الكتب العربية (ميشا) ، ولانعرف من أمر هذه القبيلة شيئاً^٥ .

وأما (مشماع) ، وقد سمي (منسى) و (منشى) و (مسمع) و (مشعاع) في بعض الكتب العربية ، فلا نعرف من أمره شيئاً . ويتصور بعض العلماء أن لهذا الاسم علاقة بقبيلة (بني مسماع) أو (جبل مسماع) (جبل مسمع) قرب تبء^٦ .

ورأى (فورستر) أن (مشماع) هي قبيلة (Masmaos) التي ذكرها (يوسفوس) ، على أنها من القبائل العربية التي كانت تعيش في أيامه^٧ . ويرى

١ Enc. Bibl. P. 2213.

٢ « تفلابليزر الرابع » عند « الويس موسل » ، Musl, Hegaz, P. 291, Deserta, P. 278. f. Hastings, P. 12, Delitzsch, Paradies, S. 301, Enc. Bibl. P. 65.

٣ Schrader, KAT. S. 58.

٤ Forster, I, P., 266.

٥ Forster, Vol. I, P. 273, Enc. Bibl. P. 3067, Musl, Deserta, P. 479.

٦ قاموس الكتاب المقدس (٣٤٤/٢) ، Enc. Bibl. P. 3154.

٧ Forster, Vol. I, P. 274.

(فورستر) أيضاً أن قبيلة (Masaemanes) التي ذكرها (بطلميوس) هي هذه القبيلة كذلك^١ . وهذا الاسم قريب من اسم (ماء السماء) .

و (دومة) هو (دوما) في بعض الكتب العربية ، وهو كناية عن موضع (دومة الجندل)^٢ ، وقد عرف بـ (دوماتا) (Domatha) عند (بلينيوس)^٣ وبـ (Doumaetha) (Dumaetha) عند (بطلميوس)^٤ ، وبـ (Adumu) (ادومو) في الكتابات الآشورية* ، وهو كناية عن موضع وعن اسم قبيلة عربية . فقد ورد أن شعباً اسمه (Dumathii) كان يقدم قرباناً ، (ولدأ) في كل سنة إلى آلهته ، ويدفن ذلك القربان في معبد الإله . ويراد به شعب (دومة الجندل)^٥ .

وقد ورد اسم (مسا) (Massa) في النصوص الآشورية مقروناً بـ (تيا) (تياء) . ويرى بعض العلماء أنه كناية عن قبيلة كانت منازلها في الشرق والجنوب الشرقي من (موآب)^٦ . ويرى بعض آخر أن مواطنها في الأرضين الجنوبية من وادي السرحان ، وفي غرب منازل (عريبي) (اريبي)^٧ .

وجاء في رسالة أرسلها أحد (المقيمين) الآشوريين إلى ملك آشوري لم يرد اسمه في الكتابة أن (ملك قرو) (مالك قرو)^٨ ابن (عميطع) سيد قبيلة (مستا) (Mas'a) غزا قبيلة (ناباتا) (Naba'ati) ، وقتل عدداً من أتباعها^٩ . والظاهر أن هذه القبيلة ، هي القبيلة المذكورة في التوراة .

-
- | | |
|--|----|
| Forster, Vol. I, P. 274. | ١ |
| « ودما ، وهو دوما ، وبه سميت دومة الجندل » ، ابن سعد ، طبقات (ح ١ ق ١ ، ص ٢٥) . | ٢ |
| Pliny, 6, 28, & 157, Forster, Vol., I, P. 281. | ٣ |
| Forster, Vol. I, P. 281. | ٤ |
| Enc. Bibl., P. 1142, 2213, Musil, Deserta, P., 480. | ٥ |
| Hastings, A Dictionary of the Bible, Vol. I, P. 630 Burckhardt, Travels in Syria, 662, Ritter, Erdkunde von Arabien, II, S. 360. ff. | ٦ |
| Hastings, P. 591, Enc. Bibl., P. 2213, 2972, Musil, Hegaz, P. 288. | ٧ |
| Musil, Deserta, P. 478. | ٨ |
| مالك قمر — ملك قمر — مالك القمر — ملك امره — وما شابه ذلك من أسماء | ٩ |
| Musil, Deserta, P. 478, Delitzsch, Paradise, P., 302, Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, Vol. 4, P. 1. 54, No. I. | ١٠ |

وأما (حدد) أو (حدار) ، كما دُوِّن في سفر التكوين^١ ، فإنه (أدد) عند بعض أهل الأخبار^٢ . وقد تكون لاسمه علاقة باسم الإله (حدد) أو (أدد) المعبود الشهير الذي تعبد له الآراميون وقبائل عربية كثيرة ، وكذلك الآشوريون والبابليون^٣ . ولا نعرف من أمر قبيلة (حدد) هذه شيئاً يذكر في الزمن الحاضر .

وأما (تيا) ، فإنه (طا) في الكتب العربية ، وهو كناية عن (تيا)^٤ ، وسوف أتحدث عنها . وأما (يطور) ، وهو (وطور) وما أشبه ذلك في الكتب العربية ، فقبيلة عرفت بـ (Ituraea) في المؤلفات اليونانية واللاتينية^٥ . وقد حاربت العبرانيين ، وكانت تقيم شرقي نهر الأردن في أيام الملك (شاؤول) : ويظهر أنها هاجرت نحو الشمال، فسكنت في الأقسام الجنوبية من لبنان وفي الحافات الشرقية من جبال لبنان . وقد أجبر الملك اليهودي (ارسطوبولس الأول) (Aristobulus I) (١٠٧ قبل الميلاد) قسماً من اليطوريين على التهود . وكان قد استولى على أرضهم . وكان لهم ملوك . وفي أيام ملكهم (سوهومس) (سوحومس) (سوخومس) (Sohumus) أدخلت أرضهم في مقاطعة (سورية) وذلك في سنة (٥٠) ب. م. وقد كابدت دمشق مصائب شديدة من غزوات اليطوريين^٦ .

وكانت مواطن اليطوريين في ما بين (اللجة) (Trachonitis) و(الجليل) ، وعرفت بـ (جدورا) ، وبـ (ابطورية)^٧ . وقد عرفوا بمهارتهم في الرماية . وقد ذكروهم (سترابو)^٨ . والظاهر أن مواطنهم الأصلية كانت في البادية، ومنها جاؤوا الى (ابطورية) ثم ذهبوا الى الأقسام الجنوبية من لبنان والى سهل البقاع . وقد ضيق عليهم الرومان في حوالي الميلاد وأجبروا بعضهم على الرجوع الى البادية

١ الاصحاح ٢٥ ، الآية ١٥ ، قاموس الكتاب المقدس (١/٣٦٠)

٢ الطبري (١/٣١٤) .

٣ Hastings, P. 323.

٤ Enc. Bibl. P. 2213, Forster, Vol. I, P. 310.

٥ Enc. Bibl. 2213, Josephus, Anti. XIII, II, 3.

٦ Enc. Bibl. P. 2213.

٧ قاموس الكتاب المقدس (٢/٥١٣)

٨ Strabo, XVI, II, 10.

ويظهر أن سبب ذلك هو عدم خضوعهم للسلطات وغاراتهم على الحضر . وقد قتل (مارقوس أنطونيوس) (Marcus Antonius) ، ملك البطورين في سنة (٣٤) ق.م ، وكان يدعى (ليسانياس) (Lysanias)^١ ، وتوفى (زنودوروس) (Zenodorus) الذي خلفه في سنة (٢٠) ق.م ، واستولى (هيرود الكبير) (Herodes the Great) على قسم من أرض البطورين . ولما قسمت مملكة (هيرود) ، صارت هذه الأرضون من نصيب (فيليب)^٢ .

وفي أيام (لوقا) ، كانت (Ituraea) منطقة ، تقع على ما يظهر في شمال شرقي (بحر الجليل)^٣ . ويحترق الطريق الروماني الذي عمله الرومان من (دمشق) الى (طبرية) (طبريا)^٤ هذه المنطقة .

وقد كوّن البطوريون لهم إمارة أو مملكة في (البقاع) ، كان حكامها رجال دين أي كهاناً وملوكاً في آن واحد. وقد عرفنا منهم رجلاً اسمه (Mennaïos) وهو اسم قريب من الأسماء العربية ، فلعله (معن) . أما ابنه فقد سمي نفسه باسم يوناني ، هو (بطلميوس) (Ptolemaios) . وكان لهذا الملك ، أي (بطلميوس) ، ولدان ، هما : (Lysanias) ، وقد تولى الملك من بعد والده و (فيليب) (Philippion) . وأما (زينودور) (Zenodor) ، فقد خلف (Lysanias) وأما (Sohaimos) (Sohumus) ، فإنه اسم قريب من (سحيم) ومن (سهم) و (سخيم) و (سهم) ، وأمثال ذلك ، وهي أسماء عربية معروفة^٥ .

ويظهر أن ارتحال (البطورين) من الأقسام الشرقية من الأردن نحو الشمال ، نحو دمشق ، ثم سهل البقاع حتى ساحل البحر الأبيض ، كان قبل القرن الثاني قبل الميلاد . ولعلمهم هم العرب الذين ذكر أن الاسكندر الكبير كان قد حاربهم بعد حصاره للمدينة (صور) (Tyros)^٦ .

1 Dio Cassius, XLI, 32, Hastings, P. 418.

2 Hastings, P. 418, Josephus, Anti. XV, X, 3.

3 Hastings, P. 418.

4 The Bible Dictionary, I, P. 573.

5 Die Araber in der Alten Welt, I, S. 279, 315, M. Lidzbarski Ephemeris, I, (1900-1902), 335.

6 Die Araber in der Alten Welt, I, S. 170, 179.

وقد كوّن الرومان فرقاً محاربة من (اليطوريين)، اشتركت معهم في الحروب. وقد امتازت بعض هذه الفرق في حلقها بالرمي. وكوّن (مارك أنتوني) (Marcus Antonius) حرساً خاصاً منهم، أشير اليهم في الموارد اليونانية واللاتينية^١.

و (نافش) (Naphish) ، هو (نفيس) عند الأخباريين^٢. ويرى بعض علماء التوراة احتمال كون (بنو نفسيم) (Naphisim) المذكورين في سفر (عزرا) هم (نافش) هؤلاء^٣.

وأما (قدمة) ، فهو (قيدمان) و (قيدما) وما شاكل ذلك في المؤلفات العربية^٤ ، ولا نعرف من أمرهم شيئاً يذكر في الزمان الحاضر، ولعلمهم (القدموين) الذين أدخلت أرضهم في جملة (الأرض الموعودة) المذكورة في التوراة^٥. وكانت مواطنهم عند (البحر الميت) . ومن العلماء من يظن أن لهم صلة بـ (بني قديم) (Bene Kedem) ، أي (أبناء الشرق)^٥. وذهب (فورستر) ، الى احتمال كون (قدمة) موضع (رأس كاظمة) على الخليج^٦. ولما كانت (قدمة)^٧ من القبائل الإسماعيلية ، وقد ذكرت مع القبائل الإسماعيلية في التوراة، ومواطنها كلها لا تبعد كثيراً عن فلسطين ، فإنني أرى أن مواطن هذه القبيلة يجب أن تكون أيضاً في هذه المواضع ، أي في مكان لا يبعد كثيراً عن فلسطين.

والغالب على أبناء إسماعيل البداوة ، أي حياة التنقل والغزو والرمية ، لذلك كانت ملاحظة التوراة عن إسماعيل من أنه سينشأ راعياً ، ملاحظة حسنة ، تدل على تبصر بأمور (الإسماعيليين) الذين كانوا يقومون بالغزو ويرمون بالسهم .

أما المجموعة الثالثة من مجموعات أنساب العرب المذكورة في التوراة ، فإنها مجموعة قبائل نسبت الى (قطورة) زوج (ابراهيم) . وقد ذكرت التوراة

Hastings, A Dictionary, II, P. 521.

الطبري (٣١٤/١) .

Hastings, P. 645, Enc. Bibl. P. 3331

عزرا ، الاصحاح الثاني ، الآية ٥ . ، الطبري ، (١٦١/١) ، (٣١٤/١) ، « دار المعارف » ، ابن سعد ، الطبقات (١ ق ، ١ ص ٢٥)

التكوين ، الاصحاح الخامس عشر ، الآية ١٩ .

Hastings, P. 512, Enc. Bibl. P. 3331.

Forster, Vol. I, P. 313.

انها ولدت له (زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحاً)^١.
وولد يقشان : شبا ، وددان . وكان بنو ددان : أشوريم ، ولطوشيم ، ولأميم.
وبنو مديان : عيقة ، وعفر ، وحنوك ، وأبيسداع ، والدعة^٢ . ويبلغ عدد
القبائل المنحدرة من (قطورة) ست عشرة قبيلة^٣ .

ف (قطورة) اذن هي مجموعة قبائل مثل الإسماعيليين واليقطانيين ، وهي
تتفق مع القبائل الإسماعيلية في أنها تنحدر من صلب ابراهيم ، وهي من هذه الناحية
أقدم عهداً من القبائل الإسماعيلية ، لأن والد هذه القبائل هو ابراهيم . أما والد
القبائل الإسماعيلية ، فهو اسماعيل ، وهو ابن ابراهيم .

والأسماء المذكورة كناية عن قبائل عربية ، ألّفت مجموعة خاصة ، كان حلفاً
على ما يظهر تألف من قبائل رجعت نسبها الى أصل واحد ، هو (قطورة) .
انتشرت قبائله في الأرضين الواقعة بين القبائل العربية الإسماعيلية وبين القبائل
اليقطنانية . وتشير قصة زواج (ابراهيم) بقطورة الى صلة القطوريين بالإسماعيليين ،
والإسماعيليون من صلب اسماعيل بن ابراهيم ، ويؤخذ على أنه كناية عن اختلاط
قبائل المجموعتين ، أي الحلفين بتعبير أصح . ووجود أسماء بعض قبائل يقطانية
وبعض قبائل كوشية في قائمة أسماء أبناء قطورة ، هو أيضاً دليل على وجود
صلات بين هذه الاحلاف الثلاثة وعلى تداخل القبائل واختلاطها ببعضها بعض .

أما أولاد (قطورا) عند أهل الأخبار ، فهم : يقسان ، وزمران ، ومديان ،
ويسبق ، وسوح ، وبسر على رواية^٤ ، ومدن ومدين ويقسان وزمران ويسبق
وسوح على رواية أخرى^٥ . ومدن ومدين ويقشان ، وزمران ، وأشبق ، وشوخ^٦.
وقد أخذت هذه الأسماء كما نرى من التوراة ، الا ان من أخذها حرّف فيها
بعض التحريف ، وخالف الترتيب الموجود للأسماء في التوراة فقدّم وأخر ،
وأضاف اسماً جديداً هو (بسر) على الرواية الأولى ، وضعه في مكان (مدان) ،

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١ فما بعدها .

٢ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١ فما بعدها

Hastings, P. 514.

٣ الطبري (١٥٩ / ١) ، (٣٠٩ / ١) ، « دار المعارف » .

٤ الطبري (١٦٠ / ١) .

٥ ابن سعد ، الطبقات (١٠ ، ١١ ، ١٢) ، ص ٢٢ .

الا أن الطابع التوراتي ظل بارزاً واضحاً عليها . فلا حاجة بنا الى ارجاع كل اسم منها الى الاسم المقابل له في التوراة .

وزوج أهل الأخبار (يقشان) (يقسان) ، من امرأة سموها (رعوة بنت زمر بن يقطن بن لوزان بن جرهم بن يقطن بن عابر) ، وأولدوا لها ولداً دعوه (البربر) ، قالوا عنه إنه جد البربر . وهو زوج لا تعرف عنه التوراة شيئاً ، وأما الزوج (رعوة بنت زمر بن يقطن) ، فليس لها ذكر فيها أيضاً ، وأما نسبها ، فهو نسب اخترعه من اختراعها ، وليس له لذلك ذكر في التوراة . وأما (بربر) ابن (رعوة) فهو من صنع صانع أخبار أمه . وليس له ذكر ما في التوراة .

ولفظه (بربر) في الكتاب المقدس لفظة تعني (الغريب) ، وهي من أصل يوناني ، وقد أطلقها اليونان على الغرباء الناطقين بلغة أخرى غير اللغة اليونانية^٢ . ولم تستعمل علماً على جنس معين له جد وأب ونسل . ولذلك ، فإن ربط نسب (البربر) ، وهم سكان المناطق المعروفة من شمال إفريقيا بـ (رعوة) وبقحطان ، هو من صنع (أهل الأخبار) ، وقد وقع في الإسلام بالطبع ، وبعد الفتح الإسلامي لتلك المناطق ، لغايات سياسية ، على نحو ما حدث من ربط نسب الفرس واليونان والأكراد بالعرب .

ولم يشر الأخباريون وأهل الأنساب الى (القطوريين) كطبقة خاصة من العرب . وقد أشار بعضهم الى قبيلة عربية عرفت بـ (قطورة) ، ذكروا أنها عاشت مع (جرهم) بمكة^٣ . ولعل لتشتت شمل القبائل القطورية ودخولها في القبائل الأخرى : قحطانية وعدنانية ، وفي جهل أهل الكتاب في ذلك العهد ، أي أيام لجوء أهل الأخبار اليهم يسألونهم عن الأنساب ، دخلاً في هذا الإهمال .

ويلاحظ أن بين أسماء قبائل (قطورة) أسماء وردت في جدول أنساب قبائل (يقطان) ، وفي جدول أسماء أبناء (كوش) . ويفسر بعض العلماء ذلك بانصال القبائل القطورية بالقبائل القحطانية وبالقبائل الكوشية وباختلاطها بها وتلاحمها

١ الطبري (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢١٧/١) . Hastings, P. 84.

٣ Hastings, P. 514, Enc. Bibl. P. 2660, Ritter, Erdkunde, 12, 19.

معها ، ونزولها بينها ، فعدّ كتبة (أسفار التكوين) ذلك نسباً ، فأدخلوا القسم الذي دخل في اليقطانيين من اليقطانيين ، والقسم الذي نزل بين الكوشيين من الكوشيين ، ومن ثمّ صار ذلك نسباً ورابطة دم^١ .

وزوج إبراهيم (قطورة) ، معروفة عند أهل الأخبار . وقد دعوها بـ (قطوراء) وبـ (قطورا) وبـ (قنطوراء)^٢ . ومعنى اللفظة في اللغة العبرانية (البخور) . وقد تزوجها إبراهيم بعد وفاة (سارة)^٣ . ولكنهم كعادتهم في معظم الأخبار التي أخذوها من أهل الكتاب ، خلطوا في أخبارها وحرّفوا فيها ، فجعلوها لها نسباً ، ولم يرد له ذكر في التوراة ، اختلفوا فيه أيضاً ، فصار (يقطن) والد (قطورة) في خبر^٤ ، وصار (يكفور) أو (مفطور) هو والدها في خبر آخر ، وصار (افراهم بن أرغو بن فالخ) هو والدها في خبر آخر أيضاً^٥ . وجعلت عربية من العرب : تتكلم بهذا اللسان العربي المعروف . وقيل إن اسمها (انموتا) أو (انملى)^٦ ، وصيرت (قطورا بنت يقطن) ، ولكنهم أخرجوها أحياناً من العرب ، وأضافوها إلى الكنعانيين^٧ ، كما جعلوها (قطورا بنت مقطور) من العرب العاربة^٨ .

ولم يظن أهل الأخبار إلى خلطهم في هذا النسب وإلى سكوت التوراة عن نسبها ، ولا أدري من أين جاؤوا بـ (يكفور) ، أو (مفطور) ، وكيف يجوز أن تكون (قطوراء) من نسل (افراهم بن أرغو بن فالخ) . فـ (افراهم) ، هو (إبراهيم) ، وهو زوج (قطورة) لا والدها أو جدّها أو جدّة جدّها أو ما شاكل ذلك . ثم إن نسب (إبراهيم) على هذه الصورة هو نسب مغلوطة ، يدل على جهل ، فإنه (إبراهيم) وهو (ابرام) في التوراة ، هو ابن (تارح)

١ Musil, Hegaz, P. 287.

٢ القاموس (١٢٣/٢) ، اللسان (٤٢٢/٦) .

٣ التكوين ، الاصحاح ٢٥ ، آية ١ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول الآية ٣٢

٤ الطبري (١٥٩/١) ، الكامل (٤٨/١) .

٥ الطبري (٥٩/١) ، الكامل (٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (١٠٠ ، ١٠١ ، ص ٢٢)

٦ الطبري (١٥٩/١) .

٧ الطبري (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .

٨ الطبري (٣١١/١) ، « دار المعارف »

و (تارح) هو ابن (ناحور) و (ناحور) ابن (سروج) وهذا هو ابن (رعو) الذي صار (ارغو) عند الإسلاميين . و (رعو) هو ابن (فالج) الذي صير (فالج) عند أهل الأخبار . فترى من ذلك كيف خلط أهل الأخبار ، وكيف كان علمهم بالقصص المأخوذ من التوراة . وكل هذا الجهل ناشئ من اعتمادهم على الأخذ شفاهاً من أهل الكتاب ، ومن عدم رجوعهم الى نص التوراة ^١ .

ويلاحظ ان أكثر الذين قالوا في (قطورة) (قطوراء) و (قطورا) ، ذكروا أولادها على نحو ما ورد في التوراة . أما الذين قالوا (قنطوراء) ، فقد نسب أكثرهم اليها الترك والصين ، وأضاف بعضهم اليها السودان في بعض الأحيان ^٢ . وهو نسب تكرم به عليها أهل الأنساب والأخبار ، فليس في التوراة ذكر لهؤلاء الأولاد النجباء . ولعل إلحاق هؤلاء بـ (قنطوراء) انما كان لغرض سياسي ، هو إدماج نسب الترك والصين بالعرب ، ترضية لهم ، كما فعلوا بالنسبة الى شعوب أعجمية أخرى . ويرد اسم (بنو قنطوراء) في الملاحم والثنويات ، فرووا أحاديث تدل على شعور الخلافة الإسلامية بالخطر القادم من الترك والصين ، وبأن النسب لم ينفع شيئاً معهم ، اذ ورد : « يوشك بنو قنطوراء أن يخرجوكم من أرض البصرة » ، وورد : « اذا كان آخر الزمان جاء بنو قنطوراء » ^٣ .

وزعم أهل الأخبار ان ابراهيم تزوج من زوج أخرى ، كانت من العرب أيضاً ، أسموها (حجور بنت أرهير) ، ولدت له خمسة بنين : (كيسان ، وشورخ ، وأمير ، ولوطان ، ونافس) . وليس في التوراة ذكر لهذه الزوج العربية ، فليس لها نسل فيها بالطبع . فالأولاد هم من نسل غيلة أصحاب الأخبار ، جمعوها من أسماء توراتية مرت وتكرر علينا في مواضع من هذا الكتاب ، وضبطوها بعدد ، لتظهر بمظهر خبر صحيح مضبوط .

ومن الأخباريين من أحجم عن تعيين هوية زوج ابراهيم ، فلم يذكروا شيئاً

١ راجع نسب ابراهيم في التكوين ، الاصحاح الحادي عشر ، الاية ١٥ فما بعدها .

٢ القاموس (١٢٣/٢) ، اللسان (٤٢٢/٦)

٣ اللسان (٤٢٢/٦) .

٤ الطبري (١٦٠/١) ، (٣١١/١) ، « طبعة دار المعارف » ، الكامل لابن الاثير

(٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (١٠٠ ، ق ١ ، ص ٢٢) .

عن عروبتهأ أو عن أبيها وجدّها، بل اكتفوا بذكر اسمها وحده، فدعوه (حجونى)، وقالوا : إنها ولدت له سبعة نفر ، هم : نافس ، ومدين ، وكيشان، وشروخ، وأمىم ، ولوط ، ويقشان^١ .

ومعارفنا بالقبائل القطورية لا تختلف عن معارفنا بالقبائل الإسماعيلية واليقطانية من حيث الضالة والضمالة . فهي قد لا تزيد في بعض الأحيان على الاسم ، ذلك لأن التوراة لم تذكر شيئاً عنها ، ولأن المفسرين والأخبار الذين شرحوا التوراة ، لم يذكروا شيئاً عن تلك القبائل ، إما جهلاً بها ، وإما لعدم وجود ميل بين العبرانيين الى الوقوف على أحوال تلك القبائل التي ذكرت في التوراة لمناسبة من المناسبات . ولهذا ضحل علمنا بها أيضاً . وليس أمامنا غير انتظار الحظ ، فقد يكتشف العلماء موارد جديدة قد تساعدنا في الوقوف على أولئك الأقوام .

فزمران مثلاً ، لا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وقد ورد لدى (بلينيوس) اسم قبيلة عربية دعاها (Zamareni) ، وهذا الاسم قريب من (زمران) ، لهذا رأى بعض العلماء احتمال وجود صلة باسم هذه القبيلة القطورية^٢ ، كما ورد اسم موضع يقال له (زبرم) (Zabram) يقع غرب مكة ، يرى بعض الباحثين احتمال وجود صلة له بتلك القبيلة^٣ . غير أن من الصعب الحكم أن أحد هذين الموضعين هو (زمران)^٤ .

وأولد أهل الأخبار لـ (زمران) ولداً سموه : (المزامر) ، وهو في نظرهم جدّ (المزامر الذين لا يعلمون)^٥ . وليس في التوراة ولد لـ (زمران) اسمه (المزامر) صفتهم أنهم لا يعلمون . وليس للفظه أية صلة بـ (المزامر) التي هي أغان أو موشحات ترتل على صوت المزمار لتمجيد الله . وتقسم الى خمسة كتب ، يحتم كل منها بتسبيحة ، وتكرر لفظة (آمين) مرتين ، أضافها

١ الطبري (١٦٠/١) ، (٣١١/١) ، « دار المعارف » ، الكامل ، لابن الاثير

(٤٨/١) ، ابن سعد ، الطبقات (ح ١ ، ق ١ ، ص ٢٢) .

٢ Enc. Bibl. P. 5419, Pliny, 26, 32, (Grotius).

٣ Enc. Bibl. P. 5419.

٤ Glaser, Skizze, 2, S. 451.

٥ الطبري (١٥٩/١) ، (٣٠٩/١) ، « دار المعارف » .

جامعو المزامير لا مؤلفوها^١ . وهي من لفظة (مزمو) (Mizmor) في العبرانية و (Mazmor) في السريانية و (Mazmur) في الاثيوبية ، وتقابل (الزبور) و (الزبر) في القرآن الكريم^٢ .

وقد ذكر (ابن النديم) على لسان (أحمد بن عبدالله بن سلام) من مترجمي التوراة والإنجيل ، أن المزامير هي (الزبور) ، وهي خمسون ومئة زمور^٣ . وهو عدد صحيح مضبوط ، يدل على علمه بعدد المزامير ، لأن ما ذكره هو عددها الصحيح .

والعلماء مختلفون فيما بينهم في المعنى (الاثنولوجي) لكلمة (زمران) . ويرى بعضهم أنها من (زمر) ومعناها (تيس جبلي) ، ويقولون إن بني (زمران) اتخذوا ذلك الحيوان (طوطماً) لهم ، ولذلك عرفوا به^٤ .

أما (يقشان) ، فرى (كلاسر) أنه موضع (وقشة) ، وهو مكان من السراة في عسير^٥ . ورأى (أوسيندر) أنه (يقش) في اليمن^٦ . وذكر (الهمداني) اسم قبيلة سماها (بني وقشة) من قبائل (الجنب)^٧ . وذهب فريق من العلماء الى أن اللفظة هي تحريف للفظ (يقطان)^٨ .

وقد ذكر أهل الأخبار أن (بني يقسان) ، أي (بني يقشان) لحقوا بمكة فسكنوا بها^٩ . ولكنهم لم يسيروا الى بنية على نحو ما جاء في التوراة .

وأما (مديان) (مدان) (Midian) ، فلمنه (مدين) في الموارد العربية .

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٥١٣ وما بعدها) ، Hastings, P. 769.

٢ الاسراء ، السورة رقم ١٧ ، الآية ٥٥ ، ال عمران ، ٣ ، الآية ١٨٤ ، النحل ، ١٦ ، الآية ٤٤ ، الشعراء ، ٢٦ ، الآية ١٩٦ ، فاطر ، ٣٥ ، الآية ٢٥ ، القمر ، ٥٤ ، الآية ٤٣ ، ٥٢ .

٣ الفهرست (ص ٣٤) .

٤ Hastings, P. 990.

٥ Glaser, Skizze, 2, S. 453.

٦ Osiander, in ZDMG. 10, 31 Enc. Bibl. P. 2564.

٧ صفة (ص ١١٦) .

٨ Enc. Bibl. P. 2564, Hastings, P. 490, Montgomery, Arabia and the Bible, P. 44.

٩ الطبري (١/٣١١) ، « دار المعارف » .

وقد ورد ذكر (مدين) و (أصحاب مدين) في مواضع من القرآن^١ . ورد على سبيل العظة والتذكير بمصير يشبه مصير (مدين) ، وأشار الى نبيهم (شعيب) : (والى مدين أخاهم شعيباً)^٢ . وورد اسمهم في سورة (التوبة) مع قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم^٣ ، وورد مثل ذلك في سورة (الحج)^٤ . ومما جاء في القرآن على لسان شعيب ، قوله يخاطب أهل مدين : « يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين »^٥ . وورد في سورة هود ما يشير أيضاً الى أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فاستحقوا العقاب والعذاب ، وذلك لترهيب أهل مكة ، وكانوا تجاراً ، من نقص المكيال والميزان ، لثلاث يصيبهم ما أصاب قوم شعيب حيث أصابهم الهلاك .

ويظهر من ذكر (الرجفة) أن حدثاً أرضياً ، هزة أو هياج حرّة ، أصابهم ، فأثر فيهم^٦ . وهذا ممكن جداً ، لأن أرض مدين من مناطق الزلازل والحيرار .

ولورود اسم (مدين) وقصة (شعيب) في القرآن الكريم ، عني المفسرون وأصحاب قصص الأنبياء بجمع ما ورد عن أهل مدين وأخيهم شعيب من أخبار ، غير أنهم لم يجدوا في ذاكرة من تقدمهم شيئاً ، فاستعانوا بما ورد عند يهود . وقد أضاف الأخباريون الى ذلك شيئاً من القصص الشعبي ، وشيئاً ابتكروه ، فأصبح (شعيب) (شعيب بن نويت بن رعويل بن مر بن عتقاء بن مدين ابن ابراهيم)^٧ . وقد ذكر الطبري وغيره من المفسرين والمؤرخين ان اسم (شعيب) (يثرون) (يثرون) (يثرو)^٨ ، وقد أخذوا ذلك من أهل

١ الاعراف ، ٧ ، الآية ٨٥ ، التوبة ٩ ، الآية ٧٠ ، هود ، ١١ ، الآية ٨٤ ، ٩٥ ، طه ، ٢٠ ، الآية ٤٠ ، الحج ، ٢٢ ، الآية ٤٤ ، القصص ، ٢٨ ، الآية ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٥ ، العنكبوت ، ٢٩ ، الآية ٣٦ .

٢ الاعراف ، ٧ ، الآية ٨٥ .

٣ التوبة ٩ ، الآية ٧٠ .

٤ الحج ٢٢ ، الآية ٤٤ .

٥ الاعراف ، ٧ ، الآية ٨٥ .

٦ العنكبوت ٢٩ ، الآية ٣٦ .

٧ مروج الذهب (٢٨ / ١) .

٨ الطبري (١٦٧ / ١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١ / ١) .

الكتاب ولا شك ، ففي التوراة ان (موسى) نزل على أهل (مدين) ، بعد هربه من (فرعون) ، وتزوج ابنة كاهن (مدين) (مديان) (يثرون) ، واسمها (صفورة) ، فولدت له ولداً دعاه (جرشوم) (كرشوم) . فرأى المفسرون والأخباريون ان شعباً المذكور في القرآن الكريم هو (يثرون) التوراة . ويرى (بول) (Buhl) ان ذلك لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وإنما حدث هذا بعد هذا العهد^١ .

وقد وضع بعض أهل الأخبار نسباً عجيباً مضحكاً لـ (شعيب) ، فجعلوه (يثرون بن ضيعون بن عنقا بن ثابت بن ابراهيم)^٢ . وتعقّل آخرون فقالوا: انه (شعيب بن ميكيل) من ولد مدين^٣ . وقيل غير ذلك . وكل هذا من وضع أهل الأخبار ، وأهل الكتاب الذين أمدّوهم بمثل هذه الأنساب والقصص ، ولم يتورعوا من ادعاء انهم وجدوا ذلك في كتب الله .

وقد عرف (يثرو) (Jethro) (Jether) بـ (رعوثيل) (Reuel) أيضاً في التوراة^٤ . كما عرف بـ (حوياب بن رعوثيل) في موضع آخر^٥ . ويظهر ان خطأ قد وقع في كتابة الاسم الثاني أو الأول ، ولهذا صار (رعوثيل) في سفر الخروج و (حوياب بن رعوثيل) في سفر العدد . ونرى ان الاسم الذي ذكره (المسعودي) وغيره من أهل الأخبار لـ (شعيب) الذي هو (يثرو) يختلف مع اسمه المذكور في التوراة . ويرى بعض الباحثين ان كلمة (يثرو) ليست اسم علم له ، وإنما هي كناية عن وظيفته ، وهي الكهانة ، فقد كان كاهناً في قومه ، والكاهن هو (يثرو) في بعض اللغات العربية الجنوبية ، وأما اسمه ، فهو (رعوثيل) أو (حوياب بن رعوثيل)^٦ .

وقد جعل الناس لشعيب قبراً زعموا انه على مقربة من (حطين) في موضع سماه (باقوت) (خيارة)^٧ . وقال له (بول Buhl) (خربة مدين)^٨ .

Enc. Vol. 4, P. 389, J. Horovitz, Koranische Untersuchungen, Berlin, 1916, S. 119. ff. ١

٢ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

٣ الطبري (١٦٧/١) ، الكامل ، لابن الاثير (٦١/١) .

٤ الخروج ، الاصحاح الثاني ، الآية ١٨ .

٥ العدد ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٩ .

٦ Hastings, P. 465.

٧ البلدان (٢٩٩/٣)

٨ Enc. Vol. 4, P. 389.

وقد ورد خبر (مدين) في غزوة (زيد بن حارثة) لجذام في (حسمى)^١ .
ويظهر من بعض الموارد الإسلامية أن (مدين) كانت في صدر الإسلام من أرض
(جذام) ، وانها كانت اذ ذاك أكبر من (تبوك) . وبها بشر زعم انها البشر
التي استقى منها موسى^٢ .

ويظهر من شعر (كُثَيْر عَزَّة) انه كان في أيامه بمدين جماعة من الرهبان،
يتعبدون ، ويبكون من حذر العقاب^٣ . وورد اسم بطن يقال له (بنو المدان)،
كما ورد ذكر (مدان) في غزوة (زيد بن حارثة) بني جذام ، ويقال له
(ففاء مدان)^٤ . (والمدان) اسم صنم أيضاً ، وبه عرف (بنو عبد
المدان)^٥ .

وفي التوراة ان (المديانيين) كانوا برفقة (الإسماعيليين) لما بيع (يوسف)^٦ .
وأن موسى نزل عندهم وتزوج فيهم : أخذ ابنة (يثرون) كاهن (مديان)
(مدين)^٧ . وفي موضع آخر أن (يثرون) من (بني القيني) (Kenite)^٨
وبطن أن (بني القيني) هم فرع من فروع (مديان)^٩ .

-
- ١ ابن هشام (٩٩٤/١) « طبعة وستنفلد » .
 - ٢ صفة (١٢٩) ، اللسان (٢٨٩/١٧) ، البلدان (٤١٨/٨) ، ابن خرداذبه ،
السالک (ص ١٢٩) ، « طبعة دى غويه » ، ابن رسته ، الاعلاق (طبعة دى غويه)
(ص ١٧٧) ، احسن التقاسيم ، (ص ١٥٥) ، « طبعة دى غويه » ، البلدان
لليعتوبي (ص ٣٤١) ، « طبعة دى غويه » ، البكري ، معجم ، (٥١٦/٢) فما
بعدها ، « طبعة وستنفلد » .
 - ٣ البلدان (٤١٨/٨)
 - ٤ اللسان (٢٨٩/١٧) .
 - ٥ « والمدان : صنم ، وبنو المدان بطن » ، اللسان (٢٨٩/١٧) ،
Enc. Bibl. P. 3002.
 - ٦ « فمر قوم مدينيون تجار ، فجذبوا يوسف واصعدوه من البئر وباعوه
للاسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتوا بيوسف الى مصر » التكوين ، الاصحاح
السابع والثلاثون ، الآية ٢٨ .
 - ٧ الخروج ، الاصحاح الثالث ، الآية ١ وما بعدها ، « وكان موسى يرعى غنم
يثرو حميه كاهن مدين ، فساق الغنم الى ما وراء البرية ، حتى افضى الى جبل الله
حوريب » .
 - ٨ القضاة ، الاصحاح الاول ، الآية ١٦
 - ٩ Hastings, P. 616, Enc. Bibl. P. 3080.

وقد اتحد (المديانيون) مع (مؤاب) ضد اسرائيل^١ . وفي أيام (جدعون) (Gideon) كان المديانيون قد ضايقوا العبرانيين مضايقة شديدة ، وكانوا قد اتفقوا مع العالقة و (بني المشرق) ، فتمكن (جدعون) من اخراجهم . وقد ورد في سفر (القضاة) اسم أميرين من أمراء المديانيين ، هما (غراب) (Oreb) ، و (ذئب) (Zeeb)^٢ وورد في الإصحاح الثامن من القضاة اسم ملكين أو (شيعين) من (مديان) (مدين) هما : (زبج) (Zebah) و (صلنماع) (Zalmuna)^٣ . والظاهر أنه لم يعد للمديانيين شأن منذ هذا العهد ، فلم يرد عنهم شيء يذكر ، ولعلمهم ذابوا في القبائل العربية الأخرى^٤ . ويفهم مما جاء في (القضاة) أنهم كانوا فرعاً من (الإسماعيليين)^٥ . والذي يفهم من مواضع متعددة من أسفار التوراة أن مواطن (المديانيين) كانت تقع شرق العبرانيين^٦ . والظاهر أنهم توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين، واتخذوا لهم هناك مواطن جديدة ، عاشوا فيها أبداً طويلاً بعد هذا التاريخ حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة^٧ . وقد ذكر (بطلميوس) موضعاً يقال له (مودينا) (Modiana) على ساحل البحر الأحمر ، يرى العلماء أنه موضع (مدين) ، وهو ينطبق على موضع أرض مدين المعروفة في الكتب العربية^٨ .

وذكر (يوسفوس فلافيوس) المؤرخ اليهودي المعروف مدينة سماها (Madiana) وقال إن موسى زارها^٩ . وذكر (بطلميوس) مدينة أخرى سماها (Madiama)^{١٠} ، وقد أشار المؤرخ (أويسبيوس) (Eusebius) الى مدينة دعاها (مديم) (Madiam) ، قال إنها سميت بهذا الاسم نسبة الى ولد من أولاد (قطورة) زوج ابراهيم ، وهي تقع في بادية الـ (سَرَسِينَ) (Saracens) الى شرق

-
- ١ القضاة ، الإصحاح السادس ، الآية ٢٣ .
 - ٢ القضاة ، الإصحاح السابع ، الآية ٢٥ ، الإصحاح الثامن ، الآية ٣ .
 - ٣ القضاة ، الإصحاح الثامن ، الآية ٦ وما بعدها .
 - ٤ Hastings, P. 616.
 - ٥ القضاة ، الإصحاح الثامن ، الآية ٢٤ . Enc. Bibl. P. 3081.
 - ٦ Enc. Bibl. P. 3081, Hastings, P. 616.
 - ٧ Enc. Bibl. P. 3081.
 - ٨ Enc. Bibl. P. 3081, Hastings, P. 616, Ptolemy, VI, 7, 27, Enc. Vol. 3, P. 104.
 - ٩ Josephus, Archaeologia, II, 257, (Naber), Musil, Hegaz, P. 278.
 - ١٠ Ptolemy, Geography, VI, 7, 27, Enc. Bibl. 3081.

البحر الأحمر . ويرى (موسل) أن (Madiama) أو (Madiam) هي (مدين)^١ .

ويظهر من التوراة أن (المدينيين) قد غيروا مواضعهم مراراً ، بدليل ما يرد فيها من اختلاطهم بـ (بني قديم) والعمالقـة والكوشيين والإسماعيليين^٢ . ويظهر أنهم استقروا بعد ضعفهم في المنطقة التي ذكر (يوسفوس) وجود مدينة (Madiama) فيها ، أي في القرون الأخيرة قبل الميلاد . ويرى (موسل) أنها تقع في جنوب (وادي العربـة) وإلى جنوب وجنوب شرقي العقبة^٣ .

ومن الصعب تعيين (يشاق)^٤ . فقد رأى بعضهم أنه موضع (يسبق) وهو مكان في شمال سورية ، ذكر في كتابات (شلمنصر) الثاني^٥ . وقد ورد في خبر فتوحات (تغلا تليزر) الأول اسم مكان يقال له (سوخ) (Sukh) أو (شوح) أو (شوخ) (Schukh) ، ويقع شرق (حلب) ، وهو لا يبعد كثيراً عن أرض (يسبق) (Jasbuk) . واسم (سوخ) قريب جداً من (شوح) الذي يلي اسم (يشباق) في التوراة ، لذا رأى بعض العلماء أنه هو الموضع المقصود ، وأن (يشباق) كناية عن هذا المكان ، عن موضع (يسبق) الذي لا يبعد كثيراً عن (شوح)^٦ . ورأى بعض الباحثين أنه (الشبك) ، وهو موضع يقع على طريق (السكة الرومانية) الموصلة إلى العقبة^٧ .

وأما (شوحا) ، فذهب بعض الباحثين إلى أنه موضع (سوخ) (سوخو) (Sukh) (Suchu) المذكور في نص (آشور بنبال) (٨٦٠) ق. م^٨ . ويقع على الجانب الأيمن من نهر الفرات^٩ . وقد ذكرت أن نفرأ من الباحثين رأوا

١ Mustil, Hegaz, P. 279.

٢ التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٦ ، الأصحاح السابع والثلاثون الآية ٢٥ ، العدد ٢٨ ، الأصحاح الثاني عشر ، الآية ١ ، حبقوق ، الأصحاح الثالث ، الآية ٧ .

٣ Musil, Hegaz, P. 287.

٤ Hastings, P. 392.

٥ Enc. Bibl. 2210, Fr. Delitzsch, in "Zeitschrift fuer die Kellschriftforschung und verwandte Gebiete," 2, 91. f., 1885 W. Smith, A Dictionary of the Bible, comprising its Antiquities, Biography, Geography, and Natural History, 2nd. Ed. Glaser, Skizze, 2, S. 445. Glaser, Skizze, 2, S. 445. ff.

٦ Glaser, Skizze, 2, S. 445. ff.

٧ Forster, I, P. 352. f.

٨ Enc. Bibl. P. 4495.

٩ Hastings, P. 852, Enc. Bibl. P. 4495.

أنه مكان (سوخ) المذكور في نص (تغلا تبليزر) الأول . وقد نسب أحد أصحاب (أيوب) الثلاثة ، وهو (بلدد) الى (شوح) فعرف به (الشوحي)^١ . ويظن كثير من العلماء أنه من قبيلة أو من أرض عرفت به (شوح) ، وأن هذه القبيلة أو الأرض هي (شوحا)^٢ .

وقد نسبت التوراة ولدين الى يقشان هما : (شبا) ، و (ددان) . ويجب أن تكون أرض (شبا) هنا في جوار أرض (ددان) ، وذلك لورود (ددان) مباشرة بعد (شبا) ، أي على مقربة من موضع (ديدان) الذي هو (العلا) في الحجاز^٣ . وأهل (شبا) المذكورون هنا ، هم جالية سبئية من جاليات سبئية عديدة انتشرت بين اليمن وفلسطين ، وفي السواحل الإفريقية المقابلة لليمن^٤ ، كما سأحدث عن ذلك .

ولم تهب التوراة لشبا أولاداً ، بل تركته عقيماً . إنعما وهيت شقيقه ددان عدداً من الأولاد ونسلاً ، هم (آشوريم) و (لطوشيم) و (لأميم) . أما (آشوريم) (Ashurim) (Asshurim) ، فإنهم قبيلة عربية من قبائل (قطورة) باجاء علماء التوراة ، ولا صلة لهم به (آشور) ، أي الآشوريين . وقد ورد في (التركوم) (Targum) أن (آشوريم) بمعنى سكان مستوطنة أو معسكر^٥ . مما يدل على أن هؤلاء العرب كانوا مستقرين مقيمين في مستوطنات ، ولم يكونوا أعراباً .

وقد ورد اسم (آشور) في نصوص معينة مقروناً باسم موضع (عبر نهران) ، وتقع هذه المنطقة من (طور سيناء) الى (بئر السبع) (Beersheba) و (حبرون)^٦ وتحاذي (مصرى) في جزيرة العرب على رأي (ونكلر)^٧ . ولا نعرف شيئاً عن (لطوشيم) و (لأميم) ، ويظن (كلاسر) أنهم من سكان (طور سيناء)^٨ .

١ ايوب ، الاصحاح الثاني ، الآية ١١

٢ قاموس الكتاب المقدس (٢٤٥/١) ، Enc. Bibli. P. 4495 Hastings, P. 852.

٣ Glaser, Skizze, 2, S. 454.

٤ Hastings, P. 842.

٥ Hastings, 2, P. 59.

٦ Enc. Bibli. P. 346, Glaser, 1155, Winckler, AOF, 28. f. ZDMG, 1895, S. 527, Winckler, Musri, 2, S. 51. ff.

٧ Winckler, Musri, 2, 51.

٨ Glaser, Skizze, 2, S. 460, Enc. Bibli. P. 2768, Hastings, P. 541.

وأما (مديان) (مدين) ، فكان له من الأولاد : عيفة ، وعفر ، وحنوك ، وايداع ، والدعة^١ . فهم اذن قبائل من صلب (مديان) أي مدين .

أما (عيفة) ، فقد ورد ذكره في التوراة على انه اسم قبيلة كانت تحمل الذهب واللبان على الجمال من (شبا) وتبيع تجارتها في فلسطين .

ذكرت مع (مدين)^٢ . ويظهر ان (بني عيفة) وأهل مدين، كانوا وسطاء أو تجاراً يذهبون الى (شبا) ، فيحملون الذهب واللبان ، لبيع هذه السلع الغالية النفيسة في فلسطين . ولا نعرف من أمر هذه القبيلة في الزمن الحاضر شيئاً يذكر^٣ .

وأما (عفر) ، فاسم قبيلة يظن بعض العلماء انها (بنو عفار) من (كنانة)^٤، أو موضع (يعفر) على مقربة من (الحنكية) بين تهامة وأبان^٥ . ورأى (كلاس) انه موضع (Apparu) الذي ورد في كتابة تعود الى (آشور بنبال)^٦.

وهناك مواضع أخرى اسمها قريب من اسم (عفر) ، فعلى مقربة من (مكة) موضع يعرف بـ (عفر) وبـ (عفار) ، وفي نواحي (العقيق) مكان يسمى (عفاريات)^٧ . وذكر (الهمداني) (عفار) و (الحنقة) ، واسماهما قريبان من (عفر) و (حنوك)^٨ . غير ان في أعالي الحجاز في منطقة (مدين) وفي الأردن مواضع تسمى بأسماء قريبة من (عفر) .

وأما (حنوك) ، فلا نعرف من أمره شيئاً يذكر . وقد ذهب بعض الباحثين الى انه (الحنكية) ، وهو موضع في شمال المدينة^٩ .

وأما (ايداع) (Abida') ، فيرى (كلاس) انه موضع من هذه

١ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٤ .

٢ اشعيا ، الاصحاح الـ ٦٠ ، الآية ٦

٣ Enc. Bibl. P. 1301, Hastings, P. 231.

٤ Enc. Bibl. P. 1301.

٥ Enc. Bibl. P. 1301.

٦ Glaser, Sklze, 2, S. 449.

٧ صفة (ص ٢٥٣)

٨ البلدان (١٨٧/٦) فما بعدها .

٩ Glaser, Sklze, 2, S. 449, Enc. Bibl. P. 1960.

المواضع في الحجاز^١. وقد ورد في النصوص السبئية اسم قريب من هذا الاسم^٢. ولا نعرف من أمر (الدعة) شيئاً حتى الآن^٣.

أبناء كوش :

ونجد في التوراة ان أبناء (كوش) (سبا ، وحويلة ، وسبته ، ورعمة ، وسبتكا) ، وان (سبا وددان) هما ابنا (رعمة) . و (كوش) هو ابن (حام) ، والمراد بأبناء (كوش) الجيش وسكان (نوبيا) وهم سود^٤. أما الأسماء المذكورة ، فهي أسماء قبائل وأرضين عربية معروفة ، لذلك حار علماء التوراة في تفسير الأسباب التي حملت كتابة التوراة على جعل تلك الأسماء أسماء أولاد لكوش. فرأى بعضهم أنها كناية عن قبائل عربية هاجرت من جزيرة العرب الى السواحل الافريقية المقابلة واستقرت في افريقية منذ أزمنة قديمة وكونت لها مستوطنات وربما حكومات هناك ، واندمج نسبها في أرض افريقية ، فعُدّت من شعوبها ، فلما دوّن أهل الأنساب العبرانيون أنساب البشر في أيامهم عدّوها من شعوب افريقية بحسب اقامتها ، وأدخلوها في أبناء (كوش) ، أي في أبناء تلك المنطقة التي أقاموا فيها . وذهب بعض آخر الى أن (الكوشيين) المذكورين لم يكونوا من افريقية ، بل من جزيرة العرب ، ورأوا وجود (كوش) أخرى في جزيرة العرب أصحابها هم القبائل العربية المذكورة^٥. واستدلوا على ذلك بما جاء في (أخبار الأيام الثاني) : « وأهّاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب (الكوشيين) »^٦. حيث يفهم من هذه الآية ان العرب المذكورين الذين عادوا (يهورام) كانوا يجاورون (الكوشيين) ، ويقتضي ذلك على زعمهم وجود (كوش) أخرى ، هي (كوش عربية) ، وإياها قصد (سفر التكوين) في هذا المكان^٧.

Glaser, Skizze, 2, S. 449. ١

Enc. Bibl. P. 14. ٢

Enc. Bibl. P. 1255. ٣

التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٧ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٢٧٨/٢) ٤

Hastings, P. 171. ٥

الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ١٦ ٦

Hastings, P. 171. ٧

(Rammanitae) الذي ذكره (سترابو)^١ ، أو موضع (ركمت) (ركمت) (رجمت) (رجيات) المذكور في كتابات المسند . ويخيل إليّ أنه كناية عن حلف ضمّ جماعة من السبثيين الشماليين والديدانيين ورعمة ، في تلك الأيام ، ولذلك صيّر والدًا لشبا وددان ، ثم انقصمت عراه ، فذكرت (رعمة) مع (شبا) تتاجر مع (صور) (Tyx) وذلك في سفر حزقيال^٢ ، أو أنه اسم أرض في شمال غربي العربية الغربية يجاور مواضع السبثيين الشماليين والديدانيين . أو في موضع ما من سواحل الخليج^٣ .

وأما (سبتكا) ، فلا نعرف من أمرها شيئاً يذكر . وقد ذهب بعض العلماء إلى أنها تحريف لفظة (سبتة)^٤ . ويرى (كلاسر) أنها في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب^٥ .

المهاجرون :

وذكر في التوراة اسم شعب سكن في شرقي الأردن وفي شرقي أرض (جلعاد)، عرف باسم (المهاجرين) . وهم من العرب أو من (بني لرم) في رأي بعض العلماء . غير أن إطلاق هذه اللفظة على الإسماعيليين ، يدل على أن المراد بهم العرب؛ لأن (الإسماعيليين) هم عرب ، وأن (هاجر) كناية عن أم (إسماعيل) جدّ القبائل التي تحدثت عنها على رأي التوراة . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن مراد التوراة من (المهاجرين) الأعراب ، أي البدو وهم عرب أيضاً^٦ . وقد امتدت منازل المهاجرين من الفرات إلى (طور سيناء) ، فهي منطقة

- ١ قاموس الكتاب المقدس (٤٨٥/١) ، Hastings, P. 780, Enc. Bibli. P. 3997, Hommel, AHT. S. 240, Montgomery, Arabia, P. 30, 39, 42, 58, Glaser, Skizze, 2, S. 352, Forster I P. 59. ff.
- ٢ حزقيال ، الأصحاح ٢٧ ، الآية ٢٢
- ٣ Forster, I, P. 59. ff. Glaser, Skizze, 2, S. 252.
- ٤ Enc. Bibli. P. 4181, Glaser, Skizze, 2, S. 252, Hastings, P. 809.
- ٥ Glaser, Skizze, 2, S. 252, Forster, 2, P. 59.
- ٦ قاموس الكتاب المقدس (٤٦٦/٢) وما بعدها ، أخبار الأيام الأول ، الأصحاح الخامس ، الآية ١٠ ، ١٩ ، ٢٠ ، الأصحاح ٢٧ ، الآية ٣١ .
- ٧ Hastings, P. 325.

أما (سبا) ، وقد ذكر الاسم بالسين في هذا الموضع من التوراة ، فإنه اسم شهير معروف ، هو شعب سبا . وتصور التوراة وجود (سبا) في (كوش) ، يشير الى انتشار السبثيين في افريقية ، ووقوف العبرانيين على ذلك ، وعندي ان ذكر السبثيين مرة بـ (شبا) أي بالشين المعجمة ، ومرة بالسين المهملة ، انما وقع من كتبة الأسفار ، كتبوه بالشين على وفق النطق العبراني ، وكتبوه بالسين على نحو ما ينطق به في العربية ، فظهر الاسم وكأنه اسم شعبين متباينين ، ولا سبا في الموضع المذكور ، حيث ظهر اسم (سبا) بالسين ، ابن من أبناء (كوش) ، بينما ظهر بالشين أي (شبا) ابن من أبناء رعمة وشقيق لـ (ددان) على حين ورد بالشين أيضاً في أولاد يقطان . والظاهر ان المورد الذي استقى منه كتبة الأسفار هذه الأسماء سمّوها بالشين من اخوانهم العبرانيين الذين كانوا على اتصال بالسبثيين ، وذلك على وفق نطقهم ، وقد كان هؤلاء السبثيون من سكان اليمن وأعالي الحجاز ، فأطلقها عليهم بحسب نطق العبرانيين بها ، وسمع عن السبثيين الآخرين وهم من دعاهم بـ (الكوشيين) من العرب ، فضببطها بالسين . وفرق بين الأنساب على طريقة العبرانيين من نسبة الأقسام الى المواضع التي تقسم من ينسبونهم بها .

وأما (حويلة) ، فقد تحدثت عنها في كلامي على أبناء (يقطان) .
وأما (سبتة) (Sabta) ، فقد رأى بعض العلماء انها قبيلة من قبائل جزيرة العرب ، يجب أن تكون مواطنها بين (سبا) و (رعمة) ، ورأى آخرون انها على ساحل الخليج^١ ، على حين رأى آخرون انها (Sabota) أي (شبوة) عاصمة حضرموت ، ورأى (كلاسر) انها في اليامة^٢ .

وأما (رعمة) (Raamah) ، فإنه والد (شبا) و (ددان) (ديدان) ، ولكونه أحد أبناء (كوش) وجب البحث عن أرضه في افريقية ، إلا أن العلماء لا يتفقون على ذلك ، بل يذهب أكثرهم الى ان (رعمة) كناية عن أرض هي في مكان ما من جزيرة العرب ، في غرب الخليج العربي حيث موضع (Regma) الذي ذكره (بطليموس) ، أو في أرض

Hastings, P. 809, Enc. Bibl. P. 4181. ١

Glaser, Skizze, 2, S. 252, Enc. Bibl. P. 4181. ٢

واسعة تشمل البادية : بادية الشام ، وتضم عدداً كبيراً من الأعراب . وهي منازل (الإسماعيليين) أيضاً ، وقد يكون هذا هو السبب في عدم تمييز التوراة أحياناً فيما بين المهاجرين والإسماعيليين^١ . وقد ذكروا مع (بطور) (Jetur) و (Naphish) ، وهما من الإسماعيليين . وأشار إلى اسم رجل من المهاجرين عرف بـ (يازيز) (Jaziz) ، ذكرت التوراة أنه كان يرعى بغنم داوود^٢ في جملة أشخاص كان (داوود) قد أودع اليهم أمر إدارة أمواله^٣ .

وبعد ، فهذا كلام موجز في أثر التوراة على روايات أهل الأنساب والأخبار في أنساب العرب . وقد رأيت أن مروجيه ومدخله بين العرب هم أهل الكتاب ، ومعظمهم من يهود أو من مسلمة يهود . لهذا ترى أسانيد أكثر هذه الروايات تنتهي بـ (كعب الأخبار) و (وهب بن منبه) وأضرابهما . وقد ينتهي السند بـ (ابن عباس) ، من طريق (ابن الكلبي) عن أبيه ، عن أبي صالح^٤ ، وللعلماء كلام في هذا السند . و (ابن الكلبي) مورد مشهور معروف في هذه الموضوعات ، لا يقابله في ذلك إلا (ابن اسحاق) الذي عرف ، كما ذكرت في أول هذا الفصل ، من مناهل أهل الكتاب ، وكان يسميهم أهل العلم الأول ، فلأ كتابه لذلك يغث كثير ، لاعتماده على هؤلاء وتوثيقه لهم ، ولم يكن لأكثرهم كما يظهر من نقد ما نسب اليهم علم بما جاء في التوراة . وبكتب اليهود الأخرى .

وقد ظهر لي من دراساتي لهذا الموضوع وللقصص الإسرائيلية عامة أن كثيراً من هذا الذي يرويه أهل الأخبار في النسب وفي القصص ، بعيد عما يرد في التوراة ، وقد اخترع اختراعاً وصنع بغاوة وبجهل ، وحشي بالفاظ عبرانية أو قريبة منها ، بطريقة مضحكة أحياناً ، تدل على خبث واضح الخبر أو جهله ، وعلى سذاجة الناقل عنه وعلى عدم اهتمامه إلا بإظهار نفسه بمظهر الواقف على عدم اهتمامه إلا بإظهار نفسه بمظهر الواقف على الأخبار ، ولذلك كان لا يهتم إلا بجمع الأخبار وقصصها للناس ، وقد يكون هو واضع تلك الأخبار وصانع ذلك القصص .

١ The Bible Dictionary, Vol. I, P. 499, 570.

٢ أخبار الأيام الأول ، الأصحاح ٢٧ ، الآية ٣١

٣ Hastings, A Dictionary, II, P. 281.

٤ الطبري (٢٠٣/١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨) ، « دار المعارف » .

وقد ذكر (الطبري) في تأريخه حديثاً يرجع سنه الى رسول الله ، في أبناء نوح ، زعم أن الرسول قال : (سام أبو العرب ، وياث أبو الروم ، وحام أبو الحبش) . ذكره بصور مختلفة ، فيها تقديم وتأخير ، أو زيادة في بعض الألفاظ . ويتصل اسانيد هذا الحديث بمختلف صور رواياته الى سند واحد ، هو : (سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ابن جندب ، عن الرسول)^١ .

وهناك أحاديث ، وردت في موضوع نسب عدنان ، فيها نهى عن تجاوز ما وراء ذلك ، وهي وأمثالها يجب أن تكون موضع دراسة مستقلة حقاً ، لرى سلاسل سندها ، ومقدار قربها أو بعدها من حديث الرسول . فعلى مثل هذه الدراسة نستطيع أن نبنى أحكاماً في موضوع رأي النسابين في نسب العرب في أيام الرسول .

ولا بد لي هنا من التنبيه على أن (محمداً بن اسحاق بن يسار) صاحب المغازي والسير ، هو - كما قلت مراراً - من الآخذين عن أهل الكتاب ، الراوين عنهم^٢ . وكان يسميهم أهل العلم الأول . وهم بالطبع من هذه الناحية أعلم من غيرهم بأمور التوراة والإنجيل ، بحكم كونهم يهوداً أو نصارى . ولهذا نجد المؤرخين والأخباريين يروون ما ورد من قصص توراتي ومن أنساب توراتية عن (ابن اسحاق) ، فهو اذن أحد الناشرين للإسرائيليات بين المسلمين . والقصص الإسرائيلي الذي نشره ، ليس في الواقع قصصاً إسرائيلياً صافياً خالياً من الكدرة ، بل هو متفاوت في درجات النقاء والصفاء . فيه العكر ، وفيه ما هو قريب مما جاء في التوراة ، وفيه ما هو مطابق لما جاء في (العهد القديم) ، فهو نقي صاف . ويعود سبب هذا الاختلاف الى الموارد التي استقى منها (ابن اسحاق) علمه . ففيها منابع كانت ذات علم ووقوف على كتب أهل الكتاب ، وفيها موارد مدعية أو ليس لها حظ من العلم ، وانما تحدثت اليه على نحو ما كان شائعاً بين أهل الكتاب ، وبينها موارد استباحث الكذب ، ادعاءً للعلم ولأسباب أخرى ، ومن هنا اختلفت موارد (ابن اسحاق) في درجات النقاء والصفاء .

١ الطبري (٢٠٩/١) ، « دار المعارف » .

٢ الاكليل (٣١/١) .

و (هشام بن محمد بن السائب الكلبي) ، هو من الآخذين عن أهل الكتاب كذلك ، المدخلين للإسرائيليات ولأنساب التوراة الى المسلمين . وهناك نفر آخرون أخذوا عن أهل الكتاب أيضاً ، يخرجنا ذكر أسمائهم هنا عن صلب الموضوع ؛ ولهذا اكتفيت بذكر هذين الرجلين ، لما لهما من أثر بارز فيمن جاء بعدهم في موضوع الإسرائيليات وأنساب التوراة .

وأما ما نسب الى (ابن عباس) من أقوال لها صلة بالتوراة فيجب دراسته بحذر ونقده نقداً عميقاً ، ومطابقته بما ورد في تلك الأسفار وفي كتب اليهود الأخرى . ونقد سلسلة السند التي تروي تلك الأقوال وتنسبها اليه . ولم يبق حتى الآن باحث لفت نظره هذا الموضوع . لذلك أرجو أن ينتبه اليه العلماء ليبسوا رأيهم فيه ، ورأيهم في الأقوال المماثلة المنسوبة الى صحابيين آخرين وتابعين ، ليكون حكمنا في مثل هذه الأمور حكماً مستنداً الى درس وعلم .

ومما نسب الى (ابن عباس) شعر مشهور معروف اليوم بين الناس قالوا إنه نسبه إلى آدم ، وأنه قال : إن آدم نظمه بعد قتل ابنه ، وهو شعر موضوع بالطبع ، وضع على آدم ، على لسان ابن عباس . فقد نسبه بعض العلماء إلى أناس آخرين^١ .

ولم يعرف عن (كعب الأخبار) أنه ألّف أو دوّن شيئاً ، إنما عرف عنه أنه كان يجلس مجالسه في المسجد يتحدث الى الناس ويستعين بالتوراة أحياناً يقرأ منها عليهم ، ويفسرهما لهم^٢ . ولكن (الهمداني) يذكر أنه كان قد كتب كتباً ، وإن أهل (صعدة) ، كانوا قد توارثوا كتبه ورووا منها . قال : « روى الصعديون مرفوعاً الى ابراهيم بن عبد الملك الخنصري ، قال : قرأت كتب كعب الأخبار ، وكان كعب رجلاً من حمير من ذري رعين ، وكان قد قرأ التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وأوسع في العلم^٣ . وقال أيضاً : (والوجه ما ذكرنا في أول السيرة من هذا الكتاب ، ما رواه أهل صعدة عن كعب الأخبار في خلق آدم ، ومن خلفه الى نوح ، وخبر الطوفان^٤ . وقد

١ الاكليل (٣٦/١) .

٢ ابن سعد ، الطبقات (٧٩/٧) .

٣ الاكليل (٥٥/١) .

٤ الاكليل (٥٥/١) .

نقل (الهمداني) نقفاً عن (الخلق) والأنبياء ونوح والطوفان في الجزء الأول من كتابه : الإكليل ذكر أنها لكعب الأحبار . والظاهر أنه أخذها من رواية أهل صعدة لكعب (ابراهيم بن عبد الملك الحنفري) ، نقلاً من كتب كعب الأحبار^١ .

١ الإكليل (١ / ٥٥) .

ضعفت فيها وشائج الدم والنسب ، وكثر فيها التزاوج والتصاهر بين العرب والعجم ، فصعب على الناس فيها المحافظة على أنسابهم ، وقلت الفائدة من النسب عندهم . ولهذا لم يعتنوا به عناية الأعراب بالأنساب .

فالانتماء الى عشيرة أو قبيلة أو حلف ، هو حماية للمرء ، وجنسية في عرف هذا اليوم . ولهذا صار إخلاص الأعرابي لقبيلته أمراً لازماً له محتملاً عليه ، وعليه أن يدافع عن قبيلته دفاع الحضري عن وطنه. فالقبيلة هي قومية الأعرابي ، وحياته منوطة بحياة تلك القبيلة . ولهذا كانت قومية أهل الوبر قومية ضيقة ، لا تتعدى حدودها حدود القبيلة وحدود مصالحها وما يتفق أهل الحل والعقد فيها عليه . ومن هنا صارت القبائل كُتلاً سياسية ، كل كتلة وحدة مستقلة ، لا تربط بينها إلاّ روابط المصلحة والفائدة والقوة والضعف والنسب .

والعادة انتساب كل قبيلة الى جدّ تنتمي اليه ، وتدعي انها من صلبه ، وان دماءه تجري في عروق القبيلة ، وتتباهى به وتتفاخر ، فهو بطلها ورمزها ، وعلامتها الفارقة التي تميزها عن القبائل الأخرى . وليس ذلك بدعاً في العرب ، بل إنّنا لنجد الأمم والشعوب الأخرى تنتمي الى أجداد وآباء . ف (هيلين) (Hellen) ، هو جدّ أهل (دورس) (Dorus) ، ومنه أخذ (الهيليون) اسمهم هذا . وكان للرومان والفرس والهنود والأوروبيين أجداد انتموا اليهم واحتموا بهم وتعصبوا لهم ونسبوا أنفسهم اليهم على نحو ما نجده عند العرب والإسرائيليين وبقية الساميين^١ .

وفي التوراة ولا سيما (أسفار التكوين) منه ، أبرز أمثلة على النسب ، نجد فيها أنساب الأنبياء والشعوب ، وأنساب بني اسرائيل . يسبق النسب في العادة جملة : (وهذه مواليد) (ولله تولدت) ، ثم يرد بعدها النسب^٢ . أي أسماء من يراد ذكر نسبهم . قد يذكر نسب الأب والزوجة والولد، وقد لا تذكر الزوجة ، بل يكتفى بالأب وبأولاده . وقد لا يذكر الولد . والذي يقرأ هذه الأسماء يقرأها وكأنها أسماء أشخاص حقاً . ولكننا اذا قرأناها قراءة نقد ، نرى أن بعضها أسماء مواضع ومواقع ، أو أسماء قبائل ، وعشائر أو أسماء طوائف ،

١ Hastings, P. 285.

٢ راجع السفر العاشر من التكوين ، الآية الاولى . Hastings, P. 285.

الفصل الحادي عشر

أنساب العرب

للسب عند العرب شأن كبير ، ولا يزال العربي يقيم له وزناً ، ولا سيما عربي البادية . فعلى نسب المرء في البادية تقوم حقوق الإنسان ، بل حياته في الغالب . فنسب الإنسان ، هو الذي يحميه ، وهو الذي يحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه .

وقد يبدو ذلك للمدني الأعجمي أمراً غريباً شاذاً غير مألوف . ولكن هذا المدني نفسه يعمل بالنسب ويأخذ به ، وإن كان في حدود ضيقة . فجنسيته هي نسبه ، تحميه وتحفظ حقوقه . وليس نسب الأعرابي غير هذه الجنسية ، يحمي به ، لأنه يصونه ويحفظ حقوقه ويدافع عنه . وهو مضطر إلى حفظه ، وإلى عدّ آبائه وأجداده وذكر عشيرته وقبيلته ، لأنه بذلك يسلم ، ويحافظ على حياته . فإن أراد شخص الاعتداء عليه ، عرف أن وراءه قوماً ، يدافعون عنه ويأخذون بحقه من المعتدي عليه . وهو لذلك مضطر إلى حفظ نسبه والمحافظة عليه .

وأما كون الحضرة أقل عناية بأنسابهم من أهل الوب ، فلأن الحاجة إلى النسب عندهم أقل من حاجة أهل الوب إليها . فالأمن مستقر ، ولدى الحضرة في الغالب حكومات تأخذ بحق المعتدي عليهم من المعتدين . ثم إن مجال الاختلاط والامتزاج عندهم أكثر وأوسع من أهل البوادي وسكان الأرياف ، وكلما كانت الحواضر قريبة من السواحل ومن بلاد الأعاجم ، كان الاختلاط أوسع وأكثر ، ولهذا

أي أسماء حيوانات تسمت بها القبائل ، مثل (ذئب) و (كلب) و (أسد) و (ضبة) وأمثال ذلك ، وكلها كناية عن قبائل وشعوب عاشت قبل الشروع في تدوين هذه الأنساب أو في أيام التدوين .

ويظهر من كيفية عرض هذه الأنساب وجمعها وتبويبها أن في العبرانيين جماعة من النسابين اختصت بجمع الأنساب وحفظها، ومنهم من كان يعني بجمع أنساب الغرباء عن بني اسرائيل ، وربما كان كتابة الأسفار من هؤلاء . فلما شرع كتابة أسفار التكوين بقصة الخلق وبكيفية توزع شعوب العالم وظهور الإنسان على سطح الأرض ، كان لا بد من ذكر الشعوب وأنسابها على أسلوب كتابة التأريخ في ذلك العهد ، فاستعين بما تجمع عند نسابي العبرانيين من علم بالنسب ، وأدرج في هذه الأسفار .

وقد وردت في التوراة في أسفار التكوين وفي (أخبار الأيام الأولى) أسماء قبائل عربية ، رجعتها الى مجموعات ، مثل مجموعة (يقطن) (يقطان) ، ومجموعة الإسماعيليين ، أي الإسماعيليين ، نسل اسماعيل ، غير أنها لم تشر كعادتها بالنسبة الى كل أنساب البشر الى المورد الذي أخذت منه تلك الأنساب . لذلك لا ندري اذا كانت التوراة قد اقتبست ما ذكرته عن أنساب الأمم من الأمم التي تحدثت عن نسبها ، بأن أوردت تلك الأنساب على نحو ما كان شائعاً متعارفاً عند الأمم المذكورة بالنسبة لنسبها ، أو أنها روتها على حسب ما كان متعارفاً عند قدماء العبرانيين في أجداد البشر وفي أنسابهم ، فدونتها على هذا النحو الشائع بين العبرانيين اذ ذاك .

أما النصوص الجاهلية ، فإنها لم تتحدث ، ويا للأسف ، عن مجموعات قبائل على النحو المتعارف عليه عند علماء النسب . ولكنها جاءت بأسماء قبائل عديدة كثيرة ، لم يعرف من أمرها أهل الأخبار والنسب شيئاً . فنحن نقف على أسمائها لأول مرة ، بفضل تلك الكتابات .

وقد أفادتنا الكتابات الجاهلية فائدة كبيرة من ناحية دراسة أسماء القبائل الواردة في كتب النسب والموارد للإسلامية الأخرى ، إذ مكنتنا من الوقوف على الصلات بينها ، وعلى معرفة ما سمي منها بالأب أو الابن أم الأم ، كما عرفتنا على مواطن عديدة من مواطن الخطأ التي وقع فيها النسابون وأصحاب الأخبار ، وعلى كثير من الوضع الذي وضع في النسب أو في القصص المروي عن القبائل جهلاً

أو عمداً أو ظهوراً بمظهر العلم والإحاطة بأنساب العرب وأخبارهم ، الجاهليين منهم والإسلاميين .

ولم أجسد في الشعر الجاهلي هذه القحطانية والعدنانية التي يراها أهل النسب والأخبار ، وأقصى ما وجدته فيه قصيدة للأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي حوت أسماء قبائل وأسماء مواطنها ومواضعها ، هي : (معد) و (لكيز) و (بكر) و (تميم) و (كلب) و (غسان) و (بهراء) و (إباد) و (نخم)^١ . وهي قبائل بعضها عدنانية وبعضها قحطانية في اصطلاح أهل النسب ، إلا أنني لم أجد فيها أسماء آباء هذه القبائل ولا أجدادها ، ولم أستطع أن أفهم منها أن هذه القبيلة ، هي قبيلة عدنانية ، وأن تلك قبيلة قحطانية ، فقد جاءت الأسماء متداخلة وكل ما وجدته فيها مما يخص النسب ، هذا البيت :

فوارسها من تغلب ابنة وائل حماة كماء ليس فيها أشائب

ولم يرتفع الأخنس بنسب تغلب الى ما وراء وائل من آباء وأجداد .
والحق أن من يقرأ هذه القصيدة دون أن يقرأ اسم صاحبها ، يرى أنها من قصائد الشعراء المتكلمين الذين ظهوروا في أيام الدولة العباسية ، ولن يخطر بباله أبداً أنها من نظم شاعر جاهلي . وأنا أريد أن أنجاسر فأقول : إني أشك في صحة نظم ذلك الشاعر لهذه القصيدة ، وأسلوب نظمها يأبى أن يرجعها الى ذلك العهد .

وقد خصص (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) فصلاً بـ (أخبار الأنباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، ذكر فيه أسماء بعض من عرف واشتهر بحفظه للأنساب ، ولا سيما من ألف فيهم تأليفاً في النسب . وقد طبعت بعض مؤلفات المذكورين ، وهي متداولة بين الناس . والذين ذكرهم (ابن النديم) هم من اشتهر وعرف وذاع خبره في العراق وفي البيئة التي اتصل بها (ابن النديم) ، وهم من أهل الحواضر في الغالب ، إلا أن بين أهل البوادي والأماكن القصية النائية المنعزلة جماعة كانت قد تخصصت بالنسب ، انحصرت شهرتها في البيئة التي

١ المفضليات (ص ٩٥ وما بعدها) ، طبعة السندوبي ، القاهرة ١٩٢٦ م .

عاشت فيها . ولهذا لم يصل خبرهم اليه والينا ، وكثير منهم لم يؤلف في النسب تأليفاً ، وإنما حفظه حفظاً ، شأنهم في ذلك شأن النسّابين الجاهليين ، أو الذين أدركوا الاسلام .

ونجد في كتب الأدب والتواريخ قصصاً عن بعض النسّابين في الجاهلية وفي الإسلام ، يثير الدهشة من قدرة وشدة الحافظة عند أولئك النسّابين في حفظ الأنساب . وقد عرف أحدهم بـ (النسّابة) ، فقل : (فلان النسّابة) أو (النسابة) . وقد كان لهم شأن خطير بين قومهم ، لأنهم المرجع في الأحساب والأنساب ، واليهم المفزع عند حصول اختلاف في الأمور المتعلقة بها . ويذكر أن الخليفة (عمر) أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها في ديوان ، وذلك عند فرضه العطاء ، فبدأ بالترتيب في أصل النسب ، ثم ما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان . فقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم وعدنان تجمع ربيعة ومضر ، فقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش ، فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم . وقريش تجمع بني هاشم وغيرهم ، فقدم بني هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب اليهم حتى استوعب قريشاً ، ثم بمن يليهم في النسب حتى استوعب جميع عدنان^١ . وقد كان هذا التسجيل سنة خمس عشرة للهجرة ، في رواية ، أو سنة عشرين في رواية أخرى^٢ .

وذكر أن الخليفة قال : (أيما حي من العرب كانوا في حي من العرب أسلموا معهم فهم معهم ، إلا أن يعترضوا ، فعليهم البيّنة ، كالمدي فعله مع (بجيلة) رهط جرير بن عبدالله بن جابر ، وكانوا قد تفرقوا ، واغتربوا بسبب حروب وقعت بينهم والتحقوا بقبائل أخرى . وروي أن عوف بن لؤي بن غالب ألحق نسبه بـ (غطفان) ، والتحق نسب بنيّه (بني مُرّة) بـ (غطفان) ، ويقال إن الخليفة قال : لو كنت مستلحقاً حياً من العرب ، لاستلحقت بني مُرّة ، لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين ، مع ما كنا نعرف من موقع عوف بن لؤي بتلك البلاد . ثم قال لبعض أشرافهم : إن شئتم أن ترجعوا لنسبكم من

١ البلاذري ، فتوح (٥٤٩/٣) ، ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة (١١٣/٣) ، بلوغ الأرب (١٩٠/٣) .
٢ الكامل ، لابن الأثير (٢١٢/٢) ، اليعقوبي (١٣٠/٢) ، الطبري (١٦٢/٤) .

قريش ، فافعلوا . ولكنهم كرهوا أن يتركوا نسبهم في قومهم ، ولهم فيهم من الشرف والفضل ما ليس لغيرهم ،^١ .

وقد ضاعت أصول الجرائد التي دوت عليها الأنساب في ذلك الديوان ، ولم يبق منها شيء . ويظهر ان أهل الأخبار لم ينقلوا صورها ، وانما أخذوا الأسس التي قام عليها التسجيل على نحو ما ذكرت ، وبالجملية فإن في اشارتهم الى تلك الأسس والقواعد التي سار عليها الخليفة في اتخاذ القربى بالرسول والوضع القائم للقبائل ، فائدة كبيرة لدراسة أسس تثبيت الأنساب عند العرب في صدر الإسلام .

ويذكر ان الذي قام بوضع مخطط الأنساب وتسجيل القبائل والعشائر وفق الخطة التي أشرت إليها ، هو (عقيل بن أبي طالب) ، وهو من الثقات في معرفة الأنساب ، وخزعة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وان الذي أشار عليه بتدوين النسب في الدواوين هو (الوليد بن هشام بن المغيرة) لما رآه من عمل الروم في تسجيل العطاء في بلاد الشام^٢ .

ولم يقتصر التسجيل المذكور على تسجيل نسب القبائل وحدها ، بل شمل ذلك نسب أهل القرى أيضاً ، كنسب أهل مكة والمدينة والطائف وغيرها . وذلك لأن سكانها وان كانوا من أصحاب المدر ، وقد أقاموا واستقروا في بيوت ثابتة ، الا انهم كانوا كالأعراب من حيث الانتساب الى الآباء والأجداد . وقد رأينا ان عمر كان قد بدأ بقوم الرسول ، وقومه حضر ، من أهل مكة ، الا انهم كانوا لا يختلفون عن أهل الوبر في التعلق بالأنساب وفي حفظها ، لأن حياتهم الاجتماعية وان كانت في قرية ، الا أن غريزة المحافظة على النفس والدفاع عن الحقوق حملتهم مثل الأعراب على التمسك بالعصبية ، بعصبية النسب ، ليتمكنوا من المحافظة على الأمن والسلامة والمال ، لعدم وجود حكومة قوية تقوم اذ ذلك بتأمين هذه الواجبات . ثم ان هذه الأماكن محاطة بالأعراب ، وبين أهل مكة من كان شبه حضري ، وبيئة مثل هذه لا بد لها من الاحتماء بعصبية النسب ، وبالتزاوج مع الأعراب ، لتكوين رابطة دموية ، تؤدي الى عصبية تضطر الطرفين الى الدفاع عن مصالحها المشتركة وتكوين كتلة واحدة تستجيب للنخوة ولنداء

١ شرح المفصلية (ص ١٠١ ، ١١٦) .

٢ البلاذري (٥٤٩/٣) ، الطبري (٢٠٠/٣) ، ابن ابي الحديد ، شرح (١١٣/٣) .

الاستغاثة في ساعة الحاجة والضرورة. ولهذا كان للتزاوج عند العرب أهمية كبيرة في السياسة. ومن هنا نظرت سادات القوم والملوك الى التزوج من بنات سادات القبائل الكبيرة نظرة سياسية في الدرجة الأولى وذلك لشد عضدهم ولتثبيت ملكهم ولضبط القبائل، وبضبطها يستتب الأمن ويتنصر على الأعداء. وقد كان لزواج معاوية في الإسلام من (كلب) أثر كبير في السياسة الأموية وفي تثبيت ملكه وملك ابنه يزيد وملك مروان الذي انتصر بهم في معركة (مرج راهط) على القيسيين.

وعلى الرغم من التسجيل المذكور الذي كان للعطاء، أي لأغراض حكومية رسمية، فإن أنساب القبائل لم تثبت ولم تستقر الا بعد ذلك بأمد. وآية ذلك ما نجده من خروج قبائل في العصر الأموي من نسب قديم، ودخولها في نسب آخر جديد. وقد كان شروع النسابين في تسجيل علمهم وتدوينه، مما ساعد كثيراً ولا شك في تثبيت هذه الأنساب وإقرارها، ولا سيما أنساب القبائل المشهورة المعروفة، وقد وصلت بعض كتب الأنساب، وطبع قسم منها.

وقد وضع بعض المؤلفين، مثل الواقدي أبي عبد الله محمد بن عمر المتوفى سنة (٨٢٧ هـ)، مؤلفاً في (وضع عمر الدواوين، وتصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها)^١، الا أنها ضاعت، فحرمنا الاستفادة منها، ولو بقيت مثل هذه المؤلفات اذن لكان لنا علم قيّم ورأي في كيفية تصنيف القبائل في تلك الأيام.

وقد كان بعض النسابين قد تخصص بنسب جماعة من العرب، جماعة قومه ومن يرتبط بهم في الغالب. مثل (الزبير بن بكار) صاحب (كتاب نسب قريش وأخبارها)^٢، ومثل (عقيل بن أبي طالب)، وكان قد تخصص بنسب قريش، ومثل (أبي الكناس الكندي)، وكان أعلم الناس بنسب كندة، ومثل (النجار بن أوس العدواني)، وكان من أحفظ الناس لنسب (معد ابن عدنان)، ومثل (عديّ بن رثاث الإيادي)، وكان عالماً بإياد، ومثل (خراش بن اسماعيل العجيلي)، وكان عالماً بنسب ربيعة^٣. وعن هؤلاء وأمثالهم

١ الفهرست (ص ١٥٠) .

٢ الفهرست (ص ١٦٦) .

٣ الفهرست (ص ١٤٦) .

أخذ أهل الأنساب علمهم بالأنساب، ووضعوا كتباً في نسب القبائل أو في أنساب العرب ، أو في أنساب جماعة منهم .

ولتسجيل (مُعر) للأنساب شأن كبير بالنسبة الى الباحثين في تطور النسب عند العرب ، لأنه ثبت بذلك الأسس ووضع القواعد للنسابين في الإسلام وقليل من الاضطراب الذي كان يقع في النسب، بسبب الاختلاط ، وعليه سار المسلمون في تقسيم العرب الى أصليين . ولا بد أن يكون لهذا التقسيم أصل قديم ، يرجع الى ما قبل عمر . أقره الخليفة ، وجعله أساساً له في التقسيم الذي بقي مرعياً متعارفاً عليه بين النسابين الى اليوم . ويمكن أن تقارن هذا العمل ، أي تسجيل النسب وتثبيته في سجلات ، بالعمل الذي قام به (عزرا) في تثبيت أنساب اليهود وتدوينها ، وفي تدوين انساب الغرباء ، لتستقر بذلك الأنساب فسار من جاء بعده من النسابين في تعيين النسب على اساس ذلك التدوين^١ .

وفي القرآن الكريم آيات تشير الى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم ، ولكنه لم يتعرض لبيان وجهة نظرهم بالنسبة اليها ، ولا يشعر في موضع ما منه بوجود تلك الفكرة التي ألح على وجودها أهل الأخبار ، وهي انقسام العرب الى ثلاث طبقات أو طبقتين ، ووجود نسبين أو جملة أنساب للعرب ، ولم يرد فيه اسم (عدنان) ولا (قحطان) ، ولا أي من هذه الأشياء التي يتمسك بها أهل الرواية والأخبار ، ويقصونها لنا على أنها من الحقائق الثابتة في أنساب العرب ، وعلى أن العرب كانوا حقاً من جدّين هما : عدنان وقحطان .

بل كان ما ورد في القرآن يشعر أن العرب كانوا ينظرون الى أنفسهم أنهم من جد أعلى واحد ، هو : (ابراهيم) وأن (ابراهيم) أبو العرب : (وجاهدوا في الله حق جهاده . هو اجتباكم . وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين ...)^٢ . فلم يفرق بين عرب قحطانيين وعرب عدنانيين . ورؤي : ان الرسول قال : (كل العرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام)^٣ .

١ Hastings, P. 286.

٢ سورة الحج ، رقم ٢٢ ، الآية ٧٨ .

٣ ابن سعد ، الطبقات (ح ١ ، ق ١ ، ص ٢٥) .

بل حتى الشعر الجاهلي ، لا نجد فيه اشارة واحدة تفيد اعتقاد الجاهليين بوجود أصلين أو ثلاثة أصول أو أكثر لهم . وكل ما ورد فيه هو فخر بقحطان وفخر بعدنان أو معدة أو غير ذلك من الأسماء التي تعد من أسماء الأجداد التي ينتهي اليها (الشعب) أو (الجذم) . وأما التفصيلات الأخرى والأسماء الواردة في كتب النسب أو الأخبار والتواريخ ، فهي من روايات الإسلاميين . ثم إن من الشعر الجاهلي ما لا يصح أن يكون جاهلياً ، ومنه ما قبل قبيل الإسلام ، ولا يصح كل الشعر الجاهلي أن يكون شاهداً على آراء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام .

كذلك لا نجد في شعر الجاهلية سلسلة نسب قحطان أو عدنان . ولا نجد في الأخبار ما يفيد وقوف أهل الجاهلية عليها . وهي سلسلة أخذت أسماؤها من التوراة ، وبعضها أسماء محرفة موضوعة على شاكسة الأسماء التوراتية . أما في الحديث النبوي ، فقد ورد أن الرسول انتسب الى (أد) ، وهو والد (عدنان) ، ثم قال : (كذب النسابون)^١ . وفي كل ذلك دلالة على أن أسماء آباء قحطان وعدنان ، إنما دونت وتثبتت في الإسلام . أما قبل الإسلام ، فلعل بعضهم وفي أيام الرسول ، كان قد تلقن من اليهود نسب قحطان ، وإن بعض اليهود لقن العرب نسباً لعدنان ، فلما لاكت الألسنة تلك الأنساب ، وسمعتها الرسول قال : (كذب النسابون) .

أما أسماء أبناء قحطان وعدنان فما دون ذلك ، فلإنها أسماء عربية في الغالب ، وينقطع منها أثر التوراة وأثر الأسماء التوراتية ، مما يدل على أن النسابين العرب كانوا على علم وبصيرة بتلك الأسماء ، وأنها كانت معروفة عندهم . وهي أسماء لا ترد في التوراة ولا خبر لها عند أهل الكتاب .

وقد ذهب (دوزي) الى وجود فروق أساسية بين القحطانيين والعدنانيين ، حتى ذهب الى وجود اختلاف بين نفسية كل جماعة من الجماعتين^٢ . وأنا لا أريد أن أنكر عليه وجود العداء الذي كان قد استحکم بين القبائل التي تنتسب الى معد أو الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر عليه تهجم شعراء اليمن على قبائل معد ،

١ نسب عدنان (ص ١) .

٢ Dozy, Gesch. d. Mauren in Spanien, Bd. I, S. 73, Goldziher, Muh. Stud. Bd. I, S. 89, Nallino, Raccolta, Vol. 3, P. 73.

أو عدنان ، ولا تهجم شعراء عدنان على قبائل اليمن المنتمة الى قحطان ، ولا أريد أن أنكر افتخار اليانين بانتسابهم الى اليمن ، ولا افتخار العدنانيين بانتسابهم الى عدنان أو مضر أو معد أو غير ذلك من أسماء الشعوب والأجداد ، لا أريد أن أنكر شعر (امرئ القيس) في افتخاره بنسبه في اليمن^١ ، ولا أن أنكر شعر غيره من الشعراء اليانين أو الشعراء العدنانيين في الافتخار باليمن أو بمضر أو بمعد. ولكنني لا أريد أن أنكر في الوقت نفسه افتخار القبائل القحطانية بعضها على بعض ، وافتخار القبائل العدنانية بعضها على بعض ، وهجاء القبائل القحطانية بعضها لبعض ، وهجاء القبائل العدنانية بعضها لبعضها هجاء لا يقل عن هجاء اليمن لمعد أو هجاء معد لليمن . فهل يصح أن يتخذ هذا الهجاء سبباً لوضع نظرية في اختلاف أجناس هذه القبائل ؟ وهل يصح أن نجعل هذا الهجاء حجة على تباين أصل القحطانيين ، وعلى تباين أصل العدنانيين ؟ ان جاز ذلك ، وجب علينا اذن اعادة النظر في كل ما هو مكتوب عن أصول القبائل وفي كل ما هو مدون في كتب النسب والأخبار .

هذا (سلامة بن جندل السعدي) ، وهو من مضر ، يحمل في شعره على معد^٢ ، ويهجوها هجاء مرأ^٣ ، وهذا (قيس بن الخطيم) لسان الأوس يحمل على الخزرج ، ويردد ذكريات الأيام التي كانت بين الأوس والخزرج بمثل الشدة التي تجدها في شعر الهجاء الذي قاله العدنانيون في القحطانيين ، والقحطانيون في العدنانيين . إنه ذكر تلك الأيام لا لمجرد الفخر والتباهي ، بل ليثير في نفوس الأوس الأحقاد القديمة ، وليزيد في تلك النيران نيراناً . لقد ذكرهم (بيوم الربيع)^٤ ، وذكرهم بـ (يوم السراة)^٤ ، وذكرهم بـ (يوم مضرس)

١ (أنا معشر يمن) ، Muh. Stud. Bd. I, S. 89.

٢ همت معد بناهما فنهها
عناطعان وضرب غير تدبيب
بالمشرفي ومصقول استنها
صم العوامل صدقات الانابيب
المفضليات (ص ٢٢٧) .
وقال الجميع الاسدي :

سائل معدا من الفوارس لا
او فوا بجيرانهم ولا غنموا
المفضليات (ص ٤٥) .

٣ شعر قيس (ص ٧)

٤ شعر قيس (ص ٢٠)

ومعجبس) ^١ ، وهو يوم دارت فيه الأيام دورتها على الأوس ، فقتل منهم عدد كبير ، وانهمز أكثرهم الى بيوتهم وأطابهم ، حتى خرج الناس من طوائفهم الى مكة يستعينون على الخزرج ، وذكرهم بأيامهم الأخرى ^٢ . كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة، ليس فيها لين ولا رفي . إنه ينظر الى الخزرج نظرة عداوة وحقد، نظرة تشعر منها أن الأوس جنس وأن الخزرج من جنس بعيد آخر . لقد ذكر قريشاً بخير ، وذكر أنها ستحمل عنهم حرب الخزرج ، وذكر أنهم لو التحقوا بأبرهة اليمني أو بنعمان أو عمرو ^٣ ، لنالوا من هؤلاء كل تقدير ، ولجعلوا لهم جاهاً أي جاه .

ذكر أبرهة حاكم اليمن ، وذكر غسان ونحماً ، وذكر أهم من ذلك كله قريشاً على أنها ستحمل الحرب ومستقابل الخزرج عما قريب . وقريش من عدنان، والأوس والخزرج من قحطان ، ولم نجد في شعره ما يذكر برابطة النسب بين الخزرج والأوس . ولم يرد في شعره اسم قحطان أو عدنان . والقصيدة التي ذكر فيها هذا اليوم هي من أقدم قصائد هذا الشاعر الذي اضطرت قبيلته (الظفر) ، ومعها (عبد الأشهل) الى مغادرة يثرب والتفتيش عن حليف يساعدها في العودة الى ديارها ، فذكر قيس قريشاً ، وكأنه يذكر قبيلة قريبة من قبيلته ^٤ ، مع أنها من نسب آخر في رأي النسابين .

وفي كتب الأدب والدواوين شعر كثير ينسب الى شعراء جاهليين وشعراء مخضرمين وشعراء اسلاميين ، فيه هجاء عنيف من شاعر قحطاني لقبائل قحطانية، ومن شاعر عدناني لقبيلة عدنانية، وفيه مدح وفيه إغراق من شاعر قحطاني لقبائل عدنانية ، وهجوم عنيف على القحطانيين ، وهكذا . ولو أردنا شرح ذلك وسرد الأمثلة ، لآخذ ذلك منا وقتاً طويلاً يخرجنا عن صلب الموضوع ، وينقلنا الى أمور أخرى لا صلة لها بهذا البحث .

ثم إن علينا أن نحسب حساباً لأمر هذا الشعر المروي في المدح والفخر وفي

١ شعر قيس (ص ٣٢) ، ديوان حسان بن ثابت (تحقيق هرشفلد) (ص ٨٣ فما بعده) .

٢ شعر قيس (ص ٣٢) .

٣ شعر قيس (ص ٦٧) (القسم الألماني) .

٤ شعر قيس (ص ٦٦) (القسم الألماني) .

الدم والهجاء ، وهو عندي أوسع باب من أبواب الشعر يحتمل النقد ، واثارة الشكوك حوله . وقد خبرنا من الكتب أن القبائل كانت تستأجر الشعراء لقول المدح أو الذم ، وأنها كانت تعد الشاعر منحة من منح الله على القبيلة ، لأنه لسانها الناطق والذائد عنها بشعره ، يدافع عن قبيلته ، ويهاجم أعداءها، ويتهمهم بكل ما يصل إليه فنه من الهجاء ورمي التهم ، كائنين ما كانوا قحطانيين أو عدنانيين . وقد اقتضت طبيعة الحصومة التي زادت حدتها في الإسلام بين يمن ومضر وضع شيء كثير من هذا الشعر شعر المنافرة والمفاخرة بين عدنان وقحطان ، وهذا أمر وقع ، مفروغ منه ، لا شك في صحته وثبوته ، اقتضته ظروف السياسة ، فيجب الانتباه له حين التحدث عن نزاع قحطان وعدنان^١ .

وترينا الأخبار أن ما نسميه بنزاع قحطاني وعدناني لم يكن شديداً في الجاهلية بين القبائل التي كانت تقيم في الأنحاء الشمالية من جزيرة العرب ، أي بين تلك القبائل التي رجع النسابون نسبها بحق أو بغير حق الى عدنان أو قحطان ، بمثل تلك الشدة التي تظهر في النزاع الذي تحدثوا عنه بين القبائل التي كانت تعيش في اليمن أو في الحجاز . وهذا أمر ذو بال ، يجب أن يحسب له كل حساب عند الحديث عن نزاع عدنان وقحطان^٢ .

وترينا الأخبار كذلك أن الحصومات التي وقعت بين القبائل العدنانية نفسها ، أو بين القبائل القحطانية نفسها ، لم تكن أقل عنفاً وضراوة من ذلك النزاع الذي وقع بين من نسميهم بالقحطانيين ومن نسميهم بالعدنانيين . لقد اتخذ شكلاً عنيفاً، شكلاً يجعلك تشعر أن تلك القبائل كانت تشعر أنها قبائل متباعدة لا يجمعها شمل ، ولا يربط بينها نسب ، ولا تجمعها جامعة دماء على النحو الذي يرويه ويذكره أهل الأنساب والأخبار .

والغريب أنك في كل ذلك النزاع المرّ العنيف ، لا تسمع فيه انتساب كل العرب الى عدنان أو قحطان ، وإنما تسمع فيه فخراً بأسماء القبائل أو بأسماء الأحلاف الداخلة في عدنان أو في قحطان ، تسمع فيه اسم (معد) أو اسم (يمن) أو (نزار) أو (مضر) أو غير ذلك ، ولا تسمع فيه اسم الجددين

Muh. Stud. I, S. 91. ١

Muh. Stud. I, S. 91. ٢

الأكبرين المذكورين . فإذا يعني هذا ؟ وعلام يدل ؟
ويمن عند أهل الأنساب والأخبار وفي العرف ، كناية عن (قحطان) ،
و (قحطان) عندهم أيضاً وفي العرف كناية عن (يمن) وعن الشعوب التي
ترجع نسبها الى (يمن) . أما (معد) و (مضر) و (نزار) ، فكناية
عن (عدنان) أو عن أحلاف من أحلاف عدنان .

وأنت اذا ما أردت أن ترسم حدوداً فاصلةً بين (قحطان) و (عدنان) ،
أي بين (يمن) و (معد) ، فلذلك تستطيع أن ترسمها بسهولة اذا ما اعتبرت
(قحطان) كناية عن اليمن ، وان (عدنان) كناية عن (قريش) والقبائل
التي ترجع نسبها الى نسب قريش . وحدود أرض قريش وحدود أرض اليمن
معروفة واضحة . أما اذا أردت أن ترسم حدوداً فاصلة، وأن تضع معالم واضحة
بيّنة بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية ، استناداً الى روايات أهل الأنساب
والأخبار والى الشجرات التي رسموها لأنساب العرب طراً ، فلذلك ستخفق حقاً ،
ومسيخيب عملك من غير شك . ذلك لأن أهل الأنساب لم يسيروا في تقسيمهم
العرب على وفق قواعد ثابتة وأسس واضحة مرسومة ، مثل اختلاف في ملامح
جسمانية ، أو تمايز في أمور عقلية أو نفسية أو لغوية ، أو اختلاف في مواقع
جغرافية ، بل ساروا وفقاً للعرف والشائع ، فسجلوا الأنساب على وفق الشائع
بين الناس عن النسب في ذلك العهد .

وأنت اذا أردت تطبيق ما عندك من علم في (الأنثولوجيا) وفي (الأنثروبولوجيا)
وفي العلوم المشابهة الأخرى ، على التقسيم الثنائي للعرب ، فستجد نفسك حائراً
تائهاً لا مجال لقواعد علمك في هذا المكان . فبين القبائل التي تنتمي الى (قحطان)
مثلاً تباين كبير في الملامح وفي العقلية وفي اللغة ، ويجعل من غير الممكن تصور
وجود وحدة دموية تجمع شمل هذه القبائل، وجدّ واحد انحدر من صلبه هؤلاء ،
وبين القبائل العدنانية اختلاف كذلك في الملامح وفي اللغة ، يضطرك الى القول
بفساد نظرية النسابين في أصل هذه القبائل . ولا بد عندئذ من اعتبار هذا النسب
رمزاً أخذ من صراع قديم ، أو من أحلاف قديمة ، فصير جدّين لجماعتين .

وكيف تتمكن من اقناع الباحث الحديث في العلوم المذكورة بوجود وحدة في
اللامح الجسمية وفي الصفات العقلية ، ووحدة في اللسان بين القبائل القحطانية
الجنوبية ، الضاربة في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية وبين القبائل القحطانية

الشمالية ، مثل غسان ولحم و كلب وكندة وغيرها ، على حين يرى بين الجماعتين فروقاً واضحة بيّنة في كل شيء . حتى انه يستطيع أن يشير الى القحطاني الجنوبي حالاً عند رؤيته له ، على حين لا يستطيع أن يميز القحطاني الشمالي من العدناني ، ولا أن يعرفه الا بالاستفسار منه . الصحيح اننا اذا أخذنا بالملامح وبالأمر الأخرى المذكورة، خلصنا الى نتيجة تقول لنا ان الفروق بين القحطانيين والعدنانيين هي أقل جداً من الفروق التي نراها بين القحطانيين الشماليين والقحطانيين الجنوبيين . وهي نتيجة ليست في مصلحة أهل الأنساب بالطبع، تبين لنا ان قضية قحطان وعدنان قضية اعتبارية لا غير .

بل خذ القحطانيين الجنوبيين ، وهم لبّ القحطانية ومادتها ، ترّ ان القحطاني الساكن على السواحل الجنوبية يختلف في سحته عن القحطاني الساكن في المرتفعات والهضاب ، والجبال . وان الساكن على السواحل المقابلة للسواحل الافريقية يختلف في ملامحه الجسمية عن الساكن على السواحل المقابلة للهند ، وان سكان حضرموت أو عمان أو مسقط يختلفون في الملامح والسحن عن اخوانهم القحطانيين الساكنين في اليمن وفي نجران وفي الأقسام الجنوبية من المملكة العربية السعودية . فهل يكون هذا الاختلاف دليلاً على قحطانية بالمعنى الذي يزعمه أهل الأنساب ؟

ولقد ذهب بعض الباحثين في علم الأجناس البشرية (الأنثروبولوجي) (Anthropology) الى ان العرب الجنوبيين هم من أصل حامي ، وان وطنهم الأصلي هو افريقية ^١ . وقد ذهب بعض آخر الى وجود شبه كبسير في الملامح وفي الخصائص البشرية بين العرب الجنوبيين والقبائل الإفريقية الساكنة على الساحل الإفريقي من البحر الأحمر والصومال ، الا انه نسب ذلك الى ان تلك القبائل كانت عربية في الأصل ، هاجرت من جزيرة العرب عن طريق باب المندب الى افريقية ، فسكنت هناك . ومن ثم وقع هذا التشابه . بين تلك القبائل والعرب الجنوبيين ^٢ .

R. Poech, Berichte des Forschungsinstitutes fuer Osten und Orient, II, Wien, 1918, 19. ff. V. Giuffrida-ruggeri, Affinità Antropologiche fra Etiopici e Arabi Meridionali, Annuario del R. Istituto Orientale di Napoli, 1919-20, A. Grohmann, Arabien, S. 9.

Les Antiquités du Yemen, Muséon, 61, 1948, 225. ff. ٢

ورأى آخرون أن العربية الجنوبية هي مزيج من الأجناس البشرية واضح المعالم، وذلك منذ أقدم أيامها . فترى فيها قبائل تشبه جماعة (الفيديد) (Weddid) الهندية ، وهي من السلالات الهندية القديمة ، يسكن بعضها في أرض (سيبان) و (معارة) من حضرموت ، ونرى فيها عناصر مما يطلق عليها اسم (الجنس الشرقي) (Orientalide Rasse) ، وهو الجنس الذي يكثر وجوده بين العرب الشماليين، وعناصر أخرى تمثل انسان حوض البحر المتوسط (Mediterranen Rasse) أو الأجناس الأوروبية ، حيث وجد بعض السياح بين بعض قبائل اليمن جماعة من الناس لها عيون زرق وشعر أشقر وبشرة بيضاء أو تميل الى البياض وملامح أوروبية بينة ، وتراوح نسبة هؤلاء بين ٨ الى ١٢ بالمائة^١ .

ووجد الباحثون بين قبائل العربية الجنوبية، جماعات لها ملامح آشورية وجماعات ذات ملامح تشبه ملامح سكان آسية الصغرى ، وجماعات ذات ملامح افريقية . وقد وجد الدكتور (سليمان أحمد حزين) أن بين أهل شمال اليمن وبين أهل جنوب اليمن الى المحيط اختلافات بارزة في الملامح وفي المظاهر الجسمية يخرجنا البحث عنها هنا من حدود التاريخ العام^٢ . ووجد غيره مثل ذلك . كما وجد هذا الاختلاط بارزاً في بقايا الهياكل البشرية القديمة التي عثر عليها في العاديات .

وما هذه المظاهر واللامح التي رأيناها من الجاهم وبقية الهياكل البشرية ومن أشكال التماثيل والصور ، ومن دراسات الباحثين (الأنثروبولوجيين) للقبائل الحاضرة ، الا حكاية واضحة صريحة عن عملية امتزاج أجناس بشرية متعددة في العربية الجنوبية ، بسبب الهجرات والحروب والاتصال البحري والتجارة وعوامل أخرى ، ونجد مثل ذلك بالطبع بين من نسميهم بالعرب الشماليين . وسوف نرى ان الدول القديمة كانت تنقل البشر نقلاً من مناطق الى مناطق فتزرعهم فيها ، وان أكثر أفراد الجيوش التي كانت ترسل لمحاربة القبائل أو للتوسع في الجزيرة كانت تبقى وتستقر في المواضع التي ترسل اليها ، فتتطبع بطباع من نزلت بينهم، وتكون في النهاية منهم ، أضف الى ذلك الرقيق .

١ A. Grohmann, Arabien, S. II.

٢ بعثة جامعة فؤاد الاول سنة (١٩٣٦ م) .

وقد ذكر ان جماعة من (بني الحارث بن كعب) وفدت على الرسول ، فنظر اليهم ، فقال : « من هؤلاء الذين كأنهم من الهند ؟ » . وقد كان (قيس بن عمرو) الشاعر المعروف بـ (النجاشي) من هؤلاء^١ . وسواء أكان ما نسب الى الرسول من قوله المذكور صحيحاً أم موضوعاً ، فإن الأخبار تذكر ان بشرة (بني الحارث بن كعب) ، كانت تميل الى السمرة الشديدة ، بل الى السواد الذي يشبه سواد بشرة الإفريقيين ، أفلا يجوز أن يكون أصلهم من افريقية ؟ . وقد عرفت جماعة كبيرة من أهل مكة بالأحباش ، لأن أصلهم من رقيق الحبشة والسواحل الإفريقية المقابلة لجزيرة العرب ؟

فدعوى وجود جنس (أنثروبولوجي) واحد أو جنسين منفصلين ، لكل منها خصائص جسمية وملامح (فسيولوجية) معينة للعرب ، وبالمعنى العلمي المفهوم اليوم عند علماء الأجناس ، هي دعوى غير مقبولة ، لأن البحوث العلمية والمختبرة لا تؤيدها ولا تثبتها ، ولأن البحوث التاريخية الحديثة تعارضها أيضاً ، وكل ما نقوله هو أن ما نسميه اليوم بالجنس هو جنسية ثقافية فكرية ، لا جنسية دموية تقوم على وحدة الملامح والمظهر والدم .

فما يذكره أهل الأنساب عن النسبين ، وما يتصوره بعض الناس من صفاء الجنس العربي صفاءً تاماً ونقاؤه من كل دم غريب ، دعوى لا يمكن الاطمئنان اليها في هذا اليوم . لن يضير العرب قول مثل هذا ، فصفاء الأجناس البشرية صفاءً تاماً ، من القضايا التي عجز حتى القائلون بنظرية العنصريات مثل النازيين عن اثباتها في هذا اليوم . وسيظهر ضعفها في المستقبل ظهوراً أوضح مما هو عليه الآن .

لقد كان (فولدكه) أول من شك من المستشرقين في هذا النسب العام الذي وضعه أصحاب الأنساب للعرب ، وكان أول من نبه على أثر اليابانيين في وضعه وفي محاولتهم رجعه الى عهود قديمة قبل الإسلام^٢ . وذهب (هاليفي) الى أبعد من ذلك ، فرأى ان كل ما قيل في هجرة القبائل اليابانية الى الشمال هو أسطورة ،

١ البيان (٢٣٩/١) ، الاصابة (٨٥٨) ، الخزائن (١١٣/١) .

٢ Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Noeldeke, in ZDMG. XL.

وان ما يزعم من انتساب تلك القبائل الى اليمن هو حديث خرافة لا يركن اليه^١ .
ونحنا مستشرقون آخرون هذا المنحى ، فرأوا ان للنسابين يدأ في ترتيب هذه
الشجرة العظيمة للأنساب، أو الشجرتين بتعبير أصبح : شجرة نسب أبناء قحطان ،
وشجرة نسب أبناء عدنان . ولذلك فهم لا يطمثون اليها ، ولا يصدقون بكثير
من هذه الأنساب المروية وبالأخبار والروايات الواردة في هجرة القبائل القحطانية
نحو الشمال^٢ .

اذن ، فقحطان ليس بمجدّ لكل القبائل القحطانية المعروفة ، وعدنان لم يكن
جدأ لجميع القبائل العدنانية ، وانما هما كنيّتان عن مجموعة قبائل ، تدعى عند
العرب (بالحلف) ، وقد أخذ أهل النسب قحطانهم من التوراة ، وهو هناك
كناية عن مجموعة قبائل مواطنها في العربية الجنوبية . أما (عدنان) فلم يرد
اسمه في التوراة ، ولا نعرف من أمره شيئاً في الزمن الحاضر ، والظاهر انه
كناية عن حلف ، ويظهر انه ظهر للوجود قبيل الإسلام . وعدم وقوفنا على
أخباره ، لا يسوغ لنا نكران وجوده، فلعل الأيام تكشف لنا عن كتابات نرى
فيها اسمه ، كما حدث بالنسبة الى أسماء أخرى شك في أصلها بعض المستشرقين،
ثم تبين انها كانت معروفة ، بدليل ورودها في بعض كتابات الجاهليين .

ولا أعتقد ان التوراة ابتدعت فكرة (يقطان) ونسل يقطان ، اذ لا يعقل
تصور ذلك . والذي أراه انها حكّت نسباً كان يجمع شمل القبائل العربية المذكورة
عند العرب ، وصل خبره الى العبرانيين فسجله كتبة التوراة في الأسفار ، مع
أنساب الشعوب . كما انها أخذت من العرب أيضاً نسب (الإسماعيليين) على نحو
ما كان معروفاً يومئذ ، وكذلك نسب أبناء (قطورة) . فتكون التوراة قد
ذكرت أنساب ثلاث مجموعات أو أحلاف عربية كبيرة ، كانت قائمة في ذلك
الزمن .

وقد يكون من الخير الاتيان بأمثلة من أيام الإسلام ، تساعدنا في شرح
موضوع النسب عند الجاهليين وتفسيره . فإن الزمن وان تغير وتبدل في الإسلام

1 Muh. Stud. Bd. I, S. 92, Halévy, in Journal Asiatique, 1882, II, 490, and Compte Rendu de VI, International Orientalisten Congress, Leiden, 1884, P. 102.

2 Nicholson, A Literary History of the Arabs P. XX, L. Della Vida, Pre-Islamic Arabia, in Arab Heritage, 50, Robertson Smith, Kinschip, P. 6.

وتباعد عن الجاهلية ، الا أن الأفكار القبلية بقيت هي هي عند تلك القبائل بالنسبة الى النسب وتكوين الأحلاف . فقبيل ظهور الإسلام كان بين (يثرب) و (مكة) نزاع شديد . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) عرف أتباعه الذين تبعوه بالمهاجرين . وقد دامت الهجرة الى عام الفتح : (فتح مكة)^١ . وأما أهل المدينة الذين آووا الرسول ونصروه ، فقد عرفوا بالأنصار لانتصارهم للرسول ولتقديم مساعداتهم له وللمسلمين . وللقضاء على الخصومة ، آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين . غير أن العداء عاد فتجدد بين الأنصار والمهاجرين ، بعد وفاة الرسول ، ويظهر أثره في شعر حسان بن ثابت والنعمان بن بشير^٢ والطمرماتح بن حكيم ، وهم شعراء يثرب وألستهم ، وفي الأشعار الأخرى التي جمعت في دواوين الأنصار^٣ .

وقد صيّر النزاع المذكور لفظة (الأنصار) علماً خاصاً على أهل المدينة ، حتى كادت تكون نسباً ، واصطبغت الدعوة بصبغة عمانية ، فنجد في شعر الأنصار فخراً باليمن ، واعتزازاً بأصلهم اليمني ، ومجاهرة بأنهم يمانيون صرحاء وبأنهم من أقرباء الغساسنة ومن ذوي رحمهم . كما أنهم استعملوا لفظة الأنصار مقابل قریش^٤ ومغده ومضر^٥ ونزار^٦ ، وأطلقوا على لسانهم حسان بن ثابت شاعر الأنصار ، وشاعر اليمن ، وشاعر أهل القرى^٨ .

- ١ (فلما فتحت مكة ، صارت دار سلام كالمدينة ، وانقطعت الهجرة . وفي الحديث : لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية) ، اللسان (١١١/٧) ، المؤلف (ص ١٢٦)
- ٢ الاغاني (١٤٢/١٣) ، (١١٤/١٤) فما بعدها .
- ٣ (كان نهيك بن اساف يهاجي ابا الخضراء الاشهلي في الجاهلية ، واشعارهم موجودة في اشعار الانصار) ، الاغاني (١١٧/٢٠) .
- ٤ ذهبت قریش بالكارم والعلا والزم تحت عمائم الانصار الاغاني (١٤٢/١٣) .
- ٥ وقال الله قد سيرت جنودنا لنسا في كل يوم من معد فنحكم بالقوافي من هجانا ديوان حسان (ص ١) (تحقيق هرشفلد) ، شرح ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ٦) (سباب او قتال) .
- ٦ ونحن جندك يوم التعف من احد اذ حزبت بطرا اشباعها مضر ديوان حسان (ص ٥٧) ، شرح ديوان حسان (ص ٢٠٠) (للبرقوقي) .
- ٧ Muh. Stud. Bd. I, S. 94, ZDMG. XVIII, S. 239.
- ٨ مجالس ثعلب ، القسم الثاني ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، سنة ١٩٤٩ (ص ٤٢٩) .

ونجد في أيام معاوية وفي أيام ابنه يزيد قصصاً عن هذا النزاع الثرسي المكي ، النزاع الذي سمي بتزاع الأنصار مع المهاجرين ، أو نزاع الأنصار مع قريش ، ويلاحظ ان هذا القصص لم يستعمل لفظة (مهاجرين) في مقابل (الأنصار) الا نادراً ، انما استعمل الألفاظ المذكورة . وقد عرفت وفودهم فيه بـ (وفود الأنصار) أو (الأنصار)^١ . فصارت تلك اللفظة وكأنها نسب أو علم من أعلام القبائل ، حتى تضايق من ذلك رجال قريش . قيل بينها كان (عمرو بن العاص) عند (معاوية) يوماً ، اذ دخل عليه حاجبه يقول : « الأنصار بالباب » ، فتضايق من ذلك عمرو ، وقال : « ما هذا اللقب الذي قد جعلوه نسباً ؟ أرددهم الى نسبهم » . فقال له معاوية : ان علينا في ذلك شناعة . قال : وما في ذلك ؟ انما هي كلمة مكان كلمة ، ولا مرد لها . فقال معاوية لحاجبه : أخرج ، فناد : مَنْ كان بالباب من ولد عمرو بن عامر ، فليدخل . فخرج ، فنادى بذلك ، فدخل من كان هناك منهم سوى الأنصار ، فقال له : أخرج ، فناد : مَنْ هنا من الأوس والخزرج ، فليدخل . فخرج فنادى ذلك ، فوثب النعمان بن بشير ، فأنشأ يقول :

يا سغد ، لا تعد الدعاء ، فما لنا نسب نجيب به سوى الأنصار
نسب تحيره الإله لقومنا أثقل به نسباً الى الكفار
إن الذين ثوروا بيد منكم يوم الفليب هم وقود النار

وقام مغضباً . فبعث معاوية ، فردّه ، وترضاه وقضى حوائجه وحوائج من كان معه من الأنصار^٢ . وكان النعمان بن بشير حامل لواء الأنصار قد غضب في مجلس من مجالسه مع معاوية ، ولاحظ معاوية عليه الغضب فضاحكه طويلاً ، ثم قال له : « إن قوماً أولهم غسان ، وآخرهم الأنصار ، لكرام »^٣ . وكان أهل يثرب يلحقون نسبهم بنسب غسان ، ويرجعون نسبهم ونسب غسان الى الأزدي . ونسب الأزدي الى اليمن .

١ (وفود الأنصار) ، الاغاني (١٣ / ١٤٢) .

٢ الاغاني (١٤ / ١٢٠ ، ١٢٢) .

٣ الاغاني (١٤ / ١١٩) .

لقد كان من المعقول استعمال لفظة (المهاجرين) في مقابل (الأنصار) ،
الا أن الجانبين لم يستعملها الا قليلاً ، وانما استعمالاً لفظي قريش ومعد ، كما
استعمالاً (قريشاً) في مقابل (يمن) . وقد افتخرت قريش بمعد ، وبالنبوة .
فأجابهم الأنصار بأن أم الرسول من بني النجار أحوال النبي ، وهم من المدينة ،
وبأنهم كانوا أول من آمن به ونصره ، وبأن المتنبئين كانوا من قبائل معد^١ .

ولو كتب لمصطلح (الأنصار) بالبقاء ، ولو كان عهد التدوين بعيداً عنه ،
لصار ولا شك نسباً من الأنساب ، ولصار اللفظة اسم أب ل قبيلة ، كما صارت
الألفاظ المذكورة التي خلدت لأنها الألفاظ الجاهلية ، فلما صار التدوين ، كان
الناس يتداولونها على أنها أنساب وأسماء .

واستعملت لفظة (البائية) في مقابل (التزارية) ، في العصر الأموي .
ويظهر أنها تغلبت على لفظة (الأنصار) وقضت عليها . وهي تعني القبائل التي
ترجع أنسابها الى اليمن . أما (التزارية) فقد عنت كل القبائل العدنانية^٢ .

وقد كان بين الحزبين نزاع شديد . ولكل شيعة نسابون ومدافعون ومهاجمون .
وقد أثر هذا النزاع تأثيراً خطيراً في وضع الأنساب^٣ .

ويرجع بعض الباحثين انقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين الى هذا النزاع :
نزاع (يثرب) ومكة قبل الإسلام ، ويرجعه آخرون الى التنازع الطبيعي الذي
هو بين البداوة والحضارة . فقد كان أهل يثرب أي اليمن كما يقولون أصحاب
حضارة وملك . أما أهل مكة ومن والاهم ، فقد كانوا أعراباً أو شبه أعراب .
ومن هنا اختلفت طبيعة أهل يثرب عن طبيعة أهل مكة ، ووقع النزاع والتنافس
بين الجماعتين ، وتحول الى نسبين . وزعموا ان هذا النزاع هو نزاع الحضارة مع
البداوة ، نزاع أهل المدر مع أهل الوبر ، نزاع (بني مدراء)^٤ ، أو (أهل
القارية) كما يقال لهم أيضاً ، لأنهم (قارون) أي سكان القرية والقرى مع
أهل البادية أي البادون نزلة البادية . قالوا : ومن هنا قيل : الحضر خلاف

١ Muh. Stud. Bd. I, S. 96.

٢ التنبيه (ص ٦٩) .

٣ التنبيه (ص ٧٢) .

٤ اللسان (١٣٣/٧) ، الاغانى (١٤٥/١٢) .

البدو ، والحاضر خلاف البادي ، و (أهل الحاضرة) و (أهل البادية) و (الحاضرة) ، خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف^١ ، وهو تقسيم ، يرويه ، قديماً ، يرجع الى الجاهلية . روي أن الرسول قال ، حين وفد عليه قيس بن عاصم : « هذا سيد أهل الوبر »^٢ . ونجد مثل ذلك في النصوص الجاهلية الجاهلية ، اذ أشارت الى الأعراب كطبقة خاصة قائمة بنفسها ، تمتاز عن الحضر المستقرين .

ومن ثم كانت غالبية القبائل العدنانية التي يذكر أهل الأخبار أسماءها قبائل أعرابية ، أي قبائل بدوية ، أو قبائل غلبت البداوة عليها ، وغالبية القحطانية قبائل مستقرة أو قبائل شبه حاضرة تنحّت في أماكن ثابتة ومالت الى حياة الحضارة . ولما كان الحضر أرقى فكرياً من أهل الوبر ، صارت اليهم السيادة في الغالب ، فتحكموا في القبائل العدنانية ، وملكوا القبائل المعدية . فحكم المناذرة والغساسنة وآل كندة وغيرهم ممن يرجع نسبهم الى قحطان ، قبائل عدنانية ، ولم يحكم العدنانيون القحطانيين قبل الإسلام .

هذا هو رأي من يرى أن القحطانية والعدنانية كناية عن الحضارة والبداوة ، وتعبير عن أهل المدر وأهل الحضر . يستدلون على رأيهم هذا بما قلته من غلبة الحياة الحضرية والاستقرار على القبائل التي يرجع النسابون نسبها الى قحطان ، وغلبة البداوة أو شبه البداوة على القبائل العدنانية .

وللحكم على هذه النظرية ، يجب تكوين جدول بأسماء القبائل الجاهلية العدنانية منها والقحطانية ، ودراسة أحوالها الاجتماعية والمواضع التي عاشت فيها في مختلف الأزمنة ، وعند ذلك نستطيع الحكم على ما فيها من قوة أو ضعف ، فإن في القحطانيين قبائل متبدية ، وفي العدنانيين قبائل مستوطنة وأصحاب قرى . ولهذا لن تصدق تلك النظرية الا بمثل هذه الدراسة .

ولفهم التراع القحطاني العدناني ، أو نزاع يثرب ومكة ، لا بد من البحث عن موارد جاهلية واسلامية نستعين بها على فهم طبيعة هذا التراع . أما الموارد

١ اللسان (٣٨/٢٠) ، فجر الاسلام ، (٧/١)

Sprenger, Das Leben, Bd., 3, S. CXXVIII

٢ معجم الشعراء (ص ٣٢٤) .

الجاهلية، أي الكتابات ، فليس فيها حتى الساعة شيء ما يحدثنا عن هذا النزاع ،
وأما الموارد الإسلامية ، فإن شعر حسان بن ثابت ، أو الشعر المنسوب الى هذا
الشاعر بتعبير أصدق وأصح، هو المرجع الأول الذي يحدثنا عن طبيعة هذا النزاع
أو التحاسد الذي كان بين مكة ويثرب قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره، اذ كان
حسان نفسه من المناضلين فيه الحاملين للواء يثرب في نزاعها مع مكة . ونرى
القحطانيين يروون شعره ويذكرونه في افتخارهم على العدنانيين . وقد حمل شعره
جل مواضع فخر قحطان على عدنان ، ومفاخر أهل يثرب على أهل مكة ،
حتى نستطيع أن نقول انه أحد بناء النزاع القحطاني العدناني ، باعتبار انه أقدم
مشارك فيه يصل خبره إلينا ، وأن أكثر ما تذكره القحطانية من دعاوى مركزه
في شعر هذا الشاعر مذكورة فيه .

وقد وصل جل شعر حسان إلينا، وطبع في ديوان . راجعناه وراجعنا ما يحمل
من شعر ، فلم نجد فيه ذكراً لعدنان ، وانما نجد فيه اسمي (قحطان) و(معد) ١ .
ولم يرد فيه اسم الأول الا مرة واحدة في قوله :

فلو سئِلْتُ عنه معد بأسرها وقحطان أو باقي بقية جرهما ٢

وأما اسم الثاني ، أي (معد) ، فقد ورد في مواضع بلغت سبعة في
الديوان ٣ .

غير اننا نرى في الجزء الأول من (الإكليل) ، أبيات شعر نسبها (الهمداني)
لحسان ، ورد فيها ذكر لقحطان ، وفخر به ، وانتسب اليه :

لقد كان قحطان العلا القرم جدنا له منصب في يافع الملك يشهر
ينال نجوم السعد ان مدته كفته تفل أكف عند ذاك وتقصر
ورثنا مناه منه برزاً ومحتداً متيف الدرى فخر الأرومة يذكر ٤

-
- ١ طبعة (هرشفلد) سنة ١٩١٠ بمدينة (لايدن) ، رواية السيراني ، شرح ديوان
حسان بن ثابت الانصاري ، للبرقوقي ، القاهرة ، ١٩٢٩ .
 - ٢ ديوان حسان (ص ٤٤) ، البرقوقي (ص ٣٩٨) .
 - ٣ ديوان حسان (ص ١ ، ٥ ، ٦ ، ٢٥ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٨٩) .
 - ٤ الاكليل (١١٨/١) .

ونرى أبياتاً أخرى من هذا النوع من الفخر، في مكان آخر من هذا الكتاب،
نسبها أيضاً لهذا الشاعر ، هي هذه :

فنحن بنو قحطان والملك والعلا ومنا نبيّ الله هود الأخابر
وإدريس ما ان كان في الناس مثله ولا مثل ذي القرنين أبناء عابر
وصالح والمرحوم يونس بعد ما آلات به حوت بأخيل زانر
شعيب والياس وذو الكفل كلهم يمانون قد فازوا بطيب السرائر^١

ونرى أبياتاً أخرى نسبها (الهمداني) الى (حسان) أيضاً ، فيها فخر
بقحطان ويقوم الشاعر ، رواها على هذا النحو :

فن يك عنا معشر الأزد سائلاً فإننا بنو الغوث بن نبت بن مالك
ابن زيد^٢ بن كهلان نما سبأ له الى يشجب فوق النجوم الشوابك
ويعرب ينمي لقحطان ينمي لهود نبيّ الله فوق الحبائك
يمانون عاديون ، لم يلتبس بنا مناسب شابت من الى وأولئك^٣

والأبيات المذكورة ، لا يمكن أن تكون من نظم حسان ، فأسلوبها غير
أسلوبه في شعره ، وفي بعضها ركة وضعف ، ولفظة (المرحوم) من
الاصطلاحات الحادثة المتأخرة^٤، كما ان التفاخر بالأنبياء المذكورين لم يكن معروفاً
على عهده .

وأما الشعر المبتدئ بهذا البيت :

فن يك عنا معشر الأزد سائلاً فإننا بنو الغوث بن نبت بن مالك

ففيه اضافات لا نجدها في الديوان .

وفي المضاف اليه تباين ظاهر مع أسلوب حسان في شعره ، وركة بينة ،
وطابع الصنعة ظاهر عليه . وقد ورد في ديوانه على هذا النحو :

١ الاكلیل (٩٦/١) .

٢ الاكلیل (١٠٦/١) هكذا : (ابن زيد) .

٣ الاكلیل (١٠٦/١) .

٤ الفضل لاستاذي الاثري في تنبيهي الى هذه الملاحظة .

فإن تك^١ عنا معشر الأسد^٢ سائلاً فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
لزيد بن كهلان الذي نال عزّه قديماً دراري النجوم الشوابك
إذا القوم عدوا مجدهم وفعالهم وأيامهم عند التقاء المناسك
وجدت لنا فضلاً يقر لنا^٣ به إذا ما فخرنا كل باق وهالك^٤

فأنت ترى أن الأبيات في الديوان خالية من نسب (سبأ) و (يشجب)
(يعرب) و (قحطان) و (هود) وغير ذلك ، وإن أسلوب صياغة هذا
النظم لا يمكن أن يكون من أسلوب شاعر جاهلي أو شاعر مخضرم ، بل لا بد
أن يكون من نظم المتأخرين ، أضافه بعض المتعصبين لليمن إلى شعر حسان ،
ونظمه على وزن البيت الأول وطريقته ، ليكون أوقع في النفس ، ودليلاً على
قدم ذلك النزاع .

ولا أعتقد أن هنالك حاجة تدعوني إلى إلغات نظر القارئ إلى أن الأبيات
المتقدمة الواردة في ديوانه ، هي الأبيات المتقدمة عليها نفسها ، أي الأبيات التي
أخذتها من كتاب الإكليل للهمداني رويت بشكل آخر ، بشكل يرينا أن الرواة
مهما حاولوا اظهار انهم على حرص تام في المحافظة على أصالة الشعر والمحافظة
على الأصل ، فلمهم لا يتمكنون من ذلك .
ونسب بعض الرواة إليه هذه الأبيات :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أينا ، فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما بكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر^٥

وهي أبيات لم ترد في ديوانه ، تشعر أن (يعرب) ، وهو جد القحطانيين ،
هو أول من أعرب في لسانه ، وأول من نطق بالعربية ، فهو أول متكلم بها ،
وأول من أوجدها وكونها ، وإن العدنانيين تعلموها من أبنائه ، بعد أن كان
لسانهم لساناً أعجمياً . وأما من ناحية صحة نسبتها إلى شاعر الإسلام وشاعر

١ وفي الديوان : (من تك) ، (ص ٤٠) ، البرقوقي (ص ٢٩٥) .
٢ « الأسد » ، الاصح في نظري : « الازد » . كما في الأبيات المتقدمة .
٣ ديوان حسان (ص ٤٠) ، البرقي (ص ٢٩٥) .
٤ الاكليل (١١٦/١) .

الأنصار ، فإن في أسلوب نظمها وفي صياغة البيت الأول وجملة (منطلق الشيخ يعرب) ، ما فيه الكفاية لإظهار أنها مصنوعة ، حملت عليه حملاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظم من نظم أول الإسلام ، حتى وإن كان من شاعر من شعراء أهل الملر في ذلك العهد .

وزعم ان حسناً ذكر القليل (ذو ثات) ، وهو من أقيال حمير ، فقال هذا البيت :

وفي هكر قد كان عز ومنعة وذو ثات قَيْلٌ ما يكلم قائله^١

ولم يرد هذا البيت في ديوانه . أما أسلوب نظمه ، فينبثك ان قائله يجب أن يكون شخصاً آخر من المتأخرين عن حسان ، ممن كانوا يضعون الشعر على ألسنة غيرهم على نحو ما وضعوا على ألسنة التبابعة وآدم والجن . هذا ولحسان شعر لم يرد في ديوانه ، بل ورد في موارد أخرى . منه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ، لأنه متحول وقد حمل على حسان وألصق به ، ولم يغفل العلماء عنه ، بل أشاروا اليه ونبهوا ان بعض الناس قد تعمدوا وضعه وحمله عليه لمآرب^٢ . قال الأصمعي في ذلك : « تنسب اليه أشياء لا تصح عنه . وهذا فيما يظهر صحيح ، وكثيراً ما رأيت في سيرة ابن هشام أبياتاً لحسان من هذا القبيل يعقبتها صاحب السيرة بقوله : وأهل العلم ينفيها عن حسان »^٣ . وقد نسب الجمحي الوضع على حسان الى بعض قريش للغرض منه ، فقال : « وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد . لما تعاضت قريش ، واستبنت ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة ، لا تليق به » . وقد كان ذلك لتعرضه بهم ، ولتعصبه المفرط ليثرب ، وافتخاره بهم على قريش^٤ .

هذا ومع إفراط (حسان) في التعصب ليثرب ، لا نراه يذكر قحطان الا

١ شمس العلوم (ح ١ ق ١ ص ٢٧١) .
٢ ديوان حسان : المقدمة الانكليزية (ص ٢ وما بعدها) ، (وقد قال الأصمعي في ذلك : تنسب اليه أشياء لا تصح عنه . وهذا فيما يظهر صحيح ، وكثيراً ما رأيت في سيرة ابن هشام أبياتاً لحسان من هذا القبيل يعقبتها صاحب السيرة بقوله : وأهل العلم ينفيها عن حسان ٠٠٠٠) ، البرقوقي (ص ٤) .
٣ المصدر المتقدم .
٤ طبقات الشعراء (ص ٥٢) .

مرة واحدة ، أما عدنان فلم يذكره في شعره قط . ولهذه الملاحظة أهمية كبيرة ، لتكوين رأي في فكرة (قحطان) وعدنان في ذلك العهد ، اذ انها تدل على ان القحطانية والعدنانية لم تكن عنده على النحو الذي صارت عليه فيما بعد ، بعد اشتداد التزاع بين الأنصار وأهل مكة ومن حولها في خلافة بني أمية خصوصاً ، وهم عصب العدنانيين ، وانه في كل فخره بالنسب لم يتجاوز الأزدي ، أبناء (الغوث بن زيد بن مالك بن زيد بن كهلان)^١ ، وغسان وآل نصر .

وأما بعد اسلامه ، فقد حول فخره وتباهيه الى فخر بالأنصار على قريش ومضر ومعد ، أي أهل مكة ، بنصرة قومه للإسلام ، وبنصر النبي حين خذلوه وقاوموه . فكانوا ملوك الناس قبل محمد ، فلما أتى الإسلام ، كان لهم النصر في نصرته^٢ . ونجد هذا الفخر واضحاً قوياً في شعره ، فهو فخر أهل يثرب على أهل مكة . فخر الأنصار على مضر ومعد وقريش ، فلم يصل الفخر بقومه عنده اذن الى حد الفخر بقحطان ، أو باليمن كلها على عدنان . وأما ما ورد منه أكثر من ذلك ، كما نرى في الأبيات المنسوبة اليه في الجزء الأول من الإكليل ، فإنه عندي من ذلك النوع المنحول الذي اضيف اليه . فالتكلف ظاهر عليه ، والأسلوب مختلف عن أسلوبه ، وهو من النظم المتأخر عن ايام حسان ، من نظم وضاح يتكلف قول الشعر ولا يحسن صناعته .

خذ قصيدته التي تمثل منتهى فخره بقومه ، نره يقول :

ألم ترنا أولاد عمرو بن عامر لنا شرف يعلو على كل مرتقي ؟
رسا في قرار الأرض ، ثم سميت له فروع تسامي كل نجم ملحق
ملوك وأبناء الملوك ، كأننا سوارى نجوم طالعات بمشرق

الى أن يقول :

كجفنة والقمقام عمرو بن عامر وأولاد ماء المزن وابني محرق

فنحن بنو الغوث بن زيد بن مالك
قديم ذراري النجوم الشوابك

فلما أتى الاسلام كان لنا الفضل

١ من تلك عنا معشر الأزدي سائلا
لزيد بن كهلان الذي نال عزه
ديوان حسان (ص ٤٠)
٢ وكنا ملوك الناس قبل محمد
ديوان حسان (ص ٧٠ ، ٧٣) .

وحارثة الغطريف أو كابن منلر^١ ومثل أبي قابوس ربّ الخورنق^٢

فلا تبحد فخره بها يتعدى حدود الفخر بالأزد وبالعساسنة وآل نصر ، أي
ملوك الحيرة . وهو ما وجدناه في أشعاره الأخرى . وقد عاب في هذه القصيدة
(قيساً) و (خندفأ) لأنها قاومتا الرسول وأذناه . مما يدل على أن هذين
الاسمين كانا معروفين قبل الإسلام .
هذا ، وقد أضاف أهل الأخبار الى قصيدة حسان التي مدح فيها الملك
(جبلة بن الأيهم) ، ومطلعها :

لمن الدار أقفرت بمغان بين أعلى اليرموك والصمان^٣

هذا البيت :

أشهرنها فإن ملكك بالشا م الى الروم فخر كل عياني^٤

ولم يرد ذكر هذا البيت في الديوان . وهو بيت يتحدث كما ترى عن فخر
باليمن : أصل العساسنة ، وأهل يثرب ، وكل قحطان . وأغلب ظني انه من
الآيات المدسوسة ، وضعه أحد المتعصبين لليمن ودسه في القصيدة .
هذا وقد نسب الى النعمان بن بشير الأنصاري شعر قيل انه قاله في هذا الباب :
ونسب الى الطرماح بن حكيم مثل ذلك ، وهو أيضاً شاعر من شعراء الأنصار .
وعليّنا أن ندرس شعرهما ، وشعر أمثالهما ، وشعر شعراء قريش أيضاً دراسة نقد
وتمحيص تميز بها بين صحيحه وفاسده ، لنتمكن بذلك من تكوين رأي علمي
صحيح في القحطانية والعدنانية وتأريخ ظهورهما . ولو تسر لنا ديوان الأنصار أو
دواوين الأنصار ، لزادت معارفنا ، ولا شك ، في هذا الباب وتمكننا من تكوين
رأي في تلك العصبية القبلية بصورة أصح وأدق ولا شك .

- ١ البرقوقى (ص ٢٨٨) .
- ٢ مروج الذهب (٣١/٢) (تحقيق محمد محيي الدين) . ونجد هنا اختلافا في
الالفاظ وفي بعض الجمل عن نص القصيدة الوارد في الديوان ، راجع (ص ٥٥)
من الطبعة الأوروبية ، و (ص ٤١٤) من (شرح ديوان حسان بن ثابت) لعبد
الرحمن البرقوقى . وقد اخذت مطلع القصيدة من رواية المسعودي .
- ٣ مروج الذهب (٣١/٢) .
- ٤ فمنا سراة الناس هود وصالح وذو الكفل منا والملوك الاعاظم
الأكليل (١٤/١) .

لقد حارب الإسلام العصبية الجاهلية ، وآخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، وحالف بين قريش وأهل يثرب ، ونهى عن أحلاف الجاهلية ، وروي عنه أنه قال : (لا حلف في الإسلام)^١ ، لما ينتج عنه من فتن ومن قتال بين القبائل وغارات ، ولأن الإسلام قد عوّض عن الحلف ، وزاده شدة بتزوله . (وما كان من حلف في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة)^٢ . وعدّ (التعرب) بعد الهجرة ، أي أن يعود المرء إلى البادية ويقوم مع الأعراب ، كبيرة من الكبائر ، حتى عدّ من يعود إلى موضعه من البادية بعد الهجرة كالمرتد^٣ . ومع ذلك ، لم يكن من الممكن تناسي العصبية ، وغسل آثار الجاهلية ، وطمس معالمها تماماً ، فتحزبت القبائل وتكتلت ، وكانت تحارب على أنها همدان^٤ ، أو ربيعة^٥ ، أو طيء^٦ ، أو مضر^٧ ، أو قريش^٨ ، أو قيس^٩ ، أو الأزد ، أو ربيعة^{١٠} ، أو تميم^{١١} ، أو غير ذلك من أسماء قبائل .

القحطانية والعدنانية في الإسلام :

الحق أن ما نسميه قحطانية أو عدنانية إنما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام ، شاء أصحابه ومثيروه رجعه إلى الماضي البعيد ، ووضع تاريخ قديم له ، فجعلوا له أصولاً زعموا أنها ترجع إلى ما قبل الإسلام

- ١ تفسير الطبري (٣٦/٥)
- ٢ تفسير الطبري (٣٦/٥) .
- ٣ (وفي الحديث : ثلاث من الكبائر ، منها التعرب بعد الهجرة ، هو أن يعود إلى البادية ويقوم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً . وكان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه ، من غير عذر ، يعدونه كالمرتد) ، لسان العرب (٧٦/٢)
- ٤ مروج (٢٢/٢) .
- ٥ مروج (٢٢/٢) .
- ٦ مروج (٢٢/٢) .
- ٧ اليعقوبي (١٦٥/٢) ، الكامل (٨٥/٤)
- ٨ اليعقوبي (٣/٣) ، الكامل (٦١/٣) .
- ٩ الكامل (١٤/٤) ، ٦٣ .
- ١٠ الكامل (٥٨/٤) .
- ١١ الكامل (٥٨/٤) .

بكثير ، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر السدي يحفظه الرواة على لسان آدم وهايل وقايل والجن .

وفي هذا الصراع القحطاني العدناني العنيف شرع في تدوين الأنساب وتثبيتها في القرايطيس والكتب . فكان لهذا الصراع ولوضع القبائل وتكتلاتها في هذا الوقت أثر خطير في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها ، ليس في هذا العهد فقط ، بل في تثبيت أنساب قبائل الجاهلية وتسجيلها أيضاً . اذ سجلت هذه الأنساب : جاهلية واسلامية على الرأي السائد في النسب يوم شرع في التسجيل والتدوين ، أي في أوج هذه العصبية العنيفة التي عمت الناس في صدر الإسلام . ومن هنا كان لا بد لفهم الفكرة القحطانية العدنانية من الإلمام بتزاع قحطان وعدنان في الإسلام .

والذين قاموا بتسجيل الأنساب وتدوينها وتثبيتها في الكتب ، كانوا هم أنفسهم من أصحاب العصبية لنزار أو لليمن ومن المتأثرين بالأحوال السياسية لذلك العهد . ولهذا نجد في أقوال بعضهم تحزباً وتطرفاً وميلاً الى تأييد فريق على فريق . ومن هنا كان لا بد لنا من التنبيه لهذه العصبية ، واتخاذ الحيلة والحذر عند دراسة هذا النزاع القحطاني العدناني .

وقد استعملت في هذا العهد (مضر) في مقابل (الأزد)^١ ، كما استعملت الأزد في مقابل تميم ، وورد (أهل اليمن) أو اليمانية^٢ . ولكننا قلنا نسمع في نداء القبائل وأخبار هذه الفتن أو الحروب التي وقعت في هذا العهد استعمال كلمة (عدنان) في مقابل (قحطان) ، ويقال مثل ذلك في الأشعار أيضاً ، في مثل شعر (الفرزدق) الذي استعمل كلمة (قحطان) في مقابل كلمة (نزار) وكلمة (يمن) في مقابل (نزار) أو (الأزد) في مقابل (نزار)^٣ . كما استعمل الحكم بن عبدل (قحطان) في مقابل (معد)^٤ . وقد ذكر الأعشى

١ الكامل (٥٨/٤) .

٢ الكامل (٦١/٤) .

٣ ديوان الفرزدق « طبعة بوشيه » Boucher « ص ٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٦ » .
Muh. Stud. Bd. I, S. 98.

٤ فما صادفت في قحطان مثلي
كما صادفت مثلك في معد
الاغاني (١٤٨/٢) .

في شعر له : (ومن معدّ قد أتى ابن عدنان) ، وذلك في مقابل (قحطان)^١ . وفي أيام معاوية وابنه (يزيد) و (مروان بن الحكم) ، نالت (كلب) مركزاً سامياً ، لتزوج معاوية امرأة من كلب ، هي (ميسون بنت بحدل) ، فأصبحت هي والقبائل التي تؤيدها مقربة عند الخلفاء ، مع أن الخلفاء من قريش ، وقريش من قيس . وهذا مما أغضب قيساً المعروفة بعدائها لـ كلب . وقد كانت لفظة (قيس) في هذا العهد ترادف كلمة (معد) و (مضر) و (نزار)^٢ . وأما (كلب) ، فترادفه اليمن . وقد عرفت المعركة التي وقعت في (مرج راهط) بين مروان وابن الزبير بأنها معركة (قيس) و (كلب) لأن قيساً حاربت فيها عن (ابن الزبير) . أما كلب ، فقاتلت عن مروان ، وقد أوجد هذا الانتصار حقداً كبيراً بين (قيس) وحلفائها من القبائل ، وبين كلب وأنصارها من القبائل التي أدعت أنها من اليمن ، فوقعت حروب بين قيس وـ كلب هلك فيها خلق كثير من الفريقين^٣ . ولعب دوراً مهماً في تكتل القبائل وفي تجمع القحطانيين والعدنانيين .

وقد أسهم الخلفاء الذين جاؤوا بعد (عبد الملك) ، وبالأأسف ، في هذا النزاع ، متأثرين بعاطفتهم وبتدبيرهم من الأمهات ، فكان بعضهم يؤيد البقيسين إذا كانت أهمهم من قيس ، وكان آخرون يؤيدون (كلباً) إذا كانت أهمهم من اليمن . وسار على هذه السياسة الولاة والعمال ، فكانت النتيجة تكتل القبائل وانقسامها إلى معسكرين (قيس) و (يمن) ، وتزعمت (أزدعمان) في البصرة وخراسان حزب (يمن) في مقابل (قيس) و (نعيم)^٤ .

ووقعت وقائع دموية بين يمن وقيس ، انهكت العرب جميعاً ، وصارت من جملة العوامل التي عجلت بسقوط الأمويين .

وحمل الشعراء مشاعل هذا النزاع ، وأمدوا ناره بوقود غزير . نظموا القصائد في مدح قيس وفي ذم يمن وذم قيس بحسب قبيلة الشاعر ونسبه . ساهم فيه

١ سار بجمع كالقطا من قحطان ومن معد قد أتى ابن عدنان

الآغاني (١٥١/٥) .

٢ Enc. Vol. 2, P. 655.

٣ Enc. Vol. 2, P. 655, Werner Caskel, Die Bedeutung der Beduinen in der Geschichte der Araber, S. 13.

٤ Wellhausen, Das Arabische Reich und sein Sturz, S. 40, Enc. Vol. 2, P. 655.

الأخطل والكُمَيْت ودُعَيْل الخزاعي وجريز بن عطية بن الخطّمي التميمي واسحاق بن سويد العدوي وغيرهم ، فكان مدح وكان ذم ، وكان تباه واقتخار ، وكان قذع وهجاء . وبدلاً من أن يتدخل الحكام ومسيرو الأمة في اخماد نار هذه الفتنة واسكات الشعراء جمعاً للصف ، ساهموا هم أنفسهم كما قلت في هذه المعركة وشجعوا المحاربين فيها ، ففرقوا بين العرب بسياساتهم هذه وأطمعوا الأعاجم فيهم ، وجعلوا العرب يقاتل بعضهم بعضاً ، وبذلك توقفت الفتوحات العربية الإسلامية ، نتيجة لهذه السياسة المفرقة للخزاء .

ولم يقف هذا النزاع على التباهي بقحطان وعدنان وبالأيام وبالشجعان ، بل تجاوز ذلك الى التباهي بارتباط كل فريق بجماعة من الأعاجم بروابط الدم والنسب والثقافة ، فافتخرت النزارية بالفرس على اليمانية ، وعدوهم من ولد (اسحاق ابن ابراهيم) وافتخروا بإبراهيم جدّ العرب والفرس . ونظم (جريز بن عطية ابن الخطّمي التميمي) ، في ذلك شعراً ، جاء فيه :

أبونا خليل الله لا تنكرونا فأكرم بإبراهيم جدّاً ومفخراً
وأبناء اسحاق الليوث اذا ارتدوا حائل موت لابسين السّنّورا
اذا افتخروا عدوّ الصّبيهد منهم وكسرى وعدّوا الهرمزان وقيصرا
أبونا أبو اسحاق يجمع بيننا أب لا نبالي بعده من تأخرا
أبونا خليل الله ، والله ربنا رضينا بما أعطى الإله وقدرنا^١

ومن هذا القبيل ، قول اسحاق بن سويد العدوي :

اذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا
ملكناهم بدءاً بإسحاق عمّنا وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدنا
ويجمعنا والفرس أبناء فارس أب لا نبالي بعده من تفردنا^٢

وقول بعض النزارية :

واسحاق واسماعيل مدا معالي الفخر والحسب اللبّابا
فوارس فارس وبنو نزار كلا الفرعين قد كبرا وطابا^٣

-
- ١ التنبيه (ص ٩٥) .
 - ٢ التنبيه (ص ٩٥) .
 - ٣ التنبيه (ص ٩٥) .

ولم يقف النزاريون عند هذا الحد ، بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن هذا النسب قديم ، وأن قرابة الفرس بالعدنانين قديمة ، وأن الفرس كانت في سالف الدهر تقصد الى البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لإبراهيم الخليل بانيه ، وأنه عندهم أجل الهياكل السبعة العظيمة والبيوت المشرفة في العالم ، وأن رجلاً تولاه وأعطاه العدة والبقاء ، واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر زعموا أن قائله هو أحد شعراء الجاهلية :

زمزمت الفرس على زمزم وذاك في سالفها الأقدم^١

وثرتب على هذا وضع نسب للفرس يتصل بنسب العرب العدنانين ، فزعموا أن (منوشهر) الذي ينتسب اليه الفرس هو (منشخر بن منشخرباغ) ، وهو (يعيش بن ويزك) ، و (ويزك) هو اسحاق بن ابراهيم الخليل ، واستشهدوا على زعمهم هذا بشعر ، قالوا ان بعض شعراء الفرس في الإسلام قاله مفتخراً :

أبونا ويزك وبه أسامي اذا افتخر المفاخر بالولاده
أبونا ويزك عبد رسول له شرف الرسالة والزهادة^٢

أما (يعيش بن ويزك) جد الفرس الجديد ، فهو (عيسو) (Esau) ، وفي العبرانية (Usu) ، ومعناها (مشعر) أو (خشن) ، وهو شقيق يعقوب وجد الأدوميين في التوراة وابن إسحاق^٣ . وأما (ويزك) فهو (يزك) أو (إيزك) (Isaac) (Icaak) وهو (إسحاق) ، وهو في العبرانية (يصحق) (يصحك) (يصحاك) (Yishak) أي (الضحاك) . ويرى علماء التوراة ان الأصل اسم قبيلة كان يقال لها (يصحقيل) (يصحق ال) (يصحقك ال) (Yishhakeil) (Yishakil) ، وهو والد (عيسو) و (يعقوب)^٤ .

وقد أسهم بعض الفرس أنفسهم في اذاعة هذا النسب ونشره ، وقد استشهد على صحة دعواه بالأشعار المذكورة التي تفتخر بالفرس على الإيرانية ، وانهم من

١ التنبيه (ص ٩٥) .

٢ التنبيه (ص ٩٦) .

٣ Enc. Bibl. P. 1333, Budde, Urgeschl. S. 217, Hastings, P. 235.

٤ Enc. Bibl. P. 2175, Hastings, P. 386.

ولد أبيهم ابراهيم^١ . ولعلمهم قالوا ذلك تقريباً الى الحكومة ، وهي عدنانية ،
ولعوامل سياسية أخرى ، منها تقريب الفرس من العرب ، وضمان تعاونهم مع
الحلافة في وجه النعرات القومية التي ظهرت في ايران .

ولم يكتف العدنانيون بقرابتهم للفرس وللإسرائيليين ، بل زعموا ان الأكراد
من أقربائهم كذلك ، وانهم من نسل ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل ، أو
انهم من نسل ربيعة بن نزار بن معد ، أو انهم من نسل مضر بن نزار ، أو
من ولد كرد بن مرد بن صمصمة بن هوازن ، وانهم انفردوا في قديم الزمان
لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان ، وانهم اعتصموا بالجلال فحدادوا عن اللغة
العربية لما جاورهم من الأمم ، وصارت لغتهم أعجمية ، فذلك على رأي أهل
الأخبار بدء نسب الأكراد^٢ .

وقد لقي هذا النسب الجديد للأكراد تشجيعاً من بعض الأكراد في أيام
العباسيين ، وربما في أيام أواخر الدولة الأموية كذلك ، فأيدوه وانقسموا أيضاً
فرقاً في شجرات النسب ، فمنهم من أخذ بشجرة كرد بن مرد، ومنهم من أخذ
بانتسابهم الى سبيع بن هوازن، ومنهم من انتسب الى ربيعة ثم الى بكر بن وائل^٣ .

وكان من الطبيعي أن يجعل القحطانيون أعداء الفرس من ذوي أرحامهم، وهم
اليونان فقالوا : إن يونان أخ لقحطان ، ولأنه من ولد عابر بن شالخ ، ولأنه
خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضموا الى جماعته حتى
وافى أقاصي بلاد المغرب فأقام هناك ، وانسل في تلك الديار ، واستعجم لسانه
ووازي من كان هناك في اللغة الأعجمية من الأفرنجية ، فزالت نسبته ، وانقطع
نسبه وصار منسياً في ديار اليمن . وقالوا أيضاً إن الاسكندر من تبع^٤ . وكان
من الطبيعي انزعاج العدنانيين من ربط نسب قحطان بيونان ، فانبروا للرد عليه،
وكيف يرضون أن يكون للقحطانيين أبناء عم على شاكلة اليونانيين ، وقد

١ التنبيه (ص ٩٤) .

٢ مروج الذهب (٣٠٧/١ فما بعدها) التنبيه (ص ٧٨) .

٣ التنبيه والإشراف (ص ٧٨) .

٤ مروج الذهب (١٧٨/١) (وقد ذكر ان يونان اخو قحطان ... وقد كان يعقوب

ابن اسحاق الكندي يذهب في نسب يونان الى ما ذكرنا) .

كانوا أمهر من الفرس ، ولهم دولة كبرى . فقال أحدهم ، وهو أبو العباس
الناشي :
وتخلط يوناناً بقحطان ضلّة لعمري لقد باعدت بينهما جيداً^١

وأضاف القحطانيون الأتراك اليهم أيضاً ، فزعموا أن معظم أجناس الترك وهم
(التبت) من حمير ، وأن التبع (شمر يرعش) أو تبعاً آخر ربّتهم هناك ، وأن
(شمر يرعش) هو الذي أمر ببناء (سمرقند) ، إلى غير ذلك من أقوال
لا ترضي العدنانيين بالطبع ، وفي ذلك يقول (دُعَيْل بن علي الخزاعي) في
قصيدته التي يردّها بها على (الكميث) ، وفخر فيها بمن سلف من ملوكهم
وسير في الأرض ، وإن لهم من الفضل ما ليس لمعدّ بن عدنان ، فقال في شعره :

هو كتبوا الكتاب يباب مَرَوٍ وباب الصين كانوا الكاتينسا
وهم جمعوا الجموع بسمرقندٍ وهم غرسوا هناك التبتينسا^٢

وأضافوا (الضحّاك) اليهم ، وصيروهم من (الأزدي) ، والأزد من اليمن ،
فهو يمانيّ إذن أصيل^٣ . و (الضحّاك) هو (بيوراسب) عند أهل الأخبار .
وقد ملكوه ألف سنة . وهو بطل أسطوري عند الفرس^٤ . وقد أخذ أهل
الأخبار (ضحّاكهم) هذا من (إسحاق) ، كما أخذ العدنانيون (ويزكهم)
من (إسحاق) فصيروهم (متشخر) على نحو ما ذكرت . وقد قلت إن معنى
(إسحاق) في العبرانية الضحّاك . فالقحطانيون فعلوا هذا فعل العدنانيين ،
لجأوا إلى إسحاق فصيروهم (الضحّاك) ، وبدلاً من أن يقولوا إنه (ويزك) من
اسم (إسحاق) في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيروهم اسماً عربياً هو الضحّاك .
وجعلوه قحطانياً من الأزدي .

وكان كل فريق يرد على مزاعم الفريق الآخر ، حين يضيف إليه أمة من
الأمم . فلما ادعى العدنانيون أنهم هم والاسرائيليون والأعاجم من نسب واحد ،

١ مروج الذهب (١٧٨/١) ، ابن خلدون (١٨٤/٢) .

٢ مروج الذهب (٣٠٠/١) .

٣ مروج الذهب (ص ٧٦) .

٤ التنبيه (ص ٧٥) .

انبرى (دعبل الخزامي) يرد عليهم في قصيدة ساخرة يقول فيها :

فان يك آل اسرائيل منكم	وكنتم بالأعاجم فاخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي	مسخن مع القروذ الحاسثينا
بأيلة والخليج لهم رسوم	وأثار قدمن وما محينا
لقد علمت نزار ان قومي	الى نصر النبوة فاخرينا

قال هذه القصيدة في الرد على (الكميث) ، وهو لسان من ألسنة التزارية ، وقد تعرض فيها باليانية ونهكم عليهم^١ .

حقى الموالي ، وهم كما نعلم من أصل غير عربي، أسهموا في هذه المعركة ، وحاربوا في الصفوف الأولى منها ، تعصب كسل منهم للجانب الذي دخل في ولائه . هذا (أبو نواس) ، وهو مولى (بني حكم بن سعد العشيرة) ، يتعصب للقحطانية ويدافع بكل قواه عنها ، لأن (بني الحكم) من اليمن . وقد حمله تعصبه لهم على نظم قصيدة هجا فيها قبائل نزار بأسرها وافتخر بقحطان وقبائلها ، وقد أوجعت التزاريين وآلتهم ، فشكوه الى الخليفة الرشيد، وهو منهم، فأمر بحبسه بسببها ، وقيل انه حده لأجلها ، وأولها :

لست لدار عفت وغيرها ضربان من قطرها وحاصبها

ثم قال مفتخراً باليمن وذاكراً للضحاك :

فنحن أرباب ناعظ ولنا	صنعاء والمسك في محاربها
وكان منا الضحاك يعبده الـ	سخابل والطير في مساربها

ثم يستمر فيقول في هجاء نزار :

واهج نزارا وافر جلدتها وكشّف السر عن مثالبها^٢

وأثارت هذه القصيدة جاعة من التزارية ، فردت عليه . وكان منهم رجل

١ مروج (٣٠٠/١) .

٢ التنبيه (ص ٧٦ فما بعدها) .

من (بني ربيعة بن نزار) ، فقال يذكر نزاراً ومناقبها ، واليمن ومثالبها في قصيدة أولها :

دع مدح دار خبا وانتهى عهد معدّ بزعم عاتبها
ثم استمر ، فقال :

فامدح معداً وافخر بمنصبها له عالي على الناس في مناصبها
وهتك السر عن ذوي يمن أولاد قحطان غير هائبها^١

وقد أنتج هذا النزاع القحطاني العدناني قصصاً وحكايات وشعراً دُونَ في الكتب ، وأنتج (حديثاً) زعم أن قائله هو الرسول ، قاله في مدح قحطان أو في مدح عدنان ، وأحياناً في مدح القبائل ، مثل : حمير ومدحج وهمدان وغسان ، وقبائل أخرى أو في مدح بيوتات معينة من مثل هذه القبائل .

لقد تلون هذا النزاع بلون أدبي زاه لا يخلو من طرافة وإن كان قد أساء من الناحية السياسية الى هذه الأمة أبما أساء . فقد لوّن اليانون تاريخهم القديم بألوان زاهية جميلة من القصص والحكايات والأخبار ، فهم الذين زعموا أن قحطان هو ابن هود النبي ، فأوصلوا نسبهم بالأنبياء ، وهم الذين أوصلوا نسب قحطان الى إسماعيل ، فنفوا بذلك أي فضل كان للعدنانيين على القحطانيين في الآباء والأجداد ، وهم المسؤولون عن هذا التقسيم المشهور المعروف للعرب وجعل القحطانيين في الطبقة الأولى من العربية بالنسبة الى العدنانيين ، وهم الذين نظموا في الإسلام تلك الأشعار والقصائد التي ذكرها الرواة على أنها من نظم التبابعة وملوك القحطانيين ، وهم الذين ساقوا تلك الحكايات عن الفتوحات العظيمة للملوك اليمن وعن حكم القحطانيين للعدنانيين واستدلالهم إياهم .

وقد استغل العدنانيون ظهور الرسول بينهم ، فاتخذوا من هذا الشرف ذريعة للتفاخر والتباهي على القحطانيين^١ . وقد أجابهم اليانون على ذلك بأنهم هم الذين كان لهم شرف نصرة الرسول وإعلاء كلمة الله ، وهم الذين كوّنوا مادة الجيش الإسلامي ، وهم الذين آووا الرسول وفتحوا مكة . وتمسك العدنانيون بأذيال

١ التنبيه (ص ٧٧) .

إبراهيم وعدّوه جدهم الخاص بهم ، مع أنه جدّ العرب عامة ، كما في القرآن الكريم ، ونفوا كل مشاركة للقحطانيين في هذا النسب الشريف . وقد كان لهم ما يساعدهم في تقوية حجّتهم ، فقد كان الرسول من صلب إسماعيل والرسول منهم ، فإبراهيم هو أبو المختص بهم . ولردّ دعوى الإسماعيليين هذه من اختصاص إسماعيل وإبراهيم بهم . وصل بعض روايتهم نسب قحطان لإسماعيل وإبراهيم ، ولم يكتفوا بذلك فلا بدّ لهم من شرف زائد ، ورجحان على العدنانيين الذين لم يبدأ ملكهم إلا في الإسلام ، فاخصّصوا هوداً بهم ، وجعلوه نبياً يمانياً . ثم لم يقبلوا بنبي واحد زيادة على الأنبياء الذين اختص بهم العدنانيون فأضافوا اليهم صالحاً النبي وقالوا : إنه من صميم حمير وإنه صالح بن الحمير بن ذي ماذن نبي حمير من آل ذي رعين ، وزعموا أن ثقفيّاً كان غلاماً له^١ ، وحصلوا بذلك على نبي وطعنوا في ثقيف ، وهم من العدنانيين في الوقت نفسه ، وأضافوا اليهم نبياً آخر من صميم حمير سموه أسعد تبع الكامل بن ملكي كرب بن تبع الأكبر ابن تبع الأقرن ، وقالوا إنه ذو القرنين الذي قال الله تعالى فيه : (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم لأنهم كانوا مجرمين)^٢ . وذكروا أنه كان من أعظم التبابعة وأفصح شعراء العرب ، ولذلك قال بعض العلماء فيه ذهب ملك تبع بشعره ، ولولا ذلك لما قدم عليه شاعر من العرب وقالوا : نهى النبي عن سبّه ، لأنه آمن به قبل ظهوره بسبع مئة عام ، وليس ذلك إلا بوحي من الله عز وجل . وهو أول من كسا البيت ، وجعل له مفتاحاً من ذهب . وأوردوا له أشعاراً لا ثبات إيمانه بالرسول تمنى فيها لو أدرك أيامه إذن لآمن به ، ولكان له وزيراً وابن عم ، ولألزم طاعته كل من على الأرض من عرب وعجم ، ورووا له أبياتاً في البيت الحرام ، وكيف كان يقصده فيمكث فيه تسعة أشهر ، وكيف كان ينحر في العام سبعين ألفاً من البدن^٣ .

وزعموا فوق هذا كله أنه تنبأ بعودة ملك حمير حيث يظهر المهدي منهم ، وهو رجل حميري سبئي الأبوين ، يعيد الملك إلى حمير بالعدل ، في هذه الأبيات التي رواها عبّيد بن شَرِيّة الجُرهمي :

١ . منتخبات (ص ٦٢) .

٢ . منتخبات (ص ١٣) .

٣ . منتخبات (ص ١٣) .

ومن العجائب أن حمير سوف تعلى بالقهور
ويسودها أهل المواشي من نصير أو نصير

يعني النصير بن كنانة ، وهو قریش :

ويثيرها المنصور من جنبي أزال كالصقور
وهو الإمام المرتضى المذکور من قدم الدهور

وأنه قال :

بمنصور حمير المرتضى يعود من الملك ما قد ذهب
ويرجع بالعدل سلطانها على الناس في عجمها والعرب

وقالو ان المنصور هو لقب القائم المنتظر الذي سيظهر ليعيد ملك حمير
المسلوب^١.

وذكروا انه كان في جملة ما قاله من شعر قوله :

واعلم بني " بأن كل قبيلة ستدل ان نهضت لها قحطان^٢

الى غير ذلك من أشعار نسبت اليه والى غيره من التبابعة تتحدث عن حقد
القحطانيين على العدنانيين ، وعن ألمهم الشديد لفراق ملكهم وانتقال الحكم منهم
الى المكيين ، وقد كانوا من أتباعهم بالأمس . فعللوا أنفسهم بالتحدث عن
الماضي ، ثم صبروا أنفسهم بالحديث عن ملك سيعود ، وعن دولة ستأتي ،
وعن مهدي يأخذ بالنار ، كالذي يفعله المغلوبون . وجعلوا ذا القرنين الذي ورد
اسمه في سورة الكهف منهم^٣ ، فقالوا : هو الهاميسع بن عمرو بن زيد
ابن كهلان ، أو الصعب بن عبدالله بن مالك بن زيد بن مدد بن حمير الأصغر ،
أو تبع الأكبر بن تبع الأقرب ، أو تبع الأقرب ، وكان مؤمناً عالماً عادلاً ،
ملك جميع الأرض وطافها ، ومات في شمال بلاد الروم حيث يكون النهار ليلاً
إذا انتهت الشمس الى برج الجدي : وقد كان يقول الشعر ، وهو الذي بشر

١ منتخبات (ص ١٠٣) .

٢ منتخبات (ص ٨٣) .

٣ سورة الكهف : ١٨ ، الآية ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٤ .

بالنبي في شعره ، وطبيعي أن يكون واضعو هذه الأشعار أناساً من الأنصار ومن بقية فروع قحطان^١ .

وتعلق متعصبو اليمانية بالأبنية الفخمة وبالمدين الكبرى ، فجعلوها من أبنية ملوكهم أو من أبنية أسلافهم العرب العاربة . وقد ذكر المسعودي ان من اليمانية من يرى أن الهرمين اللذين في الجانب الغربي من قُسطاط مصر ، هما قبراً (شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر في قديم الدهر ، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم)^٢ . ونسبوا لملوكهم الفتوحات الفخمة في الشرق والغرب .

وأضافوا اليهم لقمان الحكيم ، زعموا انه لقمان الحميري ، وقالوا انه كان حكيماً عالماً يعلم الأبدان والأزمان ، وهو الذي وقت المواقيت ، وسمي الشهور بأسماء مواقيتها . وزعموا أن ياسر ينعم ملك بعد سليمان بن داود ، وسمي ينعم ، لأنه ردّ الملك الى حمير بعد ذهابه ، وان الضحاك ملك من الأزد كان في وقت ابراهيم فنصره . وبذلك كانت للقحطانيين منة قديمة على ابراهيم وعلى العدنانيين بصورة خاصة . وقالوا أشياء أخرى كثيرة ، قد نخرجنا ذكرها من صلب هذا الموضوع من أعمال وفتوحات لشمر يرعش وغيره من التبابعة^٣ .

وقد لوّن العدنانيون تأريخهم ، واستعانوا بالشعر ، فوضعوا منه ما شاءوا في الرد على القحطانيين . قال ابن سلام « نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية ، فاستكثرت منه في الإسلام »^٤ ، وعقبوا على الروايات القحطانية . فلما ادعى اليمانيون مثلاً ان تبعهم (أبا كرب) فتح العراق والشام والحجاز ، وانه امتلك البيت الحرام ، ونكل بالعدنانيين شر تنكيل ، وانه قال شعراً، منه :

١ قال النعمان بن بشير :

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر
ونحن بنينا سد يأجوج فاستوى
وقال لبید :

والصعب ذو القرنين اصبح ثاويًا
منتخبات (ص ٦١ ، ٨٤ فما بعدها) .

٢ التنبيه (ص ١٨) .

٣ منتخبات (ص ٥٦ ، ٦٥)

٤ في الادب الجاهلي (ص ١٢٣) .

لست بالتبع اليمني إن لم تركض الخيل في سواد العراق
أو تؤدي ربيعة الحرج قسراً أو تعقني عوائق العواق

قال العدنانيون : نعم ، وقد كانت بين تبع هذا وقبائل نزار بن معد وقائع وحروب ، واجتمعت عليه معد من ربيعة ومضر وإياد وأنمار ، فانتصرت عليه ، وأخذت الثأر منه ، وفي ذلك قال أبو دؤاد الإباضي :

ضربنا على تبع حربه جبال البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هارباً وكان جبناً كثير الرهب
وأتبعته فهوى للجبين وكان العزيز بها من غلب

إلى غير ذلك من القصص والحكايات التي وضعها الرواة في صدر الإسلام حين احتدم الخلاف بين الأنصار وقريش ، سجلت في الكتب ، ورويت للناس ، وانتشرت بينهم على أنها أمور واقعية ، وإن العرب كانوا من أصلين : قحطان وعدنان .

وقد كان لكل فريق رواية وأهل أخبار يقصون على الناس قصصاً وأخباراً في أخبار النزاع القحطاني العدناني . فوضع (عبيد بن شريسة الجُرهمي) كثيراً من القصص والأشعار عن العرب الأولى وعن القحطانيين ، وضع ذلك لمعاوية ابن أبي سفيان ، وكان معاوية مغرمًا بسماع أساطير الأولين وأخبار الماضين ، كما سبق أن أشرت إلى ذلك .

ووضع (يزيد بن ربيعة بن مفرغ) المتوفى سنة (٦٩) للهجرة ، وهو شاعر متعصب لليمن ، قصص (تبع)^١ . جاء في كتاب الأغاني : « سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعها ، فقال : ابن مفرغ . وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره إلى الشام وتخلصه من عبيد الله بن زياد ، أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين ، وزعم أنه من حمير ، ووضع سيرة تبع وأشعاره . وكان النمر بن قاسط يدعي أنه منهم »^٢ .

١ مروج الذهب (١ / ٣٠٠) .

٢ Muh. Stud. Bd. I, S. 97.

٣ الأغاني (١٧ / ٥٢) .

وظهرت كتب ضمت أخبار التبابعة وقصصهم ، أشار إليها المسعودي ، دعاها بـ (كتب التبابعة)^١ : وقد وقف عليها ونقل منها ، وهي كما يظهر من نقله ومن نقل غيره منها من هذه الأساطير المنسوبة إلى عبيد ووهب ويزيد ابن المفرغ وأمثالهم من أصحاب القصص والأساطير .

وكان بين العدنانيين والقحطانيين جدل وكلام في لغة (إسماعيل) ، فالهانيون ومنهم (الهيثم بن عدي الطائي) كانوا يرون أن لسان (إسماعيل) الأول هو اللسان السرياني ، ولم يكن يعرف العربية . فلما جاء إلى مكة وتظاهر مع جرهم ، أخذ لسانهم وتكلم به ، فصار عربياً . أما النزارية ، فكانت تنفي ذلك نفياً قاطعاً ، وترده رداً شديداً ، وتقول لو كان الحال كما تزعمون : (لوجب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم أو لغيرها ممن نزل مكة . وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان ، وولده يعرب بخلاف لسانه . وليست مترلة يعرب عند الله أعلى من مترلة إسماعيل ، ولا مترلة قحطان أعلى من مترلة إبراهيم ، فأعطاه فضيلة اللسان العربي التي أعطاها يعرب بن قحطان)^٢ . فنفوا النزارية العربية عن قحطان أيضاً وصبروه كإسماعيل سرياني اللسان .

وقد عقب (المسعودي) على هذا النزاع النزاري القحطاني بقوله : « ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك وغير ذلك مما قد أثبتنا على ذكر جمل من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف »^٣ . ونجد جملاً كثيرة من هذا النوع مبثوثة في كتابيه : مروج الذهب ، والتنبيه والإشراف ، تتحدث عن ذلك النزاع المرّ المؤسف الذي وقع بين العرب في تلك الأيام .

ولعل هذه العصبية الجاهلية ، هي التي حملت جماعة من المتكلمين منهم (ضرار بن عمرو بن ثمامة بن الأشرس) و (عمرو بن بحر الجاحظ) على الرغم أن (النبط) خير من العرب ، لأن الرسول منهم ، ففضلوهم بذلك على العدنانيين والقحطانيين . وهو قول رد العدنانيين والقحطانيين عليه^٤ . قال به

- ١ مروج الذهب (٢٧٩) .
- ٢ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
- ٣ مروج الذهب (٢٧٧/١) .
- ٤ مروج الذهب (٢٦٦/١) فما بعدها .

المتكلمون متأثرين بآراء أهل الكتاب في أنساب أبناء إسماعيل وبنائهم الاعتزالية التي تكره التعصب في مثل هذه الأمور . وقد ذكر (المسعودي) شيئاً من الرد الذي وضعه القحطانيون والعدنانيون ضد هؤلاء .

العرب العاربة والعرب المستعربة :

أما مصطلح (العرب العاربة) و (العرب المستعربة) ، فهما على ما يتبين من روايات علماء اللغة والأخبار من المصطلحات القديمة التي تعود الى الجاهلية ، ولكننا لو درسنا تلك الروايات خرجنا منها ، ونحن على يقين بأن الجاهليين لم يطلقوها بالمعنى الذي ذهب اليه الإسلاميون ، بل قصدوا بهما القبائل البعيدة عن أرض الحضارة ، والقبائل القريبة منها ، فقد عرفت القبائل النازلة ببلاد الشام والسكان في أطراف الإمبراطورية البيزنطية بـ (المستعربة) . و (المستعربة) مصطلح أطلق على هذه القبائل وعلى القبائل النازلة في سيف العراق من حدود نهر الفرات الى بادية الشام ، فهو يشمل إذن القبائل النازلة على طرفي الهلال الخصيب وفي طرفي القوس الذي يحيط بحدود الإمبراطوريتين . ومن المستعربة غسان وإياد وتنوخ^١ . وقد فضلت غالبية هذه المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي والصحاري ، عرفت عندهم بـ (الحاضر) ، فكان في أكثر مدن بلاد الشام حاضر يقيم به العرب من تنوخ ومن غير تنوخ^٢ .

وقد وجدت في تاريخ الطبري خبراً زعم أنه جرى بين (خالد بن الوليد) وبين (عدي بن عدي بن زيد العبادي) ، يفهم منه أن العرب : عرب عاربة وأخرى متعربة . وقد جرى بينهما على هذا النحو : (قال خالد : ويحكم ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ، فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ فقال له عدي : بل عرب عاربة وأخرى متعربة . فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا ، فقال له عدي : لبدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان الا بالعربية)^٣ . فيفهم من هذا الحديث ان العرب : عرب عاربة وعرب متعربة . وهم أناس تعربوا فصاروا عرباً . وهو كلام معقول

١ البلاذري (١٧١) .

٢ البلاذري (١٨٠) ، و (الحاضر : الحي العظيم او القوم ... حاضري) ، تاج

العروس (١٤٨/٣) .

٣ الطبري (٣٦١/٣) .

مقبول ، ولا سيما بالنسبة الى الحيرة والعراق وبلاد الشام ، حيث تعرب فيها كثير ممن لم يكن عربياً في الأصل فصاروا عرباً ، لسانهم لسان العرب . ولا يفهم من هذا الكلام بالطبع تقسيم العرب بالمعنى المفهوم عند أهل الأخبار والتاريخ ، أي عرب قحطانيون وعرب عدنانيون . وكل ما قصد به ان صح ان هذا الكلام هو كلام (خالد) وكلام (عدي) حقاً تعنيف وتأنيب لعدي بن عدي بن زيد على وقوفه هو وقومه وأهل الحيرة موقفاً معادياً للمسلمين ، وتأييدهم للفرس ولدفاعهم عنهم ، مع انهم عجم بعيدون عنهم . فكأنه قال لهم : لو كنتم عرباً فكيف تؤيدون عجماً علينا ونحن عرب ؟ و (عدي) من العرب ، وأبوه من تميم كما يقول النسابون . فهو ليس من العرب الأخرى المستعربة ، ولكن من العرب العاربة ، أي عرب بالأصالة ، كما أن خالداً نفسه من العرب العاربة ، لأنه عربي أصلاً وان كان عدنائياً . فلم يقصد بالعرب العاربة هنا العرب القحطانيين ، ولا بالعرب المستعربة العرب العدنانيين . فالعرب المستعربة اذن هم المتعربون من أهل الحيرة وغيرهم ، ممن كانوا من النبط وبني إدم أو غيرهم ثم دخلوا بين العرب ولحقوا بهم ، فصار لسانهم لساناً عربياً مثل العرب الآخرين وتعربوا بذلك .

ويلاحظ ان (غسان) قد أدخلت في (المستعربة) ، مع انها من العرب العاربة ، أي من العرب القحطانيين في عرف النسابين . وفي ذلك دلالة على ان مدلول العرب العاربة والعرب المستعربة لم يكن في الجاهلية وفي صدر الإسلام بالمعنى الذي صار عليه عند علماء النسب وأهل الأخبار ، وان تخصيص العرب العاربة بالقبائل التي ترجع نفسها الى اليمن ، والعرب المستعربة بالقبائل التي يرجعون نسبها الى عدنان ، قد وقع من النسابين في أيام الأمويين فما بعد .

الفصل الثاني عشر

طبقات القبائل

ورتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب ، هي : شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة . فالشعب النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان ، والقبيلة مثل ربيعة ومضر ، والعمارة مثل قريش وكنانة ، والبطن مثل بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم وبني أمية ، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العباس^١ . وجعل (ابن الكلبي) مرتبة بين الفخذ والفصيلة ، هي مرتبة العشيرة ، وهي رهط الرجل^٢ . وبني (النويري) طبقات القبائل على عشر طبقات هي : الجِذْم ، والجاهير ، والشعوب ، والقبائل ، والعمائر ، والبطون ، والأفخاذ ، والعشائر ، والفصائل والأرهاد^٣ . ورتب (نشوان ابن سعيد الحميري) القبائل على هذا النحو : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الجليل ، ثم الفصيلة . وجعل مضر مثال الشعب ، وكنانة مثال القبيلة ، وقريشاً مثال العمارة ، وفهراً مثال البطن ، وقُصَيّاً مثال الفخذ ، وهاشماً للجيل ، وآل العباس للفصيلة^٤ .

-
- ١ بلوغ الأرب (١٨٧/٣) فما بعدها ، اللسان (٥٧/١٤) ، (البطن دون القبيلة ، وقيل هو دون الفخذ وفوق العمارة) ، اللسان (١٩٩/١٦) ، الأكليل (٢٢/١) .
 - ٢ المقد الفريد (٢٨٣/٣) فما بعدها .
 - ٣ نهاية الأرب (٢٦٢/٢) فما بعدها .
 - ٤ منتخبات (ص ٥٥) .

وأكثر علماء النسب يقدمون الشعب على القبيلة ، والظاهر ان هذه الفكرة كانت قد اختمرت في رؤوس الجاهليين الذين عاشوا في الجاهلية القريبة من الإسلام حيث ظهرت عندهم الفكرة القومية بمعنى واسع ، وحيث نجد عندهم ظهور الكلمات التي تشير الى هذا المعنى ، مثل اطلاقهم العرب على العرب جميعاً اصطلاحاً ، وحيث أخذ الحس القومي يظهر بين القبائل بوجوب التكتل لمكافحة الغريب ، كالذي حدث في معارك اليمن مع الحبش ، وفي معارك عرب العراق مع الفرس . وقد قدّم القرآن الكريم الشعوب على القبائل « وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا »^١ . فالشعوب هنا فوق القبائل وتعبّر عن هذا المعنى الواسع الذي أتحدث عنه .

وزاد بعض العلماء الجذم ، بأن وضعوها قبل الشعب ، ووضعوا الفصيلة بعد العشيرة ، ومنهم من زاد يعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتبها آخرون على هذه الصورة : الجذم ، ثم الجمهور ، ثم الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العشيرة ، ثم الفصيلة ، ثم الرهط ، ثم الأسرة ، ثم العترة ، ثم الدرية . وزاد غيرهم في أثنائها ثلاثة ، هي : البيت ، والحلي ، والجماع .

والاختلاف الذي نراه من علماء النسب ، هو في الترتيب ، أي من حيث التقديم والتأخير ، وفي اضافة بعض المصطلحات أو في نقصها . أما من حيث العموم ، فإننا نجدهم يتفقون في الغالب، ولا يختلفون أبداً في أن القبائل والأنساب كانت على منازل ودرجات . ولا بد أن تكون أكثر هذه المصطلحات مصطلحات أهل الجاهلية القرييين من الإسلام . أما بالنسبة الى الجاهليين البعيدين عنه ، فإن يكون حكمنا عليهم علمياً إلا إذا أخذنا مصطلحاتهم من كتاباتهم . ولم نتمكن ويا للأسف من الحصول على مادة منها تفيدنا في هذا الباب . فليس لنا إلا الصبر والانتظار .

والقبيلة : الجماعة تنتمي الى نسب واحد^٢ ، ويرجع ذلك النسب الى جد أعلى ، أو الى جدة وهو في الأقل . ولا تزال اللفظة حية مستعملة يستعملها

١ الحجرات ، الرقم ٤٩ ، الآية ١٣ .

٢ المفردات ، للراغب الاصفهاني (ص ٤٠٠) .

العرب في كل مكان في المعنى الاصطلاحي المستعمل عند النسابين^١ .

والقبيلة هي المجتمع الأكبر بالنسبة الى أهل البادية ، فليس فوقها مجتمع عندهم . وهي في معنى (شعب) عندنا وفي مصطلحنا الحديث . وتتفرع من القبيلة فروع وأغصان ، هي دون القبيلة ، لأنها في منزلة الفروع من الشجرة : ثم اختلفوا في عدد الفروع المتفرعة من القبيلة ، فجعل بعضهم بعد القبيلة العِمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ثم الفصيلة^٢ ، وجعل بعض آخر ما دون القبيلة : العِمارة ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، وزاد بعض آخر قبل الشعب الجِذم ، وبعد الفصيلة العشيرة . ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . ورتب بعض النسابين طبقات النسب على هذا النحو : جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عِمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد بعضهم في أثنائها ثلاثة ، وهي : البيت والحلي ، والجماع^٣ .

ويدل اختلاف النسابين في ضبط أسماء ما فوق القبيلة أو ما تحتها، واضطرابهم في الترتيب على أن هذا الترتيب لم يكن ترتيباً جاهلياً أجمع الجاهليون عليه ، وإلا لما تباينوا هذا التباين فيه ، ولما اختلفوا هذا الاختلاف في سرده ، إنما هو ترتيب اجتهادي أخذته العلماء من أفواه الرواة ومن الأوضاع القبلية التي كانت سائدة في أيامهم ومن اجتهادهم أنفسهم ، فرتبوها على وفق ذلك الاجتهاد .

وأكثر هذه المصطلحات لم ترد لا في الكتابات الجاهلية ولا في الشعر المنسوب الى الجاهليين ، لذلك يصعب على الانسان أن يييدي رأياً علمياً مقبولاً فيها ، وأعتقد أن خير ما يمكن فعله في هذا الباب هو استنطاق الكتابات الجاهلية وتقليتها وتقليتها الشعر الجاهلي للبحث عما فيه من مصطلحات تتعلق بالنظم القبلية ، وعندئذ نتمكن من تكوين رأي قريب من الصواب والصحة في هذا الموضوع .

ومن أجل ذلك قال (روبرتسن سمث) ان البطن والحلي هما أساس أقدم أشكال المجتمعات السياسية عند الساميين .

Naval, P. 403. ١

٢ بلوغ العرب (١٨٨/٣) .

٣ بلوغ العرب (١٨٨/٣) .

كما استدل من أسماء بعض القبائل التي تحمل أسماء بعض الحيوانات ، مثل : بني أسد ، وبني كلب ، وبني بدن ، وبني ثعلب ، وبني ثور ، وبني بكر ، وبني ضب ، وبني غراب ، وبني فهد ، وما شاكل ذلك من أسماء جماعة من القبائل ، وبعضها عمائر ، وبعضها بطون أو فصائل على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أن هذه الأسماء هي من ذكريات (الطوطمية) القديمة .

وقد تأثر بنظريته هذه جماعة من العلماء . وعدّ بعض العلماء نظرية (الطوطمية) مفتاحاً يوصل الى حل كثير من المسائل الغامضة من تأريخ البشرية القديم .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعنق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على أن تنوخاً اسم لعشر قبائل ، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

وينطبق ما قلناه عن تنظيم القبيلة وبناء الأنساب عليه على أهل الحضر أيضاً . فالحضر ، ولا سيما حضر الحجاز ، وان استقروا وأقاموا غير أنهم لم يتمكنوا من ترك النظم البدوية الاجتماعية القائمة على مراعاة قواعد النسب وفقاً للتقسيمات المذكورة . وهي تقسيمات أوجدتها طبيعة الحياة في البادية ، تلك الحياة الشحيحة التي لا تتحمل طاقاتها تقديم ما يحتاج اليه مجتمع كبير مستقر من مأكّل وماء ، ولذلك اضطرت المجتمعات الكبرى ، وهي القبائل ، على التشتت والانقسام والانتشار كتلاً تختلف درجات حجمها حسب طبيعة الأرض التي نزلت بها ، من حيث الكرم والبخل . ولما استقر بعض هؤلاء البدو وتحضروا في أماكن ثابتة مثل مكة ويثرب والطائف ، حافظوا على نظمهم الاجتماعية المذكورة الموروثة من حياة البادية ، وعاشوا في مدرهم أحياءً وشعباً عيشة قائمة على أساس الروابط الدموية والنسب ، كما سأنحدث عن ذلك في الحياة الاجتماعية .

والنسب عند العرب ، هو نسب يقوم لإذن على الطبقات المذكورة ، كما أن

الطبقات المذكورة قائمة على دعوى النسب ، فبين النسب وبناء المجتمع ، صلة وارتباط ، ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر . ولهذا نجد شجرات الأنساب تتفرع وتورق وتزهر على هذا الأساس .

وأنا لا أستثني المجتمع العربي في الجنوب ، الذي تغلب عليه حياة الاستقرار والسكن والاستيطان من هذا التنظيم . فنحن وإن لم نتمكن حتى الآن من الحصول على كتابات كافية تقدم لنا صورة واضحة عن الأنساب وعن تنظيمات المجتمع عند المعينين والسبثيين وغيرهم من العرب الجنوبيين ، غير أن في بعض الكتابات التي وصلت إلينا إشارات تفيد وجود هذا التنظيم عند العرب الجنوبيين ..

والعرب الجنوبيون وإن غلبت عليهم حياة السكن والاستقرار ، غير أن زمانهم لم يتمكن من تحرير نفسه من قيود الحياة القبلية ، ولم يكن من الممكن بالنسبة لهم الابتعاد عن الاحتماء بالعصية القبلية وبعرف القبيلة ، فالطبيعة اذ ذاك طبيعة حتمت على الناس التمسك بتلك النظم لحماية أنفسهم وللدفاع عن أموالهم حيث لا حق يحمي المرء غير حق العصية القائم على أساس النسب والدم .

ويعبر عن القبيلة بلفظة (شعيم) و (شعبن) في العربيات الجنوبية . أي (قبيلة) و (القبيلة)^١ . أما لفظة (القبيلة) فلم أعثر على وجود لها في كتابات المسند . فلعلها من الألفاظ الخاصة بأهل الحجاز ونجد . وأما ما دون (الشعب) ، أي القبيلة في اصطلاحنا ، فلم أقف على مسمياتها بالنحو الذي يذكره أهل الأنساب . وإنما نجد العرب الجنوبيين يقسمون القبيلة الى أقسام ، مثل (ربعن) أي (ربع) و (ثلثن) أي ثلث . ويريدون بذلك ، ربع قبيلة وثلث قبيلة . وربما كانوا يقسمونها الى أقسام أخرى ، لم تصل أسماؤها إلينا ، ولعل الأيام ستزودنا بما كان العرب الجنوبيون يستعملونه من مصطلحات في النسب عندهم ، وذلك قبل الإسلام بزمان طويل ، وبالمصطلحات التي كانوا يطلقونها على فروع القبيلة في تلك الأوقات .

وبينما نجد أهل الأنساب ينسبون أهل الوبر وأهل المدر الى أجداد ، عاشوا

١ راجع النصوص : ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ من كتاب «نشر نقوش سامية قديمة» لخليل يحيى تامي .

وماتوا ، نجد المعينين مثلاً . يستعملون جملة . (أولدهود) ١ . أي (أولادود) ، و (ود) هو إله شعب معين الأكبر . كما نجد السيئيين يطلقون على أنفسهم (ولد الله) ٢ ، أي أولاد الإله (الله) . والله كما سنرى فيما بعد ، هو إله سبأ الأول . ونجد القتيانيين يدعون أنفسهم (ولد عم) ، أي أولاد عم ٣ . ومعنى هذا ، ان كل قبيلة من القبائل المذكورة ، نسبت نفسها إلى إلهها الخاص بها واحتمت به ، تماماً كما فعل العبرانيون وغيرهم ، إذ نسبوا أنفسهم إلى إله قومي اعتبروه إلههم الخاص بهم ، المدافع عنهم ، والذي يرزقهم وينفعهم . وقد يعدّ هذا نسباً . أما نسب على النحو الذي يقصده ويربده أهل الأخبار ، أي جد عاش ومات وله أولاد وحفدة ، فهذا لم يصل خبره إلينا في كتابات المسند ، بل في كل ما وصل إلينا من كتابات جاهلية حتى الآن .

الأنساب :

وأقرب تفسير إلى أنساب العرب في نظري هو ان النسب ، ليس بالشكل المفهوم المعروف من الكلمة ، وإنما هو كناية عن (حلف) يجمع قبائل توحدت مصالحها ، واشتركت منافعها ، فاتفقت على عقد حلف فيما بينها ، فانضم بعضها إلى بعض ، واحتمى الضعيف منها بالقوي ، وتولدت من المجموع قوة ووحدة ، وبذلك حافظت تلك القبائل المتحالفة على مصالحها وحقوقها . قال البكري : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلاء ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش ، واستضاف القوي الضعيف ، انضم الدليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومخالتهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم » .

لقد حملت الضرورات قبائل جزيرة العرب على تكوين الأحلاف ، للمحافظة على الأمن وللدفاع عن مصالحها المشتركة كما تفعل الدول . وإذا دام الحلف

١ Euting 57, Jaussen et Savignac,

Mission, I, P. 255, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

٢ Glaser 1000 A.

٣ Glaser 1400, Die Altarabische Kultur, I, S. 217.

أمدأ ، وبقيت هذه الرابطة التي جمعت شمل تلك القبائل متينة ، فإن هذه الرابطة تنتهي الى نسب ، حيث يشعر أفراد الحلف أنهم من أسرة واحدة تسلسلت من جد واحد ، وقد يحدث ما يفسد هذه الرابطة ، أو ما يدعو الى انفصال بعض قبائل الحلف ، فتتظم القبائل المنفصلة الى أحلاف أخرى، وهكذا نجد في جزيرة العرب أحلافاً تتكون ، وأحلافاً قديمة تنحل أو تضعف .

لم يكن في مقدور العشائر أو القبائل الصغيرة المحافظة على نفسها من غير حليف قوي ، يشد أزرها اذا هاجمتها قبيلة أخرى ، أو أرادت الأخذ بالثأر منها . لقد كانت معظم القبائل داخلة في هذه الأحلاف ، الا عدداً قليلاً من القبائل القوية الكثيرة العدد ، يذكر أهل الأخبار أنها كانت تتفاخر لذلك بأنفسها، لأنها لا تعتمد على حليف يدافع عنها ، بل كانت تأخذ بثأرها وتنال حقها بالسيف . ويشترك المتحالفون في الغالب في المواطن ، وقد تنزل القبائل على حلفائها ، وتكون الهيمنة بالطبع في هذه للقبائل الكبيرة .

وقد عرفت مثل هذه الأحلاف عند سائر الشعوب السامية كالعبرانيين مثلاً ، وطالما انتهت كما انتهت عند العرب الى نسب ، حيث يشعر المتحالفون أنهم من أسرة واحدة يجمع بينهم نسب واحد . ويقال للحلف أيضاً (تحالف) ، وعند الهانين (تكلع) .

ويرى (كولدتزيهر) انه لفهم الأنساب عند العرب ، لا بد من معرفة الأحلاف والتحالف فإنها أساس تكون أنساب القبائل ، فإن هذه الأحلاف التي تجمع شمل عدد من البطون والعشائر والقبائل هي التي تكون القبائل والأنساب ، كما ان تفكك الأحلاف وانحلالها يسبب تفكك الأنساب وتكوين أنساب جديدة ويرى أيضاً أن الدوافع التي تكون هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين وشعور بوعي قومي ، بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهتم العشيرة كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة. ولذا نجد الضعيف منها يفتش عن حليف قوي، فانضمت (كعب) مثلاً الى (بني مازن) وهم أقوى من (كعب) ، وانضمت (خزاعة) الى (بني مدلج) ، كما تحالفت (بنو عامر) مع (اياذ) وأمثلة أخرى عديدة . ولما كانت المصالح الخاصة هي العامل الفعال في تأليف الأحلاف ، كان أمد الحلف يتوقف في الغالب على دوام تلك المصالح . وقد تعقد الأحلاف لتنفيذ شروط اتفق عليها ، فتي نفذت

أو تلكاً أحد الطرفين في التنفيذ انحل الحلف . وتعد هذه الناحية من النواحي الضعيفة في التاريخ العربي ، فإن تفكير القبائل لم يكن يتجاوز عند عقدهم هذه الأحلاف مصالح العشائر أو القبائل الخاصة ، لذلك نجدها تتألف للمسائل المحلية التي تخص القبائل ، ولم تكن موجهة للدفاع عن جزيرة العرب ولمقاولة أعداء العرب . ولا يمكن أن نطلب من نظام يقوم على العصبية القبلية أن يفعل غير ذلك . فإن وطن القبيلة ضيق بضيق الأرض التي تنزل فيها ، فإذا ارتحلت عنها ونزلت في أرض جديدة، كانت الأرض الجديدة المواطن الجديد الذي تبالغ القبيلة في الدفاع عنه . ولما كانت هذه النزعة الفردية هي هدف سياسة سادة القبائل ، أصبحت من أهم العوائق في تكوين الحكومات المدنية الكبيرة في جزيرة العرب ، ومن أبرز مظاهر الحياة السياسية قبل الإسلام .

خذ اختلاف النسابين في نسب بعض القبائل وتشككهم فيه ، فإنه في الواقع دليل قوي يؤيد هذا الرأي، فقد اختلف في نسب (أنمار) مثلاً . فمنهم من عدّها من ولد (نزار) ، ومنهم من أضافها الى اليمن . والذين يضيفونها الى (نزار) يقولون ان أنماراً من نزار ، وأنمار هو شقيق ربيعة ومضر وإباد ، فهو أحد أبناء نزار . دخل نسله في اليمن ، فأضيفوا اليه ، ومن هنا حدث هذا الاختلاف . أما البائية ، فانهم يرون أن أنماراً هو منهم ، وقد كان أحد ولد (سبأ) العشرة . فهو عندهم شقيق لحم وجدام وعاملة وغسان وحير والأزد ومذحج وكنانة والأشعرين ويرون أن بجيلة ، وخنعماء من أنمار . ويستدلون على ذلك بحديث ينسبونه الى الرسول .

وأما الذين يرجعون نسبه إلى (نزار) فيستدلون على نسبه هذا بحديث ينسبونه إلى الرسول أيضاً . وفي الجملة لا يهمننا هنا موضوع نسب (أنمار) أكان في اليمن أم كان في نزار ، وانما الذي يهمننا أن الأحلاف تؤثر تأثيراً كبيراً في نشوء النسب ، فلولا دخول أنمار في اليمن ونزولها بين قبائل يمانية ، لما دخل نسبها في اليمن . ولولا دخول أنمار في قبائل عدنانية وتحالفها معها لما عدّها النسابون من نزار ، ولما عدّوا أنماراً ابناً من أبناء نزار الأربعة . فاختلاط (أنمار) في اليمن وفي نزار وتردها بين الجماعتين هو الذي أوقع النسابين في مشكلة نسبها . وطالما دفعت الحروب القبائل المغلوبة على الخضوع لسيادة القبائل الغالبة وقد تتحالفت معها وتدخلت في جوارها، وإذا دام ذلك طويلاً ، فقد يتحول الحلف والجوار الى

نسب. ثم إن تقاتل القبائل بعضها مع بعض يؤدي أحياناً الى ارتحال بعض هذه القبائل المتقاتلة الى مواطن جديدة فتتزل بين قبائل أخرى ، وتعتقد معها حلفاً وتجاورها ومتى طال ذلك صار نسباً ، كالذي ذكره أهل الأنساب من نزوح قبائل عدنانية الى اليمن بسبب تقاتلها بعضها مع بعض ، مما أدى الى دخول نسبها في اليمن ، وكالذي ذكره أيضاً من نزوح قبائل يمانية بنجر الشمال واختلاطها بقبائل عدنانية مما أدى الى دخول نسبها في نسب تلك القبائل .

وتجسد في كتب الأنساب والأخبار أمثلة كثيرة على اختلاط أنساب قبائل معروفة في عدنان وفي قحطان ، كما رأيت فعل السياسة في تكييف النسب في مصدر الاسلام وفي عهد الدولة الأموية وتنظيمه ، كما رأيت كيف أن بعض النسابين ينسبون قبيلة الى أب قحطاني على حين ينسبها بعض آخر الى أب عدناني ، وكيف أن نسابي القبيلة كانوا يرون رأياً آخر . وقد رأيت كيف أن بعضهم رجع نسب ثقيف الى (ثمود) بغضاً للحجاج الذي كان من ثقيف ، ورأيت أيضاً اختلاف النسابين فيما بينهم في رسم شجرات الأنساب .

لقد وقع هذا الاختلاف لعوامل عديدة سياسية وجغرافية وعاطفية ، لا يدخل البحث فيها في هذا المكان .

هذا وقد رجع (ابن حزم) جميع قبائل العرب الى أب واحد ، سوى ثلاث قبائل ، هي : تنوخ ، والعتق ، وغسان ، فإن كل قبيلة منها مجمعة من عدة بطون . وقد نص غيره من أهل النسب على ان تنوخاً اسم لعشر قبائل ، اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا تنوخاً . وذكر بعض آخر ان غسان عدة بطون من الأزد ، نزلت على ماء يسمى غسان ، فسميت به . فترى من هنا ان تنوخاً والأزد حلف في الأصل ، وقد صار مع ذلك نسباً عند كثير من أهل الأخبار .

وبين أجداد القبائل والأسر الذين يذكروهم أهل الأنساب ، أجداد كانوا أجداداً حقاً ، عاشوا وماتوا . وقد برزوا بغزواتهم وبقوة شخصياتهم ، وكونوا لقبائلهم وللقبائل المتحالفة معها أو التابعة لها مكانة بارزة ، جعلتها تفتخر بانسابها اليهم ، حتى خلد ذلك الفخر على هيئة نسب . ونجد في كتب الأنساب أمثلة عديدة لهؤلاء .

(الطوطمية) ودور الأمومة عند العرب :

وقد لاحظ العلماء المحدثون ان بين أسماء القبائل ، أسماء هي أسماء حيوان أو نبات أو جواد أو أجرام فلكية . كما لاحظوا ان بين المصطلحات الواردة في النسب مصطلحات لها علاقة بالجسم وبالدم . وقد وجدوا ان بين هذه التسميات والمصطلحات وبين البحوث التي قاموا بها في موضوع دراسة المجتمعات البدائية صلة وعلاقة . وان للتسميات المذكورة صلة وثيقة بـ (الطوطمية) ، كما ان للمصطلحات صلة بما يسمى بـ (دور الأمومة) أو (زواج الأمومة) عند علماء الاجتماع .

والطوطمية نظرية وضعها (ماك لينان) (مكلينان) المتوفى سنة ١٨٨١م ، خلاصتها :

- ١ - ان الطوطمية دور مرّ على القبائل البدائية ، وهي لا تزال بين أكثر الشعوب اغراقاً في البدائية والعزلة .
- ٢ - ان قوامها اتخاذ القبيلة حيواناً أو نباتاً، كوكباً أو نجماً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة أباً لها تعتقد انها متسلسلة منه وتسمى باسمه .
- ٣ - تعتقد تلك القبائل ان طوطمها يحميها ويدافع عنها ، أو هو على الأقل لا يؤذيها وان كان الأذى طبعه .
- ٤ - لذلك تقدس القبيلة طوطمها وتتقرب اليه وقد تتعبد له .
- ٥ - الزواج ممنوع بين أهل الطوطم الواحد ، ويذهبون إلى الزواج من قبائل غريبة عن قبيلة الطوطم المذكور . وهو ما يعبر عنه بـ (Exogamy) في اللغة الانكليزية . اذ يعتقدون ان التزاوج من بين أفراد القبيلة الواحدة ذو ضرر بالغ ، ومهلك للقبيلة ، لذلك يتزوج رجال القبيلة نساءً من قبيلة أخرى غريبة ، لا ترتبط بطوطم هذه القبيلة، والمخالف لهذه القاعدة ، أي الذي يتزوج امرأة من قبيلته يعرض نفسه للعقوبات قد تصل الى الحكم عليه بالموت .
- ٦ - الأبوة غير معروفة عند أهل الطوطم، ومرجع النسب عندهم إلى الأم .
- ٧ - لا عبرة عندهم إلى العائلة ، والقرباوة هي قرابة الطوطم ، فأهل الطوطم الواحد اخوة واخوات يجمعهم دم واحد^١ .

١ من كتاب جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي (٢٤٤/٣ وما بعدها)

والطوطمية (Totemism) ، لفظة أُخذت من كلمة (Ototemom) ، وهي من كلمات قبيلة (Ojibwa) من قبائل هنود أمريكا^١ . اشتق منها (لأنك) (J. Lang) كلمة (توتيم) (Totem) ، ومنها أخذ اصطلاح (طوطمية) (توتيميسم) (Totemism)^٢ الذي يعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرها مقدسة ، ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحها أو قتلها أو أكلها أو إلحاق أذى بها^٣ . وتشمل الطوطمية النباتات كذلك ، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسها قطعها أو إلحاق الأذى بها . وقد يتوسع بها فتشمل بعض مظاهر الطبيعة مثل المطر والنجوم والكواكب^٤ .

وهم يؤمنون بأن (الطوطم) لا يؤدي أتباعه . فلا يخافون منه ، حتى وإن كان من الحيوانات المؤذية ، التي تلحق الأذى بالإنسان ، كالحية أو العقرب أو الذئب . وهم يعتقدون أيضاً أنه يدفع عنهم ، وأنه ينذر أتباعه إن أحس بقرب وقوع خطر على أتباعه ، وذلك بعلامات وإشارات على نحو ما يقال له الزجر والطيرة والفأل .

وهم يتقربون إلى طوطمهم ، محاولة منهم في كسب رضاه ، فيقلدونه في شكله ومظهره ، وقد يلبسوا جلده أو جزءاً من جلده ، أو يعلقون جزءاً منه في أعناقهم أو أذرعهم على نحو من التعاويذ . لأنه يحميمهم بذلك ويمنع عنهم كل سوء . كما يحتفلون به وبالمناسبات مثل مناسبات الولادة أو الزواج أو الوفاة بنقش رمز الطوطم على ظهر المولود ، أو دهن الجسم بدهن مقدس من دهان ذلك الطوطم إلى آخر ما هنالك من أعراف وتقاليد^٥ .

ويؤلف المعتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بين أفرادها ، أي بوجود صلة رحم بينها . والرابط بينها هو ذلك الطوطم الذي تنتمي الجماعة إليه وتلتف حوله ، ليكون حامياً والمدافع عنها في الملمات . ومن أصحاب هذا المذهب من لا يذكر اسم الطوطم ، بل يُكنى عنه . ويجوز أن يكون ذلك خوفاً

١ Enc. Rel. Vol. 9, P. 454, Peter Jones, History of the Ojibwa Indians, London, 1961, Enc. Rel. Vol. 12, P. 393.

٢ Voyages and Travels of an Indian Interpreter and Trader, London, 1791.

٣ Lang, Voyages, P. 87, Wesleyen, Journals of Two Expeditions of Discovery in N.W. and W. Australia, London, 1841, 11, 225, f. 391.

٤ Enc. Rel. Vol. 12, P. 394.

٥ التمدن الاسلامي (٢/٢٤٢ وما بعدها) .

منه ، أو احتراماً له . وقد يرسم له شعار تحمله الجماعة وأفرادها . ولها قوانين وآراء في موضوع الزواج الذي تترتب عليه قضية القرابة وصلات الرحم^١ .

والعلماء نظريات وآراء في الطوطمية . وهي منصبّة على دراسة الناحية الاجتماعية منها ، من حيث كون « الطوطمية » نظاماً اجتماعياً يقوم على أساس مجتمع صغير مبني على العشيرة أو القبيلة . أما الدراسات الدينية للطوطمية ، فهي بعد هذه الدراسة من حيث التوسع والتبسط في الموضوع . وأكثر هذه الدراسات أيضاً عن قبائل هنود أمريكا الشمالية وعن قبائل أستراليا ثم افريقية . أما أثر الطوطمية عند الشعوب القديمة مثل اليونان والشعوب السامية فإن بحوث العلماء في المراحل الأولى من البحث ، وهي مستمدة بالطبع من الاشارات الواردة في الكتابات أو المؤلفات أو من دراسات الأسماء .

ومن أشهر أصحاب النظريات في موضوع الطوطمية (تيلر) (Sir E. B. Tylor)^٢ و (سير جيمس فريزر) (Sir J. G. Frazer) ، وهذا الأخير يرفض نظرية الداهين الى أن الطوطمية في شكلها الأول هي ديانة ؛ لأن الطوطم لا يعبد كما يقول على صورة صنم^٣ .

ومن أسماء الحيوانات التي تسمت بها البطون والعشائر : كلب ، وذئب ، ودب ، وسلحفاة ، ونسر ، وثعلب ، وهر ، وبطة ، وثور ، وغير ذلك من أسماء حيوانات تختلف بحسب اختلاف المحيط الذي تكون فيه عبدة الطواطم . يضاف الى ذلك أسماء أشجار ونباتات أخرى وطائفة من أسماء الأسماك . وقد ذكر (بيتر جونز) (Peter Jones) أربعين بطناً من بطون قبيلة الـ (Ajibwa) لها أسماء حيوانات^٤ .

وقد لاحظ (روبرتسن سميث) (Robertson Smith) ان في أسماء القبائل عند العرب أسماء كثيرة هي أسماء حيوان أو نبات أو جسد . فأتخذ من هذه الأسماء دليلاً على وجود (الطوطمية) عند العرب ، وعلى أثرها في الجاهليين .

١ Enc. Reli. Vol. 12, P. 394, J. Lubach, Origin of Civilization, 1905, A. Lang, The Secret of the Tate. 1905, Frazer, Totemism and exogamy, 4. Vols. 1910, Frend, Tatem and Tabu, 5. ed. 1934.

٢ Taylor, Primitive Culture, Vol. I, P. 402.

٣ Bowman, P. 98. f.

٤ Enc. Religi. Vol. 12, P. 394.

فأسماء مثل : بني كلب ، وبني كليب ، والنمر ، والذئب ، والفهد ، والضبع ،
والدب ، والوبرة ، والسيد ، والسرطان ، وبكر ، وبني بدن ، وبني أسد ،
وبني يهثة ، وبني ثور ، وبني جحش ، وبني ضبة ، وبني جعل ، وبني
جعدة ، وبني الأرقم ، وبني دثل ، وبني يربوع ، وقريش ، وعنزة ،
وبني حنش ، وبني غراب ، وبني فهد ، وبني عقاب ، وبني أوس ، وبني
حنظلة ، وبني عقرب ، وبني غم ، وبني عفرس ، وبني كوكب ، وبني قنفذ ،
وبني الثعلب ، والسيد ، وبني قنفذ ، وبني عجل ، وبني انعاقه ، وبني هوزن ،
وبني ضب ، وبني قراد ، وبني جراد ، وما شاكل ذلك من أسماء ، لا يمكن
في نظره الا أن تكون أثراً من آثار الطوطمية ، ودليلاً ثابتاً واضحاً على وجودها
عندهم في القديم^٢ .

وقد لاقى تطبيق روبرتسن سمث نظرية (الطوطمية) على العرب الجاهليين ،
ترحيباً عند بعض المستشرقين ، كما لاقى معارضة من بعضهم . وقد رد عليه
(جرجي زيدان) في كتابه (تاريخ التمدن الإسلامي) ، وبين أسباب اعتراضه
على ذلك التطبيق^٣ .

دور الأمومة :

واتخذ (روبرتسن سمث) من تسمي بعض القبائل بأسماء مؤنثة مثل : (مدركة)
(وطابخة) و (خندف) و (ظاعنة) و (قبلة) و (جديلة) و (مُرّة)
و (عطية) ، وأمثالها ، دليلاً على وجود ما يسمى بـ (دور الأمومة) عند
العرب . وهو دور لم يكن للنساء فيه أزواج معينون ، لأن الزواج لم يكن فيه
بالمعنى المفهوم من الزوجية عندنا ، بل كان الرجل يجتمع بالمرأة ثم يتركها ،
ليجتمع بامرأة أخرى ، وهكذا تكون المرأة قد اتصلت بجملة رجال ، كما يكون
الرجل قد اتصل بجملة نساء . واذا كانت المرأة لم تكن تعرف زوجها الذي

١ الاكليل (١٨٢/١ وما بعدها) ، الاشتقاق (٩٠ ، ١٨٧) ، التمدن الاسلامي (٢٦٦/٣) Kinship, P. 188.

٢ Robertson Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, Religion of the Semites, 2nd. ed. London, 1894, P. 35.

٣ (٢٤٠ / ٣) وما بعدها .

نَجَلْ مولودها ، ولا يعرف المولود والده تُسبب إلى أمه وعرف بها . وبهذا التفسير ، فسر (روبرتسن سمث) ومن ذهب مذهبه من علماء علم الاجتماع ، وجود الأسماء المؤنثة عند العرب وعند العبرانيين وعند بقية الساميين^١ .

واتخذ (روبرتسن سمث) من وجود بعض الكلمات في تسلسل أنساب القبائل مثل : البطن والفخذ والصلب والظهر والدم و (رحم) ، دليلاً آخر على وجود (دور الأمومة) عند العرب ، لأن لهذه الألفاظ صلة بالجسم ، ولهذا كان إطلاقها عند قدماء العرب - على حد قوله - علاقة بجسم الأم . ولا سيما أنهم استعملوا لفظة (الحي) كذلك . ولهذا اللفظة علاقة بالحياة وبالدم . وإطلاق الألفاظ في نظره ورأيه على معان اجتماعية ، دليل على الصلة التي كانت للأم في المجتمع لذلك العهد^٢ .

وقد بحث (روبرتسن سمث) بحثاً مفصلاً في الحي ، إذ هو في نظره وحدة سياسية واجتماعية قائمة بذاتها^٣ . ويطلق على (الحي) لفظة (قوم) و (أهل) . وينظر أبناء الحي الواحد بعضهم إلى بعض نظرة قرابة ، فكأنهم من نسل واحد يربط بينهم دم واحد . وقد استدلل (روبرتسن سمث) من معنى (الحي) على وجود معنى الحياة في الكلمة في الأصل ، كما هو الحال في اللغات السامية ، ورأى لذلك أنها تمثل رابطة قرابة وصلة رحم عند سائر العرب السامية . ويكون أعضاء الحي الأحرار (صرحاء) ، وفي العبرانية (أزراح) . أما الذين ينتمون إليه بالولاء ، فهم (الموالي) يستجرون به أو بالقبائل أو الأفراد ، فيلقون حماية من يستجرون بهم ، ويكون (الجار) في رعاية مجيره .

و (البطن) في نظر (روبرتسن سمث) هو أقدم أوضاع المجتمع السامي القديم ، ويقوم على أساس الاعتقاد بوجود القرابة والروابط الدموية . ويرى أن مفهومه عند قدماء الساميين كان يختلف اختلافاً بيناً عند العرب المتأخرين ،

١ Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, Cambridge, 1885.

٢ Kinship, P. 37. ff. Smith, Religion of the Semites, London, 1894, P. 35.

٣ (الحي : الواحد من احياء العرب ، والحي البطن من بطون العرب . ويقع على بني اب كثروا ام قلوا) ، اللسان (٢٣٥/١٨) ، والعمارة : الحي العظيم يقوم بنفسه ، المفضليات (ص ٤١٤) ، بلوغ العرب (١٨٩/٣) . (الحي) ديوان الطرماس (١١٤ ، ٩٥)

أو عند العبرانيين ، أو غيرهم . وقد فهم من اللفظة معنى المجموع الأكبر عند العرب ، أي معنى (شعب) أو (جذم) أو قبيلة ، ورأى أن هذا المعنى هو المعنى القديم للكلمة عند العرب^١ . أما المعاني التي يذكرها علماء اللغة والأدب والأخبار ، فهي في نظره معان متأخرة وضعت في الجاهلية القريبة من الإسلام ، ومن جملة هذه المعاني اختصاصها بالأماكن التي تقيم فيها القبيلة أو العشيرة ، وتألف من جملة عدد من الدور .

وقد استدل (روبرتسن سمث) من لفظة (البطن) و (الفخذ) وأمثالهما على مرور العرب في دور الأمومة ، وعلى أن القبائل كانت قد أخذت أنسابها القديمة وأسمائها من الأمومة ومن (الطوطمية) . ورأى أن كلمة (البطن) في الأصل كانت تعني معنى آخر غير الذي يذهب اليه علماء الأنساب ، ودليله على ذلك استعمال (رحم) .

ول (روبرتسن سمث) بحوث في طرق الزواج عند قدماء العرب ، سأحدث عنها في موضوع الزواج والطلاق عند الجاهليين في القسم الخاص بالحياة الاجتماعية عند العرب وبالتشريع .

وقد أشار (نولدكه) Noeldeke الى أهمية تأنيث أسماء القبائل^٢ ، فانخذ القائلون بنظرية (الأمومة) من هذه الأسماء دليلاً على أهمية هذا العهد في التأريخ الجاهلي القديم .

وقد وافق (ويلكن) G.A. Wilken على بعض آراء (روبرتسن سمث) ، وخالفه في بعض الآراء^٣ .

ومن واضعي نظرية الأمومة العالم الألماني السويسري (باخ أوفن) (Johann Jakob Bachofen) (١٨١٥ - ١٨٨٧ م) ، وهو من علماء القانون ومن مؤسسي (علم القانون المقارن) ، وكان معروفاً بأبحاثه عن الأشياء الخفية

١ الهلال : الجزء الثامن من السنة الرابعة عشرة ، ايار ١٩٠٦ ، (ص ٤٧٨) ،

٢ Naeldeke, in ZDMG, Bd. XVII, S. 707.

٣ راجع كتاب : « الأمومة عند العرب » ، تأليف « ويلكن » ، ، تعريب بندلي صليبا الجوزي ، قازان ١٩٠٢ م ،

G. A. Wilken, Het Matriarchaat in de ande Arabieren, Oestr.

Monatschrift fur d. Orient, 1889.

التي تؤثر في حياة الانسان . وقد ذهب الى أن تأريخ العالم صراع بين الروح والمادة ، بين الذكر والأنثى ، وأن الحياة الأرضية مزيج من هذين الكفاحين . وقد لفت نظره الى الزواج باعتبار أنه ناحية من النواحي القانونية ، وتعرض لمباحث الزواج عند الانسان القديم ، ولقوضوية الزواج ، حيث كان الرجل يتناول المرأة بغير عقد ، كما تفعل الحيوانات ، ولاشراك عدد من الرجال في امرأة واحدة ، (Hetaische Gynaikokratie) ، فلا يعرف فيه النسل من أي أب هو ، ولهذا بقي في رعاية أمه ، فنسب اليها ، وهو زواج مرّ على جميع الشعوب . كما بحث عن الأديان البدائية وعلاقتها بأمثال هذا الزواج^١ .

ويجب أن نضيف الى تلك الفوضوية فوضوية أخرى ، هي فوضوية الغزو وتقاتل الانسان مع الانسان وإباحة المدن والقرى للجيوش الغازية المنتصرة، يعيش فيها وفي أهلها فساداً ، يؤدي الى انتهاك الحرمات واستباحة الأعراض وتوالد أطفال ليس في مقدور أمهاتهم معرفة آبائهم، فلا يبقى لهم من مجال إلا الانتساب إلى الأمهات .

ودور الأمومة عند أصحاب هذه النظرية ، هو أقدم أنواع الزواج . وأما (الأبوة) أي دور الزواج الذي عرف النسل فيه آباءهم فهو عندهم أحدث عهداً من الأمومة ، وقد زعموا أن هذين الدورين مرّاً على البشرية جمعاء ، وفيهم العرب . وفي دور الأمومة تكون القرابة فيه لصللة الرحم ، أي الى الأم ، فهو الرباط المقدس المتين الذي يربط بين الأفراد ويجمع شملهم ، وهو نسبهم الذي اليه يتمون . ففي هذا الدور لا يمكن أن يعرف فيه الانتساب الى الأب ، لسبب عادي هو عدم امكان معرفة الأب فيه . ولهذا كان نسب النسل فيه حتماً للأم . وكان نسب الجماعات فيه أيضاً للأم . ومن هذه الجماعات القبائل . وهم يرون أن تسمي القبائل بأسماء رجال ، بأن يجعلهم أجداداً وآباءً ، هي تسميات محدثة ظهرت بعد ظهور دور الأبوة، وتطور الزواج من زواج القوضى أو زواج تعدد الرجال الى زواج حدد فيه على المرأة التزوج برجل واحد ليس غير ، يكون فيه بعلمها الذي تختص به . ومن هنا اندثرت الأسماء القديمة ، أي أسماء الإناث في الغالب ، وحلت محلها أسماء الذكور . وسيأتي الكلام على موضوع

Mutterrecht und Urreligion, von R. Mark, in KTA. Bd. 52, Der Mythos von Orient und Okzident, M. Schroeter, 1926, H. Schmidt, Philosophisches Woerterbuch, S. 61.

أشكال الزواج عند العرب في موضعه من هذا الكتاب .
هذا ، وقد بحث (جرجي زيدان) في نظرية (الأمومة) عند العرب وردت
عليها بتفصيل^١ .

أصول التسميات :

وقد ألف (ابن دريد الأزدي) كتاباً في اشتقاق الأسماء عند العرب ، سماه
(كتاب الاشتقاق) ، تحدث فيه عن أصول الأسماء واشتقاقها ، وذلك رداً على
من زعم أن العرب تسمي بما لا أصل له في لغتهم ، فذكر اشتقاق تلك الأسماء^٢ .
وقد قال في مقدمته له : « كان الأميون من العرب ... لهم مذاهب في أسماء
أبنائهم وعبيدهم وأتلاذهم . فاستشنع قوم إما جهلاً وإما تجاهلاً تسميتهم كلباً ،
وكليياً ، وأكلب ، وخنزيراً ، وقرداً ، وما أشبه ذلك مما لم يستقص ذكره :
فقطعوا من حيث لا يجب الطعن ، وعابوا من حيث لا يستنبط عيب .. وكان
الذي حدانا على انشاء هذا الكتاب ، أن قوماً ممن يطعن على اللسان العربي
وينسب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم ، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه
اصطلاح من أوليتهم وعدوا أسماء جهلوا اشتقاقها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص
عنها^٣ .. إلى أن قال : « واعلم أن للعرب مذاهب في تسمية أبنائهم فنما
ما سموه تفاقلاً على أعدائهم نحو : غالب ، وغلاب ، وظالم ، وعارم ، ومنازل
ومقاتل ، ومعارك ، وثابت ونحو ذلك . وسموا في مثل هذا الباب مسهراً ،
ومؤرقاً ، ومصباحاً ، ومنبهاً ، وطارقاً . ومنها ما تفاعلوا به للأبناء نحو :
نايل ، ووايل ، وناج ، ومدرك ، ودرآك ، وسالم ، وسلميم ، ومالك ،
وعامر ، وسعد ، وسعيد ، ومسعدة ، وأسعد ، وما أشبه ذلك . ومنها ما سمي
بالسباع ترهيباً لأعدائهم نحو : أسد ، وليث ، وفراس ، وذئب ، وسيد ،
وعملس ، وضرغام ، وما أشبه ذلك . ومنها سمي بما غلظ وخشن من الشجر
تفاقلاً أيضاً ، نحو : طلحة ، وسمرة ، وسلمة ، وفتادة ، وهراصة ، كل

١ تاريخ التمدن الاسلامي (٢٤٠/٣) وما بعدها .
٢ طبعة « وستنفلد » في « كوتنكن » (غوتنكن) سنة ١٨٥٤ م .
٣ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) .

ذلك شجر له شوك وعضاة . ومنها ما سمي بما غلظ من الأرض وخشن لمسه وموطئه ، مثل : حجر ، وحجير ، وصخر ، وفهر ، وجندل ، وجرول ، وحزن ، وحزم . ومنها ان الرجل كان يخرج من منزله وامراته تمخض فيسمي ابنه بأول ما يلقاه من ذلك ، نحو : ثعلب ، وثعلبة ، وضب ، وضبة ، وخزز ، وضبيعة ، وكلب ، وكليب ، وحمار ، وقرد ، وخنزير ، وجحش ، وكذلك أيضاً يسمي بأول ما يسنح أو يبرح لها من الطير ، نحو : غراب ، وصرده ، وما أشبه ذلك .. خرج وابل بن قاسط وامراته تمخض ، وهو يريد أن يرى شيئاً يسمي به ، فإذا هو ببكر قد عرض له ، فرجع وقد ولدت له غلاماً ، فسماه بكراً ، ثم خرج خرجة أخرى وهي تمخض ، فرأى عتراً من الظباء ، فرجع وقد ولدت غلاماً فسماه عتراً .. ثم خرج خرجة أخرى ، فإذا هو بشخيص قد ارتفع له ولم يتبينه نظراً ، فسماه الشخيص .. ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فغلبه أن يرى شيئاً ، فسماه تغلب .. خرج تميم بن مرّ وامراته سلمى بنت كعب تمخض ، فإذا هو بواد قد انبثق عليه لم يشعر به ، فقال : الليل والسيل ، فرجع وقد ولدت غلاماً ، فقال : لأجعلنه لإلهي ، فسماه زيد مناة ، ثم خرج خرجة أخرى ، وهي تمخض ، فإذا هو بمكاء بغرد على عوسجة قد يبس نصفها وبقي نصفها ، فقال لئن كُنت قد أثريت وأسريت لقد أجددت وأكديت ، فولدت غلاماً فسماه الحرث ،^١ ...

قيل لأبي الدقيش الاعرابي : « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورياح ؟ » ، فقال : « إنما نسمي أبناءنا لأعداءنا وعبيدنا لأنفسنا »^٢ . وتعرض الجاحظ لهذا الموضوع أيضاً ، فقال : « والعرب إنما كانت تسمي بكلب وحمار وحجر وجعل وحفظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ذكر ، خرج يتعرض لزجر الطير والفأل ، فإن سمع إنساناً يقول حمجر أو رأى حجراً ، سمى ابنه به وتفاعل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقي ، وكذلك إذا سمع إنساناً يقول ذئب أو رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب ، وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد ، وإن كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد

١ الاشتقاق (ص ٣ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/١٩٣ وما بعدها) .

٢ الديري (٢/٢٤٢) .

الصوت والكسب^١ . ويظهر مما تقدم أن موضوع التسميات عند العرب كان من الموضوعات التي لفتت إليها الأنظار ، لما في كثير منها من غرابة وخروج على المألوف ، فانبرى بعض العلماء في شرح الأسباب التي أدت بالعرب الى اتخاذ تلك التسميات ، والى ذكر العلل التي دفعتهم عليها كالذي نراه في بحث (ابن دريد) في كتابه (الاشتقاق) ، حيث ذكر في مقدمته كل الأسباب التي رأها وتوصل إليها في بحثه عن هذا الموضوع ، الذي أثار جانباً منه (روبرتسن سمث) وغيره من المستشرقين .

كما سموا بعبد العزى وعبدود وعبد مناة وعبد اللات وعبد قسي ونحو ذلك ، مما فيه إضافة العبودية لأحد الأصنام .

والمتعارف عليه في الإسلام ، هو ارجاع النسب الى الأب . أما الانتساب الى الأم ، فإنه قليل الوقوع . ولهذا يعد الرجل عربياً اذا كان والده عربياً ، لا يؤثر فيه نسب أمه إن كانت أعجمية . أما قبل الإسلام ، فإن النسب وإن كان تابعاً لنسب الأب ، إلا أنه قد يلحق الولد بالأم . وبالرغم من هذا العرف ، فلن العرب في الماضي وفي الحاضر يقيمون وزناً كبيراً لدم الأمهات ، بل قد تزيد أهميته عندهم على أهمية دم الأب . والمثل العراقي العامي (ثلثين الولد على الخال)^٢ ، خير تعبير عن وجهة نظرهم تلك ، فإنه يمثل نزعة عرق الخصال^٣ . وهي من النزعات التي أقام لها الجاهليون وزناً كبيراً عندهم .

أما وجهة نظر العلم الحديث ، فإن لدم الأبوين أثراً متساوياً في المولود . ولهذا فإن موضوع النسب الى الأب أو الأم ، موضوع لا يعالج عنده بالعرف والعادة ، بل يعالج وفق قواعد العلم المقررة لديه . وبناءً على ذلك يجب أن نقيم وزناً لموضوع التزاوج المختلط بين العرب والغرباء ، وقد كان معروفاً وشائعاً في الجاهلية أيضاً ، اذ تزوجوا من الرقيق ، ولاسيما الرقيق الأبيض ونسلوا منه ، كما سكن في جزيرة العرب آلاف من الغرباء قبل الإسلام واندجوا في أهلها . وتركوا أثراً في دماء أهلها ، يختلف باختلاف مقدار الاختلاط . ويتبين ذلك بوضوح في سحن سكان السواحل ، لأنهم أكثر عرضة للاختلاط من أبناء البواطن والنجاد .

١ التمدن الاسلامي (٢٦٩/٣) .

٢ اي : ثلثا الولد .

٣ ابن سعد ، الطبقات (٣ > ، ق ١ ، ص ٣٣٥) .

ولا تختلف أسماء القبائل العربية في طبيعتها عن طبيعة أسماء القبائل عند الشعوب الأخرى ، ولا سيما قبائل الشعوب المسماة : الشعوب السامية . فهسي أسماء آباء وأجداد ترد غالباً في شكل أسماء ذكور ، وترد في الأقل في صورة أسماء نساء، وتعدّ عندئذ أسماء أمهات ، أي أمهات قبائل . وهي كما قلت قبل قليل ليست أسماء أعيان بالضرورة ، فبينها أسماء مواضع نسب سكانها إليها ، فصارت بمرور الزمن جدّاً ، وأباً ، أو أمّاً . وبينها أسماء آلهة وأصنام ، تعلق المؤمنون بها حتى نسبوا إليها ، وبينها أسماء طواطم . ونجد بين أسماء القبائل العربية أسماء ترد عند العبرانيين وعند غيرهم من الشعوب السامية أعلاماً لقبائل كذلك، وقد يكون من المفيد جداً دراسة هذه الأسماء ومقابلتها بعضها ببعض ، ودراسة أسماء القبائل العربية دراسة مستفيضة لمعرفة أصولها وتطورها ومراجعة الموارد الأعجمية والكتابات الجاهلية للعثور على تلك الأسماء فيها وتعيين زمن ظهور الاسم فيها لأول مرة .

الفصل الثالث عشر

تاريخ الجزيرة القديم

ليس من السهل بقاء العاديات ، التي تتألف من مواد منزلية وأدوات ضرورية لحياة الانسان ، مدة طويلة في أرضين مكشوفة سهلية ، وفي مناطق صحراوية لا حماية فيها لتلك الأشياء . وليس من السهل أيضاً احتفاظ مثل هذه التربة بحدث الإنسان وبعضهم الحيوان أمداً طويلاً . وهي معرضة لحرارة شديدة قاسية ولرياح عاصفة قاسية . ولهذا لا يطعم الباحثون في الحصول على كنوز غنية من المناطق السهلة المكشوفة التي تغلب عليها الطبيعة الصحراوية والتي تؤلف أكبر قسم من جزيرة العرب .

ومن هنا سيتجه أمل الباحثين عن الآثار الى الأودية التي تتوافر فيها الوسائل الكفيلة بنشوء المجتمعات على اختلاف أشكالها ، وإلى السهول التي تبتع النهرات والينابيع والآبار الحياة فيها ، وإلى الهضاب والجبال حيث توجد المياه وتنساقط الأمطار وتتوافر الكهوف والصخور، وهي من العوامل المساعدة على نشوء الحضارة وحفظ الآثار ، للاستفادة منها في الحصول على آثار تحدثنا عن تاريخ جزيرة العرب في آلاف السنين الماضية قبل الميلاد .

وليس في استطاعتنا في الزمن الحاضر التحدث عن جزيرة العرب في العصور الجليدية ، لعدم وجود بحوث علمية عن هذه العصور في هذه البلاد . كذلك لا نستطيع أن نتحدث عن بلاد العرب في العهود الحجرية ، لعدم وجود موارد

كافية تساعدنا في الكشف عنها كشفاً علمياً . نعم ، عثر على أدوات حجرية في موضع يقال له (الدوادمي) (Dawadmi) ، وهو يبعد (٣٧٥) ميلاً عن الخليج ، عثر عليها مدفونة في الأرض ، وكان بينها فأس طولها سبع عقد ونصف عقدة ، ولها لون يميل الى الخضرة ^١ ، وعثر على أدوات حجرية أخرى في أنحاء من جزيرة العرب ، وفي جملتها الأحساء وحضرموت ، ولكن ما عثر عليه ما زال قليلاً ، لا يمكن أن يعطينا رأياً واضحاً علمياً في تلك العهود في هذه البلاد .

وقد تبين من فحص الأدوات الحجرية التي عثر عليها في الأحساء أنها تتكون من أحجار لا توجد في العروض، وبينها أحجار بركانية أو من حجارة (الكوارتز)، ومن أنواع أخرى من الصخور ، لهذا رأى فاحصوها أنها أدوات استوردت من العربية الغربية . كما تبين من فحص الأدوات الحجرية التي عثر عليها في اليمن وفي حضرموت أنها من النوع المستورد من فلسطين أو من بلاد الشام ، لأنها تشبه الأدوات الحجرية التي عثر عليها هناك ^٢ .

أما الأدوات الحجرية التي عثر عليها في مواضع من حضرموت ، فليست محكمة دقيقة الصنعة ، بالقياس الى ما عثر عليه في فلسطين أو في بلاد الشام أو في إفريقية ، وقد عزا بعضهم ذلك الى طبيعة أحجار هذه المنطقة ، وعزاه آخرون الى تأخر حضارة أهل حضرموت في ذلك العهد بالقياس الى الحضارات الأخرى ^٣ . ورأى بعض الباحثين أن أرض حضرموت كانت في عزلة عن البلاد المتقدمة في الشمال ، وأن صلاتها بإفريقية كانت أقوى من صلاتها بشمال جزيرة العرب وبالهلال الخصيب وبحضارة البحر المتوسط ، ولذلك صارت الأدوات التي عثر عليها بدائية بعض الشيء بالقياس الى ما عثر عليه في أعالي جزيرة العرب ، حيث كان الاتصال وثيقاً بالحضارات المتقدمة .

ومن الأدلة التي تثبت ان اتصال حضرموت بالسواحل الافريقية المواجهة كان

١ P. B. Cornwall, Ancient Arabia, Explorations in Hasa, 1940-1941, P. 39, in Geogra. Journ. CVII, Febr. 1946.

٢ Geogr. Journal, Vol. XCIII, No. I, January, 1939, PP. 30.

٣ Geogr. Journal. Vol. XCIII, No. I, January, 1939, "An Exploration in the Hadhramaut and Journey to the Coast" By, Freya Stark.

قوياً ووثيقاً في العصور الـ (الباليوليثية) ، هو عثور المتقيين على فؤوس يدوية في حضرموت تعد من صميم الصناعات التي ظهرت في تلك الأنحاء من افريقية . ووجودها في حضرموت وعثور المتقيين على أدوات أخرى هي من صناعات افريقية ، دليل على شدة العلاقات ومبلغ توثقها بين افريقية والسواحل العربية الجنوبية ^١ .

ويظن ان الزجاج البركاني ، المتكون من فعل البراكين (Obsidian) المتخذ أشكالاً هندسية ، مثلثاً أو هلالاً أو مربعاً ، الذي يعود الى الدور المعروف عند علماء الآثار بدور صناعات النصل (Blade Industries) ، والذي عثر على نماذج منه في حضرموت ، هو من المستوردات التي يرجع أصلها إلى سواحل افريقية الشرقية . وقد كانت هذه الصناعة مزدهرة في حوض البحر المتوسط وفي أوروبا قبل الألف الثالثة قبل الميلاد . أما في العربية الجنوبية ، فيعود عهدها الى الألف قبل الميلاد ^٢ .

واكتشفت أدوات من العصور الحجرية في (الحملة) ورأس (عوينات علي) (عوينت علي) وجنوب (دخان) من (قطر) ، منها فؤوس ومقاشر ونبال وكميات من حجر الصوان . وهذه الصخور هي من العصور (الباليوليثية) و (النيوليثية) ^٣ .

وعثر في مواضع متفرقة أخرى من جزيرة العرب على أدوات من عهود مختلفة قبل التاريخ ، عثر على أكثرها في مواضع شتى تقع عند الأودية والطرق والمواضع التي تتوافر فيها وسائل الحياة . وسيكون لبحث من يأتي بعدي فيقوم بوضع خارطة أو مخطط للمواضع التي عثر فيها على آلات وأدوات مما قبل التاريخ شأن كبير . ولا شك في الكشف عن مواضع السكنى والحضارة في بلاد العرب قبل التاريخ، وفي الكشف عن نظرية تغير الجو في جزيرة العرب ونظرية الهجرات وارتحال السكان من مكان الى مكان .

B.R. 527, (Restricted), Geographical Handbook Series for Official use only, Western Arabia and the Red Sea, June, 1946, Naval Intelligence Division.

وسيكون رمزه : Naval

Naval ٢

٣ تقرير شامل عن الحفريات الاثرية في جزيرة « فيلكا » ، ١٩٥٨ - ١٩٦٣ م ، الكويت (ص ٢٤) .

وعثر على آثار متنوعة من العصور الـ (الباليوليثية) (Palaolithikum) (Palaeolithic) والـ (النيوليثية) (Neolithikum) (Neolithic) في الكويت والبحرين وحضرموت ومواقع أخرى من العربية الجنوبية واليمن . وقد ذهب (فيلد) (H. Field) إلى أن اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان في العصور (النيوليثية) ، ثم هاجر قسم من الناس إلى عمان والخليج ، وهاجر قسم آخر بطريق باب المندب إلى الصومال و (كينيا) (Kenya) و (وتنجانيقا) ، وهاجر فريق آخر بطريق مأرب ونجران إلى شبه جزيرة سيناء وفلسطين والأردن^١ .

وعثر على آثار من العصور المذكورة في مواقع من المملكة العربية السعودية تمتد من الأحساء (الهفوف) إلى الحجاز ، ومن مدائن صالح إلى نجران . وقد عثر على أدوات حجرية في (تل الهبر) . وقد كان الصيادون في عصور ما قبل التاريخ ينتقلون باتجاه الأودية من مكان إلى مكان حيث كانت الأحوال فيها خير مما عليه الآن . وقد ترك هؤلاء الصيادون ثم الرعاة بعض الآثار في الأماكن التي حلّوا بها ما برح السياح وخبراء شركة (أرمكو) وغيرهم يعثرون على قسم منها بين الحين والحين^٢ .

ووجدت في (كلوة) (Kelwa) التي تقع على سفح (جبل الطبق) آثار من العهود (الباليوثيكية) القديمة : (Chelléen) والـ (Acheuléen) والـ (Levalloisien) . وقد قدر بعض الباحثين تأريخ السكنى في هذا الموقع إلى الألف الثامنة قبل الميلاد. وقد اكتشف هذا الموقع (هورسفيلد) (G. Horsfield) و (كلويك) (N. Glueck) ، فوجد آثاراً وصوراً على الصخور ، قدّر أنها ترجع إلى آلاف من السنين قبل الميلاد من مختلف العصور^٣ .

وعثر على كهوف وقد صورت على جدرانها صور حيوانات وصور الشمس ،

١ A. Grohmann, Arabien, S. 15, H. Field, Papers of the Peabody Museum, 48/2 (1956), PP. 117.

٢ H. Field, Papers, 48/2 (1956), 63, A. Grohmann, Arabien, S. 15.

٣ N. Glueck, The other Side of the Jordan, New Haven, Conn. 1940, PP. 43, H. Rothert, Transjordanien, Vorgeschichtliche Forschungen, Stuttgart, 1938, S. 161, A. Grohmann, Arabien, S. 16.

والهلال ، وذلك على طريق التجارة القديمة في العربية الجنوبية ، بين وادي يبعث ووادي عرمة . وهي تشبه في أهميتها من دراسة الناحية الأثرية ، العصور المتقدمة التي عثر عليها في (كلوة) في الأردن^١ .



فأس من الحجر تعود الى عصر الـ « PaIaeolithic » المتأخر ، عثر عليها في « درادمي » .
صنعت هذه الصورة من صورة نشرت في مجلة : « The Geographical journal »
جزء شباط سنة ١٩٤٦ أرسلها لي صديقي الدكتور جورج ماثيوس من القاهرة

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن جزيرة البحرين كانت مأهولة بالناس أيام العصور الجليدية المتأخرة في أوروبا ، أي قبل خمسين ألف سنة ، وأن ساحل الخليج ، ولا سيما المنطقة الواقعة بين (الدوامي) وشمال القطيف ، كان مزدحماً

بالسكان في العصور البرنزية ، أي حوالي (٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م) ، كما عثر على أدوات من العصور (الباليوثيكية) في موضع (رأس عوينت علي) (عوينات علي) في شبه جزيرة (قطر)^١ .

وقد ذهبوا أيضاً الى أن جوّ البحرين آنذاك - أي أيام العصور الجليدية - كان يشبه جوّ بلاد اليونان في الوقت الحاضر . وأن أرض البحرين كانت مغطاة بخضراء ، مغطاة بكساء من الغابات . ولعلها كانت متصلة إذ ذاك بالأرض الأم - أرض جزيرة العرب - أما سكانها فقوم من الصيادين . عاشوا على ما يقتنصونه من حيوانات ، وفي مقدمتها الأسماك . وقد عثر على أدوات من حجر الصوان ، استخدمها أولئك الصيادون في صيدهم وفي تقطيع لحوم الفرائس التي يوقعها سوء حظها في أيديهم . عثر عليها في مواضع متعددة من البحرين ، وبعدد كبير أحياناً ، مما يدل على أن تلك الأماكن كانت مستوطنة أهلة بالناس .

وليس في هذه الأدوات الصوانية ما يشير الى أصل أصحابها ، أو الى أسمائهم وأسماء المواضع التي كانوا فيها . وكل ما يستفاد منها أنها من أواسط العصور (الباليوثيكية) (Paleolithic) ، وذلك بدليل مشابهتها لأدوات من الصوان ترجع الى هذا العهد عثر عليها في شمال العراق وفي فلسطين في شمال غربي الهند^٢ .

وقد عثر في البحرين أيضاً على عدد من رؤوس حراپ وسكاكين صنعت من الصخور الصوانية . قدّر بعض الباحثين عمرها يتراوح بين عشرة آلاف واثني عشر ألف سنة . وهي ترجع الى أواخر أيام الرعي وابتداء عهد الاستيطان والاستقرار والاشتغال بالزراعة . وبين ما عثر عليه من هذه الأدوات ، أحجار سنّت وشذبت لكي تكون بمثابة آلات لحصد المزروعات ولقطع الحشائش واجتثاثها من الأرض^٣ .

وفي العربية الغربية والعربية الجنوبية جبال ترصعها كهوف ، اتخذها الانسان

P.B. Cornwall, Ancient Arabia: Explorations in Hasa, 1940-1941, A. Grohmann, ١
Arablen, S. 255.

وسيكون رمزه : Arablen

James H.D. Belgrave, Welcome to Bahrain, London, 1965, PP. 50. ٢

٣ المصدر نفسه ، (ص ٥١) .

مساكن له ، فأقام فيها قبل الميلاد بأمد طويل ، لا نستطيع تقدير زمانه، واتخذ بعضها معابد ومراضع مقدسة ، وأماكن للخلوة والتأمل الروحي والعبادة، وبعضها مقابر يودع فيها أجداث آبائه وأجداده وأهله ، ولكن أكثر هذه الكهوف قد عبث بها الزمن ، وعبثت بها أيدي الإنسان ، أكثر من عبث الطبيعة بها ، فانتزعت منها ما نبحث الآن عنه من بقايا عظام وتركات سكنى ، وآثار فن ، فحرمتنا بذلك الوقوف على حياة الإنسان في جزيرة العرب في تلك الأيام .

وقد أشار الكتبة (الكلاسيكيون) الى سكان الكهوف في بلاد العرب. وعثر السباح على بقايا تلك الكهوف التي كانت منازل ومساكن أهلة بالناس. ولا يزال الناس يسكنون الكهوف في حضرموت وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب^١ . وقد يكون من بينها كهوفاً كانت منازل الأجداد النازلين بها اليوم منذ آلاف من السنين .

ولما كانت زيارات السياح لهذه الكهوف زيارات سريعة خاطفة ، لم يتعمق السائحون فيها في داخل الكهف ، ولم تتناول ما على جدر الكهوف من رسوم أو زخارف، وقد يأتي يوم يعثر فيه الباحثون على كنوز من فن سكان الكهوف، ومن مخلفات لهم وعظام تكدست تحت أطباق الثرى ، نستخرج منها وصفاً لحياة الانسان في تلك المناطق من جزيرة العرب ، وقد تفيدنا في دراسة الصلات والعلاقات التي كانت بين أهل الجزيرة وبين بقية أنحاء العالم في تلك العهود السحيقة .

فيثبتن من هذه الآثار القليلة ان بلاد العرب كانت مأهولة بالناس منذ العصور (الباليوثية) (Palaeolithic) ، أي العهود الحجرية المتقدمة ، وان من أقدم الآثار التي عثر عليها آثاراً من أيام العصور المعروفة بـ (Chellian) بين علماء الآثار ، أي الأدوار الأولى من أدوار حضارة العصر الحجري ، وانه قد عثر على أدوات من الصوان في الربع الخالي وفي حضرموت من عهد الـ (Neolithic) والعصور (البرنزية). وعثر على أدوات من الصوان من عصور الـ (Chalcolithic) هي من النوع الذي عثر عليه في جنوب فلسطين^٢ .

Van der Meulen, Aden to the Hadhramaut, P. 120, 200, 203.

Naval, P. 213.

ولم يوفق الباحثون للعثور على هياكل كاملة للإنسان ما قبل التاريخ ، لا في جزيرة العرب ولا في (سيناء)^١ . وللعثور عليها أهمية كبيرة بالنسبة الى البحث في تأريخ ظهور الإنسان وتطوره ، لوقوف على الزمن الذي عاش فيه في بلاد العرب .

والجاجم والعظام مادة مفيدة جداً في دراسة التاريخ ، ولكن الباحثين لما يتمكنوا من الحصول على مقدار كاف منها يكون عندهم فكرة علمية عن العصور التي ترجع اليها وعن أشكال أصحابها . وقد عثر رجال شركة (أرمكو) للبحث عن البترول في العربية السعودية على بقايا عظام وأسنان لبعض الحيوانات (الحلمية) (Mastodon) وعلى قسم من جمجمة حيوان قديم في موضع يبعد تسعين ميلاً إلى الغرب من (الدمام) ووجد مثل هذه البقايا الحيوانية في أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، ولكن ما عثر عليه لا يزال قليلاً ، لا يكفي لاعطاء آراء علمية عن الحياة في جزيرة العرب في التاريخ القديم^٢ .

وقد تعرضت تلك المقابر لعبث الطبيعة ولعبث الطامعين بما فيها من أشياء ثمينة ، لذلك أصاب أجسام الموتى التلف ، ولم يبق منها غير بقايا من جسم ، إلا ما كان من مقابر البحرين ، فقد أعطت الباحثين هيكليين كاملين لم يصبها أي سوء أو تلف . فقد تبين من فحصها ان أهل الميت وضعوا جسي الميتين على الجانب الأيمن ووجهوا الوجهين نحو المشرق ، وأمدوا رجلي الميتين . ويبعث وضع الميتين على هذه الصورة الاحتمال بأن أهل البحرين كانوا يتبعون هذه العادة في دفن موتاهم ، وهي عادة كانت عند أهل العراق أيضاً ، في الألف الثالثة قبل الميلاد^٣ .

وقد عثر في مواضع من جزيرة العرب على مقابر تبين انها من نوع المقابر التي يقال لها (تمولي) (Tumuli) ، التي عثر عليها في البحرين في نهاية القرن التاسع عشر . أما مقابر البحرين ، فهي تلال تكونت من قطع من الصخور ، وضع بعضها فوق بعض ، لتكون غرفة أو غرفتين ، تكون احدهما فوق الأخرى في الغالب ، لتتخذ قبراً يوضع فيه الموتى ، وتكون مقوف الغرف من ألواح

Naval. P. 213. ١

Cornwall, Ancient. P. 39. ٢

James H.D. Belgrave, P. 52. ٣

الصخور . وبعد اغلاق باب القبر يمال التراب على الصخور ، حتى تتخذ شكل تلال . وقد عثر على بقايا خشب فيها ، مما يدل على استعمال الخشب في بناء هذه القبور التي يصل قاعدة بعضها الى حوالي خمسين ياردة في العرض وحوالي ثمانين قدماً في الارتفاع . ويقدر الباحثون الذين بحثوا عن هذه المقابر عددها بزهاء خمسين ألف تل ، وبزهاء (١٠٠) ألف تل في تقدير بعض آخر ، أي خمسين ألف قبر أو (١٠٠) ألف قبر . قبر فيها الإنسان والحيوان جنباً الى جنب ، كما يتبين ذلك من بقايا العظام التي عثر عليها فيها . والغالب أنهم دفنوا الحيوان مع الإنسان ، ليستفيد منه الميت في العالم الثاني في عقيدة أهلها يومئذ ، وكما نجد ذلك في اعتقاد المصريين واعتقاد غيرهم من الشعوب ، ولهذا دفنوا مع الموتى أواني وأدوات بيتية وحلياً وجواهر وفخاراً وغير ذلك مما يحتاج اليه الإنسان ^٢ .

وقد عثر في هذه المقابر على عدد من الجرار ، تشبه الجرار المستعملة في الوقت الحاضر ، مما يدل على أن الناس في الوقت الحاضر لا يزالون يسيرون على سيرة أجدادهم الذين عاشوا قبل الميلاد في عمل الجرار وسائر الخزف . وقد صنعت تلك الجرار من الطين ، وضعه الخزاف على قرص دولاب يديره برجليه . واستعمل يديه في اكساب الطين شكل الجرة التي يريدتها . ويميل لون هذه الجرار الى الحمرة . كما عثر على قشور بيض النعام ، وقد قطعت بصورة تجعلها كأساً يشرب بها . وعثر على أدوات أخرى، وكل ما عثر عليه غير مكتوب ولا مؤرخ ، لذلك لا نعرف من أمره اليوم ولا من أمر أصحابه شيئاً ^٣ .

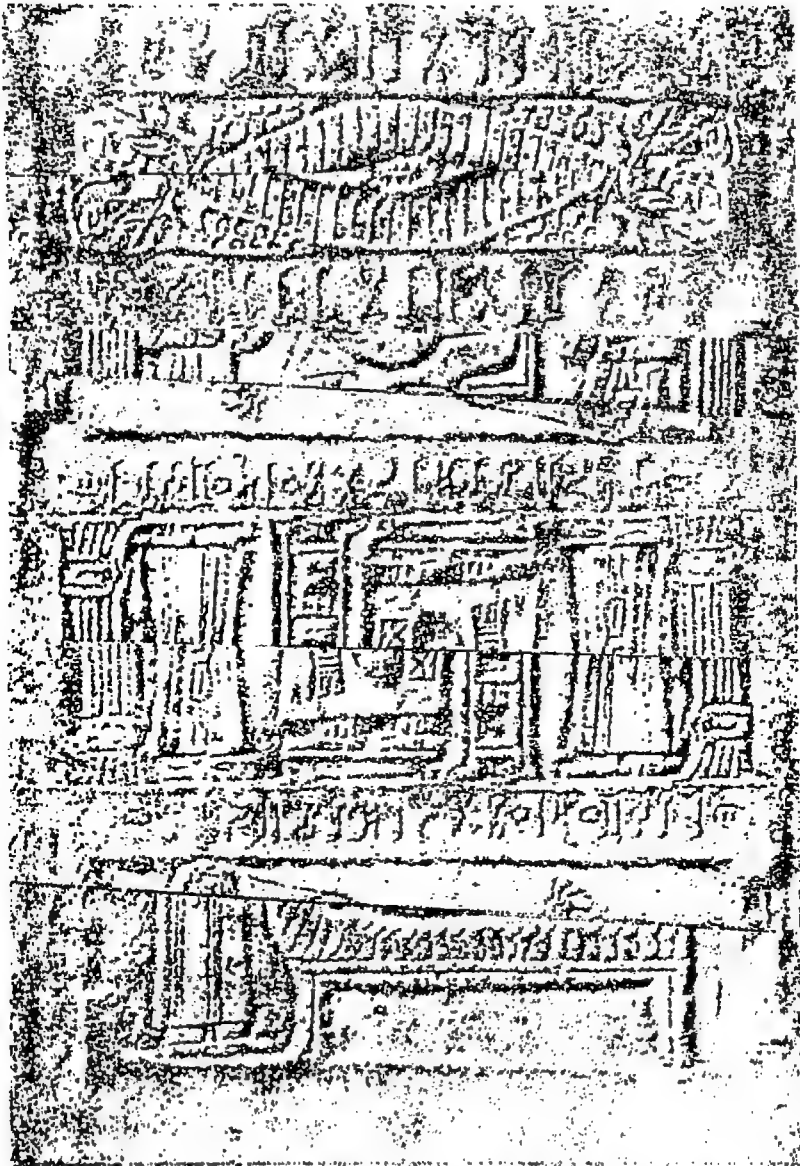
وعثر رجال شركة (أرمكو) على عدد كبير من هذه المقابر على حافات جبل (المدرى) الشمالي ، قدرها (كورنول) بالآلوف ، وعثروا كذلك على عدد آخر من هذه المقابر في جبل (المدرى) الجنوبي ^٤ . وقد حافظت بعض

J.H.D. Belgrave, Welcome to Bahrain, P. 51. ١

Bent, The Bahrain Islands, Proc. Roy. Geogr. Soc. 12, London, 1890, Jouannin, A, "Les Tumuli des Bahrain", Memoirs de la Delegation in Perse, T., VIII, 1905, V., 149-157, Prideaux, F.B., The Sepulchral Tumuli of Bahrain, Archaeological Survey of India, Annual Rep. 1908-1909, Calcutta, Sanger, The Arabian Peninsula, P. 141. ٢

Belgrave, P. 52. ٣

Cornwall, P. 36. ٤



حجر يظهر أنه من الأحجار التي توضع شاهداً على القبور يمثل صورة امرأة يقال لها :
« خلكت بنت مندوت » ويقال لبنت في المريية الجنوبية « بت » أيضاً . وقد توسلت الى
الآله « مشتر » بانزال الويل واليبور على من يتجاسر فيغير هذا الحجر عن موضعه .

هذه القبور على أشكالها محافظة جيدة ، ويشبه بعضها القبور التي عثر عليها (فلي) في الأقسام الجنوبية الغربية من جزيرة العرب^١ . ووجد (كورنول) مقابر أخرى في موضع (الرديف) الواقع على بعد (١١٠) أميال من شمال غربي (الدمام) ، وفي موضع يقع شمال (عين السبح) ، بمسافة أربعة أميال ، حيث بلغ قطر أحد تلك المقابر (٣٣) ياردة وارتفاعه (١٣) قدماً . وقد تمكن من الحصول على هيكل عظمي وعلى فخار وقطع من العاج وقشور بيض للنعام وأسلحة مصنوعة من البرنز^٢ .

وعثر على مقابر في موضع (المويه) الواقع على (١٤٣) ميلاً من شمال شرقي مكة^٣ . وقد وصف (فلي) المقابر التي عثر عليها في (الرويق) وفي مرتفعات (العلم الأبيض) و (العلم الأسود) ، فقال : إن أكثرها قد عث به العابثون ، فأخذوا ما كان داخل الغرف التي كان يوضع فيها الموتى من ذخائر ومواد ، وهي مختلفة الأحجام والارتفاع . ويظهر من وجود هذه المقابر في محال صحراوية بعيدة عن مواضع العمران وفي أماكن لا يقيم فيها الناس ، أن هذه المناطق كانت مأهولة قبل الإسلام ، وأنها كانت ذات تاريخ قديم جداً ، ربما يرجع في رأي (فلي) إلى أيام قدماء (الفينيقيين) وربما كان (الفينيقيون) في رأي (فلي) أيضاً من الأفلاج والخرج ، حيث هاجروا بعدئذ إلى البحرين^٤ . وقد سمع (فلي) بوجود مقابر أخرى من هذا النوع ، تعرف بين الناس باسم (الخشبة) . وسمع (Thesiger) بمقابر أخرى في موضع (رهلة جهمين)^٥ . وعثرت شركة (أرمكو) على مقابر عادية كثيرة العدد في (وادي الفاو) و (القرية) ، لم تحدد هوية أصحابها حتى الآن . وقد زارها (فلي) ووصفها ، وتبين له أن الموضع هو (القرية) ، كان محاطاً بسور ، وجد في داخله آثار بيوت ومقابر ، وبين أنقاض المقابر أحجار مكتوبة تدل على أنها كانت شواهد قبور . وعلى مسافة من (القرية) كتابات وصور حيوانات مثل النعامة والأيل ، وصور أناس نقشت على الصخر^٦ .

Cornwall, P. 36, Philby Sheba's, P. 373. ١

Cornwall, P. 87. ٢

Philby, Sheba's, P. 373. ٣

Philby, Sheba's, P. 373. ٤

Beltrage, S. 16. ٥

Beltrage, S. 12. ٦

ويظهر من وصف (جيرالد دي كوري) (Gerald de Gaury) (وفلي)
 لمقابر الخرج أنها كثيرة العدد ، وأنها في مواضع متعددة من هذه الإيالة عند
 (فرزان) و (السلمية) و (الدلم) ، وهي متفاوتة الأحجام والارتفاع^١ .
 ولم يتمكن (دي كوري) من تعيين تأريخها ، ولا يمكن التثبت من ذلك بالطبع
 إلا بعد القيام بحفريات دقيقة وفحوص للعظام وللمحتويات القبور لمعرفة مكانها في
 التاريخ .

وقد وجد أن أبواب مقابر البحرين قد وضعت في الجهة الغربية ، مما يبعث
 على الظن على أن لهذا الوضع صلة بدين القوم الذين تعود اليهم تلك المقابر .
 وقد وجد أن المواد والأدوات التي عثر عليها في هذه المقابر تشبه المواد والأدوات
 التي عثر عليها في المقابر الأخرى التي عثر عليها في المواضع المذكورة من جزيرة
 العرب . ويظن بعض الباحثين أن أصحاب هذه المقابر كانوا يقيمون في الجهة
 المقابلة لجزيرة البحرين من الجزيرة ، أي على ساحل الخليج ، وكانوا قد اتخذوا
 الجزيرة مقبرة لهم ، فينقلون إليها موتاهم لدفنهم هناك . ومنهم من يرى أن
 تلك المقابر هي مقابر رؤساء الفينيقيين وأشرافهم الذين كانوا يقطنون البحرين ،
 وأن عهد تلك المقابر يرجع إلى ما بين ٣٠٠٠ - ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد^٢ .

وقد عثرت البعثة الدانماركية في سنة (١٩٥٩ م) في البحرين جنوب طريق
 (البديع) على أربع مقابر تبين من فحصها أنها ترجع إلى العصور الحجرية^٣ .
 وعثر السياح على تلال في مواضع متعددة من عمان وقطر ، تبين أنها مقابر
 لعهود سبقت الميلاد .

وليست لدينا الآن دراسة علمية شاملة عن هذه المقابر : مقابر البحرين ،
 ومقابر المواضع المذكورة من جزيرة العرب ، إلا أن آراء من زاروها ورأوها ،
 تكاد تتفق في القول بوجود ترابط في الزمن فيما بينها ، ويرجعون أيامها إلى
 عصر الـ (Chalcolithic) أو إلى العصر البرنزي . ومنهم من يرى أنها من
 العصر البرنزي المتأخر^٤ ، ويرى أن المقابر القائمة على المرتفعات هي مقابر سجاة

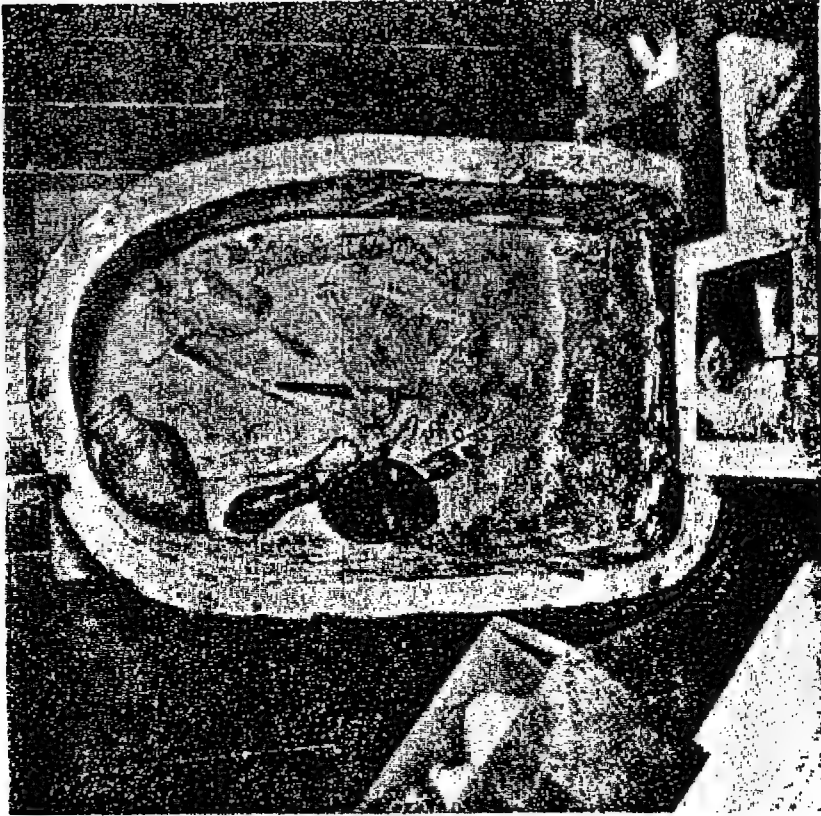
١ Geogr. Journal, Vol. CVI, Numb. 3, 4, Sept-Octo. 1945 P. 152, Philby, Heart
 of Arabia, Vol. 2, P. 26.

٢ Sanger, The Arabian Peninsula, P. 141, Enc. Vol. I, P. 585.

٣ P.V. Glob, Archaeological Investigations in four Arab States, Kuml, 1959, P. 238.

٤ Sanger, P. 141.

من الصيادين أو الرعاة . أما المقابر المقامة على السهول المنبسطة فيرون انها مقابر قوم مزارعين مستقرين^١ .



تابوت من الفخار على شكل حوض وأدواته ترجع الى عام ٦٠٠ قبل الميلاد
من نشرة دائرة الاعلام : حكومة البحرين

ويظن ان المقابر التي عثر عليها في جزيرة (ام النار) في (أبي ظبي) هي مقابر أقوام عاشوا في الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد عثر فيها على هياكل عظمية وعلى خرز وفخار عليه رسوم . وقد كسيت هذه المقابر وغطيت بحجارة منحوتة ، حفرت عليها صور ثيران وجمال وأفاعي وحيوانات أخرى . وقد نحتت

واجهة الحجر المحيطة بالصور لتظهر الصور بارزة عالية^١ . ويظهر من دراستها أنها من عمل أيد أنقنت مهنتها ، وأجادت في فنها بالقياس الى تلك الأزمنة . وهي تحتاج الى دراسة لمعرفة مدى تأثيرها بفنون الشعب الأخرى التي كان لها اتصال بهذه البلاد .

ان هذه المقابر تستحق الدراسة حقاً ، لأنها تتحدث عن وجود روابط فكرية مشتركة بين أصحابها ، وعن احتمال ارتباطهم بعقيدة دينية واحدة . ولا يستبعد أن تكشف بعض القبور السالمة التي لم تعيث بها أيدي البشر العاتية ، عن كتابات مطبوعة في غرفها ، أو عن صور ونقوش ورموز تتحدث إلينا عن هوية أصحابها وعن مكانتهم في التاريخ وفي الحضارة البشرية بالنسبة الى الأيام التي عاشوا فيها . وعندئذ نكون قد انتقلنا الى مرحلة جديدة من مراحل تأريخ العرب القديم ، لا نعرف اليوم من أمرها الا هذا النزر اليسير الذي نتحدث عنه .

ولست أستبعد أيضاً احتمال عثور المتقبين في المستقبل على آثار أصحاب هذه المقابر في مواضع لا يمكن أن تكون بعيدة عنها ، اذ لا يعقل أن يكون ذور أرحام الموتى قد سكنوا في مواضع قصية نائية عنها . وأن قوماً لهم هذه المهمة في عمل هذه القبور ، لا بد أن يكونوا على درجة من الحضارة . والمخلفات التي عثر عليها في بعض هذه القبور هي خير شاهد على ذلك . فقد عثر فيها على حلي وعلى أوان من الفخسار وعلى آثار أخرى مصنوعة تظهر براعة في الصنعة والالتقان . ولا يستبعد العثور على أمثالها في مستوطناتهم متى عثر عليها .

هذا ، وقد عثر بعض السياح على قبور جاهلية في حضرموت وفي اليمن وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب ، الا أن هذه المقابر هي أحدث عهداً من تلك ، ثم انها قبور نحتت في الصخور نحتاً ، ولم تعمل على هيئة تلال على النحو الذي وصفناه . ولـ (كارل راتجن) (Carl Rathjens) وصف مفصل لمقابر منحوتة زارها تقع على مقربة من مدينة (كوكبان) في اليمن . وهي كثيرة منحوتة في جانب الجبل ، منها المنفردة المنعزلة ومنها ما نحتت بعضها فوق بعض . وقد وجد أن أكثرها قد لعبت بها الأيدي ، فأخذت ما كان فيها ، فخلت من كل شيء . وقد عثر على كتابة سبئية عند أحد أبواب هذه المقابر ، مما يدل على

١ تقرير شامل من الحفريات الاثرية في جزيرة « فيلكا » ، ١٩٥٨ - ١٩٦٣ م ، الكويت (ص ٢٤) .

انها كانت لقوم من سبأ^١. ولا يستبعد بالطبع أن يكون أولئك الناس قد توارثوا هذا النوع من القبور من أسلاف لهم كانوا قد نحتوها .

وعلمنا بأحوال جزيرة العرب في العصور (البرنزية) ، لا يزيد على علمنا بالعصور الحجرية فيها . فهي ضحلة يسيرة ، لأن ما عثر عليه من مخلفات تلك العصور ليس بشيء يذكر ولا يكفي لاستنباط آراء منه . ولا يستبعد بالطبع احتمال عثور المتقنين في المستقبل على آثار قد ترجع الى هذه العصور ستهتك الحجب التي تحول الآن بيننا وبين التعرف على تلك الحقب القديمة من تأريخ الجزيرة . وقد وجدت (البعثة الدانماركية) التي نقتب في جزيرة (فيليكا) من جزر الكويت على آثار من هذه العصور^٢ ، إلا أن ما عثر عليه لا يكفي لإعطاء رأي علمي كاف عن العصور البرنزية في هذه الأرضين .

وقد عثر في جزيرة (فيليكا) على آثار سكنى وبقايا أبنية ومياكل يرجع عهدها الى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تبين أن هذه الجزيرة والجزر الأخرى الواقعة في الخليج كانت ملاجئ يلجأ إليها أصحاب السفن والتجار في تلك الأزمنة للاستراحة ولشراء ما يجدونه عند أهل السواحل المقابلة ، وللتمون بما يحتاجون اليه من ماء وزاد . ولأهميتها هذه اهتمت بها وبالسواحل المقابلة لها حكومات العراق ، فاستولى عليها الأكاديون والآشوريون واليونان .

وقد عثر على مواد مصنوعة من حديد من العصر الحديدي ، غير أنها قليلة لا يمكن أن تكون لنا رأياً واضحاً من العصور الحديدية في جزيرة العرب . وعثر على بقايا ججاجم بشرية في (الظهران) تبين من دراستها وفحصها على أنها من العصور (البرنزية)^٣ .

وتدل الأدوات المكتشفة على قلتها على أن شعوب جزيرة العرب حتى في الأزمان البعيدة عن الميلاد كانت على اتصال بالعالم الخارجي ولا سيما العراق وبلاد الشام وحوض البحر المتوسط والقارة الإفريقية، وأنها كانت تستورد منها ما تحتاج

١ Carl Rathjens, Sabaelica, I, S. 105.

٢ تقرير شامل عن الحفريات الأثرية في جزيرة فيليكا ، ١٩٥٨ - ١٩٦٣ م الكويت مطبعة الحكومة ، من منشورات وزارة التربية والتعليم ، (ص ٩) .

٣ H. Field, Papers of the Peabody Museum, 48/2, (1956), 58, A. Grohmann, Arabien, S. 15.

اليه من مواد وتبييع لها ما عندها من سلع خام أو من سلع تستوردها من السواحل الإفريقية أو الهند ، وأنها لم تكن في يوم من الأيام بمعزل عن بقية العالم .
والعراق وبلاد الشام ، أي الأرضون التي يقال لها (الهلال الخصيب) في الزمان الحاضر ، هي من الناحية الطبيعية وحدة لا يستطيع فصلها عن جزيرة العرب ، وامتداد طبيعي لها ^١ . وليست البادية الواسعة التي تملأ باطن الهلال إلا جزءاً من جزيرة العرب ، وامتداداً لها ، لا يفصلها عنها فاصل ، ولا يحد بينها حد ، وإذا ما تنقلت من بادية الشام الى بوادي المملكة العربية السعودية ، فلا تجد أمامك شيئاً يشعرك بوجود فروق بين طبيعة هذه الأرضين الواسعة ، أو وجود حواجز تمنع سكانها من الهجرة نحو الشمال أو الى الجنوب ^٢ . ولهذا كان من الطبيعي تنقل الناس في هذين الأرضين منذ وجدوا فيها وظهروا عليها بكل حرية ، وبحسب الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية .

وتأريخ ظهور العرب في بادية الشام وفي أطراف الهلال الخصيب ، تأريخ قديم جداً ، ولكننا لا نستطيع تحديد مبدئه ، ولا تثبيته ، لأننا لا نملك أدلة علمية تعينه وتحدده . ثم ان كلمة (العرب) لم تكن تعني عند الشعوب التي عاشت قبل الميلاد ، غير معنى (أعراب) ، وكانت اذا ما ذكرت لفظة (عرب) تقصد البدو على نحو ما ذكرت في الفصل الأول في تحديد معنى هذه اللفظة . أما العرب المستقرون ، أو شبه الحضرة ، فقد عرفوا عندهم بأسمائهم ، ولهذا اشتبه أمرهم علينا ، وعسر على العلماء تعيين هوياتهم ، لعدم نص الكتابات أو الكتب القديمة على أنهم عرب بمعنى جنس للسبب المذكور ، فصرنا في حيرة من أمرهم ، وفي التوراة أسماء قبائل كثيرة ، نسبت الى آباء وأجداد ، يجب أن تعد من العرب ، ولكن التوراة لم تطلق عليها لفظة (عرب) ، لأنها لم تكن قبائل بدوية وليست اللفظة فيها الا بهذا المعنى ، فحار العلماء في تعيين أصل كثير منها ، وما زالت حيرتهم هذه حتى اليوم . وليس من المستبعد أن يكون بين الشعوب القديمة شعوب عربية ، الا انها لم تعد من العرب لأن اللفظة لم تكن علماً على جنس قبل الميلاد .

١ الهلال الخصيب (Fertile Crescent) اصطلاح أطلقه « برستيد (H. Brested) لأول مرة بهذا المعنى ، على القوس المتكون من العراق وبلاد الشام .

٢ Franz Stuhlmann, Der Kampf um Arabien, S. I.

وإذا ما أخذنا بنظرية القائلين ان جزيرة العرب هي مهد الساميين ، جاز لنا أن نقول عندئذ ان معظم أهل الحصب والبادية هم من معمل تفريخ الجنس السامي الكائن في تلك الجزيرة ، وان ذلك المعمل هو الذي أمدّ هذه الأرضين الممتدة من إيران الى البحر المتوسط بسلالات الساميين . فصلة جزيرة العرب بالهلال الحصب صلة قديمة ترجع الى الأيام الأولى من أيام الساميين ، على هذه النظرية ، وربما ترجع الى أقدم من تلك الأيام .

وسنرى فيما بعد أن حكام العراق كانوا قد استولوا على العروض في الألف الثالثة أو قبلها قبل الميلاد ، وانهم نزلوا في البحرين وفي جزر أخرى من جزر الخليج ، وان أصل الفينيقيين هو من البحرين في رأي كثير من العلماء ، منها هاجروا الى أرض (فينيقية) وسواحلها ، وما كان ذلك ليتم لو كانت جزيرة العرب بمعزل عن الهلال الحصب أو عن بادية الشام ، أو ان الهلال والبادية كانا بمعزل عن جزيرة العرب .

وقد ذكر ان جماعة من تجار (أور) كانوا يتاجرون في حوالي السنة ٢٠٠٠ ق.م مع البحرين . وكانوا قد أنشأوا أسطولاً لنقل التجارة^١ . ويقال ان (سرجون) الأكادي استولى في حوالي السنة (٢٣٠٠ ق.م) على البحرين وقطر ، وان البحرين كانت في حوالي السنة (١٧٥٠ ق.م) في يد قبيلة اسمها (أكاروم) (أجارم) (Agarum) ، وهو اسم قريب من (أجرم) ، وانها كانت تدفع الجزية الى الملك (اسرحدون)^٢ . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (Agarum) هم أهل مدينة (هجر) التي هي الأحساء^٣ .

وقد كانت العلاقات التجارية مستمرة دوماً بين البحرين وبيت العراق . إذ كانت (دلمون) محطة مهمة جداً للتجارة بين الهند وإفريقية وسواحل الخليج والعراق . تستورد الأخشاب من الهند ومن إفريقية كما تستورد الحاصلات الأخرى وتنقل النحاس من عمان ، فتبيع ذلك الى جنوب العراق ، وربما حلت تلك التجارات بسفن يملكها أهل (أور) أو غيرهم خلال نهر الفرات ، لنقلها من

١ P.V. Glob, Bahrain, Kuml, 1954, 103, Bahrain Oldtidshovedstad, Kuml, 1954, 169.

٢ Arabien, S. 257, H. Field, Ancient and Modern Man in Southwestern Asia, 108, Archiv fuer Orientforschung, 16, (1952-1953), 6-8.

٣ Arabien, S. 257

هناك الى بلاد الشام ومنها الى البحر المتوسط لبيعها الى أهل اليونان وبقية أرجاء (أوروية) . وقد تبين من الأخبار التي تعود الى أيام الأسرة الثانية من أسر (أور) أن سفن ذلك الوقت (٢٢٠٠ - ٢١٠٠ ق. م) كانت تقوم برحلات منتظمة فيما بين البحرين و (أور) ، وذلك لنقل ما يرد الى هذه الجزيرة من نحاس ومن أحجار ثمينة من عمان ، ومن ذهب وأخشاب وأفاويه ومواد أخرى ثمينة من الهند .

وقد نزلت جاليات عراقية في البحرين ، كما هاجرت جاليات من البحرين الى العراق فسكنت به . وما الإله (انزاك) (Inzak) الذي عبد في جنوب العراق وشيدت المعابد باسمه ، إلا علامة على هجرة أهل البحرين الى العراق ، وتأثر أهل العراق به . فهذا الإله هو إله أصله من آلهة أهل البحرين . وانتقال عبادته الى العراق دليل على تأثر العراقيين بثقافة أهل البحرين ، ونقل أهل البحرين له معهم الى وطنهم الجديد .

وقد كانت البحرين ترتاح كثيراً عند انشغال أهل العراق بالتحارب فيما بينهم ، أو بانشغال الحكومات المهيمنة عليه بمحاربة جيران العراق من الدول القوية الكبيرة ، اذ تلهيهم تلك الحروب عن التفكير في السيطرة على البحرين وابتزاز الأموال من أهل الجزيرة ، وتكون مثل هذه الظروف فرصة ثمينة للدلونيين ، إذ يجدون أسواقاً رائجة تشتري منهم ما يأتون به الى جنوب العراق ، كما يجدون الحكومات مشغولة في معالجة مشكلاتها فلا تشتط كثيراً في أخذ الضرائب من أولئك التجار .

والكتابات الآشورية ، هي أقدم سجل ، لا شك في ذلك ، يشير الى وجود (العرب) في الأرضين الواسعة الممتدة من الفرات الى مشارف بلاد الشام . ولكن العرب فيه هم أعراب ، لا أقل من ذلك ولا أكثر : أعراب متنقلون في الغالب ، هائمون في البادية حيث الماء والكلاء والارتزاق من الغارات على الآشوريين وعلى غيرهم . والى هذه الغارات يعود ، ولا شك ، فضل اضطراب الآشوريين الى الإشارة اليهم في تلك الكتابات ، ولولاها لما ذكروا فيها ولا أشير اليهم . وقد وجد هؤلاء الأعراب قبل زمان هذا التسجيل بأمد طويل من دون ريب ، ومن يدري ؟ فقد يعثر على كتابات جديدة من زمن سحيق ، يسبق زمن الكتابات

الآشورية ، يرد فيها شيء من الأعراب فترتفع بذلك معارفنا عنهم الى زمن أبعد من هذا الزمن المنصوص عليه في كتابات الآشوريين .

أما الموارد الإسلامية ، فقد اضطربت في تعيين الزمن الذي ظهر فيه العرب في بادية الشام ومشارقتها وفي العراق ، ولكنها كلها لا تعرف تأريخاً يسبق التاريخ المذكور في النصوص الآشورية . وما ذكروه عن ظهور العرب في هذه البلاد ، فهو مأخوذ من قصص اسرائيلي . ويظهر من رواية (لهشام بن محمد الكلبي) أن العرب كانوا في أرض العراق في أيام (بختنصر) ، وأنهم كانوا تجاراً يقدمون العراق للتجارات ، وذلك في أيام (معد بن عدنان) ، وأن (بختنصر) جمع من كان في بلاده من العرب حين همّ بغزو العرب في جزيرتهم ، اذ نزل وحي من الله على (برخيا) ، فبنى لهم (حبراً) على النجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه ، ووكل بهم حرساً وحفظةً ، ثم نادى في الناس بالغزو . وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب ، فخرجت اليه طوائف منهم مسلمين مستأمنين ، فأنزلهم (بختنصر) السواد على شاطئ الفرات ، فابتنوا عسكرهم بعد ، فسموه (الأنبار) : وخلصى عن أهل الحيرة ، فاتخذوها لهم منزلاً . فهذا كان مبدأ نزول العرب في العراق .

ويظهر من رواية أخرى (لابن الكلبي) كذلك ان الذي أنزل العرب في العراق هو (تبع) ، فالعرب الذين نزلوا الحيرة والأنبار هم قوم يمانون . و (تبع) هذا حكم - على زعمه - بعد (ياسر انعم) ، الذي حكم بعد بلقيس ، وهو (تبان أسعد) ، وهو (أبو كرب بن ملكي كرب بن تبع ابن زيد بن عمرو بن تبع) ، وهو (ذو الأذعار بن أبرهة تبع ذي المنار ابن الرائش بن قيس بن صيفي بن سبأ) ، وكان يقال له (الرائد) . وقد خرج من اليمن حتى نزل على جبلي (طيء) (جبل شمر) ، ثم سار يريد (الأنبار) . فلما انتهى الى (الحيرة) ليلاً ، تحير فأقام مكانه ، فسمي ذلك الموضع (الحيرة) . ثم سار ، وخلف به قوماً من (الأزد) و (الحمْ) و (جدام) و (عاملة) و (قضاة) ، فبنوا وأقاموا به ، ثم انتقل اليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسكون و (بلحارث بن كعب) و (إيساد) ، ثم توجه

الى (الأنبار) ثم الى (الموصل) ، ثم الى (أذربيجان) ، فلقي الترك ، ثم انكفأ راجعاً الى اليمن . وأقام العرب في العراق . ففهم من قبائل العرب كلها من بني الحيات وهذيل وتميم وجعفي وطيء وكتب .^١ . فهذا كان مبدأ نزول العرب السواد من أرض العراق .

وحكى (الطبري) رواية أخرى عن (ابن الكلبي) متممة للرواية الأولى عن نزول العرب أرض العراق ، خلاصتها : أن العرب الذين أسكنهم (بختنصر) الحيرة ، انضموا بعد وفاة هذا الملك الى أهل (الأنبار) ، وبقيت الحيرة خراباً . فلما كثر أولاد (معد بن عدنان) ومن كان معهم من قبائل العرب ، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليهم ، فرقتهم حروب وقعت بينهم ، وأحداث حدثت فيهم ، فخرجوا يطلبون التسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارف الشام ، وأقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين ، وبها جماعة من (الأزد) كانوا نزلوها في دهر (عمران بن عمرو) من بقايا (بني عامر) ، فاجتمع بالبحرين جماعة من قبائل العرب ، فتخالقوا على (التنوخ) ، وهو المقام ، وتعاقدوا على التآزر والتناصر ، فصاروا يداً على الناس ، وضمهم اسم (تنوخ) . وتطلعت أنفس من كان يابحرين من العرب الى ريف العراق ، وطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب منه ، أو مشاركتهم فيه ، واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف ، فأجمع رؤساقهم على المسير الى العراق ، ووطن جماعة ممن كان معهم على ذلك ، فكان أول من طلع منهم (الحيقار بن الحيق) في جماعة قومه وأخلاق من الناس ثم أعقبتهم موجات أخرى استقرت في الحيرة والأنبار وغيرهما من الأماكن بعد أن تغلبوا على (الأرمانين)^٢ .

وروي عن (ابن الكلبي) أن (أردشير) لما استولى على الملك بالعراق ، كره كثير من (تنوخ) أن يقيموا في مملكته ، وان يدبوا له ، فخرج من كان منهم من قبائل (قضاة) الذين كانوا أقبلوا مع (مالك وعمرو ابني فهم) و (مالك بن زهير) وغيرهم ، فلحقوا بالشام الى هناك من قضاة . ثم وصلت اليهم جموع أخرى من قبائل العرب ، فكفروا بمالك وأمارات ، سوف أنحدث عنها^٣ .

١ الطبري (٣/٢) « المطبعة الحسينية » .

٢ الطبري (٥٩/٢) « المطبعة الحسينية » .

٣ ابن خلدون (٢٧٨/٢) .

هذا ما وصل اليه علم الأخباريين عن العرب في الهلال الخصيب ، وهو علم لا يستند بالطبع الى نصوص عربية جاهلية ، وإنما أخذ من روايات شفهية ، وأخبار وردت على ألسنة الأخباريين ومن روايات أهل الكتاب .

ومن الخطأ بالطبع أن نتصور أن وجود العرب في بادية الشام وشاطئ الفرات وأطراف دمشق يرتقي إلى أيام الآشوريين ، أو قبل ذلك بقليل . فوجود العرب في هذه الأرضين هو أقدم من هذا العهد بكثير . وإذا كنا قد أشرنا الى وجودهم في المواضع المذكورة في هذا العهد ، فلأن الكتابات الآشورية هي أقدم كتابة وصلت إلينا ووردت فيها إشارة الى العرب ، وإلا فإن العرب هم في هذه الأرضين قبل هذا العهد بكثير . في عهد لا نستطيع بالطبع تعيين ابتدائه ، لأن هذه الأرضين هي امتداد لأرض جزيرة العرب ، والتنقل بينها وبين جزيرة العرب هو تنقل حرّ ليس له حاجز ولا حدود ، فلا نستطيع إذن أن نقول متى سكن العرب بادية الشام .

وقد لاقت القبائل العربية مقاومة شديدة وعتماً شديداً من الحكومات التي حكمت العراق والحكومات التي حكمت بلاد الشام ، فقد وقفت تلك الحكومات منذ الدهر الأول لها بالمرصاد ، وأبت أن تسمح لها بالتوغل في داخل أرضها التي تحكمها حكماً فعلياً ، ذلك لأنها كانت تهاب الأعراب وتخشى من البداوة ، إذ لم يكن من السهل على البدو تغيير سننهم واقتباس سنن الحضار ، ثم إنهم كانوا يغيرون على الحضار وعلى الحدود لأخذ ما يجدونه أمامهم . وقد ترك غزو الأعراب للحدود أثراً سيئاً راعياً في نفوس الحكام جعلهم لا يتساحون في دخول البدو الى أرض الحضارة ، ما دامت للحكام قوة ، ولم يتساهلوا معهم إلا بالوصول الى حدود الحضارة ومشارفها ، وذلك لأنهم نصبوهم حرساً لهم ، بمنع القادمين الجدد من البادية من الدنو من أرض الحضارة ، ويدافع عن الحدود ساعة الخطر ، ويهاجم مع القوات النظامية للحكومة الحاكمة أرض العدو في الحروب ، وفي أيام السلم لإلقاء الرعب والفرع في نفس العدو وإكراهه على تنفيذ مطلب يراد منه .

وقد اضطرت الحكومات الى دفع أكل وطعم وهبات وعطايا سخية لسادات القبائل الحراس في مقابل قيامهم بحراسة الحدود . إذ لم يكن في استطاعة تلك الحكومات القيام بها بنفسها ، ولا سيما في تعقب الأعراب وملاحقتهم في البوادي وغزو أعراب العدو ، فصارت لسادات القبائل جمعات سنوية وهدايا والطفاف

وبعض امتيازات لاسترضائهم وإسكاتهم ما داموا أقوياء أعزاء ، وجعلت معهم في بعض الأحيان حاميات من قوى تلك الحكومات عليها سياسيون وقادة لمراقبة أعمال سادات القبائل والحد من غلوائهم ، ولمساعدتهم عند ظهور سيد آخر قوي منافس في الميدان يريد مهاجمة الحدود أو انتزاع الرئاسة من سيد القبيلة صاحب الامتيازات. والحكومات هم عادة الى جانب سادات القبائل ما دام السادات أقوياء أعزاء. فلما بدا الوهن عليهم ، وتبين أن الأمر قد أفلت من أيديهم ، وإن سادات جدداً أصحاب كفايات وقُدَر ورؤساء أقوى من رؤساء القبائل القديمة قد برزوا في الميدان ، وقد أخذوا على أيدي السادات القديمي ، وأن المصلحة تقتضي الآن التحول من القديم الى الجديد ، تحولت تلك الحكومات الى السادات الجدد ، وانفقت معهم على شروط مرضية ، للقيام بأداء المصالح والواجبات المذكورة حتى يظهر منافس جديد ، يتناول على القديم فيأخذ مكانه . وهذا هو سر تعدد حكم سادات القبائل ، وانتزاع قبيلة الحكم من قبيلة أخرى ، وتغير حكم (آل فلان) و (آل فلان) ، وحلول حكم قبلي محل حكم قبلي سابق .

وسادات القبائل هم على هذه السنة أيضاً ، فكانوا اذا وجدوا ضعفاً في الحكومة المهيمنة على العراق أو على بلاد الشام وأدركوا انها في وضع حرج ، تقدموا اليها بمطالب جديدة وبشروط جديدة ، تكون متناسبة مع حرجة الموقف. فإذا لم تجب قام سيد القبيلة بتهديد مصالح الحكومة ويغزو أرضها أحياناً ، وقد يفاوض العدو للاتفاق معه عليها ، وقد يثور ويخرج عن طاعتها ، ويظل هذا شأنه حتى تجاب مطالبه ، أو يتفق معها على شروط يرضى عنها . وينطبق هذا الوضع على الأعراب الذين يجاورون الحضر ، فعلى الحضر دفع جعالة الى سيد الأعراب في مقابل حمايتهم لهم ومنع القبائل الأخرى المجاورة من الإغارة على أولئك الحضر . ويتقيد هؤلاء السادة بعهودهم مع الحضر ما دامت في مصالحهم. أما اذا رأوا أن الحضر في وضع حرج وأن الحكومة التي ترعاهم ، أو حكومة المدينة ضعيفة غير قادرة على الدفاع عن نفسها ، فإن الأعراب يفرضون على الحضر مطالب جديدة ، ويأخذون منهم امتيازات اضافية مثل حق الارتواء من الآبار ومن مجاري الماء ، وحق رعي ماشيتهم في زرع الحضر ، الى غير ذلك من شروط ، يضطر الحضر الى الموافقة عليها للمحافظة على حياتهم وأموالهم ، والا تعرضوا للغزو ولكوارث أخرى قد تنزل بهم أضراراً تزيد على ما يطلبه

الأعراب منهم بكثير .

وللسيطرة على حركات الأعراب ولضبطهم ، أقامت حكومات العراق وبلاد الشام لها (مسالحيات) ، أي مواضع حصينة تعسكر فيها قوات نظامية في البادية ، يرأسها ضباط ، وضعت فيها كل ما يحتاج إليه من سلاح ومؤن وذخائر وقوات كافية للقيام بمثل هذه المهام الخطيرة في البوادي . وقد حفرت لها آباراً للارتواء منها ، ونصب ضباط هذه الحصون أنفسهم حكاماً يتحكمون في البوادي التي يشرفون عليها ، يفضون مشكلات القبائل ، ويحافظون على الأمن ، ويراقبون تحركات الأعراب وتنقلاتهم ، ليكونوا على حذر منهم ومن غزواتهم المفاجئة للحدود . وقد بقيت هذه (المسالحيات) إلى أيام فتوح المسلمين للعراق وبلاد الشام . وكان من واجبات هذه الحصون توزيع الأرزاق على الأعراب أيام الشدة والضيق ، والتقرب إلى سادات القبائل ، وعقد صداقات معهم ليستفيد منهم في كسب جراح أبقاعهم ، ويحولوا دون تحرشهم بهم ، ولئلا يقوموا بمهاجمة الحدود . وكان أقصى مكان مسموح للعرب بالوصول إليه هو الشاطئ الغربي لنهر الفرات ، وحدود الحضارة لبلاد الشام وأعالي البادية ، أي قصر البادية الأعلى . أما ما وراء ذلك ، فكان من الصعب على العرب الوصول إليه ، لتشدد الحكومة في منعهم من الدنو منه ، وتصلب الحضر تجاههم . ولم يدخله من العرب إلا أفراد أو جماعات تنكرت للبادية ولسننها ، وكفرت بسنة الغزو ، ورأت في الزراعة وفي احترام الحرف شرفاً لا يقل عن شرف رعي الإبل والتنقل بها من مكان إلى مكان . أما الذين وقفوا عند هذه الحدود ، وهم السواد الغالب ، فقد بقوا على سنن البادية ، مخلصين لها مؤمنين بحق الغزو والقوة ، إلا من اشم رائحة الحضارة وتنفس قليلاً من ريح الحضارة ، وجاور الفرات ومشارف الشام ، حيث تلوح معالم الحضر ، فقد طور نفسه بعض التطور ، واستقر في الأرض بغض الشيء وصار وسطاً بين الحضارة والبداءة ، لا هو حضري كسل الحضري ، ولا هو أعرابي تام الأعرابية ، وإنما وسط بين بين ، ومنزلة بين المنزلتين .

ولم يكن من الممكن للأعرابي أن يدرك قيمة الزرع والغرس وحياة الاستقرار لأن الماء وهو جوهر الزرع غير متوافر لديه ، ولأن الأمن غير موجود عنده ، فهو متى زرع واستقر وكون مجتمعاً حضرياً صغيراً ، هاجمه من هم على شاكلته من أهل البادية وسلبوه كل ما لديه . ومجتمعه مجتمع صغير لا يستطيع الاعتماد

على نفسه والركون الى قوته في صد عادية الغزاة ، لذلك حالت هذه الظروف دون السكنى والزرع والاستقرار . إلا في الأماكن التي وجدت فيها مياه ، وتوافرت لديها القوة ، كما لم يكن من السهل على سادات القبائل اكراه أتباعهم على الاستيطان والسكنى في بيوت من مدر ، ذلك لأنهم هم أنفسهم أبناء بادية ، وآراؤهم آراء أعرابية ولا يفكر في هذه الشؤون إلا من كان حضرياً مستقراً ومن ولد ونشأ وتثقف في أرض الحضارة . ثم إن تنفيذها يستدعي وجود مال وأمن وقوة رادعة تمنع الأعراب من إفساد ما يقوم به الحضري من عمل مجهد . ولم تكن هذه متوافرة عند سادات القبائل ، ولم يكن في وسع سيد القبيلة الذي يجب أن يكون محتسماً بقطاً حتى لا يفاجئه منافس طامع من أهل البادية فيأخذ مكانه ، أن يأمر قومه بالاستيطان ، ووضعهم على هذه الحالة من القلق وعدم الاستقرار . لذلك قضت طبيعة هذه البيئة على غالبية الأعراب التي جاءت الى هذه الأماكن بأن تعيش عيشة أعرابية أو عيشة رعي ، تعيش على ماشيتها بدلاً من الاستقرار استقراً دائماً والاشتغال بالزراعة والتجارة بالزرع .

لقد كانت القبائل العربية قد توغلت في (طور سيناء) منذ القدم . ولا بد أن تكون هذه القبائل قد نزلت مصر أيضاً ، فمن يصل الى (طور سيناء) يكون قد طرق أبواب مصر . ذهبت تلك القبائل الى مصر تحمل اليها مسا عندها من سلع ، وفي جملتها البخور والمر والخصالات الأخرى التي عرف العرب بالتجارة بها ، غير أننا لا نملك وبالأأسف نصوصاً تاريخية نستطيع أن نعتمد عليها في اثبات ذلك الاتصال . نعم ، عثر على صور ومدونات مصرية للسلالات الملكية الأولى ، تشير الى البدو ، والبدوي هو (عمو) في اللغة المصرية^١ . غير أننا لا نستطيع أن نؤكد أن أولئك البدو ، هم أعراب من أعراب طور سيناء ، أو من بدو مصر أو من أعراب جزيرة العرب .

والذين يتحدثون اليوم عن صلات السلالات الملكية المصرية القديمة بالعرب وبلاد العرب ، إنما يتحدثون عن حدس وتخمين ، لا عن وثائق ونصوص أشير فيها صراحة الى العرب والى بلاد العرب ، وإن كنا لا نشك كما قلنا بوجود وجود صلات قديمة جداً ربطت بين مصر وبلاد العرب ، لا سيما أن مصر متصلة

Breasted, Ancient Records of Egypt, Vol. I, 450, 483, O'leary, Arabia, P. 28, Naval, P. 214.

فعلاً بجزيرة العرب من ناحية البر عن طريق (طور سيناء) ، ثم لأنها على الساحل المقابل للجزيرة ، فلا بد أن يكون هناك اتصال بري وبحري قديم بين الغرب والمصريين . ولا يستبعد احتمال عثور المنقبين في المستقبل على آثار قد تتحدث عن هذا الاتصال .

يظهر من أقوال (هيرودوتس) و (بلينيوس) ، وغيرهما من (الكلاسيكيين) ، ان الأقسام الشرقية من (مصر) ، ولا سيما المناطق المتصلة بـ (طور سيناء) كانت مأهولة بقبائل عربية . وقد ذكرت أسماء عدد منها في كتب هؤلاء^١ . ولم تستقر هذه القبائل في أيام هؤلاء (الكلاسيكيين) ، بل سكنت قبلهم بأمد طويل كما يظهر ذلك من كتبهم . وقد أطلق (الكلاسيكيون) على البحر الأحمر اسم (الخليج العربي) (Arabici Sinus) (Sinus Arabicus) ، وفي هذه التسمية معنى يشير الى نفوذ العرب وهيمنتهم على هذا البحر^٢ .

ومعارفنا بصلات العرب بالحكومات العراقية القديمة ، مثل حكومة السومريين والأكديين (الأكاديين) ، لا تزيد على معارفنا المذكورة بصلات المصريين بالعرب ، فهي حتى الآن قليلة ضئيلة ، ولكن ضالة ما لدينا من معلومات لا يمكن أن تكون سبباً في الحكم بعدم وجود صلات وثيقة بين سكان الخليج وسكان العراق ولا سيما القسم الجنوبي منه في أيام السومريين ، بل وقبل أيامهم أيضاً ، فالعراق هو امتداد طبيعي لتربة ساحل الخليج ، وهو جزء طبيعي من جزيرة العرب . وهو من ثم لا يمكن أن يكون بمعزل عن أرض الساحل وعن بقية أرض جزيرة العرب .

وقد يكون لاسم أرض (دلون) ، وهي أرض السلامة والنظافة ، والأرض التي لا تعرف الموت ولا الأمراض والأحزان ، والتي لا ينعب فيها غراب ، ولا ترفع الطيور أصواتها بعضها فوق بعض ، والتي لا تفرس أسودها ، ولا يأكل ذئب فيها حملاً ، الجنة في الأسطورة السومرية ، علاقة بـ (دلون) التي هي جزيرة البحرين في لغة قدماء أهل العراق . وقد حوّل الخيال السومري ، أو خيال من عاش قبلهم على تلك الأرض الى أرض مسالمة مثالية لا قتال فيها ولا موت

Herodotus, Vol. I, P. 118, 120, 190, 196, Pliny, Natr. Hist. Vol. II, Bk. VI, 165 P. 463ff. ١

Forster, II, 154. ٢

ولا حزن ، استمده من تلك الجزيرة المسألة الواقعة في الخليج^١ .

وبحادثنا نص كتب عن فتوحات (لوكال - زكه - مي) (Lugal-Zagge-Si) (٢٤١٠ - ٢٣٧١ ق.م.) ، وهو من رجال السلالة الثالثة من ملوك (الوركاء) (Uruk) ، أن فتوحاته كانت قد امتدت من (البحر الأسفل) (الخليج العربي) الى (البحر الأعلى) (Upper Sea) ، أي البحر المتوسط . ومعنى هذا ان حكمه كان قد شمل الخليج العربي^٢ .

وفي أخبار (سرجون) الأكدي ، المعروف بـ (شروكين) (Sharru-Kin) (٣٣٧١ - ٢٣١٦ ق.م.) ، أي العادل ، أن فتوحاته بلغت (البحر الجنوبي) (البحر التحتاني) (البحر الأسفل) ، أي الخليج العربي ، وأنه استولى على مواضع منه^٣ . و (سرجون) ، هو أقدم ملك أكدي ، يقص علينا خبر وصول الأكديين الى تلك الجهات .

وبلاحظ أن قدماء العراقيين كانوا يطلقون على البحر المتوسط (البحر الأعلى) ، وعلى الخليج العربي (البحر الجنوبي) (The Lower Sea)^٤ . وذهب بعض العلماء الى أن المراد من (البحر الأعلى) بحيرة (وان)^٥ .

وقد أرسل الملك الأكدي (منشوسو) (Manishtusu) (٢٣٠٦ - ٢٢٩٢ ق.م.) حملة عسكرية بحرية ، يظهر أنها ركبت السفن من الجزء الجنوبي الغربي من ايران من (شريكم) (Shirikum) ، فعبرت الخليج (البحر الأسفل) الى الساحل المقابل ، أي الساحل الشرقي لجزيرة العرب . ولما وصلت سفنه الساحل ، تجمع ملوك (المدن) ، وبلغ عددهم (٣٢) ملكاً ، وقرروا محاربة جنوده ، غير أن جنوده انتصروا - كما يقول ملك أكد - على جنود ملوك المدن ، واندحر أهل الساحل ، واضطروا الى الاستسلام والخضوع ، وسلمت تلك المدن له . وبذلك فرض سلطان (أكد) عليها الى موضع (مناجم الفضة) . وقد استولى على الجبال جنوب (البحر الأسفل) ، وأخذ ما وجد

١ Ancient Iraq, P. 94.

٢ Ancient Iraq, P. 122.

٣ Ancient Iraq, P. 129.

٤ W. F. Leemans, Trade in the Old Babylonian Period, P. 4, Leiden, 1960.

٥ Reallexikon der Assyriologie, I, Fünfte Lieferung, S. 374.

فيها من أحجار ، فصنع منها تماثيل قدمها نذراً للإله (انليل) (Enlil)^١ . وأغلب الظن أن مراد الملك من الجبال أسفل (البحر الأسفل) هي أرض عمان ، وهي أرض متصلة من البحر بالبحرين وبالعراق من البر والبحر ، كما أن تحرك السفن من جنوب غربي إيران ، أي من الأرض العربية المسماة بـ (عربستان) في الزمن الحاضر إلى الساحل المقابل ، أي ساحل جزيرة العرب الشرقي ، يحمل الذهن إلى أن الجبال التي ذكرها الملك هي جبال عمان ، وإذا صح هذا الرأي ، يكون هذا الملك الأكدي قد وصل في فتوحاته إلى أرض عمان .

وجاء في كتابة مبدونة على تماثيل الملك (نارام سن) (نارام سن) (نارام سين)^٢ (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق. م)^٣ . أنه أخضع موضع (مكان) مجان (مغان) (Magan) ، وتغلب على ملكه (مانو) (مانيوم) (Manium) (مانودانو) (Mannu-Dannu) ، وأسر^٤ .

ويظهر أن أهل (مجان) (مكان) ، وهم قوم لم يشر إلى اسمهم (منشوسو) والد (نارام سن) (Naram-Sin) ، وهم أهل عمان في رأي أكثر العلماء - كما سأتحدث عن ذلك بعد قليل - كانوا قد ثاروا على العراقيين الأكديين الذين أخضعهم لحكمه والد (نارام سن) ، وذلك في أيامه أو في أواخر أيام والده ، فأرسل لذلك (نارام سن) حملة تأديبية قضت على ثورتهم وأعادتهم إلى حكم الأكديين ، وعاد بذلك ساحل الخليج العربي من عمان إلى أعلاه ، فصار جزءاً من مملكة أكد .

وقد ورد اسم (مكان) (مجان) في نصوص سومرية وأكادية ، نشر

١ G.A. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1924, P. ff. Ancient Iraq, P. 131.

٢ نحو « ٢٣٠٠ ق. م » حتى (ص ٤٣) الترجمة العربية ، و (٢٤٠٠ ق. م) في الطبعة الثالثة باللغة الانكليزية (ص ٣٦) ، - (٢٧٣٠ ق. م) في :

Rostovtzeff, A History of the Ancient World, Vol. I, Oxford 1930, P. 397, ancient Iraq, P. 132.

٣ L.W. King, Studies in Eastern History, II, "Chronicles concerning Early Babylonian Kings," Vol. I, P. 8, 51, 52, Vol. II, P. 10, 38, 39.

٤ King, I, P. 51, The Cambridge Ancient History, Vol. I, P. 415, Cambridge, 1923, Bruno Meissner, Koenige Babylonien und Assyrien, S. 31, King, Vol. II, P. 10, 38 39.

بعضها العلماء ، منها نص للملك (شلجي) أو (دلجي) أو (ونجي) الملقب بـ (ملك سومر وأكاد) أفاد وجود صناعة بناء السفن في هذا المكان^١. والواقع ان أهل الساحل الشرقي لجزيرة العرب عرفوا ببناء السفن منذ القديم ، وقد ركبوا البحار ، وتاجروا ، وتوسطوا في نقل التجارة من مختلف السواحل ، ولا تزال صناعة بناء السفن الشراعية معروفة حتى اليوم مع قلة ربحها ، وعدم تمكنها من منافسة البواخر ، الا انها على كل حال مورد رزق لأصحابها لاقتناعهم بالقوت القليل .

ويدل عثور المتقيين على اختتام ومواد أخرى من عمل الهند ، في (اور) وفي (كيش) و (البحرين) ومواقع أخرى من الساحل العربي الشرقي على أن الاتصال التجاري بالبحر كان معروفاً في الألف الثالثة قبل الميلاد ، وأن حركة الاتصال هذه كانت مستمرة عامرة ، وان بعض مواقع الخليج مثل (البحرين) كانت من مراسي السفن الشهيرة في تلك الأيام ، تقصدها السفن القادمة من العراق في طريقها الى الهند ، والسفن القادمة من الهند في طريقها الى العراق^٢ .

وقد دعت (مكان) (بجان) في نصوص أخرى (Matu-Ma-Gan-Na) أي (أرض بجان)^٣ . ويظهر ان الملك (مانيوم) (ماننوم) (مانوم) هو الملك (منودنو) (Mannu-Dannu) نفسه الذي ورد في نص آخر^٤ . وقد كتبت على التمثال لفظة (بلو) (Belu) بمعنى (سيد) ، أي سيد (بجان) ، وهو (مانيوم) . وقد جيء بحجر التمثال من (بجان) . وتعني كلمة (دنو) (المقتدر) ، ولذلك يرى بعض الباحثين انها صفة ألحقت بالاسم ، فهي لقبه ، وليست جزءاً من الاسم^٥ .

١ S.H. Langdon, The Cambridge Ancient History, Vol. I, P. 415, 437, F. Thureau-Dangin, Die Sumerischen und Akkadischen Koenigsinschriften, Bd. I, S. 66, 72, 76, 78, 104, 106, 134, 164, 166, H.R. Hall, The Ancient History of the Near East London, 1947, P. 190, Ancient Iraq, P. 142

٢ C. J. Gadd, Seals of Ancient Indian Style found at Ur, PBA, XVIII, P. 191-210, Sir M. Wheeler, The Indus Civilization, P. 85, Leemans, P. 5.

٣ King, II, P. 38, 39.

٤ King, I, P. 8, 51, 52, De Morgan, Délégation en Pers, Mémoires VI, P. 2 1905.

٥ King, I, P. 52, Cambridge Ancient History, I, P. 415.

وفي أنباء (جوديا) (غوديا) (Godea) ، وهو (باتيسي) مدينة (لكش)^١ ، انه جلب الحجر من (مجان) ، وذلك لصنع التماثيل ، كما جلب الخشب منه ومن (دلون)^٢ . وذكر مع موضع (مجان) اسم موضع آخر هو (ملوخا) . وقد ذكر (جوديا) (غوديا) انه جلب كميات كبيرة من (حجر أحمر) من (ملوخا)^٣ . وقد أخذ العلماء في تقصّي هذين المكانين اللذين أخذ منهما هذا الـ (باتيسي) أحجاره وأخشابه ، وكذلك أسماء مواضع أخرى ذكرت مع المكانين^٤ .

وقد بحث (ونكلر) عن موضع (مجان) ، ويقع على رأيه في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب^٥ . وقد نبه على اقتران اسم (ملوخا) باسم (مجان) في الغالب ، ويرى انها اصطلاحان يقصد بهما في البابلية القديمة بلاد العرب ، فيراد من (مجان) القسم الشرقي من الجزيرة من أرض (بابل) الى الجنوب . وأما (ملوخا) ، فيراد بها القسم الشرقي من جزيرة العرب . ويرى أيضاً ان ما وقع في جنوب المنطقتين عرف باسم (كوش) أي الحبشة ، وان البابليين لم يكونوا يتصورون بلاد العرب شبه جزيرة تحيط بها البحار من الشرق والجنوب والغرب ، بل تصورها منطقة واسعة تمتد من الحبشة الى الهند ، وان (كوش) تقابل مصر التي هي القسم الشمالي من جزيرة العرب . فما ذكر عن (كوش) ومصر في التوراة ، لا يقصد به الحبشة ومصر ، بل يقصد به جزيرة العرب وشمالها . وقد جاء على ذلك بأمثلة من العهد العتيق ، ذكر أن من الصعب ان يكون المراد بها مصر والحبشة .

وقد ألف (ونكلر) رسالة سمّاها (مصري وملوخا ومعين) بيّن فيها رأيه في أن (مصري) هي أرض عربية شمالية ، وأن مصر المذكورة في التوراة

١ « باتيسي » ، في السومرية في مقابل كلمة « اشاكو » (Ischakku)
و« لكرب » أي الحاكم الكاهن ، الذي يجمع بين السلطينتين الزمنية والدينية

٢ Schrader, Die Keilschriften und das Alte Testament, S. 15. ff.

وسكون رمزه : KLT

٣ Ancient Iraq, P. 141.

٤ « مجان وملوخا ، جفعتا الخشب من جبالهما وجوديا جلب الخشب منهما الى مدينة جرسو » ،
Ancient Iraq, P. 141.

٥ KLT, S. 15.

هي في بلاد العرب ، لا في إفريقية . وقد أثارت نظرية (ونكلر) هذه جدلاً بين العلماء وقوبلت بنقد شديد ، لأنها تعارض ظاهرة نصوص التوراة ^١ :

وذهب آخرون الى أن (مجان) هي في المنطقة المسماة (Gerrha) عند (الكلاسيكيين) ، وهي الأحساء ، وأما (ملوخا) فتتمتد من المنطقة الواقعة الى الجنوب من البحرين الى عمان ^٢ . وقد اشتهرت (ملوخا) بوجود الذهب فيها ^٣ . ومنها حصل (جوديا) (Gudea) (غوديا) على الذهب ^٤ ، كما اشتهرت بالخشب الثمين المسمى (Ushu) ^٥ . وأما (هومل) ، فيرى أن (مجان) في الأقسام الشرقية من جزيرة العرب ، وأن (ملوخا) تقع في وسط جزيرة العرب ، أو في القسم الشمالي الغربي منها .

وذهب (جيسمن) الى احتمال وقوع (مجان) على مقربة من ساحل الخليج ، في موضع في الرمال جنوب (يرين) ، فيه بشر جاهلية ، قال إن اسمها قريب من (مجان) (Magan) ، ويعرف هذا المكان باسم (مجيمنة) ^٦ .

وقد عارض (فليبي) رأي (جيسمن) هذا ، لأن الموضع المذكور يقع في منطقة صحراوية بعيدة عن ساحل البحر ، ولا توجد فيه آثار عاديات تشعر أنه كان من المواضع الجاهلية العتيقة ، ولا صخور من نوع (الديوريت) الذي صنع منه تمثال (نرام - سين) ، ولا أي نوع آخر من الصخور ، يبعث على الظن أنه المكان الذي نقلت منه الحجارة الى العراق . وقد رأى (فليبي) أن موضع (مجن) ، الواقع على مقربة من الساحل عند مصب وادي (شبة) ، هو أقرب الى (مجان) من الموضع الذي اختاره (جيسمن) ، ولهذا ظن أنه هو المكان المقصود ^٧ .

ويرى (موسل) أن من الصعب جداً الاتفاق على تعيين موضعي (مجان)

١ Hugo Winckler, Musri, Meluhha, Main, Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft, 1898, I, Berlin, "hefte.

O'leary, P. 47. ٢

O'leary, P. 49. ٣

Thureau-Dangin, Die Sumerischen und Akkadien Königinschriften, Leipzig, 1907, S. 70. ٤

Fr. Hommel, Grundriss, I, S. 13, Arnorid T. Wilson, The Persian Gulf, Oxford, 1928, P. 28. ٥

Philby, The Empty Quarter, P. 119. ff. ٦

Major Cheesman, In Unknown Arabia, P. 266. ٧

و (ملوخا) ، لأن مدلولي الاسمين قد تغيرا تغيراً مراراً . فالذي يفهم من نصوص الألف الثالثة قبل الميلاد ، أنها تقعان في جزيرة العرب على سواحل الخليج وعلى سواحل المحيط الهندي . ف (بجان) في نص (نرام - سين) أرض تحمّد لإقليم (بابل) ، أو هي لا تبعد عنه كثيراً^١ . وهي كذلك في كتابة (جودية) (جوديا) (غوديا) . وفي بعض النصوص التي عثر عليها في (اور) حيث أشير إلى طريق قوافل يوصل من (السوس) إلى (بجان)^٢ . وهذا مما يبعث على الظن أن أرض (بجان) و (ملوخا) المذكورتين في نصوص الألف الثالثة قبل الميلاد تقع على الخليج ، في الأرضين التي سكن فيها الـ (جرهائيون) (Gerrhaens)^٣ . وقد كان سكان هذه السواحل يتاجرون منذ القديم مع الهند وإيران والسواحل العربية الجنوبية ، ومع إفريقية أيضاً . ويرى احتمال شمول اسم (ملوخا) منطقة واسعة تشمل ما يسمى (كوش) في التوراة ، والسواحل العربية الجنوبية التي كانت تعرف بـ (كوش) كذلك^٤ .

ويرى (موسل) أن مدلول (بجان) قد توسع في الألف الأول قبل الميلاد فشمل منطقة كبيرة شملت مصر أيضاً ، فعنى في النصوص الآشورية التي ترجع إلى الألف الأول قبل الميلاد بـ (بجان) طور سيناء والأقسام المتاخمة لها من مصر ، وإلى هذا الرأي ذهب (مايسنر) كذلك^٥ . أما (ملوخا) ، فقد قصد بها الحبشة والسودان . وقد توسع مدلول (حويلة) المذكور في التوراة أيضاً، فشمل المنطقة التي تقع غرب (بابل) إلى طور سيناء والسواحل الشرقية الواقعة على خليج العقبة . ولهذا ظن بعض العلماء أنها صارت تعني (ملوخا)^٦ .

وقد ذهب (كيتاني) إلى أن (بجان) هي (مدين) ، لأن أرض (مدين) كانت في حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد كثيفة الأشجار ، وكانت تصيد الأخشاب التي تصلح لبناء السفن . ومن مدين أخذ البابليون الذهب والنحاس

Musil, Negd, P. 306. ff. British Museum Tablet, 26, 472, K. 2130.

Musil, Negd, P. 307.

Musil, Negd, P. 307.

Musil, Negd, P. 307.

Konige, S. 31, Musil, Negd, P. 307.

Musil, Negd, P. 307.

والأخشاب . أما (موسل) ، فيعارض هذا الرأي ، ويرى أن من الصعب تصور نقل الأكديين والسومريين والبابليين الأخشاب والصخور الثقيلة من مدين على ظهور الجمال الى بلادهم مع اتساع الشقة وبعد الطريق ، ويرى أن من الصعب تصور نقلها في البحر الأحمر فالبحر العربي فالخليج ، فإن ذلك يستدعي زمناً طويلاً ومتاعب كثيرة ، ثم إن النصوص لم تشر الى ذلك . فنن المعقول أن تكون (مجان) في العربية الشرقية على ساحل الخليج^١ .

ويرى (كلاسر) أن (Magon Kolpos) الذي ذكره (بطليموس) لا يعني (خليج المجوس) (Magorum Sinus) حتماً ، إذ يجوز أن يكون المراد منه (مجان) (Magan) ، أي موضع (مجان) الذي نتحدث عنه^٢ . ويقع — في رأيه — على ساحل الخليج ، وربما كان عند (القطن) (قطن) . ويحتمل — في رأيه أيضاً — أن يكون (Maka) المذكور في نص (دارا)^٣ .

ويرى (أوليري) أن (مجان) هي (Gerrha) ، وتمثلها الأحساء في الزمن الحاضر . أما (ملوخا) (Meluhha) ، فتقع — في رأيه — جنوب الأحساء ، في عمان . وقد استدل على ذلك بنص دون في عهد (سرجون) (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م.) ، جاء فيه أن مملكته بلغت مسيرة ١٢٠ (بيرو) من سقي نهر الفرات الى (ملوخا) على ساحل البحر^٤ ، وأن موضع (دلون) (Dilmun) يقع على مسافة ٣٠ (بيرو) من رأس الخليج^٥ . فيجب أن يكون موضع (ملوخا) اذن بعد موضع (دلون) . ولما كان موضع (دلون) هو (تيلوس) (Tylus) في رأي أكثر العلماء ، أي البحرين ، فلأذن تكون أرض (مجان) وأرض (ملوخا) في العرض ، وفي المواضع المذكورة^٦ . وذهب

١ المصدر نفسه .

٢ Glaser, Skizze, II, S. 223. f. Forster, I, P. 298, 306, II, 215.

٣ Skizze, II, S. 225.

٤ Schroder, Kellinschr. Verschiedenen Inhalts, No. 92, O'leary P. 46.

٥ « بيرو » ، وفي القراءات القديمة « قصبو » (قصبه) « Kaspu » عوشا عن (بيرو) وهي مقياس للمسيرات ، سومر ، الجزء الثاني ، ١٩٤٩ ، من المجلد الخامس (ص ١٣٤) .

٦ O'leary, P. 46, ff.

بعض آخرون الى احتمال أن يكون (مجان) (مكان) في العربية الشرقية في موضع عمان^١ .

وقد ذكر الملك (شروكين) (Sharrukin) ملك آشور أن في جملة الأرضين التي خضعت لحكمه أرض (تلمون) (Tilmun) و (مجانا) (مجان) (مجانا) (Maganna) ، وتقع في البحر الجنوبي ، ويريد به الخليج . ويشير الى انه فتح هذه الأرضين بيده ، وذلك قبل الميلاد بمئات السنين (١٩٨٠ ؟ - ١٩٤٨ ق.م .)^٢ . وقد رأى (ينسن) (P. Jensen) أن المراد بـ (تلمون) جزيرة (قشم) ، على الرغم من ذهاب كثير الباحثين الى انها البحرين . وأما (مجان) فإنها في نظره أرض (عمان)^٣ .

وجاء اسم (ملوخا) (ملوخه) (Melluhha) واسم (تلمون) (Tilmun) في جملة أسماء الأرضين التي كان يحكمها ملك آشور (توكولتي نينورتا) (Tukulti-Ninurta) ، وقد نعت نفسه بـ (ملك كردونيش) (Karduniash) وملك سومر وأكاد ، وملك سيبار (Sippar) وبابل ، وملك تلمون وملوخا ، وملك (البحار العالية) و (البحار التحتية) ، وقصد بجملة (البحار العالية) (بحيرة وان) على ما يظهر ، وتقع أعلى آشور ، وجملة (البحار التحتية) البحر الذي يقع أسفل مملكة آشور ، أي في جنوبها ، ويظهر انه أراد به الخليج العربي . ومعنى ذلك انه حكم منطقة واسعة امتدت رقعتها من (بحيرة وان) حتى الخليج ، وفي ضمنها (البحرين) والسواحل الواقعة الى غربها ، وهي سواحل (ملوخا) (ملوخا)^٤ .

دلون :

ويجونا الحديث عن (مجان) و (ملوخا) الى الحديث عن موضع آخر ورد في النصوص (الأكديّة) و (السومريّة) و (الآشوريّة) ، هو موضع

Leemans, P. 12. ١

Reall. I, Dritte Lieferung, S. 237, 240. ٢

المصدر نفسه . ٣

Reall. I, Fünfte Lieferung, S. 374, Berlin, 1931. ٤

(ني - تلك) (Ni-Tuk) (Ni-Tuk-Ki) وهو (دلمون) (Dilmun)
أو (تلمون) (Tilmun)^١ : وقد اشتهر بتمره وخشبه وبمعادنه مثل النحاس
والبرنز ، وكانت فيه مملكة يرأسها ملوك^٢ . وقد رأينا ان (جوديا) (Gudea)
كان قد أشار اليه والى موضع (بجان) ، وقد ذكر انه استورد الخشب منه ،
كما رأينا اسم هذا المكان في ضمن الأماكن المذكورة في نص (سرجون) ، وقد
ورد أيضاً في نص للملك (آشور بانبال)^٣ . وفي نص للملك (سنحاريب)
(سنحريب) ، وقد ذكر هذا الملك انه بعد أن تمكن من (بابل) ودكها
دكاً ، عزم على ضم (دلمون) الى مملكته ، فأرسل وفداً الى ملكها يخبره أمراً
من أمرين : إما الخضوع لـ (آشور) ولما الخراب والدمار . فوافق ملك
الجزيرة على الاعتراف بسيادة (سنحاريب) عليه ، وأرسل اليه بحزمة ثمينة^٤ .
وكذلك كانت هذه الجزيرة في عداد الأرضين التي خضعت لـ (آشور بانبال)^٥ .
ويظهر من النصوص أن (دلمون) كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة ،
فكانت تعدّ من الأماكن المقدسة ، وقد رويت عنها أساطير دينية ، وعبدت
فيها آلهة تعبد لها أهل العراق ، مما يدل على الاتصال الثقافي المتين الذي كان
بين العراق والبحرين . ووجد اسم الإله (انزاك) في كتابة عثر عليها في
البحرين^٦ ، وتشير أسطورة (أنكي) وزوجه (ننخرساک) وملحمة (كلكمش)
(جلجامش) (جلجامش) ، وأسطورة (أرض الحياة)^٧ وغير ذلك من
القصص الشعبي ، الى هذا الاتصال الطبيعي الذي كان بين جنوب العراق
والعروض :

وذكر (هومل) أن من كبار آلهة (دلمون) : (نلخامو) (نلخامون) ،
وهو إلهة أنثى^٨ . وأشار أيضاً الى نص أرخ في السنة السابعة من سني (فيليبس)

١ O'leary, P. 46.

٢ Burrows, Tilmun, Bahrain, Paradise, in *Orientalia*, Heft, 2, Scriptura Sacra et Monumenta Orientis Antiqui, Roma, 1928, P. 5, 30.

٣ Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, II, 41, 76, 92, 185.

٤ Luckenbill, *Ancient*, II Sect. 438.

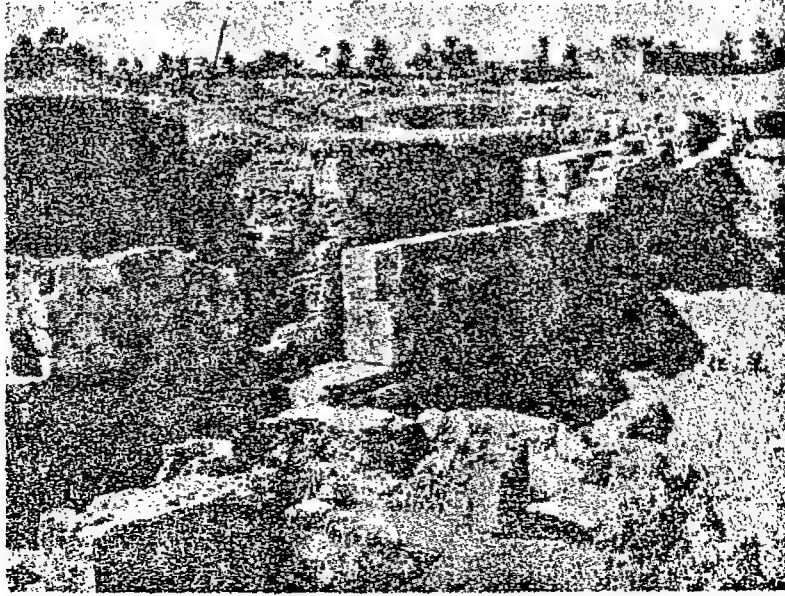
٥ مجلة سومر ، الجزء الثاني من المجلد الخامس ، ١٩٤٩ ، (ص ١٣٧) .

٦ Burrows, P. 30.

٧ S.N. Kramer, in *BOASOOR*, Num. 96, (1944), P. 18.

٨ Hommel, *Grundriss*, I S. 130.

(Philippus) (فيلفوس)^١ وتقابل سنة (٣١٧ ق. م.) ، وهو نص (بابلي)
ورد فيه اسم أرض دعيث (برديسو) (Pardesu) ، وتقابل هذه الكلمة كلمة
(Pildash)^٢ (Pardes) بالعبرانية^٣ و (فردوس) بالعربية ، وتقع في



معبد من حضارة ديلمون (٣٠٠٠ ق. م)
من نشرة دائرة الإعلام : حكومة البحرين

القسم الشرقي من جزيرة العرب ، بين (مجان) و (بيت نيسانو) (Bit Napsanu)
التي هي جزيرة (دلون)^٤ . وقد حملت هذه التسمية بعض العلماء على التفكير في
أن ما ورد عن (جنة عدن) في التوراة ، إنما أريد به هذه المنطقة التي تقع
في القسم الشرقي من جزيرة العرب وعلى سواحل الخليج^٥ .

١ « فيلفوس » ، الطبري (١ / ٦٩٤ ، ٧٣٨) ، « طبعة ليدن » ،

٢ Hommel, Grundriss, I, S. 166.

٣ Enc. Bibl. P. 3569.

٤ Hommel, Grundriss, I, S. 250.

٥ المعرفة النظرية التي ذكرها علماء التوراة عن « جنة عدن » يستحسن مراجعة:
Enc. Bibl. P. 3574.

وقد ذهب أكثر العلماء الى أن أرض (دلون) هي جزيرة البحرين ، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها ، وذلك لأن المسافة التي ذكرت في نص (سرجون) تكاد تساوي بعد البحرين عن فم نهر الفرات ، وهذا مما حملهم على القول إن موضع (دلون) هو جزيرة البحرين . ثم إن الصلات بين العراق والعروض كانت قوية ، والأرض هي على امتداد واحد ، فلا موانع ولا حواجز ، ولهذا رجحوا كون (دلون) هي البحرين^١ .

وعرفت (دلون) أو البحرين في الكتب (الكلاسيكية) باسم (تيلوس) (Tylus) ، ويرى بعض الباحثين أنه حرف عن (تلوون) (Tilwun) ، وهو (Dilmun) في الأصل ، وورد معه اسم (أرادوس) (Aradus)^٢ . وقد ذكر (بلينيوس) (Pliny) أن جزيرة (Tylos) (Tylus) معروفة بالؤلؤل ، وبها مدينة عرفت بهذا الاسم كذلك . وعلى مقربة منها جزيرة صغيرة . وهي تقابل الساحل الذي يسكنه الـ (الجرهابيون) (Gerrhaens) ، نسبة الى مدينتهم (جرهابا) (Gerrha)^٣ . وينطبق وصف (بلينيوس) لجزيرة (Tylos) (Tylus) على جزيرة البحرين كل الانطباق :

وقد ورد في بعض نصوص (أور) (Ur) أنها صدرت الصوف في السفن الى (تلمون) (Tilmun)^٤ ، كما أشير الى قوافل كانت تذهب من (أور) الى هذا الموضع ، وقد عادت بأرباح كبيرة^٥ . ويظهر من هذه النصوص ومن نصوص أخرى أن الاتجار بين (تلمون) و (أور) كان متصلًا مستمرًا ، وأن جماعة من تجار (أور) كانوا يرسلون قوافل من السفن الى (تلمون) للاتجار ، تحمل الى هذا الموضع ما بها حاجة اليه من حاصلات العراق ومن الأموال الواردة الى العراق من الأسواق الخارجية مثل ايران وبلاد الشام وآسية الصغرى وربما من اليونان وأسواق أوروبا ، فتبيحها هناك ، وربما يشتريها تجار (تلمون) أو غيرهم

P.B. Cornwall, in BOASOOR, 1946, P. 3. ff. The Geographical Journal, CVII, Nos, I, and 2, Febr. 1946, 28-50, The National Geographical Magazine, April, 1948.

Enc. I, P. 584. ٢

Glaser, Skizze, II, S. 74. ٣

UET III, 1507, Leemans, P. 22. ٤

UETV 526, UETV 678, Leemans, 25, 26, 27, 28, 29. ٥

لتصديرها الى أماكن أخرى بعيدة مثل الهند، أو إفريقية ، أو قلب جزيرة العرب. فإذا انتهى هؤلاء التجار من بيع تجارتهم ، يعودون ببضائع من البحرين ، هي في الغالب من تجارة الهند أو إفريقية ، في جملتها المعادن والأخشاب والعطور والأشياء النفيسة الأخرى التي كانت تباع بأثمان باهظة ، فيربح هؤلاء التجار من هذه التجارة ربحاً كبيراً .

وقد كان تجار (تلمون) يأتون بسفنهم الى (أور) يحملون ما استوردوه من تجارات من الهند أو إفريقية أو جزيرة العرب ، لبيعه في أسواق (أور) ثم يعودون بسلع أسواق أور ، من حاصل العراق وما جلب الى أور من الخارج . وقد كان هؤلاء التجار يدفعون العشر ، ضريبة عن هذا الاتجار^١ .

وقد عثر على نصوص تبين من دراستها أنها عقود واتفاقيات عقدت بين تجار للاتجار بين (أور) و (تلمون) ، وبينها وثائق تتعلق بتجارة تجار قاموا بأنفسهم بالاتجار مع (تلمون) . ويظهر من دراستها ان اولئك التجار كانوا يستوردون النحاس بمقياس واسع من (تلمون) ، لأنه مطلوب في العراق ، ولأن أسعاره هناك أرخص بكثير من سعره في أور ، وكان في جملة السلع التي استوردوها من (تلمون) الفضة و (عين السمك) ، أي اللؤلؤ على ما يظن^٢ .

ولا بد أن يكون هذا النحاس من جملة المواد المستوردة من مواضع أخرى الى (تلمون) . وقد تكون أرض عمان في جملة الأماكن التي أمدت هذا الموضع به . فقد عثر في عمان على آثار منجم عند مكان يسمى (جبل معدن) يقع على مسافة (٧٥) ميلاً الى الشمال الغربي من الجبل الأخضر^٣ . فلعل هذا المنجم القديم كان مستغلاً في تلك الأيام يستخرج النحاس منه .

ولقد عثر في البحرين على مقابر قديمة كثيرة كما ذكرت قبل . وقد وجد بعد فتحها أنها خططت على نمط واحد ، وتتجه مداخلها نحو الغرب ، وذلك مما يبعث على الظن ان لهذا الاتجاه علاقة بشعائر دينية عند القوم أصحاب المقابر. وقد وجدت فيها كما سبق أن قلت عظام بشرية ، منها جمجمتان بشريتان ،

Leemans, P. 31. ١

Leemans, P. 48, 50. ٢

Leemans, P. 122. ٣

وعظام حيوانات يظهر أنها دفنت وهي حية مع أصحابها وفق العقائد الدينية التي كانوا يدينون بها . وعثر على مصوغات من الذهب وعلى خرز وأحجار زينة : غير أن هذه الأشياء لم تعط الباحثين حتى الآن فكرة يقينية عن تأريخها وعن أيام أصحابها ، والرأي الشائع بين الذين عثروا بدراساتها وفحصها أنها مقابر (فينيقية) ، لأن البحرين كانت الموطن القديم للفينيقيين^١، وأن لم يصدر حتى الآن رأي جازم في هذا الشأن :

وقد عثر كما ذكر (ولسن) (Wilson) في مقبرة من هذه المقابر على حجر أسود مكتوب بكتابة تشابه الكتابات المسارية^٢ .

ويستشهد العلماء الذين يذهبون إلى أن تلك المقابر هي مقابر (فينيقية) ، وأن سكان البحرين هم فينيقيون ، بما ذكره (سترابون) من أن في جزيرتي (Tylus) (Tyrus) و (Aradus) ، مقابر تشابه مقابر الفينيقيين ، وأن سكان الجزيرة يرون أن أسماء جزائرهم ومدنهم هي أسماء فينيقية^٣ .

وقد قامت بعثة آثارية دانماركية بالبحث عن الآثار في البحرين ، وقد نبشت الأرض في ثلاث مواضع لاستنطاقها والاستفسار منها عن ماضيها القديم . وقد تأكدت البعثة من أن الأماكن التي نقت فيها تعود إلى مستوطنات العصر البرنزي . وكان في جملة ما عثرت عليه تماثيل صغيرين لثورين ، وفخاراً ، وأشياء أخرى .

وقد عثر المنقبون على آثار معابد في مواضع من جزر البحرين ، تبين من فحصها أنها خربت مراراً ، وأن الأيدي لعبت بها ، وقد انتزعت أحجارها للاستفادة منها في تحويلها إلى أبنية جديدة . وفي جملة ما عثر عليه في أنقاضها بعض التماثيل وبعض الأحجار المثقوبة ، وكانت مذابح تذبح عليها القرابين ، فتسيل دماؤها من هذه الثقوب إلى حفرة تتجمع فيها الدماء . وقد تبين أن هذه المعابد ، هي من معابد العصر النحاسي والعصر البرنزي ، وأن تأريخ بعضها يعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد^٤ .

Enc. Vol. I, P. 585, Cornwall, in Geogr. Journal., CVII, P. 36, 142, 1946, Wilson, ١
The Pers. Gulf. P. 29, Bent, The Bahrain Islands, In Roy. Geogr. Soc. 12, London, 1890.

Wilson, P. 31. ٢

Enc. I, P. 585, Wilson. P. 29, 30, Strabo, XVI, III, 3, 4, Stuhlmann Der Kampf S. 195 ٣

Belgrave, P. 53. ٤

ويرى كثير من الباحثين في التاريخ القديم ان أصل الفينيقيين الساكنين في (فينيقية) بلبنان هو من هذه المنطقة ، أي من البحرين والساحل المقابل له . وقد ذكر (هيرودوتس) ان المشهور في أيامه ان أصلهم من البحر الأحمر . ولكن العلماء يرون انه قصد الخليج العربي (Sinus Persicus) لا البحر الأحمر .



سلام تؤدي إل معبد من معابد « باربار » في البحرين
من تصوير شركة فقط البحرين

ويذكرون أن الفينيقيين تركوا ديارهم هذه ، وهاجروا منها سالكين الساحل ، ثم وادي الفرات ، ومن وادي الفرات يمتدوا لبنان ، حيث استقروا على الساحل في المنطقة التي عرفت باسمهم ، أي (فينيقية) (Phoenicia)^١ .
اننا لا نستطيع أن نتحدث الآن عن حكومة العروش أو حكومات العروش

١ Herodotus, I, VII, 89, Hastings, P. 725.

٢ Hastings, P. 725.

في عصور ما قبل الميلاد : فما لدينا من أخبار هو نزر يسير : نعم ، من الجائز أن يكون أهل هذا الساحل قد كونوا لهم حكومة واحدة ، ومن الجائز أن يكونوا قد أقاموا حكومات عديدة ، حكومات مدن ، أو حكومات قبائل ، على نحو ما نعرفه عن هذه المنطقة الى عهد ليس بعيد : وكما نرى في مشيخات وإمارات الخليج في هذا الزمان . ومن الجائز أن يكون أهل العراق قد أخضعوا ذلك الساحل وأقاموا حكومات فيه . ونحن لا نستطيع التحدث الآن عن (أرض البحر) (Mat-Tamtim) ، هل كانت حكومة قوية عاشت في الألف الثالث قبل الميلاد ، حكمت كل الساحل الى أن غزتها حكومات من العراق أو كانت إمارة أو (مشيخة) في اصطلاح هذا اليوم ؟ ولكن ما نراه من سرعة تغلب الأكاديين والسومريين والآشوريين على أهل الساحل ، يشير الى أنهم لم يكونوا أصحاب حكومة قوية وانهم انما كانوا في أغلب الظن رجال بحر وتجارة ، لهم حكومات صغيرة أي إمارات و (مشيخات) ، وهذا يفسر لنا سر استسلامها لحكومات العراق بسهولة ويسر وأدائها الجزية لها .

وهناك من يزعم أن (السومريين) إنما جاءوا الى العراق من البحرين ، جاءوا اليه في حوالي السنة (٣١٠٠ ق. م) . وقد عرفت البحرين باسم (دلمون) (Dilmun) في نصوص السومريين وقد كانت البحرين محطة مهمة ينزل فيها الناس في هجراتهم نحو الشمال ، كما كانت محطة للتجارة مع الهند والبلاد البحرية الأخرى . والرأي الغالب اليوم بين علماء التاريخ القديم أن الكلدانيين الذين سكنوا الأقسام الجنوبية من العراق ، إنما جاءوا الى هذه الأرضين من العربية الشرقية ، من ساحل الخليج ، وذلك في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد ، ثم زحفوا نحو الشمال حتى وصلوا الى بابل ، وقد وجد بعض الباحثين كتابات كلدانية تشبه حروفها الحروف العربية الجنوبية القديمة ، أي حروف المسند ، واستدلوا من ذلك على أن أولئك المهاجرين الذين ربما كان أصلهم من عمان هاجروا الى ساحل الخليج ، ثم انتقلوا منه الى العراق ، ونقلوا معهم خطها القديم ، الذي تركوه بعد ذلك حينما استقروا في العراق ، لتأثرهم بالموثرات الثقافية العراقية . والنماذج القديمة من كتاباتهم التي عثر عليها الباحثون ،

وإن لم نتحدث عن أصل أصحابها ، إلا أن خطها المذكور يشير الى أنه من العربية الشرقية ^١ .

وقد ذهب (سترابو) الى أن (Gerrha) التي تقع عند (العمير) كانت في الأصل موضعاً للكلدانيين (Chaldaer) ، وكانت ذات تجارة مع أهل بابل مزدهرة ^٢ .

على كل فالذي يتبين لنا من الأخبار السومرية والآكدية والآشورية وغيرها أن أهل العربية الشرقية كانوا قد كونوا لهم حكومات مدن وذلك قبل الألف الثالثة قبل الميلاد ، صرفت جل عنايتها نحو التجارة وركوب البحار للتجارة ، والاستفادة من البحر لاستخراج ما فيه من سمك و (لؤلؤ) ، واستغلال ما في أرضها من ماء للزراعة عليه . والطبيعة هي التي فرضت على أهل هذا الساحل هذا الشكل من الحكم ، لأنها لم تمنحهم أمطاراً وافرة تمكنهم من استغلال أرضهم ، ولم تعطهم أنهاراً كبيرة طويلة تساعد في نشوء العمران عليها وتكوين حكومات مطلقة ، كما في العراق أو في وادي النيل ، لذلك انحصرت السكنى في مواضع متناثرة من الساحل ، فصعب على السكان تكوين حكومة مطلقة واحدة يكون الحكم فيها حكماً مركزاً في أيدي الملوك ، لتباعد المدن بعضها عن بعض ، لذلك صار الحكم فيها حكماً مدن ، على المدينة (ملك) أو رئيس يدير شؤون الجماعة ، إلا أن هذا الوضع جعلهم عرضة للغزو اذ طمعت فيهم الحكومات الكبيرة ، كالذي رأيناه من غزو السومريين والآكديين لهم ، وكالذي سنراه فيما بعد من غزو الآشوريين واليونانيين وغيرهم لهذه الأرضين .

لقد استورد السومريون والآكديون الذهب والحجارة الصالحة لصنع التماثيل ، والأخشاب لبناء المعابد ، والأشياء النفيسة الأخرى من (دلون) ومن (ملوخا) ومن (مكان) (حجان) ، وهي أماكن يرى كثير من العلماء أنها في العربية الشرقية ، وقد تكون تلك المواد من الأموال المستوردة من الهند . على كل حال ، فقد توسطت تلك الأماكن في استيرادها وإيصالها الى العراق ، بفضل مهارة سكانها في تسخير البحر وتيسيره ، وقد ترك الفتح العراقي فيها أثراً كبيراً

١ W. F. Albright, in BASOOR, Num. 128, 1952, P. 39, "the Chaldaean Inscriptions in Proto-Arabic Script".

٢ Strabo, XVI, 7, 66, Grohmann, Arabien, S. 257.

يظهر في الآثار العراقية التي استخرجت من باطن الأرض وفي فن العربية الشرقية التأثير بالفن العراقي .

وقد أثر انتقال ثقل الحكم من (أور) ومن القسم الجنوبي من العراق الى وسطه تأثيراً كبيراً في ثراء (أور) واقتصادها ، فقد كان في هذه المدينة تجار كوتونا لهم شركات بحرية لنقل التجارة بين هذه المدينة ومدن الخليج ، وربما الى



رأس ثور عثرت عليه البعثة الدانماركية
في « باربار » بالبحرين

مدن الهند أيضاً . وقد أثر ذلك فيهم بصورة خاصة حين وضع (حمورابي) أنظمة تحدد الاتجار البحري في ذلك العهد^١ : وقد افتخر ملك (آشور) ، الملك (تكلتي - نورتا) (Tukulti-Ninurta) (١٢٤٤ - ١٢٠٨ ق. م.) ، بأنه وسع حدود مملكته في الجنوب ، بأن استولى على (سومر) و (أكّد) ، وثبت حدودها الجنوبية عند (البحر الأسفل حيث مشرق الشمس)^٢ . ويعني بذلك الخليج ، غير انه لم يشر الى الأرضين التي استولى عليها في هذا الخليج :

هذا كل ما نعرفه اليوم عن تأريخ العرب في العهود القديمة : وهو كما رأينا

1 Ancient Iraq, P. 184, Leemans, The Old Babylonian Merchant, Leiden, 1950, P. 78-95, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960, A. L. Oppenheim, JAOS, S. 74, 1954, P. 15, 17.

2 Ancient Iraq, P. 217, D.D. Luckenbill, Ancient Records, I, P. 145,

نزر يسير، أخذ من بحوث أفراد ومن بحوث عرضية حصل عليها عند البحث عن البترول ، وأملنا في زيادة علمنا بتلك العهود هو في قيام بعثات علمية بالبحث عن الآثار والمعاديات لاستنطاقها عن أحوال تلك العهود . وليس أمامنا بعد هذه المقدمة الا الدخول في العصور المعروفة التي وضل اليها بعض أخبارها في الكتابات وفي الموارد الأخرى .

وقد كان لأعمال الحفر التي قامت بها بعثة (دانماركية) أرسلها متحف ما قبل التاريخ في (Aarhus) بالدانمارك فضل كبير في الكشف عن صفحات مطوية من تاريخ سواحل الخليج . فقد تمكنت هذه البعثة من العثور على آثار من عهود ما قبل العصور التاريخية في البحرين وقطر و (أبي ظبي) ، كما تعقبت آثار السكنى القديمة في البحرين وعمان وبقية الساحل ، وعثرت على معابد قديمة مثل معبد (بربر) (باربار) في البحرين و (تل قلعة البحرين) في البحرين ، وتوصلت بذلك الى نتائج قيمة جداً رجعت بتاريخ هذه البلاد الى عصور بعيدة جداً عن الميلاد ، وكان من أعمالها الكشف عن آثار (فيلكا) في الكويت .

وقد تبين من دراسة البعثة الدانماركية لآثار معبد (بربر) (باربار) في البحرين ، انه معبد عتيق : يرجع عهده الى حوالي السنة (٣٠٠٠ ق.م.) أو أقدم من ذلك ^١ . وأنه كان معبداً كبيراً به (بئر) مقدسة يستقي منها المؤمنون للتبرك بمائها ولتطهير أجسامهم ولإجراء الشعائر الدينية، ويلاحظ أن الباحثين تمكنوا من العثور على آبار مقدسة في بيوت العبادة الكبرى عند الجاهليين ، وهذا يدل على أن معابدهم الكبيرة كانت ذات آبار مقدسة يشربون منها للتبرك والشفاء ولتطهير أجسامهم ، شأنهم في ذلك شأن أهل مكة و (زمزم) .

لقد وجدت هذه البعثة تحت أنقاض (تل القلعة) في البحرين بقايا مدينة قديمة يمكن أن تعدّ من مدن الجزيرة الكبيرة أو عاصمتها ، يرجع تاريخها الى حوالي السنة (٢٥٠٠ ق.م.) . وكانت مسورة بسور ارتفاعه (١٦) قدماً عن سطح الأرض ، بني بالحجارة ، وقد بنيت به قلعة لحمايته من هجوم الأعداء ، وعثر على باب المدينة، وقد زينت ببناء مربع الشكل . ويقال ان الملك (سرجون) الأكادي كان قد أمر باحراقها سنة (٢٣٠٠ ق.م.) ، حتى صارت ركاماً ،

وبقيت على ذلك طوال أيام (الكاسيين) (الألف الثانية قبل الميلاد) ، حتى أعيد بناؤها في القرن السابع قبل الميلاد ، فازدهرت وتوافد عليها السكان ، وأخذت تتاجر مع العراق . وكانت مزدهرة في أيام (الأخمينيين) و(السلجوقيين) ، إلا أن النحس حلّ بها بعد سقوط الحكومة السلجوقية ، ولأزمها ولم يتركها حتى هجرها الناس^١ .

وفي جملة ما عثرت عليه تلك البعثة آثار مدينة يرجع عهدها الى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد ، في مكان يعرف بـ (مرب) في القسم الغربي من (قطر)^٢ .

١ F.V. Glob, Kuml, 1957, 1958, 142, 144, T.G. Blbly, Kuml, 1957, 162,

٢ Glob, Kuml, 1959, 238, Grohmann, Arablen, S. 260.

الفصل الرابع عشر

العرب في الهلال الخصيب

ليس من السهل علينا التعرض في الوقت الحاضر للصلات التي كانت بين العرب الشماليين وبين حكومات الهلال الخصيب في أقدم العهود التاريخية المعروفة التي وقفنا على بعض ملامحها ومعالمها من الآثار ، فبينما وبيننا حجب كثيفة ثخينة لم تتمكن الأبصار من النفاذ منها لاستخراج ما وراءها من أخبار عن صلوات العرب في تلك العهود بالهلال الخصيب .

ولعل خبر (نرام - سن) (نرام - سين) (Naram-Sin) الأكادي (٢٢٧٠ - ٢٢٢٣ ق. م.) ، عن استيلائه على الأرضين المتصلة بأرض بابل والتي كان سكانها من العرب (Aribu) (Arabu) ، هو أقدم خبر يصل إلينا في موضوع صلوات العرب بالعراق^١ . وهو خبر ينبئك بأن عرب أيام (نرام - سن) ، كانوا في تلك المنازل قبل أيامه بالطبع ؛ وهي منازل كوتوا فيها (مشيخات) و (إمارات) مثل إمارة (الحيرة) الشهيرة التي ظهرت بعد الميلاد .

ويحدثنا سفر (القضاة) بأن (المدينيين) والعمالقة وبنو المشرق ، كانوا ينتزعون ما بأيدي الإسرائيليين من غلة زراعة، وما عندهم من ماشية ، ويغرون

Arabien, S., 21.

عليهم . كانوا يأتون اليهم بخيامهم و كالجراد في الكثرة ، وليس لهم وبلجهم عدد ، حتى ذل الإسرائيليون^١ . وأصل المدينين من جزيرة العرب ، استقروا بأرض (مدين) جاءوا اليها من الحجاز ، وأخذوا يغزون العبرانيين ، ومنها هذه الغزوات التي يرجع بعض الباحثين تأريخها الى النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد^٢ . أما العاقبة وبنو المشرق ، فإنهم مثل المدينين من قبائل العرب .

العرب والآشوريون :

إن أول إشارة الى العرب في الكتابات الآشورية ، هي الإشارة التي وردت في كتابات الملك (شلمنصر الثالث) (شلمنصر) ملك آشور^٣ . فقد كان هذا الملك أول من أشار الى العرب في نص من النصوص التاريخية التي وصلت إلينا ، إذ سجل نصراً حروبياً تم له في السنة السادسة من حكمه على حلف تألف ضده ، عقده ملك (دمشق) وعدد من الملوك الإرميين الذين كانوا يحكمون المدن السورية وملك اسرائيل ورئيس قبيلة عربي ، اسمه (جندب) . وقد كان هذا النصر في سنة (٨٥٣) أو (٨٥٤ ق.م)^٤ . وقد قصد (شلمنصر) بلفظه (عرب) الأعراب ، أي البدو ، كما شرحت ذلك في الفصل الأول : أما العرب الحضرة ، أهل المدر ، أي المستقرون ، فقد كانوا يدعون كما ذكرت ذلك أيضاً بأسماء الأماكن التي يقيمون فيها أو التسميات التي اشتبهوا بها . ذلك لأن لفظة (العرب) لم تكن قد صارت علماً على جنس ، من بدو ومن حضر ، بالمعنى المفهوم من اللفظة عندنا . ولم يكن هذا الاستعمال مقتصرأ على الآشوريين

١ القضاة ، الاصحاح السادس ، الآية ٣ وما بعدها .

٢ Arabel, S., 21.

٣ (شلمنصر) ، قاموس الكتاب المقدس (١/٦٢٩) ، بمعنى (شلمان ذو نعمة) سنة ١٢ و ١٩ (ص ٦٥) ، راجع عن مادة العرب في الموارد البابلية والآشورية ادي شير : تاريخ كلنو وآثور (المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين) في بيروت اطروحة T. Weiss Rosmarin المعنونة بـ

(Arabi und Arabeln in den Babylonish-Assyrischen Quellen) Wuerzburg, 1931, New York, 1932, JSOR, 16, 1932.

٤ D.D. Luckenbill, Ancient Records, Vol. II, 17, 118, Vol., I, 661.

بل كان ذلك عاملاً حتى بين العرب أنفسهم وقد أدى ذلك الى جهلنا بهويات شعوب ذكرت في النصوص الآشورية وفي النصوص الأخرى وفي التوراة ، دون أن يشار الى جنسيتها ، فلم نستطع أن نضيفها الى العرب للسبب المذكور :

وكان ملك (دمشق) (بيرادري) (Bir-Idri) (Biridri) ، المعروف باسم (بنهدد) (Benhaddad) في التوراة^١ ، قد هاله توسع الآشوريين وتدخلهم في شؤون الممالك الصغيرة والإمارات ، ولا سيما بعد تدخلهم في شؤون مملكة (حلب) ، وخضوع هذه المملكة لهم بدفعها الجزية واعترافهم بسيادة آشور عليها . فعزم على الوقوف أمام الآشوريين ، وذلك بتأليف حلف من الملوك السوريين وسادات القبائل العربية ، لدرء هذا الخطر الداهم . وقد انضم اليه (آخاب) ملك اسرائيل ، وأمراء الفينيقيين ، فكان مجموع من استجاب لدعوته اثنا عشر ملكاً من ملوك سوريا ، (وجنديو) ملك (العرب) ، وقد أمد الحلف بألف جمل وبمحاربي ، وكل هؤلاء كانوا قد أصيبوا بضربات عنيفة من الآشوريين وتعلموا بتجاربهم معهم مبلغ قوتهم وغلظتهم على الشعوب التي غلبوها على أمرها ، فأرادوا بهذا الحلف التخلص من شرهم والانتقام منهم والقضاء عليهم .

وعند مدينة (قرقر) ، الواقعة شمال (حماة) وعلى مقربة منها ، وقعت الواقعة ، وتلاقى الجيشان : جيش (آشور) تسيّره نشوة النصر ، وجيوش الإرميين والعرب والفينيقيين ومن انضم اليهم ، تجمع بينهم رابطة الدفاع عن أنفسهم ، وبغضهم الشديد للآشوريين . لقد تجمع ألوف من جنود الحلفاء في (قرقر) على رواية ملك آشور ، لمقاومة الآشوريين وصدهم من التوسع نحو الجنوب ، واشتركت في المعركة مئات من المركبات . أما النصر فكان حليف (شلمنصر) ، انتصر عليهم بيسر وسهولة ، وأوقع بهم خسائر كبيرة ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وتفرق الشمل ، وهرب الجميع ، وانحل العقد ، ورجع ملك آشور الى بلده منتصراً ، محمداً انتصاره هذا في كتابة ليقف عليها الناس^٢ .

١ راجع عن (بنهدد) ، قاموس الكتاب المقدس ، (٢٥٠/١) ، (بنهداد ، اوبرهداد) (ادريدري) ، وهو الذي يسميه الكتاب المقدس بنهداد ، باسم ابيه بنهداد الاول

ادي شير (ص ٦٩) ، (٦٩) ، Enc. Bibl. P. 5.6 ، Hastings, P. 90, Meisner, Konige, S. 139,

٢ ادي شير (ص ٦٩ فما بعدها) ،

واليك بعض ما جاء في نص (شلمنصر) عن معركة (قرقر) ، لتقف على ما قاله عنها : (قرقر : عاصمته الملكية ، أنا أتلقتها ، أنا دمرتها ، أنا أحرقتها بالنار ، ١٢٠٠ عجلة ، ١٢٠٠ فارس ، ٢٠,٠٠٠ جندي لهدد عازر صاحب إرم ... ألف جمل لجندب العربي ... هؤلاء الملوك الاثنا عشر الذين استقدمهم لمساعدته ، برزوا الى المعركة والقتال ، تألبوا عليّ ...)^١ .

ويلاحظ كثرة عدد العجلات المستخدمة في المعركة بالنسبة الى تلك الأيام . وهذه الأرقام ليست بالطبع أرقاماً مضبوطة ، فقد عودنا الملوك الأقدمون المبالغة في ذكر العدد ، والتهويل في تدوين أخبار المعارك والحوادث ، للتضخيم من شأنهم وللتعظيم ، وتلك عادة قديمة ، نجدها عند غير الآشوريين أيضاً^٢ .

و (جندب) اسم من الأسماء العربية المعروفة ، هو (جندب) . ويكون هذا الاسم أول اسم عربي يسجل في الكتابات الآشورية . ولم يشر (شلمنصر) الى أرضه والمكان الذي كان يحكم فيه . غير ان القرائن تدل على انها كانت في أطراف البادية ، ويرى (موسل) انها كانت تقع في مكان ما جنوب مملكة (دمشق)^٣ . وأرى انه كان ملكاً على غرار الملوك سادات القبائل مثل ملوك الحيرة والغساسنة ، حكم على قبائل خضعت لحكمه وسلطانه ، وكان يتناول الإتاوات من الحكومات الكبيرة مقابل حماية حدودها من الغارات والاشتراك معها في الحروب .

وقد أبلغنا (شلمنصر) الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق. م.) أيضاً ، انه زحف نحو الجنوب ، نحو أرض (كلدو) ، أي أرض الكلدانيين ، فاستولى عليها وتوغل بعد ذلك نحو الجنوب حتى بلغ (البحر المر) (البحر المالح) (Nar Marratu) أي الخليج العربي ، فقهر كل السكان الذين وصلت جيوشه اليهم^٤ . ويظهر انه بلغ حدود الكويت فاتصل بذلك بجزيرة العرب وبقبائل عربية ساكنة في هذه الأرضين .

Melsner, Koenige, S. 140, J.W. Weiss, Geschichte des Orients, S. 597, Grohmann, S. 21, Luckenbill, I, 611, Melsner, Koenige, S. 140.

Melsner, Koenige, S. 140. ٢

Musil, Deserta, P. 477. ٣

Ancient Iraq, P. 277, Luckenbill, I, 624. ٤

وفي السنة الثالثة من حكم (تغلث فلاسر) (تغلاتبلاسر الثالث)
 (Tiglath Pileser)^١ (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م.) تقريباً ، دفعت ملكة عربية
 اسمها (زيببي) الجزية الى هذا الملك . وكانت تحكم (أربيبي) ، أي العرب :
 ولم يتحدث النص الذي سجل هذا الخبر عن مكان الأعراب أتباع (زيببي) :



معركة بين العرب والآشوريين

وقد ذهب (موسل) الى انه (أدومو) (Adumu) ، أي (دومة) (دومة
 الجندل) ، وذهب أيضاً أن الملكة كانت كاهنة على قبيلة (قيدار) (Kedar)^٢.
 و (زيببي) ، هو تحريف لاسم (زيبية) ، وهو من الأسماء العربية المعروفة.
 ومحدثنا هذا الملك أيضاً انه في السنة التاسعة من ملكه ، قهر ملكة عربية
 أخرى اسمها (سمسبي) (Samsi) (شمسي) (Shamsi) ، واضطرها الى
 دفع الجزية له بعد أن تغلبت عليها جيوش آشور. ويدعي الملك أنها حنت بيمينها

١ « تغلث فلاسر » ، و « تغلث فلناسر » في الترجمات العربية للتوراة ، اخبار
 الايام الثاني ، الاصحاح الثامن والعشرون ، الاية العشرون ، الملوك الثاني ،
 الاصحاح الخامس عشر ، الاية ٢٩ ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الخامس ،
 الاية ٢٦ ، ولذلك اخترت هذه التسمية ، قاموس الكتاب المقدس (٢٨٨/١) ،
 ادي شير (ص ٨٠) ، وقد جعله « موسل » « تغلث فلاسر الرابع » ،
 Musil, Hegaz, P. 287, Deserta, P. 477.

وعرف بـ "Tukulti-Apil-Esharra" في النصوص^٣ Hastings, P. 934.

Rost, Kellschrifttexte, II, P 1. 16, (1893), Olmstead, ٢

History of Assyria, P. 189, G. Rawlinson, The Five Great Monarchies, Vol. II, P. 396.

وكفرت بالعهد الذي قطعته للإله العظيم (شماش) (Schamash) ألا تتعرض
للآشوريين بسوء ، وبأن تخلص لهم ، فانتصر عليها ، واستولى على مدينتين من
مدنها ، وتغلب على معسكرها ، فلم يبق أمامها غير الخضوع والاستسلام وتأدية
الجزية لبلا : بجالاً ونوقاً^١ .

والظاهر أنها انضمت الى ملك دمشق في معارضته للآشوريين ، وتعرضت
لقوافل آشور ، فجهز الملك عليها حملة عسكرية تغلبت عليها . ولضمان تنفيذ
مصالحح الآشوريين ، قرر الملك تعيين (قييو) أي مقيم أو مندوب
سام آشوري لدى بلاطها ، لارسال تقاريره الى الحاكم الاشوري العام في سورية
عن نبأت الملكة واتجاهات الأعراب ، وميول قبيلتها ، ولتوجيه سياسة الملكة
على النحو الذي تريده (آشور)^٢ .

وقد ذكر النص الآشوري أن الملكة أصيبت بنحسائر فادحة جداً ، وهي ألف
ومئة رجل ، وثلاثون ألف جمل ، وعشرون ألف من الماشية ، وهي أرقام
بولغ فيها جداً ، ولا شك^٣ .

وبذكرنا اسم الملكة (شمسي) (شمسي) باسم عربي هو (شمس) أو
(شمسة) . و (شمسة) من الأسماء العربية القديمة التي ما تزال حية . وقد كان
في المدينة امرأة نصرانية اسمها (شمسة) ، أسلمت على يدي الحسن بن علي بن
أبي طالب ، فحرف الآشوريون الاسم وفق نطقهم وكتبوه على هذا الشكل .
وقد صور على اللوح الذي ورد فيه خبر الانتصار المذكور ، منظر فارسين
آشوريين يحملان رحلين ، يتعقبان أعرابياً راكباً جمللاً ، وتحت أعقاب الفرسين
وأمامهما جثث الأعراب الذين خروا صرعى على الأرض . وصور شعرهم طويلاً
وقد عقد الى الوراء ، وأما اللحي فكثنة ، وأما أجسامهم فعارية إلا من مئزر
شد بجزام . وقد حرص الفنان على تصويره الأعرابي الراكب قريباً جداً من
الفارسين ، ماداً يده اليمنى اليها مترسلاً ومسترحماً ومستسلماً ، وصورت الملكة

١ ادي شير (ص ٨٥) ،

Musil, Deserta, P. 477, Olmstead, History Of Assyria, P. 199, J. B. Pritchard,
Ancient Near Eastern Texts, Princeton, 1950, P. 283.

Musil, Deserta, P. 477. ٢

Melsner, Konlge, S. 140. ٣

٤ ابن سعد ، الطبقات (٢٨٤/٥) « طبعة بيروت ١٩٥٧ »

(شمس) (شمسي) (سمسي) حافية ، ناشرة شعرها ، تحمل جرة من الجرار الاحدى عشرة المقدسة ، بعد أن أضناها الجوع والتعب في فرارها الى (بازو) ، وقد خارت قواها المعنوية ^١ .

وورد في الكتابة الآشورية أن الملكة أرسلت وفدًا الى ملك آشور لمصالحته واسترضائه ، ضم عدداً من سادات قبيلتها وأتباعها ، منهم (يربع) (يرباً) (Jarapa) ، وكان رئيس الوفد ، و (خترنو) (حترنو) (Hataranu) و (جنبو) (Ganabu) ، و (تمرنو) (Tamranu) ^٢ . وهي أسماء عربية لا غبار عليها ، كتبت بحسب النطق الآشوري . ف (Jarapa) مثلاً ، يمكن أن يكون أصله (يرفع) أو (يربع) أو يربوع ، و (Hataranu) جائز أنه (خاطر) أو (خطر) ، و (Ganabu) جائز أنه جناب أو (جنب) ، و (Tamranu) جائز أنه (تمر) أو (تمار) أو ما شابه ذلك . ولا أرى بنا حاجة الى ذكر أمثلة عديدة وردت فيها أسماء من مثل (يربوع) (وجناب) و (جنب) وأمثال ذلك لدى الإسلاميين ^٣ .

وبعد أداء (شمس) الجزية الى ملك آشور ، دفعت عدة قبائل وشعوب عربية الجزية اليه . وقد جعل بعض الباحثين ذلك في حوالي سنة (٧٣٨ ق م)^٤ وجاء في الترجمة العربية لكتاب (حتي) أن ذلك كان في عام (٧٢٨ ق م)^٥ . وإذا كان أداء العرب المذكورين الجزية في السنة التاسعة من حكمه ، فيجب أن تكون السنة سنة (٧٣٦ ق م) تقريباً ، لأن حكم الملك كان في (٧٤٥ ق م)^٦ . وقد ذكر الملك انه تسلم الجزية ذهباً وفضة وإبلاً وطيبوياً من (مسأى) (Mas'a) و (تيا) و (سبا) و (سبا) و (خيابة) (خيايه) (Hajapa) (Hayapa) (Hajappa) و (بطنه) (Batana) (Badana)

١ Olmstead, History of Assyria, P. 199.

٢ H. Winckler, Kellschrift. Bd. II, S. 62, AOF. Bd. I, S. 465.

٣ الاشتقاق (٢٣٥/٢ ، ٣٦٢)

٤ Stuhlmann, Der Kampf, S. 10.

٥ حتي (ص ٤٥) .

٦ تولى الحكم في « ١٣ ايار » ، Hastings, P 934.

و (خطي) (Hatti ، Hatte) و (ادبيل) (Ibida'il)^١ . وقد ورد
انها كانت تظن في أرضين تقع في الغرب في أماكن بعيدة^٢ . ويقصد أنها
كانت غرب آشور ، والغالب انه كان يريد من قوله : في مواضع بعيدة ،
البادية حيث يصعب الوصول إليها .

ويرى بعض الباحثين ان (مسأى) (مسا) (Mas'a) هي قبيلة (مسا)
(Massa) المذكورة في التوراة^٣ . وهي قبيلة اسماعيلية كانت منازلها في شرق
(مرآب) ، أو في جنوب شرقيها^٤ . ويظهر أنها لم تكن بعيدة جداً عن
فلسطين^٥ . ورأى (ذورمه) (Dhorme) أنها قبيلة من قبائل العربية الجنوبية^٦ ،
وهو رأي بعيد الاحتمال^٧ ، فلا يعقل وصول نفوذ الآشوريين في ذلك الزمن الى
تلك المواضع . ثم ان (مسا) وهو أحد أبناء (اسماعيل) كما ورد في التوراة^٨ .
والقبائل الإسماعيلية لم تكن تسكن العربية الجنوبية ، بل المواضع التي ذكرتها في
أثناء حديثي عنهم . ثم ان أحد المقيمين الآشوريين كان قد كتب تقريراً الى
ملكه ، يذكر فيه ان (ملك قهرور) (مالك قهرور) ، وهو ابن (عم يشع)
(عم بطع) (عمي بطع) (Amme'uta') من قبيلة (مسا) ، غزا ، بعد
خروج الملك وارتحاله عن قبيلة (نبأ أتى) (نبي أتى) (Nabi'ati) ، هذه
القبيلة وذبح أفرادها ، وسرقها وقد تمكن أحدهم من النجاة بنفسه ، فبلغ الملك
وأخبره بالحادثة^٩ . ويشير المقيم السيامي الآشوري في تقريره هذا الى الحادث ،
ليكون ملكه على علم به . وقبيلة (نبي أتى) (نبأ أتى) (Nabi'ati) هي

١ Musil Hegaz, P. 288, Rost, Kellschrifttexte, II, Taf. 23, Z. 218-226, 240,
Melssner, Koenlge, S. 165, Pritchard, Ancient, Near East Texts, 1950, P. 283, 284.

وسيكون رمزه : Pritchard

٢ Winckler, KLT. S. 58

٣ التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١٤ ، أخبار الأيام الأول الأصحاح
الأول ، الآية ٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٤٢/٢)

٤ Musil Hegaz, P. 288, W. F. Albright, The Biblical Tribe of Massa', in Studi
Orientalistici, Roma, 1956, 12,

٥ Hastings, P. 591, Enc. Bibl. P. 2972.

٦ Dhorme, Les Pays Bibliques, P. 196, 1910, Deserta, P. 478.

٧ Musil, Deserta, P. 478.

٨ التكوين ، الأصحاح ٢٥ ، الآية ١٤ ، أخبار الأيام الأول ، الأصحاح الأول الآية ٣٠

٩ Rawlinson, Cunelform Inscriptions, (1861-1884) Vol. 4, P. 1. 54. Note, I.

قبيلة (نبايوت) (Nabajot) (Nebaioth) المذكورة في التوراة^١ . وهي مثل (مسا) إحدى القبائل الإسماعيلية . ولهذا تكون منازل قبيلة (مسا) في الشمال أو في الشمال الغربي من منازل (نبايوت)^٢ :

وأما (تيا) (Tema) ، فإنها (تياء) المذكورة في التوراة^٣ ، والمعروفة حتى في الإسلام . وتقع على الطريق التجاري الخطير الذي يربط العربية الجنوبية والحجاز والشام والعراق ومصر ، ثم بموانئ البحر المتوسط ، كما عرف التيائيون باشتغالهم بالتجارة ، فلعلهم دفعوا الجزية إلى آشور حفظاً لمصالحهم التجارية ولكي يسمح لهم الآشوريون بمرور تجارتهم في الطرق التي تخترق العراق وبلاد الشام وموانئ البحر المتوسط بعد أن أصبحت تحت سيطرتهم^٤ .

وقد ذكرت (تياء) مع (ددان) في مواضع من التوراة^٥ . وذكرت مع (ددان) و (بوز) كذلك^٦ . ومعنى هذا أن هذه المواضع كانت متقاربة لا يبعد بعضها عن بعض كثيراً ، وأشير إلى (قوافل تياء) و (سيارة سبأ)^٧ ، ويدل ذلك على اتصال تجاري كان بين التيائيين والسبثيين في ذلك العهد .

ويدل ورود اسم (سبأ) ، بعد (تياء) في نص (تغلث فلاسر) ، على أن السبثيين المقصودين كانوا يعيشون على مقربة من التيائيين ومن بقية من دفع الجزية للآشوريين . ويرى (موسل) أنهم كانوا يقيمون إذ ذاك في (ددان) (ديدان) ، وأنهم من السبثيين الذين أخذوا مكان المعينيين ، وكانت لهم قوافل تنقل التجارة على الطرق البرية كما كانوا يقومون بتربية الإبل والماشية^٨ :

وأما (خيايه) (Hajapa) ، فإننا لا نعرف عنهم اليوم شيئاً غير الاسم : وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنهم (عيفة) ، المذكورون في التوراة . ومن

١ التكوين ، الأصحاح ٢٥ ، آية ١٣ . Deserta, P. 478.

٢ Deserta, P. 478.

٣ التكوين ، الأصحاح ٢٥ ، الآية ١٥ ، أخبار الأيام الأولى ، الأصحاح الأول ، الآية ٣ . قاموس الكتاب المقدس (٢٩٦/١)

٤ Musil, Hegaz, P. 288.

٥ إشعياء الأصحاح ٢١ ، الآية ١٣ وما بعدها ، أرميا الأصحاح ٢٥ ، الآية ٢٣

٦ أرميا ، الأصحاح ٢٥ ، الآية ٢٣

٧ أيوب ، الأصحاح السادس ، الآية ١٩ .

٨ Musil, Hegaz, P. 288. وسيكون رمزه : Hegaz

هؤلاء (فرديش دلج)^١ و (شرادر)^٢ و (موسل) وآخرون^٣ . وهو على رواية نسابي العهد العتيق من نسل (مديان) (مدين) ، ومن حفنة (إبراهيم) من زوجه (قطورة) . ويفهم من (أشعيا) ، أنهم كانوا يتاجرون مع (شبا) مثل (مديان) يحملون الذهب واللبان^٤ ، ويظهر أنهم كانوا يقطنون منطقة (حسمي)^٥ .

ومن الصعب تشخيص قبيلة (بطنه) (بطنا) (بدنه) (Batana) (Badana) . ولم يرد في التوراة ما يقابل الاسم أو ما يقاربه. وقد قرأ (موسل) الاسم (بدنه) (Badana) ، وذهب الى أنه اسم قبيلة (بدون) أو (مدون) ، بإبدال (الباء) ميماً ، وهذا أمر مألوف . وتقع منازلها في (العلا) ، أي في (ددان) (ديدان) القديمة . ويعتقد أفرادها أنهم من سلالة قديمة جداً ، وليست لهم صلات قريبي بالقبائل الأخرى . وتسكن بطون منهم عند (البراء) (Petra) أي الرقيم^٦ .

وأشار (موسل) أيضاً الى اسم موضع ذكر أنه ورد في كتاب (بلينيوس)، وهو (Badanatha) . غير أنه لاحظ أن هذا الاسم مشكوك في صحة ضبطه، فإن بعضهم قد قرأه (Baclanaza)^٧. فإذا كانت القراءة (Badanatha) صحيحة ، فن الممكن إذن أن يكون لهذا الاسم علاقة بـ (بدون) ، أو (مدون) وبـ (بطنه) (Batana) ، الوارد في نص ملك آشور^٨ . والموضع الذي ذكره (بلينيوس) ، قريب من (Domata) ، أي (دومة الجندل) ،

١ Fr. Delitzsch, Wo Lag das Paradies? Leipzig, 1881, S. 304.

وسيكون رمزه Delitzsch

٢ KLt. S. 58.

٣ Hegaz, P. 289.

٤ « تفطيك كثرة الجمال ، بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهباً ولباناً »
أشعيا ، الأصحاح الستون ، الآية السادسة ،

Hastings, P. 231, Ency. Bibl. P. 1300.

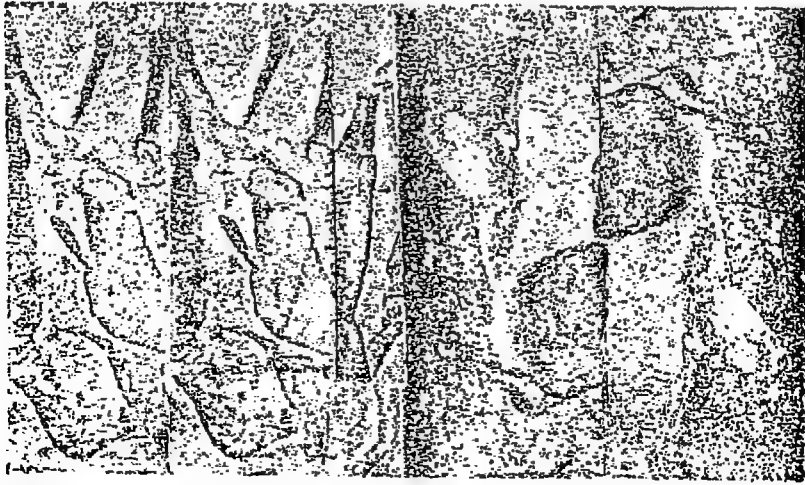
٥ Hegaz, P. 289.

٦ Rost, Die Kellschrifttexte Tiglatpilesers, III, Leipzig, 1892, S. 36, Hommel,
Geographie, S. 297, 595, Reall., I, S. 431, Hegaz, P. 290.

٧ Pliny, Natu. Histo. VI, 157, Vol. II, P. 457, (H. Rackham)

٨ Skizze, II, S. 107, Hegaz, P. 290.

ومن (ثمود) ، فهو في هذه المنطقة التي دفع أصحابها الجزية الى الآشوريين :
 وتقع ديار (خطي) (Hatti) على مقربة من (أدوم) ، على رأي
 (موسل)^١ . وأما (كلاسر) ، فيذهب الى أنها كانت تسكن (الخط) ،
 سيف البحرين ، أي على ساحل الخليج^٢ . وهي منطقة قريبة من العراق، يرى
 أن من السهل الاستيلاء عليها . وقد ذكر (بلينيوس) موضعاً دعاه (خطيني)
 (Chateni) يقع على ساحل الخليج ، ولهذا رجح (كلاسر) أن (Hatti)
 هم (خطيني) هؤلاء^٣ . وقد ذكر (ياقوت الحموي) جبلاً بمكة دعاه (الخط)^٤ .



اعرابية تتبعها ابلها . من الألواح المنحوتة التي عثر عليها في عصر « ثفلت فلاسر » الثالث
 وقد نقل اللوح الى المتحف البريطاني. Helmuth Th. Bossert, 1394

وقد يكون سكان المنطقة المجاورة له عرفوا باسم (الخطيون) ، وقد مارسوا
 التجارة ، وبعثوا كالقبايل الأخرى بتجاراتهم الى اليمن وبلاد الشام والعراق ،
 ولذا دفعوا الجزية إلى الآشوريين ليسمحوا لقوافلهم باجتياز الطرق البرية التي خضعت

١ Hegaz, P. 290.

٢ البلدان (٤٤٩/٣) ، المفضليات (٢٤٥) .

٣ Skizze, II, S. 75, Forster, II, P. 216.

٤ البلدان (٤٤٩/٣) .

لسلطانهم وللاتجار في أسواق مملكة آشور :

ويظهر ان (ادبثيل) (ادبعيل) (Idiba'il) ؛ القبيلة المذكورة في نص (تغلث فلاسر) ، هي قبيلة (ادبثيل) (Adabeel) في التوراة . وهي إحدى القبائل الإسماعيلية على حسب رواية نسابي العبرانيين^١ . وكانت منازلها في جنوب غربي البحر الميت على مقربة من غزة وإلى جنوب غربها عند حدود مصر ، وفي طور سيناء^٢ . وكان يسكن إلى الشرق منهم ومن قبيلة (خطي) وكذلك إلى الجنوب الشرقي وشرقي (بثر السبع) (Beersheba) (مبسام) (Mibsam) و (مشماع) ، وهما ولدان من ولد (اسماعيل)^٣ ، ويمثلان قبيلتين من القبائل الإسماعيلية . ويظهر من (أخبار الأيام الأول) أن بني (مبسام) و (مشماع) كانوا من بني (شمعون) ، وكانوا من بطون (الشمعونيين) القوية ولهم أرضون واسعة^٤ . ويشير هذا إلى أن (المبسميين) و (المشماعيين) كانوا قد توسعوا وتصارهوا مع (الشمعونيين) واختلطوا بهم ، فاختلط الأمر ، وعدّ الدين نصاهروا مع الشمعونيين واختلطوا بهم منهم ، مع أن أصلهم من الإسماعيليين ، أي من العرب الشماليين^٥ .

وقد عيّن (تغلث فلاسر) في سنة (٧٣٤ ق. م.) عربياً (Arubu) اسمه (ادبثيل) (Idiba'il) في وظيفة (قيو) (Kepu) ، أي والياً على (مصري) ، ليدبر شؤونها بالنيابة عنه ، وجعل تحت تصرفه خمسة وعشرين موضعاً من (عسقلان)^٦ . ويحتمل أن يكون هذا الرجل — على رأي (موسل) — شيخاً من قبيلة (ادبثيل) ، كان مقيماً مع قبيلته في (طور سيناء) ، وكان له سلطان واسع بلغ حدود مدينة (غزة)^٧ . ولم يكن هذا الشيخ الذي اعتمد

١ التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١٣ ، أخبار الأيام الأول ، الأصحاح الأول ، الآية ٢٩ .

٢ Hastings, P. 12, Enc. Bibl. P. 65, Hegaz, P. 291, Deserta, P. 478.

٣ التكوين ، الأصحاح الخامس والعشرون ، الآية ١٣ فما بعدها أخبار الأيام الأول الأصحاح الأول ، الآية ٢٩ فما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (٣٠٨/٢ ، ٣٤٤)

٤ أخبار الأيام الأول ، الأصحاح الرابع ، الآية ٢٥ فما بعدها .

٥ Deserta P. 479.

٦ Reall, I, S. 125. Deserta, P. 478, Winckler, AOF., I, S. 25.

٧ Deserta, P. 478. Arabien, S. 21.

طلبه ملك آشور فعينه والياً عنه، إلا سيد قبيلة كلف حماية الحدود وحفظ مصالح الآشوريين بحفظ الأمن والسلامة ومنع الغزو والتحرش بالحدود . ولما كان من الصعب على الجيوش النظامية ولوج البوادي وتعقب أثر الأعراب ، فكرت الحكومات القديمة والحكومات الحديثة في القرن العشرين في حماية مصالحها بدفع جماعات شهرية وسنوية وهدايا الى سادات المشايخ ، وتعيين بعضهم في مناصب كبيرة ، ليتولوا حماية الحدود ، وكبح جماح البدو ومنعهم من الغزو، والاستفادة منهم في ازعاج خصومهم بغزوهم ومحاربتهم أو محاربة القبائل المتحالفة معهم ، كالذي فعله الفرس واليونان والرومان والدول المستعمرة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

ويظهر ان بلوغ جيوش (تغلاتلaser الثالث) غزة كان في حوالي السنة (٧٣٨ ق. م.) . فسيطر الآشوريون بذلك على هذا الميناء المهم ، الذي كان نهاية طرق القوافل التجارية الآتية بصورة خاصة من الحجاز^١ ، وهو ميناء كان مقصد تجار يثرب ومكة حتى عند ظهور الإسلام .

ويحدثنا (مرجون الثاني) (٧٢٤ - ٧٠٥ ق م) أنه في السنة السابعة من حكمه ، سنة (٧١٥ ق م)^٢ أدب (تمودي) (Tamudi) و (اباديدي) (عباديدي) و (مرسماني) (Marsimani) و (خيايه) (Hajapa) ، وهزمهم ، ونقل من وقع في يديه منهم الى (السامرة) (Samaria)^٣ . ثم يذكر بعد هذا الخبر أنه تلقى الجزية من (سمسي) (Samsi) ملكة (اربي) ومن (برعو) (Pir'u) ملك (مصري) (Musuri) ومن (يتع أمر) (It'amra) السبئي^٤ . وذكر أن الجزية كانت من الذهب وحاصلات الجبل والحجارة الكريمة والعاج وأنواع البذور والنبات والخيل والإبل^٥ . ويتبين من أسماء المواضع والقبائل التي ذكرها (مرجون) ، أن تلك المعارك كانت قد وقعت في أرضين تقع في الشمال الغربي من جزيرة العرب ، وفي المنطقة

١ Arabien, S., 21.

٢ « شركينا الثاني » ، ادي شير (ص ٨٨)

٣ سنة « ٧١٥ ق م » ، بحسب راي Reall, I, S. 125

٤ Schrader, KLB. Bd. II, S. 42, Rawlinson, The Five great Monarchies, II, P. 415
Reall, I, S. 125.

٥ Reall, I, S. 125, Winckler, Sargon I, S. 20.

٦ Luckenbill, II, 17.

الواقعة فسيما بين خليج العقبة و (تباء) والبادية . ولا بد وأن تكون الجيوش الآشورية قد هاجمتها من الشمال أي من فلسطين :

وقد ورد في بعض ترجمات نص (سرجون) أنه نقل الأعراب الذين يتزلون في مواضع نائية من البادية ، ولم يعرفوا حاكماً رسمياً ولا موظفاً ولم يدفعوا جزية الى أي ملك سابق ، نقلهم الى (السامرة) وأسكنهم فيها^١ . ويظهر أن هذه الجملة لا تخص الجملة السابقة التي ذكر فيها (ثمود) وبقية الأسماء ، وليست معطوفة عليها ، لأنه وصف هؤلاء الأعراب بأنهم سكان بؤادٍ نائية ، ولم يدفعوا الجزية لأحد من قبل ، على حين يقيم المذكورون في أرض معروفة ولمازلهم أسماء ، وهي ليست من البوادي .

وورد في هذه الترجمات بعد جملة (ويشع أمر السبي) « ومن هؤلاء الملوك ملوك على الساحل ، ومنهم ملوك في البادية . تسلمت منهم جزية : تبرأ ، وأحجاراً كريمة ... الخ »^٢ ، مما يدل على أن أولئك الملوك كانوا يحكمون أرضين واسعة تمتد من البادية الى البحر الأحمر .

ووردت في نص (سرجون) المشار اليه أسماء مواضع هي (Uaidaue) و (Bustis) و (Agazi) و (Ambanda) و (Dananu) ، ووردت معها جملة : (اربي الساكين في مشرق الشمس) (اربي مطلع الشمس) . ولهذا ذهب بعض الباحثين الى أن الأسماء المذكورة هي أسماء مواضع في أرض (اربي)، أي البادية . وهو رأي يعارضه باحثون آخرون ، لغموض العبارة ، ولتعذر القول إن أسماء هذه المواضع تعود الى (اربي الساكين في مشرق الشمس)^٣ :

أما (تمودي) (Tamudi) ، فلأنهم (ثمود) ، الذين سبق أن تحدثت عنهم : وأما (أباديدي) (Ibadidi) ، فشعب لا نعرف من أمره شيئاً . وقد ذهب (موسل) الى احتمال كونهم (أبيداع) (Abida) المذكورين في التوراة^٤.

Pritchard, P. 286. ١

Pritchard, P. 286. ٢

٣ « اربي شانخ شمسي » "Aribi Sha Nipikh Shamschi"

Reall, I, S. 144, Delitzsch, S. 306, Winckler, Sargon I, S. XXVII, UAG. 112

Rost, MVAG. 1897, 2, S. 84,

٤ التكوين ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٤ ، اخبار الأيام الاول الاصحاح الاول ، الآية ٣٣ ، قاموس الكتاب المقدس (٢٨/١) ،

Hastings, P. 3, Enc. Bibl. P. 14.

وهو فيها ابن (مديان) ، أي (مدين) . ويرى أن مساكنهم كانت في جنوبي شرقي (أيلة) (Elath) أي العقبة ، على الطريق التجارية المهمة التي تربط ديار الشام بالحجاز^١ .

ورأى (كلاسر) أن (الاباديدي) هم (Apataei) المذكورون في جغرافيا (بطلميوس)^٢ ، وكانوا يقيمون في مكان يقال له (وادي العبايد) أو (العبايد) على مقربة من العقبة ؛ أو أن فرعاً منهم كان يقيم في هذا المكان^٣ . وذهب (فورستر) الى أن شعب (Apataei) ، هم شعب آخر ، وأن الكلمة هي في الأصل (Nabataei) ، وهو شعب كانوا يقيمون في موضع (نبت) على ساحل الحجاز^٤ .

ولا نعرف من أمر (مرسماني) (Marsimani) شيئاً يذكر ، ولم يرد لهذه القبيلة اسم في التوراة . غير أن بعض الكتبة (الكلاسيكيين) ذكروا قبيلة عربية يظهر أنها كانت تقيم في جنوب شرقي (العقبة) سموها (Batmizomaneis) (Banizomaneis) ، وقد كانت في جوار قبيلة (Thamudeni) أي ثمود^٥ . ويرى (موسل) احتمال كون هذه القبيلة هي (مرسماني) ، تحرف اسمها في النص الآشوري أو حرفه الكتبة (الكلاسيكيون) حتى صار على نحو ما نرى^٦ . وعلى كل حال فإن على لفظة (Marsimani) طابع العروبة ، فلا يستبعد أن تكون من (مرسم) ، أو أسماء أخرى عربية قريبة منها .

ويظهر أن كراهية الأعراب للآشوريين كانت شديدة جداً ، لم تخفف من حدتها لا سياسة القوة والعنف ولا سياسة التودد واللين . لقد حلت هذه الكراهية القبائل على مدد يد المساعدة الى كل مبغض للآشوريين ، أو متمرد عليهم ، فقدمت المعونة الى (مردخبلدان) (مردخ بلدان) (مردخ بلادان)^٧

١ Hegaz, P. 292.

٢ Skizze, II, S., 289.

٣ « العبايد » ، البلدان (١٠٤/٦) ، Skizze, II, S. 259.

٤ Forster, I, P. 233. ff.

٥ Diodorus, Bibliotheca, III, 43. f.

٦ Hegaz, P. 292.

٧ « مردخ بلادان » ، (مردخ بلدان) ، (مردود خلبندان) ، ادي شير (ص ٩٧)

Reall., I, S., 125, Deserta, p. 480.

(Merodachbaladan) ملك بابل خصم وعدو (سنحاريب) (سنحريب) وأرسلت (ياتية) (يشعة) (بطيعة) (Ja'iti'e) ، ملكة (اريبي) جيشاً لمساعدته ومناصرته في كفاحه هذا مع الآشوريين وضعته تحت قيادة أخيها (بسقانو) (بصقانو) (Basqanu)^١ ، إلا أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الآشوريين ، فنزلت به خسارة فادحة ، وأسر (بسقانو) وأسر معه معظم جيشه ، وكانت هذه الهزيمة في موضع (كيش) (Kish) . وقد كانت في حوالي سنة (٧٠٣) أو (٧٠٢) قبل الميلاد على رأي بعض الباحثين^٢ .

ويظهر أن لفظة (Iati'e) هي تحريف لاسم عربي من أسماء النساء لعلها (بطيعة) أو ما يشابه ذلك . وقد كانت ملكة إذ ذاك ، أي أنها كانت مثل (زيبية) و (شمس) المذكورتين . وأما اسم (بسقانو) (Basqanu) ، فالظاهر أنه (الباسق) فإنه قريب منه .

وبحدثنا (سرجون) في كتاباته عن أيامه وعن أعماله المجيدة أن الملك (أيري) (Uperi) ملك (دلون) سمع بقدرة آشور وبِعظمتها فأرسل هداياه إليه^٣ . ومعنى هذا أن البحرين كانت إذ ذاك تحت حكم ملك اسمه (أيري) ، لعله (أير) ، وأن الصلات السياسية كانت وثيقة بين آشور والبحرين في ذلك العهد . وقد ذكر (سرجون) أن (أيري) ، (ملك دلون) ، كان يعيش كالسمكة في وسط بحر الشروق ، البحر الذي تشرق عليه الشمس ، وعلى مسافة ثلاثين ساعة مضاعفة ، وكان قد سمع بجلال عظمي فأرسل بالهدايا إلى^٤ .

وفي هذا الخبر إشارة واضحة إلى استقلال البحرين ، أي جزيرة (دلون) وخضوعها لحكم ملك لعله كان من أهلها . ولما كان القسم الجنوبي من العراق تحت حكم الآشوريين في هذا العهد . وللبحرين علاقات تجارية متينة مع هذا القسم ، لذلك أرسل هدايا ثمينة إلى ملك آشور .

ويظهر من خبر آشوري يعود عهده إلى أيام الملك (سنحاريب) (سنحريب) ،

Reall, I, S., 125. ١

Reall, I, S., 125, British Museum Cylinder, 113, 203, Smith, First Campaign of Sennacherib, P., 62, (1921), Deserta, P., 480. ٢

Ancient Iraq, P., 281. ٣

Belgrave, P. 87. ٤

وهو ابن (مرجون) ، أن ملك البحرين لما سمع بخبر اجتياز هذا الملك نهر الفرات ودخوله الخليج ووصوله أرض جزيرة (دلون) ، أسرع فاعترف بسيادة ملك آشور عليه. وكان هذا الملك قد دكَّ أرض بابل في حوالي السنة (٦٨٩ ق.م.) ، وسار منها متوجهاً نحو أرض الخليج . وفي هذا الخبر إشارة الى أن علاقة الآشوريين بالبحرين كانت وثيقة في هذا العهد أيضاً ، وإن ملك البحرين كان يخشى ملك آشور ، لذلك اعترف بسيادته الاسمية عليه^١ .

وأخبرنا (سنحاريب) (سنحريب) (٧٠٥ - ٦٨١ ق.م.) انه تسلم هدايا من (كرب ايل) (كربي - ايلو) (Karibi-ilu) ملك سبأ (Saba'i) ، اذ بنى بيتاً أو معبداً (بيت اكيكو) (Bit-Akitu) ، للاحتفال فيه بعيد رأس السنة والأعياد الأخرى^٢ . وكان من جملة هذه الهدايا أحجار كريمة وأنواع من أفخر الطيب ذي الرائحة الزكية الطيبة (Rikke Tabutu)^٣ ، وفضة وذهب وأحجار ثمينة أخرى^٤ ، وهي أمور اشتهرت بها العربية الجنوبية ، كما عرفت بتصديرها هذه المواد الى الخارج ، وقد تحدثت عنها التوراة في مواضع من الأسفار^٥ .

وقد ذهب (هومل) الى أن (كربي - ايلو) ، هذا هو (كرب ال) (كرب ايل) أحد (مكربي) (مقربي) سبأ ، أي الكهان الحكام ، ولم يكن ملكاً على عرش سبأ وإن دعاه (سنحاريب) ملكاً ، ذلك لأن الآشوريين لم يعرفوا لقبه الرسمي ، أو لأنهم لم يهتموا بذلك فجعلوه ملكاً . وهذه الهدايا لم تكن جزية فرضت عليه ، بل كانت هدية من حاكم الى حاكم ، وقد بعث بها اليه مع القوافل الداهية الى الشام بطريق غزة ، أو طريق مكة ، فالبادية الى العراق^٦ . وعندني ان من الجائز أن يكون (كربي - ايلو) هذا سيد قبيلة أو أميراً من الأمراء الذين كانوا في العربية الشمالية ، من المجاورين لتلك القبائل

١ Belgrave, P. 56, 87.

٢ Handbuch. I, S. 76.

٣ Reall. I, S. 61.

٤ « طبوتو » ، (طيبوتو) ، (طيب)

٥ Handbuch, I, S. 76, O. Schroeder, Keilschrift Texte aus Assur. Hist. Inhalts, II, No. 122, Leipzig, 1922.

٦ Handbuch. I, S. 76, 86.

التي تحدثت عنها وسبق لها أن قدمت هدايا لآشور ، وكان من السبيين النازحين الى الشمال الذين حلوا محل المعينين .

ولما قضى (سنحاريب) على مقاومة البابليين وعين عليهم ملكاً منهم ، كان قد تربى في قصور الآشوريين فأخلص لهم ، سار الى بلاد الشام لانخضاع العمونيين والمؤابيين والأدوميين والعرب والعبرانيين ، فقد كان هؤلاء قد انتهزوا فرصة قيام البابليين وقبائل لآرم والعرب والعميلاميين على الآشوريين للتخلص منهم ، فألفوا حلفاً بينهم في جنوب بلاد الشام ، أي في فلسطين والأردن ، واتحدوا لمحاربة (سنحاريب) . فلما وصل الى ساحل البحر المتوسط ، أخذ جيشه يستولي على المدن ، الفينيقية والفلسطينية ، ويتقدم نحو الجنوب حتى بلغ (عسقلان) (Ashkelon) . ولما وصل الى موضع (التقه) (علقه) (Eltekeh) (Altekeh) ، اصطدم بالعرب وبالمصريين ، غير انه تغلب عليهم واستولى على (التقه) وعلى (تمّة) (تمنث) (ثمنة) (Timnath) ^١ و (عقرون) (عاقر) (Ekron) ^٢ .

وفي أنباء الانتصارات التي سجلها (سنحاريب) لنفسه انه قام في حوالي السنة (٦٨٩ ق.م.) بحملة على الأعراب التابعين للملكة (تلخونو) (Telhunu) ملكة العرب (Arabi) ، أي أعراب البادية ، وعلى الملك (خزا ايلي) (خزا ايلي) (Haza-ili) ، ملك (قيديري) (Qidri) ، أي القيداريين ، فسارت جيوشه في اتجاه (أدوماتو) (دومة) (Adummatu) ، فتغلبت على العرب وعلى القيداريين ^٣ . ويقصد بـ (أدوماتو) (دومة الجندل) ^٤ . وقد كانت (أدوماتو) (Adummatu) من مواضع (أريبي) (عربي) الحصينة ^٥ .

١ . يحتمل انها « تبنة » في الزمن الحاضر ، قاموس الكتاب المقدس (٢٩١/١)
٢ « عقرون » من مدن الفلسطينيين الخمس ، وتسمى الآن عاقر ، على تل يبعد اثني عشر ميلاً عن يافا الى الجنوب الشرقي ، تنبأ « صفيا » بخرابها ، أذ قال : « عقرون تستأصل » ، صفيا ٢ ، الآية { ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٨/٢) وما بعدهما }
٣ . أدى شير (ص ١٠٨ فما بعدها) ، Hastings, P. 67, Reall, I, S. 125.
٤ . Reall, I, S. 125, Ungnad, Vorderasiatische Schriftdenkmaler I, No. 77. II, 22. ff.
٥ . Olinstead, History of Assyria, P. 310.

Deserta, P. 480.

Reall, I, I Lieferung, S. 39.

وهي في موضع بعيد عن عواصم الدول الكبرى ، الا انها لم تنج مع ذلك من غزوات تلك الدول . وقد ذكرها (بطلميوس) باسم (Doumatha) (Adomatho)^١ .

وقد جاء في نص آشوري ان الملك (سنحريب) أرسل حملة الى الخليج ، فانتصرت وحقت رغباته ، وقد فرّ ملك (أرض البحر) الى أرض (عيلام) . ويظهر انه بنى أسطولا قوياً حمل جنوده الى تلك الأنحاء ، فلم يتمكن أهل الخليج من مقاومته واضطر الى الخضوع لآشور^٢ .

ويظهر ان (سنحريب) كان قد تمكن فعلاً من إخضاع الأعراب له ، ومن السيطرة عليهم ، ويرى بعض الباحثين في نعت (هيرودوتس) له بأنه (ملك العرب والآشوريين)^٣ تعبيراً عن إخضاع (سنحريب) الأعراب لحكمه وان كان ذلك قد وقع لأمد محدود^٤ .

وفي نص دوتنه (أسرحدون) (٦٨٠ - ٦٦٩ ق. م.) عن أعماله وعن أعمال والده ان أباه (سنحاريب) ، أخضع (أدومو) (Adumu) (معقل أربي) ، واستولى على أصنامها ، وحملها معه الى عاصمته ، وأسر ملكتها (Iskallatu) التي كانت كاهنة للإله (دليات) (Dilbat) ، وأسر الأميرة (تبوة) (Tabua) كذلك . فهو يؤيد بذلك ما ذكره أبوه من انتصاراته على العرب^٥ .

ولم يتحدث النص الآشوري عن الجهة التي هاجم منها (سنحاريب) (دومة الجندل) أي (Adummatu) (Adumu) (Adumu) . ويرى (موسل) أنه هاجمها من إقليم (بابل) ، ويرى أيضاً أن سلطان الملكة (تلخونو) كان يشمل منطقة واسعة تمتد من (أدومو) الى حدود بابل . وقد كان أعراهم يمتارون ويتاعون الطحين والملابس والمواد الضرورية الأخرى من بابل ، فيسلكون البادية ، ومن هذه البادية وصلت امداد الملكة وقواتها الى بابل لمساعدتها في مقاومة

١ Albright, in JRAS., 1925, P. 293, Hommel, Geographie, S. 581. f, 594.

٢ العرب والملاحه في المحيط الهندي ، جورج فاضلو حوراني (ص ٣٨ وما بعدها)

٣ Herodotus, II, 141.

٤ Grohmann, S. 22.

٥ Reall. I, S. 126, «Jal'u», «Jata», «Jauta», Pritchard, P. 289, «91».

آشور ، فاشتركت مع البابليين في الحرب ، على حين هاجم فريق آخر من أتباع الملكة المقاطعات الآشورية في بلاد الشام . فلما تغلب (سنحاريب) على بابل وانتصر عليها في سنة ٦٨٩ ق.م ، تفرغ لمحاربة الملكة والانتقام منها ، فأمر قواته بالضغط على أتباع الملكة ، وتعقبهم في البادية لحفظ الحدود . ثم حاصر (أدومو) ، حتى تغلب عليها ، وانتصر على هذا المعقل الذي التجأ اليه أتباع هذه الملكة وغيرهم للخلاص من الآشوريين^١ .

ويظهر من النصوص الآشورية أن خلافاً وقع بين الملكة (تلخونو) والملك (خزا ايلي) ، قد تكون أسبابه المزعجة التي حانت بهما ومحاصرة (سنحاريب) لهما في (دومة الجندل) . وقد كان (خزا ايلي) على ما يظهر هو الذي تولى قيادة الجيش ، وتنظيم خطط الدفاع والهجوم . فسببت الهزائم التي حلت بهما غضب الملكة عليه وعلى سوء قيادته (فنضبت تلخونو على خزا ايلي ملك ارببي)^٢ . ولعلها اختلفا أيضاً بسبب محاصرة (دومة الجندل) والدفاع عنها أو عدمه . ومهما يكن من شيء ، فقد استسلمت الملكة (تلخونو) للآشوريين ، وتغلبت جيوش (سنحاريب) على هذا المعقل ، وأخذت الأصنام أسرى الى (نينوى) كما أخذت الأميرة (تبوة) (Tabua) أسيرة الى عاصمة آشور ، لتربى هناك تربية يرضى عنها الآشوريون ، ولتهذب تهذيباً سياسياً خاصاً يؤهلها أن تكون ملكة على (ارببي) :

أما (خزا ايلي) ، فقد تمكن من خرق حصار الآشوريين على (دومة الجندل) ومن الاعتصام مع أتباعه بالبادية ، حيث لم يكن في قدرة (سنحاريب) مطاردتهم وإيقاع خسائر بهم ، وبقي في هذه البادية طول حياة (سنحاريب) . فلما توفي هذا الملك ، وانتقل الملك الى ابنه (أسرحدون) ، وزالت أسباب الجفاء ، قصد نينوى لمقابلة الملك الجديد ، ومعه هدايا كثيرة ، سُرَّ بها الملك واستقبله بلطف ورعاية ، وسلمه الأصنام الأسيرة السيئة الحظ التي كان عليها أن تشارك أتباعها الحياة الأرضية المزعجة ، وتمكنت كل من (عتر سيمانين) (عثر السماء) و (دبلات) و (دايا) (ديه) (Daja) و (نوهيا) (نهيا) (نهى) (Nuhaia) و (ابريلو) (Ebirillu) و (عثر قريمة) (عثر قرمي)

Deserta, P. 480. ١

British Museum Tablets, K3087, K3405. ٢

(Atar Kurumaia) ، وهي الآلهة التي كتب عليها أن تسجن ، من استنشاق ريح الحرية ثانية ، ومن استعادة مقامها بين عبادها ، فوضعت في أماكنها ، وسر أتباعها ولا شك بهذه العودة ^١ .

وفي أثناء وجود تلك الأصنام في الأسر، أصيبت ببعض التلف، فن^٢ (أسرحدون) عليها بالأمر باصلاح ما أصابها واعادتها الى ما كانت عليه ، ثم تطف فأمر بإرجاعها الى (خزا ايلي) (خزائيل) ، بعد أن نقشت عليها كتابة تفيد تفوق إله آشور على تلك الأصنام ، وبعد أن نقش عليها اسم الملك ^٣ .

وأراد (أسرحدون) تنصيب (تبوة) (Tabua) ، التي تربت تربية آشورية ، ملكة على (أربي)، ليضمن بذلك فرض سلطان آشور على الأعراب : وهو حلم تحقق ، ولكنه لم يدم طويلاً ، لأن العداء بين الآشوريين والعرب كان عميقاً ، لا يقضي عليه منح تاج ، ونصب ملك أو ملكة ^٤ .

واعترف (أسرحدون) بـ (خزا ايلي) ملكاً على قبيلة (قيدار) ، في مقابل إتاوة يدفعها ، قدرها خمسة وستون جملًا ^٥ . فلما توفي (خزا ايلي) ، سنة (٦٧٥ ق. م) اعترف (أسرحدون) بابنه (ياتع) (ياطع) (بطع) (يثع) (Uaite') ملكاً مكان أبيه، على أن يدفع إتاوة سنوية كبيرة مقدارها ألف (من) (Minae) من الذهب ، وألف حجر كريم وخمسون جملًا ، وطيب ، أي أكثر مما كان يدفعه أبوه ^٦ . وقد رضي الابن بذلك على أمل أن ينعم عليه بتاج كفيما كانت الشروط . غير أن حسابه هذا لم يكن دقيقاً ، فقد ثار عليه شعبه الذي أبى أن يخضع لرجل فرض عليه فرضاً ، وأبى قبوله ملكاً عليه . وقام — وعلى رأسه الزعيم (اوبو) (وهبو) — (وهب) ، (أوب) (Uabo) (Uaboa) بثورة عامة للتخلص منه ، ومن سلطان الآشوريين . وأسرع الآشوريون فأرسلوا جيشاً لإخماد هذه الثورة ، فأطفأها ، وأسر

Pritchard, P. 291, D.J. Wixman, The Vassal-Treaties of Esarhaddon, London, 1958, P. 4. ١

Pritchard, P. 291. ٢

Pritchard, P. 291. ٣

Deserta, P. 482. ٤

Hastings, P. 832. ٥

Grohmann, S. 22. ٦

(أوبو) (Uabo) وأخذ الى (فينوى) ، إلا أن الانتصار عليه لم يقض على مقاومة العرب للآشوريين وثورتهم عليهم ، فقاد (يابتي) (يثع) (Uaite) الثورة هذه المرة ، ورفع راية الحرب على الآشوريين ، وغزا هو وأتباعه حدود الامبراطورية الآشورية المحاذية للبادية ، واضطر الآشوريون الى تجهيز حملة جديدة انتصرت عليه ، وهاجمت مضاربه ، وقبضت على أصنامه ، وأخذتها معها أسرى للمرة الثانية ^١ . أما (يابتي) ، فقد فر وحيثاً الى أصقاع بعيدة ، على ما جاء في النص ^٢ . والأصقاع البعيدة ، هي البادية ، ولا شك ، حيث يصعب على الآشوريين التوغل فيها للتوصل اليه . لذلك صارت مأوى لكل ثائر تحمل به خسارة . فإذا نجح بنفسه ، وتمكن من الفرار من ساحة الهزيمة الى البادية ، صار في حصن أمين ، لا تمتد اليه الأيدي بسوء الا اذا كان المهاجمون من أبناء جنسه ، الأعراب :

وقام (أسرحدون) ، بعد هذه الحملة ، بحملة أخرى على قبائل عربية تنزل أرض (بازو) (Bazu) و (خازو) (Hazu) ^٣ . وقد ابتدأ بها في اليوم الثاني من شهر (تشرى) من السنة الخامسة من سني حكمه . وهي تقابل سنة (٦٧٦ ق. م.) ^٤ . وقد قتل فيها ثمانية ملوك ، هم : (كيؤ) (Kiau) ^٥ (قيسو) (Kisu) و (كي-ي-سو) (Ki-i-su) ملك (خلديلي) (Haldilli) ^٦ . و (اكبرو) (Agbaru) (Ak-baru) ، وهو ملك (ال بياتي) (البياتي) (ايل بياتي) (Ilpiati) ^٧ (Na-pi-a-te) ^٨ ، و (منسكو) (منساكو) (منسك) (Mansaku) (Ma-an-sa-ku) ، ملك (مجل اني) (مجلاني)

II, S., 217, 377, British Museum, A Guide to the Baby. and Assy. Antiquities, ١
II, S., 217, 377, British Museum, A Guide to the Baby. and Assy. Antiquities,
P. 227, Deserta, P. 482.

Luckenbill, II, 916, ٢

Rawlinson, Cunel. Inscr., Col. 3, II, 25-52, III, Pl., 15, 16 Col. 4 II 10-26. ٣

Schrader, Kell. Bibl. II, S. 131 Deserta, P. 482.

Reall. I, S. 440, Skizze, II, S. 4, ff. Hommel, Geschichte Babyloniens-Assyriens, S. 709. ٤

سومر : الجزء الثاني ، ١٩٤٩ م ، المجلد الخامس (ص ١٤٠)

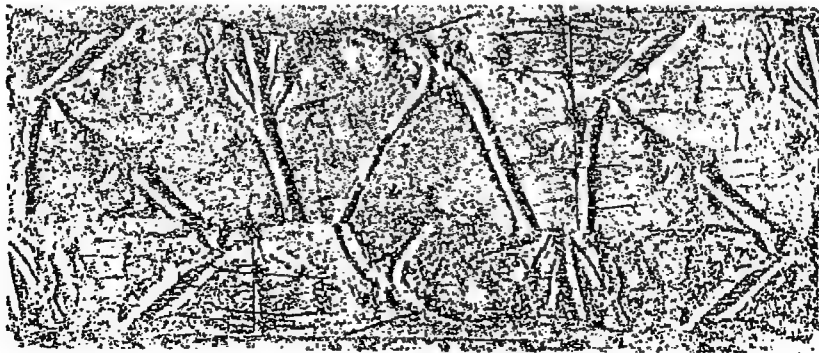
Reall. I, S. 440, ٥

«Dil-di-Il», «Kud-di-Il», Deserta, P. 488, Skizze, II, S. 265. ٦

Reall. I, S. 42, 440, Schrader, Kell. Bibl. II, S. 146 ٧

Skizze, II, S. 265, Deserta, P. 483. ٨

(Magal'ani) (Ma-gal-a-ni) ^١ ، والملكة (يافا) (ايفع) (يفع) (Iapa')
 (Ja-pa') ، ملكة (دخراني) (دحراني) (دخر) (Dihrani) ^٢ (Didhrani)
 و (نجيصو) (خابصو) (جيسو) (Habisu) (Kha-bi-su) ملك (قدابا)
 (Qadab') ^٣ ، و (نهارو) (نيعرو) (نهارو) (نحر) (Niharu)
 (Ni-kha-ru) ملك (جاباني) (جعباني) (جعباني) (Ga'pani) ^٤ ،
 والملكة (با ايلو) (بائلة) (Ba'ilu) (Ba-i-lu) ملكة (اخيلو) (Ihilu) ^٥



آشوريون يحرقون خيمة أعراب نيام Helmuth Th. Bossert, Altsyrien, 1397

و (نجين امرو) (نجين عمرو) (حبن امرو) (حبان امرو) (Habanamru)
 (Kha-ba-zi-ru) ملك (بداء) (بدع) (Buda') ^٦ . وأسر خلقاً من
 أتباعهم أخذهم الى أرض آشور كما حمل آلتهم معه . وتمكن أحد الملوك ، وهو
 الملك (ليل) (Laili) (ليلة) (Laiale) ملك (يادى) (ياديا) (يدع)
 (Iadi) (Jadi') من النجاة ، غير انه ذهب الى نينوى بعدئذ ، حيث طلب
 العفو والصفح عما بدر منه ، فقبل (أسرحدون) منه ذلك ، وتآخى معه ،

«Ma-gal-Za-ni», Skizze, II, S., 265, Reall., I, S., 440, Deserta, P. 483. ١

«Di-lkh-ra-a-ni», «Di-lkh-ra-ta-a-ni», Skizze, II, S., 266. ٢

«Ka-da-ba'-a», «Ka-ta-ba'-a», Skizze, II, S. 266. ٣

«Ga'-u-u-a-ni», Skizze, S. 266. ٤

«I-khl-lu», Reall. I, S. 392, Schrader, Keil. Bibl. II, S. 148, Skizze, II, S. 266. ٥

Reall. I, Sechste Lieferung, s. 440, II, S. 74, «Pu-ta'-a», «Bu-da-a», Asarh. Prism Br. Col. IV, L. 22, Schrader, Keil. Bibl. II, S. 148, Skizze, II, S. 266. ٦

وأعاد اليه أصنامهم ، وعينه ملكاً على أرض (خازو) و (بازو) (بازي)
على أن يدفع الجزية اليه^١ .

وقد ورد في التوراة اسم (بوز) و (حزو)^٢ . أما (بوز) ، فهو
ابن ناحور أخى ابراهيم ، ويظن ان لاسمه صلة باسم أرض (بوز)^٣ : وأما
(حزو) فانه أحد أولاد (ناحور)^٤ . وقد ذكرت كلمة (بوز) بعد (تيماء)
في سفر (إرميا) ، حيث ورد : « وكل اللفيث وكل ملوك أرض عوص ،
وكل ملوك أرض فلسطين وأشقلون وغزة وعقرون وبقية أشدود ، وأدوم ومثاب
وبني عمون ، وكل ملوك صور ، وكل ملوك صيدون ، وكل ملوك الجزائر
التي في عبر البحر ، وددان وتيماء وبوز ، وكل مقصوصي الشعر مستديراً ،
وكل ملوك العرب وكل ملوك اللفيث الساكنين في البرية »^٥ . ف (بوز)
في التوراة اسم موضع ، واسم شعب ، وقد ورد في التوراة اسم رجل من (بوز)
سمي (اليهو) (Elihu) البوزي ، وهو ابن (برخثيسل) ، وكان صديق
(أيوب) وحكماً في المحاورة التي جرت بين أيوب وأصحابه الثلاثة الذين أتوا
ليعزّوه في المصائب والبلايا التي نزلت به^٦ . وأيوب كان من سكان أرض
(عوص)^٧ ، وهو عربي على رأي عدد من علماء التوراة .

ولم يحدد موقع (بوز) في التوراة : ولكن ورود (بوز) بعد ددان وتيماء
في الموضع الذي ذكرته من إرميا، وقبل جملة (وكل مقصوصي الشعر مستديراً) ،
يحملنا على التفكير في أن أرض (بوز) كانت في جوار تيماء ، وليست بعيدة
جداً عن (ددان) (ديدان) ، وقرية من الأعراب الذين كانوا يخلقون شعور
رؤوسهم إلاّ دائرة تبقى في أعلى الرأس، أي غير بعيدة عن البادية وعن الأعراب

١ ادي شير (ص ١١٨)

Rawlinson, The Flve, II, P. 470. ff. Reall. I, 6. te. Lieferung, «Basi», S. 440,
Deserta, P. 483, Real. I, 3. Lieferung, S. 201.

٢ التكوين ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية ٢١ وما بعدها .

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٥٥/١) .

٤ التكوين ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية الثانية والعشرون ، قاموس الكتاب
المقدس (٢٧٣/١) .

٥ إرميا ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآية ٢٠ وما بعدها .

٦ أيوب ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، الآية ٨ ، قاموس الكتاب المقدس (١٤١/١)

٧ قاموس الكتاب المقدس (١٨٨/١) .

الإسماعيليين : ولهذا ذهب (كلاسر) و (دلج) (F. Delitzsch) وغيرهما الى أن بوز ، هي (بازو) الواردة في نص (سنحاريب) ، وتقع في العريسة الشمالية^١ : ورأى (ذورمة) (Dhorme) ، أنها في منطقة تقع في جنوب شرقي الجوف^٢ . وأما (موسل) ، فيستند أيضاً الى الوصف الذي جاء في النص الآشوري عن (بازو) التي تقع في موضع قاص ، ويبدأ من السباخ وبادية مجدبة ، (١٤٠ برو من الرمال)^٣ ، وليس فيها غير الشوك ونوع من حجر يعرف بـ (حجر قم الغزال)^٤ ، ثم مهل فيه الأفاعي والعقارب مثل (الزربابو) الجراد^٥ . تليه (خازو) ، وهي أرض جبلية اتساعها (٢٠ برو) من حجر الـ (Saggilmut)^٦ . ويرى من هذا الوصف أن موضع (بازو) في غرب وفي جنوب (تدمر) وفي (وادي السرحان) ، وأن الملوك الثمانية الذين قتلهم (اسرحدون) كانوا يقيمون في وادي السرحان عند الحدود الشرقية لخوران وفي (الرحبة) و (قطبة) الى وادي (القطامي) . ويرى أيضاً أن (يدي) (يدي) (يادي) (يدي) ، وهو موضع الملك (ليلي) ، هو (الجفاف) ، أو (الودي) وذلك ببدال الحرف الأول من كلمة (يدي) بحرف الواو . وهو أمر يرى أنه كثير الحدوث ، فمن المحتمل أن يكون موضع (الودي) - على رأيه - هو (يدي) أو (يدي) مقر الملك (ليلي) (Laili)^٧ .

فأرى (موسل) أن (بازو) تعني النصف الشمالي من (وادي السرحان) . وأما الأرض الواقعة في شرق (السرحان) وفي شمال السرحان في المنطقة الجبلية ، فلإنها (خازو) (خازو) ، وقد سلك الجيش الآشوري كما يقول الطريق التجارية

١ Reall, I, S. 440, Enc. Bibl. P. 615, Delitzsch S. 307, Skizze, II, S. 265, 266.

٢ Deserta, P. 483.

٣ « كسبو » « قصبو » « Kasbu » عند (كاسر) و (دلج) بدلا من - بيرو - و - قصبو - قصب - و - بيرو - هما وحدة قياس الأبعاد والمسافات

Rawlinson, The five. II, P. 470, S. Smith, Babylonian Historical Texts, P. 18, Campbell Thompson, Assyrian Herbal, 102.

٤ « صبتي » « Sabiti » Deserta, P. 484.

٥ « زربابو » « Zirbabu » جراد ، Reall, I, S. 440, Skizze, II, S. 265.

٦ Reall, I, S. 440 Deserta, P. 482, f. Skizze, II, S. 265, Delitzsch, S. 306.

٧ Deserta, P. 484.

المارة من الحافات الشرقية لخوران الى دمشق^١ .

وقد صيرت أرض (بوز) و (بوزي) بـ (أرض أوسيتس) (Ausitis) في الترجمة السبعينية للتوراة (العهد العتيق)^٢ ، ولذلك رأى بعض العلماء أن المراد بها اسم (Aiseitai) (ايسايتاي) (ايسايتيه) ، وهو اسم موضع ذكره الجغرافي (بطلميوس) في داخل بادية بلاد العرب^٣ . ورأوا أن بوز هي هذا المكان^٤ .

ورأى آخرون أن (بازو) هي نجد، وأن البادية التي تحدث عنها (أسرحدون) هي (النفود) . وأما (خازو) فلأنها الأحساء^٥ . وذهب (رولنسن) الى احتمال كون هذه المنطقة هي أرض مملكة الحيرة ، وما يتصل بها الى جبل شمر ، لأن الوصف المذكور ينطبق - في رأيه - على هذا المكان^٦ .

وذهب (كلاسز) في مكان آخر من بحوثه المستفيضة عن (بازو) و(خازو) الى أن (خازو) هي (حزو) ، والى أن (بازو) و (خازو) في الأقسام الشرقية والجنوبية من (اليامة) الى أرض (مأكن) (Maken) الى مرتفعات (رأس الخيمة)^٧ . وأشار أيضاً الى (حزوى) ، وهي (السدوسية) لبني سعد في اليامة ، وقد ذكرها (الهمداني)^٨ ، ويرى أن هذه اللفظة قريبة جداً من (حزو) التوراة ومن (خازو) النص الآشوري . وعلى هذا تكون أرض (خازو) في اليامة ، وهي أرض ذات آثار قديمة وعاديات وخرائب تقع بين وادي (ملهم) و (وادي حنيفة)^٩ .

Deserta, P. 484. ١

٢ - العهد القديم - ، - العهد العتيق - ، - الصورة القديمة - ، الترجمة السبعينية ، هي الترجمة التي تمت في عهد الملك - بطلميوس الثاني - ٢٨٥-٢٤٧ ق. م - ، وذلك ليتمكن يهود مصر ، الذين كانوا قد نسوا العبرانية ، وتكلموا باليونانية من الوقوف على التوراة وفهمها .

Ptolemy, Geography, V, 19, 2. ٣

Reall, I, 6te. Lieferung, S. 440. ٤

Reall, I, 440, Palgrave, Central Arabia, I, P. 96, (1866) ٥

Rawlinson, The Five, II, P. 470. ٦

Skizze, II, S. 266. ٧

الصفة (ص ١٦٢) . ٨

Skizze, II, S. 289. ٩

ورأى بعض الباحثين المحدثين ان أرض (بازو) هي الساحل المقابل لجزر البحرين ، أي جزيرة (تلمون) كما كانت تعرف عند القدماء . وأما (خازو) أي (حازو) في قراءة ، فهي (الأحساء)^١ . ونرى بين اللفظين (حازو) و (أحساء) تقارباً كبيراً .

ولم يذكر (أسرحدون) كيف رجع الى بلاده بعد حملته الطويلة هذه ، ومن أي سبيل رجع الى ملكه ؟ غير ان بعض الباحثين يرون انه سلك طريقاً غير الطريق الأول الذي سلكه في حملته على الشعوب والأرضين المذكورة . يرون انه سلك طريقاً موازياً لساحل الخليج ، فاخترق أرض (بازو) و (خازو) ، (حاسو) ، ثم سار شمالاً الى اقليم بابل . و (حاسو) عندهم هي الأحساء ، وهي بين (نجد) والخليج ، وكان (أسرحدون) قد سلك في حملته الأولى كما يروون طريقاً اخترق (نجداً) . فلما قرر العودة سلك الطريق الثاني^٢ .

ويرى (موسل) ان اسم (دخراني) (Di-ih-ra-ani) هو (Dacharenoi) المذكور عند (اصطيغان البيزنطي) (Stephen of Byzantium)^٣ . أما (كلاسر) فيرى ان قبيلة (Dachareni) ، التي ذكرها (بطلميوس) بعد اسم قبيلة (Malangite) هي القبيلة المذكورة في نص (أسرحدون)^٤ ، وان قبيلة (Malangite) هي قبيلة (Ma-gal-a-ni) المذكورة في نص (أسرحدون) . ورأى احتمال كون (Gauuani) هي (جوجان)^٥ و (Ikhilu) ، هي (أجلة) أو (أخلة) ، وهما عند الخرج^٦ .

ويرى (كلاسر) احتمال وجود علاقة بين (Bi-i-lu) ، وهو اسم الملكة ، و (باهلة) ، وهو اسم القبيلة المعروفة التي تقع منازلها منذ القديم في هذه المنطقة . وعنده أن حملة (أسرحدون) قد كانت في اليامة ، حيث ينطبق وصف

١ J. Simons, P. 15.

٢ Reall, I, te, Lieferung, S. 441.

٣ Deserta, P. 484, Stephen of Byzantium, Ethnica, (meineke) I, P. 223, Forster, II, P. 141, Skizze, II, S. 5.

٤ «Dacharaemoizae» Forster, I, P. LXXIX, 138, II, 268, Skizze, II, S. 256.

٥ « جوجان » ، صفة (ص ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٠) .

٦ « أجلة » صفة (ص ١٣٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦١) . Skizze, II, S. 5.

هذه المنطقة على وصف الأماكن المذكورة في حملة (أسرحدون) أحسن انطباق^١. وبعد وفاة (أسرحدون) رأى (يتع) (يطع) (يايطع) (Uaite) أن من الأصح مصالحة الآشوريين، فذهب إلى (آشور بانبال)، (آشور بنبال) وقابله وأرضاه، فأعاد إليه أصنامهم، ومنها الصنم (عثر السماء)، (أترسمائين) (Atarsamain) (A-tar-sa-ma-a-in)، أي (عثر السماوات)، وهو الإله (عثر) إله السماء، الذي سأنحدث عنه عند كلامي على ديانة العرب قبل الإسلام، ورضي عنه وأعادته إلى منصبه^٢.

ويذكر (آشور بانبال) أن (Uaite) حثت يمينه، وخالف عهده وميثاقه معه، لما أعلن (شمش - شوم - أوكن) (Schamaschsumukin)، شقيق آشور بانبال العصيان عليه، وخاصمه، فانضم إليه، وأيده بمدد يساعده، جعله تحت قيادة (اب يتع) (أب يتع) (Abjate) و (ايمو) ابنا (تاري) (نار) (تور)، (Te'ri). وقام على رأس أتباعه بغزو الحدود الغربية لأرض بلاد الشام التي سبق أن استولى عليها الآشوريون، وأصبحت من المقاطعات الخاصة لهم، من (أدوم) (Adom) في الجنوب إلى جنوب (حماة) في الشمال. غير أن السعد لم يحالف (Uaite) في هذه المرة أيضاً، فتصدت الجيوش الآشورية للمدد الذي أرسل لمساعدة (شمش - شوم - أوكن)، وشنت شمله قبل وصوله إلى (بابل). أما الذين تمكنوا من الهرب والوصول إلى (بابل)، فقد أبعد أكثرهم كذلك. وقد اضطرت (اب يتي) (اب يتع) (Abjate) أن ينجو بنفسه بالهرب إلى البادية خشية أن يقع في الأسر، وذهب من ثم إلى (نينوى) حيث مثل أمام الملك طالباً منه العفو والصفح، وقبل الملك عذره وصفح عنه، ثم أصدر أمره بتعيينه ملكاً في مكان (Uaite) الذي كان مشغولاً بغزو حدود الشام وفلسطين الشرقية المتاخمة للصحراء أي حدود أرض (أمورو) (Amurru) على رأي بعض العلماء^٣، وذلك بعد

١ Skdze, II, S., 269, 273.

٢ «أسور بانبال» أدي شير، (ص ١٣٢) Reall. I, S. 310, 312, Schrader, KAT. S. 434, Streck, Vorderasiatische Bibliothek, VII, S. 72, Deserta, P. 485.

٣ لمعرفة آراء علماء الآشوريات في أرض «أمورو» التي تعني أرض المغرب، أو الرياح الغربية، استحسن الرجوع إلى ما كتب عن هذا الموضوع في: Reall. I, S. 99. ff. Hastings, P. 27.

هزيمة (Uaite') وتغلب الآشوريين عليه في حوالي سنة (٦٤٨ ق.م.)^١ . وقد وافق (اب يتيء) (Abjate') أن يدفع جزية الى الآشوريين ، تتألف من ذهب وأحجار كريمة وجمال وحمير^٢ .

ولم يتمكن (Uaite') من الثبات طويلاً والاستمرار على مهاجمة الآشوريين ، إذ كلف الملك (آشور بانبال) حرس الحدود والقوات الآشورية التي كانت هناك مهاجمة أتباعه ، ومعاقبة (Uaite') الذي نسي الجميل ، وخاس بعهدده على حد قول (آشور بانبال)^٣ . وبعد مصادمات ومعارك وقعت بالقرب من (ازريلو) (Azarilu)^٤ . و (خير اتكاسي) (Khiratakasi) و (ادومه) (Udume) في ممر (يردو) (Jabrudu) في (بيت أماني) (بيت عماني) (Bit Ammani) في منطقة (خوينه) (Khaurina) و (موابه) (Mu'aba) و (ساري) (Sa'ari) و (خرجه) (Kharge) و (صوبيتي) (Subiti) ، اضطر أتباع (اويتي) (Uaite') الى الرجوع الى البادية للاحتماء بها . ويظهر أنهم أصيبوا في أثناء ذلك بخسائر فادحة . وقد أكره (اويتيء) بعد هذه الخسائر على الالتجاء الى الملك (نتنو) (Natnu) ملك (نيتي) (نيبطي) (Nabaitai) (Nabaiti) تاركاً زوجته بين أتباعه من قبيلة (قيدار) (Qidri) (Kedar)^٥ .

ولما هاجم (امولاتي) (عمولاتي) (امولاتي) (Ammulati) ملك قبيلة (قيدار) (قيدري) أرض مملكة (مؤاب) (Moab) أصيبت جيوشه بخسارة كبيرة، وسقط أسيراً - ومعه (ادبا) (عادية) (عدية) (Adija) زوجة (Uaite') ملك (اربي) في أيدي الملك (Kamashkalta) (Kamaskhalta) ملك مؤاب (٦٤٨ ق.م.) . فأرسل أسيرين الى نينوى

١ Meissner, Konige, S. 246, Deserta, P. 486, Reall. I, S. 9

٢ Deserta, P. 486, Rawlinson, Cuneiform, 5, Part, I, Plate, 9, Col. 8 II 30.

III, P 1, 34, Streck, Die Inschriften Assurpanipals, II, S. 68, 134, 202.

٣ Reall. I, S. 126.

٤ Reall. I, S. 325.

٥ Deserta, P. 485, Rawlinson, IV, Part. I, P 1. 9, Streck, II, S. 64, 132.

حيث سلا الى (آشور بانبال)^١ . وكان (Ammulati) قد ساعد (شمش - شوم - أوكن) في ثورته على أخيه ، وهاجم أرض المغرب (أمورو) (Ammurru) ، لذلك سر (آشور بانبال) ؛ بهذا الانتصار الذي أحرزه (مؤاب) . وقد رسم منظر غلب (آشور بانبال) وأسر (Ammulati) و (Adija) على جدار إحدى غرف قصر الملك (آشور بانبال)^٢ .

لقد أثرت الانتصارات التي أحرزتها جيوش (آشور) في نفس (ننتو) (ناتنو) (Natnu) ملك (Nabaiti) ، فأخذ يتقرب الى (آشور بانبال) ، ومن جملة ما فعله في التقرب اليه أنه أرسل (Uaite') - الذي كان قد التجأ اليه - الى نينوى حيث سلم الى الملك الذي أمر بوضعه في قفص ، ليعرض على الناس عند أبواب المدينة^٣ . وذكر (آشور بانبال) في كتابته أن منازل (Nabaiti) قبيلة (Natnu) بعيدة ، ولم يسبق لها أن أرسلت رسلاً الى بلاط أحد من أجداده وآبائه في نينوى من قبل ، وأن هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها من هذه القبيلة رسول^٤ .

وقد وصف (آشور بانبال) موقف الأعراب وصفاً مؤثراً بهذه الكلمات : « اشتدت عليهم وطأة الجوع . ولكي يسدوا رمقهم ، أكلوا لحوم صغارهم .. » وقد سأل أهل العربية بعضهم بعضاً : ما بال بلاد العرب قد أحرق بها هذا الشر ؟ فكان الجواب : تلك عاقبة من ينكث العهد، ويخرق المواثيق التي قطعناها لآشور^٥ .

وذكر (آشور بانبال) انه عامل (Uaite') على هذه الصورة ، وذلك في عباراته التي أمر بتدوينها في النص : « حبسته في مربوط الكلاب ، وضعته مع بنات آوى والكلاب ، وأقته على حراسة الباب في نينوى^٦ . »

١ British Museum Tablet, K2802, Rawlinson, 3, Pl., 34, Col. 8, II, 31-44, Pl. 35. ff. Col. 5, II, 15-30, Reall. I, S. 36.

٢ Real. I, S. 36, 98, British Museum, A Guide to the Babylonian and Assyrian Antiquities, London, 1922, P. 184, 44, K. 2802, + K3047, + 3049.

Reall. I, S. 126. ٣

Deserta, P. 486, Ungnad, in Vorderasiatische Schriftdenkmaler, I, No. 83, Col. 3, II, 4-16. ٤

Luckenbill, II, 888. ٥

Luckenbill, II, 819. ٦

ووصف حملته على الأعراب ومطاردته لهم بهذه الكلمات : « في رمضان البادية وقبيلها ، حيث لا ترى طيور السماء وحيث لا يرى حمار الوحش ولا الغزال »^١ . وذلك من شدة جذب البادية ، وعدم احتياها الأحياء .

لم تنفع الشدة التي استعملها الآشوريون في القضاء على مقاومة الأعراب شيئاً . فأكاد (آشور بانبال) يشغل نفسه بقتال ملك (عيلام) وحربه في عام (٦٤٠ - ٦٤١ ق. م.) حتى ثارت القبائل العربية على آشور بزعامة (أبيثا) (أبي يثع) (Abijate) ابن (تاري) (Te'ri) الذي تحدث عنه سابقاً ، و (أويث) (Uaite) الثاني ، وهو ابن (بير دادا) (Bir Dadda) (أويث) ، وأخذت تنحصر ثانية بمحدود المقاطعات الآشورية المتصلة بالبادية . ولما أرسل الآشوريون جيوشاً قوية لصده هذه الهجمات ، طلبت قبيلة (قيديري) (قيدار) مساعدة (ننتو) ملك (نبي) (Nabaiti) ، فلبى الطلب ، وتحالف معهم ، وأخذوا يهاجمون الحدود ، ومعهم قبيلتنا (يسمع) (يسمأ) (Isamme') و (عثر ممين) (Atarsamain) . غير أن الجيوش الآشورية تمكنت - مع ذلك كما تدعي كتاباتهم - من الانتصار على (قيدار) وعلى حلفائهم ، فانحصرت على (Isamme') وعلى (Atarsamain) و (Nabaiti) في موضع في البادية بين (ياركى) (يركى) (Jarki) (أرك) شرق تدمر^٢ ، و (ازلة) (Azalla)^٣ ، وشتت شملهم . ثم انتصرت في معركة أخرى على (Atarsamain) على (قيدار) وقعت عند (Qurasiti) ، وغنمت فيها غنائم كبيرة من الحمير والجمال والأغنام ، كما أسرت أصنام (Uaite) وأمه وزوجته وعدداً كبيراً من أتباعه^٤ . وأخذوا إلى دمشق ، وأسر (أبي يثا) (Abjate) وشقيقه (أيمو) (Aimnu) في المعركة التي وقعت عند (خوكرينا) (Khukkurina) (Khukruna)^٥ .

١ Luckenbill, II, 823.

٢ Melsner, konige, S. 246, Streck, Vab. VII, S. S. CCLXXXII, ff.

٣ وتقع في بادية « تدمر » بين « يركى » « Jarki » ودمشق ،
Reall. I, S. 325, Reall. I, Ite, Lieferung, S. 9.

٤ Deserta, P. 487.

٥ Deserta, P. 488, Reall. I, S. 128.

أما الملك (Uaite) ، فقد اعتصم مع عدد من أتباعه بالصحراء ، غير أن الأمراض والأوبئة التي انتشرت بين أتباعه أكرهته على الذهاب إلى الآشوريين الذين نقلوه إلى نينوى ، وعرضوه أمام الملك . وقد عوقب عقاباً قاسياً، وعذب عذاباً شديداً، ثم عفا عنه الملك بعد ذلك غير أنه لم يسمح له بالعودة إلى البادية، حيث أمّله وأتباعه ومنازله ، ولعله مات في نينوى^١ .

لقد وردت في أخبار حملات الآشوريين على العرب ، أسماء مواضع منها ما يمكن التعرف عليه ، ومنها ما ليس في الامكان تشخيصه الآن ، وقد تحدثت عن بعضها . ويرى بعض العلماء ان موضع (أزريلو) (Azarilu) المذكور في أخبار انتصارات (آشور بانبال) على العرب ، هو موضع يقع في بادية الشام^٢ . وأما لفظة (أدومة) (Udume) ، فيرى (موسل) أنها تعني (أدوم) (Edom) أرض (الأدوميين) من ذرية (عيسوبن إسحاق) على رواية التوراة . وهم شعب استوطن في الأصل جبل (سكير)^٣ ، ثم توسع فسكن في منطقة شملت كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت إلى الخليج الشرقي للبحر الأحمر ، ومن ضمنها جبل (سكير)^٤ . وقد كان الأدوميون من أعداء العبرانيين :

ولما زاحم النبط الأدوميين على أرضهم ، زحفوا نحو الشمال فسكنوا في (اليهودية) (Judah) ، وتوسعوا حتى تجاوزوا شمال (حبرون) ، ولذلك دُعيت هذه المنطقة باسم (الأدومية) (Idumaea)^٥ . وذكر المؤرخ اليهودي (يوسفوس) ان من أصنامهم صنماً يدعى (كوزي) (Koze)^٦ ، ويذكرنا اسم هذا الصنم باسم الصنم (قزاح) ، وهو صنم كان يعبد على مقربة من مكة^٧ .

١ Deserta, P. 389, Rawlinson, The Five, II, P. 492.

٢ Reall. I, S. 325.

٣ التكوين ، الأصحاح الثاني والثلاثون ، الآية ٣ ، القضاة ، الأصحاح الخامس الآية

٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٥٣/١) ، Hastings, P. 203.

٥ قاموس الكتاب المقدس (٥٣/١)

٥ Hastings, P. 203.

٦ Josephus, Antiq. XV, 7, 9.

٧ Enc. Bibl. P. 1188.

وأما (Mu'aba) ، فبرى (موصل) أنها (مؤاب) المذكورة في التوراة ^١ ، وهي أرض المؤابيين ، أبناء (مؤاب) ^٢ .

وأسماء الأشخاص الواردة في النصوص الآشورية هي أقدم أسماء نعرفها وردت في نصوص تاريخية عند العرب الشماليين ، مثل (زبيبة) و (شمس) و (الباسق) الذي كتب (بسقانو) (Basqanu) في النص الآشوري ، و (أيم) الذي هو (ايمو) في النصوص الآشورية ، و (جندب) الذي صار (جنديبو) (Gindibu) في اللغة الآشورية (Kiau) (Kisu) (Ki-i-su) الذي يحتمل أنه (قيس) ، و (Agbaru) (Akbaru) القريب من أكبر أو (أنجر) أو (أجبر) ، و (خبيصو) (جيصو) (Habisu) (Kha-bi-su) الذي يحتمل أنه (خبيص) أو (خابص) أو (جيس) أو (حابس) أو (قبيصة) أو ما شابه ذلك من أسماء ، و (نخرو) (نحر) (Niharu) (Ni-kha-ru) الذي يحتمل أنه (نخر) ، أو (ناخر) أو (نهار) ، (وليلى) (Laili) (Laiale) ، الذي هو (ليلي) الى آخر ذلك من أسماء .

وورد في جملة الأرضين التي استولى عليها (آشور بانبال) في بلاد العرب ، اسم موضع دعسي (انزلكرمة) (Enzilkarme) (Al-en-zi-kar-me) ^٣ ، وهو كناية عن واحة ، يرى (ديلج) (Delitzsch) أنها تقع جنوب حوران ^٤ . وقد افتخر « آشور بانبال » الملك العظيم ، الملك الحق الشرعي ، ملك العالم ، ملك آشور ، ملك الجهات الأربع ، ملك الملوك ، الأمير الذي لا ينازعه منازع ، الذي يحكم من البحر الأعلى الى البحر الأسفل ، والذي جعل كل الحكام الآخرين يخرون له سجداً ويقبلون أقدامه ^٥ ، بأنه ملك من البحر الأعلى حتى جزيرة (دلون) من البحر الأسفل ^٦ . ومعنى هذا أن ملكه امتد من أعالي العراق الى البحرين ^٦ .

يظهر من النصوص الآشورية أن الآشوريين قاموا بعدد من الحملات يزيد

١ Deserta, P. 485.

٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٨٥/١) .

٣ Delitzsch, S. 300, Hommel, Geographie, S. 588, Reall, II, S. 404.

٤ راجع النص في : Pritchard, P. 297.

٥ Pritchard, P. 297.

٦ R. C. Thompson, In AAA, XX (1933), 71.

عددها على تسع للانتقام من الأعراب الذين كانوا قد تعودوا التحرش بهم ، ومضايقتهم عند اجتياز البوادي ، ومهاجمة قوافلهم وحدود أمبراطوريتهم ، تحرضهم بابل في بعض الأحيان ، أو حكومة مصر ، أو يدفعهم إلى ذلك أملهم في الحصول على غنائم يتعيشون منها . وقد أزعجت هذه التحرشات الآشوريين كثيراً ، وأغضبتهم ، يتجلى غضبهم هذا فيما دوتوه عنهم . وفي الصور التي رسموها للعرب في قصورهم ، فصوروهم يقبلون أرجل ملوك (نينوى) ليرضوا عنهم ، مقدمين اليهم الهدايا فيها الذهب والحجارة الكريمة وأنواع الطيب والكمحل واللبان والجمال . وصوروا الآشوريين وهم يحرقون خيام الأعراب ، وهم نيام ، وصوروا عساكرهم يقائلون الأعراب ويطاردونهم ، وهو على ظهور خيولهم المطهمة . أما العرب ، فإنهم على ظهور الجمال لا يستطيعون الافلات من الآشوريين^١ . وترجع هذه الصور إلى أيام (آشور بابل) ، حيث عثر عليها في قصره بـ (نينوى) :

وقد صور العرب ولهم لحى وقد تدلى شعر رؤوسهم على أكتافهم ضفائر ، وشد أحياناً بخيط . وأما الشوارب ، فإنها محفوفة في الغالب . وقد صور العرب وهم يركبون الجمال عراة في بعض الأحيان ، أو تمنطقوا بمنطقة ثخينة أو انزروا إزاراً تمتد من البطن إلى الركبتين^٢ . ولا تصور هذه الصور كل الأعراب بالضرورة بل هي تمثل أولئك الذين تحاربوا مع الآشوريين .

لقد أقام الآشوريون لهم مسالح في أقاصي الأماكن التي بلغ نفوذهم الحربي والسياسي إليها ، كما أقاموا حصوناً في مفارق الطرق المؤدية إلى البادية ، وذلك لحاجة حدودهم من غزو أبناء البادية . كما وضعوا مراقبين آشوريين ، أو مندوبين سياسيين في مواطن سكن سادات القبائل ، وذلك لمراقبة حركات القبائل وأخبار حكوماتهم بنوايا وبأعمال ساداتها وللتأثير على أولئك السادات لحملهم على تنفيذ ما يريده ملوك آشور . وهي خطة قلدها من جاء بعد الآشوريين من أجناب . ولم يكن الآشوريون هم أول من ابتدع هذه السياسة ، فلا بد وأن يكون من سبقهم قد سار على هذا الدرب ، ومهد أرضه الآشوريين ولمن جاء بعد الآشوريين من حكام .

British Museum, Assy. Sal. Nr. 85-87, Reall. I, 127, E. Unger, Assy. und Babyl. ١
Kunst, 1927, Abb. 77, Marucchi, Catal. del Mus. Egiz. Vaticana. Nr. 24.

Streck, VAB. VII, S. 217, Anm. II, 411, 772, Reall. I, S. 127. ٢

الفصل الخامس عشر

صلة العرب بالكلدانيين والفرس

لا نعلم شيئاً كثيراً عن صلات العرب بالكلدانيين ، فلم تصل إلينا كتابات منهم تفصح عن علاقتهم بالعرب . غير أن سكوت هذه الكتابات وعدم وصولها إلينا ، لا يمكن أن يكون سبباً يحملنا على التفكير في عدم قيام صلات بين العرب والكلدانيين . فقد رأينا فيما مضى أنهم ساعدوا أهل بابل في نزاعهم مع آشور ، ثم إن العرب كانوا يجاورون البابليين منذ القديم ، وهذه المجاورة القديمة في حد ذاتها واسطة طبيعية لتكوين الاتصال المباشر بين العرب والكلدانيين .

وقد تحدث الأخباريون عن غزو (بخت نصر) (بختنصر) (٦٠٤ - ٥٦١ ق.م.) للعرب في أيام (معد بن عدنان) ، ووصوله إلى موضع (ذات عرق) ، كما تحدثت عن ذلك في فصل «طبقات العرب» ، وقد قلت إن روايته أخذوا مادته من أهل الكتاب ، وأضافوا إليه مادة جديدة أنتجها ابتداعهم له ، فصار نسيجاً جديداً هو المدون في الكتب^١ . وهو حديث لا قيمة تاريخية له ، ولذلك لا يمكن الاطمئنان إليه والأخذ به . وقد قص علينا الأخباريون ألواناً كثيرة من هذا القصص الذي بان لونه وعرف أصله في القرن العشرين .

وأنا لا أريد أن أستبعد احتمال قتال (بخت نصر) مع القبائل العربية ، فذلك

١ الطبري (٢٩١/١) ، ابن الأثير ، الكامل (١١٧/١) ، (نبوكد ناصر) ، (أدي شير) (ص ١٤٠) .

ممکن جداً ، ولا سيما أن بابل مجاورة للعرب ، وان توسع هذا الملك ودخوله فلسطين جعل البابليين يتصلون اتصالاً مباشراً بالأعراب ، فلا بد أن يكون (بنحصر) قد احتك بالعرب واتصل بهم . وقد يكون حاربهم وأوقع خسائر بهم ، لتحرشهم بجيوشه وبحدود إمبراطوريته التي شملت البادية الواسعة الفاصلة بين العراق وبلاد الشام^١ . ولكن الذي نتوقف عنده وننظر إليه بحذر ، هو هذا الطابع المعروف عن الأخباريين ، الذي يروون به كيفية غزو ذلك الملك لـ (معد ابن عدنان) .

وقد يكون (بنحصر) ، قد بلغ موضع (ذات عرق) وقد يكون بلغ موضعاً آخر أبعد منه ، إلا أن الذي أراه أن استيلاء البابليين على الأماكن التي احتلوها من جزيرة العرب إن وقع فعلاً ، فإنه لم يدم طويلاً ، فقد كانت فتوحات الفاتحين لجزيرة العرب كالسيول ، تأتي جارقة عارمة ، تكتسح كل شيء تجده أمامها ، ثم لا تلبث أن تزول وتختفي آثارها بعد مدة قصيرة ، لأسباب منها بُعد طرق المواصلات عن عواصم الغازين الفاتحين وعدم وجود مواد غذائية كافية في البلاد المفتوحة لإعاشة جيش كبير ، ليستطيع ضبط القبائل والمحافظة على الأمن ، ومهاجمة القبائل للقوافل التي ترد لتموين الحاميات وللحاميات نفسها ، وعدم تمكن الفاتح من وضع جيش كبير جاهز في كل لحظة للقتال ليصد غارات القبائل التي تؤلف غالبية سكان جزيرة العرب في ذلك العهد . ثم إن القسم الأكبر من الذين قاتلوا وفتحوا أناس مرتزقة سيقوا إلى القتال سوقاً ، خوفاً أو طمعاً ، وقبائل اشترى الفاتحون ساداتها بأطعامهم في مغنم ينجونها أو لدوافع حقد قبلي^٢ ، ومن عادة سادات القبائل أنهم مع الفاتح ما دام قوياً سخياً يبذل لهم بكل سخاء ، فإذا ضعف أو أمسك أو دارت الدنيا عليه ، كانوا هم أول من ينقلب عليه . ولذلك صارت أمثال هذا الفتوحات غارات انتقامية سريعة ، لا يلجأ إليها إلا بعد تفكير واعداد خطط ووجود ضرورات ملحة تستوجب إرسال مثل هذه الحملات .

ويرى بعض علماء التوراة والبابليات ما جاء في كتاب (دانيال) الذي كتب بعد أيام (بنحصر) من نبوءة ومن رسالة أرسلها النبي إلى ذلك الملك ، ومن

١ D.J. Wiseman, Chronicle of Chaldaean Kings, PP. 32, 48, 70, Nebuchadrezzar's Campaign in Arabia, 599 B. C.

فتوحات في بلاد العرب ، هو من وضع كاتب تلك الرسالة ، وضعه ليثبت نبوءته ، وأن ذلك الكاتب أخذ فتوحات (نبؤيد) فنسبها الى (بخت نصر)^١. أما أنا ، فلا أريد أن أثبت فتوحات (بخت نصر) ، ولا أريد أن أنفيها في هذا العهد ، فوصول (بخت نصر) الى الحجاز أمر ممكن ، وسوف نرى أن (نبؤيد) قد وصل الى مدينة (يثرب) ، فليس بمستبعد وصول (بخت نصر) الى الحجاز ، بعد أن استولى جيشه على فلسطين ، وصار في إمكانه الزحف نحو الجنوب ، ولكن الذي أراه الآن هو التريث ، فلعلّ الزمن يجود علينا بنصوص قد تتحدث عن حروب وفتوح أمر بها هذا الملك في بلاد العرب : وكتاب (دانيال) ، وإن كُتب على شكل نبوءة ، لا يستبعد أن يكون قد استمد خبر النبوءة من وثيقة أو خبر شائع ، فصاغه في شكل نبوءة ، ليثبت نبوءته لبني اسرائيل .

وقد أخبرتنا الكتابات البابلية أن (بختنصر) (Nebuchadrezzar) أرسل في شهر (كسلو) (Kislev) (Kislew) من السنة السادسة من ملكه المقاتلة لسنة (٥٩٩ ق.م) حملة على العرب الساكنين في البادية ، نهبت أملاكهم وما عندهم من مواشي ، وسرقت آلهتهم ثم عادت^٢ . ولم يذكر النص البابلي اسم البادية التي هاجمها الجيش البابلي ولا اسم القبائل التي هاجمها ، ولم يذكر أيضاً اسم المواضع التي تحرك منها الجيش لمهاجمة العرب . ويرى الباحثون احتمال مهاجمة البابليين للعرب من (حماة) (Hamath) أو (ريلة) (Riblah) ، أو (قادش) (Kadesh) ، فتوغل جيش (بختنصر) في البادية ، ثم عاد حاملاً معه ما ذكر في النص من أسلاب ومن مواشي وآلهة العرب أي الأصنام . وكانت غاية البابليين من تأسير الأصنام وأخذها ، هو اكراه القبائل على الاستسلام والخضوع لهم ، لما للأغنام من أثر كبير في نفوسها ، وقد رأينا ان ملوك الآشوريين مثل : (سرجون) و (سنحريب) و (أسرحدون) كانوا قد أسروا أصنام العرب وأخذوها معهم الى آشور وكتبوا عليها شهادة الأسر والوقوع في أيدي الآشوريين ، ليؤثروا بذلك نفسياً في نفوس أتباعها وعبادها

S. Smith, Babylonian Historical Texts, P. 35.

Br. Mus. 21946, D.J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, London, 1956, P. 31, 48, 71.

ويكرهوهم على الخضوع لهم وعلى مساومة الآشوريين لاستردادها في مقابل الاستسلام لهم وتأييد سياستهم وعدم التحرش بهم . ولم يذكر النص البابلي أسماء تلك الآلهة .

وكانت غاية (بختنصر) من ارسال حملته هذه على العرب ، هو حماية حدود (حماة) وبقيّة مشارف فلسطين وبلاد الشام من الأعراب واخضاعهم لحكمه ، ثم تأديب بعض القبائل التي تحرّشت به على ما يظهر حين دخوله بلاد الشام وفي جملة ذلك فلسطين . واستناداً الى ما جاء في (سفر إرميا) نستطيع أن نقول ان (قيذار) كانوا على رأس القبائل العربية البارزة التي غزاها جيش (بختنصر) وكذلك (بني المشرق) (أبناء المشرق) و (ممالك حاصور) . ونظراً لوجود تشابه كبير بين الرواية البابلية عن حملة (بختنصر) على العرب وبين ما جاء في (سفر إرميا)^١ ، أرى ان مدوّن السفر قد أخذ خبره هذا الذي صيّر نبوءة من موارد بابلية ثم كيّفه على النحو المذكور .

ولدينا خبر رواه لنا (اكسينوفون) (Xenophon) ، يفيد أن (بختنصر) لما حمل على مصر أخضع (ملك العربية) . وقد قصد بذلك حملته على مصر سنة (٥٦٧) قبل الميلاد^٢ .

والخبر التاريخي الثاني الذي وصل إلينا عن صلات البابليين المتأخرين بالعرب ، هو ما ورد عن الملك (نبونيد) (Nabonid) (Nabonidus) (٥٥٥ - ٥٣٨ ق. م.) (٥٥٦ - ٥٣٩ ق. م.) من اتخاذه (تيماء) مقراً له . ففي السنة الثالثة من حكمه جرد حملة على (أدومو) (Adumu) (Adummu) أي (دومة) (دومة الجندل) ، وسار منها الى (تيماء) ، سالكاً طريقاً لم تعرف في الزمن الغابر ، على رأس جيشه ، جيش أرض (أكّد) (أكاد) . فلما وصل اليها ، أعمل فيها السيف ، وقتل أميرها وأهلها ، والظاهر ان ذلك بسبب مقاومتهم له وعنادهم في الدفاع عن مدينتهم ، ثم طاب له أن يستقر بها ، فابتنى بها قصراً ضخماً له جعلوه كالقصر الذي في بابل ، وحلت (تيماء) محل

١ الاصحاح ٤٩ ، الآية ٢٧ وما بعدها .

٢ Xenophon, Cyropaedela, I, 5, 2, Naval, P. 216.

بابل ، أي صارت عاصمة لملك البابليين^١ :

ويرى العلماء أن حملة (نبونيد) على (دومة الجندل) (ادومو) (Adummu) (وتيما) (Tema) كانت في سنة (٥٥٢ ق. م.)^٢ . وقد جاء اليها سالكاً الطريق البرية المؤدية من بلاد الشام الى شرقي الأردن ، الطريق التي يسلكها حجاج بلاد الشام في الإسلام الى مكة . وبعد أن قضى على حكام المدينتين استقر في (تيما) ومعه حرسه البابليون . ويظهر من اشارته في نصه المدون عن أخبار فتوحاته أنه سلك في وصوله الى (تيما) سبيلاً لم يسلكها الأقدون من قبل ، ومن اشارته الى قتله (ملك تيما) وسكان المدينة أن المدينة في أيامه كانت مستقلة ، يحكمها ملك من أهلها ، وأن البابليين لم يكونوا قد حكموها قبله^٣ .

وقد أقام (نبونيد) سنين في عاصمته الجديدة . أما ابنه (بلشاصر) (بلشصر) (بلشسر) (Belsharrusur) (Belsazar) ، فكان ب (بابل) مع الجنود البابليين . ويظهر أنه أقام بهذه المدينة حتى السنة الحادية عشرة من حكمه ، وربما أقام بها أكثر من ذلك قليلاً ، حتى اضطر الى تركها والعودة الى بابل ، بظهور الفرس ، الذين هددوا البابليين ، ووسعوا ملكهم ، وصاروا على مقربة من بابل . فقد تغلب (كيرش) (كورش) (Cyrus)^٤ على العربية وأدخلها في جملة أملاكه ، وعين عليها مقيماً سياسياً فارسياً (ستراب) (Satrap) ، ويظهر أن حملته هذه على العربية كانت حوالي سنة (٥٤٠ - ٥٣٩ ق. م.) ، وأن (نبونيد) كان قد ترك (تيما) ، وجاء الى بابل قبل تغلب (كيرش) على العربية^٥ .

وقد يتساءل المرء عن الأسباب التي حملت (نبونيد) على ترك بابل والالتجاء هذه السنين الى (تيما) : أهى شؤون سياسية خطيرة حملته على السكنى في هذه

١ Musil, Negd, P. 225, Meissner, Koenige, S. 208, Sidney Smith, Babylonian, P. 88, Dougherty, Nabonides, and Belshazzar, New Haven, 1929, PP. 106, Reall. I, 5te, Lieferung, S. 383.

٢ S. Smith, P. 53.

٣ راجع الأسطر ٢٤ من النص S. Smith, P. 88.

٤ (كيرش) ، الطبري (٥/٢) ، (٦٥٣/١ ، ٦٦١ ، ٧١٨) ، (طبعمة ليدن) ، (كورش) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ، (ص ٨١) ، (بيروت ١٨٩٠) .

٥ S. Smith, Baby. Hist, P. 82, 102, The Cambridge Ancient History. IV, P. 194.

المدينة البعيدة عن عاصمته القديمة ، أم هي عوامل عسكرية ، أو اقتصادية أو بواعث شخصية لا تتعلق بهذه ولا بتلك ؟ أما اجابات المؤرخين ، فهي مختلفة ومتنوعة . منهم من رأى أن لتبوء أهمية كبيرة من الناحية الاقتصادية لوقوعها في ملتقى طرق تجارية عالمية بالنسبة الى ذلك العهد ، والاستيلاء عليها والبقاء فيها معناه كسب عظيم ، وربح كبير بالنسبة الى عالم السياسة في ذلك اليوم . ومنهم من رأى أن ذلك كان لأثر مزاج الملك وطبيعته ورغبته في التخلص من أمراض بابل ، بسكنائه في محل جاف مرتفع زهاء (٣٤٠٠) قدم عن سطح البحر .

وتبوء مركز مهم ، ذكر كما رأينا في نصوص الآشوريين ، وهو من الأماكن القديمة المذكورة في التوراة ، وهو فيها كناية عن أحد أبناء اسماعيل ، مما يدل على أنه كان من المواطنين الإسماعيلية ، ويقع على مسافة (٢٠٠) ميل الى الجنوب الشرقي من رأس خليج العقبة ، ويمثل هذه المسافة الى الشمال من المدينة ، وعلى بعد (٦٥) ميلاً من شمالي العلا . وبها عين غزيرة المياه ، هي التي بعثت الحياة في هذا المكان .. وتعدّ أشهر عين ماء في جزيرة العرب^١ ، تستعمل للسقي ، ولإرواء المزارع التي تنبت مختلف الفواكه والتمور والحبوب . وهواؤها صحي جيد ، ولا تزال مأهولة ، فهي في الزمن الحاضر ، كناية عن قرية يزيد عدد سكانها على الألفين ، يسكنون في بيوت من طين وفي أكواخ^٢ .

وعلى مقربة من (تبوء) خربة فيها أحجار ضخمة مربعة ، وبقايا عمران قديم يظن بعض العلماء أنها موضع معبد عتيق . ويرى بعض من زارها أنها كانت مدينة لا نقل ضخامة عن (الحجر) وعن المدن الأخرى التي ترى آثارها في العربية النبطية حتى الآن . ولم تفحص هذه الخربة التي يسميها الناس (توما) (Tuma) فحصاً علمياً^٣ . وقد يعثر فيها على كتابات آشورية وبابلية ويونانية ولارمية وعربية تربنا أثر الاتصال الثقافي الذي كان في هذه المواضع التي تعد ملتقى القوافل والتجار والثقافات .

Hastings, P. 897, Doughty, Arabia Deserta, I, Chapt. 10, 19, Jaussen, and Savignac, Archéologique en Arabie, II, Part, I, Chapt. 4, Musil, Oriental Explorations, V, P. 224, Montgomery, P. 66.

٢ وهبة ، جزيرة العرب (ص ٧٥ فما بعدها) .

٣ S. Smith, Baby Hist. Text. P. 80.

وقد عثر في هذه الخربة على حجر مكتوب بلغة بني إرم ، يرجع تأريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد ، ورد فيه ان أحد الكهسان استورد صنماً جديداً الى تيماء ، وبني له معبداً ، وعيّن له كهاناً توارثوا خدمة (صلم هجم) . و (صلم) بمعنى صنم . وقد مثل صنم (هجم) في زي آشوري ، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيّد ذلك النصب . وقد نشرت ترجمة الكتابة الإرامية . ويرى (سدني سميث) ان تأريخها يرجع الى ايام (نبونيد) ، فلعله صنع في ذلك الزمن بتأثير البابليين^١ :

ولطول اقامة (نبونيد) في (تيماء) ، لا يستبعد أن يجيء يوم قد يعثر فيه على كتابات أو آثار أخرى ترجع الى هذا الملك . فلا يعقل أن تذهب ذكريات ايامه كلها من هذه المدينة ، وينطمس أثر قصره عنها ، ذلك القصر الذي بالغ الملك في وصفه وأراد أن يجعله في مستوى قصور بابل . وقد يعثر فيها على مراسلاته مع مدينته بابل ومع الحكومات الأجنبية التي كانت في أيامه ومع الأعراب . واذا حدث ذلك ، فقد نجد شيئاً جديداً لا نعرفه عن ايام تيماء في عهد نبونيد .

وقد ذهب بعض الباحثين الى أن (تيماء) التي استقر بها (نبونيد) هي تيماء أخرى تقع في العروض على ساحل الخليج ، وحجتهم في ذلك أن المسافة بين تيماء الحجاز وبابل ، كبيرة واسعة ، تجعل من الصعب تصور اقامة (نبونيد) في هذا المكان . أما العروض فإنه على اتصال ببابل ، ولا يفصل بينهما حاجز أو فاصل أو عائق ، ولهذا ذهبوا الى احتمال وقوع (تيماء) في العروض^٢ ، كما ذهب بعض آخر الى احتمال كون (تيماء) (تيان) المذكورة في التوراة^٣ . وهي أرض (أبناء الشرق)^٤ ، وملتقى طرق القوافل القادمة من بسلاد الشام ومصر والعراق والجنوب^٥ . غير أن الباحثين في هذا اليوم متأكدون من أن (تيماء)

١ Smith, Baby. Hist. Texts. P. 79, Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars, Secunda, Plate, IX, Tome, I, P. 107, Montgomery P. 67, Hogarth, Penetration of Arabia, P. 280, Cooke, North Semitic Inscriptions, P. 195.

٢ Negd, P. 226.

٣ ارميا ، الاصحاح التاسع والاربعون الاية ٧ ، عوبديا ، الاية ٩ ، وعاموس الاصحاح الاول ، الاية ٢ ، حبقوق ، الاصحاح الثالث ، الاية ٣ .

٤ قاموس الكتاب المقدس (٢٩٦/١ فمابعدها)

٥ Negd, P. 226.

(نبونيد) هي (تيماء) الحجاز ، في المملكة العربية السعودية .
 فقد عثر في (حرّان) على كتابة مهمة جداً في بحثنا هذا ، دونها الملك
 (نبونيد) ، عثر عليها في سنة (١٩٥٦ م) ، وكانت مدفونة في خرائب جامع حرّان
 الكبير ، وترجمت الى الانكليزية ، وإذا بها تتحدث عن تأريخ أعمال ذلك الملك ،
 ومما جاء فيها : انه لما ترك (بابل) وجاء الى (تيماء) ، أخضع أهلها ، ثم
 ذهب الى (ددانو) (ديدان) و (بداكو) و (خيرا) و (ايدنخو) حتى
 بلغ (اتريو)^١ . ثم تحدث بعد ذلك عن عقده صلحاً مع (مصر) و (ميديا)
 (ما - دا - ا - ا) (مادا ا) (Ma-da-a-a) (Medes) ومع (العرب)
 (مات - ا - را - بي - او) (Mat A-ra-bi-u)^٢ . وقد ختم العمود الذي جاء
 فيه هذا الخبر بأسطر تهشمت جمل منها ، يفهم من مآلها أن العرب المذكورين
 أرسلوا اليه رسلاً ، عرضوا عليه عقد صلح معه ، واستسلامهم له ، فوافق
 على ذلك ، بعد ان كبدهم جيشه خسائر فادحة ، وأسر منهم ، ونهب . ولم
 تذكر تلك الأسطر المواضع التي حارب فيها جيش (نبونيد) أولئك الأعراب^٣ .
 وقد يفهم من هذه السطور الأخيرة ايضاً ان بعض هؤلاء العرب هاجموا البابليين ،
 ونهبوا المناطق الخاضعة لهم بالرغم من عقدتهم الصلح معه ، وموافقتهم على ان
 يسالموه ، وهذا ما دعاه على ارسال حملات تأديبية عليهم ، انزلت بهم خسائر
 فادحة^٤ .

ولم يكن نص (نبونيد) مغروفاً بين العلماء يوم اختلفوا في تعيين موضع
 (تيماء) . أما اليوم وقد نشر النص وترجم ترجمة دقيقة صحيحة ، وعرفنا
 منه (فذك) و (خير) و (يثرب) ، وهي مواضع معروفة مشهورة حتى
 اليوم وتذكر مع (خير) ، فقد أجمع العلماء على أن (تيماء) (نبونيد)
 هي (تيماء) الحجاز من دون أي شك ، وان موضع اقامة ملك بابل وقصره

١ راجع السطرين ٢٤ و ٢٥ من النص الموسوم :
 Nabonidus H2, A and B, In Anatolian Studies, By C. J. add, The Harran
 Inscriptions of Nabonidus, VIII, 1958, PP. 35.

٢ السطر ٤٢ وما بعده من النص المذكور .

٣ راجع الاسطر من ٤٣ حتى ٤٨ من النص .

٤ Anatolian Studies, VIII, 1958, P. 76, A. R. Burn, Persia and the Greeks, P. 38.

كان في هذا المكان من الحجاز .

ولما كان استيلاء (نبونيد) على (تباء) في حدود سنة (٥٥١ - ٥٥٢ ق.م.) وجب أن يكون زحفه على الأماكن المذكورة بعد ذلك ، والظاهر ان الذي حمله على التوغل في الجنوب ، رغبته في السيطرة على أنحطس طريق برية للتجارة ، تربط بلاد الشام بالعربية الجنوبية ، وهي طريق قديمة مسلوكة ، تسلكها القوافل التجارية المحملة بأنفس التجارات المطلوبة في ذلك العهد ، ثم السيطرة على البحر الأحمر ، وذلك بالاستيلاء على الحجاز وعسير واليمن وربما على العربية الجنوبية كلها . ولو تم له ذلك ، لكان ملكه قد بلغ المحيط الهندي . ومن يدري ؟ فلعل اختياره (تباء) مقراً له ، وتجوله في الأرضين الواقعة بينها وبين (بثرب) كان لهذا السبب ، أي لتنفيذ تلك الفكرة الخطيرة ، فكرة السيطرة على جزيرة العرب وبلوغ المياه الدافئة للوصول الى إفريقيا والهند والعربية الجنوبية إلا أن فكرته هذه لم تتحقق كما يتبين من النص ، فكان أقصى ما وصل اليه (بثرب) ، ثم توقف عند ذلك المكان .

ويرى بعض الباحثين الذين درسوا كتابة (حرّان) هذه أن الصلح الذي أشار اليه الملك يجب أن يكون قد عقد في حوالي سنة (٥٤٨ ق.م.) في مدينة (تباء) عاصمة الملك الجديدة ، وأن الصلح الذي عقد مع الأعراب قد وقع في (تباء) أيضاً ، وأن الهجمات التي هاجم بها بعض الأعراب البابليين وقعت إبان وجوده في هذه العاصمة وقبل رحيله عنها الى (بابل) ، ولكن من هم العرب الذين عقدوا الصلح مع (نبونيد) ؟ ومن هم العرب الذين هاجموا جيشه والأرضين التي خضعت له ؟ إن النص لم يشر اليهم ، ولم يتحدث عنهم ، وهم بالطبع قبائل عديدة ، قد يكون منها قبائل سالت البابليين وحالفهم ، ومنها قبائل عارضتهم وكرهتهم ، ثم إن بين القبائل منافسة وأحقصاد وحسد ، فاذا حالفت قبائل "حكومة" ما ، حسدت القبائل المنافسة ، فهاجمتها وهاجمت الحكومة التي عقدت معها الحلف ، لإثبات نفسها ، ولإظهار وجودها ، ولأخذ الزعامة منها ، وهذا داء القبائل منذ كان النظام القبلي .

والذي أراه أن الحجاز لم يكن آنذاك تحت حكومة واحدة يرأسها ملك واحد ، وإنما كان على نحو ما كان عليه عند ظهور الإسلام ، حكومات قرى ومدن وقبائل . ويؤيد ذلك ما جاء في النص البابلي عن (تباء) أن (نبونيد) ، قتل

بالسلاح ملك تباء) (ملكو)^١ . ومعنى هذا أنها كانت في حكم حاكم يلقب نفسه باللقاب الملوك : ولا أستبعد أن يكون حال (ديدان) و (خبير) و (فذك) و (يديع) و (يثرب) مثل حال هذه المدينة ، أي عليهاحكام يلقبون أنفسهم باللقاب الملوك . ولا أستبعد أيضاً أن يكون حالها أو حال بعضها على نحو حال هذه المدن يوم ظهور الإسلام أي تحت حكم سادات المدينة والأشراف يشتركون معاً في الحكم ويتشاورون فيما بينهم عندما يحدث حادث ما في مدينتهم أو قريتهم في أمور السلم وفي أمور الحرب .

ووضع سياسي على هذا النحو ، لا يمكن أن يقاوم جيشاً لجباً قوياً عارماً كجيش بابل المدرب على القتال ، والذي يعيش على الحروب ، ولذلك انهيار بسرعة وسلم أمره الى البابليين . ومن هنا نشتم من نص (نبونيد) رائحة الاستخفاف بأسلحة (العرب) ، أي الأعراب سكفة هذه المواضع ، وبأسلحة تلك المدن التي استسلمت له . وكل ما فعله الأعراب أنهم تراجعوا الى البوادي ، وصاروا يشنون منها غارات على البابليين ليأخذوا منهم ما يجدونه أمامهم ، فاذا تعقبهم البابليون عادوا الى معاقلمهم وحصونهم : الصحراء .

وقد عثر على كتابة ثمودية وردت فيها جملة : (رمح ملك بابل) ، وعلى كتابة ثمودية أخرى جاء فيها : (حرب دون) (حرب ديدان)^٢ . وقد فسر العلماء الجملتين المذكورتين بأنهما إشارة الى الحرب التي نشبت بين البابليين وأهل ديدان في أيام (نبونيد) ، وان أهل تلك المناطق صاروا يؤرخون بها لأهميتها عندهم كحادث تاريخي^٣ . فالكتابتان اذن تحددان وقت تلك الحرب ، وتعينان مبدأ تقويم يؤرخ بموجبه عند أهل ثمود . غير اننا لم نتمكن من الوقوف على ذلك المبدأ من الكتابتين المذكورتين ، لقصرهما ولعدم وجود مفتاح معها يفتح لنا الباب لتصل منه الى الموضوع الذي حفظ فيه سر ذلك التاريخ .

أما موضع (Da-da-nu) (دادانو) ، فانه (ديدان) ، وهو موضع معروف مشهور ، ورد ذكره في (العهد القديم) ، وفي عدد من الكتابات^٤ :

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 84.

٢ A. Van den Branden, Textes Thamoudéens de Philby, Vol. II, PP. 54.

٣ Anatolian Studies, 1958, VII, PP. 78.

٤ W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, 1954, W. F. Albright, Dedan, in Geschichte und Atlas Testament, 1953, A. Van den Branden, La Chronologie de Dedan et de Lihyan in Bibliotheca Orientalis, XIV, 1957, 13.

وتحدثت عنه في مواضع من هذا الكتاب ، فكسان اذن في جملة الأرضين التي خضعت لحكم (نبونيد) .

وأما (Pa-dak-ku) (بذاكو) ، فهو موضع (فذك) ، ولم يكن مشهوراً في الأخبار القديمة ، وإنما اشتهر في أيام الرسول ، إلا أن عدم اشتهاره لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وجوده في أيام (نبونيد)^١ . وربما لا يستبعد أن يعثر في خرابته على آثار من عهد (نبونيد) وقبل عهده ، اذ كان معروفاً قبل أيامه ، بدليل ذكره في جملة المواضع التي استولى عليها هذا الملك .

وأما (Hi-ib-ra-a) (خي - اب - را - ا) (خيبرا) ، فهو موضع (خيبر) . وهو موضع معروف وقد كان من مواطن يهود في أيام النبي . وهو موضع (خيبر) الذي أرخ بحرب وقعت فيه في حوالي سنة (٥٦٨ م) (بعد مفسد خيبر بعام)^٢ .

وموضع (Ia-di-hu-u) (Iadihu) ، وهو موضع (يديع) ، ويقع بين (فذك) و (خيبر) ، وقد ذكره (ياقوت الحموي) والهمداني^٣ .

وأما (Iatribu) (ايتريو) ، فهو موضع (يثرب) أي المدينة . وقد ذكر في جغرافيا (بطليموس) ، فيكون نص (حران) اذن أقدم نص ذكر اسم هذا المكان .

و (يثرب) اذن آخر موضع استولى عليه البابليون في الحجاز وألحقوه بمملكته مملكة بابل . لسكوت النص عن ذكر مواضع أخرى تقع في جنوبها ولو كانوا قد تجاوزوها لذكروا اسم الأماكن التي استولوا عليها من دون شك . وقد استطعنا بفضل هذا النص التاريخي الخطير من العثور على خبر (يثرب) في وثيقة تعود الى ما قبل الميلاد بكثير ، فعلمنا منه أنها كانت مدينة عامرة قديمة ، وانها كانت أقدم بكثير مما تصوره أهل الأخبار عن نشوئها، ثم استطعنا

١ Anatolian Studies, 1958, P., 81.

٢ E. Combe, J. Savaget et G. Wiet, Repertoire Chronologique D'épigraphie Arabe, I, P. 3, No. 3.

٣ البلدان (١٠١٣/٤)

Anatolian Studies, 1958, Vol., VIII, P. 83, F. Wuestenfeld, Das Gebiet von Medina, S. 161, Arabien, S. 22.

أن نفهم ان العراقيين كانوا قد استولوا على منطقة مهمة من الحجاز في ذلك العهد ، وان بعد المسافات بين الحجاز أو العربية الجنوبية لم يحل بين الآشوريين والبابليين من التوغل مسافات شاسعة في جزيرة العرب من طرفها ومن اجتياز نجد أيضاً ، كما رأينا من وصولهم الى جنوب البحرين على الخليج والى سبأ والى يثرب في هذا العهد .

وقد تنقل (نبونيد) مدة عشر سنوات في هذه المنطقة التي فتحها من الحجاز ، في أرض يبلغ طولها حوالي (٢٥٠) ميلاً من (تيماء) الى (يثرب) وحوالي (١٠٠) ميل عرضاً ، يراجع أهلها ويتزل بين قبائلها ، ويختلط بها ، ثم يعود الى عاصمته تيماء ، حيث يسير منها أمور الدولة . ويظهر أنه تطبع من خلال اقامته هذه المدة بين العرب ببعض طباعهم ، واقتبس بعض مصطلحاتهم حيث وردت في النص^١ :

ويرى بعض من عالج هذا النص ودرسه أن الملك البابلي نقل معه خلقاً من العراق ، وأسكنهم في هذه الأماكن الحجازية ، في المواضع المذكورة وكان يأتي اليهم من تيماء ، ليتفقد أحوالهم ، ويرى بنفسه سبل الدفاع عنهم وحمايتهم من غارات الأعداء . ويرون أيضاً أن في جملة ما جاء بهم الى هذه الأماكن اليهود : يهود من بابل ، ويهود من فلسطين ، كما رأوا أن اليهود كانوا قد سكنوا هذه المواضع من قبل ، وربما كان ذلك منذ جاء اليهود الى فلسطين ، فأقاموا بها الى أيام النبي^٢ :

ويظهر أن الملك (نبونيد) كان قد وضع خطة للهيمنة على الأرضين والحقاقها نهائياً ببابل ، وذلك باسكان أتباعه بها واجبارهم على الإقامة فيها . وقد نفذ خطته هذه فعلاً ، ووزع من كان قد جاء بهم معه على هذه المواضع بأن انتزع الأملاك من أصحابها العرب وأعطاهما للمستوطنين الجدد ، وحماهم بجيش وضعه في كل مكان لصد غارات الأعراب عليهم : ولتقوية معنوياتهم ولتثبيت قلوبهم في البقاء في هذه الأرضين الجديدة . صار يتفقد شؤونهم بين الحين والحين ويوزورهم . ولكن الخطة لم تنجح ، لأن الظروف السياسية والعسكرية أكرهته

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 84.

٢ Anatolian Studies, 1958, Vol. VIII, PP. 88, Le Muséon, 1961, 1-2, P. 146.

على العودة الى بابل ، فمات مشروعه مع عودته ، فلم تلحق تلك الأرضين ببابل ، غير أن أكثر المستوطنين الجدد بقوا في هذا الأماكن ، وفي جملتهم اليهود الذين ازداد عددهم بمرور الأيام وكونوا مستعمرات يهودية وصلت (يثرب) في الجنوب .

لقد ترك فتح (نبونيد) لهذه الأرضين من الحجاز وبقاء بعض من نقلهم الى هذه المواضع فيها للاستيطان بها أثراً كبيراً من الناحية الثقافية والاقتصادية والحضارية ، وهي نواح لم تدرس حتى الآن ، ولم يهتم بها أحد . ولكن وجود ألفاظ عراقية قديمة في لغة أهل (يثرب) والمناطق الأخرى التي تقع الى الشمال منها ، وخاصة في الزراعة ، يدل دلالة واضحة على أثر العراق في أهل هذه المواضع ، فقد يكون قسم منه من بقايا أثر أولئك العراقيين الذين نقلوا الى هذه الأماكن ، وقد يكون قسم منه من مؤثرات أخرى وقعت قبل هذا الحادث . قد يكون في أيام (بنحصر) أو قبله ، وقد يكون بعضه من مؤثرات حوادث وقعت بعد ذلك .

وفي نسخة (قران) الحاوية لبعض الإصحاحات من العهد القديم ، وقد عثر عليها في نفس الوقت الذي عثر فيه على نص (حرّان) - أخبار قد تساعدنا في توضيح أسباب سوق (نبونيد) لليهود وأخذهم معه ، وإرسالهم بهذه الأرضين الجديدة من أعالي الحجاز ، لإرساء أقرهم فيها وأبقاهم حتى جاء الإسلام فأبعدهم عن الحجاز^١ .

اننا لا نملك نصوصاً بابلية عن مدى بلوغ سلطان البابليين السياسي في جزيرة العرب وعن صلاتهم بالقبائل العربية ، لذلك انحصر علمنا بعلاقة بابل بالعرب في الأمور التي ذكرتها . وقد عثر على نص في مدينة (عانة) ، يثبت وجود صلات تجارية بين بابل والبلاد العربية كما يشير الى أثر بابل في الحياة العربية^٢ .

أما علاقات البابليين بأهل الخليج ، فلا نعرف من أمرها شيئاً ، فلم يرد في النصوص البابلية التي نتحدث عن هذه الحقبة شيء ما عن الفتوحات البابلية في هذه الأرضين . وقد يعثر على شيء من الكتابات في المستقبل ، نتحدث عن نوع

١ Anatolian Studies, Vol. VIII, 1958, P. 87.

٢ A. J. Jaussen-R. Savignac, Mission, No. 138, A. T. Olmstead History of the Persian Empire, P. 294.

الصلوات التي كانت بين حكومة (بابل) وأهل الخليج في هذا العهد :
وكل ما نعرفه عن علاقة البابليين بالخليج ، ان البابليين كانوا قد ضمتوا
جزيرة (دلون) أي البحرين الى أملاكهم ، وعينوا عليها حاكماً بابلياً ، وذلك
بعد سنة (٦٠٠ ق. م.) بقليل ^١ .

ومعارفنا بصلوات العرب بالأخمينيين (Achaemenian) وبالبارثيين (الفرث)
(Parthians) قليلة جداً . ويرى بعض المؤرخين أن العرب كانوا في أيام
(الأخمينيين) قد تقدموا في زحفهم نحو الشمال ، فدخلت قبائل منهم الى العراق ،
ووسعت مساحة الأرضين التي كان العرب قد استوطنوها سابقاً ، كما تقدموا في
هذا العهد نحو الغرب ، فتوسعوا في بلاد الشام وفي طور سيناء الى شواطئ نهر
النيل ، حيث كانوا قد استوطنوها ، وقد قاموا بخدمات كبيرة نحو ملوك الفرس
في زحفهم على مصر ^٢ .

ولم يلاق العرب أية مقاومة كانت في أثناء حركاتهم وتنقلاتهم ودخولهم
الأرضين التي كان الأخمينيون قد استولوا عليها ، ولكن وجدوا أنفسهم في حرية
تامة ، لهم الحق في الذهاب الى أي مكان شاءوا ، وهذا مما مكنهم من الدخول
الى أرضين جديدة وإلى توسيع هجرتهم في الأرضين التي كان الأخمينيون قد بسطوا
سلطانهم عليها ^٣ .

لقد ذكر (اكسنوفون) (Xenophon) العرب في جملة أتباع الملك (كيرش)
(Cyrus) (Kyros) الثاني (٥٥٧ - ٥٢٩ ق. م.) (٥٥٩ - ٥٢٩ ق. م.) ،
وذكر أن هذا الملك عين والياً عنه على (العربية) (Arabia) (Arabioi)
ويظهر من ورود لفظة (Arabia) بعد (Kappadokia) أن المراد بها (الجزيرة) ،
أي (Mesopotamia) ، أو جزء منها . ويظهر من موضع آخر أن (العربية)
هي المنطقة الواقعة في شرق (Araxes) أي (الخابور) ^٤ .
وقد ورد في أخبار حملة (كيرش) على (بابل) أن جماعة من العرب

١ Belgrave, P. 56.

٢ Die Araber, I, S. 164.

٣ Die Araber, I, S. 171.

٤ ZDMG. 94, NF. 19, (1940), 202. f. Die Araber, I, S. 165, Xenophon, Anab. I, 5. I.

كانت تحارب معه ^١ . وكانت تلك الجماعة من الأعراب الراكبين للجمال . وذلك في سنة (٥٣٩) قبل الميلاد ^٢ .

ويتبين من مراجعة الموارد اليونانية التي تعرضت لتأريخ وجغرافية العراق، أن اليونان أخذوا يطلقون لفظة (Arabioi) من هذا الوقت فما بعده بمعنى (العرب) و (عرب) ، أي علماً لقوم وشعب على نحو ما كانوا يطلقون من أسماء على الشعوب الأخرى . وقد ذكروهم في جملة شعوب الجزيرة، أي (Mesopotamia) . وقد أخذوا ذلك من (الأيونيين) (Ionien) . وعلى هذا فسيكون مراد (اكسينوفون) وغيره من العربية الأرض التي غلب عليها العرب . ومعنى هذا توسع العرب في زحفهم وتقدمهم نحو الشمال وتغلبهم على أرضين جديدة كان سكانها من بني إرم وغيرهم ، وتعرب كثير من بني إرم وتكوين طبقة عربية مستعربة ^٣ .

ولما قام (قبيز) الثاني (قباسوس) (Cambyes) بغزو مصر سنة (٥٢٥ ق. م.) ، وطلب معونة العرب ، أمدّوه بالجمال ، وبالماء ، وساعدوه مساعدة كبيرة لولاها لما تمكن من الوصول الى مصر . ويزعم (هيرودوتس) أن (فانس) (Phanes) ، الذي خان سيده فرعون مصر ، فهرب منه وذهب خلصة الى (قبيز) وحشّه على فتح مصر ، أشار على الملك بأن يستعين بالعرب ليساعدوه في اجتياز الصحراء . وكان الملك يفكر في الصعوبات التي ستعرض جيوشه في قطع تلك القياقي والقفار ، ومن أهمها قلة الماء . فلما اقتنع الملك بصواب رأي (فانس) وصدقه ، أرسل رسولا الى ملك العرب ليتفاوض معه في هذا الأمر ، فوافق العرب على تقديم المساعدات فهيأوا قرباً كثيرة ملأوها بالماء ، وحملوها على ظهور جبالهم حيث قدموها الى الفرس ^٤ .

ولم يشر (هيرودوتس) الى اسم الملك العربي الذي وافق على تموين الجيش الفارسي بما يحتاج اليه في حملته على مصر بالماء ، ولم يشر أيضاً الى الأرض التي

١ Die Araber, I, S. 171, Xenophon, Cyrop. 7, 5, 14.

٢ Xenophon, Kyrupadie, VII, 4, 16, 5, 13, Grohmann, Arabien S. 171.

٣ Die Araber, I, S. 165.

٤ G. Rawlinson, The History of Herodotus, I, P. 211, 213, The Cambridge Ancient History, IV, P. 20, Herodotus 3, 4, 7, Die Araber, I, S. 167.

كان يحكمها . وقد يكون هذا الملك أحد ملوك النبط الذين كانوا يحكمون في أعالي الحجاز وفي الأقسام الجنوبية من الأردن وطور سيناء ، وقد يكون أحد كبار سادات القبائل العربية الكبيرة في طور سيناء ، حيث كان له سلطان واسع كبير على الأعراب الساكنين في هذه الأرضين .

وأشار (هيرودوتس) في معرض كلامه على تزويد العرب قبباز بالماء ، الى وجود نهر عظيم في بلاد العرب ، دعاه : (كوريس) (قوريس) (Corys) ، زعم انه يصب في (البحر الأريتري) (البحر الأريتري) (Erythraean Sea) أي البحر الأحمر ، قائلاً : ان هناك من يزعم ان ملك العرب عمل انبواً من جلود الثيران والحيوانات الأخرى لنقل المياه من النهر الى صهاريج ، أمر بحفرها وعملها في الصحراء لحزن الماء فيها ، وان هناك ثلاثة خطوط من هذه الأنابيب تنقل الماء الى مسافة اثني عشر يوماً من النهر الى موضع هذه الصهاريج^١ .

ولا يعقل أن يكون في بلاد العرب نهر على الوصف الذي ذكره (هيرودوتس) في ذلك العهد . كما ان الأنابيب المذكورة الممتدة الى تلك المسافات المذكورة ، هي من مخيلات القصاص الذين أخذ منهم ذلك المؤرخ خبره . والظاهر ان الذين حدثوه عن ذلك النهر ، كانوا قد سمعوا أو شاهدوا السيول التي تصب في البحر الأحمر في مواسم الأمطار الشديدة ، فتصوروها أنهاراً عظيمة تجري طول السنة . أما الصهاريج ، فإنها معروفة في بلاد العرب ، ولا سيما شمال العربية الغربية ، تأتي إليها مياه الأمطار فتملؤها ، وتغطي فتحاتها ، فلا يعرف مواضعها الا أصحابها ، فاذا دامهم عدو ، سدوا منافذها ، فلا يصل الى مائها أحد . والظاهر ان الذين أمدوا الفرس بالماء ، كانوا يأخذونه من الصهاريج المنتشرة في مختلف الأماكن ، ومن هنا ظهرت أسطورة نقل المياه إليها من ذلك النهر في ثلاثة خطوط من الأنابيب المصنوعة من الجلود .

وذكر (هيرودوتس) في أثناء الكلام على (دارا) (داريوش) (داريوس) (Darius)^٢ ، ان جميع سكان آسية الذين أذلهم (كيرش) (كورش) ثم

١ Herodotus, Bk. III, 9, Vol. I, P. 213.

٢ فهرست تاريخ الطبري عمل « دي غويه » ، (ص ١٧٥) ، حمزة (ص ٢٠) ، داريوس ، ابن الطبري (ص ٨٣) ، داريوش « ، الاخبار الطوال (ص ٣١) ، « طبعة فلاديمير جرجاس » ، « لندن ١٨٨٨ م » .

(قبيز) بعده ، قد اعترفوا بسلطانته ، الا العرب . فهؤلاء لم يخضعوا كالرقيق البتة لسلطان الفرس ، وانما كانوا قد تحالفوا معهم ، وأصبحوا حلفاء وأصدقاء لهم منذ مهدوا الطريق لقمييز للوصول الى مصر . ولو كانت علاقاتهم غير ودية معهم ، لما تمكن الفرس من القيام بذلك الغزو . وأثنى هذا المؤرخ على إباء العرب ، وعلى شهامتهم ، وعلى محافظتهم على الوعد والعهود^١ :

وذكر (هيرودوتس) أن الأرضين بين (Phoenicia) ، أي (فينيقية) ومدينة (Cadytis) ، كانت تابعة للسريان الفلسطينيين (Palaestine Syrian) . أما الأرضون بين مدينة (Cadytis) وموضع (Jenysus) (Ienysos) ، فقد كانت تابعة للملوك العرب^٢ ، ويريد بهم عدداً من سادات القبائل ولا شك ، ويرى (جيمس رنل) (James Rennell) أن مدينة (Cadytis) هي القدس^٣ ويرى آخرون أنها (غزة)^٤ . وأما (Jenysus) ، فهي (خان يونس) في جنوب غربي (غزة) على رأي (جيمس رنل)^٥ .

يتبين من قول (هيرودوتس) هذا أن العرب كانوا في أيام (قبيز) أي قبل الميلاد بعدة قرون ، في هذه المنطقة من فلسطين . وانهم كانوا قد انتشروا في (طور سيناء) ، ونزلوا المناطق الشرقية من مصر ، حتى ضفة نهر النيل : ولهذا السبب أطلق عليها اسم (العربية) دلالة على توغل العرب فيها^٦ :

لقد كانت (غزة) مدينة عربية يحكمها ملوك عرب . وقد كانت في حكم ملك عربي في أيام (هيرودوتس) ، وكانت كل الأرضين الواقعة بين (غزة) وبين (Rhinokolura) تحت حكم العرب أيضاً وذلك منذ أيام الفلسطينيين^٧ . وقد كان يحكم (غزة) في أيام (هيرود الكبير) ملك من أهل غزة^٨ : وقد كانت (غزة) قبيل الإسلام وعند ظهوره فرضة العرب ، يقصدها أهل

Herodotus, I, P. 254, 3, 5. ١

Herodotus, I, P. 212, Bk. III, IV-V. ٢

The Geographical System of Herodotus, London, 1800, P. 245, 683. ٣

Herodotus, I, P. 212. ٤

Rennel, P. 259. ٥

Die Araber, I, S. 167. ٦

Grohmann, Arabien, S. 23. ٧

Flavius Josephus, Antiquitates, XV, 7, 9. ٨

العربية الغربية للبيع والشراء . ولا أستبعد أن تكون (غزة) فرضة عرب العربية الغربية في هذا الوقت أيضاً . وقد كان تجار العربية الشرقية يقصدونها أيضاً على الرغم من بعد المسافة واتساع الشقة ، فقد كان أهل (الجرعاء) (جرهما) (Gerrha) ، يقصدونها ، حاملين معهم تجارة الهند وما وراء الهند ، فتأخذهم إلىهم عن طريق الواحات والآبار إلى (دومة الجندل) ومنها إلى جنوب فلسطين فغزة حيث يبيعون ما عندهم ويشتررون ما يحتاجون إليه من حاصلات البحر المتوسط ثم يعودون بأموالهم الجديدة إلى بلادهم لبيعها هناك ، أو لشحنها إلى ما وراء الخليج من أرضين .

وفطن (دارا) لخطورة المشروع القديم ، مشروع ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق نهر (النيل) فاحتفزه^١ . وقد وضع أساس هذا المشروع (رامسيس الثاني) ، غير أنه امتلأ بعد ذلك بالرمال مراراً ، فاحتفزه من جاء من بعده من الملوك^٢ . وذكر (هيرودوتس) أن الفرعون (نخو) (Necos) كان قد أرسل بعثة دخلت الخليج العربي ، أي البحر الأحمر في اصطلاح اليونان عن طريق القناة التي حفرت بين النيل وهذا البحر ، وكانت هذه البعثة من الفينيقيين للبحث عن أعمدة (هرقل) (Hercules)^٣ . ويرى بعض الباحثين احتمال كون الملك الذي حكم (غزة) في هذا العهد ، ملك من ملوك الليانين^٤ :

واهتم (دارا) بأمر التجارة البحرية ، فأمر (Skylax) من اليونانيين بالذهاب إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي لكشف تلك المناطق وتكوين صلات تجارية معها ، فوصل هذا المكتشف اليوناني - على رواية هيرودوتس - إلى الهند . وهو بذلك أول يوناني يبلغنا خبره حتى الآن ، يدخل البحر الأحمر ، ويطوف حول جزيرة العرب للوصول إلى الهند^٥ . ويفتخر (دارا) في كتابته التي أشار فيها إلى مشروع القناة ، بأنه استطاع أن يسيّر السفن عبرها من مصر إلى أرض فارس^٦ . وقد كانت هذه الخطوة من أعظم الخطوات في تاريخ العالم، ولا شك .

Herodotus, I, P. 302, Bk. IV, 39. ١

Herodotus, I, P. 302, Note. I. ٢

Herodotus, I, P. 302. ٣

Arabien S. 23. ٤

Montgomery, Arabia, P. 69. ٥

Montgomery, Arabia, P. 69, Breasted, History of Egypt, PP. 276, 584, R.W. Rogers, A History of Ancient Persia, PP. 119. ٦

وقد أثرت تأثيراً خطيراً في التجارة العربية في البحار ، اذ فتحت البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي لمنافسين أقوياء ، صار بإمكانهم شراء تجسرة افريقية والهند وسواحل جزيرة العرب بأسعار رخيصة ، لبيعها في الأماكن التي تربدها والتي كانت تشتريها بأثمان عالية ، وبذلك أخذت من التجار العرب جزءاً كبيراً من أرباحهم ، وألحقت بتجارهم مع البحر المتوسط ضرراً لا يستهان به :

ولما تحدث (دارا) عن الأرضين التي خضعت لحكمه ، أدخل (عربية) (أرباية) (Arabaya)^١ في جملة تلك البلاد . وقد دعاها بـ (ماتو أربي) (Matu A-ra-bi) في النص البابلي^٢ . ولم يقصد (دارا) بـ (عربية) كل البلاد العربية ، أي جزيرة العرب وبادية الشام ، وإنما أراد بها بادية الشام ، كما تحدثت ذلك في شرح المراد من (ماتو أربي) في الكتابات السامرية . وقد كانت هذه البادية مثل جزيرة العرب موطناً للأعراب منذ وجد العرب .

وقد ذكر (هيرودوتس) ان بلاد العرب كانت تقدم جزية سنوية من الطيب الى (دارا)^٣ ، إلا انه لم يحدد مكان البلاد العربية ، ولم يشر الى العرب الذين دفعوا هذه الجزية . ولما كانت هذه الجزية طيباً ، فإنها تحملنا على التفكير في أن العرب الذين دفعوها كانوا من رجال القوافل المتاجرة التي تأتي بتجارة العربية الجنوبية لبيعها في بلاد الشام ومصر ، وكان الطيب والبخور من أهم المواد الرائجة في أسواق تلك البلاد . وهذه الجزية لم تكن بالمعنى السياسي المفهوم الذي يدل على خضوع العرب للفرس ، وإنما كانت جعالة سنوية تدفع للسلطات الحاكمة على تلك الأسواق مقابل السماح لها بالتجارة ، أو ان (هيرودوتس) عني ببلاد العرب الأرضين التي كان يسكنها العرب ودخلت تحت حكم الفرس ، وعني بالعرب الذين دفعوها بعض القبائل العربية التي كانت تقيم في مصر أو طور سيناء

١ The Sculptures and Inscription of Darius the Great, London, 1907, Col. 1, 15, P. XIII, 4.

٢ « ماتو أربي » في النص البابلي ،

Col. I, 5, Sculptures, P. XVIII, The Babylonian Version, 5, 181.

٣ Inscription of Darius on the Rock at Behlston, Translated, by Sir H. Rawlinson, London, 1873, P. III, Herodotus, 3, 91, 97.

أو بادية الشام .

ويلاحظ ان (هيرودوتس) كان قد ذكر ، كما بينت قبل قليل ، ان العرب لم يخضعوا للفرس في ايام كورش ولا في ايام قمبيز ، وانما كانوا حلفاء للفرس . فيظهر من كلام (هيرودوتس) الأخير ان العرب الذين خضعوا للفرس ولدارا ، هم من أعراب بادية الشام ، ومن كانت منازلهم وديارهم في فلسطين وفي طور سيناء^١ . ويرى بعض المؤرخين ان (العربية) التي خضعت لحكم (دارا) لم تكن جزيرة العرب ، وانما منطقة الجزيرة الواقعة بين (بابل) وآشور^٢ ، مثل منطقة (سنجار) (Singara) و (الحضر) ، وكان العرب قد توغلوا فيها^٣ .

وقد ورد في خبر للمؤرخ (اكسينوفون) (Xenophon) وفي كتابته لـ (كيرش الثاني) (Kyros II) (Kyrush II) ، ما يفيد ان العرب كانوا قد خضعوا لحكم الأخمينيين . فورد في كتابة (كيرش) مثلاً : « ملوك الأرضين الغربية الذين يقطنون في الخيام » ، وذلك في جملة من اعترف بسلطان الملك عليهم . غير ان هذه الإشارات لا تفيد ان العرب كانوا قد خضعوا لهم مدة طويلة ، كما انها لا تدل على خضوع حقيقي لهم ، ولا سيما وقد ذكرنا ان (هيرودوتس) قد صرح ان العرب لم يخضعوا لحكم الفرس^٤ .

وأشار (هيرودوتس) الى وجود فرقة عسكرية من العرب في الجيوش الفارسية التي كانت بمصر ، كان على رأسها قائد فارسي دعاة (ارسامس) (Arsames) ، وقال انه أحد أولاد (دارا)^٥ . ويظهر ان هؤلاء الجنود هم من عرب مصر ، أي من العرب القاطنين هناك ، ولعلمهم من سكان الأرضين المحصورة بين النيل والبحر الأحمر^٦ . وقد كان العرب ينزلون هذه المنطقة والمنطقة شرقي النيل وجنوب البحر المتوسط والمتصلة بطور سيناء منذ القديم . فالعرب كانوا من قدماء سكان مصر ، لا كما يتصور بعضهم من أنهم دخلوا مصر في

١ Die Araber I, S. 167. ff.

٢ Mesopotamien, In: RE. 15, (1931), 1131, F. H. Weissbach, Die Keilschriften der Achaimeniden (1911), S. 82. f. R.G. Kent, Old Persian, (1953), 136.

٣ Die Araber, I, S. 165.

٤ Die Araber, I, S. 171.

٥ The Cambridge Ancient History, Vol. IV, P. 190.

٦ Herodotus, II, P. 148, Note. I.

الفتح ، وانهم لذلك غرباء لا صلة هناك بينهم وبين المصريين قبل الإسلام :
 والمعروف ان (الهكسوس) الذين حكموا مصر كانوا من العرب في رأي كثير
 من العلماء ، بل في نظر قدماء المصريين ، كما حكى ذلك الراهب المصري المؤرخ
 (مانيتو) (Manetho) في كتابه المؤلف باليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد .
 وقد ذهب بعض الباحثين الى ان (هيرودوتس) قصد بـ (العرب) النبط^٢ ،
 غير ان بعضاً آخر يخالف هذا الرأي ويعترض عليه ، فيرى ان النبط لم يظهروا
 ظهوراً بيناً الا في أواخر ايام الأخمينيين ، وكان ظهورهم في (بطرا) (Petra)
 وما حولها . أما مملكتهم فلم تقيم الا في القرن الثاني قبل الميلاد . ولهذا فإن العرب
 الذين قصدهم المؤرخ اليوناني ، هم عرب آخرون ، وان الأرض التي أرادها
 ذلك المؤرخ هي : طور سيناء حتى شواطئ نهر النيل^٣ .

ويظهر من الإشارات الواردة في التوراة ، أن عرب الضواحي ، كانوا يقيمون
 في مستوطنات ، عرفت بـ (حاصير) (حازير) (حاصور) (حصور)
 (Haser) في العبرانية . ومعناها : (محاط) . وقد كانوا أشباه بدو في الواقع :
 أناخوا في هذه المواضع واستقروا بها وامتنعوا الرعي^٤ .

وكان الجنود العرب يلبسون كما يقول (هيرودوتس) نوعاً من الثياب يسمى
 (زيرا) (Zeira) ، وهي ثياب طويلة تشد عليها الحُرْمُ ، ويحمل مرتدوها
 على أكتافهم اليمنى قسيّاً طويلاً . أما في حاله عدم استعمالها ، فيعلقونها على
 ظهورهم^٥ . والظاهر أن هذه الكلمة هي تحريف (السِّيرا) . و « السِّيرا » :
 « ضرب من البرود ، وقيل : ثوب مسير ، فيه خطوط تعمل من القز كالسيور .
 وقيل : برود يخالطها حرير . وقيل : هي ثياب اليمن^٦ » . ويلاحظ أن الثياب
 المخططة كانت ولا تزال شائعة بين شعوب الشرق الأدنى ، فلا تستبعد أن تكون
 كلمة (Zeira) تصحيفاً أو تحريفاً للسِّيرا ، وهي أقرب إليها من لفظة (إزار)
 أو مئزر على ما أرى .

١ W. G. Waddell, Manetho, P., 85, (The Loeb Classical Library), London, 1948.

٢ Olmstead, History of the Persian Empire, 1948, P. 88.

٣ Die Araber, I, 170, 284, 290.

٤ Die Araber, I, S. 170.

٥ Herodotus, II, P. 147.

٦ اللسان (٥٧/٦) ، ديوان قيس بن الخطيم (ص ٦) .

وقد ألف الفرس - بالاضافة الى الجنود الغرب المشاة - كتائب عربية من الهجانة ، تقاتل على الإبل ، يلبسون ملابس المشاة ، ويحملون أسلحتهم . يقول (هيرودوتس) : لأنهم كانوا يوضعون في مؤخرة الفرمان ، تجنباً لانزعاج الخيل إذا ما سارت مع الإبل ^١ .

وقد استعملت دول أخرى كتائب عربية من الهجانة في جملة القوات المحاربة ، للعمل في البوادي خاصة ، حيث يصعب على المشاة والفرمان اجتيازهما وتعقيب الأعراب . ولا تزال كتائب الهجانة محافظة على حياتها بين القوات المحاربة ، ولحماية الحدود الصحراوية حتى الآن .

وقد ألف العرب فرقة محاربة من الرماة بالسهام ومن المقاتلين ، اشتركت في جيش (اخشويرش) (Xerxes) (٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م.) ^٢ :

وقد أدخل الملك (اخشويرش) (العربية) (Arabia) في جملة البلاد التي كانت قد خضعت لحكمه ، وذلك في نص من أيامه ، عثر عليه . وقد ذكر (العربية) بعد موضع (Maka) وقبل موضع (Gandara) ^٣ .

Herodotus, II, P. 152. ١
Die Araber, I, S. 171. ٢
Pritchard, P. 316. ٣

الفصل السادس عشر

العرب والعبرانيون

لم تذكر التوراة (العرب) في مواليد بني نوح : سام ، وحام ، ويافت^١ ، ولكنها ذكرت أسماء قبائل لا شك في أصلها العربي ، وفي سبكانها في جزيرة العرب . وهذا يؤيد ما ذهب إليه من أن كلمة (العرب) لم تكن تعني قومية خاصة ، ولم تكن تؤدي معنى العلمية ، وإنما ترادف (الأعراب) والبدو ، أي سكان البادية ، ولهذا لم تذكر في جدول الأنساب ، وذكرت في مواضع أخرى من التوراة ، لها علاقة بالبادية والتبدي والأعرابية . والا لم تسكت عن ذكر العرب بين الشعوب المصنفة في الجدول المذكور ، وقد كان العرب يجاورون العبرانيين وكانوا على اتصال بهم دائم ، فكان ينبغي ذكرهم في ذلك الجدول ، لو كانت هذه التسمية تعني العلمية في الأصل ، وتعني جميع سكان جزيرة العرب من حضر وبدو . أما وهي لم تكن تعني إلا قسماً من العرب ، وهم الأعراب أي حالة خاصة من الحالات الاجتماعية ، فلذلك لم تذكر ، ومن ذكر في الجدول كلهم حضر مقيمون يعرفون بأسمائهم ، وهم معروفون ، أو قبائل أعرابية عرف العبرانيون أسماءها فذكروها ، فن طبع العبرانيين اطلاق لفظة (العرب) على الأعراب الذين لا يعرفون أسماءهم وعلى البدو عامة دون تخصيص . والبدو هم طبقة عاشت عيشة خاصة ، ولم تكن قبيلة واحدة أو قبائل معينة

١ التكوين : الاصحاح العاشر ، اخبار الايام الاول ، الاصحاح الاول

محدودة يمكن حصرها وارجاعها الى نسب واحد ، على نحو ما نفهم من كنعانيين وفينيقيين ، ثم ان الأعراب لم يكونوا ينتسبون الى جد واحد ولا الى أب معين ، لذلك لم تدخلهم التوراة في عداد الشعوب .

وقد ذهبت جماعة من المستشرقين الى ان العبرانيين هم قوم أصلهم من جزيرة العرب ، هاجروا منها وارتحلوا عنها على طريقة الأعراب والقبائل المعروفة نحو الشمال . وجزيرة العرب لذلك هي الوطن الأم الذي ولد فيه العبرانيون . ودليلهم على ذلك هو الشبه الكبير بين حياة العبرانيين وحياة الأعراب ، وان ما ورد في التوراة وفي القصص الإسرائيلي عن حياة العبرانيين ، ينطبق على طريقة الحياة عند العرب أيضاً ، ثم ان أصول الديانة العبرانية القديمة وأسسها ترجع الى أصول عربية قديمة . أضف الى ذلك ان العرب والإسرائيليين ساميون ، وجزيرة العرب هي مهد الجنس السامي ، فالعبرانيون على رأيهم هم من جزيرة العرب ، وهم جماعة من العرب اذن ان صحت هذه التسمية ، بطرت على أمها وعاقنتها وهربت منها الى الشمال^١ .

وإذا جازينا التوراة في قولها بالأنساب ، نرى أن العرب والعبرانيين هم على رأيها من أصل واحد ، هو سام بن نوح ، ونرى أيضاً أنها تعترف ضمناً بقدم (البقطنيين) ، أي القحطانيين على الإسرائيليين . فالبقطيون هم أبناء يقطان ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام^٢ . وعلى ذلك فهم أقدم عهداً من بني اسرائيل ، وأغرق حضارة ومدنية منهم ، ولا سيما إذا ما عرفنا أن كلمة (عبري) على رأي كثير من العلماء تعني التحول والتنقل ، أي البداوة^٣ ، أي أنهم كانوا بدواً أعراباً ينتقلون في البادية قبل مجيئهم الى فلسطين واستقرارهم بها وتحضرهم ، على حين كان القحطانيون متحضرين مستقرين أصحاب مدن وحضارة . كذلك جعلت التوراة الفرع العربي الآخر الذي وضعته في قائمة أبناء (كورش) أقدم عهداً من الإسرائيليين^٤ .

١ Montgomery, Arabia, Nielsen, Handbuch der altarabischen Altertumskunde, I, S. 241.

وسيكسون ومزه : Handbuch

٢ التكوين الاصحاح العاشر ، الآية ٢٠ وما بعدها .

٣ اسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية (ص ٧٧ فما بعدها) .

٤ التكوين ، الاصحاح العاشر ، الآية ٦ وما بعدها .

لقد كان العرب، بدواً وحضراً على اتصال بالعبرانيين ، فأينما عاش العبرانيون عاشوا مع العرب . ولعل هذا الاتصال هو الذي حمل نسابيهم على عدّ العرب ذوي قرى لليهود ، ومن ذوي رحمتهم . وكان العرب حتى في أيام تكوين العبرانيين حكومة في فلسطين يؤثرون تأثيراً خطيراً في الوضع السياسي هناك . وقد كانوا يقطنون بكثرة في الأقسام الشرقية والجنوبية من فلسطين وفي طور سيناء وغزة^١ . بل وكانوا يقطنون في القدس كذلك .

ومن علماء التوراة من يرى أن (أيوب) ، صاحب السفر المسمى باسمه ، أي (سفر أيوب) وهو من أسفار التوراة ، هو رجل عربي ، إذ كانت كل الدلائل الواردة في سفره تدل على أنه من العرب ، فقد كان من أرض (عوص) (Uz) . و (عوص) وإن اختلف العلماء في مكانها ، فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب في (نجد) ، أو في بلاد الشام في (حوران) ، أو في (البحر) ، أو على حدود (إدوم) (Idumaea) ، أو في العربية الغربية في شمال غربي (المدينة) . ويرى بعضهم أنه كان يسكن في شرق فلسطين أو في جنوب شرقيها ، أي في جزيرة العرب ، أو في بادية الشام^٢ .

وسبب هذا الخلاف ، هو أن التوراة لم تحدد مكان أرض (عوص) ، فبينما نرى أن سفر (أيوب) يتحدث عن هجوم (أهل سبأ) على ملك (أيوب) واستياق بقر كانت له تحرث الأرض وأتن ترعى^٣ ، مما يشعر أن أرض (أيوب) التي هي (عوص) ، كانت على مقربة من السبثيين . نرى هذا السفر يذكر بعد آية واحدة هجوم ثلاث فرق من الكلدانيين على ابل (أيوب) ، مما يجعلنا نتصور أن أرض (عوص) كانت على مقربة من الكلدانيين ، أي في البادية القريبة من الفرات^٤ . والرأي عندي أن (أيوب) كان رجلاً غنياً يملك إبلاً وبقراً وأتناً وأملاكاً ، وربما كان سيد قبيلة ، وله رعاة يتنقلون بماشيته في بادية الشام ما بين العراق وفلسطين وأعالي الحجاز ، فأغار (أهل سبأ) على بقر له كانت تحرث أرضه وعلى أتن كانت ترعى في أرضه، وأخذوها من رعاته وحرقوا أسبه.

١ Enc. Bibl. I, P. 272. ff.

٢ قاموس الكتاب المقدس (١٨٨/١) ، (١٢٦/٢) . Hastings, P. 469, 956.

٣ أيوب ، السفر الاول ، الآية ١٤ فما بعدها

٤ أيوب ، السفر الاول ، الآية ١٧ . Hastings, P. 469, 956.

وهؤلاء السبيثيون ، هم من السبيثيين النازحين الى الشمال والساكنين في أعالي الحجاز وفي الأردن . فالغارة كانت في هذه المنطقة . أما غارة الكلدانيين فكانت في العراق على مقربة من أرض الكلدان ، وذلك لأن رعاة إبله كانوا قد تنقلوا الى هناك على عادة الأعراب حتى اليوم في التنقل يلبلهم من مكان الى مكان طلباً للماء والكلأ ، فاستولى الكلدانيون عليها وأخذوها ، ولا علاقة لهاتين الغارتين بموطن أيوب .

وقد ذكر في سفر (أيوب) أنه (كانت قنيته سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف من الإبل وخمس مئة فدان بقر وخمس مئة أتان . وله عبيد كثيرون جداً ، وكان ذلك الرجل أعظم أبناء المشرق جميعاً)^١ . وتدل هذه الأرقام والأوصاف المذكورة لثروته أنه كان من أعظم الأغنياء في أيامه ، وأنه كان من (أبناء الشرق) ، هي ترجمة لجملة (بني قديم) (Bene Kedem) العبرانية، وليس في التوراة تحديد لمكان (بني قديم) (بني قديم) ، ولا تعريف لهم، ولكن التسمية العبرانية هذه ، تشير الى أن المراد منها من كان يقيم في شرق العبرانيين ولا سيما في البادية الواقعة شرق فلسطين^٢ . فهم إذن في نظر العبرانيين، الساكنون في شرقهم. ولما كان أيوب من (بني قديم) ، ومن أرض (عوص) ، فيجب أن تكون أرض (عوص) في البادية في شرق فلسطين، أي في منازل (بني قديم) الممتدة الى العراق^٣، وهي مواطن الأعراب. وقد عرف واشتهر بعض (بني قديم) بالحكمة عند العبرانيين^٤ .

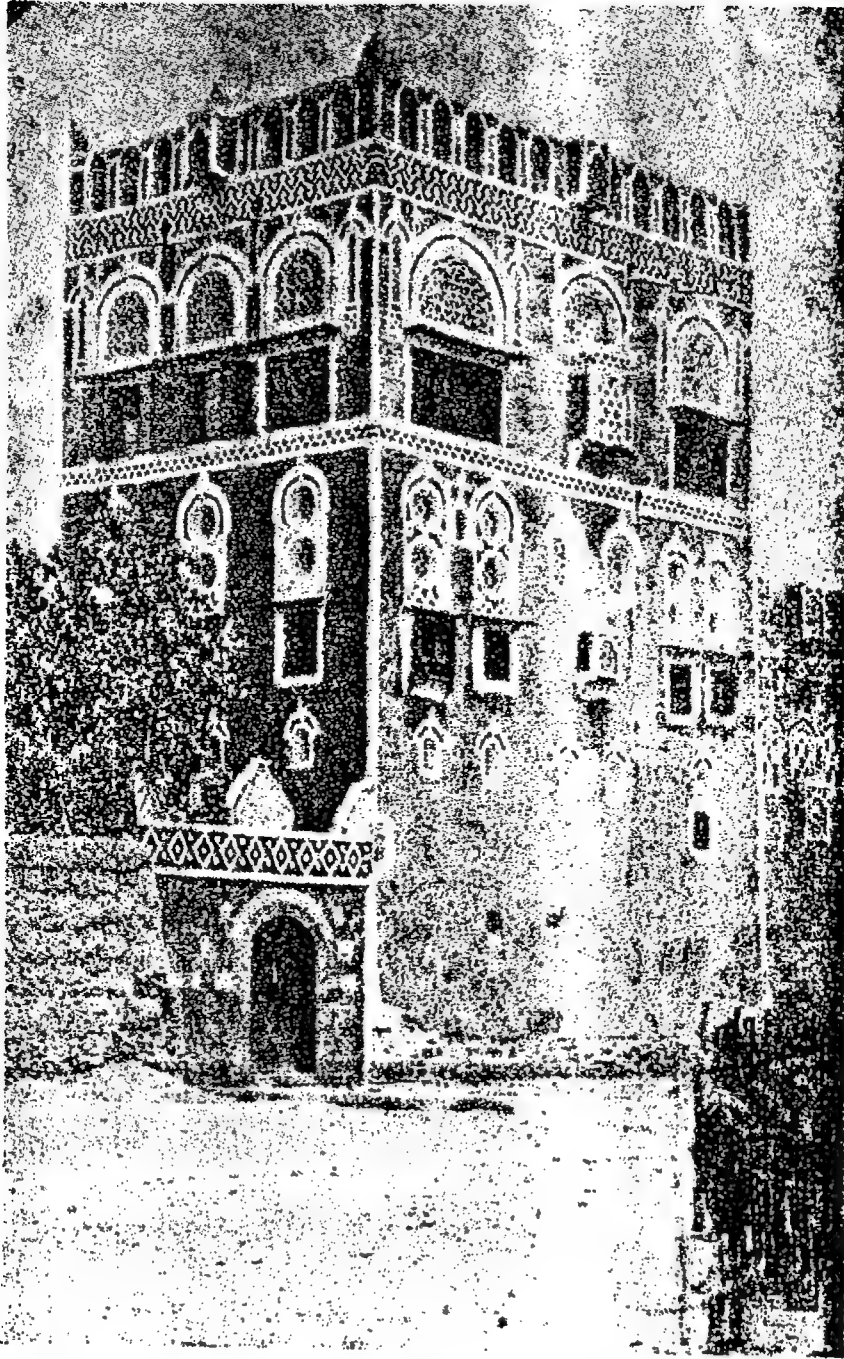
ويستدل من يقول بعروبة (أيوب) بالأثر العربي البارز على (سفر أيوب). ومن قدماء من قال بوجود أثر للعروبة في سفره ، العالم اليهودي (ابن عزرا) (بن عزرة) (Ibn Ezra) (Ben ezra) من رجال القرن الثاني عشر . وقد تبعه في ذلك جماعة من الباحثين الذين وجدوا في الكلمات والتعابير والأسماء الواردة في ذلك السفر ما يشير الى وجود أثر عربي عليه ، حتى ذهب بعضهم الى أن

١ أيوب ، السفر الاول ، الاصحاح الاول ، الآية ٣

٢ Montgomery, P. 41, 46, 49, 71, 169.

٣ قاموس الكتاب المقدس (١٩٧١/١ فما بعدها) ،

٤ Hastings, P. 200.



دار من دور صنعاء ، ويرى عليها الأثر المماري اليهاني القديم

ذلك السفر هو ترجمة لأصل عربي مفقود^١ .

وفي أثناء حديث التوراة عن أيام (داوود) وملكه ، أشارت الى رجل كان من شجعانه وأبطاله الذين تباهى بهم وافتخر ، دعتة (أبيل) العربي (Abiel)^٢ وكان من أهل (بيت عربية) (Beth-Arabah) في تيه (يهودا)^٣ . ويدل لقبه هذا والموضع المذكور انه كان من العرب، وأشارت الى رجل آخر ، ذكرت انه كان على جمال (داوود) ، دعتة به (أوبيل الإسماعيلي) (Obil)^٤ ، فهو من العرب الإسماعيليين . ولا يستبعد أن يكون هذا الرجل من وجوه الأعراب ، ولذلك أوكّل اليه أمر إبله ، وهي حرفة من صميم عمل أبناء البادية .

وقد أشير في سفر (يوثيل) الى السبثيين ، فورد فيه : « ها أنا ذا أنهضتهم من الموضع الذي بعموهم اليه ، وأرد عملكم على رؤوسكم ، وأبيع بنيكم وبناتكم بيد بني يهوذا لبيعوهم للسبثيين لأمة بعيدة ، لأن الرب قد تكلم »^٥ . وقد ورد هذا التهديد لأن الصوريين والصيدونيين وجميع دائرة فلسطين كانوا قد استولوا على فضة الهيكل في (أورشليم) وذهبه ونفائسه ، وباعوا (بني يهوذا) و (بني أورشليم) لبني (ياون)^٦ أي اليونان^٧ . فورد هذا التهديد على لسان (يهوه) إله إسرائيل متوعداً أولئك الذين نهبوا الهيكل وأسروا (بني يهوذا) و (بني أورشليم) ، أي سكان القدس ، وباعوهم لليونان ، بمصير سيء ، وبانتقام الرب منهم ، وبقرب ورود يوم ، يبيع فيه (أبناء يهوذا) ، أي العبرانيين أبناء المذكورين الى السبثيين .

وتدل جملة « للسبثيين ، لأمة بعيدة » على ان السبثيين المذكورين كانوا يسكنون في منازل بعيدة عن العبرانيين . ويظهر انها قصدت السبثيين أهل اليمن ، فهم بعيدون عن فلسطين . وكان تجار سبأ يأتون أسواق اليهود لشراء ما فيها من بضاعة بشرية لاستخدامهم في سبأ^٨ .

١ Montgomery P. 172, Foster, in Amerl. Journ. of Sem. Languages, October, 1932, PP. 31, Margollouth, The Relations, P. 30.

٢ اخبار الأيام الأول ، الاصحاح ١١ ، الآية ٣٢
Hastings, P. 3.

٣ اخبار الأيام الأول ، الاصحاح ٢٧ ، الآية ٣٠.

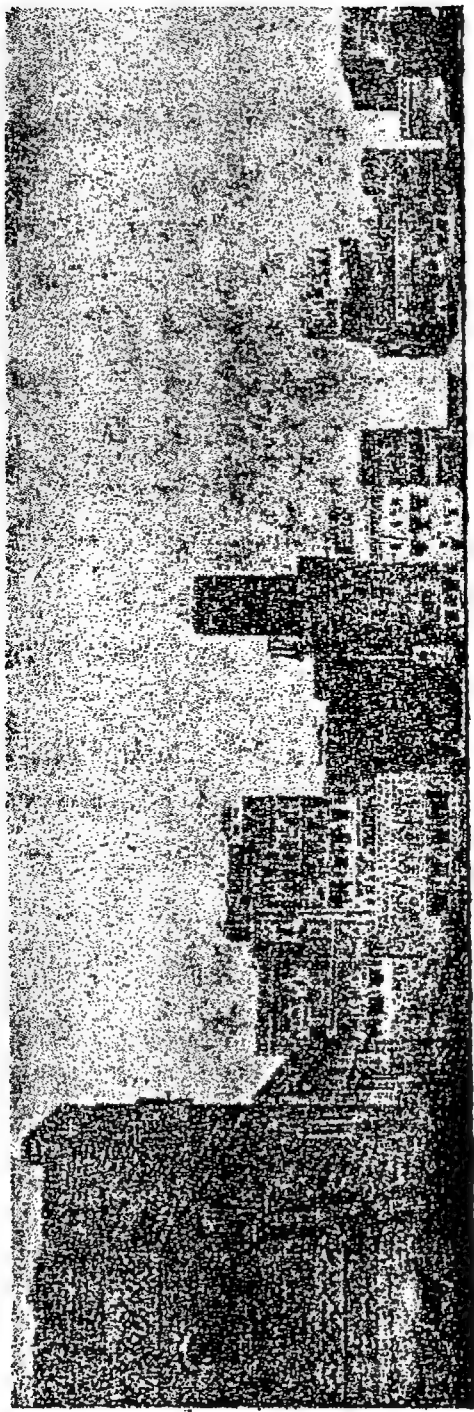
٤ يوثيل ، الاصحاح الثالث ، الآية ٧ فما بعدها

٥ يوثيل ، الاصحاح الثالث ، الآية ٥ وما بعدها

٦ Montgomery, P. 181.

٧ Margollouth, The Relations, P. 50, Hartmann, Arabische Frage, S. 421.

٨



سوق الحطب بمصناه . وتقرى بيوت السكن وقد ساهضت على طراز البناء القديم

وفي التوراة خبر زيارة ملكة (سبأ) لسليمان . وقصة هذه الزيارة ، وان دونت فيما بعد ، كتبها كتبة التوراة بعد عدة قرون ، الا انها تستند الى قصص قديم كان متداولاً ولا شك بين العبرانيين ، فدونه هؤلاء الكتاب . وقد رأى بعض نقدة التوراة ان هذه القصة قد كتبها أولئك الكتبة لاثبات عظمة سليمان ، وسعة دولته ، وشهرة حكمته . غير ان هذا لم يبت به حتى الآن . ورأى آخرون ان هذه الملكة لم تكن ملكة (سبأ) في اليمن ، لعدم ورود أسماء ملكات في النصوص العريية الجنوبية ، بل كانت ملكة تحكم في العريية الشمالية ، تحكم جماعة من السبثيين الذين كانوا قد نزحوا الى هذه المناطق منذ عهد بعيد ، وكونوا مستوطنات سبثية في الأردن وفي أعالي الحجاز^١ .

وتعلل التوراة سبب زيارة ملكة سبأ لسليمان بقولها : « وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب ، فأنت لتمتحنه بمسائل ، فأنت الى اورشليم بموكب عظيم جداً . بجبال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة ، وأنت الى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبيها^٢ . فلما سأله ورأت البيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقائه ومحرقاته التي كان يصعد فيها في بيت الرب ، لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك : صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيني^٣ . وأعطت (سليمان) مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان^٤ . وجاء في سفر (الملوك الأول) حكاية عن الذهب الذي وصل الى سليمان : « وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة مئمة وست وستين وزنة ذهب ، ما عدا الذي ورد من عند التجار وتجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض^٥ . ولا تعني جملة « وجميع ملوك العرب » و « كل ملكي

Hastings, P. 843. ١

٢ الملوك الأول ، الاصحاح العاشر ، الآية ١ فما بعدها ، وتقابل : سفر اخبار الايام الثاني ، الفصل التاسع ، الآية ١ فما بعدها من الترجمة الكاثوليكية .

٣ الملوك الأول ، الاصحاح العاشر ، الآية ٤ فما بعدها .

٤ الملوك الأول ، الاصحاح العاشر ، الآية ١٠ .

٥ الملوك الأول ، الاصحاح العاشر ، الآية ١٠ ، ١٤ فما بعدها ، اخبار الايام الثاني الاصحاح التاسع ، الآية ١٣ فما بعدها .

ها عرب ، في رأبي ونظري ملوك جزيرة العرب ، كما يفهم ذلك من ظاهر النص ، وانما تعني رؤساء أعراب كانوا يقيمون على مقربة من فلسطين ، وفي فلسطين نفسها ، دفعوا اليه هدايا وضرائب ، لأنهم كانوا يتاجرون مع العبرانيين ، فقدموا اليه هدايا على قاعدة ذلك اليوم . وقد رأينا ان الآشوريين كتبوا مثل ذلك عن العرب وعن غيرهم في نصوصهم ، اذ لا يعقل خضوع كل ملوك جزيرة العرب لسليمان . فلم يكن ملكه قد جاوز حدود العقبة ، كما نجد في التوراة ، وقد ذكرنا ان لفظة (هاعرب) ، أي (الغرب) انما كانت تعني الأعراب والبدو في العبرانية ، ولذلك فجملة « وكل ملوك العرب » تعني « وكل رؤساء الأعراب » ، وهم كثيرون . فقد كانوا قبائل وعشائر ، ولكل قبيلة وعشيرة سيد ورئيس . وقد كان منهم عدد كبير في فلسطين وفي طور سيناء .

وجه (سليمان) أنظاره نحو البحر ، ليتجر مع البلاد الواقعة على البحار ، وليستورد منها ما يحتاج العبرانيون اليه ، فأنشأ أسطولاً تجارياً في (عصبون جابر) (Ezion Geber) على خليج العقبة بجانب (أيلسة) (أيلوت) (Eloth) (ايلات) (Elath) ، من أرض (أدوم)^١ . وقد عرف خليج العقبة بـ (بحر سوف) ، (يم - سوف) (Yam-Soph) في العبرانية . ولما كان العبرانيون لا يعرفون البحر ، استعان سليمان بـ (حيرام) ملك (صور) في تسيير الاسطول وتدريب العبرانيين على ركوب البحر . فأمدّه بخبراء من صور ، تولوا قيادة السفن ، يخدمهم رجال سليمان . فبحروا البحر حتى وصلوا الى (أوفر) ، وأخذوا من هناك ذهباً ، زنته أربع مئة وعشرون وزنة ، أتوا بها الى سليمان^٢ . ويظن ان (عصبون كبير) (عصبون جبير) (عصبون جابر) (Ezion Geber) كانت عند (عين الغديان) في قعر وادي العربية ، على رأي بعض الباحثين^٣ ، أو (تل الخليفة) على رأي بعض آخر^٤ . وقد عرفت بـ (Berenice) فيما بعد^٥ ، وتقع الى الغرب من العقبة . وقد قامت بعثة أمريكية بحفريات علمية

١ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢٦ .

٢ الملوك الاول ، الاصحاح التاسع ، الآية ٢٦ فما بعدها .

٣ قاموس الكتاب المقدس (١٠٦/٢) .

٤ N. Glueck, in BOASOOR. Nos. 71, 72, October, and December, 1938, No. 76, October, 1939, No. 80, October, 1940, J. Hornell, in Antiquity, Vol. XXI, June 1947 PP. 66, W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, 1963, P. 44, 127, 128,

Hastings, P. 253. ٥

بين ١٩٣٨ و ١٩٤٠ في هذا الموضع ، وظفرت - فيما عثرت عليه من الآثار-
بأدوات مصنوعة من النحاس ومن الحديد . والظاهر أن سكان هذا الموضع كانوا
يحصلون على النحاس من مناجمه الغنية في (طور سيناء) .

وفي جملة ما عثر عليه من آثار في (تل الخليفة) جرتان ، عليها كتابات
بأحرف المسند ، وقد قدر أن تأريخ صنعها لا يقل عن القرن الثامن قبل الميلاد .
وتدل أحرف المسند هذه على أن صانعيها كانوا يكتبون بهذا القلم ، وقد رأى
بعض الباحثين ، أنها من صنع أهل مدين . وإذا صح هذا الرأي فإنه يكون
دليلاً على أن المدينين كانوا يكتبون به . ويرى (ريكمانس) (G. Ryckmans)
أن لهذه الكشف صلة بالمعنيين الذين كانوا في العلا وتبوك^١ .

وترى طائفة من علماء التوراة أن (أوفير) التي اشتهرت بوفرة ذهبها ، والتي
أرسل (سليمان) إليها سفناً مع سفن (حيرام) في طلب الذهب وخشب الصندل
والحجارة الكريمة^٢ ، هي أرض في بلاد العرب . ونظراً الى ورود اسمها بين
(شبا) و (حويلة) في الإصحاح العاشر من التكوين^٣ ، ذهب بعض العلماء
الى وقوعها في الأقسام الشرقية أو في الأقسام الجنوبية من جزيرة العرب^٤ .
ورأى (كلاسر) أنها المنطقة الواقعة على ساحل خليج عمان والخليج العربي^٥ .
وذهب نفر آخر من علماء التوراة الى وقوع (أوفير) في إفريقية أو في
الهند^٦ . ولكن الرأي الغالب أنها في العربية على ما ذكرت . وذلك ، لما ورد
في التوراة من أن (أوفير) ابن من أبناء (يقطان) ، وقد ذكر بين (شبا)

١ G. Ryckmans, On some Problems of South Arabian Epigraphy, in Bulletin of
the School of Oriental and African Studies, University of London,
London, 1952, Rep. Epig. 4918 bis, The Illustrated London News, Vol. 195,
No. 5233, 1939, P. 247, G. Ryckmans, Revue Biblique, 1939, P. 247-249, N. Glueck,
The Excavations of Solomon's Seaport: Ezlon-Geber, in Smithsonian Institution
Annual Report for 1941, P. 479.

٢ الملوك الاول ، الإصحاح التاسع ، الآية ٢٧ وما بعدها ، الإصحاح العاشر ، الآية
١١ ، أخبار الأيام الثاني ، الإصحاح التاسع الآية ١٠

٣ التكوين ، الإصحاح العاشر ، الآية ٢٩

٤ قاموس الكتاب المقدس (١٧٨/١) Hastings, P. 669.
Enc. Bibl. P. 3514, Simon Dubnow, Die Älteste Geschichte des Jüdischen
Volkes, Jüdischer Verlag, Berlin, 1925, Bd. I, S. 123.

Skizze, II, S. 353. ٥

Hastings, P. 669. ٦

و (حويلة) ، ونظراً الى أن مواطن اليقطينيين هي ما بين (ميسا وأنت آت نحو سفار جبل المشرق)^١ . و (ميسا) وإن تباينت آراء العلماء في تعيين مكانه فمنهم من ذهب أنه (ميسي) (ميسان) (Mesene) على رأس الخليج ، (خليج البصرة) ، أو (ماش) (ماشو) (Mashu) الأرض المذكورة في الكتابات الآشورية ، والتي تعني بادية الشام . أو أنه موضع (موزح) أو (موسح) في نجد ، أو اسم قبيلة من قبائل نجد^٢ . إلا أنك ترى من كل آرائهم انه اسم مكان في بلاد العرب ، أو اسم قبيلة عربية ، وأن (سفار) وهي الحد الآخر من حدود منازل اليقطينيين هي (ظفار) (Zafar) ، عاصمة مملكة حضرموت القديمة على رأي علماء التوراة^٣ . ولما كانت أسماء أبناء يقطان المذكورين ، والذين قد تحققنا من هويتهم كناية عن أسماء مواضع في جزيرة العرب ، وجب ان تكون (أوفير) في جزيرة العرب كذلك :

ومن الباحثين من يرى ان (أوفير) هي (عسير) ، ورأى آخرون انها ارض (مدين) وقد رجح أكثرهم كونها على سواحل جزيرة العرب الغربية أو الجنوبية ، لأن الأماكن هي اقرب الى الوصف الوارد في التوراة من الأماكن الأخرى^٤ :

وقد ذكر الهمداني في (معادن اليمامة) موضعاً سماه (الحفيس) ، قال : « ومعادن الحفيس بناحية عماية ، وهو معدن ذهب غزير »^٥ . وصلة وجود الذهب فيه بغزارة ، تنطبق على هذا الموضع أحسن انطباق ، الا ان هذا الموضع بعيد عن البحر ، ولكن من يدري ؟ فلعل كتاب التوراة لم يكونوا يعرفون مكان (أوفير) ، وانما سمعوا بذهبه ، الذي يتاجر به العرب الجنوبيون ، من الموانئ الساحلية ، فأرسل سليمان سفنه الى مواضع بيعه في سواحل جزيرة العرب لشرائه ، ومن هنا ظن كتاب (العهد القديم) ان (أوفير) على ساحل البحر . و(الحفيس)

١ التكوين ، الأصحاح العاشر ، الآية ٢٦ فما بعدها

٢ قاموس الكتاب المقدس (٣٩٩/٢) Hastings, P. 606

٣ قاموس الكتاب المقدس (٥٥٨/١) Hastings, P. 836

٤ Sprenger, Die Alte Geography Arabiens, S. 53. ff. Moritz, Arabien, S. 7, Burton,

The Gold Mines of Midian, Skizze, II S. 347, Montgomery, Arabia, P. 38.

٥ صفة (ص ١٥٣ ، سطر ٢٤) .

كما ترى اسم قريب جداً من (أوفير) .
وقد ضرب المثل بكثرة تبر (أوفير) ، وبحسن سبائك ذهبها ، فورد في سفر (أيوب) على لسان (اليفاز التياني) مخاطباً (أيوب) ، داعياً إياه الى توجيه وجهه لله : « فانك إن تبت الى القدير ، يعاد عمرانك وتنفي الإثم عن أحبيبتك ، فتجعل التبر مكان التراب وسبائك أوفير مكان حصي الأودية »^١ : وأنشأ سليمان خطأً بحرياً آخر ينتهي بأرض اشتهرت بالذهب كذلك ، سميت في التوراة (ترشيش) . وقد استعان سليمان بمدرين وملاحين من (صور) ، أمدّه بهم (حيرام) ملك (صور) . وكان الأسطول مختلطاً اسرائيلياً وحيرامياً ، يذهب مرة في كل ثلاث سنوات . وأما البضاعة التي يعود بها من (ترشيش) فهي ذهب وفضة وعاج وقردة وطواويس^٢ . ولم يتفق العلماء حتى الآن على تعيين موضع (ترشيش) ، فرأى بعضهم انه مكان في افريقية ، ورأى بعض آخر انه في مكان ما من سواحل آسية الجنوبية ، ورأى آخرون انه في اسبانية^٣ : وكانت سفن صور تتاجر مع ترشيش وتربح من هذه التجارة ربهاً فاحشاً ، كما جاء ذلك في التوراة :

وعلى أثر وفاة (سليمان) في حوالي سنة (٩٣٧ ق. م.) انشطرت حكومته شطرين : لإسرائيل (Israel) و (يهوذا) (Judah) . وقد أثر هذا الانقسام على أعمال العبرانيين التجارية البحرية ، لذلك لا نسمع لها ذكراً في التوراة الى أيام (يهوشافاط) (Jehoshaphat) ابن الملك (آسا) (Asa) ، الذي حكم فسيما بين (٨٧٦) و (٨٥١) ق. م. تقريباً^٤ فتحدثنا التوراة أنه اتفق مع (أخزيا) ملك (إسرائيل) على بناء أسطول جديد في (عصيون جابر) ليسير الى (ترشيش) ، غير أن مآربهما لم يتحقق ، إذ تكسرت السفن ، ولم تستطع السير الى (ترشيش)^٥ . ويظهر أنه أراد إحياء فكرة (سليمان) القديمة في الاتصال بالبحر الأحمر والمحيط الهندي وإفريقية وبسواحل جزيرة العرب الجنوبية وبسواحل آسية ، إلا أنه لم ينجح^٦ . والظاهر أن العبرانيين لم يكونوا قد اتقنوا

١ أيوب ، السفر الثاني والعشرون ، الآية ٢٣ فما بعدها .

٢ الملوك الاول ، الاصحاح العاشر ، الآية ٢٢ فما بعدها .

٣ قاموس الكتاب المقدس (٢٨٤/١ وما بعدها) Hastings, P. 805

٤ Hastings, P. 400.

٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح العشرون ، الآية ٣٥ فما بعدها .

٦ Dubnow, I, S. 186.

بناء السفن والسير بها في البحار ، فأخفقوا ، وأن نجاح (سليمان) في الوصول الى (أوفير) و (ترشيش) مَرَدّه الى خبرة ومهارة البحارة السوريين الفينيقين .

ويظهر من سفر (الملوك الأول) ان (يهوشافاط) قام بنفسه منفرداً ببناء السفن لإرسالها الى (ترشيش) ، غير انها تكسرت في (عصيون جابر) فعرض (أخزيا بن آخاب) ملك اسرائيل عليه أن يبني أسطولاً مشتركاً ، يشترك فيه ملاحون من اسرائيل وملاحون من يهوذا ، الا انه رفض ذلك^١ . ولم نعد نسمع بمحاولات أخرى للبرانيين ترمي الى اعادة فكرة (سليمان) في بناء سفن بحرية للتجارة بها مع البلاد الواقعة على البحر بمسافات بعيدة عن اسرائيل .

نعم ، لقد كوّن (المكابيون) أسطولاً تجارياً لهم جعلوا مقره في (يافا) (Jappa)^٢ ولكنهم لم يتمكنوا من بناء أسطول لهم يخترق مياه البحر الأحمر ، ليزاحم العرب أو غيرهم فيه . فلم يكن الإسرائيليون من عشاق البحر على شاكلة الفينيقين أو العرب الجنوبيين أو سكان العروض . ولولا المساعدة الثمينة التي قدمها ملك صور لسليمان ، لما استطاع البرانيون أن يصلوا الى (ترشيش) أو (أوفير) .

وقد انصرف (يهوشافاط) على ما يظهر الى اقرار الأمن في حدود مملكته ، وتحسين علاقاته مع (آخاب) ملك اسرائيل ، ومع جيران (يهوذا) ، حتى تمكن من عقد محادثات معهم ، أدت الى الاستقرار والهدوء ، فلم يحاربوا (يهوشافاط)^٣ ، وهذا مما حمل علماء يهود على التجول في مدن (يهوذا) لتعليم الناس أحكام دينهم . وحمل اليه (الفلسطينيون) هدايا وجيزى دفعوها فضة ، كما جاء في التوراة^٤ ، ودفع اليه (العرب) كما تقول التوراة أيضاً (٧٧٠٠) كبش و (٧٧٠٠) تيس^٥ . ويظهر ان (العرب) المذكورين ، هم من الأعراب النازلين في (يهوذا) ومن الأعراب الذين يفدون عليها للتجارة : والا

١ الملوك الأول ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية ٣٨ فما بعدها
Montgomery, Arabia, P. 179.

٢ Hastings, P. 849.

٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثامن عشر ، الآية الاولى فما بعدها .

٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ١١

٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السابع عشر ، الآية ١١

فلم يدفع الأعراب الساكنون في خارج (يهوذا) جزى أو هدايا للملكها ، وليس له سلطان عليهم ؟ وقد ترجمت لفظة (عربايم) العبرانية بلفظة (عربان) في ترجمة (جمعية التوراة الأمريكية) للتوراة الى العربية. أما (الترجمة الكاثوليكية) فقد ترجمتها بلفظة (العرب) . أما المراد من النص العبراني ، فهو (الأعراب) لأن لفظة (عرب) ، لم تكن تعني يومئذ الا هذا المعنى :

وتولى (يهورام) (Jehoram) (٨٥١ - ٨٤٣ ق.م.) ، الحكم على مملكة (يهوذا) بعد (يهوشافاط)^١ . وتذكر التوراة أنه قتل جميع اخوته وبعض رؤساء إسرائيل بالسيف^٢ . وأنه أغضب إلهه (إسرائيل) بأفعاله المنكرة ، لذلك (أهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين ، فصعدوا الى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضاً . ولم يبق له ابن إلا يوحاز أصغر منه)^٣ . وتذكر بعد ذلك أن الله ابتلاه بمرض في أمعائه وبأمراض رديئة (فذهب غير مأسوف عليه ، ودفنوه في مدينة داوود ، ولكن ليس في قبور الملوك)^٤ .

ويظهر أن هجوم العرب على (أورشليم) كان هجوماً شديداً عنيفاً كاسحاً ، بدليل ما جاء في الآية التي أشرت اليها في التوراة ، وفي الآية الأولى من (الإصحاح التالي) للإصحاح المذكور : (وملك سكان أورشليم أخزيا ابنه الأصغر عوضاً عنه ، لأن جميع الأولين قتلهم الغزاة الذين جاءوا مع العرب الى المحلة)^٥ . وفي هذا الهجوم الماحق دلالة على ضعف مملكة (يهوذا) وتضعف الأمن فيها وعلى التناحر الشديد الذي كان بين السكان حتى أننا لنجد الشعب فرقاً غير متفقة ، وأكثرها نخاصم الحكام .

ويرى (مرغيلوث) (Margoliouth) أن المراد بالعرب الذين بجوار الكوشيين العرب الجنوبيون ، أي سكان اليمن . وذلك لأنهم في جوار (الكوشيين) أي

١ (ملك ٨ سنين من سنة ٨٩٢ - ٨٨٥ ق . م) ، قاموس الكتاب المقدس (٥٣٤/٢) . Hastings, P. 400.

٢ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ٤ فما بعدها
٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون ، الآية ١٦ فما بعدها
٤ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الحادي والعشرون الآية ١٩ فما بعدها
٥ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح الثاني والعشرون ، الآية ١

الحاميين ، السودان ، وهم سكان إفريقية ، لا يفصلهم عنهم إلا مضيق (باب المندب) . ويرى أيضاً أن ذلك الهجوم كان بحراً ، مستندلاً على رأيه هذا بأن العرب المذكورين سرعان ما تراجعوا الى منازلهم بغنائمهم وبما حصلوا عليه من أموال ، دون أن يكلفوا أنفسهم البقاء في (أورشليم) والاستيلاء على (يهودا) ، وبمساعدة الفلسطينيين للعرب في هجومهم على يهوذا ، وقد كان الفلسطينيون يسكنون سواحل فلسطين^١ .

أما (موسل) ، فيرى أن (العرب الذين بجانب الكوشيين) ، هم العرب النازلون في الأقسام الغربية من (طور سيناء) وعلى حدود مصر ، وفي الأقسام الجنوبية من (طور سيناء) وعلى مقربة من (أيلة) . وقد كانت (طور سيناء) موطناً قديماً للعرب ، وقد أشير في الكتابات المسارية الى ملوك عرب ، حكموا هذه الأرضين^٢ .

ويحدثنا الاصحاح السادس والعشرون من (أخبار الأيام الثاني) أن (عزيا) (Uzziah) ملك (يهوذا) (٧٧٩ - ٧٤٠ ق. م.)^٣ . كان مستقيماً في أول أمره مطيعاً لأوامر الكهان ، لذلك وفقه الله ، فخرج (وحارب الفلسطينيين وهدم سورجت وسور يينة وسور أشدود ، وبني مدناً في أرض أشدود والفلسطينيين وساعده الله على الفلسطينيين وعلى العرب الساكنين في جوربعل والمعونيين^٤ . ويفهم من هذه الآيات أن الفلسطينيين والعرب كانوا جبهة واحدة متحدة ضد مملكة (يهوذا) . وقد كبدها خسائر فادحة كما رأينا . فلما تولى هذا الملك ، أراد رمي صفوف أهل مملكة (يهوذا) ووقاية مملكته ، وقد نال تأييد شعبه له ، فحارب الفلسطينيين وتغلب عليهم ، وحارب العرب الساكنين في (جوربعل) والمعونيين ، وهدم أسوار المدن التي عرفت بعدئها لـ (يهوذا) ، وبني مدناً جديدة في (أشدود) وفي الأرضين الساحلية المعروفة بفلسطين :

١ Margollouth, The Relations, P. 52.

٢ Hegaz, P. 274.

٣ Hastings, P. 401, 957, Enc. Bibl. P. 5240, Hegaz, P. 244.

ويدعى أيضاً «عزريا» وهو ابن «أمصيا» ، (٨٠٨ - ٧٥٦ ق. م.)
(٧٨٢ - ٧٣٧ ق. م.) ، قاموس الكتاب المقدس (١٠٠/٢) .

٤ أخبار الأيام الثاني ، الاصحاح السادس والعشرون ، الآية ٦ وما بعدها

ومدينة (جث) ، هي مدينة قديمة في تخوم (دان) ، وبها ولد (جليات) (كلياث) (Goliath) جبار الفلسطينيين كما أنها إحدى مدنها الخمس^١ : وكانت في أيام داود في يد الفلسطينيين ، وكان عليها ملك اسمه (أخيش) (Achish)^٢ ، ولم يعرف مكانها بالضبط . وأما (بينة) ، وتعرف أيضاً بـ (يينثيل) ، فلأنها من مدن الفلسطينيين كذلك . وهي (بينة) في الزمان الحاضر ، وتقع على بعد (١٢) ميلاً جنوب (يافا) و (٣) أميال شرقي البحر^٣ ، أو (يمنة) على مسافة ٧ أميال جنوبي (طبرية)^٤ .

ولم يتمكن علماء التوراة من تثبيت موضع (جوربعل) . وتعني لفظة (جور) (مسكن) ، فيكون تفسير (جوربعل) (مسكن بعل)^٥ . ويظهر من ذكر الفلسطينيين والعرب الساكنين بهذا المكان والمعروفين بعضهم مع بعض أن أرضهم كانت قرية بعضها من بعض ، وأنهم كانوا يبدأ واحدة على (يهوذا) . ويرى (موسل) أن الزاوية الشمالية الغربية من أرض (حسمى) هي (جوربعل) . وتقع في رأيه على مقربة من جبل (إرم) الذي يعرف اليوم باسم (رم) ، وهو (Aramaia) في (جغرافية بطلميوس) ، ويكون حداً من الحدود الشمالية للحجاز^٦ . وذهب بعض الباحثين إلى أن (جوربعل) تعني (صخرة بعل) ، في بعض النصوص الإغريقية ، ولهذا فسروها بـ (بطرا) . ولذلك قالوا إن العرب المذكورين كانوا العرب الساكنين عند (بطرا) (Petra)^٧ .

وأما (المعونون) ، فإن آراء علماء التوراة متباينة كذلك في تعيين هويتهم^٨ . وقد ذهب بعضهم إلى أنهم جماعة من (المعينيين) ، الذين كانوا قد استقروا

١ يشوع : الأصحاح الحادي عشر ، الآية ٢٢ ، الأصحاح الثالث عشر ، الآية ٣ ، صموئيل الأول ، الأصحاح السادس ، الآية ١٧ ، الأصحاح السابع عشر ، الآية ٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٣١٤/١ وما بعدها) .

٢ صموئيل الأول ، الأصحاح الحادي والعشرون ، الآية ١٠ وما بعدها ، الأصحاح السابع والعشرون ، الآية ١ وما بعدها .

٣ قاموس الكتاب المقدس (٤٩٤/٢) .

٤ Enc. Bibl. P. 2303, Hastings, P. 419.

٥ قاموس الكتاب المقدس (٣٤٤/١) . Enc. Bibl. P. 1920, Hastings, P. 322.

٦ Hegaz, P. 274.

٧ Montgomery, Arabla, P. 30.

٨ قاموس الكتاب المقدس (٣٦٢/٢)

في (ديدان) ، وكونوا مملكة معينة شمالية ^١ . وذهب بعض آخر الى انهم سكان (معين مصران) ^٢ .

وقد استعاد (عزيا) (أيلة) (ايلات) (Eloth) (Elath) ، وبنى ميناءها ، وتقع في أرض (آدوم) ، وهي فرضتها الشهيرة ، ويقع على مقربة منها ميناء (عصيون جابر) الذي تحدثت عنه . وقد بقيت في ملك (يهوذا) الى ان استولى عليها ملك (أرام) ^٣ . وقد حاول (عزيا) ومن جاء بعده ، جعل (ايلات) (أيلة) ميناء (يهوذا) الجنوبي ، وذلك للاستفادة منه في الأنجار مع افريقية والبلاد العربية وسواحل آسية الجنوبية ، تطبيقاً لخطه (سليمان) ، الا ان هذا الأمر لم يتحقق ، اذ لم تكن مملكة (يهوذا) قوية متمكنة في هذه المناطق الجنوبية ، التي كانت هدفاً للغارات والحروب .

ويظهر ان ميناء (عصيون جابر) كان قد خرب أو امتلأ بالرمال ، فلم يصلح للاستعمال ، فرأى (عزيا) استبدال ميناء (أيلة) به ، وقد يكون ماء هذا الميناء أعمق وأصلح للملاحة وللمواصلات من ذلك الميناء ، لذلك وقع اختيار ملك (يهوذا) عليه ^٤ .

وفي أخبار حملة (سنحاريب) التاسعة ما يفيد ان (حزقيا) ملك (يهوذا) استخدم الـ (الأربي) ، أي الأعراب ، فيمن استخدمهم للدفاع عن القدس (أورشليم) ، حينما حاصرها ملك آشور ^٥ . ولم يكن هؤلاء العرب ، الا أعراباً من سكان (يهوذا) ، ومن سكان الأرضين الأخرى في فلسطين .

وعلى عاتق هؤلاء الأعراب وقعت مسؤولية الدفاع عن القدس ، حيث قاموا بدور كبير في الدفاع عنها وفي مقاومة الآشوريين ^٦ :

ولما سمح الفرس ليهود بابل الذين كانوا في الأسر بالعودة الى بلادهم، توسل

١ Margoliouth, P. 51.

٢ Winckler, AOF. 29, 337, Enc. Bibli. P. 3065.

٣ اخبار الايام الثاني ، الاصحاح السادس والعشرون ، الاية ٢ ، الملوك الثاني ،
الاصحاح الرابع عشر ، الاية ٢٢ ،

قاموس الكتاب المقدس (١٨٤/١) Hastings, P. 211.

٤ Montgomery, Arabia, P. 179.

٥ Luckenbill, II, 240, Reall. I, S. 125.

٦ A.R. Burn, Persia and the Greeks, P. 21.

(نحميا) الى (ارتحشتا) ، ملك الفرس ، بالسماح له بالعودة الى القدس ، وكان (نحميا) ندماً للملك ، يسقيه الخمر ويؤانسه ، فسمح له . ولما وصل اليها ، وجد المدينة خربة ، وقد تهدمت أسوارها واقتلعت أبوابها ، فجمع سكانها وأمرهم بإعادة بناء الأسوار وإصلاح الثغر والثلثم التي فيها ، وعمل أبواب جديدة . ولكنه لقي معارضة شديدة من (سنبلط الحوروني) و (طوبيا العبد العموني) و (جشم العربي) ، اذ عارضوا في إعادة بناء الأسوار والأبواب وهددوه بالزحف على المدينة . ونجد في (سفر نحميا) وصفاً لموقفهم من (نحميا) ، فيه استهزاء وسخرية به وازدراء بأمر سكان (أورشليم) وبالسور الذي أخذ في بنائه ، وبين المستهزئين أناس من العبرانيين . « ولما سمع سنبلط أننا آخضون في بناء السور ، غضب واغتاض كثيراً ، وهزأ باليهود ، وتكلم أمام اخوته وجيش السامرة ، وقال : ماذا يعمل اليهود الضعفاء ؟ هل يتركونهم ؟ هل يذبحون ؟ هل يكملون في يوم ؟ هل يحيون الحجارة من كوم التراب وهي محرقة ؟ وكان طوبيا العموني بجانبه ، فقال : ان ما يبنونه اذا صعد ثعلب فانه يهدم حجارة حائطهم »^١ . وقد تأثر (نحميا) من هذا الازدراء الشائن كثيراً ، فتراه يوجه وجهه لربه ويخاطبه قائلاً : « اسمع يا إلهنا لأننا قد صرنا احتقاراً وردّ تعبيرهم على رؤوسهم وأجعلهم نبأ في أرضي السي »^٢ .

وصمم (نحميا) كما يقول على الاستمرار في البناء حتى إكماله « فلما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون ان أسوار أورشليم قد رمت ، والثغر ابتدأت تسد ، غضبوا جداً ، وتآمروا معاً أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضرراً »^٣ . ولكنهم كما يفهم من (نحميا) لم يتفادوا تهديدهم بالهجوم على القدس ، بل بقوا يتكلمون ويهددون ، يرسلون الرسل الى (نحميا) للاجتماع به ، ويذكر (نحميا) انهم لم يكونوا يريدون من هذا الاجتماع الا الفتك به ، فرفض . وعندئذ تراسل (سنبلط) و (طوبيا) مع أحد رؤساء (أورشليم) وهو (شعيا بن دلایا) ، ليدخل (نحميا) الهيكل ، ثم يعلن للناس انه دخل

١ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ١ فما بعدها

٢ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ٤ .

٣ نحميا ، الاصحاح الرابع ، الاية ٧ فما بعدها .

الهيكل خائفاً هارباً ، فتسقط منزلته من أعين الناس . وقد أحس (نحميا)
بالمؤامرة ، فرفض الدخول كما يقول^١ .

وكان (جشم) العربي ، من أشد المعارضين لبناء السور، ولتحصين القدس ،
وذلك لأنه كان يرى في هذا العمل إعادة لدولة (يهوذا) ولتنصيب (نحميا)
ملكاً على (أورشليم) . وقد صرح برأيه هذا الى (نحميا) في رسالة وجهها
اليه نقل (نحميا) منها هذه الكلمات : (وجشم يقول : انك أنت واليهود
تفكرون ان تتمرّدوا ، لذلك أنت تبني السور لتكون لهم ملكاً بحسب هذه
الأمور . وقد أقمت أيضاً أنبياء لينادوا بك في أورشليم قائلين في يهوذا ملك^٢ .
وما كان (جشم) ، ليعارض بناء أسوار القدس ووضع الأبواب لها ،
واعادة حكومة (يهوذا) التي قضى عليها البابليون الى الوجود لو لم يكن صاحب
سلطان وحكم في أرضين تجاور القدس ، ولهذا رأى في إعادة الملكية الى القدس
عاصمة مملكة (يهوذا) المقرضة ، تهديداً له ولمن تحالف معهم على مقاومة هذا
المشروع^٣ .

و (جشم) (Geschem) اسم من الأسماء العربية المعروفة . وفي القبائل
العربية قبيلة يقال لها (جشم) ، وهي من قبائل (بني سعد) ، وهو أيضاً
(جشم) من أسماء الرجال^٤ . ويرد بصورة : (جشمو) في الكتابات النبطية^٥ .
ولم يشر (نحميا) الى موطنه ومكانه ، ولذلك لا ندرى أين كان . وقد ذهب
بعض الباحثين في التوراة الى أنه كان من أهل (السامرة) (Samaria) ،
وذهب بعض آخر الى أنه كان من أهل المناطق الجنوبية من (يهوذا) وأنه كان
رئيس قبيلة فيها^٦ .

وذهب بعض الباحثين الى أن (جشم بن شهرو) (جشم بن شهر) ،
هو (جشم) المذكور في التوراة . وهو أحد ملوك قبيلة (قيدر) (قدار)
(قدرو) . وهو الذي عارض (نحميا) في سنة (٤٤٤) قبل الميلاد في إعادة

١ نحميا ، الاصحاح السادس ، الآية ٢ فما بعدها .

٢ نحميا ، الاصحاح السادس ، الآية ٦ فما بعدها .

٣ (جشم) (Geschem) (جشمو) (Gushamu) Enc. Bibl. I, P. 273, ff.

٤ الاشتقاق (١٥٤/١) ، (١٧٧/٢) ، (٢٠٣ ، ٢٤٢) .

٥ Margollouth, P. 48, Montgomery, Arabia, P. 29.

٦ Hastings, P. 291, Enc. Bibl. P. 1710, Hastings, A Dictionary of the Bible, I, P. 162.

بناء سور (أورشليم) . وقد كانت (قيدار) مملكة تسيطر على أرض تمتد من (دلتا) النيل الى حدود مملكة (يهوذا) فجنوب (ديدان) بحوالي (٢١) كيلومتراً نحو الجنوب في الحجاز، أما في الغرب فتصل حدودها بالبادية^١ . فلئ (قيدار) وهو (جشم بن شهر) ، كان إذن هو المعارض لبناء السور ، وفي معارضته هذه دلالة ولا شك على مقاومته لمحاولة إعادة دولة إسرائيل من بعد السبي .

ويظن أن الإناء الذي عثر عليه بمصر في موضع يقع على مسافة اثني عشر ميلاً الى غرب الإسماعيلية ، وقد دُوِّن عليه اسم شخص يدعى (قينو بن جشم ملك قيدار) ، هو ابن (جشم) المعاصر (لنحميا) . وعلى ذلك يكون أحد ملوك (قيدار)^٢ :

وقد كانت (طور سيناء) منذ القديم أرضاً يسكنها العرب ، حتى في أيام داوود وسليمان . ونجد أن رسالة (القديس بولس) الى أهل غلاطية تجعل جبل سيناء في ديار العرب ، وتذكر أن (طور سيناء) موطن أبناء هاجر ، أي العرب^٣ . كما نجد أن النقب ووادي عربية كانا من مواطن الأعراب^٤ . وقد كان أعراب (جشم) وغيره ينتقلون ويتزلون في هذه المواطن وعلى مقربة من القدس :

وفي هذا العهد وصل الاتجار بين فلسطين وبين العربية الجنوبية ذروته . فعثر على مواد كثيرة في مواضع متعددة من فلسطين استوردت من العربية الجنوبية . كما عثر في حضرموت على آثار تدل على أنها استوردت من فلسطين وبلاد الشام . وقد كانت حاصلات العربية الجنوبية هي من أهم السلع المطلوبة في فلسطين . ترسل اليها عن طريق البر على ظهور الجمال .

ومنذ عهد (نحميا) أي أوسط القرن الخامس قبل الميلاد ، أخذ العبرانيون

Grohmann, Arabien, S. 23, F. V. Winnett, Notes on the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, in Muséon, 51, (1938), 307, 309, W.F. Albright New Light on early Recensions of the Hebrew Bible, in BASOR, Num. 140, 1955, 31, W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, P. 145.

William Culican, The Medes and Persians, London, 1965, P. 151.

الاصحاح الرابع ، الآية ٢٤ فما بعدها .

W. F. Albright, The Archaeology. P. 145.

ينظرون نظرة عداوة الى العرب ، ويعتدونهم في الجماعات المعادية لهم^١ . وذلك مما يدل على اتخاذهم موقفاً موحداً ضد العبرانيين وعلى توغلهم في فلسطين في المناطق التي حكمتها حكومتا (إسرائيل) و (يهوذا) ، ولهذا اشتدت مقاومة العرب للعبرانيين واتحدوا مع الشعوب الأخرى في مقاومتهم ، وفي منعهم من إعادة تكوين حكومة يهودية في هذه البلاد .

ولما تولى (يهوذا المكابي) مؤسس أسرة (المكابيين) (Maccabees) (١٦٦ - ١٦١ ق. م.) الحكم ، حارب أعداء العبرانيين^٢ ، وكان من بينهم (تيموثاس) (Timotheus) رئيس (العمونيين)^٣ ، الذي استأجر جيشاً من العرب ومن الغرباء ليحارب به (يهوذا) ، غير أنه أصيب كما يقول (سفر المكابيين) بخسائر في كل المعارك التي خاضها مع (يهوذا) ، ولم يتمكن من الانتصار عليه^٤ .

وقد تحدث سفر المكابيين الثاني عن (تيموثاس) هذا ، فقال : (ثم ساروا (أي اليهود) من هناك تسع غلوات زاحفين على تيموثاس ، فتصدى لهم قوم من العرب يبلغون خمسة آلاف ، ومعهم خمس مئة فارس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان الفوز لأصحاب يهوذا بنصرة الله ، فانكسر عرب البادية ، وسألوا يهوذا أن يعاقدهم على أن يؤدوا اليهم مواشي ويمدوهم بمنافع أخرى)^٥ . ولعل هؤلاء العرب ، هم العرب المذكورون ، الذين ذكر السفر الأول من المكابيين أن (تيموثاس) كان قد استأجرهم لمقاتلة اليهود . وقد كانوا من أعراب البادية ، كما نرى ذلك في هذا النص .

وورد في (سفر المكابيين الأول) اسم سيد قبيلة عربية هسو (زبدبثيل) (زبدابيل) (زبديل) ، وكان يقطن في (ديار العرب) ، كما جاء ذلك في السفر المذكور. ذكر السفر اسم هذا الرئيس وهو يتكلم على فرار (اسكندر بالس)

١ Margollouth, P. 48, Hastings, P. 406, Enc. Bibl. I, P. 273.

٢ Hastings, A Dictionary. I, P. 936.

٣ A Dictionary, I, P. 937.

٤ المكابيون الأول ، الأصحاح الخامس ، الآية ٦ فما بعدها ، ٣٤ فما بعدها ، المكابيون الثاني الأصحاح الثامن ، الآية ٣٠ ، الأصحاح التاسع ، الآية ٣ ، الأصحاح العاشر الآية ٢٤ فما بعدها .

٥ المكابيون الثاني عشر ، الآية ١٠ فما بعدها .

(Alexander Balas) الى (ديار العرب) ، وكان قد مني بهزيمة أوقعه بها (بطلميوس) (بطلاموس) (Ptolemy) ، عمه أي والد زوجته . وكان قد تخاصم معه . فلما وصل (إسكندر بالس) الى (ديار العرب) ، قبض عليه (زبديثيل) ، وقطع رأسه ، وأرسله الى (بطلاموس)^١ .

ولم يتحدث السفر المذكور عن منزل (زبديثيل) ، ولم يحدد مكان (ديار العرب) ، وعندني أن المراد بـ (ديار العرب) بادية الشام ، والأرضين التي دعاها الآشوريون بـ (أربي) (Aribi) ، وهي موطن آمن لمن يصل اليه ، إذ يصعب للجيوش النظامية أن تقاتل فيها . وقد كان (زبديثيل) من رؤساء البادية في هذا الزمن . وهو حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد^٢ . وكان الحاكم على اليهود هو (يوناتان) من المكابيين .

ويذكر (سفر المكابيين) أيضاً أن (تريفون) (Tryphon) ، وهو أحد قواد (إسكندر بالس) ومن جماعته ، ذهب الى رجل عربي اسمه (ايملكوثيل) ، وكان يربي (أنطيوخس بن الإسكندر) ، فألح عليه أن يسلمه اليه ليملكه مكان أبيه ، ومكث عنده اياماً . وقد تمكن عربي مع حقد العبرانيين المتزايد على العرب من حكم اليهود ومن تأسيس أسرة حاكمة حكمتهم . ذلك الرجل هو (انتيباتر) (Antipater) الأدومي ، نسبة الى (أدوم) (Edom) (Idumea) (Idumaea) ، وهم سكان جبل سدير ، الذين دعاهم (اويسبيوس) (Eusebius) باسم (Gabelene) أو (Gabalene) أي الجبليين^٣ .

فقد تمكن هذا الرجل الذي لم يكن من أسرة ملكية ولا من أسرة معروفة بفضل شخصيته وبقوته من فرض نفسه حاكماً على (أدوم) (Idumaea) ، ثم تمكن من جعل نفسه حاكماً (Procurator) على اليهودية (Iudaea) (Judaea) ، وذلك في حوالي السنة (٣٣) قبل الميلاد . وفي خبر ان (يوليوس قيصر) (Julius Caesar) ، اعترف به (Procurator) على اليهودية في حوالي السنة (٤٧) قبل الميلاد^٤ .

١ المكابيون الاول ، الاصحاح الحادي عشر الاية ١٥ وما بعدها

٢ Hastings, P. 20.

٣ Hastings, P. 345.

٤ Smith, A Dictionary of the Bible, I, P. 790. f. Josephus, Anti. Xlv, 7, 3.

ولما وقعت الحرب بين (يوناتان) المكابي (١٦١ - ١٤٣ ق. م.) و (ديمترتوس الثاني)، ضرب (يوناتان) العرب المسمين بالزبديين (Zabadaeans) وأخذ منهم غنائم كثيرة^١. حدث ذلك في سنة (١٤٤ ق. م.) . ويرى بعض علماء التوراة ان هذه القبيلة العربية قبيلة (زبد) (زبيد) كانت تنزل في موضع في شمال غربي (دمشق) ، ويرى بعض آخر احتمال ان ذلك المكان هو (الزبداني) ، الذي يبعد عشرين ميلاً من الشام على طريق دمشق بعلبك^٢ . وأرى ان من المحتمل أن يكون هؤلاء (الزبديون) هم سكان (زبد) ، وهو خرب في الزمن الحاضر ، يقع بين قنسرين ونهر الفرات . وقد اشتهر عند المستشرقين بالكتابة التي عثر عليها في هذا الموضع ، وقد كتبت باليونانية والسريانية والعربية، ويرجع تأريخها الى سنة (٥١١ م.) . وقد أدخلهم (يوسفوس) في عداد النبط^٣.

و (أرتاس زعيم العرب) الذي طرد (ياسون) من بلاده حينما التجأ اليه فاراً من الملك (أنطيوخس) ، هو (الحارث) أو (حارثة) وهو من ملوك النبط ، ولا شك . وقد ذكر اسمه في سفر المكابيين الثاني^٤.

وفي أيام (سترابون) كان العرب في جملة سكان مدن فلسطين، مثل القدس و (يافا) و (الجليل)^٥. وذكر (سترابون) ان (الأدوميين) (Idumaens) كانوا يقطنون الأقسام الغربية من (اليهودية) (Iudaea) ، وهم على حد قوله من (النبط) . ولما كان (سترابون) قد نقل كلامه من موارد أخرى قديمة ، فما ذكره يفيد ان العرب كانوا يقيمون في فلسطين قروناً عديدة قبل الميلاد .

وقد ذكر العرب في جملة الشعوب الساكنة في (أورشليم) يوم مرور الخمسين يوماً على المسيح . ويظهر من أعمال الرسل ان أهل القدس كانوا خليطاً في تلك الأيام من معظم شعوب العالم المعروفة يومئذ^٦.

-
- ١ سفر المكابيين الأول الاصحاح الثاني عشر الاية ٣١ فما بعدها
 - ٢ Hastings, P. 982, Beeton, Dictionary of Religion Philosophy and Law, P. 1809.
 - ٣ Anti. XIII, 5, 10, Beeton, Dictionary, P. 1809.
 - ٤ المكابيون الثاني ، الاصحاح الخامس الاية ٥ فما بعدها . Dubnow, II, S. 48,
 - ٥ قاموس الكتاب المقدس (٣٣١/١) .
 - ٦ أعمال الرسل ، الاصحاح الثاني ، الاية ٩ وما بعدها

وقد أطلق العبرانيون اسم (طيبة) و (طيابة) على العرب ، محاكاةً لبني إرم . فتجد اللفظة في (التلمود) وفي كتابات العبرانيين المدونة في القرون الأولى للميلاد . وقد أخذ الاسم (طيبة) و (طيابة) من (طيء) اسم القبيلة المعروفة ، على نحو ما ذكرت في الفصل الأول :

وقد ذكرت في (المدراس) قبيلة عربية عرفت بـ (سوجي) ، لعله (سواجر) ، أو ما شابه ذلك من أسماء^١ .

وفي التوراة مصطلحات يرى العلماء أنها كناية عن العرب . ففيها مصطلح (بني قديم) (Bene Kedem) ، ومعناه : (أبناء الشرق) ، ويقصد به الساكنون شرق العبرانيين ، أي سكان بادية الشام ، وهو في معنى (شركوني) (شرقوني) ، أي الساكنون في المشرق . وهم كما نعلم قبائل عديدة من العرب سكنت هذه البادية قبل الميلاد بمدة لا يعلمها إلا الله . وقد يكون من بين هؤلاء أقوام من الآراميين^٢ :

وقد وصفت التوراة بعض عادات العرب وزسومهم ، كما تعرفت لتجارهم : ولما كانت (فلسطين) امتداداً طبيعياً لجزيرة العرب ، وجزء منها ، وكانت على طريق مصر وبلاد الشام وعلى ساحل البحر المتوسط ، صارت سوقاً مهمة للتجار العرب وللأعراب ، يأتونها لبيع ما عندهم من سلع ، وأهمها أنواع الطيب والذهب والحجارة الكريمة والأغنام والأعتدة وحاصلات بلاد العرب الأخرى^٣ ، كما كانوا يشترون من أسواقها ما فيها مما يحتاجون إليه من حاصلات حوض البحر المتوسط وبلاد الشام وفي جملة ذلك الرقيق .

وورد في (التلمود) اسم صنم عربي دعي (نشرا)^٤ ، ويقصد به (نسر) ولا شك . وهو من أصنام العرب المعروفة . وقد ذكر (ابن الكلبي) أن حمير تعبدت لنسره^٥ . كما أنه ذكر في (التلمود) أيضاً (حج الأعراب) ، وذكر أن مواسم حجهم كانت تتغير بتغير فصول السنة^٦ . وقد تعرض للأحكام الشرعية

١ إخبارائي (٧/٣)

٢ Hastings, P. 200, The Bible Dictionary, I, P. 177.

٣ حزقيال ، الأصحاح السابع والعشرون ، الآية ٢١ وما بعدها .

٤ عبودة زارة ١١ ب .

٥ الأصنام (ص ١١ ، ٥٧)

٦ عبودة زاره ١١ ب ،

الخاصة بدخول البيوت ، فذكر انها لا تنطبق على خيام العرب ، لأنها متقلة ، فلا تستقر في مكان واحد^١ . كما ذكر ان من عادة نساء العرب التحجب عند خروجهن الى المحال العامة^٢ . ولعله يقصد بذلك نساء المدن ، وذكر ان من عادة الرجال وضع اللثام على وجوههم في أثناء السفر لوقايتهم من الرمال^٣ ، وأشار الى أن للعرب مقدرة فائقة في معرفة مواضع المياه في الصحراء بمجرد شم الرمال^٤ . وورد في (المشنة) (المشنا) ان أغلب طعام العرب من اللحوم^٥ .

وقد ورد في (السهدين) ، أن أحد اليهود قص^٦ على الخبر (حية) (R. Hiyya) ، أنه رأى مسافراً عربياً أخذ سيفاً بيده فقطع به جملاً قطعاً ، ثم أخذ (جرساً) فدق به ، فنهض الجمل حالاً ، وكأنه لم يقطع إرباً ، فقال له الخبر ، إن ما حدث هو نوع من الخداع^٦ .

ونجد في (السهدين) كلاماً لـ (ربه بن برحنه) (Rabbah B. Bar Hana) يروي فيه ، أنه كان مسافراً ، وفي أثناء سفره التقى به عربي ، فقال له : تعال معي وسأريك الموضع الذي انشقت به الأرض وابتلعت جماعة (القورحين) (قورح) (Korah) . فذهب معه اليه ، ورأى به دخاناً . ثم أخذ العربي قطعة من صوف وبلتها بالماء ، ثم وضعها على رمح له ، ثم أدخلها الموضع فاستشاطت بالنار . ثم قال للعربي اصنع الى المكان ، لعلك تسمع شيئاً فيه . فسمع أصواتاً تقول : (موسى وتوراته على الحق ، أما القورحيون فهم كذّابون) ثم قال له في كل ثلاثين يوماً يتحول هؤلاء في جهنم (Gehenna) ، تحول اللحم في القدر ، وهو يقولون : (موسى وتوراته على حق ، أما هم ، فهم كذّابون)^٧ .

ونجد قصة هذا الخبر في (بابا بثرا) (Baba Bathra) ، حيث يقول :

١ هـ ٢٨ : ١٠

٢ شبت ٦ : ٦

٣ موعيد قطان ٢٤ ، ومشنة كليم ٢٩ : ١

٤ بابا بثرا ٧٣ ب

٥ مناخوت ٣٦ ب

٦ Sanhedrin, 67b, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, III, P. 460, Translated by, Rabbi I. Epstein.

٧ Sanhedrin 110a, 110b, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, III, P. 757.

قاموس الكتاب المقدس (٢٢٦/٢) «قورح» .

لقد كنا في سفر في صحراء ، فالتقى بنا تاجر عربي ، وكان ممن يستطيع التنبؤ بمواضع المياه وبالأبعاد وبالطرق من شَمّ التربة ، فأردنا الاستفسار منه عن أقرب مكان الينا فيه ماء . فقال لنا : أعطوني رملاً فأعطي ، فشمه ثم قال أقرب مكان اليكم فيه ماء هو على بعد ثمانية فراسخ (Parasangs) ثم سرنا وأردنا الاستفسار ثانية منه ، فقدمنا له رملاً ، شمه ثم قال لنا الماء على بعد ثلاثة فراسخ من هذا المكان . ثم حاول هذا الحبر اختباره لمعرفة مدى صدقه من كذبه ، فأبدل الرمل ، فلما قدم اليه رملاً آخر . لم يستطع أن يقول شيئاً^١ .

ويقص علينا قصة أخرى يزعم أنها وقعت له مع هذا التاجر العربي ، حيث يقول انه قال له : تعال معي أريك (أموات التيه) ، أي الإسرائيليين الذين ماتوا في التيه في طريقهم إلى أرض الميعاد . فذهب الحبر معه ، ورأى الأموات وكأنهم في حالة فرح وسرور ، وقد رقدوا على أظهرهم ، ثم يقول : وقد رفع احد هؤلاء الأموات ركبته ، ومرو التاجر العربي من تحت تلك الركبة ، وقد كان حاملاً رجه راكباً بعيره ، ومع ذلك فإن رجه لم يمس رجل الميت . ثم يقول وقد ذهبت إلى أحد الأموات الراقدين فقطعت جزءاً من ذيل رداثة الأزرق العميق ، وعندما حاولت الرجوع ، لم أتمكن من الحركة وبقيت ثابتاً في مكاني ، فقال له العربي : إذا أخذت شيئاً من هؤلاء فأرجعه إلى محله ، وإلا فلأنك ستبقى ملتصقاً في مكانك، لأن من يتناول على حرمة الراقدين فيأخذ شيئاً منهم، يجمد في مكانه ، ولا يستطيع التحرك . فذهبت وأرجعت القطعة وتمكنت عندئذ من السير^٢ .

ثم يذكر أن هذا التاجر العربي أخذه إلى جبل الطور (جبل سيناء) (Mount of Sinai) فأراه إياه ، ثم أخذه إلى الموضع الذي انشق بالقورحين ، جماعة (قورح) ، فأراه شقين في الأرض ، ووجد الدخان لا يزال يخرج منهما ، ثم يذكر أنه أخذ قطعة الصوف وادخلها هو بنفسه ، ثم أخرجها وإذا بها وقد علقت بها النار، ثم يقص باقي القصة على نحو ما جاء في (السندهرين)^٣ . ونجد في (مينحوت) (Menahoth) فتوى تتعلق في نجاسة أو طهارة قُرْب

١ Baba Bathra, 73b, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, Baba Bathra, P. 292.

٢ Baba Bathra, 74a, The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, II, P. 292.

٣ Baba Bathra, 74a, Seder Nezikin, II, P. 293-294.

الماء . وقد ورد في هذه الفتوى ، أن القرب التي تشد وتعدد بعقدة تكون طاهرة ، إلا اذا عقدت بعقدة عربية . فلئلا تكون نجسة ولا يحل الشرب منها^١ . ونجد هذا البحث مرة أخرى في مكان آخر من (المشنة) في كتاب الد (قليم) (Kelim) ، أي (كتاب الأواني والأوعية) من (كتاب الطهارة) ، حيث عرضت آراء الأخبار في قرب الماء وفي كيفية عقد عقدها لمدة طويلة أو لمدة قصيرة ، ومن حيث شدة العقدة أو رخاوتها ، وتأثير ذلك في طهارة الماء . فأشير إلى قرب ماء العرب وموقفهم من الشرب منها . أو من الاستفادة من مائها وهل يعد مأوها طاهراً أو نجساً في الشريعة اليهودية ؟ وقد جاءت آراء الأخبار متباينة في ذلك^٢ : ويظهر أن اتصال العرب باليهود اتصالاً وثيقاً بالعراق ، وسكن اليهود بين العرب في بلاد العرب ، أثار امام اليهود هذه المشكلة الفقهية ، فهم مضطرون دائماً إلى الاتصال بالعرب وإلى شرب الماء منهم ، فظهرت من ثم عندهم هذه المشكلة ، وكان على الأخبار بيان رأيهم في طهارة ماء القرب ، وقرب العرب منها بوجه خاص ، لما في ذلك من علاقة بقضية الطهارة والنجاسة ومكانتها في فقه يهود .

وفي موضع آخر من كتاب (الأواني والأوعية) (Kelim) ، بحث عن جواز أو عدم جواز ارتداء بعض الأردية وموقف الشريعة من أكسية الرأس وأغطية الوجه والجسم ، فبحث في جملة ما بحث عنه ، عن القناع الذي يصنعه العرب على أوجهم وعن ثلثهم به ، فهل يجوز لليهودي شرعاً أن يفعل فعل العرب أم لا^٣ .

وقد استثنت (المشنة) في كتاب (أو حولت) أي (الخيام) ، عشرة مواضع من تطبيق أحكام الشرع عليها ، بخصوص طهارتها أو نجاستها لكون ساكنيها من الوثنيين . وقد ذكرت مضارب خيام العرب على رأس هذه المواضع العشرة التي لا تخضع لحكم الشريعة في موضوع حكم طهارتها أو نجاستها . وذلك لأن مضارب البدو غير مستقرة ، إذ أن الأعراب يتنقلون من مكان إلى آخر . لذلك لا يمكن تطبيق الأحكام الشرعية التي تطبق على العقار الدائم عليها في

Menahoth, 37b, p. 231, Translated by Eli Cashdan. ١

The Mishnahs, Kelim, P. 124. ٢

The Mishna Kelim? P. 138. ٣

موضوع نجاسة الأثاث والأواني وكل شيء يكون تحت الخيمة التي يموت فيها إنسان ، ولأن أصحابها غير يهود^١ .

وقد أشير في (مينحوت) (Menahoth) الى موضوع تقديم طعام مطبوخ في موقد عربي ، هل يقبل أو يرفض . فأشار بعض فقهاء الشريعة اليهودية الى عدم جواز الأكل من ذلك الطبخ^٢ .

ونجد في (بابا بئرا) (Baba Bathra) ، ان الحبر (ماير) (R. Meir) يستثني النبط والعرب والسلمونيين (Salmoeans) من الوعد الذي أعطاه الله لموسى حين أراه الأرض الموعودة^٣ . ويظهر ان (السلمونيين) ، هم قبيلة من القبائل العربية الشمالية^٤ . لعل لاسمهم علاقة بـ (سلمان) .

وقد ورد ذكر العرب في كتاب الحيض (نده) (Niddah) من كتاب (الطهارة) في الفقه اليهودي . وذلك في موضوع العبدية وهل يجوز الاتصال بها ، أو لا يجوز ، على اعتبار انها خصصت لأداء الأعمال لا للاتصال الجنسي . وقد أجاز الحبر (شيشث) (R. Shesheth) ايداع العبدية أي المملوكة الى العرب ، على أن يقال لهم احترسوا من الاتصال بالإسرائيليات^٥ .

وفي التلمود والمشنة والكمارة مسائل فقهية أخرى عديدة يخرجنا ذكرها هنا من حدود هذا الموضوع تتعلق بموضوع صلات العرب واليهود . في مثل موقف الشريعة اليهودية من ذبائح العرب ، وهي التي يذبحها اليهود للعرب في مقابل إعطائهم اللحم ليقدم العرب دمها وشحمها للأصنام^٦ .

وموقف الشريعة من المرأة التي يأسرها الأعراب ثم تعاد بعد ذلك الى أهلها بعد فك أسرها، هل يجوز للحبر أو لغيره التزوج منها أو لا؟ أو موقف الشريعة من المملوكة اليهودية التي تكون في ايدي العرب ، من حيث احتمال دخول العرب بها^٧ . أو موقف الشريعة من الحبوب او المواد الأخرى التي تقس بين روث

The Mishnahs, Oholoth, P. 228. ١

Menahoth, 63a, Menahoth, P. 372. ٢

Baba Bathra, 56a. ٣

The Babylonian Talmud, Seder Nezikin, P. 227. ٤

Niddah 47a, The Babylonian Talmud, Seder Tohoroth, P. 328. ٥

The Babylonian Talmud, Seder Kodashim, II, Hullin, P. 214, Hullin, 39b. ٦

The Babylonian Talmud, Seder Nashim, II, P. 199, Kethuboth, 36b. ٧

ماشية العرب^١ ، أو دخول إبل العرب في (كثوبة) (Kethubah) يهودي^٢.
أو موقف اليهودي من المرأة^٣ . أو موضوع نظر اليهودي الى عضو من جسم
امرأة عربية ، مثل صدرها حينما يمر في مكان ويراها وقد كشفت عن صدرها
لترضع رضيعها^٤ ، أو موقف الشريعة اليهودية من المختلطين العرب^٥ .
ونجد في باب (الشهادات) (الوثائق) (كطين) (خطين) (Gittin)
قولاً لأحد الأحبار يقول : ان امرأة عربية جاءت الى أحد اليهود تحمل كيساً
فيه تعاويذ لبيعها ، فقال لها اليهودي اعطيك تمرتين عن كل تعاويذتين. فاغتازت
المرأة ورمت ما حملته في النهر . فندم اليهودي وقال وددت لو لم أكن قد أعطيتها
هذا العوض الرخيص^٦ .

وقد نشأت هذه المعضلات الفقهية من اختلاط اليهود بالعرب في فلسطين وفي
الأماكن التي هاجروا اليها من بلاد العرب من جراء ضغط الرومان عليهم ،
وعدم تمكنهم من ممارسة عبادتهم في البلاد الخاضعة للحكم الروماني بسهولة وبحرية
تامة ، فهاجر كثير منهم الى أعالي الحجاز والى العراق حيث اختلطوا بالعرب
وعاشوا بينهم في مثل (الأنبار) و (فومبيثة) و (زقونية) و (زكونية) (Zekonia) ،
وهو موضع على مقربة من (فومبيثة)^٧ . وموضع (بمكسه) (Be-Mikse)^٨ ،
(نهر دعة) (Nehardea) وسورا (Sura) وأماكن أخرى من العراق .
وقد كان ليهود الفرات اتصال وثيق بالعرب وكانوا يعيشون معهم في كثير من
الأماكن ويتاجرون معهم . وكون اليهود لهم (كالوتا) أي (جالية) عاشوا
فيها متمتعين بشبه استقلال ذاتي ، يدير رؤساؤهم (كالوتاتهم) ، ويكونون
هم الممثلين لأتباعهم أمام السلطات صاحبة النفوذ الفعلي، كما كانوا يعقدون أحلافاً
مع الأعراب على طريقة أهل المدن والحضر في عقد موثيق مع سادات القبائل
لمنع الأعراب من غزوهم ومن التحرش بأموالهم وتجاراتهم .

-
- | | |
|--|---|
| Kethuboth 66b, II, P. 405. | ١ |
| Babylonian, Seder Nashim, II, P. 408. | ٢ |
| Babylonian, Seder Nashim, II, P. 452. | ٣ |
| Babylonian, Seder Nashim, II, 472, Kethuboth 75a. | ٤ |
| Yebamoth 71a, Babylonian, I, P. 479. | ٥ |
| Gittin, 45b, Babylonian, Seder Nashim, IV, P. 200. | ٦ |
| J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonian, S. 234, Hullin, 39b. | ٧ |
| Yebamoth, 45a, Babylonian, Seder Nashim, I, P. 295, Obermeyer, S. 334. | ٨ |

وأود ان أشير هنا الى أهمية (التلمود) و (المشنة) و (الكماره) ، بالنسبة لتأريخ العراق ، ففي أبوابها بحوث قيّمة عن مدن العراق وجغرافية العراق في عهد تدوين هذه الكتب ، وهي تمتد لمئات من السنين . ففي (القيدوشين) مثلاً ، أسئلة وأجوبة عن (اقليم بابل) وعن (ميسان) (Mesene) وعن (ميديا) ، وقد وردت فيها أسماء مدن وأنهار وقرى وغير ذلك مما يساعد كثيراً في فهم جغرافية العراق في عهود ما قبل الميلاد وما بعده^١ .

وقد تساهل الفرس في الغالب مع اليهود ، فنحوهم استقلالاً ذاتياً واسعاً في ادارة شؤون مستوطناتهم وفي ممارسة طقوسهم الدينية وفي الاتجار ، حتى صارت كل مستوطنة تدير شؤونها بنفسها وتختار حاكمها بنفسها ، حتى ان بعضها وضعت على رأسها حاكماً يهودياً لقبته بـ (ملك) ، أدار شؤون الجالية طبقاً لأحكام يهود . وكان هؤلاء الحكام هم الصلة بين اليهود وبين الفرس . وقد صارت بعض هذه المستوطنات من أهم المراكز العلمية عند اليهود في العالم ، وفي ضمن ذلك فلسطين . وفي هذه المواضع دون (التلمود البابلي) ، دونه أحبارهم الذين استقروا في العراق . وهو يعد من أثنى التراث العبراني الذي ظهر عند اليهود . وقد تأثر بالروح العراقية حتى امتاز بها على التلمود الأورشليمي ، أي التلمود الذي كتب في فلسطين .

وقد لاقى اليهود مساعدة حسنة من العرب ، وعوملوا معاملة طيبة . ويظهر من مواضع في التلمود والمشنة ، أن العبرانيين فروا الى جزيرة العرب منذ أيام (بنجت نصر)^٢ . وقد تأثر اليهود النازحون الى جزيرة العرب بعادات العرب ورسومهم . ويحدثنا (أبا أريخا) من الأحبار وكبار علماء التلمود في القرن الثالث الميلادي ، أن اليهود كانوا يؤثرون حكم الإسماعيليين ، ويقصد بهم العرب ، على الرومان ، ويؤثرون حكم الرومان على حكم المجوس^٣ . ومع ذلك ، فقد حدث خصام بين العرب واليهود ، فنجد في (التلمود) مواضع يظهر فيها حقدهم على العرب وكرهيتهم لهم . كالذي يظهر من كلام (الحبر يشوعه بن ليفي)^٤ (يشوعه بر ليفي) ، حين رأى أكواماً من العنب مكدسة ، فقال : (يا للبلاد

Keddushin 71b. ١

The Universal Jewish Encyclopedia, I, P. 439. ٢

Shabth IIa. ٣

R. Joshua b. Levi. ٤

يا للبلاد) . لمن هذه ، لأولئك العرب (الوثنيين)^١ الذين ثاروا علينا لخطيتنا^٢ .
وكالذي يظهر من كتاب (قدوشين) (Kiddushin) ، حيث ورد ، (أعطي
العالم عشرة (قابات) من الوقاحة ، خص العرب بتسع منها)^٣ . وفي هذا
الكلام دليل على تطاول العرب على اليهود في المواضع التي كانوا يعيشون بها
معاً . وحقد اليهود عليهم من أجل ذلك .

ونجد في الأخبار السريانية والعبرانية أخبار غارات وغزوات قام بها عرب
العراق على الجاليات اليهودية التي انتشرت من (بابل) وماجاورها حتى جاوزت
شمال (عانه) على نهر الفرات . وقد ازعجت هذه الغارات اليهود الذين حولوا
هذه الأرضين الى أرض سادتها وغلبتها حتى صيرتها على شاكلة (وادي القرى)
عند ظهور الإسلام . فاضطروا الى تحصين مستوطناتهم وأحاطتها بأسوار وإلى
تشكيل قوات تقوم بحمايتها ليل نهار حتى في أيام السبت والأعياد اليهودية ، مع
تحریم الشريعة اليهودية العمل يوم السبت . وأباح الأخبار لهذه القوات حمل السلاح
في أيام السبت وفي أيام العطل حتى تكون على استعداد للدفاع عن تلك المستوطنات
في أية لحظة يشن فيها الأعراب غاراتهم عليها، إذ يحتمل أنها تقوم بقتل اليهود^٤ .
وقد تعرض الرعاة اليهود الذين كانوا يخرجون بماشيتهم من مستوطناتهم الى
البرية أو الى ضواحي مستوطناتهم الى غارات الأعراب عليهم ، وسلبهم ماشيتهم^٥ ،
كما تعرض اليهود الى الأسر ، فأسر عدد منهم ، نساءً ورجالاً . حتى سلبوا
وأسروا بعض الأخبار ، لذلك كانت الجاليات اليهودية تخشى من الأعراب كثيراً^٦ .
وقد تعرضت مدينة (نهردعة) (Nehardea) الى الغزو وذلك سنة (٥٧٠) من
التقويم السلوقي الموافقة لسنة (٢٥٩) للميلاد. فقد غزاها كما تقول الأخبار اليهودية
سيد قبيلة عربية ، اسمه (بابابر نصر) (بابا بن نصر) (Papa Bar Nasr) ،
وألحق بها أضراراً فادحة، وخرب بعض أماكنها ، وقد هرب منها بعض أخبارها
الى مستوطنات يهودية أخرى^٧ . وقد ذهب المؤرخ اليهودي (كريتس) (Graetz)

١ الوثنيون في طبعة (Bomb)

٢ Kethuboth 112a, Babylonian, Seder Nashim, II, P., 225.

٣ القاب (Kab) وحدة من وحدات الوزن Kiddushin 49b, Babylonian, Seder Nashim, IV, P., 249.

٤ 'Erubin 45a.

٥ Baba Bathra 36a.

٦ Koheleth 7, Citti 23a.

٧ Obermeyer, S., 254. ff.

الى أن هذا الأمير العربي المهاجم هو (أذينة) ملك تدمر وزوج الملكة الزباء^١. غير أن اشتهار ملوك الحيرة عند العرب بـ (آل نصر) وقرب الحيرة من مدينة (نهر دعة) واتصال عربها بالجاليات اليهودية يحملنا على التفكير في أن المهاجم هو أمير من أمراء (آل نصر) . ملوك الحيرة ، وهم حلفاء الفرس .
وورد في الأخبار أيضاً أن مدينة (فومبديشة) (Pumbaditha) تعرضت للغزو أيضاً ، وهي من أمهات مدن الجاليات اليهودية . هاجمها جيش جاءها من (عاقولاء) ويظهر أنه من قوات (آل نصر) ملك الحيرة^٢ .

وقد كانت مدينة (فومبديشة) ، غاطة بالأعراب . ولذلك كانوا يتعاملون معهم ، ويأتون اليهم ويلبسون عندهم . وقد جاء في الأخبار أن أحبارها قد أباحوا لأهلها التعامل مع الأعراب في أيام أعيادهم ، أي أعياد الأعراب . وذلك لأن أعياد الأعراب لم تكن ثابتة ، تحل في وقت معين وفي مواسم متباعدة ، لذلك جوسزوا لهم البيع فيها . لأن أحكام التلمود تمنع اليهود من التعامل مع الغرباء في أيام أعيادهم إذا كانت تلك الأعياد أعياداً دينية .

ولما كانت الشريعة اليهودية لا تعتبر العيد عيداً مقدساً دينياً إلا إذا كان يقع في أوقات ثابتة معينة لا تتغير ولا تتبدل في التقويم ، لذلك أفتى الأحبار بعدم اعتبار أعياد الأعراب أعياداً دينية ، وأباحوا لأهل المدينة التعامل مع المعبدن في أيام أعيادهم :

ولاً^٣ لما كان يحل لهم بيع الأعراب شيئاً في أيام تبيدهم . وقد باعوا لهم خمرًا وحبوباً . أما بالنسبة الى أعياد الفرس والروم ، فقد منع التلمود اليهود من التعامل مع الفرس أو الفرس فيها ، لأنها أعياد ثابتة وقد نص على مواعيدها ، وأشير إليها في التلمود ، لذلك، طلب من اليهود الامتناع عن بيع الفرس والروم شيئاً في أعيادهم^٣ .

ويذكر التلمود ان الأعراب (طيعه) (طية) (طياه) ، المجاورين لموضع (صقونية) (Sikunya) ، طلبوا من أهلهم وهم يهود أن يلبحوا لهم ذبائح في مقابل اعطائهم لحومها وجلودها ، أما دمها فيجمع ويعطى للأعراب وذلك

١ Gratz, Geschichte der Juden, IV, 295.

٢ Obermeyer, S., 223.

٣ Obermeyer, S. 234.

لتقديمه لأربابهم . وكانت عاداتهم تلطيخ أصنامهم بدم القرابين^١ .
وقد عرف الأعراب بـ (طييعه) في التلمود . أما السريان والموارد اليهودية
الأخرى المدونة بالسريانية ، فقد أطلقوا وأطلقت على الأعراب لفظة (طييعه)
(طيايا) ، وذلك باسقاط حرف العين من الكلمة : (طييعه) والكلمتان من
أصل واحد ، هو (طيء) اسم القبيلة العربية المعروفة . وقد كانت في أيام
تدوين التلمود من أقوى وأشهر القبائل العربية ، حتى غلب اسمها سائر أسماء
القبائل ، فأطلق على كل عربي كائن ما كان^٢ .
وأطلقت لفظة (عربايه) في كتاب من كتب التلمود ، على العرب المزارعين
الذين استقروا على مقربة من (فومبديثة) . وذكر التلمود ان اولئك العرب
المزارعين كانوا قد انتزعوا مزارع اليهود بما فيها من أبنية وأملاك ، وأقاموا بها ،
ولهذا السبب ، فقد ذهب اليهود الى حبرهم وقاضيتهم (ابيه) (Abaya) ،
وطلبوا منه اعطاءهم وثائق تملك أخرى ، حتى يكون في إمكانهم مراجعة السلطات
لإثبات ملكيتهم لأملاكهم التي انتزعت بالقوة منهم^٣ .
وقد نزع يهود من فلسطين الى الحجاز ، فسكنوا وادي القرى حتى نزلوا
(يثرب) ، وذهب قسم منهم الى اليمن ، كما سأتحدث عن ذلك فيما بعد .

Obermeyer, S. 234. ١

Obermeyer, S. 233. ff. ٢

Baba Bathra, 168b, Obermeyer, S. 235. ٣

فهرست

٥	مقدمة
١٣	١ : تحديد لفظة العرب
٣٧	٢ . الجاهلية ومصادر التأريخ الجاهلي
٤٢	موارد التأريخ الجاهلي
٤٤	النقوش والكتابات
٤٦	تأريخ الكتابات
٥٣	التوراة والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية
٥٦	الكتب الكلاسيكية
٦١	الموارد النصرانية
٦٥	الموارد العربية الاسلامية
٧٣	المؤرخون المسلمون
١٠٧	٣ : اهمال التأريخ الجاهلي واعادة تدوينه
١٢٣	تدوين التأريخ الجاهلي
١٤٠	٤ . جزيرة العرب
١٤٥	الحرار ، أو الأرضون البركانية
١٥٠	الدهناء
١٥٢	النفود
١٥٣	مصدر الصحارى
١٥٥	الدارات
١٥٦	الجبال
١٥٧	الأنهار والأودية
١٦٣	أقسام بلاد العرب
١٦٤	العربية السعيدة

١٦٤	العربية الصحراوية
١٦٦	العربية الحجرية ، العربية الصخرية
١٦٧	التقسيم العربي
١٧٠	تهامة
١٧٠	اليمن
١٧٤	العروض
١٧٨	اليامة
١٨١	نجد
١٨٦	٥ . طبيعة جزيرة العرب وثرواتها وسكانها
٢٢٠	الطرق البرية
٢٢٢	٦ . صلات العرب بالساميين
٢٢٩	وطن الساميين
٢٤٠	الهجرات السامية
٢٥٤	اللغة السامية الأم
٢٥٦	العقلية السامية
٢٦١	٧ . طبيعة العقلية العربية
٢٩٤	٨ . طبقات العرب
٢٩٨	العرب البائدة
٣١٠	هود
٣١٤	لقمان
٣٢١	ثمود
٣٣٤	طسم وجديس
٣٣٦	جديس
٣٤٠	أميم
٣٤٣	عيبيل
٣٤٥	جرهم الأولى
٣٤٥	العاقلة

٣٤٧	حضورا
٣٥٣	هلاك العرب البائدة
٣٥٤	٩ . العرب العاربة والعرب المستعربة
٣٥٤	العرب العاربة
٣٧٥	العرب المستعربة
٣٩٠	عك
٣٩٢	أولاد معد
٣٩٤	نزار
٤١٠	١٠ . أثر التوراة
٤٣٣	الاسماعيليون
٤٥٩	أبناء كوش
٤٦١	المهاجرون
٤٦٦	١١ . أنساب العرب
٤٩٣	الفحطانية والعدنانية في الاسلام
٥٠٧	العرب العاربة والعرب المستعربة
٥٠٩	١٢ . طبقات القبائل
٥١٤	الانساب
٥١٨	(الطوطمية) ودور الأمومة عند العرب
٥٢١	دور الأمومة
٥٢٥	أصول التسميات
٥٢٩	١٣ . تأريخ الجزيرة القديم
٥٦١	دلون
٥٧٣	١٤ . العرب في الهلال الخصيب
٥٧٤	العرب والآشوريون
٦٠٧	١٥ . صلة العرب بالكلدانين والفرس
٦٢٩	١٦ . العرب والعبرانيون